



گری

رائد عصمت حسن زلفو



٢٠٦٩ ٤٦١

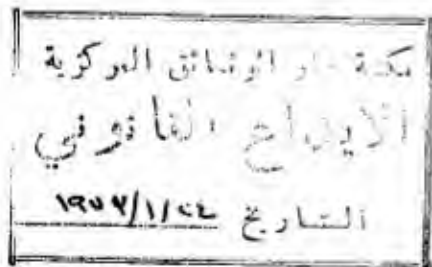
٩٦٢٨

١٩٧٢/١/٥٤

كررى

تحليل عسكرى لمعركة أمدرمان

رائد عصمت زلفو



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الغلاف نصيم : رقيب أول ابراهيم سليم
الحرائط : إعداد المؤلف

الطابعون
دار الطباعة
دار التأليف والترجمة والنشر
جامعة الخرطوم

اهـداء

الى عشرة آلاف رجل سالت دماؤهم الغالية ، رخيصة وهم
يلودون عن حياض وطنهم ، فى أربع ساعات من الزمان ،
وفى بقعة من الأرض لم تتجاوز أربعة من الأميال
الى شهءاء كـرى . . .

المحتويات

صفحة

١ - تقديم	٧
٢ - مقدمة	٩
٣ - الباب الاول - الثورة -							
الفصل الاول - العاج الابيض.. والعاج الاسود	٢١						
الفصل الثاني - الامام المقاتل	...	٤٤					
الفصل الثالث - الدعوة والدولة	٨٦						
٤ - الباب الثاني - الغزو -							
الفصل الاول - الحمل والذئاب	١٧٣						
الفصل الثاني - السردار يتقدم ..	١٩٣						
الفصل الثالث - الشريان الحديدي .	٢١٩						
٥ - الباب الثالث - المعركة -							
الفصل الاول - القيادة	...	٢٤٩					
الفصل الثاني - الجنود	...	٢٨٥					
الفصل الثالث - السلاح	...	٢٩٣					
الفصل الرابع - الحشد	...	٣١٣					
الفصل الخامس - العدو	...	٣٥٥					
الفصل السادس - التقدم	...	٣٧٩					
الفصل السابع - ليلا ام نهارا	٤٠٣						
الفصل الثامن - الليلة الاخيرة	...	٤١٧					
الفصل التاسع - الخطه	...	٤٢٥					
الفصل العاشر - المرحلة الاولى	...	٤٤١					
الفصل الحادى عشر - الصدام	...	٤٨١					
الفصل الثاني عشر - المرحلة الثانية	...	٤٩٩					

٥٤٣	الفصل الثالث عشر - المدينة المحرقة
٥٥٣	الفصل الرابع عشر - نهاية المطاف
٥٧٣	الفصل الخامس عشر - استراتيجية الخليفة

٦١١	٦ - المصادر
٦٢٣	٧ - تذييل
	٨ - ملاحق :

٩ - الملحق أ : صورة لأحد تقارير مخابرات عبد الباقي .

١٠ - الملحق ب : خطة الخليفة في يومية المخابرات قبل ثلاثة أيام من المعركة

١١ - الملحق ج : الخريطة الأصلية لمعركة أمدرمان التي أرفقها السردار في تقريره الرسمي للقيادة البريطانية .

١٢ - الملحق د : التقرير الاصلى لاستشهاد الخليفة بأم ديكورات الذى كتبه ونجحت.

في مثل هذا اليوم من كل عام، وعندما غفلت بذكرى ذلك اليوم الذي عرفت
 انانية لحرية وعقيدة الله تعالى، انما غفلت بسلسلة طويلة من الفكريات فغرب
 جذورها بعيداً في الزمان الى الماضي السحيق في الله صلياً حيث تغافلت وطردت الى ما
 لا يدركه العقل اذ ارضى الله في انفسنا السوء انية الجميلة الطاهرة نأرمو الى اصيل
 فناء الحرية والله تعالى اعلم بالصواب.

من هذا التاريخ الحظ الحظ الذي لا ينسى كانت ملحمة من الملل التي
 قالها صيحاتي الى (كري) معلنة الحرية ومعلنة اية الله تعالى وخلوه،
 ومعلنة له لا كمالاً، لا سخافة له لا لاله الا الله لا ائمة على كل شئة ورنه
 على كل سما.

هؤلاء اسلافنا عملوا لحرية السوء انية مخففة بخرق وعصية وانحلال
 ومن هذا المثل الذي يرى ايماناً في ولاء ايماننا عمل المستعمل وضاد تنقلت
 لنزغ عنه الوطش الى استعانة الغنى زلنا الى التمسك.

وهذا هو الشعب الذي لا يري الا الله من ايماننا بالتمسك والنية النورية، وهو بنا
 على انفسنا الى الرأى المستعجل حاضراً الى مشروء، ونفلكو مستقبلنا الوفاء فله بنا الشكر
 والشكر وليكن مستعمل نور زلالته ومولاه في الله الخوفه.

للأ. (أ. جعفر محمد غزالي)

وزير الدفاع والقائد العام

٢١٩٧٣/١/١

تقديم

فى أكتوبر ١٩٧٠ شرفنا السيد الرئيس بزيارة تفقدية بفرع التدريب وكنا نعد لأول امتحان دخول لكلية القادة والاركان السودانية .

لقد استرعى انتباه السيد الرئيس ان المطلوب فى ورقة التاريخ العسكرى « معركة كررى » وهنا بدأ يناقش معنا اهمية المعركة وأهمية تحليلها من وجهة النظر العسكرية وتقييمها بطريقة منطقية ، ثم وجه بتقديم كافة التسهيلات لمن تناط به هذه المسؤولية لاداء هذا الواجب الوطنى الكبير .

من ذلك التوجيه الكريم ومع ايماننا بأهمية التراث الحربى السودانى ، بدأنا نفكر فيمن يقوم بهذه المسؤولية الجسيمة والتي تتطلب الحيوية والعمل المتواصل والقدرة التحليلية وامكانية الاستنباط والاستنتاج وأخراج الحقائق من مخابنها فى الداخل أو الخارج .

لم تواجهنا صعوبة ، اذ وقع اختيارنا على الزميل الرائد عصمت حسن زلفو والذي اعجبنا كتاباته فى المجلة العسكرية عن ابو الدروع « جودريان » ويومها كنا نعتقد انه اذا استمر على ما هو عليه فسيقدم لزملائه الكثير وما هو اليوم - لم يخيب ظننا - يقدم لنا موسوعة تاريخية نحن فى امس الحاجة لها .

ولقد كان لى شرف الاطلاع على كل اجزاء الكتاب قبل طبعها وهى مسودة ، فوجدتها دراسة مستفيضة وعميقة . ودون اطراء ، استطع القول بأن القارى أو الباحث العسكرى سيجدان فيها متعة ولن يملا قراءتها عديد المرات وذلك للأسلوب الذى عالج به الكاتب الفصول المختلفة والطريقة التى سرد بها الحوادث والاستدلالات التى اشار اليها من المراجع المختلفة ولتبويب الكتاب فى فصول مستقلة تمكن القارى من قراءة فصل دون الآخر .

كل ذلك سيجعلنا نقيم الجهود التى بذلها لقراءة العامين ، وهو يواصل البحث والسؤال ليلا ونهارا . فلم يترك دارا للوثائق ، ولا سمع عن شخص له معرفة بالمعركة أو كان له شرف المبادرة فى تسجيل شىء عن المهدية ، إلا وزاره وتحدث اليه وسجل منه . وقد ذهب لاكثر من ذلك فزار فى السودان غربيه واوسطه ، واجتمع بمن مد الله فى عمرهم أو بمن خلف اباؤهم واجدادهم تراثا أو مخطوطات أو ذكريات ، وتفقّد مواقع المعركة وآثارها وتحدث لحياتها بام درمان واحفادهم . وزار بريطانيا حيث سهلت له القيادة العامة ذلك ، فكان من رواد المتاحف والمكتبات العسكرية البريطانية وقد جاء منها بالكثير .

مقدمة

المعرفة العسكرية معرفة غالية ، فثمن تحصيلها الباهظ دفع بالدم البشري المسكوب عبر الأجيال والقرون . وهي تختلف قليلا عن بقية العلوم في وسائل تحصيلها ، فنظرياتها وأسسها لا يمكن أن تستمد الا من الواقع والخبرة العملية . والتاريخ العسكري مثل ذلك النبع الذي لا ينقذ من حصيلة التجارب العملية ، واليه دائما نلجأ لنغترف الدروس والعبر والنظريات .

وقد يسأل المرء نفسه : لماذا ندرس التاريخ العسكري ؟ ولماذا ندرس التاريخ على الاطلاق ؟

ان البحث عن الامجاد القديمة لتجربنا وتشدنا للخلف ليست هي الاجابة بالتأكيد ، فذلك يحرم التاريخ من أعظم عطائه . وهو استمراريته وعدم سكونه أو جموده ومواقفه المتغيرة وتدفقه المستمر بالتجارب . فالتاريخ يتناول مواقف متغيرة للأمم والمجتمعات والافراد ، وهو ردود فعل مستمرة لمؤثرات مختلفة تساهم في عجن وتشكيل وصقل الأحداث والمواقف وأخيرا النتائج . فهو ليس رواية تروى ، أو قصة تحكى ، وانما تكن أهميته الأبدية في استخراج الدروس وتحليل المواقف والأحداث .

ومخطئ من يظن أن دراسة السلوك العسكري ، عبر دراسة التاريخ العسكري يتناول شيئا منفصلا عن سلوك المجتمعات والأمم . فالجيوش ، تلك العصابات النضالية في الأمم ، ليست قطاعات مختارة أو مجتمعات متصلة ، وانما هي جزء لا يتجزأ من هذه المجتمعات . وان مثل شريحة مكبرة ومبسطة لصفات هذه الأمم من شجاعة وذكاء وتضحية وسمو فوق الاهتمامات الغريزية للبشر ، أو عكسها من ضعف وخور ، فذلك لايعنى تمييزها أو اختلافها ، بل يؤكد انتماءها ووضعها كمرآة صغيرة تعكس ماخلفها .

اذن نحن لايمكننا عندما ندرس التاريخ العسكري أن نفصله عن العديد من المؤثرات والتيارات الروحية والوجدانية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية .

وان كان هذا مبدءا عاما في دراسة الحسيلات والمعارك الا أنه في هذه الحالة ، معركة كررى ، أوضح وأبرز . ففي معركة امدرمان كما عرفت عالميا ، أو معركة كررى كما عرفت محليا ، كان كل الذكور من السكان جنودا ، والرجل كان مقاتلا قبل أن يكون شيئا آخر .

ونلاحظ ان الخط العسكرى هو الخط الرئيسى الذى تناولناه فى دراستنا ، وهو من أهم النواحي الجديرة بالدراسة فى الثورة المهدية ، ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، فتلك الثورة ولدت بحد السيف ، وعاشت بحد السيف ، وقضى عليها بحد السيف . الا أننا لا يمكن أن نتجاهل المؤثرات الاجتماعية التى ساهمت فى خلق الظروف التى أحاطت بالمعركة .

وقد كان لهذا الاعتبار أثر بعيد فى تكييف وتوجيه الطريقة التى سنتناول بها دراسة معركتنا . فلم استطع أبدا ، ولاللمحظة واحدة ، فصل تلك العوامل وأثرها فى الموقف العسكرى ، أو التكوين القتالى لجيش الخليفة ، أو الفكر والأسس العسكرية التى تحكم فى الطريقة التى خاض بها قادته المعركة ، أو الدوافع والعناصر التى أبرزت ، أو مزقت ، وحدة صفوف ذلك الجيش ، ان كان بين القادة أو الأفراد ، وأخيرا فى العوامل الاقتصادية التى حددت حشد الخليفة ، وأجبرته على القعود وخوض المعركة المصيرية فى كررى .

فنحن حينما نتحدث عن التكوين القتالى لجيش كشنر نتحدث عن الفرق والالوية والكتائب وسرايا المدفعية ، ولكننا ان أردنا أن نتحدث حديثا جادا عن التكوين القتالى لجيش الخليفة ، فستحدث عن ألفاظ أشبه بالالغاز ، الارباع والرايات ، والمقدميات ، والجهادية ، والحراية ، والبنداقية .

وان أردنا أن نتحدث عن تخطيط الخليفة أو طريقة تحريكه وحشده لقوته العسكرية لمواجهة الغزو ، كان لابد لنا أن نتحدث عن المبادئ والفكر العسكرى الموجه لطاقات جيشه . ولما لم تكن هناك معاهد تدريب فى جيش المهدية ، بل استمدت كل هذه الأسس من خبرة المعارك الاولى ، فقد نَحْم علينا أن نمر مرورا سريعا على الدروس التى أبرزتها هذه المعارك وخلفت بصماتها للنهاية فى تفكير

قادة معركتنا . وحقيقة سنلاحظ ان خطة الخليفة التي قرر ان يخوض بها معركة كررى لم تكن الا تكررا للمعركة شيكان ، بل انه طوع الظروف ليتمكن من خوضها بتلك الطريقة . اذا فالمرور السريع على معارك أبا وقدير وشيكان والخرطوم والقلابات كان امرا لازما لتوضيح ما اسهمت به تجاربها في صقل الاسس العسكرية للخليفة ولقاداته ، أو ما اثرت به نتائجها المادية المباشرة في الحشد العسكرى النهائي . فتلك المعارك الضخمة التي خاضها اولئك القادة القطا حل كانت هي مدارسهم العسكرية ، ومنها استمدوا اسس التنظيم القتالى لجيشهم ومبادئه التكتيكية واخيرا السلاح الذى قاتلوا به فى كررى ، ولكننا سرعان ما نكتشف ان بعضا من هذه الخبرات العسكرية استمدت من احداث أو معارك حدثت قبل الثورة نفسها .

كل تلك المؤثرات حتمت وجود الباب الاول « الثورة » . ولم يكن الامر كما يبدو من الوهلة الاولى ، مجرد انتهازية من جانبنا ، أو اننا لم نستطع مقاومة الاغراء الذى تقدمه دراسة تلك الحقبة الحافلة ، أو ان نرحل اعيننا المثبتة عن ذلك المنبع الذى توفرت فيه مجالات لالتحصى للدراسة . وهو حروب المهديّة التي سبقت كررى ، لنمضى مباشرة لدراسة المعركة نفسها ، وذلك بالضغط ما احس به ليدل هارت فى المنهج الذى اتخذه لتقديم دروسه العسكرية . فقد كتب يقول :

« ان الطريقة الحديثة فى دراسة معركة واحدة أو حملة معينة دراسة تفصيلية منهكة دون ان نوضح الملابس أو الخلفيات لن نتمكن من تقديم الفائدة والدروس المرجوة . فستكون عملا مبتورا ناقصا . وقد وجدت دائما ان المسح التاريخى لفترة من الزمن أو لسلسلة من الحملات والمعارك وتقديم اهم الدروس التي تبرزها اكثر جدوى لتقارى العسكرى »

وقد قسم الباب الاول لثلاثة فصول . الفصل الاول خصص لاعطاء فكرة سريعة عن دوافع الثورة المهديّة . وعن التكوين الاجتماعى لسكان مسرح احداث معاركنا ، وللدروس والخبرات التي برزت اثناء فترة الاحتلال واستفاد منها الثوار سواء من جيش الاحتلال نفسه . أو من مدرسة حروب الزبير التي خرجت اكفأ قادة المهديّة .

اما الفصل الثانى فقد خصص لحروب الثورة المهديّة نفسها وتأثير قائدها بعدة

مدارس عسكرية ، أهمها مدرسة الحروب الإسلامية الأولى ، وكيف مضت تلك المعارك الجبارة التي ذابت وامتزجت فيها الخبرات المتنوعة بانضمام قادة يحملون معهم خبرات جديدة مختلفة .

أما الفصل الثالث الذي يتحدث عن عهد الخليفة عبد الله ، بطل روايتنا ، فقد احتل فترة زمنية طويلة ، فنتحتم علينا ان تقتصر على بضعة امور جوهرية تمس امر معركتنا مساسا مباشرا ، وهي على التحديد مظاهر الانقسام والفرقة التي سادت عهد الخليفة ، وانحسار موجة الحماس ووحدة الصفوف التي برزت في حياة المهدي . وكان لا بد لنا ان نتناول شخص الخليفة نفسه والظروف التي حتمت ان تأخذ الاحداث المجرى الذي اخذته . فالخليفة عام ٩٨ ، لا بد ان يختلف عن الخليفة عام ١٨٨٦ .

والجزء الاخير من هذا الفصل - تنظيم جيش الخليفة - يمثل خلاصة كل الباب . وهو تقديم سريع للتكوين القتالي ، والتسلسل القيادي ، والنشاط والفعاليات العسكرية في جيش الخليفة ، ليمكن القارئ من التصور المعقول لاستراتيجية وتكتيك الخليفة . فالغرض الاساسي من هذا البحث « تحليل عسكري لمعركة امدرمان من وجهة نظر الخليفة » فاعلم المصادر ، خصوصا المصادر الاوربية ، قدمت معركة امدرمان من وجهة نظر السردار كتنشر والجيش الغازي ، وكفتمنا شر تقديمها عندما وصفها وصفا كاملا في ثلاثة وعشرين كتابا (هذا فقط ما تمكنت من احصائه والاطلاع عليه) والجانب المهمل تاريخيا ، كان دائما جانب الخليفة . اذن فكل ما يرد في بحثنا عن جانب الجيش الغازي أو الحكومة البريطانية القصد منه هو سرد افعال السردار لتوضح ردود فعل الخليفة ، أو لابرار امور لا يمكن تجاهل اثرها في تحديد مجرى المعركة . كالتفوق في التسليح أو التدريب أو نشاط الاستخبارات .

ولقد اتبعت في الباب الاول المنهج العادي في دراسة التاريخ ، وهو ترجيح كافة المعلومات التي تقدمها الوثائق والتقارير الاصلية ، على ماتقدمه المصادر الثانوية كالكتب أو الاقوال السماعية ، واستفدت من الاخيرة ملء الثغرات أو لربط الاحداث فقط . فتلک فترة غنية بالمخطوطات والمصادر الاولى .

اما الباب الثاني « الغزو » فالقصد منه هو توضيح ردود فعل الخليفة على تقدم السردار من حلفا الى عطبرة وتأثير العمليات العسكرية التي قام بها السردار على معركة كررى ، وهو تأثير مباشر على نتيجة المعركة . وان خصص الفصل الاول لتوضيح الموقف العالمى والدوافع التي حدثت ببريطانيا للموافقة ثم الاشتراك الفعلى فى غزو السودان ، الا ان الفصل الثانى والثالث يوضحان الآثار المباشرة المترتبة على عمليات السردار اثناء تقدمه ، ان كانت آثارا مادية عسكرية واضحة كنجاحه فى انقاص حشد الخليفة العسكرى بما لا يقل عن خمسة عشر الف جندى بعد هزيمة محمود ود احمد فى عطبرة ، أو الآثار غير المباشرة المترتبة على مذبحه المتمة التي ادت الى هز معنويات جزء كبير من مقاتلى الخليفة .

اما الباب الثالث - المعركة - وهو الباب الرئيسى فالامر فيه كان يختلف قليلا . وهناك عدة امور حتمت على ان اسلك منهاجا مختلفا فى تناولى لاحداث معركة كررى . ويستحسن ان نقف قليلا عندما نتحدث عن هذا المنهج .

اولا معركة كررى ، ان اردنا ان نتناولها من ناحية الخليفة ، تختلف عن بقية معارك المهديّة ، فقد كانت نهاية الثورة المهديّة . وتلك الساعات الخمس التي استغرقتها والايام القليلة التي سبقت المعركة ، تمثل فترة تنعدم فيها الوثائق والتقارير من جانب الخليفة تماما ، عكس بقية معارك المهديّة التي عاش قادتها بعد المعارك وكان الخليفة مازال موجودا ، فتمكنوا من ارسال تقارير عسكرية تصف الموقف تماما ، وبالتالي يمكن الاعتماد عليها لحد كبير فى دراستنا . فكان هناك اختياران لمعرفة مادار اثناء لحظات المعركة نفسها . والفقرة القادمة ستوضح لم رفضت الاعتماد كلية على الاختيار الاول وهو الوصف المقدم فى التقارير الرسمية أو الكتب التي قدمها من شهد أو اشترك فى المعركة من الاوربيين أو من كانوا فى جانبهم .

فالملومات التي تقدمها تلك المصادر لاتكفى لاعطاء فكرة كاملة صحيحة عن الطريقة التي خاض بها الخليفة المعركة ، فهي تقدم جيشه فى لمحات عابرة ، القصد منها تمجيد عبقرية السردار أو بسالة جنوده . أو إلقاء الضوء على تحركات وردود فعل جيش السردار . وان كانت ندرة المعلومات أو الاهمال المتعمد فى

تقدم جيش الخليفة هو احد الاسباب التى حالت دون اعتمادى الكلى على المصادر الاوربية وعدم التقيد بها ، الا ان هناك امر لا يقل اهمية جعلنى اتشكك كثيرا فى دقة هذه المعلومات ، وان اعاملها بمنتهى الحذر وان لا آخذ كل ماجاء فيها كبدييات . ألا وهو تخوير الحقائق وتزييفها وتفصيلها لتناسب المعلومات التى قدمتها الجهات الرسمية ، وستبرز هذه الظاهرة طوال بحثنا .

فالطريقة التى تناولت بها المصادر التقليدية جيش المهدية طريقة غير موضوعية . فعندما يهجم لواء الفرسان الخفيف البريطانى هجوما اخرق وفى وضع النهار على الرشاشات والثيران الروسية ويباد عن آخره ، تنطابىر الاشعار والاغاني لتمجد الشجاعة والبطولة والتضحية ، وعندما يقتحم عشرات الالوف من جيش الخليفة خضم الثيران الهائلة وهم يندودون عن حياضهم ، ويباد الالوف دون ان يتقهقرو منهم رجل واحد ، تراهم يوصمون بأنهم دراويش « Dervishes » ومتوحشون « Savages » وغلاة المتعصبين « Fanatics » تماما كالمتملقين الذين عندما يتحدثون عن الرجل القوى أو الغنى يعتبرون تهوره شجاعة ، وجبنه حكمة .

قلت اننى لم اعر هذا الامر التفاتا كبيرا ، فهو امر طبيعى ، فهم كانوا اعداء الخليفة ، فالمتنصر يكتب التاريخ على هواه ، ولانصر آباء كثر ، ولكن الهزيمة ابنة يتيمة . ولكن عندما يؤثر هذا الامر ويتدخل فى تقديم الحقائق نفسها كتعداد جيش الخليفة ، أو تحركاته ، أو عملياته ، أو تخطيطه بدأت اعطى اعتبارا اكبر للاختبار الثانى ، فمصدر المعلومات الذى استقى منه المؤرخون لمعركة ام درمان كان واحدا ، وهو شعبة استخبارات الجيش المصرى وعلى راسها ونجت ، وشقير ، وسلاطين . فهى التى تنشر تقارير المخابرات وهى التى حددت ماينشره الكتاب والمراسلون الحربيون الذين شهدوا المعركة . وسنعجب كل العجب عندما نرى الفارق الكبير بين المعلومات التى وردت فى مفكرة الاستخبارات اليومية Field intelligence diary المكتوبة بقلم الرصاص ولم تطبع أو تنشر بعد وبين تقارير المخابرات التى طبعت ونشرت ، أو ماشاهده قادة السردار نفسه الذين اشتبكوا مع جيش الخليفة واوردوه فى تقاريرهم الرسمية التى لم تنشر ايضا ، وبين التقارير الرسمية التى نشرت واعتمد عليها . ولم يجرؤ على مخالفتها ، كل من قدم المعركة .

كل هذه الاسباب جعلتني احدد المنهج الذى سأتخذه للحصول على المادة اللازمة . فالتفت لمصدر ثمين للمعلومات أهمل لزمن طويل ولم يستفد منه الفائدة القصوى . ألا وهو أقوال الاحياء ممن اشتركوا أو شاهدوا المعركة من جيش الخليفة . والحصول على اقوال هؤلاء ، الذين تشتتوا فى ارجاء القطر الواسعة ، كان امرا أكثر صعوبة : فقد غربلت عشرات الالوف من الوثائق والصفحات ، وعبرت آلافا من الاميال ، واستمعت لمئات الاشخاص ، ولكن كان عزائي دائما ان الحقيقة اروع من الخيال ، وان الحقائق التاريخية كالمعادن الثمينة لا يمكن الحصول عليها إلا بعد الحفر المتواصل الدؤوب ، ثم اخذها بعيدا لتنفض منها الشوائب والمواد الدخيلة التى عقلت بها .

اذن فقد اعتمدت لحد بعيد على اقوال غير مكتوبة ، وهذا يقودنا الى مناقشة هذا المنهج . منهج قبول الاقوال سواء اكانت اولية أو أقوال سماعية .

حقيقة ان وزن وقيمة الوثيقة كمصدر تاريخي يرجع فى المكان الاول الى ان الوثيقة لا تتغير ، وان عامل الزمن لا يؤثر فى مجاء فيها ، عكس ذاكرة الانسان المعرضة للضعف والاضمحلال والنسيان . ولكن من الناحية الأخرى ، يجب ان لانسى ان هناك امرا اعظم من النسيان يهدد بتشويه التاريخ . وهو التحيز وعدم الأمانة فى لحظة كتابتها ، وتعرض كاتبها لمؤثرات غريزية وطبيعية تجعله يهون من شأن اعدائه ، ويرفع من شأن نفسه ويحاول تبرير كل افعاله ، وهذا امر واضح فى تقارير العمليات العسكرية خصوصا التى تصف المعارك بعد انتهائها ، وواضح جدا فى حالة معركتنا .

فالقضية اساسا هى موازنة بين هذه المصادر المختلفة . وقد عاملت كل المعلومات الواردة فى تلك المصادر سواء ماسمعت أو ما اطلعت عليه من وثائق أو كتب ، على اساس قبول البيئة القانونية . معطيا كل الاعتبار لقرائن الاحوال ، ولتفضيل مصدر على آخر ولتأثير طول الزمن والتحيز الطبيعى .

وقادني هذا الى اتخاذ احتياطات عديدة عند قبول اقوال من اشتركوا فى المعركة . لم يكن اولها تخليفهم اليمين على المصحف الشريف واغلبهم رجال مسنون على شفا الموت ، ولم يكن آخرها مقارنتها والتأكد من صحتها جزئيا بالوثائق

والتقارير العسكرية من ناحية التواريخ والازمنة والحشود ، ثم تسجيلها على شرائط مسجلة لاهميتها التاريخية .

واسماء من اشتركوا في المعركة وذكرت اسمائهم في مصادر البحث جزء ضئيل ممن استمعت اليهم فعلا ، ولكن المذكورين هم ابرز المصادر واصفاها ذاكرة واكثرها حيادا وموضوعية . اما من استمعت اليهم فعلا فقد تجاوز عددهم العشرات . فان كانت نقمة كررى للباحث التاريخي تكمن في انعدام الوثائق ، فنعمتها تكمن في أنها اقرب معارك المهديّة زمننا ، وبالتالي زادت نسبة الاحياء من اشتركوا فيها .

وقد يبدو للوهلة الاولى ان محاولة تنشيط ذاكرة لانسان ما ليصف احداثا وقعت قبل سبعين عاما ، امر شبه مستحيل . ولكن الامر ليس كذلك تماما . فقد لاحظت اثناء تجوالى في مناطق السودان المختلفة لتسجيل اقوال الشهود ان الانسان في الريف (واغلب مصادري من الريف) ، يستمتع بذاكرة اقوى واصفى من انسان المدينة ، لانحصار همومه ومشاغله . كما ان كررى تمثل بالنسبة لغالبيتهم لحظات لا تنسى ، بل مثلت اعنف لحظات حياتهم ، فضراوة المعركة وتلاحق الاحداث وسرعتها وحجم النيران الهائل الذي انصب عليهم ، وفقدانهم لمعظم عشيرتهم ورفاقهم في دقائق ، جعلت لحظات المعركة تنطبع في ذاكرتهم وترك بصماتها في عقولهم الى الابد ، بل لم تستطع ذاكرتهم الفكاك من ذكرياتها حتى الآن ، فقد حدثنى ابناءؤهم واحفادهم أنهم حتى اليوم لا يملون ولا يكفون عن الحديث عنها .

وقد قسمت باب « المعركة » الى خمسة عشر جزءا ، تفاوتت احجامها . وقد يغفر لى القارئ العسكرى خوضى احيانا في بديهيات عسكرية ، وعذرى أنها كلها ضرورية ، فمعركة كررى تختلف عن بقية المعارك ، فلو كانت معركة عادية لما خصصت فصلا « للجنود » ولكن جنود كررى كانوا نوعا مختلفا عن جميع المقاتلين الذين شهدتهم مسارح حروب القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولما خصصت فصلا « للسلاح » وخواصه لتقارن بين تسليح الجانبيين ولتوضح تفوق تسليح السردار وقوة نيرانه ، وهو السبب الرئيسى في انتصاره ، ولما خصصت

فصلا لقادة المعركة والحلفيات والحاسيات التي تمكنت منهم لتفسير سلوكهم وادائهم اثناء المعركة .

ويبدأ سرد احداث المعركة من الفصل الرابع « الحشد » اى منذ ان بدأ الخليفة فى حشد قوته وتقليب الخطط المتتالية لمواجهة الغزو ، يليه فصل « العدو » الذى يصف تقدم العدو « من وجهة نظر الخليفة ورئيس استخباراته الامير عبد الباقي » من عطبرة حتى كررى .

اما الفصل السادس « التقدم » والسابع « ليلا أم نهارا » والثامن « الليلة الاخيرة » والتاسع « الخطة » فهى فصول تتحدث عن الاحداث والعمليات والمجالس العسكرية التى عقدها الخليفة فى يوم وليلة الاول من سبتمبر : وتبلورت كلها فى الخطة النهائية التى قرر ان يخوض بها المعركة .

اما احداث معركة ٢ سبتمبر ، المعركة الرئيسية نفسها ، فقد وصفت فى الفصل العاشر « المرحلة الاولى » والفصل الحادى عشر « الصدام » والفصل الثانى عشر « المرحلة الثانية » وقد اعتمدت فى الوصف والسرد على الخرائط والرسوم العسكرية . فالغرض من السرد المكتوب هو تفسير الرسوم والخرائط ، وليس العكس .

اما الفصل الثالث عشر « المدينة الجريحة » والفصل الرابع عشر « نهاية المطاف » فهى الختام الطبيعى للمعركة ولمصير بطل بحثنا ، الخليفة عبد الله .

اما الباب الخامس عشر فهو نقد وتحليل عسكري لاستراتيجية الخليفة التى واجه بها السردار منذ بداية الغزو ، ومثلت معركة كررى قمته ونهايتها .

وقبل ان اختم حديثى يجدر بي ان اذكر ان بحثنا خصص اساسا للعسكريين ، ولكن كررى اكبر من ان تكون حكرا عليهم وحدهم ، فقد مثلت نهاية فترة حافلة فى تاريخنا القومى ، وترتبت على احداثها امور جسيمة ، اولها احتلال اجنبى دام ستين عاما . اما عالميا فقد مثلت قمة الفترة الاستعمارية التى اشتهرت بـ « التكالب على افريقيا » ، ومكنت الاستعمار الاوربي من فرض ارادته على اول امة افريقية تبنى بسواعد ابنائها لاغير .

ونحن لانستطيع ان نتحدث الآن عن الثمن الذى دفع عندما « نلنا » استقلالنا ،
فذلك من واجب الاجيال القادمة ، ولكنى استطيع ان اتحدث بثقة عن الثمن الذى
دفع عندما «فقدنا» استقلالنا . وهو ثمن باهظ جدير بأمة عظيمة ، غنية بالرجال
والمبادئ والأصالة .

والله الموفق ، ، ،

رائد : عصمت حسن زلفـو

امدرمان مايو ١٩٧٢

الباب الاول
الشورة

العاج الابيض... والعاج الاسود

انحدرت شمس الاصيل وألقت بأشعتها الواهنة على الحشائش الطويلة المتماوجة ، وهي لاتدرى أنها تشهد لحظة عظيمة عندما كشفت عن رجلين جالسين يتحدثان بهدؤ . كان أحد الرجلين طويل القامة اسمر اللون ذا عينين قدريتين وأسنان بيضاء لامعة ، التف حوله بضعة رجال من سكان الجزيرة ، والرجل ذو الزى الرسمي يصغى بانتباه ليقاطعه بين فينة واخرى وفجأة انتفض الرجل الطويل واقفا وضرب صدره بيده وبدأ يتكلم بصوت عال ، وكلما مضى فى حديثه كلما ازدادت حدة انفعاله ثم ختم حديثه قائلا : « لن أذهب للخرطوم ولن أبرئ نفسى امام علمائكم المضللين . ورب الكعبة لقد كلفت برسالة سأؤديها ولو وقفت امامى كل عقبات الدنيا » . تراجع الرجل الآخر مذعورا أمام لهجة محدثه العنيفة وبدأ يهدئه بعبارات رقيقة محاولا التخفيف من حدة لهجته ، ولم يزد هذا صاحبه الا انفعالا . وعندما ينس أخيرا صار يتلصص النظر للنهر الذى رست على ضفافه الباخرة التى أقلته شمالا ، فقد أصبح همه العودة للخرطوم نافدا بجلده . واذن له محدثه فودعه متخاذلا وسار بخطى مضطربة الى الباخرة التى أقلعت شمالا .

كان ذلك فى عصر يوم ٧ أغسطس ١٨٨١ وكان المتحدثان هما محمد أحمد المهدي وأبو السعود بك الذى أرسله رؤوف بك حاكم دار السودان لحث المهدي للحضور للخرطوم لمقابلة علماء الدين لاقناعه ورده للصواب بعد ادعائه بأنه المهدي المنتظر . وكانت تلك هى المرة الأولى التى يجاهر فيها المهدي بدعواه أمام ممثل الحكومة معلنا تمرده عليها صراحة . فقد أحس أن اللحظة المناسبة قد حانت وأن سكان تلك الارض التى سيطرت عليها أداة حكومية خربة ، وجيوش ضعيفة قد نضجوا للثورة ولم يبق الا اشعال فتيلها . فقد أعامت فيهم ستون عاما من الغضب المكبوت عملها ، وبدأ الهمس الساخط يتحول الى مجاهرة وتمرد متقطع .

وحتى حينما بدأ الغزو التركى عام ١٨٢١ لم يكن السودان أمة واحدة بل كانت مجموعة من قبائل مفككة غير مترابطة ، لازالت غالبيتها العظمى محتفظة

بالسمات الأولى للمجتمع القبلي ، عدم استقرار ، وتنقل سعيًا وراء المراعى للقطعان ، فيما عدا تلك القبائل التى استقرت على النيل ، وقد كانت أكثر تعرضا لرياح المدينة التى تهب عليها من الخارج ، فاستوطنت شواطئ النهر واستثمرت الشريط الضيق على شاطئيه وذاقت نعمة الاستقرار داخل الاطار القبلي ، لارابط ولاضابط بينها إلازعماء العشائر والاحترام العميق للدين .

أما تلك المساحات الهائلة من الأراضي التى أحاطت بالنيلين وروافدهما فقد فصلت بين مملكتين عريقتين هما مملكة القونج فى الشرق ، والفور فى الغرب . وعلى الرغم من تمكثهما من إبراز فعالية واضحة فى مركزية السلطات الادارية والتنظيمية داخل ممالكهم ، الا أن سلطتهم على بقية أجزاء البلاد كانت محدودة فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولم تعد هذه أن تكون اما مقاطعات تابعة لهما أو مجرد مناطق نفوذ ، وغلب اضمحلال نفوذهما كلما بعدت المسافة من العواصم .

ولكن مملكة القونج أسهمت اسهاما حضاريا واسعا فى تكييف حياة سكان تلك البقاع . فملوك القونج اشتهروا بالترعة الدينية القوية . واهتموا اهتماما كبيرا بعلوم الفقه والشريعة . وما ارتفع اسم عالم فى العالم الاسلامى الا دعوه ، وماسمعوا باسم فقيه أو متبحر فى علوم الدين داخل دولتهم الاوسارعوا باكرام وفادته . وقد ظل الرواق السنارى فى الأزهر يشع بقبس المعرفة الضئيل لقرون طويلة ويصدر العلم والفقه الى تلك الاصقاع الشاسعة . فكان أن انتشرت الطرق الصوفية والخلاوى والزوايا لتدريس القرآن فى طول البلاد وعرضها ، ومارس دعائها نفوذا قويا على السكان والقبائل ، وحقيقة كان يمكن اعتبارهم « الطبقة المثقفة » وسط تلك المجتمعات القبلية .

أما المجتمع الجاهلى القبلى حقيقة فقد تمثل فى غرب النيل الأبيض وحتى حدود مملكة الفور ، وبالاخص فى حزام البقارة ، فهؤلاء قوم لم يفلح تغيير البيئة ، ولا المسافات الشاسعة التى قطعوها ليستقروا أخيرا فى تلك البقاع ، ولا استبداهم رعى الجمال برعى الماشية التى استمدوا منها اسمهم ، كل ذلك لم يفلح فى تغيير ميلهم الطبيعى للفروسية والقتال المتصل وعزوفهم عن الاستقرار .

لقد أنجج الاختلاط بين العرب والزنوج والحاميين مزيجا رائعا حملت

جذوره خصال القوة والضعف لكل تلك العناصر ، ولكن ذلك الرجل الذى دق صدره متحديا السلطات عزم على أن يقدم للتاريخ خير خصال أمته من تضحية وشجاعة وقوة فضالية لم يشهدها العالم الا قليلا .

لقد أرسل محمد على حاكم مصر ابنه اسماعيل باشا عام ١٨٢١ فاتحا لينهب خيرات تلك الاقاليم . وجهز جيشا حديثا اخترق البلاد جنوبا ثم مال شرقا الى مملكة الفونج ليستولى على عاصمتها بسهولة . فقد كانت حربا بين البارود والعضلات البشرية ، بين السيف والبندقية ، ولم يكن هناك دافع ولا خلفية لخوض حرب استقلالية بمعنى الكلمة ، بل كانت الكرامة الشخصية هى الدافع ، فالدين لم يكن حافزا على القتال ، فالغزاة مسلمون ، اما الوطن فلم يكن هناك احساس به لأن الروابط التى تصنع الامم على الرغم من توفرها لم تجد من الأحداث أو الاشخاص من يبرزها .

ومضى الشاب المتعجرف الغرير اسماعيل ينتقل من نصر الى نصر ، ودانت له كل القبائل بالطاعة الى أن سولت له نفسه أن يوجه اهانة شخصية للملك نمر زعيم قبيلة الجعليين الذى لم يصبر على الضيم طويلا ورد الصاع صاعين ، فحملت الرياح الشمالية انباء انتقامه رمادا مذرورا من جثث الغزاة المغرورين .

ومن هنا بدأت القصة تتجمع فى حلق السكان ، فالدفر دار ، صهر اسماعيل ، والذى انعطف عنه غربا لفتح اقام كردفان سمع بمصير قريبه فكر راجعا الى شندى خائضا بحرا من الدماء مخلقا وراء طريقه الدموى الحرائق والاشلاء .

وعندما وصل لشندى كانت يده قد غرقتا دما دمارا ، فصمم على أن يقتصر من الملك نمر قصاصا عادلا وأن ينهى الموضوع عند هذا الحد . وقابله سكان المنطقة خارج البلد وطلبوا منه الأمان فأمنهم على حياتهم وأموالهم ومضى ليعبر النهر لشندى فاندفع أحد رجال الجعليين وقذف نحوه حربة اخطأته ، فعاوده فوران الدم وفارقه اتزان ، وأمر بجمع السكان مرة أخرى وبكلمة واحدة أبادهم جميعا ، رجالا ونساء واطفالا . ووقف على صهوة جواده يرقب الجثث وهى تنهاوى بالعشرات ، ثم عبر النهر لشندى وعندما وصلها كان الملك نمر قد غادرها فصب جام غضبه على السكان الغزل وأحرق المدينة وأباد سكانها واستمر فى

مطاردة الملك نمر مخلفا وراءه مجزرة امتد مسرحها لمئات الأميال ووجدت القرى والمدن التي مر بها نفس مصير شندى ، وهى المتمة ، والبلقون ، وتوتى وود مدني . وقد كانت حمامات دم الدفردار هى أول سبب للمرارة التى أحس بها الأهليون نحو الادارة التركية ، فقد كانت تلك هى الأيام الأولى للعهد الجديد ، ومن الفجر يعرف المرء ان كان يومه صافيا هادئا أم مليئا بالغيوم والعواصف .

وعلى الرغم من أن محمد على الكبير كان رجلا حكيما يحسن ادارة البلاد التى يحكمها الا أنه لم يكن كذلك نحو السودان ، فقد وضع لاعوانه الخطوط العريضة لحكم السودان وهى باختصار : « انهوا قدر ما استطعتم وأرسلوها لى » وكان يظن أن السودان منجما كبيرا للذهب ، وعندما خاب قأله تحول لخيراتة الأخرى وأهمها اصطياد الرقيق . وكان واضحا أنه يرغب فى عصر طاقات الاقليم البشرية لتغذية الجيش الضخم الذى انتوى انشاءه للمحافظة على سلطته ولإقامة الامبراطورية الواسعة التى طمع فى انشائها . فقبلا كانت الهندية حكرا على الاتراك والارنؤوط ، وشكلت العناصر التركية فى مصر على قلتها طبقة عسكرية ممتازة مرهوبة الجانب . واضطرته حروبه فى الحجاز الى تجنيد الآلاف من عناصر مختلفة سواء من المغاربة أو الفلاحين ، وسرعان ما أقنعتة تجربته الأليمة فى حملات الحجاز الى البحث عن مصدر آخر ، فأتجهت نظاره جنوبا . وتلك كانت البداية التى أدت الى اشتهاار السودان بتجارة الرقيق ، وأدت الى آثار بعيدة المدى . وصحيح كانت هناك تجارة رقيق من قبل وبعض القلة من الكبار وزعماء العشائر كانوا يحتفظون بالعبيد ، ولكن عددهم كان جد ضئيل . وكانوا قلة هنا وهناك ، ومن الخطأ مقارنتهم بحال العبيد فى الولايات الجنوبية فى امريكا مثلا ، اذ لم يكن عددهم كبيرا ولم يكن استغلالهم منظما فى مزارع أو نحوها ، وأحسن معاملتهم وكانوا يعتبرون فى أغلب الاحيان كأحد أفراد العائلة وظلت هذه الحالة سائدة لقرون ، ولكن تعليمات محمد على لقادته كانت هى الشرارة الاولى التى فجرت عشرات من حملات الاستجلاب .

والتصفح لخطابات محمد على التى أرسلها لابنيه اسماعيل ثم ابراهيم وهو يحثهم حثا متواصلا على مواصلة ارسال الرقيق ، يستشف فورا رغبته المحمومة

واهتمامه البالغ بجمع أكبر عدد ممكن للدرجة التي قسم فيها عملية الاستجلاب الى عدة أطوار من حملات الاصطياد فالترحيل والفرز والتطويع ، وكل هذا يجري على نطاق واسع منظم . فقد كتب لابنيه اسماعيل وابراهيم :

« وانكم عاقدون عزمكم على أنكم متى أخذتم بنصره تعالى السود استخرجتم منهم نسوانهم وصبيانهم فابقيتموهم هنالك وبعثتم بذكورهم الصالحين لأعمالنا الى الامام . وحين يبلغ عدد هؤلاء الذكور عشرة آلاف تعقبونهم بارسال ما استوقف واستبقى من النساء والصبية أيضا » .

أما مصادر الرقيق التي لم يتمكن من اخضاعها بحذ السيف لبعده المسافة فقد وجه ابنه الى عقد معاهدات مع الممالك المحلية ليمدوه بالرقيق ، فقد كتب في أول رجب ١٢٧٣ يوصي ابنه بأهمية الوصول لاتفاق مع سلطات دارفور :

« . . . بما أن من مقتضى ارادتنا أن نرتبط مع حاكم دارفور باتفاق بخصوص جلب العبيد واستخراج معدن النحاس فقد كتبنا للحاكم الموحى اليه كتابا عربيا يتضمن صورة الاتفاق على ذبك الامرين وأرسلناه مع أحد المماليك (الامراء) . . » وفي ذو القعدة من نفس العام كتب كاشفا عن نفاذ صبره لتأخير وصول جنود المستقبل وأنه قد قطع شوطا طويلا في الاستعداد لاستقبال الضحايا الجدد :

« الجهات التي يرجى فيها وجود العبيد يستولوا على كثير منهم واذا لم يمكن في العام الماضي الحصول على عبيد وفق مأمولنا بسبب قلة الخبرة والانشغال ببعض الأمور والذين أمكن الحصول عليهم لم يوقوا التلف لبعده الطرق ولقلة بعض المهمات كالتوافرة والماء الا أنه لامراء أن الطرق قد اتخذت فيها الاستعدادات في هذه السنة فأرني نشاطك فاني أرجو منك الانتي في القيام بالغزوات كما قلت في متن كتابي وأن تعتنى بارسال كثير من العبيد على حساب الفردة وان تملأ ثكنات اسوان هذه السنة بالعبيد بفضل الله تعالى وأن تهتم بهذا الأمر أكثر من كل شأن . »

وبعد مرور فترة زمنية طويلة لم تتجمع خلالها الأعداد بنفس القدر المأمول

أرسل يلوم قاده موضحا لهم المشاق التي تجسمها في إقامة الشكنات والاستعدادات الصحية :

« حمدا لله ثم حمدا ان ثكنات اسوان وفرشوط قد اكتسبت نظامها ولم يبق شئ من الامر الا ورود العبيد الذين نطلبهم . »

ولما تلاشت الحمى الاولى من حملات محمد على وبدأت الاعداد تتناقص اضطر محمد على الى طلب تجنيد جيشه من ابناء القبائل الشمالية وبدأ نظام «المردان» للتحايل على الاهالى للحصول منهم على المجندين بدلا من الحملات التي قشلت في استجلاب الكميات المأمولة من المناطق الجنوبية . ولنا أن نتمعن في ما ذكره المؤرخ محمد عبد الرحيم الذي أجرى استقصاء واسعا حول هذه النقطة :

« المردان هم الشبان الذين لم يتجاوزوا الحلقة الثانية وهو ما انطبق عليهم سن القرعة — قابل الحكمدار خورشيد محمد على باشا عام ١٨٣٦ وأكد له ضرورة الحصول على الشبان لتقوية جيشه ، فاستدعى خورشيد نظار القبائل وطلب منهم الشبان فامتعضوا وأخذوا يعقدون المجالس ويتناجون بما عسى فعله . فوصل احمد بك أبو سن زعيم الشكرية وطلبوا منه الحل .

ولقد عارض الاهالى في أخذ ابنائهم للجندية وبعد مفاوضات طويلة مع الحكمدار تم الاتفاق على أخذ المردان من اولاد العبيد — وفرضهم غرامة على من يرتكب جريمة ضد الحكومة . وهذه روجت تجارة العبيد أو الرقيق اذ اصبحت الحكومة تفرض المردان فرضا على الاهالى ويشترهم هؤلاء من النخاسين ويقدمونهم الى الحياة بدلا من الضرائب — كما قام الحكمدار نفسه بغزوة في حدود السودان مع الحبشة واحضر معه بضعة آلاف شاب من البرقو ، والانقسناء ، والبرتي ، وعاد الى الرصيرص ومنها الى الخرطوم . ولما ضمت كبايات بحر الغزال الى الحكومة عين حسين الشلالى مديرا للقرعة أى لجمع المردان في جهات خط الاستواء حتى بلغ عدد السودانين في الجيش المصرى ٣٠٠٠٠ في عهد محمد على وأوقف في عهد اسماعيل . وكان أغاب مديرى السودان يسربون نحو ٣٠٪ من المردان لبيعوا بلبيهم الخاص في

ولو كانت هناك حنة واحدة بدت خلال ستين عاما من القهر والاستغلال فى ذلك العهد فقد كانت توحيد السودان اداريا . فبيها رسمت لأول مرة حدوداً رسمية لهذه المساحات الشاسعة المتباينة التى أصبحت تسمى بالسودان . ولم يكن الهدف الاساسى بالطبع هو خلق أمة واحدة بل كان تسهيل إدارتها وحكمها بما يكفل طريقة أكفأ وأسرع للنهب . فقسمت البلاد الى اقاليم وقسمت الاقاليم الى مديريات ، ولكل ادارة شبه منفصلة انشطتها ادارة جمع الضرائب . أما ما كان يحدث داخل هذه الرقعة بقبائلها وعناصرها وطبائعها المتباينة فلم يتأثر كثيرا بالوضع الجديد .

وطوال الستين عاما التى استغرقها الاحتلال كانت تبدو بين الفينة والأخرى لمعات عابرة من الخير ، فبعض الحكام حاولوا جهدهم تنظيم الادارة بل حاولوا اشراك السودانين فى الحكم وتنظيم أداة الحكم المحلى بواسطة النظار والمشايع ولملت الاسماء السودانية أمثال الياس باشا اميرير ، والنور عنقرة ، وخالد زقل ، وحسين خليفة كاداريين وضباط سودانيين اكفاء . وتبعهم توظيف اعداد كبيرة من أهالى البلاد فى مختلف المهن المختلفة ، وهذا مما خفف قليلا من سوء الاحوال ولكن الخط العام كان لايزال كما هو ، والقياس لنجاح الحاكم ظل هو مقدار ما يبعث به الى مصر . فلكى يجمع الحكماء فى الخرطوم حصيلته السنوية لارسالها لمصر ، لم يكن يترك سبيلا فى الضغط على مرؤوسيه لتجميعها ، فلا العاج ولا ريش النعام ولا الصمغ كان يكفى : فكان يلجأ دائما الى فرض الضرائب الباهظة على السكان ، وزبانيته جامعى الضرائب الذين صارت فظائعهم اساطيرا شعبية لم يألوا جهدا فى جمعها — أولا لتحقيق مطلب الحاكم وثانيا ملء جيوبهم تعويضا لهم عن نفهم الى ذلك الاقليم السحيق ، اذ لم يكن يبعث للسودان الا الموظفين المغضوب عليهم ، وظنوا ان جمع الاموال بطرق غير مشروعة هو أقل تعويض لهم لما يقاسونه فى المنفى .

وكان العبء كله يقع على المواطنين وعلى امكانياتهم البسيطة . وسرعان مابرزت سمات تلك الفترة : ضرائب باهظة على الأهالى تفوق طاقتهم : فالأغنياء

منهم كانوا يتخلصون برشوة جامعى الضرائب ، والفقراء اما وجهوا طاقاتهم
لجمع العبيد من الاقاليم الجنوبية ، اذ صارت تلك المغامرة المربحة هي الملجأ الوحيد
لمقابلة الضرائب المتصاعدة وسوط الباشيزق الذى لا يرحم ، أو كانوا يلجأون الى
التنقل المستمر وهجر الارض والمرعى الى أماكن لا يصلهم فيها جامعو الضرائب .
ومن ثم أصبحت الارض الحصبة مهجورة من سكانها .

وقد هال الأمر سلاطين عندما أرسله غردون فى حملة تفقدية عندما كان
مفتشا ماليا لحكومة السودان ، وضمن فى تقريره سؤ نظام الضرائب ، سواء فى
مقاييس تحديدها أو طرق جمعها ، فالأغنياء كانوا يدفعون ضرائب أقل من البسطاء
وكانت الضرائب متصاعدة ولكن بطريقة عكسية ، كما أن جامعى الضرائب لم
يكونوا يلتزمون بالحدود القانونية فى جمعها . وجمع سلاطين آلافا من العرائض
والظلامات من السكان ، ورفع الأمر لغردون .

ثم تولى الحكم فى مصر الحديوى اسماعيل ، وسرعان ماوضح طموحه لإنشاء
امبراطورية كبيرة تمتد حتى منابع النيل جنوبا وتضم كل شرق افريقيا واثيوبيا .
وانتهز الفرصة فى الحفلة الراقصة التى أقامها فى أعظم أيام حياته ، ليلة افتتاح قناة
السويس ، حينما لمح المستكشف صمويل بيكر يقف مرافقا لوفد ولى العهد
البريطاني . وكان اسم بيكر قد لمح قبل ذلك فى كتاباته ومحاولاته لاكتشاف منابع
النيل . فتقدم الحديوى منه وقدم اليه عرضا بالعمل معه بمرتب مغر مقابل فتح كل
جنوب السودان حتى منابع النيل وضمها لمصر أولا ، وإيقاف تجارة الرقيق فى
تلك المناطق النائية ثانيا .

أما الهدف الأول فلاشك ان اسماعيل كان جادا مخلصا فى تحقيقه ، فكل
إيرادات مصر من بيع الاقطان والمحاصيل لم تتمكن من اشباع وتغطية اسرافه
وبذخه المشهور ، أو تمويل مشاريعه الضخمة ، ولاشك انه ظن ان خبرات الاقاليم
الجديدة من سن القيل والصمغ والجلود والحبوب ستساعد كثيرا فى تمويل مشاريعه
وملء يده المبسوطة دائما . أما جديته فى تحقيق الهدف الثاني ، وهو إيقاف تجارة
الرقيق ، فهى محل شك وجدل . فاسماعيل اكتظ جيشه بعشرات الألوف من
السود وكان يعلم مصدرهم جيدا ، وكان يغمض عينيه طوال السنين عن مصادر

ثروات عماله من الخراطوم وعن أعمال شركات الاستثمارات المشبوهة مثل شركة العقاد التي كونت ثروة عظيمة في زمن وجيز جدا من المتاجرة في سن الفيل وريش النعام علنا ، وفي الرقيق سرا .

على أى حال ، كان اسماعيل مجبرا على اعلان واذاعة هذا الهدف على أوسع نطاق . فبعد كتابات بيكر ، وبيرتون، وسبيك ، وبعد انتشار قصص ضبط عشرات من السفن المحملة بالرقيق في المحيط الهندي في طريقها من زنبار وشرق افريقيا ، أصبحت محاربة تجارة الرقيق هى الصيحة الجديدة وسط الدول الاوربية وهى تبحث عن ذريعة للتدخل في افريقيا . وكان لابد لاسماعيل الذى لا يستغنى أبدا عن الديون الأوربية ، أن يعلن هذا القرار على (١) الملأ ليضمن استمرار تدفق التمويل الأوربي ، وكان اختيار بيكر اختيارا بارعا . فقد كان بيكر هو الذى استصرخ الحكومة البريطانية قبل أعوام :

« ان لم تتدخل بريطانيا فورا فتصبح هذه الأراضى المباشرة بالامكانيات الضخمة قاعا صفصفا وتضيع قبل أن تمتد اليها يد الحضارة المسيحية . »

ومن هنا بدأت مهمة بيكر الطويلة التى استمرت ٥ سنوات تمكن خلالها من انشاء عدة نقاط عسكرية أشبه بالقلاع على طول النيل الأبيض من غند كرو جنوبا الى منابع النيل . فانشأ نقاط الابراهيمية ، وفلتيكو ، وفويره ، وماسندى ، وتوقف هناك حيث قاومه الاهالى مقاومة مسلحة . واثبتت احداث ماسندى ان كل اغلفة المبادئ الانسانية وتحرير الانسان تتبخر فى لحظة واحدة عندما تصطدم بالاطماع

(١) يوضح شيكة ان حساسية حكاه مصر من اثاره الدول الأوربية بشأن تجارة الرقيق تعود إلى زمن محمد علي . فيورد لنا خطاب محمد علي إلى حاكم السودان بتاريخ ٥ رجب ١٢٥٩ فى اقتصار الحملات على استجلاب المقاتلين وعدم بيع من لا يصلح للجندي :

« ونحن نلفت نظركم إلى وجوب عدم بيع هؤلاء العبيد بأى حال من الأحوال وانما عليكم ان تعملوا على اعادتهم إلى اوطانهم لان بيعهم يثير ثائرة الأفرنج ويجعلهم يحملون علينا من جديد فاياكم وبيعهم فان فعلتم ذلك لما قبلنا منكم أى عذر واذا كنتم قد بعتم أحدهم قبل صدور أمرنا هذا عليكم ان تعملوا على استرداده ولا بد من تعيين عقوبة صارمة لكل من يقدم على بيع أى عبد منهم . »

شيكة - تاريخ شعوب وادى النيل ص ٧٩ :

الحقيقية . فعندما ثار « كابريقة » السلطان اليوغندي على تدخل الغزاة في أرضه لم يجد بيكر طريقة أحسن لفرض سلطانه على القوم الذين أتى لتحريرهم . . . إلا بقتلهم . فهاجمه السلطان وارغمه على اخلاء ماسندي وانسحب عائدا بعد نهاية مهمته بنهاية مدة الخمس سنوات.

بعد انشاء النقاط العسكرية على النيل الابيض انتقل نشاط الشركات والكبانيات ومن خلفهم صغار التجار غربا نحو بحر الغزال وبحر العرب . وظهروا باعداد ضخمة في تلك المناطق . وهنا بدأ اسم الزبير (١) ودرحة في اللمعان .

(١) نادرا ماثار الجدل حول شخصية تاريخية وتناقضت وتضاربت الروايات عنها مثلما تضاربت حول الزبير . ولكن هذه الظاهرة متقابلة كثيرا في مروجنا السريع على تلك الحقبة التاريخية . فبينما قدم الأوروبيون الزبير كشر مستطير عاث فسادا في الأرض وكان المشول الأول عن تجارة الرقيق في بحر الغزال ، ووصفته الصحافة الأوروبية بأنه « أكثر نخاسي أفريقيا ذبوع صيت . »

“The most notorious slave trader Africa has ever produced”

نجده يقدم في مذكراته التي كتبها بيده رواية مختلفة تماما عن كل الأحداث والاثامات التي الصقت به وينفيها نفيا باتا ويعتبر نفسه قائدا لجيش ضخم وفاتحا لبلاد وأقاليم وقائدا لثورة اجتماعية .. على أن هناك عدة أسانيد تقف في صف روايته عندما ذكر أنه لم يبع الرقيق ابدا بل كان يشتري ضحايا السلاطين من صدرت أحكام الاعدام عنهم ويدربهم على استخدام السلاح لضمهم لجيشه . فهو لا ينكر انه اشتراهم ولكنه ينكر انه باعهم ..

أولا من أين تسنى للزبير انشاء ذلك الجيش الضخم ليواجه به قبيلة الرزيقات « تراب الهين » أقوى قبائل الغرب واغناها وأكثرها عددا ليتصر عليها ثم يواجه جيش سلطان دارفور الذي تجاوز مئات الألوف ؟

ثانيا : اخلاص واستماتة جنوده في القتال وأغلبهم من السود الذين اتهم باسرقاقهم ونوع العلاقة بينه وبينهم لا يمكن أن تكون أبدا العلاقة السائدة بين التاجر وبضاعته - بل تكاد تؤكد روايته من أنه انقذهم من الموت والمقتادهم وكساهم وأطعمهم ثم دربهم ليصبحوا ذلك الجيش القوي .

وهناك مدرسة تتوسط الرأيين تعتقد أن السلاطين من الدينكا توأطأوا مع الزبير لم حاجتهم الماسة لبضائعه ، وأن حملات استجلاب الرقيق كان يقوم بها سلاطين الدينكا ، وهم بدورهم كان لهم رقيقهم الخاص من قبائل غرب بحر الغزال مثل الكريش والقرتيت « ومن هنا نشأ اسم الكارا أكبر عنصر مكون للجهادية » وتولى هو تدربهم ليكونوا نواة جيشه الضخم .

ومن جميع المؤرخين وقت المؤرخ شقير فقط في صفه فقد قابله وقبل روايته كما هي ونشرها على أنها حقيقة الأمر وهي تكاد تطابق مذكراته التي اطلمت عليها فيما عدا بعض الاختلاف البسيط وكتاب هـ . ج . جاكسون عبارة عن تحقيق لهذه المذكرات

ويستحق منا الزبير وقفة قصيرة . ليس لان ثلاثة من أشهر قادة المهديّة خدموا في مقتبل حياتهم في صفوفه ، بل لما أسهم به الزبير في تقدم الفكر العسكري لاهالى البلاد عندما انشأ جيشاً نظامياً حديثاً يتبع أسساً تكتيكية سليمة . فالزبير كان صاحب الفضل الأول بلامنازع في تدريب وتخريج اعداد كبيرة من أهالى البلاد، دربوا على الاسلحة النارية التي كانت وقتها على جيش الاحتلال . فالبحارة « والبازنجر » . لم يعرفوا استخدام السلاح كمجاميع الا عندما خدموا مع الزبير ، والرزيقات والقور ، لم يعرفوه الا عندما حاربوا ضد الزبير .

وقد هاجر الزبير تاجراً بسيطاً في الشمال الى بحر الغزال وبعد سلسلة من المغامرات الاسطورية مع سلاطين بحر الغزال وبحر الجبل ارتفع صيته كأحد سدة التجارة في تلك المناطق، فبدأ يخطط لانشاء جيشه المشهور الذى نما حتى تجاوز ١٥٠٠٠ وأغلبهم من سكان البلاد الأصليين الذى اشتهروا باسم « البازنجر » ،

M.C.Jackson, White Ivory and Black Ivory. The story of Zhubier Pasha as told by himself (London, 1913).

ويمكن القول بالطمئنان أن الزبير لم يبع الرقيق فتعداد جيشه الضخم يشهد بهذا ولكن الشكوك تحيط به في أمرين . أولاً ان لم يبع الرجال فماذا حدث لمواطنيهم . لعل رأى المدرسة المتوسطة هو الذى يقدم الاجابة على هذا السؤال من أنه اشترى الذكور من السلاطين ولم يقم هو بعمليات الاستعباد التى يصحبها سبى النساء والأطفال . كما توغص مذكراته أنه كان دائماً في موقف المدافع عن نفسه ولم يبدأ أحد بالحرب بل دافع ضد جيوش من الرجال ولم يفر أى من أقاليم بحر الغزال .

أما الأمر الثانى فهو ثراؤه الضخم وثروته التى نمت بسرعة. هل كان من الفيل والعسل والصمغ كصادر ربح وحدهما كافيه لتكوين هذه الثروة الطائلة ؟ ولتحقق من هذا الأمر قمت بالاطلاع على بعض اوراقه القديمة المحفوظة الآن بمنزله بالجبل . حقيقة أثبت التحقيق السريع فى الفواتير ودفاتر الحسابات أن عمليات التجارة بهذه المنتجات تجاوزت مئات الألوف من الجنيهات .

وقد تكتمل الصورة لحد ما اذا اضفنا لها المعلومات التى قدمتها مذكرات النور عنقره « بخط اليد » فالنور يعترف فى مذكراته انه غزا بعض أماكن بحر الغزال وسبى الرقيق فى الفترة التى سبقت إنضمامه للزبير .

أما بعد انضمامه للزبير فلا يذكر حدوث ذلك الأمر ابداً وانما يتحدث عن انشغالها بأمر أعظم من تدريب وتسليح ومعارك .

مذكرات الزبير باشا بخط اليد
Wingate Paper, Box 18,
Oriental Studies Department, University of Durham.

مذكرات النور عنقرة بخط اليد - من مجموعة السيد عبد الله الأمير اسماعيل
شقيز ص ٥٨٦ - ٥٩٤

ويروى لنا في مذكراته التي كتبها بخط يده كيف اختمرت الفكرة في رأسه من البداية بعد رحلته الثانية لبحر الغزال عائدا من الخرطوم :

« ولبثنا في بندر الخرطوم بضعا من الشهور صرفنا خلالها مامعنا من البضائع المحضرة معنا من تلك الجهات واشترينا بأثمانها بضائع واسلحة وذخاير ووجدنا مستخدمين زيادة واخذنا في أهبة السفر للبلاد المذكورة ثانيا وحملت معي من الهدايا النفيسة الى السلطان تكمه ورؤساء مملكته وما يليق بهم وفي الثاني والعشرين من القعدة عام تاريخه بارحنا الخرطوم قاصدين بلاد النعم فصار وصولنا اليها في عشرين صفر عام ١٢٨١ (٢٥ يوليو ١٨٦٤) فقابلنا السلطان تكمه وفرح بقدمنا وهيا لنا عزومة ذبح لنا فيها كثيرا من الوحوش ومائة كلب سمين من الكلاب المعدودة لاكله خاصة، وقدمنا له ما احضرناه معنا من الهدايا النفيسة لخاصته وكذلك لرؤساء مملكته فسروا بذلك سرورا عظيما وبعد ذلك اخذت في تصريف ما احضرته من البضائع وفي مشرى سن القيل وكان من عوائد اهل البلاد تلك انهم يبيعون اهل الجنايات كالسارق والزاني في الاسواق ويلبسونهم ويبيعون لحومهم كالابكار يشتروها اهل تلك الجهة ليأكلوها فلما رأيت منهم ذلك اخذت اشترى من اجد فيه اللياقة لحمل السلاح وافديه من الذبح حتى بلغ ما اشتريته نحو الخمسمائة تقريبا وصرت اعلمهم حمل الاسلحة النارية الى أن عرفوا ذلك وسلحتهم جميعا من الاسلحة التي احضرتها معي وصاروا من جملة المستخدمين فلم أدر حتى رأيت السلطان تكمه تغير حاله معي باطنا لما أوجسه خيفة من استيلائي . »

ثم بدأ جيشه في التوسع بعد انضمام أغلب التجار لصفوفه (١) :

« ومن ذلك الوقت انتقلنا في طور جديد وصرت ملكا على أهالي تلك البلاد وشرعت في تنظيم العساكر وجلب الأسلحة والذخائر وكل ذلك لم يمنعني من

(١) حسب رواية النور عنقرة فإن انضمامه بكل رجاله وكيانيته إلى كباية الزبير كانت هي بداية انطلاق الزبير في توسعه لانشاء ذلك الجيش العرمرم :

« اجتمعنا نحن والزبير باشا بالكباية وكان تحت رئاستي زيادة على الالفين نفر تقريبا جميعها حاملة أسلحة نارية بروجين والزبير معه ثلاثة آلاف نفر حاملة أسلحة بروجين الجملة خمسة ألف بازنفر ولهم معرفة بالنيشان وضرب السلاح . »

مذكرات النور عنقرة - ص ٢ .

تجارتى . بل صارلى عوناً عليها وزيادة فيها ، وبعد ذلك تسامعت بنا كافة المستخدمين فى أطراف التجار وغيرهم ممن يرغب فى الاستخدام فحضرنا عندنا أفواجا واستخدمناهم عندنا بصفة عساكر فزادت قوتنا إضعافاً وفتحنا كثير من الاملاك المتاخمة لنا أحجمنا عن ذكرها خوف الاطالة وصارت تلك البلاد مركزاً عمومياً لى الى أن حضرت الى المحروسة فى عام ١٢٩٣هـ .

وسرعان ماتمكن الزبير بعد عقد سلسلة من الاحلاف مع السلاطين من السيطرة على كل بحر الغزال . والمتتبع لمذكرات الزبير لا بد سيعجب من أين توفرت لهذا التاجر المغامر كل هذه الكفاءة (١) العسكرية التى مكنته من تدريب الجيوش ، وتنظيم الوحدات وتسليحها وإبراز تلك المقدرة الواضحة فى تنفيذ عملياته الليلية وتنظيم رئاسته واقامة الاستحكامات وتحسسه الصادق دائماً للمبدأ التكتيكى المهم ، تحقيق المفاجأة بالهجوم الليلى أو مباغتة العدو فى أماكن غير متوقعة وبحشود اخفيت بذكاء وحكمة ؟ !

أما غزوة دارفور فقد كانت أعظم اعجاده العسكرية . وقبلأ أحسن الزبير بأنه عاجل غير متوج على بحر الغزال وأن حفظ الأمن وتصريف الشئون لتلك الاصقاع من مسئوليته هو . ولا يمكن أن يلام على ذلك ، فهو صاحب القوة الوحيدة التى يمكنها فرض ارادتها ، ومن هنا بدأت شرارة الحرب مع السلطان ابراهيم سلطان دارفور ولندعه يصف الاحداث بلسانه هو :

(١) حتى غردون - ألد أعداء الزبير شهد بكفاءته التكتيكية . فعندما كان غردون معاصراً فى الخرطوم كتب ينصح حملة الانقاذ التى تقدمت نحو الخرطوم « الوقت الملائم دائماً للهجوم هو الفجر أو قبل طلوع الفجر . كان هذا تكتيك الزبير دائماً . والسبب ان قوة العرب الحقيقية تكمن فى غيوطهم التى لا يجرون على استخدامها أثناء الظلام . »

“The time to attack, is dawn, or rather before it. . This was always Zhubier's tactics. The reason is that the strength of the Arabs is their horsemen who does not attack in the dark.”

Journals, P 117

أما فيما يخص بالتدريب النظامى الذى تلقاه جنوده فيمكننا أن نستج أن النور عنقره كانت له اليد الطولى فى التخطيط والتنفيذ فالنور خدم خدمة عسكرية نظامية منذ ان كان فى الخامسة عشر عندما انضم لاوردى ملك الشايكية « الاوردى عبارة عن سرية شبه نظامية كان يكونها ملوك الشايكية للخدمة مع الحكومة » وسافر معه لمصر

مذكرات النور عنقرة ص ١

« وقبل فراغنا من حرب النمام بثلاثة شهور بلغنا ان عربان الرزيقات خانوا العهد وقطعوا الطريق ومازال التشكى منهم من الواردين يزداد حتى تأكد لدينا غدرهم وخيانتهم فبعثت مخصوصين اليهم اسألهم عن سبب تعديهم وقطعهم الطريق فما أجابوني بجواب غير الذم والسب وأقسموا بأنهم لا يتركون احد من التجار يمر بأرضهم فشق علينا هذا وأرجعتهم بالمكاتبة خمس دفعات بغاية اللين والتعطف ابتغى منهم عدم التعدى على المارة فلم يأت هذا بشمرة بل مازالوا يكتوبوننا بالذم ويطلبون منا الاستعداد للحرب فاستخرت الله تعالى على حربهم وجمعت جيشى وتوجهت اليهم فى اليوم الرابع عشر من جمادى الاولى عام ١٢٩٠ (١٠ يوليو ١٨٧٣) وبعد وصولنا أول بلادهم قابلونا وحاربونا حربا شديدا فى دفعات انتصرنا عليهم فيها ودخلنا بلادهم عنوة بالرغم عنهم فى اليوم الرابع من رجب عام تاريخه وصارت جميع بلادهم تحت طاعتنا واحكامنا إلا من فرّ هاربا الى داخل دارفور كما سنذكر تلك ، وتغلبننا على اراضى شكا ودخول جميع من فيها من العربان تحت طاعتنا وامتلكت جميع البلاد وحكمت كافة اهلها على اختلاف اجناسهم بالعدل والانصاف وقد تغلبت ايضا على عربان الرزيقات والحمر والمسيرية وبنى جرار واولاد ام سريرة والمهانية وصاروا تحت طاعتي وأحكامى . »

وبعد لجؤ شيوخ الرزيقات الى سلطان دارفور طلب منه الزبير تسليمهم له وعندما رفض السلطان ، وجد الزبير ذريعتة لشن الحرب عليه . ومن الواضح ان الزبير ركز عينيه منذ زمن على دارفور وصمم على ضمها لامبراطوريته الصغيرة بقوة السلاح ، فالتجاء بضعة شيوخ من الرزيقات للفاشر لايمكن أن يكون المبرر الحقيقى لان يشن الزبير حربا ضارية ضد سلطنة الفور القوية التى ظلت مركز الثقل الوحيد فى تلك الارزاء لعدة قرون . وهذا أمر واضح فى تخطيط الزبير الماكر للقضاء على السلطان ، وهو يرسل له عشرات الخطابات للانذار والنصح ويستشهد بكل علماء الدين فى دارفور وكأنه يرفض الحرب ، ويستعد فى نفس الوقت بنشاط للمعركة الحاسمة ، ولما اكمل استعدادده بدأ فى استفزاز السلطان ابراهيم طالبا منه الاستسلام . وأخيرا تحرك السلطان فبعث باحد جيوشه بقيادة أحد وزرائه :

« بعد أن بعث لنا السلطان ابراهيم جوابه المذكور آنفا جهز لنا جيشا عرمرما مؤلفا من مائة وتسعة وثلاثون الفا نفر منهم من ستون الفا من الفرسان لاسبين الزنخ ومقلدين بالاسلحة النارية، وخمسة وعشرين الفا من المشاة حاملين الاسلحة النارية، والباقيون متقلدون السلاح الابيض من سيوف ورماح، وجعله تحت قيادة عمه السلطان حسب الله ومن معه من أكابر وزراء سلطنة دارفور وهم الوزير على الدادنقاوى والى دارفور القبلية، والوزير حسن ولد ايلي والى دارفور الغربية، والوزير آدم والى الجهات البحرية، والوزير رحمة قوموا والى الجهات الصعيدية، وفى يوم الثاني من رجب ١٢٩١ (١٥ اغسطس ١٨٧٤) وصل ذلك الجيش وأحاط بنا من كل فج وقت ذلك كانت جيوشى مؤلفة من اثني عشر الفا منهم مائتين سوارى فقط مقيمين داخل الاستحكام آمنين هجمات العدو وتعدياته وفى اليوم المذكور نشبت الحرب بيننا من قبل طلوع الشمس إلى الساعة الواحدة ليلا وتوالى الحرب مدة ثلاثة أيام على هذا النسق وفى اليوم الرابع رفعوا خيامهم من تحت خط النار وما برحوا يقاتلوننا مدة ثلاث ايام آخر الا أن قوتهم صارت تناقص يوم بعد يوم وجيوشنا لم تزال داخل الاستحكام وفى الساعة العاشرة نهارا من اليوم السابع عشر فى الشهر المذكور خبرنا بواسطة الخواسيس ان الامير حسب الله قد دعا كافة رؤساء جيوشه للمداولة فى كيفية الهجوم يكون على اى صفة . لما تحقق لنا اجتماع رؤساء وضباط جيش العدو فى ليلة الخميس الموافق ثمانية عشر من رجب انتهزنا الفرصة وخرجنا تحت ظلام الليل قبل طلوع الفجر وهاجمناهم فى الخيام فما بلغت الساعة واحدة نهارا حتى نصرنا الله عليهم وقتل من قتل وولى الفرار الباقيون ورجعنا الى مركز الاستحكام الساعة الثالثة نهارا بعد أخذ الغنائم وهى الفين زرخ واسلحة ومهمات وذخاير حربية بخلاف المؤون التى جعلت عساكرنا تقتات منها ٤ أشهر تقريبا وقد كان انهزام جيوش دارفور فى هذه الواقعة انهزاما لا ينجبر كسره بعدها وعندما بلغ السلطان انهزام جيوشه غضب غضبا شديدا وجهز جيشا آخر وضمه على من بقى من المنهزمين وكروا كرة ثانية علينا فى اليوم السابع والعشرين من رجب ووقع الحرب بيننا وبينهم لمدة ٤ ساعات فدارت الدائرة عليهم وولت جيوشهم منهزمة وانتصرنا عليهم نصرا عزيزا وقتل من عائلة السلطان وأكابر اصحاب الرتب خلق كثيرين

واسر منهم من أسر في ذلك اليوم وتوالى ورود الجيوش لمحاربتنا نحو التسعة دفعات كان لنا النصر والظفر عليهم فيها . »

كانت هزيمة السلطان الاولى تمهيدا للمعركة الفاصلة بين الزبير وجيش السلطان الذى قاده بنفسه . بدأ السلطان تقدمه في فجر الخامس من رمضان عام ١٢٩١ « ١٦ أكتوبر ١٨٧٤ » وقد حجبت حشوده المائلة الأفق عن أعين المدافعين وبدأت معركة داره :

« لما انتشر الرعب في قلوب الاهالى والجيوش باسرها قضت دواعى الاحوال على السلطان بالقيام لمحاربتنا بنفسه فجهز جيشا مؤلفا من مائة وخمسين الف فارس وثمانية مدافع جبلى احدهم قديم الصناعة وعزم على القيام لمحاربتنا بنفسه عندما علمنا بما عول عليه سلطان دارفور من تجهيز للجيوش واتيانه لمحاربتنا بنفسه ، اخذنا في تقوية وتحصين الاستحكام وصرفنا للعساكر الذخائر والمؤونات الكفاية ولبشنا في غاية الاستعداد منتظرين قدوم السلطان بجيوشه ليلا ونهارا ، وكانت جواسيسنا تأتينا بالاخبار عن المحلات التى يتزل فيها والتى يرحل منها فى كل يوم ، وفى اليوم الخامس من شهر رمضان ١٢٩١ الساعة الرابعة نهارا قدمت الجيوش وفى الساعة السادسة هاجمونا ونشبت الحرب بيننا لغاية الساعة الواحدة ليلا وقد قتل فى ذلك اليوم من فرسانهم خلق كثيرين ورجعوا خائبين الى الخيام ونحن وعساكرنا داخل الاستحكام وفى اليوم السادس قبل طلوع الشمس هجمت جيوشهم علينا واشتد القتال حتى بلغت الساعة الرابعة نهارا فهزموا شر هزيمة واخرجوا من خط النار وقد قتل فى ذلك اليوم اولاد السلطان واخيه واولاد اعمامه واولاد عماته وأغلب فرسانهم وخلق كثيرين ، وبعد الظهر كروا راجعين وهجموا علينا واذا ذلك كان السلطان فى جيوشه ومازالوا يحاربونا بكل شجاعة وبسالة الى ان فصل الليل بيننا وبينهم ورزقنا النصر من قبل الله عز وجل ، وفى الليلة السابعة من شهر رمضان بعد ان رجع السلطان بجيوشه الى الخيام بعث لنا رسولا يحمل خطابا منه مضمونه التهديد والذم والسب والاهانة فى حقنا وزيادة التهديد وأقسم بالله العظيم ان لا بد من هجوم الصباح ودخوله الاستحكام قوة واقتدارا ويؤدى صلاة الجمعة فى مسجد داره داخل الاستحكام ، وبعد ورود ذلك الجواب بدأنا فى الاستعداد لملاقاته ، وفى الساعة

الخامسة ليلا اطلقت جيوش السلطان خمس واربعون مدفعا وماكانت جيوشنا
تجاوبهم مطلقا بل لبثوا في غاية الاستعداد لدفع هجمات العدو الى ان اصبح الصباح
وحين ذاك رأينا الأرض خالية من الجيوش وباقي من مهماتهم مدفعين وبعض
خيام فقط ولما ان تبين لنا هروب العدو حقيقة ليس من باب الخداع خرجنا من
الاستحكام ثانيا وفي اليوم الثاني عشر من رمضان « ٢٣ أكتوبر ١٨٧٤ » خرجنا
مجددين السير أثر العدو وبعد الاستعداد الكافي وصرف الذخائر والمؤن للعساكر
ومازلنا الى الساعة السادسة من يوم السبت ١٣ رمضان ، ولما اخذنا والعساكر
الراحة لمدة ثلاث ساعات ، قمنا في الساعة التاسعة ومازلنا نجد السير لحد الساعة
الساعة التاسعة من ليلة الاحد ، فوجدت السلطان قد نزل بجيشه في بندر يقال له
منواش ومعه من العساكر نحو الثلاثون الفا و٦ مدافع وكان قد بلغه خبر حضورنا
من اثره فتجهز لمحاربتنا ورتب عساكره بمنة ويسره وقلب وكان هو ومن معه
من الابطال المعدودين من اقاربه ، وغيرهم والمدافع في القلب وصاروا منتظرين
حضورنا وقبل طلوع الشمس عندما وصلنا اطلقوا علينا نحو الاحدى عشر مدفعا
وماكانت عساكرنا تجاوبهم بل صرنا على هيئة حرية منظمة قاصدين القلب حيث
كان السلطان وجميع امرائه وأقاربه فهجمت علينا عساكره ميمنة وميسرة واشتد
القتال بيننا فما مضى نحو الخمس دقائق حتى انكشفوا عنا وتفقهروا . وعندها
هاجم السلطان ومن معه بالسلاح الابيض والاسلحة النارية فهزم مقدمة جيوشنا
ودخل في وسط القلعة بشجاعته وبسالته حتى خيل لمن رآه انه الاسد الضارى وبعد
ما اشتد الحرب وتفاقم الكرب قتل السلطان ومن معه من الفرسان والشجعان وكان
ذلك اليوم الرابع عشر من شهر رمضان ١٢٩١ وبعد شروق الشمس بنصف ساعة .

وكان الزبير وهو يتقدم نحو دارفور قد طلب معونة من الخرطوم فقاد
الحكمдар اسماعيل ايوب حملة للاشتراك معه في الغزو ولكن الزبير تمكن من
سحق جيش السلطان ودخل الفاشر قبل وصول الحكمدار فبدأ في تنظيم سلطنة
دارفور التي سميت بمديرية دارفور . بعدها نشب الخلاف بينه والحكمدار .
فطلب الزبير مقابلة الخديوى ليرفع له شكواه . وعندما وصل لمصر احتجز هناك .
ولما غادر الزبير السودان ترك خلفه ١٥٠٠٠ مقاتل مدرب كان من ضمنهم :

الزراكي طمل ، وحمدان أبو عنجة ، والنور عنقرة .

بعد انتهاء سنوات بيكر الخمس تلفت الخديوى اسماعيل باحثا عن رجل تتوفر فيه نفس صفات بيكر من شهرة وصلابة وشغف بالمخاطرة ليحكم اقاليمه النائية مكملا مابدأه بيكر . فطلب مساعدة احد مشاهير ذلك العصر وهو الجنرال غردون ، ظانا ان سمعة الرجل وحدها فى حالة موافقته على العمل فى السودان لمحاربة الرق ، كفيلة بأن ترضى الدول الاوربية ومثيلها فى القاهرة . وشهرة غردون كان لها وزن كبير فى ذلك الحين ، فقد كان ملوك ورؤساء العالم يتنافسون فى كسب موافقته ليقدم معهم فشرة « قائد الجيش الذى لا يقهر » « Leader of the ever victorious army » قد سارت بها الركبان وراء سور الصين العظيم وهو بطل حصار سياستبول فى روسيا ، والكيب تاون فى افريقيا وقاهر جزيرة موريش ، فكان اسمه يساوى جيشا كاملا .

وقد عين غردون حاكما على مديرية خط الاستواء بصلاحيات واسعة سمحت له باختيار مساعديه من الاوربيين الذين تجمعوا فى القاهرة على أن يلحقوا به فى الخرطوم . ومن هنا بدأت ظاهرة استخدام الاوربيين كاداريين ليحلوا محل سابقينهم من المصريين وسرعان ما لمعت أسماء جسي الايطالى ، وتشالى لونج الامريكى ، وسلاطين النمساوى ومسادليه الايطالى .

واستمر غردون فى اتمام لاكتشافات بيكر ومسح منطقة منابع النيل . وشهد العامان ونصف اللذان قضاهما غردون فى الاستوائية (١) نشاطا محموميا امضاه بين رحلات الاستكشاف والمسح الكامل لكل المنطقة ، وتعقب بقايا تجار الرقيق وانشاء الحمايات العسكرية والنقاط القوية التى كانت أكبر انجازاته . واتخذت فى النهاية

(١) على الرغم من أننا ستعرض لغردون وأثره فى هذه الأحداث فى مكان آخر الا انه من المرجح ان تلك الفترة التى امضاها غردون فى الاستوائية هى التى شهدت أول التوبات السوداوية التى اشتهر بها فيما بعد فمرافقة الأمريكى تشالى لونج Chalielong يتحدث عن انقطاعه منفردا داخل خيمته لا يراه أحد لعدة أيام وقد وضع علما امام باب خيمته كعلامة فى أنه لا يرغب فى رؤية أحد .

Strackey, L. *Eminent Victorians* (London, 1957).

Moorehead, *The White Nile* ;London, 1962), p/69.

Nutting, A. *Gordon* (London, 1966), pp. 109, 118. 119.

شكل قرى ومستعمرات سكنية . وعندما قدم غردون استقالته عام ١٨٧٦ ترك خلفه عشرات من الحاميات والمستعمرات على طول امتداد النيل الأبيض امتدت حتى روباكا عاصمة يوغندا .

وعندما غادر غردون الخرطوم كانت الامور قد وصلت دركاً سيئاً ، فقد اشتمكت مصر في حرب باهظة النفقات مع اثيوبيا ، وازدادت عبثاً جديداً الى اعباء خزانة الخديوى الحاوية . فدفعت به ضائقته المالية للالتفات نحو الاقليم المتخلف الفقير . وفرض على عامله فى الخرطوم مبلغ مائة وخمسون الف جنيه سنوياً على ان تساهم بحر الغزال بثلثون الف جنيه والاستوائية بعشرين الف من عوائد العاج وريش النعام . على أن هذه كانت ارقاما نظرية فقط . فكل خبرات الاقليميين امتصتها التحسينات التى أدخلها غردون فى الاستوائية ، وتمويل حملة غزو دارفور التى اشتركت فيها الحكومة مع الزبير . وازداد الخديوى عبثاً جديداً عندما أمر بإنشاء خط سكة حديد من مصر الى الخرطوم على ان تقع اعباء نفقات بنائه على مديرتى دنقلا وبربر . وعندما فاقت تكاليفه طاقات الاقليم المحدودة أمر بتأجيل دفع مرتبات الجنود والموظفين ، وهؤلاء بدورهم لكى يتحصلوا على ما يقيم أودهم ضاعفوا نشاطهم فى جمع الرشاوى والضرائب . وانعكس الوضع على السكان : ضرائب لا طاقة لهم بها بدون مقابل ، لخدمات اجتماعية ولا عدالة أو اماناً مستتباً تبرر هذه الضرائب ، بل شقاء فوق شقاء وفساد وظلم . وناءت الاقليم تحت وطأة الضائقة المالية والقهر الجماعى . فبحر الغزال وكردفان استنفدت طاقتهما فى نفقات غزو دارفور ، ودنقلا وبربر فى نفقات مد السكة حديد ، وباقى الاقليم كان عليها أن تدبر الجزية السنوية لارسالها لمصر وأن تدبر مرتبات الموظفين والجنود .

وحتى اسماعيل أحس أخيراً بالضائقة الاقتصادية التى طحنت أقليمه الجنوبي ، عندما انعكست فى العائد السنوى المتضائل سنة بعد سنة ، وشعر أنه قد تورط فى السودان لمدى بعيد ، وأن تلك الاراضى الشاسعة كانت أكبر من أن يتمكن من ادارتها بامكانياته المحدودة ، وأن أملة قد خاب فى الخيرات المتدفقة المرجوة . ولكن الموقف فى نظره لم يكن بهذا السؤ ولا يزال هناك بعض الأمل ، فلازال الخديوى يحتكر تجارة سن القيل ، وعلى الرغم من إبادة الاقبايل بعشرات

الالوف الا أن هناك مناطق أخرى لصيد الافعال لازالت عذراء ولم تمس ، والصمغ وريش النعام لازالا يدران عائدهما السنوى . الأمر يحتاج فقط لرجل حازم سريع التصرف ، لاصلاح ذات البين مع الحبشة وتنظيم ادارة الاقليم والاقاليم الجديدة التى انضمت له مثل دارفور وبجر الغزال لكسر شوكة سليمان الزبير وأعوانه الذين لازالوا يعتبرون أنفسهم ملوكا متفصلين ، ثم طرد الموظفين المرتشين الذين امتصوا الجزء الاكبر من العائد السنوى وسمحوا بتسرب جزء بسيط منه للقاهرة . ومن كان الشخص الوحيد الكفيل فى ذلك الحين بتنفيذ هذه السياسة غير غردون ؟ وهكذا عرض عليه الخديوى هذه المرة منصب حاكم السودان وقبل هذا المنصب بسرور . فقد كان تحديا جديدا لروحه الهائمة وراء المصاعب والمغامرات . وقد بدأ غردون بداية عملية ، ونجح فى السنة الاولى فى فبراير ١٨٧٧ أن يؤمن ساما سريعا على الحدود الاثيوبية وفى تهديته مديريه دارفور المضطربة وتوطيد علاقات قوية مع سليمان الزبير حاكم بحر الغزال ، وأوقف العمل فى خط السكة حديد موفرا نفقات انشاؤه الباهظة . ثم أصدر منشور تحريم الرق مراعىا الظروف والواقع ، فقانونه الجديد يصفى الاسرقاق تدريجيا فى مدى عشر سنوات يعتق فيها جميع الرقيق فى السودان . وعين جيككر البلجيكي مسئولا عن تنفيذ هذا القانون .

ولكن التمهل والأترا ن سرعان ما فارقه بعد السنة الاولى . وبدأ تقلبه ونزواته ونزعاته المفاجئة المشهورة فى البروز مرة أخرى ، ففى السنة الثانية استبدل سياسته الحكيمة بسياسة أكثر خشونة وأقل ادراكا للظروف المحيطة بالموقف . فبدأ أولا بالاستغناء عن خدمات اغلب الموظفين المصريين الكبار واستبدلهم بموظفين اوربيين يثق فى امانتهم ، ولكن الامانة والحزم الذى ظن انه سيحصل عليهما بتعيين الاوربيين أدت الى نتائج أكثر خطورة . ويمكننا ان نتصور نظرة السكان المسلمين عندما يتولى المسيحيون امرهم ، ووضعهم اذا هبت ثورة دينية شملت البلاد من اقصاها الى اقصاها ، كان ذلك استفزازا مابعد استفزاز سواء للموظفين أو للسكان . ثم تبع ذلك مقتل سليمان الزبير غيلة بعد استسلامه نتيجة لاوشايات الكاذبة . وبذلك فقد غردون صداقة وولاء والد سليمان الرجل المنفى القوى ، وسرعان ما احتاج اليه ، ولكن بعد فوات الأوان . كما كانت منطقة جنوب

كردفان ودارفور تمثل سوقا كبيرا ومركزا للامداد الرئيسى لسليمان الزبير بالاسلحة والذخيرة فى بحر الغزال ، واحس غردون ان السلطات وقفت عاجزة فى هذه البقعة ، التى اكتظت بالبحارة « تجار الشمال كما يسميهم أهل المنطقة . » فالمنطقة كبيرة والطرق وعرة للغاية ، وبقرار واحد حاسم أمر غردون البحارة واغلبهم من الدناقلة والجعلين باخلاء المنطقة التى استقروا فيها لسنين طويلة وتراوجوا مع سكانها واصبحت وطنهم الجديد . وعندما شعر بتلك مؤلفيه فى تنفيذ قراره هذا ذهب بنفسه وامر المشايخ بتنفيذه وحملهم المسئولية المباشرة لو عثر على أحد البحارة فى تلك المنطقة . ونفذ هؤلاء اوامره بسرور . فعلى الرغم من الروابط التجارية التى تربطهم بالبحارة إلا أنهم فى قرارة انفسهم لم يكونوا لهم ودا كثيرا للاختلاف القبلى ولسيطرة هؤلاء على الاموال والتجارة والاسلحة النارية ، وعندما أتاح لهم غردون الفرصة اظهروا شماتتهم الكامنة ، فشرد التجار وصدورت ممتلكاتهم وذاع سوء المعاملة التى قابلها الجلابة فى انحاء البلاد كلها .

ولم يكن هناك وضعاً ملائماً ومهيأً للثورة مثل الوضع الذى كان عليه السودان عام ١٨٨١ : حكم استبدادى فاسد . يسنده جيش لا قيمة له . وجيش الاحتلال بلغ فى ذلك الحين ٤٠.٠٠٠ جندي وقد قسمت هذه القوة على الحاميات حسبما موضح أدناه :

١٤٣٩٠	شرق السودان وهرر
٤١٢٠	دنقلا وبربر
٧٤٧٠	الخرطوم
٥٨٣٠	كردفان
٤٨٦٠	دارفور
٨٨٦	بحر الغزال
٢١٣١	خط الاستواء

ونصف هذا العدد كان من الجنود السودانيين الذين اما اعيدوا من مصر للسودان للخدمة فى جيش الاحتلال بعد تدريبهم ، أو كانوا من البازنجر « جنود الزبير باشا » الذين تم ضمهم لجيش الحكومة بعد مقتل سليمان الزبير على يد « جسى »

وهؤلاء كونوا النواة الاولى للجهادية ابو عنجة المشهورين .

ولكن ذلك العدد الضخم كان قليل الاثر من الناحية القتالية ، فأغلبهم كانوا من غير النظاميين « الباشزق » و « البازنجر » وقد كان الاعتماد على حيوية الموظفين والاداريين اوضح اثرا من القوة العسكرية للجيش ، ولكن طالما كان اغلب هؤلاء من المسيحيين ، فقد أضعف ذلك موقفهم كثيرا في وجه ثورة أهم سماتها انها ثورة دينية . كما كان التدريب معدوما لأن اغلب وقت الجنود كان منصرفا الى الاعباء الادارية كجمع الضرائب وغيرها . أما روح الانضباط فقد كانت مفقودة تماما . أولا لان قادتهم لم يكونوا باى حال خير مثال يقتدى ، وثانيا لعدم انتظام دفع المرتبات كما سبق ، وقد كثرت حوادث تمرد الجنود واشهرها تمرد الجهادية بكسلا عام ١٨٦٥ ، واغلب الحاميات لم تكن محصنة تحصينا كافيا و لم تكن محصنة على الاطلاق . ثم ان توزيع القوات كما سلف كان توزيعا خاطئا فقد كان تطبيقا للعمل « ضعاف في كل مكان وأقوياء في لا مكان . »

ونظرة اخرى سريعة لتوزيع قوات الاحتلال الموضح اعلاه اول مايلفت النظر فيها هو عدم تناسب حجم القوة مع كثافة السكان . ويبدو أن تركيز القوات في شرق السودان اتخذ نتيجة للتهديد الاثيوبي ولم يعاد النظر فيه بعد ذلك . كما نلاحظ ان المناطق التي اشتعلت فيها الثورة واستمدت منها قوتها في أيامها الاولى كمناطق النيل الابيض وكردفان ودارفور تسيطر عليها قوات بسيطة سواء عدديا أو من ناحية الاعداد القتالي . ولاتناسب مع سكان المنطقة المقاتلين بطبيعتهم والمتمرسين في استخدام الاسلحة النارية .

وان جيشا كانت هذه حالته من انعدام التدريب والاعداد والتجهيز والروح العسكرية لم يكن بالتأكيد القوة التي تستطيع ان تقف في وجه ثورة شاملة تطبق حرب العصابات تطبيقا امثلا ، معتمدة على خفة حركاتها وتأيد الغالبية العظمى من السكان لها .

لقد نلخص شقير أسباب اشتعال الثورة المهدية في اربعة اسباب وهى :

أ - كراهية السكان للحكومة منذ أول ايامها لبطش الدفتردار وابادته لآلاف

المواطنين .

ب - فساد الأداة الحكومية وثقل الضرائب على المواطنين .

ج - تحريم تجارة الرقيق مما تسبب في نفور التجار الذين تركزت في أيديهم القوة والسيطرة والاسلحة النارية .

د - محاربة الحكومة لبعض القبائل والطرق البدوية .

ويمكننا ان نضيف لها نزع الاستقلال الغريزية للسكان ، فهي لا يمكن أن تفارق قوما كانوا أحرارا ينضوون تحت ممالك أو زعامات وطنية . ولئن بدا أن تلك النزعة اختفت ، فلأن القوم ذهلوا بادى الامر من الاسلحة النارية وقوة جيوش الاحتلال . ولكن عندما خبر هؤلاء قوات الاحتلال وحكومته وخدموا في وظائفها المختلفة ، بل وعندما صاروا ضباطا وجنودا في جيشها وعرفوا ضعفها وخورها ، سرعان ما اختفت الهيبة والهالة التي أحاطت بالحكم الأجنبي .

وما ذكر أعلاه من الاسباب والعلل لا تخلو كلها من الصحة . ولكنها لم تكن الاسباب الرئيسية ابدا ، فالصفحات التالية ستوضح الروح التي خاضت بها تلك الجماهير مئات المعارك . فلا يعقل أن تكون الدوافع التي حدثت بتلك الالوف للاندفاع في وجه الموت مرارا ، بل طالبة اياه باصرار . تكمن كلها في الاضرار بمصالحها التجارية أو الاجتماعية ، مثل الغاء الرقيق أو زيادة الضرائب . ولعل الاجابة تكمن في ظهور العقلية القيادية النائرة . ومقدرتها الفذة في الهام والهاب الجماهير ، وشحنها بطاقات معنوية وقيم ومثل سامية مكنت هؤلاء القوم من تقديم مثال نادر في التضحية والسمو . عقلية محمد أحمد عبد الله الذى دخل التاريخ باسم المهدي .

الامام المقاتل

« لاجدال في أن ذلك الرجل كان يستمتع بأذكي عقلية وأسنى وضوح رؤيا في
المليون ميل مربع التي أصبح صاحب الكلمة العليا فيها بلا منازع . » (١)
ونجست

الطبيعة الفاضلة المجذبة تعوض أبناءها دائماً ، فكما حرمتهم خصوبة الأرض
وسهولة الحياة ، منحتهم الصلابة والصبر والشجاعة ، صفات المقاتل الكامل .
والفراغ الطويل وقسوة الحياة تجعل السكان كثيرون التأمل في انتظارهم الطويل
للخلاص ولحياة أفضل . فإذا أضيف لذلك القهر ، والهبوط المعنوي والضعف
المادي للسلطة الحاكمة أصبحت المنطقة كالهشيم الخاف لاحتياج الا الى هسب صغير ،
وتندلع بعدها النيران .

ومنذ قديم الزمان ، انتشرت في العالم الاسلامي فكرة المهدي المنتظر : الذي
عندما يظهر « يملأ الأرض عدلاً وخيراً كما امتلأت ظلماً وجوراً » و « يبيد الظلم
وأهله ويعز الاسلام بعد ذله ويدعو الى الله بالسيف ماكان » فمن أبي قتل ومن
نازعه خذله .

وقد بدأت الثورة المهدية كالعاصفة الرملية ، لا يدري أحد من أين تأتي
أو متى تبدأ ، ولكنها تندفع فجأة وتمضي في طريقها بسرعة ماحقة ، وهي مكتسبة
قوة من داخلها ، جاذبة معها كل الرمال التي ظلت ساكنة لسنين ، لتزيد الاعصار
قوة وعنفا .

ان سيرة المهدي والثورة المهدية قد وصفت عشرات المرات وفي أكثر من
مجال ، ولكن مايعنينا هنا هو الأثر الذي تركته تلك العقلية التنظيمية الهائلة ، ومن
سار على نهجها من الاشخاص والأحداث والمعارك ، وعلى ذلك الجيش الذي

“There is no doubt that this man had the strongest head and clearest
mental vision, in the two millions square miles of which he more or less
made himself master”.

Wingate Pasha
Chief of Egyptian Intelligence

أذهل أعداءه بشجاعته في صباح يوم ٢ سبتمبر ١٨٩٨ عندما تدافع عشرات الألوف نحو الموت دفاعا عن دعوته . فعلى ربي كررى وقف رجال لهم خبرة قتالية جبارة ، فمنهم من ساهم في القضاء على أبو السعود وراشد والشلالي ، ومنهم من تبع هكس في تقدمه عبر بوادي كردفان وأجهز بحرا به على جيشه الخائر ، وبعضهم خاض المياه الضحلة في خندق الخرطوم ليصل الى سرايا غردون ، أو ألهب ظهور منقذيه البريطانيين بالجرار وهم يتقهقرون شمالا ، ومنهم من تقدم سبعة وثلاثون يوما مع أبي عنجة في حملته العبقريّة عبر مضائق جبال الامهرا ومن شارك عثمان دقنة في معاركه الثعلبية ، وأغلبهم غمس أسنة سلاحه في دماء انجليزية وإيطالية وحشية ومصرية وتركية . ولئن حاولنا تتبع وحصر واحدة من المجالات العديدة التي مارست تلك العقلية نشاطها في ساحته ، وهو المجال العسكري الاستراتيجي ، فالاعجاب ثم الدهول سيصبح هو احساسنا الطاغى .

وقد أجمع جميع من أرخوا سيرة المهدي على أنه أمضى أغلب السنوات التي سبقت مجاهرته بدعوته ومنذ صباه الباكر في المطالعة والقراءة والتحصيل والتثقيف ، لانقطعها الاخلوات طويلة يقضيها متأملا مفكرا ، وتلك الفترة التي أمضاها المهدي قارئاً متأملاً هي التي أسهمت اسهاماً أكبر في تكوين شخصيته ، فقراراته وتخطيطه وحتى خطاباته ذات الاسلوب المترف تكشف عن عقلية صقلت وتشربت بالمعرفة الغزيرة . وإذا أضفنا الى ذلك الذكاء الطبيعي الوقاد ، برزت مواصفات تلك العقلية الاستراتيجية الفريدة . وتلك المعرفة الأصيلة وجدت من يكملها من الناحية العملية والتكتيكية عند انضمام قاداته المشهورين وعلى رأسهم خليفته عبد الله بن السيد محمد . شخصية الثورة الديناميكية .

والنجاح العسكري في أعلى مستوياته ، يكتمل عندما تتوفر له ثلاثة أركان :

- (١) دوافع معنوية تستمد من المؤثرات الروحية أو البيئية .
- (٢) فكر عسكري لانتاج النظريات والمبادئ العسكرية وتطويرها .
- (٣) القوة العسكرية المادية لتطبيق تلك النظريات .

ولعلنا قد تعرضنا في الصفحات السابقة للمحات سريعة للعنصر الأول من

هذه العناصر ، والخوض في مجالاتها ليس من أهداف هذه الصفحات .

أما الركن الثاني ، فلا بد للمرء أن يتساءل عن المدرسة التي اغترف منها المهدي أفكاره العسكرية التي مكنته من تحقيق تلك الانتصارات المذهلة ، وفي ذلك الزمن الوجيز . يمكن تخمين الاجابة بسهولة : ان الثقافة والاطلاع المستمر اذا أضيف اليهما الاستعداد الذهني والذكاء الطبيعي الوقاد هما أحد مكونات نجاح التخطيط الاستراتيجي الذكي . وهذا بالطبع مبدأ عام لا يمس التخطيط العسكري فقط . ومن الخطأ النظر للثقافة الوحيدة المتوفرة في ذلك العهد وفي تلك البيئة ، وهي الثقافة الدينية ، نظرة سطحية تقتصر على جوانبها الروحية والوجدانية فقط ، وبحسبانها قاصرة عن تغطية كل نواحي النشاط الانساني . ففي الأزهر الشريف ، وقبل عصر النهضة الاوربية بقرون ، كانت علوم الفلسفة والجدلية والمنطق والفقه تدرس وتهدب . وكل تلك تسربت عبر بصيص الرواق السناري وعبر مشايخ الطرق والزوايا والخلوى الى التلميذ والقارئ النهم ، محمد أحمد عبد الله .

ويمكننا أن نكون أكثر تحديدا ونمضي ونقول أن أحد المصادر الرئيسية التي اسهمت في نمو مقدرة المهدي العسكرية ، هي دراسته للتاريخ العسكري الاسلامي . فسيرة الدعوة الاسلامية في أيامها الأولى ، كانت عبارة عن سرد لتاريخ عسكري مجيد حافل . والقارئ لقصة الاسلام الأولى يقرأ أيضا ، شاء أم لم يشأ ، تاريخا عسكريا . وتأثر المهدي وتطبيقه لمبادئ الحروب الاسلامية ، تطبيقا حرفيا أحيانا واضح ولا يحتاج منا لاثبات . فكما هاجر الرسول (ص) هاجر المهدي ، وعندما وقف لدخول معركته الاولى معركة أبا كان عددرجاله ثلثمائة وثلاثة عشرة «وأتهم بصبيان الخلوة» كان ذلك نفس العدد بالضبط الذي خاض به الرسول (ص) معركته الاولى . ولعل حشده لو زاد فردا عن ذلك العدد لاقصاه ، ولو نقص فردا لأتمه . ولا يمكننا أن نفرق أبدا بين الملابس التي احاطت باحتلاله منهل البركة وبين معركة بدر . والادلة والشواهد كثيرة تدل على أن المهدي كان قارئاً لهما للتاريخ الاسلامي . وان كان ذلك مسئولاً عن انتصاراته الكثيرة في اغلب الاحيان ، فقد كان ايضا مسئولاً عن الهزائم القليلة التي منى بها . فالاستراتيجية العبقريّة التي خاض بها معارك أبا وقدير وشيكان والخرطوم غفرت واخفت في بعض الاحيان القصور

التكتيكي الشيع الذي برز في واقعة يوم الجمعة ٨ سبتمبر في الأبيض ، فمبادئ الاستراتيجية لاتتغير الا تغيرا طفيفا عبر القرون والاجيال ، ولكن المبادئ التكتيكية تتغير دواما كنتاج مباشر لتغير التسليح والمعدات .

أما الركن الثالث ، القوة المادية ، فقد احتضنها منذ أن قرر نقل الثورة لكردخان ودارفور ، فتلك مناطق تكتظ بالآلاف المحاربين الأشداء ، والقتال والفروسية من طبيعتهم وغبيرتهم كما اسلفنا . ومنذ اللحظة التي قرر فيها القيام برحلته الاستكشافية الأولى لكردخان كان قد قرر امرا حاسما ، وهو نشر الدعوة بصفحة السيف لاصحيفة الورق ، وبالدم الاحمر وليس بالحبر الاسود . فهؤلاء القوم الذين توجه نحوهم لم يشتهروا أبدا بأنهم أهل فقه أو دين ، بل كانوا مقاتلين أشداء متمرسين . ولا يمكن الا أن نلمح تأثير مستشاره الحربي في ذلك الحين - الخليفة عبد الله المقاتل القديم الذي جاس تلك المناطق مقاتلا ومغامرا واسيرا .

وثناء رحلته الأولى الاستكشافية بدأ المهدي الدعوة سرا واستطاع اقناع أغلب زعماء العشائر في كردخان وجبال النوبة بالانضمام اليه وأبدى هؤلاء حماسا فوريا لبدا الثورة الا أنه طلب منهم الانتظار الى أن يحين الوقت الملائم . وعن طريق هؤلاء تسرب الأمر الى عدوه القديم الشيخ محمد شريف الذي كان له بالمرصاد ولم يغفل عنه لحظة واحدة ، وبلغ الامر للحكمدار رؤوف باشا الذي لم يبال بالأمر كثيرا في البدء ، ظانا انها وشاية من محمد شريف مبعثها الاحقاد القديمة . ولكن محمد شريف وضع بين يديه بعض منشورات المهدي كدليل قاطع . فكتب هذا لمحمد احمد متسائلا ، وختم خطابه متحلا له العذر لعل بعض الوشاة زور تلك الخطابات . ورد عليه محمد احمد بان الخطابات صادرة منه وليس من غيره ، فارسل مبعوثه ابو السعود الى المهدي لاحتضاره للخرطوم وتبرير موقفه امام هيئة علماء الحكومة الرسميين . فكان ذلك المشهد الذي سبق وصفه في مطلع هذه الصفحات . وقبل أن يصل ابو السعود للخرطوم سارع المهدي وابلق الحكمدار رسميا ببرقية ارسلها من الكوة « واما المواعظ للمؤمنين فمن لم يصدق طهره بالسيف » وبذلك القى المهدي القفاز في وجه الحكومة .

عاد أبو السعود لرؤوف وبسط له نتائج رحلته ، فجهز هذا كتيبة حملت

على باخرة نيلية ومعها مدفع تحت قيادة ابو السعود وسارت الباخرة النيلية متوجهة جنوبا للقبض على محمد أحمد الذى تمكن من تجميع ثلثمائة وثلاثة عشرة رجلاً من القبائل المجاورة من دغيم وكنانه والعمارنه، وهى أول القبائل التى أيدته. وبينما كانت بارجة أبو السعود فى طريقها لأبا، بدأ المهدي فى الاستعداد للمعركة القادمة . وهنا بدأت النواة الأولى لتنظيم جيش المهدي الذى نما حتى أصبح أقوى جيش فى افريقيا.

من أين استمد المهدي اسس تنظيمه الاولى ؟ المصدر ببساطة هو الخلاوى والطرق الصوفية . ففى ذلك الحين كان مريدو الطرق الصوفية يتجمعون فى الموالد أو المناسبات الدينية فى مواكب شبيهة بالعرض العسكرى ، يقسم فيه الحواريون والمريدون الى رايات ومقدمين وتتقدمهم الطبول والأناشيد والادعية والتكبير . فقد قسم المهدي رجاله الى خمس (١) رايات كتب على كل منها اسم احد الاولياء . ثم قسم القوة كلها لحوالى ٣٠ جماعة جعل على رأس كل جماعة مقدم .

وفى الثلث الأخير من ليلة ١٢ اغسطس وبعد ان بايع المهدي جنوده تقدم لمقابلة العدو خارج القرية وكن لهم فى الطريق ، فشاهدوا الجنود وسمعوا صراخهم وهم يتقدمون خلال الحشائش العالية ، بينما اصطف هؤلاء فى صمت تام ترفرف فوق رؤوسهم الرايات الخمس .

أما أبو السعود فقد قسم جنوده الى قسمين وعقد قيادة كل منهما لضابط برتبة رائد مع الوعد بالترقية لمن يقع المهدي فى أسره أولاً ، وقد كان هذا الحافز هو أحد الاسباب التى أدت الى أباداة الحملة .

رست الباخرة فى أبا فجرا ونزل منها الجنود من غير نظام ، اذ بلغ أولهم قرب الحلة وآخريهم لم يزل بالباخرة . وانفصل النصف الثانى ليطوق القرية من الشرق وتدافع القائدان يتسابقان لاسر المهدي للفوز بالترقى فوصلا فى وقت واحد للقرية . وظن القسم الايمن ان الرايات المرفقة فوق رؤوس محاربي المهدي هى الرايات التى توضع فوق القبور عادة ، فاستمر فى التقدم الى أن اصبح على مسافة قصيرة من صفوف المهدي ، فحرم جنوده من ابراز تفوقهم النصارى ومكن

(١) لم توضح أوراق على المهدي من كان قادة الرايات الخمس الا وائل ولكنه ذكر اسماء بعض المشاعير من الثلاثين مقدما .

صفوف المهدي من الاقتحام والالتحام معه بدون خسائر تذكر . ولما تنبه اخيرا الى ان هذه هي صفوف العدو امر باطلاق النار . ولصعوبة الرؤيا أطلق كلا القسمين النار على الآخر . وفي وسط هذا الاضطراب ، انقض المهدي الذي كان كامنا برجاله في هجمة واحدة على الجنود الذين غاصت اقدامهم في الأرض الطينية ولم يستطيعوا حراكا لاتخاذ مركز ضربنا احسن . وتمكن من ابادة العدو في دقائق الا من ثلة بسيطة استطاعت السباحة لتلحق بالباخرة ، ولكن أبا السعود الذي هزته مقابلته الاولى مع المهدي أمر ربابها بالاقلاع وبالتالي لم يعد أحدهم للخرطوم ابدا .

وماحدث في ذلك الاشتباك يبرز سمة تلاحظ دائما في انتصارات المهدي الاولى ، اذ كان يستغل الارتباك والاختطاء العسكرية الشيعة خير استغلال فكان دائما يتحين اللحظة المناسبة ليضرب ضربه القاضية ، ولحظة الضعف هذه لاندوم طويلا كما دل الارتباك الذي حدث في أبا ، والاهمال والاستخفاف الواضح في حملة يوسف الشلالى ، حين نام جنوده ملء اجفانهم فلم يتخذوا أبسط الاحتياطات من دوريات أو ديدبانية ، وكذلك الخلافات الدائمة بين علاء الدين وهكس وتكديس قواتهما في ذلك المربع الذى لا يحيطه رام مهما بلغ من خطأ تصويبه .

انتشرت انباء انتصار المهدي انتشارا كهربائيا في كل انحاء القطر ، وأسرعت القبائل التى لازالت تعطى وزنا للبقية الباقية لهيبة الحكومة وأرسلت مبعوثيها الى ذلك الشيخ الذى هزم قوات الحكومة برجاله العراة الضعاف .

ولكن المهدي كان آخر من تئمله خمرة النصر ، فقد أدرك ان الحكومة لن تسكت على هزيمتها وان ابا ستصبح قفصا كبيرا لو انتظروا بها ، فهاجر لكردفان بعيدا عن محالب الخرطوم وانضم اليه في الطريق آلاف الرجال مبايعين المهدي بأرواحهم ، فلن يفقدوا شيئا غير القهر والضرائب والعذاب .

واختيار المهدي لتوقيت الهجرة كان اختيارا جديرا بالاعجاب . ومن تلك اللحظة بدأ ذلك الحس الاستراتيجى الصادق يلزم كل قراراته . فالسكان في

مركز حشد الجديده كانوا قوما يهزم الانتصار والتجّاح الحربي . وعندما هاجر من ابا هاجر وهو منتصر بعد أن سحق قوات الحكومة ، ولكنه ان هاجر قبل المعركة فلن ينظر اليه خلاف النظرة الموجهة للاجئ مطارد .

وفي اكتوبر ١٨٨١ أصبح المهدي بعيدا عن قبضة الخرطوم ولكنه صار أقرب الى حامية فاشودة القوية التي لم ينتظر قائدتها حتى الاذن من الخرطوم وتحرك بكل حاميته نحو حنفة المحتوم .

جمع راشد بك قوة تزيد على الف ومائتين رجلا وقد أدرك ان المفاجأة هي خير سلاح يستخدمه ضد المهدي . واتخذ كل الاحتياطات لمنع تسرب اخبار تقدمه ولكن احدى نساء قبيلة كنانه « رابحة الكنانية » رأت الجيش يتحرك ليلا بسكون ، فسارعت الى المهدي سائرة على قدميها يوما وليلة بدون توقف وأبلغته النبأ فسارع المهدي بإرسال طلّاع الاستكشاف من الفرسان وسلّحها بسلّاحه النارى القليل وجمع رجاله ولم يتجاوزوا ٨٠٠٠ رجل ، فقد فقد كثير من الرجال وقاسى الامر من الجوع والعطش فى اشهر الخفاف . وامضى أيام الانتظار فى التدريب والاستعراضات العسكرية وحث رجاله على الاستبسال فى المعركة القادمة . ولما ترامت الانباء من الرعاة عن اقتراب راشد بك من خور مجاج ، احد الخيران القريبة ، أمر المهدي بضرب النقاره . وتقدم فى ليلة ٢٨ ديسمبر باصطفاف القتال خارج القرية للاشتباك مع العدو . كان اصطفاف القتال شبيها بتكتيك المعارك الاسلامية الاولى . موجات المشاة تكونت من رجال اصطفوا كصفوف الصلاة بالضبط ، والفرسان على الجناحين . وكمن لراشد والتحم به ، كان مشهد المعركة هو المشهد المعتاد ، رجال لا يهزم ابادة الموجة الاولى من صفوفهم برصاص العدو ، لو وجد هذا فرصة فى فتح نيرانه ، والنتيجة واحدة ، الابادة الكاملة لكل قوات الحكومة .

وبعد انتصاره على راشد ازداد تدفق المؤيدين نحو قدير حتى تجاوز عشرات الالوف ، وهنا شعر انه قد حان الحين للبدء فى تنظيم الجيش فأصدر منشوره الاول لتنظيم الوحدات والقيادات قتاليا واداريا . وقد جاء فى المنشور الموجه الى كل أفراد الجيش « الى احبابه » (. . .) ورأس ذلك الامثال للامير الذى هو مميز

الحروب . . قال صلعم ، من اتبع اميرى فقد اتبعنى ومن خالف اميرى فقد خالفنى ، قد نهت غير مره فى موافقة الاخوان لامرائهم والامراء لخلفائهم والكل للخليفة عبد الله ، ففى ذلك راحة بالناس واقامة الدين وقد وردت سابقا حضرة ان مقاديم اهل الراية الزرقاء ينقادون ليعقوب وهم ويعقوب ينقادون للخليفة عبد الله ودغيم ومن فى راية الخليفة على ينقاد لموسى ود حلو وكنانة لايشير وعمارنه لابي بكر عامر، والحسينات لعبد القادر ود مديح وكلهم ينقادون بالمحبة للخليفة على . وتكون جميع هذه القبائل مع الخليفة على كرجل واحد وكلهم ينقادون للخليفة عبد الله وكذلك راية الخليفة شريف جميع امرائها ومقاديمها يتفقوا وينقادون لعبد الرحمن النجومى وهم ينقادون للخليفة شريف المذكور وكلهم ينقادون للخليفة عبد الله)

وأوضح تفاصيل التنظيم الواحدات الصغرى فى مناشير لاحقه ، منها منشوره المؤرخ جمادى ١٣٠٠ الموجه للشيخ محمد الحاج احمد : (. . . كونوا انصار الله ولا تكونوا انصار لنفسكم تطلعون حظوظها وتنسون حفظكم من ربكم سبحانه واندرجوا تحت راية عبد الله بن النور بعد ان تختاروا أميرا على العشرة مقاديم ، والراية على اختيار عبد الله انه اختارها لكم والسلام . . .)

وامضى الشهور التالية فى شبه معسكر تدريب انتظارا لوصول الحملة الجديدة التى ترامت أخبار تقدمها نحوه ، وانضم إلى معسكره فى تلك الاثناء احد مشاهير قادة المهديّة ، حمدان أبو عنجة يرافقه يونس الدكيم . ثم بدأ فى ارسال طلائع الاستكشاف ، ولكنه لم يكن بحاجة لعمليات الاستكشاف ، فما أن غادر الشلالى الخرطوم حتى بدأ فى شن الحرب النفسية ضد المهدي مرسلا للمهدي الانذارات والمنشورات متفاخرا بتعدادده وتسليحه .

وفى رد المهدي المشهور الذى أرسله للشلالى أوضح عدة أمور جوهرية . فقد سأله الشلالى كيف يرسل طلائع الاستكشاف ويدعى فى نفس الوقت أنه المهدي المنتظر ورد عليه المهدي « أما قولك أن ارسال الطلائع ينافى دعوة المهديّة لان علم الغيب ضرورى لها فنقول لك هذا جهل منك بسيرة الرسول (ص) فانه كان يرسل الطلائع كحذيفة اليماني وبلال والزبير بن العوام »

وعن اتهامه ان رسالته دينية فكيف يستعين بالبقارة الجهلاء :

« . . . وقلتم ما اتبعنا غير الجهلاء واراذل البقارة فاعلم ان اتباع الرسل عليهم السلام كانوا كذلك ولا بد ان يجعلك الله ومن معك غنيمة للبقارة واعلم اني منصور على كل من ناواني وان عزرائيل ملك الموت يحمل رأية (١) سوداء أمام جيشي » .

أما حملة الشلالى التى كانت رد فعل الخرطوم على هزيمة حملة راشد ، فقد بدأت فى التحشد فى الكوة منذ أول مارس . فى أواسط مايو ١٨٨٢ تحرك الشلالى بكل الحملة « ١٣ سرية مشاة و ١٥٠٠ من الباشيزق » من الكوة الى قدير عن طريق فاشودة . ومنذ تحركه من الكوة اتبع المهدي معه تكتيكا مصغرا لذلك الذى اتبعه فيما بعد مع هكس . وهو المراقبة والاستكشاف وجر العدو لاراضى قتل يسهل ابادته فيها .

وصل الشلالى جبل جراداة فى مساء ٢٨ مايو وعين المهدي الساهرة تتابعه من بعيد . واختار الجبل الحصين المرتفع لبناء استحكاماته وبدأ الجنود فى تشييد زريبة كبيرة طبقا لاوامر الشلالى ليبيتوا ليلتهم داخلها ، ولم ينتهوا من تشييدها الا بعد منتصف الليل ، وراحوا فى سبات عميق اثر اليوم المنهك بالسير المتواصل وبناء الزريبة .

وكان عبد الله بنفسه فى احدى طلائع الاستكشاف ، وامضى بضع ساعات يراقب الموقف على بعد ياردات من العدو . وعاد وبلغ تقريره للمهدي . وقبل انبثاق الفجر . جمع المهدي قوته وكانت تقارب ١٥٠٠٠ وقسمهم الى ٤ اقسام كل قسم ليووجه ضلعا من اضلع الزريبة المربعة . وتحرك هؤلاء ليلتفوا حول الزريبة ويحيطوها من الجهات الاربع وانتظروا صابرين وقد امسكوا انفاسهم . وفى

(١) لعل هذا يفسر اختياره للون الأسود شعارا لجيشه . وقد ظلت الراية السوداء « الراية الزرقاء » للنهاية هى الزاية الرئيسية فى جيش المهدي . اما بقية الرايات الحمراء والخضراء فليس هناك ما يفسر اختيار بقية الألوان غير الرغبة فى التمييز بين الرايات المختلفة بعد ان نظم الجيش وقسم لثلاث رايات .

الخيوط الاولى للفجر اندفع الجميع وقد اشرعوا سيوفهم (١) وهم يصيحون صيحة الحرب واستيقظ الجنود من سباتهم العميق وقد تملكهم الذعر وحاول كل منهم ان يلملم نفسه ويمسك بسلاحه، ولكن فوات الاوان فقد خرق الثوار المهاجمون الزريبة وبدأت ضربات السيوف تنهال على الجنود من الخلف والامام والاجانب ، فتركوا زريبتهم الحصينة وتفرقوا ثللا صغيرة مما سهل على الثوار اقتناصها واحدة بعد الأخرى وأمر عبد الله الحكيم مخالفا أوامر المهدي بجمع بنادق ومدافع العدو وعادوا الى جبل قدير .

* * * * *

في ٢٨ يوليو ١٨٨١ بدأ المهدي الزحف نحو الابيض ، هدفه التالي . واختياره الابيض ليوحه اليها ضربته التالية تكشف ، ليس للمرة الاولى وللاخيرة عن ملكاته الاستراتيجية الاصيلية . فباحثاها عزلت كل دارفور بضربة واحدة عن الخرطوم لتسقط غنيمة سهلة في يد مادبو زعيم الرزيقات الذي حمل لواء الثورة في دارفور . كما أصبحت كل كردفان في يده ، وأوضح احتلالها انه قد اختار التقدم لهدفه الاعلى وهو الخرطوم بسلوك وتقدم غير مباشر بدلا من التقدم نحوها مباشرة وهي لازالت منيعة . ولكن الدرس الذي تعلمه المهدي في الابيض ، كان أقيم من الوفاء للجهادية الذين انضموا لصفوفه ، وآلاف البنادق واطنان المون التي غنمها . ففيها تعلم ان الاقتحام المباشر في وضوح النهار مصيره الانكسار مهما تفوقت قوات الهجوم عدديا . وان الشجاعة ليست كل شيء . فبعد ان حاصر المدينة وصبر عليها لشهور طويلة قرر اقتحامها يوم الجمعة ٨ سبتمبر بهجوم مباشر . ولكن

(١) بينما قدم شقير عملية جراده واصفا هجوم المهدي بأنه كان عملية ليلية مفاجئة سريعة ، نجد ان عل المهدي يسهب في وصف معركة تكتيكية التحامية نهائية طويلة . المرجح أن وصف شقير كان أقرب للصواب فمئة أبا اتست عمليات المهدي بأنها كانت دائما عمليات مفاجئة تم في الثلث الأخير من الليل . كما ان الخسائر القليلة نسبيا التي تكبدها المهدي وهي لا تزيد عن ٢٠٠ قتيل ترجح ان العملية كانت ليلية مفاجئة والا لتكبد المهدي خسائر أكبر اذا واجهه نيران وبنادق ومدفعية ما يزيد عن ٣٠٠٠ رجس في معركة نهائية طويلة . وتزيد رواية سلاطين التي استقفا من إشتراكوا في المعركة رواية شقير .

شقير ٦٦٦.

جهاد في سبيل الله ٣٤ و ٣٥.

الالوف (١) الذين راحوا ضحية ذلك الهجوم النهاري وهم يقتحمون النيران بشجاعة متناهية، أقنعوه بخطأ مواجهة النيران مباشرة وعدل خطته فعاد وانتظر حتى استسلمت المدينة وحدها دون ان تكبده أية خسائر . وتمثلت حصيلة ذلك الدرس في التخطيط الرائع لمعركته القادمة ، شيكان ، وأهم من ذلك في ادارته لاعظم معاركه على الاطلاق . حصار واحتلال الخرطوم . فنى حصار الخرطوم كاد أن يصل لدرجة الكمال استراتيجيا وتكتيكيا .

ولكن شيكان كانت هي البداية الحقيقية لتطور جيش المهدي كجيش نظامي . فكما سبق . كان التخطيط والتنفيذ لاختيار الارض والزمن المناسب لتوجيه الضربات واعداد الكمائن ممتازا وناجحا للحد الذي غفر بدائية التسليح وسوء التنظيم ، منبثا عن استراتيجية اصيلة ذكية يقابلها قصور وضعف تكتيكي شنيع . فقد كان الهجوم غالبا في لحظة وموجة واحدة وتحت قيادة المهدي أو عبد الله وبالمقاتلين العزل خلا سيوف وحرا ب ، وقد سبب ذلك خسائر لامبرر لها خصوصا في حملة الشلالى ، وراشد بك وموقعة الابيض . فان الثوار وهم يتدافعون للاشتباك بالعدو احتملوا نيرانه الكثيفة التي كانت بالتأكيد كفيلة بالقضاء عليهم ؛ لولا توفر عنصر المفاجأة الناجح أو الاستغلال الرائع لطبيعة الارض .

ومن الثابت ان المهدي رفض رفضا قاطعا قبل سقوط الابيض استخدام الاسلحة النارية على الرغم من توفر بعضها متجاهلا نصيحة عبد الله . وقد لانتخاو وجهة نظره في هذا الامر من صواب . فالبنادق البطيئة في ذلك العهد كانت قليلة الأثر في مثل الكمائن التي اعدت ليوسف الشلالى وراشد . وتبادل النيران بين الجانبين يؤدى الى اطالة زمن الاشتباك مما يمكن الجانب الاقوى وهو قوات الحكومة من حسم المعركة لصالحها . ولكن الانقضااض السريع المفاجئ بالسلاح الابيض واختراق مربع العدو سواء كان داخل زربته أو خارجها للتمكن من الاشتباك بالسلاح الابيض كان أجدى وأكثر حسما وعلى كل فالنجاح هو المقياس وقد نجحوا .

(١) قدر شقير خسائر هجوم يوم الجمعة ٨ سبتمبر ١٨٨٢ بأثنى عشر ألف قتيل وقدرها عل المهدي بستة ألف قتيل .

ولكن بعد حصار الابيض واثناء الاستعداد للملاقاة حملة هكس برزت أهمية إعادة تنظيم القوة وتقسيمها لوحداث وتنظيم وتسليح مختلف : أولا لضخامة العدد الذى وصل اليه الثوار ، وثانيا لاختلاف نوعية قوات هكس عن نوعية العدو الذى واجهوه قبلا .

وصحيح ان المهدي أصدر منشوره الاول الخاص بتنظيم الجيش فى تقدير تحت رايات الخلفاء الثلاث. ولكنه كان تقسيما اداريا : "Personnel & Q Organization" وكان دور الرايات الثلاث اشبه بدور القيادات الأم "Mother Commands" فى هذه الايام فهو تقسيم ادارى ينضوى تحته الافراد لتجمع من صفوفه مجموعات الوحدات القتالية .

اما التنظيم القتالى الذى وقع عليه عبء توجيه الضربات الاستراتيجية وخوض المعركة التكتيكية فقد قسم الى ثلاثة أقسام :

١ - قوات استطلاعية تتكون من الفرسان واجبها الاول هو قطع خطوط امداد العدو الخلفية وضمان سيولة المعلومات عن سير الحملة ، وتنفيذ عمليات صغيرة فى شكل مناوشات بعيدة المدى لتسبب خسائر مبدئية للعدو وتخفيض روحه المعنوية وزعزعت ، وبث المنشورات ، وتعطيل تقدم العدو بدفن الآبار أو تسميمها . وقد اوكلت قيادتها الى أبي قرجه وتجاوز عددها ٣٠٠٠ فارس .

٢ - قوات الاقتحام الرئيسية وهى الغالبية العظمى من حاملى السلاح الابيض ومدعمة بالفرسان بقيادة ود النجوى ، تجاوز عددها خمسين الفا .

٣ - الجهادية (Rife Men) وقد تساحوا بالبنادق رمنجتون التى تم غنمها فى الانتصارات الاولى سواء فى ايا وقدير أو من ترسانة الابيض . وقد بلغ عددهم حوالى ٧٠٠٠ مقاتلا .

أما الجهادية ، العنصر الحديد المغذى لقوة المهدي الضاربة ، فقد أصبح بحق وحقيقة النواة الصلبة للجيش الحديث بفضل جهود وكفاءة مؤسسه حمدان ابو عنجه . فقد بدأ تكوينهم عندما اوكل اليه الخليفة عبد الله انشاء قوة الجهادية ، بعد اقتناع المهدي بأهمية الاسلحة النارية . اذ توفر للمهدي فى ذلك الحين بضعة الوف من البنادق ، كما تجمع عدد من الاسرى من الجنود السود ممن وقعوا فى

الاسر في حملات راشد والشلالي وبعد سقوط حاميات كردفان ، واغلبهم كان من حامية الابيض « كان بحامية الابيض ثلاث كتائب من الجهادية » وكان اختيار عبد الله اختيارا موفقا فالرجل ينحدر من نفس عنصرهم ويلم بطبائعهم ويحسن معاملتهم وربطت بينه وبينهم رابطة استمدت قوتها من صفات ابو عنجة الشخصية (١) .

وقد أشرف أبو عنجة على تدريب قوة الجهادية وتنظيمها وتسليحها الى أن أصبحت ذلك السلاح القتالي الجبار ووقع عليها العبء الرئيسي في حروب الحبشة وفي اخماد الثورات الداخلية، مثلما لعبت من قبل دورا فعالا في اباداة حملة هكس.

(١) حمدان أبو عنجة : ولد في دار التعايشة حوالى عام ١٨٣٥ ويعود اصله إلى المنفلة من قبائل السودان « المقصود بالسودان هو سكان الممالك الصغيرة غرب دارفور كالقمر والسلا والثامه أو خلافا لها التي اقامت في دار التعايشة وصاروا كأبنائهم وتزوجوا معهم » . وقد اشترك حمدان في أغلب حملات الزبير سواء ضد القور أو الرزيقات وأسر مادبو زعيم الرزيقات . كما اشترك في غزوات رابع الزبير في أفريقيا الوسطى وتشاد ومنها عاد إلى دار التعايشة . وحين هبت الثورة أرسل الخليفة يستدعيه فوصل لتقدير يصحبه يونس الدكيم بعد رحلة طويلة .

وأبو عنجة كان مؤسس الجهادية الأول بلا نزاع ومن كبار المساهمين في تطور الفكر العسكري وأول ما ربط جنوده به هي الرابطة الشخصية التي استمدت من صفاته الشخصية ، فقد كان عطوفا متدينا ومحترما من الجميع على الرغم من شجاعته وبعثه . فالرجل الذي كان يصطاد الفيل منفردا بحرته بشجاعة متناهية كان بارعا في ادارة الرجال . وقد وضحت سيطرته وتأثيره على جنوده في ثلاث مناسبات . فعندما اقتربت حملة هكس وتحرك أبو عنجة على رأس الجهادية لمناوشتهم وقف المهدي وقال لهم « هؤلاء هم الذين خدمتم في صفوفهم سنينا طويلة وكانوا يدفعون لكم مرتباتكم وهاهم قد حضروا لقتالنا فان شتم فانضموا لهم » فرفضوا وبكى أغلبهم من التأثر . ولما توفي أبو عنجة في القلا بات انقلب كل المعسكر لبيت مأتم كبير وكان أولئك الرجال ينوحون ويدفون أحر الدموع لا يام عديده . وما اشتهر به لجهادية من شراسة خلق وحب للنهب وانتراع ما يرغبونه بالقوة لم يظهر الا بعد وفاة أبو عنجة « لا زالت عبارة اخلاق الجهادية شائعة في بعض مناطق السودان كناية عن شيق الخلق والشراسة » وكان الخليفة يعرف صفاتهم هذه فكانت مسكراتهم دائما خارج المدن . واخلاق الجهادية هذه وحساسية الخليفة منها ستلعب دورا كبيرا في الملايسات التي احاطت بمعركة أم درمان ومجزرة المنمة .

وحتى سلاطين ذكر أبو عنجة بالخير ووصفه بالوداعة والكرم . ولعل اللمة الانسانية الطريفة الوحيدة التي ذكرها سلاطين في كتابه كانت عن زوجة أبو عنجة . فقد ذكر سلاطين انه عندما كان أبو عنجة متحفزا عليه في الامر حسب أوامر الخليفة كانت تصله اطياب الطعام . ولما كلف أبو عنجة بالهجوم على أم درمان أصبحت زوجته لا ترسل له الا الذرة النبتة ولما احتج هو قالت له صاحكة « وهل يدنى سلاطين أن اسمه انا هنا بينما عملك غردون يقتل رجالنا . »

فقد كان مجرد انشائها مفاجأة استراتيجية كبرى لهكس . فقد افادت آخر معلومات جمعتها مخابرات هكس قبل مغادرته الخرطوم ان قوات الثورة لاتسلح بالاسلحة النارية اطلاقا . ولعل هذا يلقي قليلا من الضوء على كثير من العوامل التي ادت الى ابادة جيش هكس . ورجل متمرس مثل هكس لم يكن ليتقدم بمثل هذا المربع كقطعة واحدة وفي مثل تلك الارض وعبر ذلك الطريق مما يسهل احداث خسائر كبيرة في صفوفه لولا انه توقع مواجهة عدو تختلف نوعيته كثيرا عن العدو الذي واجهه فعلا .

* * * * *

وفي عام ١٨٨٢ أصبحت بريطانيا مسئولة رسميا عن مصر وممتلكاتها بعد موقعة التل الكبير وهزيمة عرابي التي سرح بعدها الجيش المصري . وكانت سياسة بريطانيا في بادئ الامر ، عدم التدخل في السودان وعدم التعرض لاي اجراء تتخذه الحكومة المصرية نحوه ، ولكن عندما قررت الحكومة المصرية تجهيز حملة كبيرة لسحق الثورة واستعادة الحاميات التي سقطت وبعد ان اتضح خطورة الموقف واستيقظ رؤوف اخيرا من سباته الطويل ، وافقت الحكومة البريطانية على مد الحكومة المصرية بالضيابط اركان حرب الحملة . وتحركت الحملة من القاهرة (١) يوم ٧ فبراير ١٨٨٣ .

استند تجهيز الحملة في مصر للجنرال هكس (٢) بصفته رئيسا لاركان القوة

(١) لعل من الغريب الأمور في حملة هكس ان تعدادها لم يعرف حتى الآن بالضبط ، ولا يتفق عليه مصدران . فالتقدير الذي قدمه شقير ٨٠٠٠ مقاتل اعتمد على المكاتبات الرسمية أثناء تجهيز الحملة قبل وصولها للسودان أو من الذين انسحبوا منها قبل التقدم للغرب ونجد المهدي يقدر العدد باحتراس فهو يذكر كلمة « قيل » في خطابه الذي أرسله لعشمان دقته مبشرا اياه بالنصر في ٩ يناير ٨٤ « وعددهم كما قيل ٣٦ ألفا » ومن المستبعد ان يصل تعداد الحملة لهذا العدد ، ولكن تقدير شقير أبعد من الحقيقة ، فالمرغوف ان عددها تضاعف بعد وصولها السودان بعد انضمام الوف كثيرة من حاميات السودان ومن الاداريين والحمالين .

شقير ٧١٧ - أوراق على المهدي - جرد هكس .

Prisoner of the Mahdi p 67

(٢) رشع جنرال فلايتين بيكر هكس للحكومة المصرية .. وتأم أشد الأثم عندما علم بمصير هكس . ولعل هذا يفسر اصراره على قيادة حملة البحر الأحمر على الرغم من ظروفها السيئة .

فتولى هو تجميعها من قلوب عراقي ، والاخرى انه تولى جرها جرا لساحة القتال ، فقد وصل بعضهم وهم فعلا مقيدون بالسلاسل ولم تفك عنهم الا بعد أن وصلوا الخرطوم .

وهكس كان ضابطا متقاعدا خدم أغلب مدته فى الجيش الهندى واشتهر بالكفاءة وحارب فى عدة حملات فى الهند . ولكن عند وصوله السودان بدأت الخلافات منذ اللحظة الاولى بينه وبين الحاكم العام علاء الدين الذى كان هكس يعارض تدخله فى الامور العسكرية ، وتضايق كثيرا من اصرار علاء الدين على مرافقة الحملة ومن ثم طلب ان توكل اليه قيادة الحملة أو يستقيل . فاجيب الى طلبه وتولى قيادة الحملة . وفى الخرطوم اقام معسكر للتدريب قبل التحرك ختمه بمناورات بالدخيرة الحية اشتركت فيها المدفعية وفى نهاية المناورات عاق عليها قائلا « لم أشهد فى حياتي مثل هذه القوضى وسؤ النظام . »

وقد بدأ الخلاف الرئيسى حول اختيار اى الطرق تتخذها الحملة للابيض ، وكان رأى هكس اختيار الطريق الاقصر طريق بارا (١٧٦ ميلا) الا انه يمر بصحراء قاحلة . واختار علاء الدين الطريق الثانى الذى يمر بنخور ابو حبل والرهة وطوله ٢٦١ ميلا ، ولكنه كثير الماء والاعشاب لاطعام الجنود والحملة . ولكلا الرأيين مايبرره ، ولكن طريق بارا يتوفر فيه مجالا اوسع لتلك القوة الكبيرة لكى تناور وتتحرك وان تدافع دفاعا تتوفر فيه اراضى قتل واسعة تتناسب مع تسليحها المتفوق ، بحيث تتمكن من احداث خسائر كبيرة فى الثوار سواء ان كانت مدافعة أو مهاجمة . ولو سلك هذا الطريق لاصبحت نيران جهادية ابو عنجة اقل اثرا لعدم توفر السواتر القريبة ، ولما حققت طلائع ابو قرجة المتقدمة بفرسانها ماحقته ، ولما استطاع المحجوم الرئيسى الشامل بقيادة ود النجومى ان يبيد القوة فى اربعين دقيقة (١).

(١) كتب ونجت فى يومياته بعد ان زار ارض معركة شيكان بعد اثنين وعشرين عاما : لو ان محاولة استعادة الابيض قامت بها قوة أكبر واكفاء كثيرا من قوة هكس لكانت النتيجة واحدة . فالسلطات فى ذلك العهد لم تقدر الموقف حق قدره ولم تقدر الصعوبات الناتجة عن تحريك قوة ضخمة عبر اراضى كاراضى كردفان .

“Had the efforts to return El Obied been conducted by a far more numerous and efficient force, the result would have been the same. The Government of that period neither realized the situation nor appreciated the enormous difficulties attendant on the move of a large force through such country.”

Wingate, P. 88.

وبعد اكتمال التجهيزات تحركت الحملة يوم ٨ سبتمبر ١٨٨٣ جنوباً بجذاء النيل . وفي ٨ سبتمبر ١٨٨٣ وصلت الحملة الكوة وفي ٢٤ سبتمبر فارقت النيل من الدويم واتجهت غرباً ، ومن هنا بدأت مسيرة هكس المتكودة التي دامت أكثر من ٦ أسابيع ، ففي ٢٩ سبتمبر وصلوا المربيع ، ولأول مرة شاهدوا العدو . ولكنهم شاهدوه فقط ولم يتمكنوا ابداً من الالتحام معه . واصبحت تلك هي السمة الدائمة لعمليات أبو قرجه ، العدو من الفرسان يظهر دائماً فجأة كالاشباح وينطلق مبتعداً بعد أن يحدد فيهم جيداً . فقد اندفع أبو قرجه شرقاً من الابيض بقيادة ثلاثة الف فارس انتشروا على طول طريق الحملة وخلفها ولم يتصلوا بهكس الا بعد ان توغل غرباً ، وبعدها اكثروا من المناوشات فلم يذق جنود هكس طعماً للثوم الا أفاء طوال مسافة الطريق . وقد سارع المهدي فأرسل المنشورات لكل اهالى المنطقة لاختلاؤها وتجنب الاشتباك اشتباكاً حاسماً مع العدو ، والاكتفاء بمناوشته من بعيد ودفن الآبار . وبدلاً من أن يجد هؤلاء منطقة مكتظة باهالى محايدين أو اصدقاء وجدوا انفسهم في منطقة قاحلة خالية من السكان . ومارس ظهور المئات من فرسان أبو قرجه يومياً وتسلبهم كالماء بين الاصابع وهم يتابعون العدو خطوة بخطوة ، تأثيراً نفسياً قوياً على هكس وجنوده .

كان مخطط المهدي لمواجهة هكس . مخططاً ذكياً . اعتمد على تجنب المواجهة وجره بعيداً لتمديد خطوط تموينه وازعاجه وزعزعة نفسيته الى أن يجذبه الى ارض القتل المختارة ليقتضى فيها عليه قضاءاً نهائياً . وصرعان ما بدأت أبرز سمات أسابيع التقدم الستة في الظهور . وهو الخلاف الدائم بين علاء الدين وهكس ، فبعد مشاجرة اختيار الطريق الاولى ، اختلفوا في استخدام الفرسان هل يجمعونهم داخل المربع ام خارجه لحماية الاجناب . ولما تقدمت الحملة وبدأ العطش ، العدو الجديد الرهيب . في النيل منهم اصبح الشجار وعدم اطاعة الاوامر يتكرر يومياً . ثم ثار الخلاف مرة أخرى حول خطوط الامداد الخلفية . فقد اقترح علاء الدين انشاء نقاط عسكرية على طول خط الامداد للمحافظة عليه وانضمام اتصاله . ورفض هكس بحجة ان تلك النقاط ستعزل وسيصبح من السهل ابادتها .

وثار الجدل مرة أخرى عندما رفض هكس الاستماع لتوصيحة الادلاء الذين

استأجرهم علاء الدين ، فلم يكن هكس يثق فيهم اطلاقاً ، ولا يمكن ان يلام على ذلك فقد ثبت فيما بعد ان الجنود والجمال كانوا يتساقطون بالعشرات من تأثير العطش بينما كانت موارد المياه لاتبعد أكثر من ميلين في أغلب الاحيان (١) وفي نفس الوقت كان هكس يصبر على اتباع الطرق الضيقة وسط الاشجار ظاناً ان الخضرة تدل على وجود الماء . ووضحت مفكرة عباس بك هبوط الروح المعنوية واعتقاد الجنود والضباط ان هكس يقودهم لحفهم متعمداً : (٢) هل هذه كفاءة الانجليز التي يتحدثون عنها ؟ ! ان يقودنا الجنرال في مسيرة عمياء مخالفا نصيحة الادلاء حمداً لله انهم لم يحرقوا القش (٣) والا لكان موقفنا عصيباً .

واخيراً وضع ان مصير الحملة ونجاحها يدور حول محور واحد وهو الحصول على ماء الشرب ، فقد حلت أشهر الجفاف وبدأ العطش يفتك فتكا ذريعاً بالحيوانات والجنود . والحصول على الماء هو الذي حدد أخيراً نهاية الحملة .

(١) ذكر بعض المؤرخين ان وصف تأثير العطش على حملة هكس كان وصفاً مبالغاً فيه وان الزمن كان من خريف والأرض مترعة بالخيران والبرك . ولكن مفكرات عباس والكابتن فركهار ومن استجوبوا فيما بعد اجسموا على أنهم قاسوا من العطش . ومعركة شيكان حدثت في أوائل نوفمبر وهي نهاية الخريف في تلك المنطقة وعند الاستقصاء عن كمية الأمطار في تلك الفترة من الزمن افاد سكان المنطقة ان نهاية اكتوبر وبداية نوفمبر تشهد مطراً خفيفاً يدعى اليخات « أرجو الا تخدعنا الكلمة باعتبارها بشارت خير للملوك الأمطار . بل هي بشارت بنضج محصول ما » اذا فالاحتمال الأكبر هو اما ان عام ٨٣ شهد موسم الجفاف مبكراً عن عادته او ان كميات المياه لم تكن تكفي حاجة كل الحملة من بشر وحيوانات .

جهاد في سبيل الله ص ٥٣

The Diary of Abbas Bey, pp 12, 14, 16, 17. Wingate Papers, Durham

(٢) مفكرة عباس بك هي الوثيقة الوحيدة التي تصف الايام الأخيرة لحملة هكس حتى اللحظة الأخيرة . والطريف في أمرها انه عثر عليها مصادفة عندما كان أحد الضباط البريطانيين يفتش جثة أحد قتلى معركة أمدرمان باحثاً عن تذكارات يأخذها معه فعثر في ملابسه على مفكرة جلدية وأمرع وقدمها لونيكت الذي أدرك قيمتها وسارع بترجمتها للانجليزية . والنسخة التي اطلعت عليها في اوراق نونيكت هي النسخة المترجمة وليست الوثيقة الأصلية التي كتبت باللغة العربية . وهناك أشياء كثيرة غامضة عن حملة هكس لان القلة التي نجت وعاشت بعد المعركة لم تسجوب الا بعد اثنين وعشرين عاماً بعد المعركة . أما مفكرات ادونوفان وفركهار فوقعت في يد سلاطين وهو الوحيد الذي قرأها وقدم اجزاء منها من الذاكرة عندما نشر كتابه .

The Diary of Abbas Bey

Wingate Paper Box 18.

Slatin, Rudolf, *Fire and Sword in the Sudan* (London, 1896), p. 241.

(٣) تطايرت الاشاعات وسط الحملة أن المهدي سيحرق القش والغابات ويقض عليهم حرقاً - ولابد أن الذي منع المهدي من ذلك حتى بعد انذارهم هو رغبته في الحصول على السلاح والعنادة سليماً .

The Diary of Abb Bey, Wingate Papers. Box 18.

كان المهدي يتابع تقدم هكس خطوة بخطوة ولما علم باقتراب هكس ، أقام معسكرا كبيرا للتدريب خارج الابيض توسطته رئاسته التي كان يتقبل فيها تقارير ابو قرجه ويوزع جهوده على مسرح عملياته الذي امتد لمئات الاميال . والثابت انه كان يستلم عدة تقارير يوميا عن موقف العدو وكانت كلها تقارير دقيقة مفصلة . فخلال خيول ابو قرجه ، تطلع كثيرون للعمل وسط صفوف هكس كأدلاء أو كقناتين . وتحسن تصور المهدي لموقف العدو كثيراً بعد فرار احد الاوربيين وانضمامه لقوات ابو قرجه . واعتمادا على المعلومات التي قدمها هؤلاء بدأت خطته العبقريّة تأخذ ملامحها أخيرا .

كان أمامه مسلكان : اما ان ينتظر ويدافع في الابيض ، وينتظر قدوم عدوه المتعب المتناقص الاعداد بعد مناوشات ابو قرجه ، أو يواجهه في ارض قتل مناسبة قبل وصوله الابيض . وقد اختار الثانية . فحسب المعلومات التي قدمتها مصادره عن قلة المياه ومقاساة الحملة من العطش ادرك انه ان اراد ان يفرض ارادته على العدو ، وأن يجذبه لمسرح المعركة المختار فعليه أولا السيطرة على مورد المياه الوحيد في طريق تقدم هكس ، وهو منهل البركة ، وبالتالي يجذبه لارض القتل المختارة في كاشقيل وبالتحديد في غابة شيكان ، حيث تكفل اشجارها الكثيفة السواتر اللازمة لجهادية ابو عنجه للتقدم وصب نيرانهم على العدو ، وحيث يعوق الطريق الضيق تحركات مربع هكس الضخم ويحد من مقدرته على المناورة وتحقيق الصدمة المطلوبة ، وحيث تحرمهم الاشجار من ميدان ضرب نار مكشوف يتيح لنيرانهم المتفوقة ابراز فعاليتها .

تحرك المهدي هذه المرة بكل جيشه الذي تجاوز تعداده ستون الف مقاتل من معسكره خارج الابيض الى فرتنقول ، ليصبح جيشه الرئيسي قريبا من هكس حتى يتمكن من التحرك وتوجيه الضربات السريعة ، وبدأ السباق نحو منهل البركة . ولما وصل هكس لعلوه ادرك المهدي ان هدفه هو احتلال منهل (١) البركة فأرسل

(١) كان المهدي واثقا من دقة تخطيطه للحد البعيد ففي المجلس الحربي الذي عقد قبل يومين من نشوب المعركة أبدى أحد المتحدثين « ابراهيم الترجماوي » مخاوفه من أن هكس ربما يتدفع للابيض الخالية من المقاتلين ويحتلها متخطيا منهل البركة فقبل ان المهدي قال له « .. غدا يوم الأحد يتوجه هم وفي صبيحة الاثنين بعد ان نأمرهم بحاربتهم اذا تأخر أحدكم لا صلاح فعله لم يدركهم احياء »

محمد عبد الرحيم - الشاهد في دفع الاقراء - ص ١٤٤

طلبة مكونة من ألف فارس بقيادة محمود عبد القادر . فوصل محمود منهل
البركة واحتله ، وضمن بذلك السيطرة على المكان الاستراتيجي المهم — كما ضمن
اجبار العدو على اتخاذ طريق الملبس الذي يمر بغابة شيكان . وفي يوم السبت ٢٠
نوفمبر كان هكس في مصران أم برد أقرب لشيكان من المهدي ، ولو بدأ التحرك
لتجاوزها قبل ان يتمكن المهدي من نقل جيشه الرئيسي من فرتنقول . فامر المهدي
اصحاب الخيول باحداث ضجة عظيمة ليوهم هكس بان الهجوم الرئيسي على
وشك الوقوع . فاضطر جيش هكس للتوقف وبناء الزريبة ، بينما كان جيش
المهدي يبعد مالا يقل عن ١٥ ميلا . وبعد ان توقف هكس نفذت خيول ابو قرجة
عملية نقل ضخمة لكل الجهادية ، فقد اردفوا كل جهادية ابو عنجة على ظهور
خيولهم واسرعوا وانزلوهم في بداية الغابة .

كمن الجهادية خلف الاشجار التي أحاطت بجانب الطريق وتسلقوا اعاليها .
وما ان ارخى الظلام سدوله حتى وجهوا نيرانهم الكثيفة نحو مربع هكس الضخم .
وبينما كانت قوات الاقتحام المكونة من حملة السلاح الابيض والفرسان تتقدم
بقيادة ود النجومى نحو كاشقيل ، كانت نيران ابو عنجة تحصد في الدواب والجنود
الذين تكدسوا وهم لا يستطيعون شيئا حيال النيران التي انهالت من اعلى الاشجار
ومن الاجناب ومن الخلف . وقد وصف الكابتن هيرلث اثر نيران ابو عنجة في
ليلة ٤ نوفمبر قائلا : « كان يوما سيئا فمعنوياتنا هابطة فنحن داخل غابة . لقد
امر الجنرال الموسيقى بالعزف آملا ان يخفف ذلك علينا قليلا ، ولكن الفرقة الموسيقية
سرعان ما توقفت عن العزف فقد انصبت النيران علينا من كل الجهات وبدأ الرجال
والجمال والبغال يتساقطون بسرعة واحدا بعد الآخر ، فتنجمنا وانضمت صفوفنا
فاصبحت كل طلقة تصيب مقتلا . لقد اصاب منا الارهاق والتعب مدى بعيدا
واصبحنا لاندرى ما نفعله فأمر الجنرال بالتوقف وبناء الزريبة » .

وفي صباح ٥ نوفمبر غادر هكس زريته بعد ان قسم قوته الى ثلاثة مجموعات
في شكل مثلث متساوي الاضلاع ووضع المدافع في المقدمة ، وجعل الفرسان في
الاجناب لحمايتها ومضى هو في المقدمة ومعه اركانه خروبه . ولم يكد يمتضى على تحركه
نصف ساعة حتى كان محاصرا من كل الجهات — ابو قرجه وقواته من الخلف ،

ود النجومى من الامام والجهادية ويزرانها فى الجانين يتبعونه خطوة بخطوة . ومن المؤكد أنه شعر بخطورة موقفه ولعله قد أمل ان يقطع هذا الرادى ذا الغابات الكثيفة بسرعة قبل أن يتعرض للهجوم ، واثقا ان موقفه سيصبح أحسن وأقوى لو خرج للعراء .

ولكن هؤلاء لم يمهلوه طويلا . فالمهدى وانصاره كانوا على بعد ١٠٠٠ متر تقريبا وعندما رأى الجيش يتقدم استل سيفه وهزه آمرا بالهجوم العام . فاندفعت كل قواته نحو المربعات الثلاث وابدت القوة كلها فى حوالى ٤٥ دقيقة (١) ماعدا ٣٠٠ رجل نجوا لاختفائهم تحت الجثث المكدسة . وكان اول القتلى هكس باشا فقد كان فى المقدمة وقاوم مقاومة عنيفة .

وعاد المهدي الى الابيض وقد استغنى هذه المرة عن تحرير خطابات الدعاية أو ارسال المنشير . . . فقد عمت انباء انتصاره على أكبر قوة حشدت فى تاريخ السودان كل انحاء البلاد . ولم يبق هناك شك فى صدق دعوته ، وسارع زعماء العشائر المترددين والذين كانوا يقفون موقف المتفرج للانضمام اليه . وبعدها امر ببدء الزحف على الخرطوم بجيشه المتضخم بالالوف التى انضمت اليه حديثا .

لقد كانت مسيرة المهدي من الابيض للخرطوم مسيرة شعبية هائلة دامت عدة شهور ، وأبرزت الروح الجديدة التى غمرت تلك الالوف من الرجال والنساء والاطفال الذين سارعوا للانضمام لصفوفه ولمابعته على الموت . كما برزت انشاءها مقدرته الفذة فى التعبئة المعنوية والروحية . فحتى قلم سلاطين المسموم لم يستطع اخفاء تأثيره واعجابه بتلك المشاهد التى عايشها عندما احضره المهدي أسيرا بعد سقوط دارفور .

وهناك ظاهرتان تلفتان النظر فى تقدم المهدي نحو الخرطوم وتبرزان كفاءة المهدي والخليفة كعقليات استراتيجية ناضجة . أولهما هو ادارة المهدي ، وهو فى اقاصى كردفان ، لمسرح عمليات ضخم مساحته مئات الالوف من الاميال المربعة ، ولايمكن الا ان ننظر باعجاب الى ضرباته الاستراتيجية وتوقيتاتها الموزونة

(١) دامت المعركة ٦٣ دقيقة بالضبط أى منذ ان شاهد الجيشان بعضهما البعض إلى أن ساد السكون بعد اباداة الحملة .

وهو يضيق دائرة الحصار يوما بعد يوم حول الخرطوم . فالطريقة التي وازن بها توقيتات ارساله لايو قرجة كرأس جسر لعملية الحصار من الجنوب ، واشغال الشيخ العبيد للثورة في ضواحي الخرطوم واحتلال الخلفاية ومحاصرة الخرطوم من الشرق ، كل ذلك لينسج خيوط دائرة الحصار الداخلية ليضمن انزال الخرطوم لفترة مؤقتة عن باقي السودان . ثم وجه جهده لاحكام دائرة الحصار الخارجية باحتلال بربر واشغال عثمان دفنة الثورة في شرق السودان وبذلك قطع اتصال الخرطوم بباقي العالم عبر الطريق الشرقي والطريق الشمالي .

ثم عاد مركزا جهده لاحكام دائرة الحصار الداخلية حول الخرطوم عندما دفع بأبو عنجة لاحتلال ام درمان . واكمل ود النجومى الحصار جنوبا من ناحية النيل الابيض . فاصحبت الخرطوم كالثمرة الناضجة تنتظر اقتحامه لتسقط بسهولة . فهل هجم ؟ لابل فضل الانتظار اربعة اشهر كاملة الى ان سقطت المدينة بدون خسائر تقريبا . فقد وعى درس واقعة الجمعة في الابيض جيدا .

اما الظاهرة الثانية الملفتة للنظر اثناء مسيرة المهدي للخرطوم فهي هندسة وميكانيكية عملية التقدم نفسها . فنلاحظ هنا ان المهدي لم يتقدم بالمقاتلين فقط بل تقدم بكل السكان . وتسبب ذلك في استغراقه زمنا طويلا للوصول للخرطوم كما حدد الوثبات التي يقف فيها . وسرعان ما اتخذت هذه الوثبات هيئة مدن مؤقتة . فالوصف الذي قدمه سلاطين واوهرلدر عن الرهد ، وصف لمعسكر عظيم أشبه بمدينة صغيرة . وبالتالي كان عليه أن يوازن اثناء تقدمه بين عدة عوامل ، هي التي حددت التوقيتات والمسالك والحشود . تفاوتت هذه العوامل بين اختيار الطرق التي تمر على المناطق الغنية بالحبوب لاطعام جيشه المتضخم ، وبين قرب المسافة أو بعدها من (١) الخرطوم وبين انتظار انخفاض النيل الكفيل بعرقلة تقدم

(١) ليس هناك تفسير لاستغراقه كل ذلك الزمن لنقل جيشه الرئيسي من الأبيض للخرطوم « استغرق أكثر من أربعة أشهر فقد بدأ الزحف من الأبيض قبل يونيو ٨٤ ووصل الفتيحاب في أكتوبر » خلاف رفضه البات لمعركة تصادية يترج فيها بمعظم جيشه والنيل في زمن ارتفاعه واحتمال اصطدامه بانجده كبيراً ، ولكننا نراه يلحق باجزاء جيشه يسهل عليها الا تفصل بسرعة ليعاود الكرة مرة أخرى بمجشده الاعظم الذي احتفظ به على يد مناسب من الخرطوم . ومن الخطأ تبرير تأخره كل ذلك الزمن بانشغاله بعمليات جانبية مثل عصيان سكان جبل الداير .

جيش العدو ، وقد ذكر سلاطين الذى اشترك فى التقدم ان المهدي تقدم من الرهد للخرطوم بثلاث محاور ، راعى فى اختيار كل منها اعاشة الحيوانات والمقاتلين واتباعهم . المحور الشمالى حيث يقل العشب - خصص لقبائل كردفان ودارفور التى ترعى الابل ووثباته هى خرس ، هلبه ، الترة الخضراء . والمحور الأوسط عبر وثبات طياره وشركيلا وشات والدويم - كان هو المحور الرئيسى الذى تقدم به المهدي والحلفاء والجهادية . أما المحور الجنوبي حيث يكثر العشب والماء فقد خصص للقبائل التى تسمى الماشية « البقارة » .

وعندما كان فى الرهد وصلت الانباء بوصول غردون حاكما عاما للسودان فى فبراير عام ٨٤ . وكان للنبا أثره فى اثاره البلبلة فى صفوف المهدي . فوصل رجل كغردون لايد ان تتبعه الجيوش والامدادات ، وسيعنى ذلك اطالة الحرب ، وبدأت مجالس الحرب تتوالى للبحث فى الموقف .

ولكن الحقيقة كانت شيئا مغالفا لذلك فان غردون جاء ليخلى السودان وليس ليملاؤه بالجيوش والعتاد فقد استغل الرجل شهرته وبدأ يملأ بآرائه حول الوضع فى السودان لصحافة لندن التى سبق وبألفت فى ابراز انجازاته فى محاربة الرق . موضحة تصوره للطرق المثلى لقهر الثورة المهدي . واحترم (١) الرأى العام البريطانى آراءه بصفته خبيرا فى شئون السودان . وبعد وصول تفاصيل حملة هكس اصبح ايفاد غردون للسودان صرخة شعبية فى لندن ، فكان ان فرض فرضا

(١) بينما اجمع المؤرخون على ان ما فجر الشرارة الأولى فى قصة غردون والخرطوم هو الحديث الذى أدلى به غردون لمحرر جريدة بول مول جازيت Pall Mall Gazette فى يوم ٨ يناير ١٨٨٤ عن رأيه فى أحداث السودان نجد ان مورهد يخالفهم ويوضح ان الصيحة بدأت ترتفع بعد أن نشر صمويل بيكر خطابا قوى اللهجة فى التاسع من الأول من يناير قبل أسبوع من نشر التحقيق الذى أجراه توماس ستيد مع غردون وأيد فيه آراء بيكر . على أية حال أوضح غردون فى التحقيق الصحفى سبله التام بأبعاد الثورة الجديدة . فقد ذكر ان المهدي ليس الا مخلب قط لتجار الرقيق امثال الياس ام برير ، الا ان حديثه اثار دويا هائلا خصوصا عندما تطوع احد الضباط ونشر مقالا فى نفس الصحيفة ذكر فيه ان اسم غردون وحده سيحقق المعجزات

على كرومر الذى لم يكن له (١) ودا كثيرا ، وعندما وصل القاهرة وضح كرومر لغردون بجلاء ان مهمته الرئيسية هي سحب الحاميات (٢) المصرية بسلام ، دون الدخول فى مغامرات عسكرية ، واقترح عليه كرومر أخذ الزبير معه واستخدامه كسلاح مضاد للمهدى بعد مساعدته بالاموال والسلاح .

فقد كان الزبير مسلما . وكان كرومر متفهما لأهمية هذه النقطة فى ثورة دينية ، وخصوصا بعد وصول تفاصيل استسلام سلاطين ، وعندما ذهب لمقابلة

(١) رفض بيرنج « لورد كرومر فيما بعد » استخدام غردون أكثر من مرة ، المرة الأولى محتجا بأن الرجل مسيحى وان الثورة ثورة دينية « وفى تلك برهن بيرنج انه يلم بالموقف أكثر من غردون » وفى المرة الثانية لم يستطع اعفاء ضيقه من شخصية غردون لنفسها فى أن الرجل « يستوحى قراراته من الهام نبوى » وانه لا يثق فى الآراء التى تبني على الاحساس الغيبى أو المشاعر الداخلية

“I have no confidence in opinions based on mystic feeling”

وكان ذلك عندما فاجأ غردون كرومر بتغيير رأيه فجأة فى الزبير وطلب استصحابه معه وهو الذى بعث قبل أسبوع بتلغراف من الباغرة التى أقلته من مصر يطلب فيه ابعاد الزبير من مصر . وعندما سأله كرومر عن أسباب تغيير رأيه أجاب « بأن لديه احساسا داخليا يدفعه للثقة بالزبير » .

مكى شبيكة (غردون وكتشور) ص ٩ مطبوعات جامعة الخرطوم Moorehead, 224.

ويعود نفور كرومر وغردون من بعضهما منذ أول لقاء لهما عندما أرسل لخدبوى اسماعيل غردون مندوبا له لمفاوضة الدائنين الإوربيين . فقد كتب غردون عن كرومر « تفاهنا كان مستحيلا كاستحالة مزج الزيت بالماء »

“When oil mixes with water then we will mix”

(٢) كانت أوامر غردون الرسمية التى استلمها من كرومر كالتى :

You will bear in mind the main end to be pursued is the evacuation of the Sudan. Enclosure, Egypt No 6 C. Gordon, the *Journals of General Gordon at Khartoum*.

(edited by A. Egmont Hake), (London, 1885), p. 55, Vol II.

« ويجب أن تضع نصب عينك ان الهدف النهائى للمهمة هو اخلاء السودان » .

الزبير رفض الزبير التعاون مع غردون (١) في البداية، وعندما وافق في النهاية رفضت لندن تعيينه، خوفاً من جمعية محاربة الرق. ولكنه لم يكذب يعبر حدود الحدود حتى ارسل في طاب الزبير مرة أخرى. ومن هنا بدأت سلسلة البرقيات المتناقضة تنهال على كرومر. وفي بربر ارتكب غلطته الكبرى عندما أذاع منشور اخلاء السودان. وبعدها انضمت القبائل التي كانت ولا زالت (٢) على ولائها للحكومة الى صف المهدي، فقد أحست ان قضية الحكومة قضية خاسرة.

وعندما وصل للخرطوم وبدأ يحس لأول مرة بثقل ونوعية الحركة التي يجابهها عاد وغمر كرومر الصبور بالبرقيات.

اقترح اولاً الاتصال بالسلطان في تركيا ليرسل بعثة من الجنود الاتراك الذين اشتهروا بالصلافة والشجاعة. وتجاهل كرومر اقتراحه، ثم اقترح ارسال بعض الجنود الهنود والمسلمين فهم اقدر من يواجه هذا الموقف... ورد عليه كرومر مذكراً اياه بمهمته الاصلية وهي سحب جنود الحاميات واخلاء السودان، ولا يعقل

(١) أعطى بيرنج وصفا مؤثرا للمقاومة التي حضرها غردون والزبير وبيرنج ونوبار باشا « كان مشهداً درامياً ومثيراً. فعندما تواجه غردون والزبير كانت تتجاهلها مشاعر وأحقاد عنيفة. ونمت طمعة حديثهما عن الاحاسيس التي اضطربت داخل نفسيهما وطمعتهما طمعا فقد انكر الزبير بتاتا انه حرض سليمان على التمرد على غردون، وان ابنه قتل فيله « حقيقة يوضح شقير ان الزبير ارسل خطاباً ينصح فيه ابنه سليمان بدم مخالفة غردون ويورد الخطاب. شقير ص ٥٩٨ ». واكملت مذكرات ونجت صورة المقاومة التي حضرها بصفته سكرتير اللا اجتماع: في بداية الاجتماع وبعد المقدمات مد غردون يده للزبير ليصافحه، فرفض الزبير مصافحة غردون ووضع يده خلف ظهره وقال: « لا يمكنني ان اصافح اليد التي تلوثت بدماء ابني. فانت المسئول عن اغتيال سليمان » فاجاب غردون « لقد كنت اؤدى واجبي وعلى أية حال فالخطاب الذي ارسلته لسليمان محرراً اياه على الثورة موجود الآن. » فصاح الزبير في وجهه: « كاذب.. كاذب.. كاذب.. لم اكتب هذا الخطاب ابدا. ارني اياه ان كان موجوداً ». وخرج من الغرفة فوراً. فارسل ونجت إلى القيادة للبحث عن الخطاب في أوراق سليمان الزبير واحضاره ولكنه لم يجده. وبعد تهدة الزبير عاودوا الاجتماع مرة أخرى في المساء وعند دخول غردون سارع واعتذر للزبير قائلاً: انت محق وأنا مخطئ. وانا اعتذر من كل قلبي. ارجوك قبول مصافحة يدي الممدودة ». ومد غردون يده وهنا فقط صافحه الزبير فاستمر الاجتماع. »

Wingate, p. 49

Moorhead, 225

(٢) كتب حسين باشا خليفة في ٢٢ يناير محذراً الخديوي من اعلان الجلاء. كما ذكر سلاطين ان اعلان غردون للجلاء قبل سحب الحاميات كانت احدى الأسباب الرئيسية التي عرقلت اخلاء السودان.

ارسال عدة آلاف من الهند البعيدة لانقاذ بضعة آلاف في السودان . وعاد يلح مرة اخرى في ارسال الزبير موضحا رآيه أن الاعتراض على الزبير اعتراض سخيف يتركز في شخصية الزبير كتاجر رقيق ولكن سقوط السودان في يد المهدي سيجعل السودان ، حسب رآيه ، سوق رقيق كبير . ونسى انه المسئول الاول عن خوف الحكومة من استخدام الزبير ، فقد سمعت احاديثه الصحفية المهولة صورة الزبير قبل . وعاد يتوسل مطالبا بمائتي جندي انجليزى فقط ، فهم على قلتهم كفيلون في نظره بانقاذ الموقف .

وقبل المضي في متابعة حصار الخرطوم ، لابد لنا من وقفة قصيرة مع غردون . فقد كان مقتل الرجل من الاسباب المباشرة لاتخاذ قرار اعادة فتح السودان ، وسلاحقنا اسمه حتى السطر الاخير من هذه الصفحات . فالرأى العام البريطاني أندفع في تأييد غزو السودان لانه لم ينس الالهانة التى وجهت له بمقتل غردون . ولم يحدث فى التاريخ ، منذ أن حشد الاغريق سفنهم لانقاذ هيلين ملكة طرواده المخطوفة ، ان جهزت حملة كاملة بالآلاف الرجال ، لتقطع آلاف الاميال ، لانقاذ رجل واحد ، بل وسميت « حملة الانقاذ » بدون موارد ، وكان رجالها يهتفون عقب كل انتصار لهم فى طريقهم الشاق الطويل "Gordon Remains Let Us Press on" تقدموا ، فغردون لازال حيا . « وكانت كل وكالات الانباء تتابع سير الحملة وعندما وصل نبأ مقتله أصيب الجميع بصدمة لمقتل بطل المسيحية فى العصر الفيكتورى . وللنظر نظرة واقعية لبطل المسيحية :

كان غردون ضابطا فى سلاح المهندسين ، خامل الظل والشهرة . ولمع اسمه اول مرة أثناء حصار سياستبول فى حرب القرم ، وبعدها خدم فى الصين وعين قائدا لجيش من المرتزقة جندهم التجار الاوربيون لحماية رؤوس اموالهم واكتسب جيشه لقب الجيش الذى لا يقهر Ever Victorious Army عندما اوكل اليه اخماد ثورة « هونج - سيو - تسن » تلك الثورة التى شابهت ثورة المهدي فى الكثير من خلفياتها وتطلعاتها عدا فارق بسيط . . . لقد أفلح غردون فى اخماد تلك الثورة ، ولكنه فشل هنا فى السودان ، فدفع دمه السكسوني فى

سبيل قهرها ولم يفلح . وهنا ظهرت ابعاد شخصيته بكل نزواتها وتقلباتها وما كان بالامكان ان تتكرر . وعندما عاد لانجلترا من الصين كان قبلا قد اعتبر بطلا قوميا . فالبطل في العصر الفكتوري كان هو ذلك الابيض الاملس الوسيم الذى يمضى وحيدا في دهممة الليل الى معسكر المتوحشين اما لاقناعهم بضم بلادهم للامبراطورية التى لاتغرب الشمس عنها ، أو ليكون جيشا منهم لغزو اجزاء أخرى .

وقد تعرضت شخصية غردون ومكانته فى التاريخ البريطانى لتقلبات أشبه بتقلبات شخصيته هو . ولا يمكن الا ان تكون انعكاسا لها . فقد ظل أشهر (١) بطل قومى فى بريطانيا لاكثر من ثلاثين عاما . ويومياته المشهورة التى أرسلها اثناء حصار الخرطوم The Journals of General Gordon At Khartoum قرأها كل من يعرف الانجليزية تقريبا . وفجأة أزيح الستار عن حقيقة شخصيته عندما تعرض له ستراخى فى كتابه « اسماء لامعة فى العهد الفيكتورى "Eminent Victorians" وقد استمد المؤلف أغلب معلوماته من تشالى لونج الأمريكى الذى رافق غردون فى مهمته الاولى . وأبرز بوضوح كل نقائص شخصيته من كذب وحالات نفسية تصل الى الجنون ، ومن سرقة وقوة تصل الى درجة الوحشية احيانا ، وظلت شخصيته تتأرجح بين الرايين الى أن حاول المؤرخون الحديثون تبرئته من كل تلك التهم بالنظر اليها نظرة علمية حديثة بتحليل شخصيته تحليلا نفسيا "Psychiatric" . ونظرة سريعة محايدة ليومياته التى كتبها من الخرطوم ، وهو مايمسنا ، سنخرج منها بحقائق واضحة . اولها ببساطة أن الموقف ، ومن خلفه المهدى ، كان أكبر من مقدرة غردون وتصوره كثيرا . ولم يتسن له أبدا ان يقدر الثورة ويتحسس ابعادها أو يتصور دوافعها وآفاقها . فقد كان تصوره للسودان عام ٨٤ هو نفس تصوره له عام ٧٦ . وعلى الرغم من قصر الفاصل الزمنى ، إلا ان الامر كان قد اختلف تماما ، فقد كان غوردون يواجه

(١) ليس هناك دليل على مكانة غردون فى نفس الشعب البريطانى اوضح من أن كرومر ، الذى تناوله قلم غردون بالتجريح والاساءة والسخرية فى كل يوم من يومياته ، لم يستطع ان يخالف التيار الذى مجد غردون . وظل صامتا لاكثر من ربع قرن ولم يجرؤ على نشر حقيقة غردون أو يدافع عن نفسه الا عام ١٩٠٧ .

ثورة كاملة شاملة بدوافع روحية ومعنوية توجه طاقات ملايين من البشر وتختلف تماماً عما اصطدم به من حركات صغيرة، مثل تمرد سليمان الزبير أو تهديد الجلالة وتجار الرقيق ، أو حتى ثورة شين وانج في الصين ، التي كان سحقها أكبر انجازاته العسكرية ، واقدرها . فارساله بضعة ملابس موشاة للمهدى وتعيينه سلطاناً على كردفان ، ظنا منه ان المؤامرات والكذبات الصغيرة كفيلة بأن تلهي المهدي مثلما افلحت من قبل مع اتباع سليمان الزبير ، توضح انه لم يتسن له أبداً تصور الموقف على حقيقته . وان حدث هذا في اول حضوره فله العذر ، فما باله بعد سنة امضاهها محاصراً يكتب في آخر فقره في يومياته بان ظهور تحسين جنديا (١) بريطانيا بملابسهم الحمراء الزاهية كفيل بأن يفرق ستون الفا من الرجال الشجعان المسلحين شذرا مذرا . ولم يكن يعلم ما فعله بضعة الوف من هؤلاء الرجال ، وفي نفس اللحظات التي سطر فيها عباراته . عندما اصطدموا ب ٢٠٠٠ جندي بريطاني في ابو طليح .

ولو حاولنا ان ننظر نظرة موضوعية لغردون فليبدأ بذكر المحاسن لانها اقل واندري . من الصعب القول بأن موقف غردون في السودان كان موقف مرتزق عادي همه جمع المال ، فعند تعيينه لأول مرة في السودان رفض استلام نفس المرتب الذي كان يتقاضاه بيكر وقع بأخذ خمسة « ١٠٠٠٠ جنيه خفضها الى ٢٠٠٠ جنيه » والمراجع أن البحث عن الشهرة والمجد الشخصي هي أكبر دوافعه ، اما شجاعته الشخصية وطاقته وكفاءته العسكرية أو تعصبه الديني الشبيه بتعصب (١) من الأمور الغريبة في يوميات غردون هو تقديره لتعداد قوات الحصار من جيش المهدي. ففي الخريطة التي رسمها موضحاً توزيع قوة المهدي ومدفيعته وارفقها بيومياته أوضح أن قوة المهدي لا تتجاوز تسعة عشر ألفاً . وتاريخ رسمها هو ٢٢ نوفمبر ١٨٨٤ أي بعد وصول المهدي بأكثر من شهر وتكامل كل قوته بينما قدرها شقير بستون ألفاً . أما سلاطين الذي حضر أيام الحصار فلم يذكر شيئاً عنها ولكنه ذكر أن العدد الذي اشترك في الهجوم على هكس لا يقل عن مائة ألف مقاتل . ولم يتكبد المهدي خسائر تذكر في أو بعد شيكان بل زاد تعداد جيشه بعد انضمام سكان الجزيرة ماعدا إحدى عشر ألفاً ذكر المهدي أنه أرسلها لأبو طليح . التفسير الوحيد هو أن غردون حاول أن يقلل من شأن جيش المهدي لئلا تستغرق حملة الانقاذ زمناً أكبر في الاستعداد والحشد . وهو الأمر الذي دعاه لتفصيل حملة الانقاذ عندما ذكر أن مائتي جندي فقط كفيل بتفريق هذه الحشود .

Journals p. 352

Slatin 240

٨٢٧ شقير

المسيحيين (١) المتطهرين "Puritans" فليست كلها محل شك أو جدل . ولكن هذه الصفات تطفئ عليها صفات أخرى من ميول استعراضية وافكار صيبانية وتصرفات خرقاء وانتهازية وتحوير للحقائق (٢) لدرجة الكذب بلا مواربة احيانا . وتعتبر مثالا حيا على مقدرة العقل على تحريف الحقائق وخداع نفسه .

والواضح ان هذه اليوميات التي اكسبته قلوب الملايين ماكتبها الا لتنتشر . وكأنه احد مؤلفي قصص الاثارة ، ولا يمكن ان تكون ابدا تقارير عسكرية رسمية ترفع لقيادة عليا . فقد كتب في الخطاب المرفق :

« الاحداث في الخرطوم ،

من ٥ نوفمبر الى ١٤ ديسمبر ١٨٨٤

« تحذف منها الآراء الشخصية اذا نشرت » وأورد في صلب الخطاب العبارة التالية : « ويمكنك بالطبع استخراج ماتبعيه من الامور الرسمية وان تبقى آرائي الشخصية كما هي في حالة النشر » (٣) . فهو اذا كتبها لتنتشر وهذا مما يقلل قيمتها

(١) هذه نقطة مهمة . فقد أفلح غردون في تصوير نفسه كقديس فكل خطاباته ويومياته تحفل بعشرات من المتقطعات من الانجيل ، والمرجح أن تلك النقطة كانت هي السبب الأول في تأثر الأوربيين لمقتله . فقد أثر فيهم مقتل « الأبيض المسيحي » أكثر من مقتل « الجنرال » وهو أمر عادي .

(٢) من العدل ان نورد هنا وجهة نظر ونجت الذي عايش تلك الأحداث واستجوب كل من خرج حيا من حصار الخرطوم : ففى رأى ونجت ان أكبر اخطاء ومتاعب غردون وعدم مقدرة على وزن الأمور وزنا صحيحا نتجت من عدم معرفته للغة العربية حديثا أو قراءة أو كتابة . وان القارىء لليوميات اذا أعطى هذا الأمر بعض الوزن لوضحت له أمور كثيرة .

وان المترجمين أو المستشارين ضللوا غردون كثيرا كما يعتقد ونجت ، فغردون يعلق في اليوميات بعد استلامه خطاب النجوى .. « لم أفهم منه شيئا »

وعلى الرغم من استنتاج ونجت من أن ضعفه اللغوى منعه من استجواب الكثيرين استجابا صحيحا وأدى إلى اعتماده كلية على المترجمين في فهم ما يرمى المهدى اليه بخطاباته الطويلة وانذاراته المتعددة ، الا ان هناك أمورا أخرى لا دخل فيها لمقدرته اللغوية ، ومنها ما يراه رأى العين يتلصكه وهو يحرق في حشود المهدى كل النهار ، أو موقف الحكومة البريطانية منه .

Wingate, p. 69

"To be pruned down if published"

(٣)

C.G.Gordon

..... "You can of course make extracts of all official matter, and will naturally leave my private opinions out in the case of publication"

Covering letter, Journals.

كوثيقة تاريخية ، ومن ناحية أخرى تجعل المرء يشك أحيانا كثيرة في أن غردون أراد الموت لنفسه ، فمن الصعب ان يعرى المرء نفسه كل هذه التعرية ويتناول بالتجريح والسخرية كل المسئولين لولا انه توقع عدم مقابلتهم مرة أخرى . ولعل هذا هو التفسير الوحيد لرغبته في البقاء وحيدا في الخرطوم ، فعلى الرغم من حاجته الماسة الى الضباط والرجال الاوربيين لمساعدته في ادارة شئون المدينة والحامية ، الا أنه خيرهم بين البقاء والانسحاب ، بل في الواقع حثهم على مغادرة المدينة وكان بإمكانه بالتأكيد استبقاء رجل كستيوارت فقد كتب في يوم ٥ نوفمبر يقول « وأخبرت استيوارت بالذهاب في البارجة عباس . . . أما أنا فيستحيل ذهابي عمليا وأفضل الموت هنا » .

وهذه اليوميات التي قصد منها اعطاء وصف دقيق لاحداث الخرطوم كلها بلا استثناء تبدأ بوصف سريع للموقف حسب ما يراه بمنظاره المكبر من شرفة القصر ، ثم حصر عدد الدانات التي أطلقتها مدفعية المهدي على المدينة ، ووصف تحركات جيوش المهدي ، ثم موقف الذخيرة وأرادب الذرة ووزن البسكويت المتبقى . ثم بعد ذلك يتناول بالسخرية والتشفي والتجريح اما بيرنج أو كشنر أو سلاطين أو البرلمان والحكومة البريطانية . ثم وصف حالته النفسية وضعته ويأسه ورغبته في التخلص من هذا « الغردون » . ثم ينتقل الى مشاريعه في المستقبل وتصرفاته عندما تصل حملة الانقاذ . ويعلق على كل هذه الأحداث تعليقات صيانية وأغلب ماورد فيها خاطئ ومضلل كما ثبت فيما بعد ، ولكن حرارة الاسلوب وصدق العاطفة تجذب القارئ من الوهلة الأولى .

أما في الجانب الآخر ، جانب المهدي وانصاره ، فقد اطمأنت النفوس بعد استلامهم لمنشور غردون حين أصبح معلوما ان الرجل قد جاء وحيدا وليس له من القوة الا ماتوفر في السودان . وهو جيش طالما خبروا قتاله ورووا الارض بدماء جنوده وبدأت خطوات الزحف نحو الخرطوم تسرع قليلا .

تتحصر مدينة الخرطوم ، هدف المهدي الأكبر ، بين النيل الأزرق والنيل الأبيض . ويندفع مجراهما للشمال وكأنهما سيلتقيان في زاوية حادة الا أن النيل الأزرق ، وعلى مسافة تسعة اميال ، ينحرف فجأة للغرب بدلا من الشمال ،

ويندفع في هذا الاتجاه الحديد لمسافة ستة أميال وكأنه سيصطدم في زاوية قائمة مع النيل الأبيض ، ولكنه يحول اتجاهه مرة أخرى للشمال ليتحد ممتزجا ، لا مصطدما ، في لقاء رقيق بالنيل الأبيض . وقد انحصرت المدينة في تلك البقعة من الأرض ذات الرأس الحاد المديب . وعندما تولى عبد القادر حلمي حكممادية السودان بدأ نشاطا محمومًا لتحسين المـسـدن وتحسين دفاعاتها ، وكانت منطقة الخرطوم الدفاعية أكبر أنجازاته ، فقد حفر خندقا عميقا عرضه ١٢ متر ممتلئا بالمياه وموصلا بين النيل الأبيض والأزرق ، وبذلك أحاط المدينة بالمياه من كل جانب . ثم حصن حامية ام درمان بحائط سميك تتخلله الفتحات للبنادق وأبراج المدفعية فأصبحت المدينة أشبه بقلعة منيعة . وعند وصول غردون بدأ فوراً في تحسين دفاعات الخرطوم ، فبنى حائطا بارتفاع نصف متر لحماية حملة البنادق كما شيد أبراج المدفعية . ثم ابتكر زراعة الألغام التي صممها بنفسه ونثر في قاع الخندق قطعاً حديدية من ثلاثة رؤوس تبرز أسنانها الحادة لتصيب بالجروح اقدام كل من يعبر الخندق راكباً أو ماشياً لتعطيله (١) .

وقد وجه المهدي جهده في المرحلة الأولى من الحصار الى عزل الخرطوم ، وامتد الخيط الأول من الشبكة التي بدأ المهدي ينسجها حول عنق غردون عندما قذف بمحمد ود البصير في سنان لاذكاء نار الثورة بعد أن خمدت بعد مقتل ود المكاشفي . ولما أنهزم ود البصير امام محمد صالح الملك وبدأ هذا في تضيق الحناق عليه ، أمر المهدي ابو قرجه بالزحف لموازة ود البصير في سنان . وبدأ بعدها التقدم نحو الخرطوم . ونرى المهدي يتبع هنا طريق اقتراب غير مباشر ، فقد بدأ تقدمه لحصار الخرطوم بالتفافة واسعة للجهة الجنوب الشرقي عن طريق سنان ثم بعدها اندفع رأس الجسر الأول بقيادة أبي قرجه شمالاً للخرطوم ليعسكر امام خندق غردون قاطعا اتصاله الأرضي بالجزيرة من جهة الجنوب .

٥ أما من جهة الشرق فقد ساهمت حيوية الشيخ العبيد في تأليب سكان القرى الكائنة شرق النيل للقيام بجهد كبير في الحصار . فقد تقدم وحط رحاله في الحلفاية

(١) كانت قوات النجوى تسميها « القرية » وقد أعطى ود النجوى هذا الأمر اهتماما كبيرا عندما خطط لاقتحام الخرطوم .
شقيـر ص ٧٧٤

على الضفة الشرقية وبذلك اففل الطريق أمام الشرق . وعبر جزء من قواته النيل الأزرق وعسكر في الحريف كمقدمة لوصول أبو قرجة بعد تعيينه اميرا على البحرين والبرين « النيل الأزرق والابيض » وسرعان مابدأ القائد الجديد في تعزيز رأس الجسر تمهيدا للعملية الكبرى . فبدأ ببناء الطوابي لحماية جنوده من نيران مدفعية وبنادق غردون ، فبنى طابية في برى وطابية في الحريف وبنى شونه ضخمة للغلل استعدادا لاطعام الجيش الرئيسى المتقدم بقيادة المهدي من الغرب ، وشرع في تكديس الغلال الواردة من الجزيرة .

ثم وجه المهدي جهده للخطوة التالية وهي عزل الخرطوم عن العالم الخارجى بقطع طرق اتصالها البحرية والبرية بالعالم الخارجى ، وهما طريق سواكن الذى يصلها ببقية العالم بحريا ، ثم الطريق النهري الذى يربطها بمصر . وهنا لمع اسم عثمان دقنة ولم يخفت لحمة عشر عاما بعدها . فقد اوكل اليه المهدي المساهمة فى الحصار لقطع طريق شرق السودان ، وبدأ عثمان دقنة سلسلة من العمليات الناجحة فقطع خطوط التلغراف المؤدى للخرطوم اولا ، ثم اطبق الحصار على المدن الرئيسية الثلاث طوكر وسنكات وسواكن . وقد ادى هذا الى تشتيت الجهود البريطانية نفسها . فبعملياته هذه هدد عثمان دقنة سلامة خط القوافل البحرية فى البحر الاحمر . وانجلترا لم تكن تتساهل فى امر كهذا يمس سلامة البحر الاحمر ، ويضيق عنق الزجاجة فى طريق قوافلها للهند وجنوب شرقى آسيا . وبدأت انجلترا تنظر للموضوع بجدية أكثر ، فغردون والخرطوم والممتلكات المصرية شئ ، وسلامة الامبراطورية نفسها عندما تهدد شرايينها الاقتصادية شئ آخر .

وأكمل محمد الخير دائرة الحصار الخارجية باحتلال بربر بسهولة ، وهنا بدأ خطأ غردون مكبرا ففى بربر اذاع غردون منشوره باخلاء السودان لاول مرة ، فآثر سقوطها تأثيرا معنويا واضحا على سكان الخرطوم .

ولكن غردون لم يكن بالرجل الذى يستكين فى دفاع سلبى وبدأ فى توجيه الضربات المضادة .

كان المهدي معسكرا فى الزهد عندما علم بالضربة العنيفة التى وجهها غردون لآبي قرجة وقتل ألفا من رجاله ، ووصل الخبر لعبد الله الذى لايعرف مهادنة

المخططين ، فعزل الهزيمة فوراً بعدم كفاءة إبي قرجة . أما المهدي فاستقبل النبأ بثبات وبعث ود النجومي ، أمير أمراء الراية الصفراء وأشهر قادته ، قائداً لقوات الحصار . سد النجومي بعد وصوله الثغرة التي تقع بين نهاية خطوط إبي قرجة اليسرى و الضفة النيل الأبيض وتولى القيادة العامة . وبدأ في قصف المدينة ببنيران المدفعية (١) .

وسيطر حصار الخرطوم إبد الدهر كقطعة من التاريخ تشابه فصلاً من فصول دراما أحسن حبكها . جنرال أبيض هائماً وحيداً في قصره الكبير وكأنه : « هاملت » آخر وسط مدينة يربو سكانها على ٥٠.٠٠٠ نسمة من ديانة وجنس مختلفان عنه . وسكان المدينة يلمحونه وهو يتعشى كل ليلة وحيداً على ضوء الشموع كأحد أشباح الأساطير . وامتضى هو سنة الحصار ، وفي كل يوم من أيامها يواجه مشكلة أعصى فهو أما يوجه ضربة من ضرباته المضادة لإبي قرجة في موردة ود جار النبل لاستخلاص بعض الحيوانات وتوزيعها على أهالي المدينة الجوعى ، أو يخطط لهجوم مضاد لحرق الحصار في أماكنه الضعيفة في شجرة ماحى بك ، أو في اجتماع مع أعيان المدينة لرفع روحهم المعنوية ، بعد ترويعه الكذبات الصغيرة لتحثهم على الصمود ، أو يأمر سائى بك بالتوجه ومقاتلة سكان القطيفة أو الكلاكلة . ونراه في كل هذا ثابتاً رافضاً الانسحاب وبوارجه النيلية راسية تحت سلام قصره . ويبدو أنه نسي مهمته الرئيسية وهى الانسحاب وإخلاء السودان ، وهو ماتوقعه كرومر . ومنذ أن بدأ كتابة يومياته لانهلح فيها (٢) مايشير إلى أنه فعل شيئاً واحداً جديداً في سبيل سحب أو إخلاء الحاميات .

(١) الواضح في يوميات غردون أن ود النجومي ركز أغلب ثيران مدفعية نحو القصر ، ونظراً لضعف المدفعية التي تكلفت من ٤ مدافع في تلك الأثناء قبل وصول الجيش الرئيسى اضطر لتجاهل أهدافاً ثمينة مثل بوارج غردون وركز أغلب قصفه على القصر ، فالقصر هدف ثابت . وفي متناول مدى مدفعية المرجنون .

Journals, p. 867

(٢) كتب غردون في اليوميات بعد فوات الأوان وبعد مضي ٩ أشهر على وصوله « أعلن جادا ونهايتها أننى لن انسحب من السودان حتى تتاح الفرصة » يتيحها المهدي ؟ ! « لكل من يرغب فى العودة لمصر سالماً . وإذا وصلنى تعليمات بالانسحاب متفرداً فلن أطيعها وسأبقى هنا . »

Journals p. 362

وأخيرا وصل المهدي لمسرح المعركة يوم ١٠ أكتوبر ١٨٨٤ (١) بكل جيوشه، وحط رجاله في ديم ابو سعد بالفتيحاب وبدأ الفصل الختامي في ملحمة الخرطوم .

ولم يكن المهدي ليترك حامية ام درمان ، كالشوكة المستقرة في جنبه طويلا . فهي تعرض خط امداده لغرب السودان وتشرف مباشرة على مركز حشد الجديده غرب النيل الابيض . فعين ابا عنجة لاقتحام ام درمان . بدأ ابو عنجة في حصارها من كل الجهات . وسرعان ما وضحت كفاءة وحنكة تلميذ الزبير القديم . ففي اثناء الليل كان ينتهز الفرصة ويبدأ في بناء الطوابي حول قلعة ام درمان لحماية حملة بنادقه الذين حاصروا القلعة وانحصروا بدورهم بين نارين ، بوارج غردون من النهر ونيران المدافعين من القلعة ، فاستيقظ المدافعون صباح يوم ليفاجأوا بالطوابي تحيط بهم من ناحية النهر وكلها محتلة بقوة بجهادية ومدفعية أبو عنجة ، وبذلك وضع أبو عنجة سدا منيعا بين المدافعين وبين النهر وبالتالي بينهم وبين الخرطوم - ولما عجز حملة البنادق عن التقدم لمدى قريب من المدافعين لفتح نيرانهم لوجود الألغام التي احاطت بالطابية ، ابتدع أبو عنجة فكرة استخدام البقر لازالة الألغام . فكان يدفع بمئات الأبقار (٢) لتدوس على الألغام وتفجرها وخلفها يتقدم مشاته يصبون نيرانهم على المدافعين . وفي أواخر نوفمبر بدأت طابية (٣) ام درمان تعاني الحصار والجوع .

(١) ذكر شقير أنه وصل يوم ١٩ أكتوبر .

(٢) علق غردون في يومياته « استطاعت الصواريخ التي أطلقت من ام درمان طرد الأبقار . انها لفكرة عبقرية » - اليوميات - يوم ٨ نوفمبر

The Rockets drove back the advance of the cows - It was an ingenious attempt. ie driving the cows with the view to their exploding the mines-editor. Journal p. 302

(٣) تبدأ يومياته منذ شهر أكتوبر بعد ان بدأ حصارها بتقرير عن الموقف في ام درمان وأغلبها عبارة واحدة « الأمور على ما يرام في ام درمان » .

وكان غردون كثير الاهتمام بمصير ام درمان لانها لو سقطت فتصبح بوارجه بين نارين من الضفة الشرقية والغربية فقد كتب في يوم ٢٢ نوفمبر « أفتى شديد القلق على طابية ام درمان ، واحاول قصارى جهدي ان أصرف انتظار العرب عنها . »

Journals p. 357

وعندما شعر أبو عنجة بأهمية قطع مواصلاتها السلكية مع الخرطوم ، جمع إحدى سراياه واقسم انه لن يتزل من صهوة جواده ، إلا ليمضى لقبره أو يحتل مكتب التلغراف الكائن في طرف المدينة الشرقي المطل على النيل . واندفع بفرسانه بمحاذاة شاطئ النهر غير مبال برصاص الواورات النيلية ومدفعيتها الى أن اقتحم مكتب التلغراف وقتل موظفيه وجر كرسيا جلس عليه خارج المكتب متحديا غردون الذي شاهد تفاصيل الاشتباك بمنظاره الكبير .

وهنا استبدل المدافعون البرقيات التلغرافية بالاشارات الصوتية بواسطة الابواق ، ولكن حتى هذه توفرت لابي عنجة معرفتها بواسطة أحد الموظفين السابقين (١) .

ومنها علم ان قائد الحامية انذر غردون انه اذا لم يصله مدد من المؤونة حتى يوم الخميس فانه مضطر للتسليم . ورد عليه هذا انه سيبعث له البواخر النيلية تحمل الحبوب التي اقتطعها من افواه سكان الخرطوم الجائعين . وعين له خور ام درمان لتفريغ البواخر حملتها فيه في الوقت الذي تشغل فيه البواخر النيلية الانصار بنيرانها . علم أبو عنجة بخطة غردون فكمن في الخور (٢) وهاجم النجدة وابادها وغنم الحبوب ، اما غردون فكان يراقب تلك الاحداث بمنظاره وهو لا يستطيع حياها شيئا .

وعندما لم تعد البواخر ثانيا حتى نهاية الاسبوع . طلب قائد الحامية الاذن من غردون ليستسلم ، فاذن له واستسلم في ٥ يناير ١٨٨٥ . ومنذ أن ترامت انباء حملة الانقاذ إلى أسماع غردون بدأ شعور التوتر يسود

(١) يبدو ان الليالى أثناء حصار الخرطوم كانت حافلة بالصياح والاستقرايات وليالى التفارة . وكان حملة أبواق غردون يسلمون أنفسهم بمنزلة اشارات بالابواق استقرازا لجيوش المهدي طالبيين من المحاصرين الاقتراب منهم لكي يوجهوا نحوه نيران البنادق . وكتب غردون في يومياته « حملة البنادق الآن بمنزلة .. احضروا لنا .. احضروا لنا .. وامس البارسة فوجئوا بأن أحد عازفي الأبواق يرد عليهم ساخرا من معسكر المهدي « احضروا لنا .. احضروا لنا .. » .

اليوميات - يوم ٤ ديسمبر

Journals p. 383

(٢) من هنا سمي الخور باسم القائد الشهير وليس لأن ثكنات جنود أبو عنجة كانت في ذلك المكان .

اسطر اليوميات ، وهو يمضى اغلب يومه اما محققا بمنظاره المكبر لجهة الشمال
 عليه يلوح بارقة الامل متمثلة في طلائع حملة الانقاذ ، أو في مراقبة تحركات
 جيوش المهدي ، (١) وزادت مظاهرات النساء الحائعات وقصف مدفعية المهدي
 المتواصلة من يأسه . اما ما دفع به لليأس حقيقة فقد كان خبر مقتل استيوارت
 وابادة المجموعة التي رافقته ، ولم يصدق الخبر واعتقد انها اشاعة الى أن وصله
 خطاب من المهدي وأنبأه بنهائتهم مرفقا معه الخطابات التي حررها غردون وعثر
 عليها مع استيوارت ليؤكد النبأ لغردون .

« الى غردون باشا ، هداه الله للطريق القويم . اما بعد فاعلم ان
 وابورككم الصغير المسمى بعباس الذي بعثتوه بقصد توصيل اخباركم
 لمصر بواسطة دنقلا ، الرسول فيه وكيلكم استيوارت باشا وقنصلي
 فرنسا والانجليز ومن معهم قد وقعوا في القبضة بأذن الله تعالى ونجا من
 آمن بمهديتنا وسلم الأمر البنا وهلك فيه من لم يتبع كوكيلكم المذكور
 والقناصل وغيرهم وعجل الله بارواحهم الى النار وبئس القرار ، وصار
 ذلك الوابور ومافيه غنيمة للمسلمين ، وقد اطلعنا على باطن مافيه من
 المكاتبات والتعريفات عربية وفرنجية وجغرافية ، بعد فكها بواسطة من من
 الله تعالى عليهم ونور قلوبهم بالايمان وحسن الاتباع كما وان البوستة
 من طرفكم لمدير دنقلا مع ماهو مرفوق معها لاجل بعثها للجهات المصرية
 والاوربوية (٢) ضبطت ومافيه علم وكان مقتضى عودتها جميعا لكم
 لعدم لزومها انما مادام اصلها مرسله منكم ومعلومة لطرفكم فاستنسب

(١) لو أخذنا ما ذكره غردون عن مدفعية المهدي مأخذ الجيد ، فلا بد انها اطلقت كميات هائلة من
 الذخيرة . وفي نهاية توصيف كانت مدفعية المهدي قد بلغت ١٦ مدفعا . ظل منها سريتان « ١٠ مدافع »
 في رئاسة المهدي في الشجاب ضايقتا غردون كثيرا فقد كتب في يوم ٨ ديسمبر « سعت ١٠٣٠
 البوارج تشتبك مع مدفعية المهدي . للمهدي سريتي مدفعية شرستين للغاية لا يكفان عن فتح نيرانهما » وغير
 عن اعجابه بتجهيزات مواقع المدفعية بمرارة . « وللمدافع مواقع مجهزة تجهيزا هندسيا رائعا ، تماما
 كالتصميم الأوربي . بالطبع هذه من أفكار سلاطين . » كان سلاطين مقيدا بالاغلال في تلك اللحظة .

(٢) كانت هذه خطابات إستجداد أرسلها غردون للثوثة الفول الأوربية بعد أن يأس من الحكومة البريطانية

ان نبعث لكم البعض منها ليتأكد بطرفكم ذلك ويرسخ بذهنكم حقيقة ما هناك، رجاء ان يهديكم الله للاسلام وللتسليم وتسلموا انتم ومن معكم لتفوزوا بالنعيم السرمدي والخير الابدي

وكما أكد خطاب المهدي مصرع ستوارت ، فقد أكد من ناحية أخرى المام المهدي بالموقف في الخرطوم الماما دقيقا . وقد اشتملت مراسلات المهدي وغوردون على ثمانية خطابات خلاف الخطابات التي أرسلها ود النجومى وابو قرجه . وان مخاطبه المهدي بلهجة مهذبة وبأسلوبه البليغ المشهور فقد كانت ردود غردون جافة حافلة بالتهديد والوعيد . وقد قدم المهدي له عرضا كريما لم يقدمه لاحد قبله وهو اطلاق سراحه ، واستثنائه عن القاعدة التي طبقت على بقية الاسرى من الاوربيين وهي الاسلام أو الموت :

« وبعد فان أراد الله سعادتك وقبلت نصحننا ودخلت في اماننا فهو المطلوب وان أردت أن تجتمع على الانجليز فنوصلك اليهم . . . » وذلك « لاننا قد سمعنا مرارا فيك الخير وللان ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة »

لقد أدرك المهدي انه يتعامل هذه المرة مع نوع مختلف له وزنه وسمعته العالمية . اما غردون فيبدو ان كلا المخرجين صعبا عليه ، فلم يستطع تخيل نفسه اسير للمهدي، ولم يهضم عقله ان يعود وحيدا مقهورا لبريطانيا وهو الذي اسبغت عليه الصحافة لقب قائد الجيش الذي لا يقهر "Leader of the ever victorious Army" وغردون الصين "Chinese Gordon" وراكب الهجين "The Camel Rider" ولترك المهدي وغردون في الخرطوم ومنتقل شمالا :

لقد استجاب جلاستون اخيرا للرأى العام البريطاني - وأمر بالتقدم لانقاذ الخرطوم .¹ ومضت تعليمات اللورد ولزلى توضح مهمته :

« . . . ان الغرض الاساسى من الحملة هو انقاذ الجنرال غردون والكلونيل استيوارت في الخرطوم فمتى تم هذا الغرض فلا تباشروا حركات عدائية ايا كانت ، وحكومة جلالة الملكة تأمركم بالا تتقدموا جنوبا الا بقدر ما يلزم للحصول على

هذا الغرض . « وتمكن ولزلى من تجميع ثلاث ألوية بريطانية تعدادها تسعة آلاف جندي والتحرك بهم نحو الخرطوم ، على أن يوزع كل الجيش المصرى بالإضافة للواء البريطاني فى نقاط على طول خط تمويته للمحافظة عليه ، وان يتقدم للخرطوم بلوائين « خمسة آلاف رجل » .

تقدمت طلائع ولزلى الى أن وصلت دنقلا وهناك تقرر التقدم عبر محورين محور يتابع النيل لاحتلال بربر ، ومحور يفارق النيل فى كورتى ويشق صحراء بيوضه ويندفع للمتممة ليستقل بوارج غردون التى بعثها لانتظارهم فى المستمة والاسراع بها للخرطوم . وفى ٤ يناير فارقت طلائع ولزلى بقيادة الكولونيل ستيوارت النيل متجهة نحو آبار جقدول . وبذلك بدأت مسيرة طايور الصحراء المشهورة Desert Column وكانت تلك أول مرة تطلا فيها القوات البريطانية السودان ولكنها لم تمكث الا قليلا . فسرعان ما ترامت انباء الحملة للشيخ محمد الخير فى بربر وأسرع وطير النبأ للمهدى الذى أمره بالتحرك للمتممة فورا وأمر الراية الخضرى بقيادة موسى ود حلو بالتحرك لتعزيز محمد الخير .

وبينما كان ستيوارت يعسكر فى جقدول وهو يتأهب لمغادرتها للمتممة ، تحركت قوات محمد الخير وسارعت باحتلال آبار ابو طليح ، مورد المياه الوحيد فى تلك المنطقة ، وبذلك تحتم على استيوارت ان يقتحمها ويحلى موسى ود حلو عنها ، وفى صباح اليوم التالى تقدم نحو ابو طليح حيث دارت معركة طاحنتان هما معركة ابو طليح ، وتلتها معركة المتممة ، تكبد فيها كلا الجانبين خسائر فادحة فى الارواح وقتل كلا القائدين ستيوارت ، وموسى ود حلو . وبعدها انجر جزء بسيط لا يتجاوز عشرون جنديا بريطانيا فى بوارج غردون وسارعوا الى الخرطوم لنجدة غردون . وذلك مادفع المهدي لاتخاذ قراره اخيرا باقتحام الخرطوم .

بعد تأكد وصول حملة الانقاذ أدرك المهدي أنه قد حان الوقت لاقتحام المدينة والا انحصر بين نارين . وتعاقبت مجالس الحرب . عقد المجلس الحربى الاخير ليلة ٢٤ يناير وكان اغلب (١) المتحدثين يؤيدون الهجوم فورا على الخرطوم (١) ذكر شقير ان أبرز المنادين بالهجوم فورا كانوا محمد عبد الكريم ومحمد ود نوباوى وان أغلب من فى المجلس نادوا برفع الحصار والعودة لكردفان وايدت اوراق على المهدي روايته الا انها انصافت الياس لم بربر المنادين باقتحام الخرطوم فورا .

(شقير ص ٨٦٠)

قبل وصول الانجليز ثلثا يكتنوا بنار القتال في جبهتين . وقد انفتحت أغلب المصادر على ان محمد عبد الكريم قاد الرأى المتأدى بالمجوم فورا وايده محمد ودنوباوى . واثناء انعقاد المجلس ارسل لهم ود النجومى من الخطوط الامامية احد كبار الضباط الذين فروا من الخرطوم واستجوبه المهدي وعلم منه الحالة في الخرطوم بالضبط ، وحدد له مكان نقطة الضعف الوحيدة في خندق الخرطوم . اذ كانت تلك الاشهر اكثر شهور النيل انخفاضاً ، وقد انحسر الماء عن الخندق العميق الذى يربط بين النيل الابيض والازرق . تاركا ثغرة في دفاع غردون تجاوز عرضها ١٥٠٠ ياردة . كان المدافعون يواصلون الحفر ونزع الماء منها لايصال الخندق للنيل ، وتمكنوا من حفر ١٠٠٠ ياردة من الثغرة وبقيت حوالى ٥٠٠ ياردة كان مستوى الماء فيها ضحلا لايتجاوز ارتفاعه قدما واحدا . وقد اوضح السنجك عمر ان تلك البقعة هى الثغرة الوحيدة التى يمكنهم التسلل عبرها لدخل الخرطوم . وقر الرأى اخيرا على توجيه الهجوم الرئيسى عبر هذه الثغرة ، فأرسل المهدي لاستدعاء ود النجومى وأبلغه التعليمات النهائية بالمجوم فجرا ، ثم أمره بحشد كل قوات الهجوم وان يتحركوا لمكان الحشد سرا وسيقابلهم هناك . وفى منتصف ليلة ٢٤ يناير عبر المهدي النيل الابيض بهدوء حيث وجد كل قوات الهجوم فى انتظاره ووقف فيهم خطيبا حاثا اياهم على الثبات . وبعد ان بايعه الجميع على الموت ، اوصاهم بان يحافظوا على غردون حيا قائلا :

« الغردون ياخواننا لا تقتلوه بل اقبضوه حيا واحضروه لنا فان هذا الرجل عظيم عند اهله جدا فلا تقتلوه لان قبضه حيا فيه فائدة عظيمة فانا نريد أن نسلمه لاهله ونفدى به رجلين عظيمين هما الزبير وعرابي ولشدة عظمتهم عند اهله اذا طلبنا منهم ان يفدوه ب ٢٠ رجلا لقدموهم فدية له . »

أرخصى ظلام ليلة ٢٤ يناير ١٨٨٥ سدوله بعد ان توقفت آلات النحاس الموسيقية عن العزف ، فقد امر غردون فرقته بعزف بعض الالحان لتخفف روح اليأس والقنوط التى خيمت على المدينة . وعندما تلاشت النغمات الاخيرة اضيئت السماء بعشرات الصواريخ الملونة . ويبدو ان الجنرال احس انها ليلته الاخيرة ، فقرر ان يودع الدنيا وداعا ملوكيا . وتعشى منفردا ساهما . ومضى الى جناحه وظل

يكتب الى مابعد منتصف الليل واخيرا اطفأ ضوء الغرفة .

وفي الدقيقة الثالثة والاربعين بدأ اقتحام الخرطوم بقيادة عبد الرحمن النجمي بمواجهة عريضة طولها خمسة اميال . خطط للهجوم واداره عبد الرحمن النجمي من حلة الغرقان بكفائه العسكرية المعهودة . فقد دفع بثلاث قوته « ٢٠٠٠ مقاتل » بقيادة ابو قرجة لتنتشر في مواجهة عريضة بعمق رهيف من الرجال حيث غطوا اغلب مواجهة الدفاع ، بينما احتفظ بالجزء الرئيسي « ٤٠٠٠ مقاتل » بقيادته الشخصية لاقتحام الثغرة الصغيرة . فتدافعت امواج الاقتحام الضيقة التي تجاوز عمقها عشرات الصفوف وانقضت نحو الثغرة الصغيرة التي كانت تحرسها كتيبة واحدة فاطاحت بها واندفعت لداخل المدينة .

كان تخطيط ود النجمي الذكي هو الذي تسبب في سقوط المدينة بسرعة مذهلة . اذ انقسمت موجات الاقتحام بعد تجاوزها الخندق وخط الدفاع الاول الى قسمين ، قسم اتجه مباشرة نحو مقر غردون والقسم الاعظم التف جهة اليمين ليهاجم المدافعين في برى والكلاكلة من الخلف ، فأنهار الدفاع في دقائق . وبعد مضي ساعة ونصف من بدء الاقتحام كان رأس غردون قد فصل عن جسده (١) .

(١) وصفت كل المصادر الأوربية مشهد مقتل غردون المشهور بدون استثناء كالآتي : « استيقظ الجنرال من نومه المضطرب على صيحات المهاجمين وفي ضوء الفجر الخافت اندفع بلا بس النوم إلى سطح القصر . وحول رأسه بسرعة إلى البتعة الضعيفة في دفاعه وهناك رأى آلافا من الأنصار يتدافعون نحو القصر . وكان هناك مدفع في أعلى القصر وبالقرب منه كوم من الذخيرة فبدأ غردون في اطلاق المدفع في دقة رهيبية على الجموع المتدافعة مصيبا اعدادا لا يستهان بها . وعندما لم يستطع اطلاقه نظرا لا قتراب هؤلاء . ولا تخدار زاوية النيران ترك المدفع واندفع لغرفته وارتنى ملابسه البيضاء الرسمية كاملة وعلق سيفه وأمسك بطنجينه مدلاة بجانبه ووقف بكبرياء ووقار في أعلى السلم . اندفع الثوار إلى ساحة السلم ووقفوا لحظات أمام الرجل الأشيب الوقور « أين محمد أحمد » انفرجت الشفاه أخيرا وراى على المكان صمت ثقيل إلى أن هز أحدهم نفسه من المفاجأة وصاح قائلا « آه يا ملعون . هاد دنت ساعتك » وهز حربه الثقيلة وقلعها فاصابت غردون في صدره وتدهرج على السلم وما هي الا ثوان معدودة حتى غرس فيها المثات أسنة حراهم حتى صارت خليطا من الملا بس والأوسمة والدم . وطبعت اللوحة التي تمثل هذا المشهد عشرات المرات بل لعلها كانت أشهر لوحة في اواخر القرن الماضي .

ولكن يبدو ان تلك الصورة الرومانسية المهيبة كانت هي الصورة التي ارادتها صحافة وأدب العصر الفيكتوري ان تكون ، فالمؤرخون المصريون مثل مورهد يشككون فيها كثيرا . فهذا المشهد

أخذ رأس غردون الى باخرة ثيلية واسرع به احمد ود سليمان امير بيت المال الى المهدي ملفوفا في منديل وقدمه للمهدي . سأل المهدي « ماهذا » أجاب ود سليمان « هذا رأس غردون » اظلمت عينا المهدي واستشاط غضبا ، وقال « ماهذه الافعال ؟ ولماذا تخالفون اوامري دائما ، ثم لماذا مثلتم به وقطعتم الرأس ؟ وما الفائدة من هذا كله ؟ » وأدار وجهه عنه واسرع سليمان ونحى الرأس بعيدا عنه .

من الذى قتل غردون ؟ هنالك عدة روايات واغلبها حتى الروايات السودانية تشير الى ان قاتله هو الامير ود نوباوى امير بنى جرار ولعل مبعث تلك الرواية ان المهدي كلفه امام الملاء بالمحافظة على غردون واحضاره حيا .

والمرجح ان رواية على المهدي هي اقرب للصواب فهو الوحيد الذى استجوب احد شهود عيان الحادث فقد ذكر :

« حدثني الشيخ ابراهيم على صابر المغربي الذى كان كاتباً لرأية الامير ميرغنى سوار الذهب بان الذى قتل غردون حقيقة هو مرسال الحاج حموده وكان مرسال هذا برقدار لرأية الامير ميرغنى سوار الذهب . وقال محدثي :

أغلب الظن ان مصدره « بوردينى بك » أحد تجار الخرطوم الذى استجوبه ونجت في مصر . وبوردينى حضر حصار الخرطوم وسقوطها ولكنه لم ير هذا المشهد ولم يستجوب أى من الأنصار الذين قتلوه كما اسلفت ولعل تغييره لملا به هي الحادثة الثابتة الوحيدة فقد قتل مرتديا ملا به الرسمية كاملة .

Moorehead, Alan, *The White Nile* (London, 1962), pp. 267, 370

Slatin, Rudolf, *Fire and Sword in the Sudan*

(London, 1896) pp. 343.

Ohrwalder, Father Joseph, *Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp*

Churchill, Winston, *The River War*,

Vol. I (London, 1899), p. 104.

ولعل أول من جرؤ على تقديم صورة مخالفة هو تشارلس نيوفلد فقد ذكر ان سلاطين وونجت واهروالدم قد كذبوا صراحة في وصفهم لمقتل غردون . لأن الطريقة التي مات بها غردون ظلت مدار الحديث سنينا طويلة في أمدردمان وهو يتأكد ما سمع أن غردون لم يستخدم المدفع قط .

Neufeld, Charles, *A Prisoner of the Khaleefa* (London, 1899), pp. 301, 303, 304.

« وصلت رايتنا عند القجر وكان مرسال قريبا منى وقد رأى رجلا واقفا فى الدور الاعلى فى السراى مطلا من النافذة وهو غردون وكان مشغولا بالنظر الى جيوشه المنهزمة، ظن مرسال ان بيده سلاحا فأراد ان يبادره قبل ان يصيبه بسلاحه فقفذه برصاصة اسقطته على السلام وهو لا يعلم انه قتل غردون . وفى الحال دخل ابراهيم على صابر السراى وصعد للدور الاعلى فوجد ان المضروب هو غردون وهو فى الترع الاخير وكان يلبس بدلة تشريفية وعليها نياشينه وقد دخل ايضا عبد القادر ولد كوكو الذى كان قاضى سرية حموده وقد قتل فى واقعة فكره « قال محدثى « فسألنى عبد القادر من هذا ؟ فقلت له هذا غردون . قال وكيف عرفته ؟ قلت : اعرفه منذ ان جاءنا فى كردفان وهو يحلق شعر فكه ويترك شعر عوارضه فلما تحقق ان هذا الوصف ينطبق عليه اخرج سكينه وحز بها رأسه . ولما علم مرسال بانه قتل غردون باشا اختفى وطلب من الذين حضروا معه ان يكتبوا ذلك ولهذا لم يعرف قاتل غردون الحقيقى .

عندما اخبرني الشيخ ابراهيم على صابر بذلك ، ارسلنا معه مندوبين ليتحققوا ذلك من مرسال أو من سادته فلم يجدوا مرسالا لانه قتل فى واقعة كررى ولما سألوا سيده خاف واضطرب وقال لهم : « قد سمعنا من مرسال نفسه بانه هو الذى قتل غردون خطأ ولم يكن يعرفه وقد قتل مرسال فى واقعة كررى . « ثم قال لهم : « ماذا تقصدون من ذلك ؟ » فقالوا له « نريد معرفة الحقيقة فقط » .

وسواء كانت تلك الرواية أو هذه هى الصحيحة ، فهى على كل حال تثبت امرا قاطعا هو عدم رغبة المهدي القاطعة فى قتل غردون واوامره الصارمة فى أخذه حيا . وهذا واضح من تخوف قاتله من معرفة امره ، اذ ظل محتفيا طوال عهد المهدي والحليفة ، واستحلفه لرفاقه الايفشوا سره .

* * * *

أصبح المهدي يسيطر على بقعة من الارض مساحتها تشارف المليون ميلا

مربعا واصبح زعيما على اول امة افريقية تولد بامكانيات ابنائها وحدهم . وهنا فقط يمكن القول ان الامة السودانية قد ولدت ، وتوقرت لها مقومات الامم من رباط روحي ووحدة هدف ، وليس هناك رباط اقوى من ذلك الرباط الذى نسجته انهر الدم التى سالت عبر مسيرة المهدي الطويلة من أبا حتى الخرطوم فقد امتزجت فيها دماء الجعليين والبقارة والدناقلة والدينكا والبجا ، وحارب رجال الرزيقات فى اقصى الشرق كما قاتل جهادية ابي عنجه فى اقصى الشمال . وتحت الروح الدينية العميقة التى بثها فى رجاله اختفت كل الفوارق القبلية ، وحدود المديرية الوهمية التى انشأها الحكم السابق ، ولم يعد يطلق على سكان شمال النيل « البحارة » و « الجلابة » ولم يعد هؤلاء يعتبرون قبائل الغرب قبائل متوحشة ، فالجميع وقفوا صفا واحدا فى وجه رصاص العدو ، ونيران العدو التى لا تميز ، حصدت من كل القبائل دون فرز .

لقد بدأ المهدي ثورته بوضع رجال مسلحين بالحجارة والعصى والحرايب ، ولكن قدرته الفذة فى الهاب الجماهير وذهنه الشفاف تحسّس نقاط الضعف فى عدوه فوجه اعنف ضرباته نحوها ، وتحسّس نقاط القوة فى قومه وبلادهم فنهاها الى أن اصبحت سلاحا ماضيا مكثه من ابادته ثلاثون الفا من الجنود النظاميين . وعندما قارعت عقلية الماضية عقليات خمسة من جنرالات اقوى امة اوربية بينهم أشهر القادة البريطانيين فى ذلك العهد تطايرت رؤوسهم واحدا بعد الآخر .

لقد استخدم المهدي الدين استخداما مثاليا مفتحا أعين الناس لحياة افضل وكرامة اوفر . ومزجه بواقع الحياة مزجا رائعا . ووضع أسسا دينية لدولة متماسكة فى القرن التاسع عشر عاشت ١٣ عاما بعد مماته . وعندما توفى المهدي بعد خمسة شهور من سقوط الخرطوم برز للوجود اسم الرجل الذى وقع على كتفيه عبء انشاء الدولة الجديدة ، ونقل الثورة من مرحلة الحروب والمعارك ، الى مرحلة الاستقرار والبناء والمجتمع الجديد .

الدعوة..... والدولة

« هناك جانب أهمله الكتاب والمؤلفون الذين انحصرت نظرهم المركزة على فظائع واهوال عهد الخليفة عبد الله : ألا وهو جانب الانجازات والانشاء والتصير . فلم يكن عهد الخليفة عبد الله يمثل فترة محيبة للامال اعقبت فترة سنى الثورة الذهبية فقط ، بل كانت أيضا فترة تنظيم وتعمير برز خلالها توازن دقيق للقوى والعوامل المختلفة ، عكست ارادة الخليفة القوية ومقدرته التنظيمية والادارية على الرغم من ضآلة الخبرات المتوفرة . واغلب الفشل الذي اصاب اجراماته يعزى في المكان الاول لقصور الاداة والوسائل المستخدمة . » (١)

هولت

فى كل حديث سلاطين عن الخليفة (٢) لم تكن هناك اسطر اكثر اثاره للشجن ، وتحريكا للعاطفة من الكلمات التى وصف بها تلك الجلسة حين قال :

“There was a constructive side to his reign which has received little attention from writers whose gaze has been focussed upon picturesque horrors and atrocities which our grandfathers belived were committed only by barbarians. The years of Abdallahi's rule were not merely a period of disappointed hopes and regrets for a transitory golden age; they were a period of organization and skilful balance of forces, reflecting a strong will and an able administrative capacity working within the limits of a narrow experience, and too often failing in action through the inherent faults of the instruments employed.”

Holt,

(٢) لا يد لنا من وقفة مع سلاطين . قال عهد قريب كان لكتابات سلاطين أثر واضح فى تشكيل تصور العالم للخليفة والمهدية . فالرجل كان ضابطا واداريا وظل ثلاثة عشر عاما لا يفارق الخليفة وظن الجميع انه خير من يقيم الثورة المهدية وكان لكتابه « السيف والنار فى السودان » أثر عالمى مدوى وخصوصا فى انجلترا فقد صدم القراء من المعلومات والقصص الدموية والوحشية التى بالغ فى وصفها فكان ان تحمس العالم لحملة كثر باختيارها عملية انسانية وانقاذا للامة التى اضناها طغيان الخليفة . ولكن السبب الحقيقى كان يكمن فى ان مصلحة بريطانيا حتمت اعادة الغزو كما سرى بعد قليل . كان سلاطين يهودى الاصل ، ولكن جده الرابع كان من كبار موظفى امبراطور النمسا . فتحولت عائلته للمسيحية . ولكن عقيدتهم الدينية ظلت مهزوزة كما اعترف هو ولعل هذا يفسر عدم فهم سلاطين لا حتقار غردون له ، والجرح العميق الذى أحس به عندما رفض غردون الرد على خطابات وعبر عن احتقاره له فى يومياته . والنظرة التحديت لكتابات سلاطين عن الخليفة والمهدية تعتبر الآن ، حتى بين المؤرخين الأوربيين ، كنوع من الدعاية الحربية . وان خدمت كتابات غردون أهداف الامبراطورية

« كان الخليفة في اوائل عهده كثيرا ما يستقبيني بعد العشاء لتجاذب اطراف الحديث . . . وفي احدى الليالى المقمرة وقد جلسنا في فناء مترله استرخى الخليفة في عنقريبه ومضى يتحدث : « حقا كانت رحلة شاقة تلك التى قطعناها من اقاصى الغرب للجزيرة لمقابلة المهدي . . . فقد كان زادى في الحياة كلها حمارى وملابسى . وحتى هذا كان احد منغصات الحياة وليس ترفا يخفف من وطأة الرحلة الشاقة . فقد كان في ظهره دبوا عظيما ولم استطع الركوب عليه فحملته مؤونتى

وقلم المخابرات كتمهيد لغزو السودان فقد خدمت أغراضه الشخصية . فالواضح ان سلاطين عندما كتب كتابه المشهور كان يقاسى من عقدتين : فعندما هرب من السودان ووصل لأوروبا احس بنظرة العالم الأوروبى له فكل من قرأ يوميات غردون شاركه في احتقار سلاطين ، فجماهير انجلترا التى مجدت غردون وثباته للنهاية ، كان لا بد لها ان تحس بنفس شعور غردون عندما كتب معلقا على إسلام سلاطين « الواضح ان الشجاعة ليست من صفات سلاطين ، ويجب وضعه في منزل صحى لتطهيره وتأديبه اذ تم اطلاق سراحه من الاسر . « فحاول هو من الناحية الأخرى المبالغة في وصف الأحوال التى تعرض لها تبريرا للموقف الذى اتخذه ولتبرير تغييره لديانته ، عله يصلح قليلا من سمته التى حطمتها كتابات غردون التى اعتبرت أقرب للانجيل في ذلك الحين . اما العقدة الثانية التى جعلته يحفل كل ذلك الحقد والتل على الخليفة فقد كانت هى ختانه بأوامر الخليفة . وهذا واضح جدا فبعد معركة فرقة كان أول ما فعله هو احراقه جثة كاظم موسى كاظم الرجل الذى قام بعملية الختان . « هناك رواية أخرى تذكر ان اول عمل قام به سلاطين بعد دخول أمدرمان هو استدعاء الرجل الذى قام بعملية ختانه وهو كاظم وامر بانتراع شعر لحيته شعرة شعرة إنتقاما منه . . »

والواضح ان سلاطين وجد معاملة كريمة ، فقد كان في أمكانه هؤلاء قتله في أى لحظة ، وطوال ثلاثة عشر عاما لم يؤذه الخليفة في شئ . خلاف مراقبته بدقة . ولا يمكن ان يلام الخليفة في ذلك ، فسلاطين نفسه يسود من القصص ما يبرر شكوك الخليفة ، والخليفة ان اتبع حاسته السادسة ووضع سلاطين في السجن لأراح نفسه كثيرا ، فكثيرا ما سأل من قضائه وضعه في السجن كاحتياط لمنعه من الهروب واعترض هؤلاء بان سلاطين لم يرتكب ما يبرر وضعه في السجن فسكت الخليفة على مضض .

وكل من حضر عرصة أمدرمان يذكر ان سلاطين كان من أحسن فرسان الخليفة وكان ينطلق بجواده ويرفع حربته عاليا وعندما يقترب من مكان الخليفة يصبح صيحته المشهورة التى أصبحت مثلا « انا المصيبة المعلقة بالسبيبة كان انقطعت السبيبة وقعت المصيبة » واعتبر الكثيرون عباراته هذه استفزازا وتحذيرا للخليفة . ويقال ان الخليفة كان دائما يلتفت لقضاة قاتلا لهم « ألم أقل لكم » ولكن هؤلاء رفضوا محاكمته إلى ان هرب .

ومشكلة سلاطين انه حتى ان قال الحقيقة أحيانا فهو لا يذكرها كاملة . ففي كتاباته ركز على تمجده ايداء الخليفة عن طريق تقديم التصالح الخاطئة حتى لا يتهمه البريطانيون بالخيانة ، بينما يؤكد نيوفلد السجين الألماني بان سلاطين كان يعتبر في نظر أمراء الخليفة عبقرية عسكرية وانه استشير

الضيئلة المكونة من كيس حبوب . وقد استرعت لهجتي وملابسي الغريبه « ملابس أهل الغرب » كل الاهالى الذين قابلوني فى الطريق . فممنهم من سخر منى ومن لهجتي ، ومنهم من صاح فى وجهى « ماذا تفعل ايها الغريب ؟ هل جئت لتسرق؟ » فقد تعرض الجلابة الذين هاجروا لارضنا لغارات قطاع الطرق وكانوا يظنوننا جميعا قطاعا للطرق .

فى أمور كثيرة وكان مشورته دائما صادقة وإن حملة ود النجومى خطط لها سلاطين بعد ان رسم خريطة لمصر وشرحها بالتفصيل لامراء الخليفة .

ولم يذكر سلاطين فى كتابه شيئا عن زوجته أو عن ابته « توقيت وهى رضية بعد هروبه » ويعدنا كل من بقى من الاحياء من عشيرة الخليفة حتى من كانوا صغار السن بانهم ذاقوا الامرين عندما عاد سلاطين مفتشا عاما لحكومة السودان بعد دولة الحكم الثنائى وامر على عدم تعليمهم خلاف التعليم المهنى ، وإن أحوالهم لم تتحسن قليلا الا عند قيام الحرب العالمية الأولى ومغادرة سلاطين السودان . ولا شك ان سلاطين يجانب الحقيقة كثيرا عندما يذكر ان الخليفة احتفظ به بالقرب منه لاذلاله وللتفاجر امام عشيرته بان مدير دارفور السابق يخدمه الآن . فمن رواياته هو وروايات الآخرين يتضح ان وضعه كان اقرب لوضع المستشار الحربى منه لوضع الخادم . فهو يذكر انه كان يشغل منصب اركان حرب الخليفة أثناء المناورات ، ويذكر الهدايا الكثيرة التى قدمها له الخليفة من الجوارى بل عرض عليه تزويجه باحدى قريباته .

وثوبولد يذكر بعد اطلاعه على التقرير الرسمى السرى الذى قدمه لولنجت وهو يختلف تماما عن مادحة فى كتابه الذى نشر واطلع عليه كل العالم :

“General Report on the Egyptian Sudan, March - 1895 from statements made by Slatin Pasha. “The manuscript is preserved in New bold library, Gordon Memorial College.”

« بأن سلاطين كان اقيم الاوربيين فى نظر الخليفة وقد لقي معاملة عطوفة لحد التكريم . وأعطى منزلا وزوجات ورقيق - وبعد هروبه رد الجميل لآسريه بنشر كتاب السيف والنار فى السودان الذى ركز فيه على الأحداث الأليمة وشوه الدوافع التى حدثت بالخليفة إلى اتيان معظم أفعاله ، وجلال اسمه بسواد سيلصق به إلى أجيال عديدة قادمة ، وأظن فى تصويره كطاغية متوحش متعطل للدماء »

“Slatin had been the most valued of the European prisoners of the Khalifa, and had been treated with kindness, almost with honour. Given his own house, wives and slaves, he had been a personal attendant to the Khalifa, and deep in his counsels. After his escape he repaid this generosity by writing a book. *Fire and Sword in the Sudan* which emphasized every unpleasant incident, distorted the motives for all the Khalifa's actions, and blackened his name for succeeding generations as a brutal and blood-thirsty tyrant with no redeeming features.”

Theobald, p. 176

- وعندما كنت أسأل بعضهم ليدلني للمهدى ، كانت اجابتهم تلكنى فى وجهى « ماذا يريد مثلك منه . انه حتى لا يدنس شفاحه بذكر اسم قبيلتك ثم يتركوننى فى استغراب حقا كانت رحلة شاقة ولكننى احتملتها . . . وطالما ذكر لى والذى - طبعاً سمعت عنه يا عبد القادر لقد كان تورشين رجلاً صالحاً بمعنى الكلمة طالما ذكر لى اننى سأشقى طريقى الى المجد والقوة وحيداً على ظهر حمار ولكن سيأتى اليوم الذى سأقود جيشاً يباد فيه آلاف الرجال واعود كسيراً منهزماً كما بدأت رحلتى الاولى على ظهر حمار . ولكن كل متاعب وآلام الرحلة اختفت فى اللحظة التى رايت فيها المهدى لأول مرة . لقد تملكنى احساس غريب واصبح لى كنور الحياة . . . »

وتلك كانت مأساة الخليفة وقد بلغت المأساة ذروتها فى عصر يوم ١ سبتمبر ١٨٩٨ عندما اشرع رجال الجعليين الذين قاتلوا تحت قيادة ميجور ستيوارت ورثلى اسلحتهم فى وجه من كانوا يقاتلون فى صفوفهم الى عهد قريب ، وتجمست فى الدقائق القليلة التى استغرقتها المعركة كل الفلال الثقيلة للاحداث العنيفة التى سادت فى تلك الاعوام الثلاثة عشر التى انقضت منذ وفاة المهدى والى يوم معركتنا .

انحدر عبد الله من التعايشة ، احد افخاذ قبائل (١) البقارة ، وكان الابن

(١) رواية عشيرة الخليفة عن أصله جديرة بالاعتبار . فهم يذكرون ان جدعم الأكبر هو القطب الواوى التونسى الذى هاجر من تونس ، ويمكن ان تدرج تحت النقاش الكبير الذى اثاره ماكمايكل ، ولم يقطع فيه برأى محدد ، حول الطريقة التى وصل بها كل البقارة لمقرهم الحالى . فما كمايكل يورد نظرية تقول بان البقارة كانوا جزءاً من جبهة وصلت لمقرها الحالى من غرب أفريقيا البعيد وليس من مصر مباشرة .

وكما ذكر ماكمايكل وكنيسون انه من الثابت ان البقارة بدأوا يزحفون شرقاً من الغرب البعيد . أما النظرية المتكاملة التى تبرهن ذلك فلا يمكن القطع فيها برأى محدد لعوامل كثيرة . وتقول هذه النظرية ان جزءاً من جبهته اندفع غرباً بجهد ساحل البحر المتوسط عقب غزوات عقبة بن نافع الى ان وصلوا تونس والمغرب ، وجزء منهم ، وهم الذين أصبحوا البقارة ، ضربوا جنوباً عبر الصحراء الكبرى ثم زحفوا شرقاً واستقروا حول الممالك الغريبة مثل مملكة ودائ ومملكة دارفور ، ثم بدأ زحفهم تدريجياً لجهة الشرق الى أن وصلوا النيل الأبيض وتكون حزامهم الحالى وأن هناك عدة عوامل ومؤثرات ساهمت فى توجيه عملية الزحف وفى التكوين الأفتى لهذا الحزام :

الأكبر للسيد محمد الملقب بـ «تورشين» (١) وعندما (٢) ولد عبد الله بالقرب من ترده «غدير» أبو روق في جنوب دارفور حوالى عام ١٨٤٦ ، كان والده يحتل مركز الصدارة الروحية الدينية فى القبيلة ، فقد مثل مركز الثقل للطريقة السمانية وسط غرب السودان حيث كانت الطريقة التجانية هى الطريقة السائدة — ولكن

أولا لا يطبق البقارة أن يستقروا نهائيا بالقرب من الممالك أو أى سلطة قوية ، لنفورهم من الضرائب ، ولكنهم لا يستطيعون البعد عن المدن لحاجتهم لتسريف بضائعهم من السمن والماشية وشراء احتياجاتهم من أسواق هذه المدن . وتفسير زحفهم شرقا هو عبارة عن ردود فعل لقوة هذه الممالك أو ضعفها ، فهم يستقرون حوالها عندما تكون ضعيفة ولا تستطيع إخضاعهم لسلطتها ويبتعدون عنها عندما تقوى شوكتها . ومن ثم أقاموا فترة حول ملكة وداى ولما قويت شوكتها زحفوا شرقا وأصبحوا فى دائرة نفوذ ملكة الفور ولما قويت زحفوا شرقا وهكذا ..

أما امتدادهم الرأسى فقد حددته البيئة والطبيعة . فالمنطقة التى أقاموا فيها لا تصلح لرعى الإبل ، واضطروا لاستبدالها بالماشية «لم يكن العرب رعاة ماشية يوما ما» والسعى وراء المرعى هو الذى حدد رحلتهم السنوية جنوبا ثم شمالا . فموسم الجفاف يرغمهم سنويا للهجرة جنوبا حتى بحر العرب والغزال بحثا وراء الكلا . ثم يعودون شمالا بعد هطول الأمطار هربا من الذبابة . ويستقرون فى «الدار» والدار هو مكان إقامتهم وزراعتهم لذا نجد دار الهبانية ودار التعايشة الخ .. ثم يجبرهم الجفاف على العودة جنوبا وهكذا ، فانهصر حزامهم الحالى .

اذن يمكن أن نقول أن شقير لم يجانب الحقيقة عندما ذكر أن جد الخليفة وصل لدارفور من وداى ولكنه لم يصل لنهاية الحقيقة . واصله أبعد من ذلك غربا بكثير أن حاولنا أن نفسرها على ضوء زحف البقارة

McMichael, H.A., *History of the Arabs in the Sudan* (London, 1967), pp. 276, 277

Cunnison, I., *Baqqara Arabs* (Oxford, 1966), pp. 1,2,3

« شقير ص ٥٨١ — موسى المبارك ، تاريخ دارفور السياسى ، ص ٢١ و ٢٢ .

(١) لم يلقب بتورشين لقبه منظره كما ذكر شقير بل المقصود «بالتورشين» فى لهجة البقارة هو الجاموس البرى كناية عن القوة وشدة البأس وهى عبارة كثيرة التردد فى فولكلور البقارة وفى أغاني الصيد والحصاد .

(٢) تشير أغلب الروايات إلى أن السيد محمد والد الخليفة كان من علماء دارفور المشهورين إلا أن الزبير لم يورد اسمه ضمن الاثنى عشر فقيها الذين استشهد بهم قبل محاربته للسلطان إبراهيم والسبب المرجح هو انحياز تورشين لجانب الرزيقات حلفاء السلطان .

مذكرات الزبير ص ١٣ — شقير ٥٨١

الخلاف سرعان ما نشب بين تورشين وزعماء القبيلة (٣) فهاجر منهم شرقا واقام زاوية في دار الرزيقات. وبذل الرجل عناية خاصة في تعليم ابنائه يعقوب، وهارون والسماني، ويوسف، ولكن وجد عناء اكبر مع عبد الله. فعبد الله اشتهر بانصرافه عن علوم الدين وحفظ القرآن، ولكنه كان يتشوق كثيرا ويبدى اهتماما اكبر بمشاكل الحياة واختيار الغزوات، والبطولات. وبالتأكيد توفرت المادة الحية لعشرات القصص والملاحم في دارفور المضطربة ابدا - و مسرح عمليات الزبير في ذلك الحين وطبيعة سكانها المقاتلين لم تخل يوما من انباء البطولات التي يتناقلها الشبية سواء في اغاني الافراح مع ايقاع الدلوكة، أو في اعياد الحصاد والصيد. ونشأ الفتى قويا صحيح الجسم طويل القامة قمح اللون ذا انف دقيق ووجه غطته آثار الجدري الذي اصابه في صغره. واشتهر من ايامه الاولى بالبأس والشجاعة. وانضم للرزيقات في حربهم ضد الزبير باشا، ووقع اسيرا في يد الزبير الذي امر بقتله لولا ان تشفع له الفقهاء ورجال الدين. ولزم هو دار الرزيقات ولكن روحه المتعطشة للمجد رأت في الزبير. وقت ان كان اسمه يملأ الآفاق انه المهدي المنتظر، فقد كان الزبير في أوج شهرته. وكثيرين غيره في ذلك الحين نظر الى الزبير باعتباره المخلص الوحيد، فارسل اليه مبشرا انه حلم حلما رأى فيه ان الزبير هو المهدي المنتظر وانه هو عبد الله سيكون وزيره. فرد عليه هذا زاجرا وامره بعدم تكرار هذا الحديث.

بعدها قررت عائلة عبد الله الذهاب للحج فترح معهم شرقا الى ان نزل ضيفا على ناظر الجمع، عساكر ابو كلام، وهناك توفي والده في ابوركية، ثم تواترت الاخبار عن شيخ غريب بدأ صيته يرتفع كولى صالح يدعى محمد احمد يقيم في الجزيرة ابا، فامتنطى عبد الله حماره وقطع المسافة الطويلة الى ان قابل المهدي فوجده منهمكا في بناء قبة في المسلمية فوق قبر استاذة الشيخ القرشي. وقد اثرت

(٣) يذكر محمد عبد الرحيم ان سبب هجرة جد الخليفة من دار التعاشية كانت نتيجة « لعداء نشب بين العجارات وأولاد سنا الذين كانت منهم رئاسة القبيلة أدى إلى حرب بينهما وهناك قبض احمد حوof ناظر التعاشية على جد الخليفة وقتله قتلا فظيما فنشأت من هنا جفوة أصطر الفقيه محمد على كرار وأولاده إلى الهجرة إلى الكلكة بدار الهمانية. »

معجم الشخصيات، الخليفة عبد الله ص ٧٢ - ٧٥

فيه مقابلته الاولى مع المهدي تأثيرا عميقا . فحتى الاوربيين اعترفوا ان المهدي كان يتمتع بمغناطيسية وجاذبية شخصية ترك اثرها من اول لحظة فيمن يقابلهم .

وقد كان عبد الله هو اول من اسر المهدي اليه بسر الدعوة بعد ان اقسام على الكتمان والاخلاص . وبعد ان عاد الى ابا عاد معه ، وهناك انضم اليهم على ود حلو وآخرون من قبائل كنانة ودغيم . ومن هناك بدأت رحلته الطويلة الحافلة الى السيادة والحكم . الى ان اصبح المسيطر على تلك الامبراطورية الضخمة .

والحديث الغالب الذي استمد من المصادر الاوربية ، او ممن حتمت مصالحهم ان يؤيدوه ، لازال اقلية ينصب على غدره وقسوته وخبثه وتعطشه للدماء وجنونه بالسلطة ، وللأسف لم تفلح السنين في محو تلك الصورة الرهيبة عنه . وان كان هذا مفهوما في العصر الفيكتوري ، فهو ليس بالمعتول ولا المقبول الآن ، وهناك عشرات الالوف من الوثائق تغطي كل احداث عهد الخليفة ، وتحكي الحقيقة . فاستمرار هذه السمة حتى الآن جريمة تاريخية كبرى . وحتى الاوربيين تنبهوا لها اخيرا (١) . واقوال الثلاثي - ونجت - اورهرلدر - سلاطين - المسئلة

(١) لقد استغرق الأمر عشرات السنين لتحويل تلك الفكرة عن المهدي والخليفة : « وفي أوروبا عامة وبالذات في إنجلترا كان الشعور العام نحو المهدي هو اعتبارها شرا مستطيرا ، تماما كذلك الشعور الذي تعرضت له بلشفية لينين في العشرينات ، ولكن العداء نحوها كان ضارب الجذور . فلم تكن المسألة مسألة ضربة وجهت للقوة البريطانية في العهد الفيكتوري ، ولا احساس بالحق المشروع في الكراهية النابعة من العجز للتأثر للهزيمة ، بل كان الشعور نابعا من تحد ديني .

ولم تفوت جمعية محاربة الرق في إنجلترا فرصة واحدة في نشر التقارير عن وحشية الخليفة وقسوته . كان ذلك هو الجو الذي يسود زمن الحرب . حين تمتد المبالغة والدعاية لتحوير الحقائق .

وكان شبه مستحيل لاي شخصية عامة ان تتبنى وجهة نظر منفصلة ، أو تدافع عن العرب ، فلن توصم بان آراءها تحريرية أو واقعية ، بل ستوصم بالخيانة . وكالعادة في زمن الحرب ، عندما يصعب وصول الحقائق وتفرض الرقابة ضبابا كثيفا حصول وصول المعلومات الامينة المجردة لكلا الجانبين ويصبح الجهل ارضا خصبة لنمو الخيال الجامح .

ومن المستبعد ان يتحسس رجال امثال اورهرلدر وسلاطين أي فضائل أو محاسن في آسريهم أو انهم حتى كانوا يلمون بحقائق الأمور بالضبط ، فقد نظروا للأمور من مواقفهم كاسرى حرب . »

In Europe at this time and especially in England, there was a general disposition to regard the Mahdist state as an implacable evil as ever Lenin's Bolshevism was regarded in the nineteen-twenties.

Yet the hostility towards it in Europe ran very deep. It was not only a →

عن تلك الصورة ، والتي سطرت آلاف الصفحات لترسيخها في الذاكرة ، يجب ان تؤخذ بحذر ، فهم كانوا الخصم والحكم معاً ، ولا يعقل ان نقبل رواية اعداء الخليفة كحقيقة ثابتة لاتقبل النقض . وان كان الخليفة قد عانى آلاف المتاعب في حياته كما سئرى ، فقد واجه اقساها بعد وفاته . فقد توجهت ضده آلة دعاية عصرية ضخمة عندما حتمت مصلحة الأوربيين تحطيمه ، فكان ان الصقت به كل تلك الصفات البشعة ، ولازمته هذه الصورة عشرات السنين حتى بعد وفاته . ويجب ألا ننسى انه من المؤكد لو ان الظروف جعلت أى شخص آخر مكانه ، لصور عهده وشخصيته بنفس الطريقة . وكل الاتهامات والصقات المخيفة التى لازمتها عشرات السنين بعد وفاته ليست امرا جديدا . وليس هو الاول والاخير ممن يتعرض للظلم التاريخي ، فاعلم القادة والزعماء الآسيويين والافريقيين الذين وقفوا في وجه المد الاستعماري واجهوا نفس المصير . وقد تبدو الاسطر التالية وكأنها محاولة لتحليل شخصية الخليفة ، ولكن الامر ليس كذلك ، على الرغم من انه يستحقها ، فهو يظل روايتنا ، ولكنها محاولة سريعة لالقاء نظره موضوعية على تلك الحقبة التى وصلت قممتها ونهايتها بتلاشي اصدااء انفجارات المدفعية فى كبرى .

question of Victorian power and self-righteousness smarting from a sense of unavenged defeat. It was felt that the Christian faith itself was defied by these murderous fanatics in Sudan, and the anti-slavery in England lost no opportunity of spreading every fresh report of the Kalifa's brutalities. This was the atmosphere of wars when all things tend to become exaggerated and touched by propaganda. It was scarcely possible for any man, particularly if he was a public figure, to take a detached view, or argue a case for the Arabs, to have done that, would practically have meant being branded not as liberal, not as a practical, but as a traitor. As in time of war communications failed, a heavy fog of censorship prevented the impartial facts from penetrating to either side, and ignorance was a wonderful breeding-ground for imagination. Slatin and Ohrwalder as prisoners - of - war they were hardly likely to have discovered virtues in their gaolers, or to have known all that was going on.

Moorhead, Alan, *The White Nile* (London, 1962) pp. 285, 386.

عهد الخليفة عبد الله :

اولا لاشك في ان المكانة التي احتلها الخليفة عبد الله في تاريخ السودان الحديث كانت مكانة عظيمة ، ولاشك في ان الحيز الذي شغله من عمر السودان كأمة كان حيزا ضخما ، ليس بحساب البعد الزمني فقط ، بل باعتبار العمق والثقل المتخلف من عنف الاحداث وضخامة الانجازات .

فقد طغت شخصية الخليفة على الاحداث طوال ثلاثة عشر عاما من الحروب والمجاعات والثورات والمؤامرات والغزو الخارجي ، فظله واياديه الطويلة امتدت اصابعها آلاف الاميال لتحرك وتوجه اصغر الامور في تلك الارحاء الشاسعة . فقد وجه الرجل شئون هذه القارة بكفاءة وبراعة وحسم ليس لها نظير ، وقليلون من واجهوا ظروفها وعوامل مضادة مثل التي واجهها ، واندر منهم من استطاع التغلب عليها مثله . فاليوم الواحد من سنى حكمه يحتفل بعشرات القرارات الهامة السريعة . والحديث الذى يصف اى مقدرة وجه بها شئون هذه البلاد أو عن موازنته الدقيقة بين عشرات الاخطار التي حاقت بدولته ، ليس جديدا ، واتفق عليها جميع من ارخوا سيرته . ولكن كفة الميزان ترجح ضده دائما عند الحديث عن شخصيته^(١) ودوافعه وارجاع كل افعاله الى الحب المتأصل فى نفسه :

(١) لئن استمع كل العالم لوجه نظر سلاطين واعطاء ذلك الوزن فلان سلاطين كان ملازما للخليفة فلم لا نستمع لوجه نظر سودانية من شخص كان ملازما للخليفة أيضا وهو المؤرخ محمد عبد الرحيم : « وعلى كل حال أقول أنى لا زمت الخليفة حيناً من الدهر وسبرت اخلاقه وصليت خلفه وسمعت وعظله ورأيت كمؤرخ يزن الأمور بميزان العدل انه كان رجلاً حكيماً حاذقاً فاسكاً كريماً بطلاً لا يهاب المكروه ولا تأخذه فى الحق لومة لائم لا يعفو عن المسيء ويضرب على يد الظالم ولو كان من ذوى قرابته . فقد حكم على حسين أبى داود وحسن أبى التيمان بقطع ايديهما وجلد ٢٥ رجلاً من صفوة التعايشة كل رجل ٥٠٠ كراياج فكان منهم الأمير أحمد حامد ابن خاتته واحب الناس اليه فكيف يكون العدل اذاً .

ولكنه كان يدير حكومة معتلة الجوانب تسود فيها الأمية ولا يمكن ضبط النظام وتقوم اخلاق الولاة الذين كان أغلبهم من اجلاف العرب .

ولخليفة المهدي أحكام ربما قسرها الناس لجهلهم بالا سباب كقتله الشيخ حسين ود الزهراء وغيره مع ان للاستاذ حسين قصيدة فى هجاء الخليفة لوقالها فى أى فرد لقتله فضلا عن رجل كان يقبض على ناصية السياسة .

وقد أمر الخليفة الجيش بحفظ القرآن الشريف فكانت تسمع للناس دوى بالجامع كدوى النحل ←

ان الحقب التاريخية العنيفة كلمهديه تحفل دائما بكثير من الاحداث الدموية والابادة الجماعية ، ولكن القضية ليست قضية كمية الدم المهدور مهما بدت مخيفة ، بل يتركز في الاهداف التي اهدر من اجلها . هل راحت الالوف التي راحت خلال المعارك الدامية أو المجاعات الرهيبة فداء لفكرة سامية ، وهي المحافظة على كيان سلطته التي تحمل مبادئ المهديّة؟ أم راحت لمجرد اشباع تعطشه للسلطة والقوة؟ ولنجعل السؤال مباشرا اكثر ، هل كان الخليفة رجلا غير اخلاقي « Immoral » كما افلح في تصويره معظم المؤرخين ، اورييين كانوا ام عربا؟ قطعلا . والاجابة تعزّزها آلاف الوثائق واحاديث كل من عاش في ايام الخليفة ، ومن مختلف القطاعات ، سواء أكانوا من كبار المسؤولين أم من عامة الناس ، وتحدث ولم يجرو ليكتب مخالفا للموجة السائدة .

وكان يجدر بنا قبل الاجابة على هذا السؤال ان نوضح عدة أمور . اولها الخطأ الكبير عند مقارنة الخليفة بالمهدي ، ليس لاختلاف الشخصين فقط ، بل لاختلاف الدور الذي تحم على كل منهما القيام به . فالمهدي كان عليه اشغال الثورة وغرسها في النفوس وشحنها بالطاقات الروحية . وبعد ان نجحت كان على الخليفة بدء تنظيم المجتمع والدولة الجديدة لقد تركز الخلاف بين الدعوة والدولة . فتلك العبارة « المهدي بقت ملك » و « المهدي بقت دولة » كانت كثيرة التردد بين معارضيهِ . فالرجل قاد أمة مشتتة لم تتحد الا نتيجة لخمس سنوات من

وقد حفظ القرآن اناس في العقد السادس من عمرهم . ولقد زرت يوماً محمد بك الملك « ملك أرقو » حال قدومه للخرطوم فذكرنا خليفة المهدي عرضاً فقال « ان لم يكن الخليفة من عمل صالح الا انه حفظنا القرآن بعد الشيب لكفى .. »

وقال لي العلامة الاستاذ محمد البدوي رئيس مشيخة ام درمان العلمية الأسبق « دعاني خليفة المهدي ذات يوم إلى مجلس خاص وبعد ان جلسنا بين يديه اخرج بطاقة من تحت مخدته وقال لي اقرأ هذه فاذا بي أجدها بلا غارسيا من بضعة علماء كان بعضهم أقرب الناس لي قدموه عني يقولون « ان محمد البدوي افني بعدم الصلاة بحجة انك جاهل لا تحسن الاداء حتى كان ذلك سببا في صد الكثيرين عن حضور حضور الصلاة . » فقلت له ان الذين امضوا هذا البلاغ جميعهم عدول لا مجال للظعن في بلاغهم فاقض بما انت قاض . فاطرق برامه هنيهة ثم نظر إلى واجاب قائلاً « أنا اعرف منك الثبات والشجاعة عند نزول الامر فانا لا اطفى . بيدى هذه نورا مثلك فلا تثريب عليك في شيء من هذا وانما اريد ان انصحك في الابتعاد من جوار هؤلاء الناس . »

المعارك المتصلة ، وهل كان هناك سبيل آخر للتعامل مع تلك القبائل المتنافرة المتباينة واخضاعها تحت اطار وسلطة واحدة ، وهي قبائل طالما قاومت ونفرت من كل القيود بانواعها ؟ ! وتلك القبائل توحدت عندما غرس فيها الوازع الدينى والروحى ووجدوا فيه منفسا لطبيعتهم العنيفة ، وعندما انتصرت المهديّة وانحسرت موجة الحماس الاولى بوفاة المهدي ، عادوا لطبيعتهم الاولى ، وبدأت العنصرية القبلية تطل برأسها من جديد بعد ان اختفت لحين وجيز .

ولعل من اكبر انجازات الخليفة ، وفي الوقت نفسه اكثرها تعرضا للنقد والمصدر الاكبر لكثير من الاتهامات التى وجهت اليه ، هى اصراره على مركزية الحكم ونجاحه نجاحا لامثيل له فى فرضه . فقد كان حكم الخليفة حكما مركزيا عسكريا لدرجة نادرة التكرار . ومن الصعب ان يتخيل المرء طريقة اخرى لانشاء الدولة الحديثة المنظمة التى صبا لانشائها من اشلاء الحكم السابق أو ماتبقى بعد سنوات الثورة العنيفة أو من لاشئ تقريبا ، فلا خدمة ادارية ، ولا تعليم أو طرق أو وسائل مواصلات أو اطباء وبدون خبرة فنية تكنولوجية أو مصانع . وقد ثابر بجد وصبر لانشائها طوال تلك الاعوام . ولم يتوفر له فى البداية الا الخطوط العامة للتشريع الاسلامى ومبادئه للقضاء والزكاة التى وضعها المهدي . ولكن تطبيق تلك فى سنوات الثورة الثلاث كان شيئا ، وتطبيقها وتنفيذها فى ظروف عادية مستقرة كان شيئا آخر . وقد بذل الخليفة جهده مستندا على تلك الخطوط العامة ، وعلى الخبرة القليلة التى اكتسبها هو أو معاونوه فى الحكم السابق ، ومستفيدا لاقصى حد من خبرات القلة من الاطباء والمهندسين والاداريين ممن خدموا فى العهد السابق وسقطوا فى الاسر . وبعد عشر سنوات من بدايته تلك ورغم الحروب المتصلة ، والتمرد والمجاعات ماذا نجد ؟ ! نجد دولة متماسكة تحكمها ارادة واحدة وعلى اسس لايمكن الا ان تحوز على اعجابنا اذا قارفاها بالسليبيات وضالة الامكانيات . ولم يكن رجال هذه الدولة أبدا دراويش « Dervshes » ولم يكونوا متوحشين « Savages » كما اتهمهم الاوربيون .

فقد اسس الخليفة نظاما سليما للضرائب ، ومحاكم صغرى فى طول البلاد وعرضها للنظر فى القضايا المختلفة وعلى رأسها محكمة عليا ، مهما قيل عن خشونة

احكامها أو تحيز قضائها فالاسس الصحيحة كانت متوفرة لها ، وتمكن من ربط تلك الارجاء الشاسعة بشبكة من البريد تشهد عملياته العسكرية بكفاءتها ، واستغل كل خبرة فنية ورثها من الحكم السابق سواء من المهندسين أو الاطباء أو العمال المهرة ، كما استغل أى آلة أو ورقة للدرجة القصوى ، وتمكن من انتاج اغلب احتياجاته رغم الحصار الاقتصادى الذى ضربته الدول الاوربية والخلافة العثمانية حوله . واستطاع بناء عاصمته . وحتى هذه عندما حاول انشاءها على نمط حديث وعلى اسس صحية بتهديم البيوت التى بنيت دون نظام وانشاء الشوارع الواسعة المستقيمة آمرا السكان بتنظيف تلك الشوارع من الاوساخ ومعاقبا كل من لاينصاع لها ، نجد سلاطين يبرر كل تلك الافعال بترواات الخليفة ورغبته فى ان ترى عيناه منظرا سارا عندما يطل على امدرمان من شرفة منزله ، متناسيا الفائدة التى تجنى من تلك التصليحات ، ومتناسيا انه افرد صفحات طويلة فى وصف قذارة امدرمان وانها مكان غير مناسب لسكنى البشر .

اما التركيز على حوادث ومواقف معينة كما فعل الثلاثي المشهور الذى كتب عن الخليفة ، ودعم كتاباته بالرسوم واللوحات ، فهو الذى مهد لانطباع تلك الصورة عن الخليفة . ولكن كما انضح فيما بعد ان هناك قصة تختلف تماما عن ما ذكره سلاطين أو شقير سواء ان كان فى مقتل مادبو ، أو اعدام البطاحين الذى جسمه سلاطين فى اللوحة المشهورة ، أو مقتل الزاكي طمل ، أو اقضاء احمد سليمان .

والقلة التى كتبت من السودانين أو من استجوبوا من عاصروا تلك الاحداث امثال على المهدي أو محمد عبد الرحيم تحدثوا عن رواية تختلف تماما عما رواه سلاطين واوهرولدر وونجت . فعن مقتل مادبو ، الرجل الذى حمل عبء الثورة فى دارفور فى ايامها الاولى ، تؤكد أغلب المصادر الحديثة ان الخليفة رغما عن تمرد مادبو وقيادته لثورة مسلحة ضد المهدي ، ورغما عن انذار الخليفة له مرات عديدة ، طلب من عثمان آدم ارساله سالما لامدرمان . ولما قتله ابو عنجه مخالفا امر الخليفة لاحقاد قديمة كان الامر خارج ليد الخليفة (١) وصرح بانه واثق من ان

(١) يوضح موسى المبارك ان هناك أربعة أسباب أدت لمصيان مادبو ، نفوره من الهجرة لامدرمان واستنكاره ان يكون الخليفة ابن القبيلة الصغيرة سيدا عليه وخوفه من الخليفة بعد ان افرط فى عدائه ←

مادبو لازال بوسعه تقديم خدمات جليلة للمهدية ، ولكن مكانة ابو عنجة منعت الخليفة من اتخاذ اى اجراء ضده أو معاقبته .

وعند مقتل الزاكي طمل (١) ثبت ان الخليفة لم يعلم عنه شيئا وغضب غضبا رهيبا وانتقم ممن تسببوا فى الوشاية به وقتله .

له وان « الخليفة اسف لمقتل مادبو واسر لبطانته بان مادبو لو عاش لقدم له خدمات جليلة . ويبدو ان كلاما كهذا ترمى إلى مسامح أبى عنجة فاعتذر للخليفة لقتله مادبو دون الرجوع اليه . » أما رد الخليفة على أبو عنجة فالواضح ان الخليفة حاول فيه ان يطيّب خاطر اشهر قاداته وأكفاهم . (١) حقيقة اتخذ اعدام الزاكي دائما كمشال صارخ لوحشية الخليفة وتكرانه الجميل فالزاكي كان من أخلص المخلصين للخليفة ومن أكفأ قاداته كما سنرى . وعلى المهدي يذكر فى استجوابه للاحياء من عاصروا تلك الأحداث انهم حدثوه بالآتى :

« توطأ الأمير أحمد على والقاضى أحمد على وعبد الله إبراهيم وعبد الرسول حنقى ومحمد فرح الجميل على رضى الأمير الزاكي طمل بتهمة الاتفاق سرا مع الطليان لتسليمهم القصارف وماحولها والانحياز لهم . وقد حلفوا على ذلك وذكروا للخليفة المهدي ان الزاكي وابنه طه اصبحا وكأنهما ملكان ، وأنه إذا طلبهما لأمدرمان رجما لا يحضران . فارسل خليفة المهدي لطف ولد الزاكي يطلبه لأمدرمان تجربة ، فحضر ، ثم طلب الزاكي نفسه فحضر ، وأمر الخليفة بتشكيل محكمة كبرى من القاضى أحمد رئيسا وجميع القضاة والخليفة على وواجهوه بهذه التهمة فدحضها وبرأته المحكمة وكان فى هذه المحكمة من المدعين عبد الله ولد إبراهيم وعبد الرسول فلم يستطيعوا الاداء بحجج أقوى منه ولما بلغ الأمير أحمد على ومحمد فرح الجميل خبر براءة الزاكي . تأكد انه لا بد من متقم فقدموا بلاغا آخر عن غيابه وانتفاقه مع الطليان وحلف الجميع اليه ولم تقبل المحكمة دفاعه وحكمت عليه بالسجن ورغم ذلك كان الخليفة المهدي يرى براءته واخلاصه ولكنه أرسل للسجن كما رأت المحكمة .

وبعد ان مكث فى السجن نحو ثلاثة أشهر صدر خبر من السجن أنه مات وسبب موته ان القاضى أحمد كان حاقدا عليه من مدة طويلة فأمر بسجنه سجننا مشددا ووضع فى مكان مظلم ومنع الأكل عنه فاعتبر رئيس السجن ان هذا الأمر أمر قضائى مصدق عليه من خليفة المهدي فنقله إلى ان مات الزاكي طمل جوعا وظلما .

ولما علم الخليفة بموته استغرب كثيرا وسأل عن سبب موته فقيل له حبس البول فارتاب فى ذلك لانه كان ينتظر ان يرفع اليه أمر مرضه عندما شعر به لانه كان كثير السؤال عنه لا اعتقاده انه برىء . فما ينسب اليه من الاتفاق مع الطليان . لذلك فان خليفة المهدي قبل وضعه فى السجن ليحقق ويكشف حقيقة الأمر وقد كان تحقيقه جاريا عن طريق سرى .

وأخيرا علم الحقيقة مجتمع الأكل من الزاكي طمل فحكم على القاضى أحمد ان يوضع فى السجن حتى يموت جوعا كما قتل الأمير طمل . وقد اسف الخليفة على موت الأمير الزاكي وقال « هو الذى هزم جيش الطليان وقهره ، انه ليس بالرجل الهين الذى لا يؤسف على موته بهذه الصفة » .

جهاد فى سبيل الله ص ١٢٤ . ←

وابادة البطاحين والتمثيل بهم ، الذى احتل الحديث عنها مكانا بارزا فى وصف قسوة الخليفة وظلمه ، يحدثنا من عاصر تلك الفترة بأنه قرر معاقبتهم ذلك العقاب الصارم لانهم تعدوا على القوافل التى تمر بديارهم وانذرهم ولما لم يرتدعوا وجه نحوهم حملة عسكرية وعندما اسروا واحضروا لام درمان وصدر حكم القضاة باعدامهم ، قرر التمثيل بهم ليصبحوا عبرة للآخرين .

وهناك سؤال لا بد ان يحول بخاطرنا عندما نتحدث عن الخليفة . ماهو السبب الذى دفع المهدي لاختيار ذلك الرجل الذى هاجر اليه وحيدا غريبا لا يمت بصلة ولا يشابه أيا من كانوا حوله من العلماء والمريدين ليجعله خليفته الاول ؟

هناك مدرسة كبيرة تعتقد ان الامر كان يختص بالدعوة نفسها وان سر مكانة الخليفة يكمن فى انه قبل زمن طويل من لقائه بالمهدي كان يبحث عن المهدي المنتظر حاثا كل من يتوسم فيه المقدرة والصفات اللازمة . وتدل هذه المدرسة ان الخليفة ارسل للزبير قبل ثمانية سنوات من الثورة « كما ذكر الزبير نفسه » يشره فيه بأنه المهدي المنتظر وانه وجد بغيته اخيرا عندما قابل المهدي ، وأن المهدي لم يجاهر بهذا الامر الا بعد لقائه بالخليفة .

بالطبع من الصعب أثبات هذه الرواية ، فهذا مادار بين الرجلين . ولكن الثابت والمؤكد ان صفات عبد الله وشخصيته من تصميم و ارادة وكفاءة عسكرية وخبرة بامور الدنيا والناس وماتمثلة المنطقة التى انحدر منها كانت هى الصفات التى أهلته ليحتل المكانة الثانية . فهو القائد العام « امير جيوش المهدي » فى فترة كانت الثورة فيها عبارة عن عمليات عسكرية متصلة ، وهو صاحب الحل والعقد فى كل مايمس ادارة شئون تلك الحشود وتحريكها وتوجيهها . وتلك هى بالضبط الصفات التى احتاج اليها المهدي ذو العقل الاكاديمي وهو يحرق المنشورات ويحشد

ورواية شارلس نيوفولد الأمير الألماني، وهو ليس صاحب أى مصلحة فى الدفاع عن الخليفة تؤيد رواية على المهدي . فقد ذكر نيوفولد عن سبب سجن القاضي أحمد المشول عن تلقى التهمة ضد الزاكي : « كان تزيف النقود هى التهمة المعلقة التى من أجلها سجن القاضي أحمد ولكن السبب الحقيقى كان حق الخليفة عليه لتسببه فى سجن الزاكي ومقتله جوعا وقد قال الخليفة « دعه ينال نفس العقاب الذى أذاقه الزاكي » .

الناس روحيا ويدخل في جدال فلسفى مع علماء الدين ويخطط للدولة الاسلامية اثناء حياته ، ويتفرغ للعبادة ويعتكف عن مباشرة واجباته الرسمية فى الاشهر الاخيرة من حياته . وهى بالضبط الصفات التى تحتاج اليها فترة مابعد الثورة .

وعندما نقارن بين الشخصين سرعان نكتشف ان الخليفة على الرغم من مركزية دولته لم يكن دكتاتورا ابدا ، عكس المهدي . فالمهدي كان أذكى قومه وارشدهم فكرا واغزرهم علما وكلمته كانت هى القانون الذى يسعى الكل لتنفيذه فوراً . ولم يكن بينهم من يجرؤ على التطلع والسو لآفاقه دعك من المجادلة معه وابداء المشورة . وفى كل ما روى عن المهدي سواء ما كتب أو ما قيل ، نادرا ما ذكر احد ان المهدي عقد مجلس شورى ، أو طلب استشارة احد عدا المجالس الحربية . وكانت قراراته الصائبة القورية هى القانون الذى لاينازع - عكس الخليفة فاعلب قراراته ان لم تكن جميعها خصوصا تلك التى تمس امورا لم يشتهر بالحدق فيها ، كالقضاء والشرع اتخذها اما بعد عقد مجالس شورى أو كانت احكاما اصدرها قاضى الاسلام ومن خلفه هيئته القضائية . ويخيل للمرء احيانا كثيرة لو ان الخليفة اتبع غريزته وخبرته وذكاه بدون ان يحاول تغليف قراراته بالصيغة الشرعية القانونية لأراح نفسه كثيرا .

وهذا الامر يبدو انه هو الخيط الذى سيقودنا الى اكبر نواحي القصور فى شخصية الخليفة - وهو عدم الثقة بالنفس الناتج من قلة الثقافة . فقد وجد نفسه قائدا وخليفة لزعيم روحى وورثا لثورة دينية ورأسا لدولة كان سبب قيامها هو اصلاح ما اعوج من تعاليم الدين الاسلامى ولم يكن هو عالما ولا متفقا ، وهذا ما جعله يلجأ الى القضاة والعلماء للشورى وكان لا يكف عن ترديد عبارته المفضلة « قلد عالم تخرج سالم » ولعل هذا ما يفسر احراز شقيقه يعقوب والعلماء ومجلس الابهات لتلك المكانة وذلك النفوذ القوى فى دولته . ولعل قراراته عندما يدير شئون الدولة شخصا ويوازن موازنته الدقيقة كانت اغلبها قرارات صائبة ولا يمكن ان يوجه اليه اتهام بصدها سواء فى صحتها أو فى عدالتها . عكس القرارات التى صدرت فى القضايا التى تولى امرها القضاة والعلماء أو مجالس الشورى .

وهناك موقفان اتخذهما الخليفة لا يمكن ان نتجاهلهما ، الا وهما خلافا مع الاشراف ، ثم خلقه طبقة حاكمة « Oligarcy » من عشيرته التعايشة .

اما أهمية خلافا مع الاشراف فلم يكن لتأثيرهم أو نفوذهم ، فقد كان هذا جد ضئيل ولم يظهر حتى في حياة المهدي ، بل للنتائج التي ترتبت عليه عندما وصل الصراع قمته ، وتبلور في المحاولة الانقلابية المسلحة التي قام بها الخليفة محمد شريف في ام درمان عام ١٨٨٧ .

فالغاء الراية الحمراء وراية الخليفة شريف أو الراية الثالثة في كل جيوش المهديّة ، كانت هي اهم النتائج التي تمخضت عن المحاولة الفاشلة . فقد كانت راية اهل الشمال والجزيرة . وبدأ الامر وكأن الخليفة قد عزم على تجريد « اهل البحر » من السلاح . وساهم استجلابه لعشيرته واحتلالهم لكل المراكز القيادية في الدولة في ترسيخ ذلك الانطباع . ومن هنا بدأ جزء كبير من سكان البلاد في سحب تأييدهم لسلطة المهديّة التي مثلها الخليفة ، وبدأ الحمس المتقطع سرا وعلنا . وسرعان ما اطلت الحساسيات والعصبية القبلية القديمة من جديد بعد اختفائها اثناء حياة المهدي ، فالعناصر التي وحدت هذه الامة ، لم تنضج على نار هادئة في فترة طويلة ، بل نضجت بسرعة على نار متأججة حامية ، ولما خفت ذلك اللهب المتأجج فجأة ، بدأ ظهور التصدع والشغرات بسرعة مشابهة لسرعة الانحدام .

وقصة الخلاف بين الاشراف والخليفة كقصّة البيضة والدجاجة الازلية ايهما كان اولاً ، أو هل كان تمرد الاشراف مجرد رد فعل لاجراءات الخليفة ؟ أم فعل الخليفة مافعل كرد فعل لتأمر الاشراف ؟ والأمر الذي يمكن اثباته بالوثائق ان الخليفة بدأ في القضاء على مراكز القوة المناوئة وتجميع خيوط القوة في يديه قبل وفاة المهدي واثاء الفترة التي انقطع فيها المهدي عن مباشرة واجباته الرسمية . ومن المؤكد من الناحية الأخرى وما اورده اغلب المؤرخين ان المهدي تدخل في الامر ووقف شاجبا ومبتعثا من عشيرته في آخر خطبة له في الجامع ، واورد الكثيرون ان الاشراف بدأوا يتهامون عن احقية الخليفة في الخلافة ، وجسد المهدي لازال دافئا بعد وفاته .

من الصعب ان نحكم بعد عشرات السنين على امور دار اغلبها شفاها(١) وبين الكواليس ، فالوثائق وبالذات فى تلك الظروف ، لانهى كل شىء . الا ان خلفيات النزاع يمكن تخمينها بسهولة الا وهى التنافس السياسى والصراع القبلى .

على اى حال بعد وفاة المهدي افلحت المبايعة الاجماعية بالاضافة لصوت على ود حلو الخليفة الثانى فى اسكات الاصوات المناوئة الى حين . ولكن عبد الله كان قد احس بها قبلا . فقد كان بارعا فى بث عيوبه وسط المتآمرين عليه .

وتلفت الخليفة الى مصادر قوته . صحيح انه كان يمثل اهل الغرب ، وهم قوة لا يستهان بها ومقاتلون اشداء . ولكن اغلب قادة الجيوش ومديرى الاقاليم كانوا ينتمون للجانب الآخر . وهو يقبع وحيدا فى عاصمته التى ينتمى سكانها وبضا للجانب المعادى ، ولاسند له الا منشور المهدي فى تعيينه خليفة الاول ، اوصية المهدي الشفهية الأخيرة وهو على فراش الموت .

فخالد زقل يسيطر سيطرة تامة على اقليم دارفور وجيشه الكبير تحت تصرفه ، ومحمد الخير فى بربر بجيش لا يقل قوة عن خالد ، ومحمود عبد القادر فى كردفان ، وود النجومى قائد قوات حصار سنار واشهر القادة فى ذلك الحين على الرغم من اخلاصه وولائه الاعمى للمهدية ، لا يعلم احد اين سيقف ، وكرم الله كركساوى فى بحر الغزال وتحت تصرفه جيش آخر . وكل هؤلاء من عشيرة الخليفة شريف والمرجح انهم منحازون له . ومنها بدأ الخليفة سلسلة من الاجراءات لتجريد الاشراف الذين بدأوا يستعرضون قوتهم فى شوارع ام درمان . ولكى يضعهم امام الامر الواقع طلب من الخليفة على ود حلو تسليم الجهادية والسلاح والنحاس الخاص بالراية الخضراء لثلاثا يبدو الامر وكأنه موجه للخليفة شريف وحده ، وعندما اذعن هذا اضطر الخليفة شريف لتسليم اسلحة وعتاد الراية الحمراء وهو مكروه .

(١) اوراق على المهدي أحد المصادر القليلة التى استجوبت من اشترى كوا أو حضروا تلك المجالس سواء منها العامة أو الخاصة أو من عايشوا تلك الأحداث عن قرب ، ترجع كفة الخليفة وتوضح انه بذل أقصى جهده لمنع التصعد وايقاف الخلاف وان الأمر يمود فى النهاية لوشايات والدساتين من بعض الاشراف .

ثم وجه جهده بعد ذلك نحو خالد زقل ، وقد طلب من خالد الحضور بجيشه لام درمان منذ ايام حصار الخرطوم ، وبدأت بينهما سلسلة من المراسلات الطويلة والاختذ والرد والمراوغة من جانب زقل ، الى ان اذعن خالد وتحرك اخيرا نحو ام درمان على رأس جيش الغرب . وفي نفس الوقت ارسل عبد الله الى أبي عنجة أمرا اياه بتجريد جيش خالد من السلاح ونفذ هذا اوامر الخليفة بدقته المعهودة . وعندما وصل خالد الى بارا وعسكر فيها في ٢ ابريل ٨٦ كانت قوته العسكرية قد ضعفت كثيرا بعد ان جرد من السلاح تدريجيا . فقد امره في البداية بتسليم جهاديته ثم تسليم البازنقر والذهب والرقيق وكل رجال الراية الزرقاء ، ثم امره بترك الذخيرة في الابيض . واخيرا وصل ابو عنجة واحاط بخالد فاضطر هذا للتسليم مكرها . ثم استدعى ود النجومى في ١٩ ابريل ٨٦ بعد سقوط سنار وامره بالتقدم نحو دنقلا والبقاء بها الى ان ينجلي خطر الغزو الشمالى بعد انسحاب بعثة الانقاذ . وبذلك ابعد ود النجومى لدنقلا . وساد الهدؤ حينما لبضع سنوات الى ان ثار الاشراف في عام ١٨٩١ في حركة يائسة بعد سجن خالد زقل ، فحوكم الخليفة شريف ووضع في السجن .

وعندما بدأ الخليفة في تقليص اظافر الاشراف ، بدأ ايضا في خلق الطبقة الجديدة الحاكمة من عشيرته التعايشة . وان كانت دوافع الخليفة واهدافه واضحة في هذا الاجراء كل الوضوح الا انها ترتبط في العادة بقضية اخرى ، ألا وهى تهجير سكان دارفور وكردفان لام درمان والجزيرة .

فتعين حكام المناطق بقيادة الجيوش من ابناء عشيرته ، لا يمكن انكار أن المقصود منها اولا تأمين النظام ، بعد ان احس الخليفة بثقل التآمر عليه . فلم يمتص على بدء حكمه ثلاثة سنوات الا كان اقاربه يحتلون كل المراكز القيادية تقريبا ، واصبح حكامه مرآة عاكسة له وخير اداة لتنفيذ تعليماته . فعثمان آدم في الغرب ، ويونس الدكيم في الشمال ، وعربي دفع الله في الجنوب ، وابو عنجة ، وهو اقرب من الاقربين ، في الشرق .

اما قضية تهجير سكان الغرب لام درمان والجزيرة فالملاحظ دائما انها تقدم كجزء مكمل لسياسة الخليفة الرامية الى تأمين وضعه وحشد عاصمته بالجنود لحماية

حكمه . الا ان حقيقة الامر لم تكن كذلك تماما ، ولم تكن يمثل هذه البساطة . فقد برهن موسى المبارك عبر سياحته التاريخية في تلك الفترة من تاريخ دارفور ، والتي استوعبت كل الوثائق التي تتحدث عن هذا الموضوع تقريبا ، بان الخليفة لم يسع الى احضار التعايشة والبقارة فقط بل سعى الى احضار كل سكان دارفور ، وما انطبق على دارفور انطبق على كل كردفان ، وكان الخليفة اكثر رغبة في احضار من كانوا اكثر اعراضا ، وكلما زاد اعراض هؤلاء كلما زاد الحاجة . ولا يعقل ان يرمى الخليفة الى تأمين حكمه باحضار قبائل الفور والزغاوة والميدوب من اهل السودان ، ولا يعقل ان يعتمد على الرزيقات والزيادية والهابانية الخ وكلهم اعرضوا عنه وثاروا عليه بلا استثناء .

الواضح ان هدف الخليفة كان متشعب الجوانب ، ولم يكن يمثل تلك البساطة . فقد كان هدفه حضاريا في المكان الاول ، وقصده كان تأليف تلك القبائل ، وهو يعلم جيدا عزوفهم عن كل طاعة وكل نظام ، ثم وضعهم تحت رقابته المباشرة في ام درمان والجزيرة ، وليس بعيدا في وديان وجبال دارفور ، ليتشتتوا ويهرعوا الى جبال مرة أو مستنقعات بحر الغزال كلما دعاهم داعي الجهاد أو كلما طلب منهم الزكاة والعشور المفروضة على كل افراد دولته .

اما هدفه الثاني فيمكن ادخاله ضمن مخططات استراتيجية الخليفة العليا ، وهو انشاء مناطق حشد قريبة تكتظ بالمقاتلين « Settlements » . وعندما نذكر ذلك يجب ان نضع في اذهاننا ان الخليفة ، على الاقل في السنوات المبكرة من حكمه ، لم يسع للسيطرة على السودان فقط بل كانت مصر ثم مكة هما هدفه النهائي وسرى ذلك بعد قليل عندما يدفع بود النجومى لمصر ، عندما كانت المهدي في ايامها الاولى قبل ان تجبره الظروف على التخلي عن الاهداف التي اعلنها المهدي ، وهي تطهير كل العالم الاسلامى . كان طبيعيا اذا أن يسعى الى حشد كل السكان ، خصوصا المقاتلين منهم ، كما حشدتهم المهدي من قبل .

وقد مثلت دارفور قرحة الخليفة الدائمة . واجبرته على الاحتفاظ دائما باكبر حشد عسكري ، باستثناء العاصمة والقلابات اثناء حروب الجبهة الشرقية ، فلم ينقص جيشه في دارفور ابدا عن ٢٠.٠٠٠ مقاتل وزاد احيانا كثيرة عن ٣٦.٠٠٠

مقاتل . كل هذا للتغلب على عشرات من الثورات وبوادر العصيان التي تفاوتت خطورتها بين ثورات اشترك فيها عشرات الالوف كثورة أبو جميزة ، أو حملاته شبه السنوية لارغام القبائل على الهجرة .

وعندما ارسل الخليفة عثمان آدم لدارفور ، كان واجبه الرئيسي هو تنظيم تهجير قبائل دارفور لام درمان ، ولكن هؤلاء لم يكتفوا بالرفض بل قاوموا كل محاولات عثمان وثاروا عليه ، بل وتعدوا على بقية القبائل التي امتثلت وبدأت في الهجرة . فقد ثار الرزيقات والمعاليا والهباتية عام ٨٧ بقيادة مادبو وثار الفور بتميادة السلطان يوسف ابراهيم في نفس العام وثار الميدوب والزغاوة والماهرية والزبادية عام ٨٨ وتوجت اخيرا بثورة ابي جميزة .

وبالطبع اتجهت انظار الخليفة اول ما اتجهت الى عشيرته التعايشة وكان عثمان ينحدر من نفس القبيلة لذا لم يتوقع الخليفة اى متاعب من التعايشة . بل ظن ان هؤلاء سيهرعون فور صدور الامر اليهم الى ام درمان ، ارض النيل والخيرات والعيش الرغد مخلفين وراءهم الى الابد شظف العيش وحياة البداوة الشاقة . ولكن هؤلاء لم يكونوا بهذه البساطة ، فعيش رغد أو غيره لم يفلح في اغرائهم بترك ارض الآباء والاجداد ، وتلكأوا في تنفيذ اوامر الخليفة الى أن حقق عليهم حنقا مضاعفا . فقد ساءه ان تحذله عشيرته التي اراد لها الخير ، فكتب خطابه المشهور في رجب ١٣٠٥ الى عثمان يأمره بتخريب ديارهم وحرقيها واحضارهم بالقوة ان لزم الامر .

« . . . الى كافة التعايشة على وجه العموم وعربي وقلادة بيت بيت ،

فرع فرع ، نفر نفر كبير وصغير ، هداهم الله الى الصواب آمين
وانكم من تريد لهم الهداية والدخول في سلك المهديّة ونشفق عليهم كثيرا ونظرا لذلك فقد حررنا لكم عدة منشورات بالدعاية الى الله والدخول في سلك المهديّة فما رأيت منكم التفات لذلك ، ثم لما صار توجه عثمان آدم بلجهة دارفور حررنا لكم من المذكرات مافيه الكفاية ، ثم حررنا لكم منشورات بعد وصول المذكور لدارفور وامرناكم فيها بالانضمام اليه ومؤازرته بكافة رجالكم وخيولكم وآلة حربكم وان تكونوا معه اعوانا على اقامة الدين ومع جميع ذلك ما حصل منكم اعتناء

بأمر الدين ولاسمعتم للمذكرات حتى انكم الى الآن ما انضمتم على
عثمان المذكور طبق الاوامر ولاكان يبلغنا من جهتكم مبلغ خير
وما علمنا السبب في ذلك مع تكرار الاوامر اليكم فهل ذلك جحود منكم
لامر المهديّة ام تكذيباً لوعد الله ام اختيار العمى على الهدى ام سبب
ذلك الاستكبار والحسد حتى انكم لم تسمعوا اوامرنا أتظنون انكم البينة
ام خطر ببالكم محاربة المهديّة فان كان ذلك لجحودكم للمهديّة فقد
خرجتم عن الاسلام وصرتكم كفارا والعياذ بالله من حالكم، فان شاء الله
تعالى يحل بكم ما حل بالمكذبين الضالين قديما وحديثا، وان كان ذلك
استكبارا منكم عن اتباعنا فلا بد من حلول العذاب عليكم وخراب
دياركم وهلاك رجالكم وسبى نساءكم وذرائعكم اسوة بالجاحدين
المكذبين اعداء الدين، وان كان لكم طاقة بمحاربة المهديّة فاستعدوا لذلك
ولن تستطيعوه فانكم ضعاف وعاجزين عنه وقد رايت ما فعلته المهديّة بمن
هواشد منكم قوة واكثر رجالا واموالا فكيف بكم مع قتلتم وضعفكم،
وعجزكم والحاصل ان المكاتبات تكررت وهذا آخر مكاتباتنا . وان
كنتم معرضين عن اتباع المهديّة ولستم سامعين لاوامرنا فقد خسرت الدنيا
والآخرة ووقعتم في سخط الله وان شاء الله تعالى لا بد من هلاككم
ودماركم، وتشتيت شملكم حتى تكونوا عبرة لغيركم . وهذا من الجهل
الشديد الذي ليس عليه مزيد ولو كان لكم عقول لما استحسنتم تلك
الحالة التي انتم بها مع ان امثالكم في القبائل دخلوا في المهديّة وقاموا
في نصرتها بنفوسهم واموالهم ورجالهم وخبولهم تصديقا لوعد الله
ومهاجرين في سبيله ونصرة الدين وصاروا على حالة عظيمة في الاسلام .
فسارعوا الى الاجتماع على المكرم عثمان آدم وعليكم الامان في انفسكم
واولادكم وكافة ممتلكاتكم ولا تؤاخذكم بما حصل منكم في الاعراض
ولا ترون الا ما يسركم ويشرح صدركم، وان ركنتم الى التأخير وكانت
اموالكم ودياركم احب اليكم من الله ورسوله والجهاد في سبيله، فالله
اكبر عليكم، الله اكبر عليكم، واستعدوا لحرب الله ورسوله وان شاء

الله تهلكوا اشر الهلاك ويكون مصيركم الى النار وغضب الجبار حينما تتوجهوا من الارض فقدرة الله محيطه بكم . والعاقلة تكفيه الاشارة فضلا عن طول العبارة وحاصل الامر انا ما كررنا لكم المذكرات الا من باب شفقتنا عليكم لانكم الاهل والعشيرة . واستعدوا للحراية بما معكم من جنود الشيطان، وبحول الله وقوته يحصل لكم الهلاك والدمار وخراب الديار وسبي النساء والذريارى والاسر وسؤ الحال كما حصل على من قبلكم من الجاحدين والا فان ليس لكم طاقة بالمحاربة وانما حيلتكم الهروب والطشيش بالديار فلا تهربوا بانفسكم وتتركوا النساء والاطفال والعواجز والارامل والايتام وعديمين الحيلة حيث انكم المشايخ عليهم والرؤساء

وامر بنشر الخطاب على اوسع نطاق وسط فروع التعايشة . وعندما مرت فترة أخرى ولم يستجيب هؤلاء جهز عثمان آدم جيشا قارب تعداده عشرة آلاف مقاتل وتوجه بها الى ديار التعايشة وبدأ فعلا فى احراق القرى . ولكن هؤلاء رأوا انهم لا قبل لهم بمحاربة جيش الخليفة فاذعنوا خاضعين . ولم يمس عثمان ايا من اتاه خاضعا بسؤ، بل عمل على تنظيم هجرتهم .

تحرك هؤلاء من دارفور باعداد ضخمة لانتقل عن عشرة آلاف تصحبهم عوائلهم وابقارهم . وقد اشرف الخليفة شخصيا فى الاعداد لرحلة هؤلاء وبالع فى التجهيز لها فانشأ شون الغلال على طول الطريق وجهاز حملة قوية لتحمل معداتهم وانتظرهم بالبواخر النيلية بالقرب من الدويم . وقد قصد الخليفة بذلك شيئين : اولهما بالطبع كسب ولاء عشيرته وارضاءهم واشعارهم بأى خطأ توغلوا فيه عندما رفضوا الحضور الى ام درمان . كما قصد اظهار قوة عشيرته . واستغرق اسكانهم بام درمان شهورا طويلة .

ثم امر الخليفة بيت المال بصرف الحبوب والطعام والملابس المجانية لكل المهاجرين مما انهمك موارد بيت المال المحدودة انهاكا واضحا . وتضاعف الامر عندما شحت الامطار ، مصدر المياه الرئيسى لزراعة المحاصيل ، والارض المزروعة قلت مساحتها لحد بعيد لانضمام المزارعين للجهد فى ميادين الخليفة

الحربية المختلفة . اذ كانت تلك الفترة من ٨٨-١٨٩٠ فترة حافلة بالعمليات الضخمة ، فتسببت كل هذه العوامل في مجاعة سنة ستة التي اطبقت على كل ارجاء السودان . وزاد تدفق السكان الجوعى نحو العاصمة ، مما زاد من سوء الموقف . واصبحت تلك الارجاء الشاسعة اشبه بالقفار . وقدر ضحايا المجاعة بالملايين . ولما تساقطت قطرات الامطار اخيرا واخضرت الارض وبشرت سنابل الذرة والقمح بمحصول طيب يبعد شبح المجاعة ، لاحت في الافق كارثة أخرى ، فقد غطت اسراب الجراد السماء واطبقت على المحصول الجديد واتت عليه في بضعة أيام .

وقد ضاعفت هجرة عشيرة الخليفة بتلك الاعداد الضخمة من بروز الحساسية والعصبية القبلية القديمة ، ولم يحاول هؤلاء من ناحيتهم تخفيفها ، فقد اشتهروا بالعنجهية والشراسة ، فالاشعار الشعبية والاغاني الشعبية التي انتشرت في تلك الفترة تصور شعور ونظرة مجتمع العاصمة للمهاجرين من ناحية ، وتوضح من ناحية أخرى ان المهاجرين اعتبروا انفسهم طبقة مختارة حاكمة .

وعندما قوى ساعد الطبقة الجديدة كانت النتيجة الحتمية ان يسيطروا على الخليفة، ويحدثنا الثقة ممن ألما ببواطن الامور عن تلك الفترة ان « مجلس الابهات » الذى تكون من كبار النعايشة والمسنين منهم كان هو الحاكم الحقيقى لهذه البلاد. فقد استطاع هذا المجلس ان يملى ارادته على الخليفة فى اغلب الاحيان . ومن الثابت ان الخليفة ضاق ذرعا بسلوك عشيرته ، فلزال الاحياء يذكرون خطبته المقدعة التى شجبهم بها امام الملأ . والمنشور الذى اورده شقير « منشور منع الظلم » واحد من عدة مناشير وجهها الخليفة لحكامه وعشيرته ليحسنوا سلوكهم وان لايتعدوا على الآخرين بدون وجه حق ، وان يبذلوا بعض الجهد لكسب قلوب الناس .

وقد شهد عام ١٨٨٨ الخليفة فى اوج مجده وقوته فقد دانت له كل القبائل بالطاعة واستطاعت جيوشه ردع كل اعدائه من الخارج والداخل وتوجهها اخيرا بانتصاره فى حروب الحبشة .

ولحروبه مع الحبشة اهمية خاصة ، فمن ناحية تعتبر قمة انتصاراته الحربية ،

ومن ناحية اخرى كانت السبب فى اضعاف قوته العسكرية لحد بعيد ، فقد تحمل خسائر تلك الحروب الهائلة التى خاضها مئات الالوف بضراوة متناهية وايد فيها الجهاديون الاصليون الاوائل عماد جيشه القوى ، اولئك الذين تمثلت فيهم روح الجيش الحديث النظامى المدرب .

ومنذ البداية لم يكن منتظرا ان تتجاوز دولنا الخليفة والملك يوحنا بكل طبيعتها الدينية وشعوبها الملتزمة بالحروب دون ان يثور بينهما صراع مصرى . أخذ ذلك الصراع شكل مناوشات صغيرة فى البداية ، ثم تطور الامر الى الصدام الشامل . فقد احتذى احد الاثيوبيين الخارجين على القانون بحماية الانقلابات فطالب الراس عدار من الامير ود ارباب تسليمه اياه فرفض هذا . وكان رد فعل الراس عدار عنيفا ، فقد تقدم الى الانقلابات واحرقها واباد حاميتها وقتل اميرها ود ارباب . وبلغ الامر الخليفة فارسلى يونس الدكيم على راس جيش قوى لردع المعتدين . ولكن يونس لم يستكن للدفاع بل كان ايجابيا اكثر مما طلب منه ، فهاجم القرى المتاخمة على الحدود واحرق الكنائس ونهب قوافل التجار .

احس الراس عدار والى الملك جون على مقاطعة الامهرة انه قد حان الوقت لحسم الموضوع نهائيا ، فجهز جيشا قويا لاكتساح الانقلابات . ويبدو ان الغرض لم يكن تأديبيا أو انتقاميا فقط ، بل كان الاحتلال والاقامة الدائمة . فلن يهدأ بال الملك يوحنا ، ويستتب السلم فى بلاده ، طالما ظلت الانقلابات فى ايدى الخليفة وامرائه المشاكسين ، وعلم جواسيس يونس بالخبر ونقلوه له فارسلى له يونس خطابا لكسب الوقت وذر الرماد فى العيون ، وطير الخبر الى الخليفة .

ارسل الخليفة يستدعى القائد الذى توفرت له المؤهلات لقيادة الجبهة المتوترة ، حمدان ابو عنجة ، مقاتل الزبير القديم المتمرس ، مؤسس الجهادية ، بطل شيكان ، فاتح امدرمان ، قاهر جبال النوبة . . . قامع ثورات كردفان وقد كلل اعجابه وكفاءته بدروس اضافية عملية فى جبال النوبة . فقد تمرس اثناء حملته الطويلة ضد النوبة على حرب الجبال الشاقة ، وقد وضحت الخبرة العملية التى استقها فى تشكيل قوته عند عبور جبال الامهرة الوعرة فى تقدمه الذكى الجسور لمجابهة الراس عدار .

تحرك ابو عنجه من جبال النوبة لام درمان . فجهز الخليفة استقبالا رسميا يليق بمقام قائد العظيم لازالت ذكراه باقية في اذهان من شهدوه ، فمنذ الصباح الباكر تقاطر آلاف المقاتلين لسهل كررى ليشتركوا في الاستعراض ، وعندما بدأ الاستعراض تماوج مائة الف مقاتل مع نغمات الطبول والنحاس ، ولملت آلاف الالسة في مثار التفع الذى اثاره فرسان البقارة ، وعندما ظهر الخليفة امام الراية الزرقاء التى رفرت خلفها مئات الرايات ، كان له الحق كل الحق ان يشمخ بأنفه ، فقد تواتر تحت اقدام جواده اقوى جيش افريقى . تغلب على خمسة جنرالات بريطانيين ومحق اعداءه شرقا وغربا فى الداخل والخارج . وقامت على اكتافه اول دولة افريقية بنيت بسواعد ابنائها لاغير . وعندما ظهرت طلائع ابو عنجة وجحافلهم يتقدمهم الجهادية ، اهترت الارض للهتافات والتكبير .

وبعد انتهاء الاستعراض تسلم ابو عنجة اوامره . وبدأ التقدم فورا بعد ان قسم جيشه لقسمين . فلم يكن من المستطاع توفير الامداد والغذاء لجيش تجاوز تعداده ستون الفا اذا تقدم كتلة واحدة . فقرر التقدم بطريق ابو حراز وطريق التلعة ، المحور الاول بقيادة الزاكى طمل ، والمحور الثانى بقيادة ابو عنجة نفسه . وفى صباح يوم ٣ اكتوبر ٨٧ بدأ التقدم العظيم ، ولم يتوقف الا عند قندر عاصمة الامبراطورية الاثيوبية القديمة .

ولمعرفة الخليفة بطبيعة بونس توقع احتكاكه وتشاحنه مع ابى عنجة فارسل معينا بونس حاكما اداريا للمنطقة ، على ان يتولى ابو عنجة القيادة الميدانية ، ولكن بونس لم يدعن لاوامر الخليفة وفصل معسكره من معسكر ابو عنجة وظل يحتفظ بجيشه كما هو رافضا وضعه تحت قيادة ابو عنجة . فسمع الخليفة بذلك وارسل يستدعى بونس . وعزله من الامارة وابقاه فى ام درمان وعينه ملازميا فى حرس الخليفة « ولزم القروة » لعدة سنين .

بدأ ابو عنجة تقدمه فى ٩ يناير ١٨٨٨ بعد ان خطط له تخطيطا ذكيا فقد اخترق جبال الهضبة الحبشية عبر مر « متنك » الضيق الوعر متقدما باربعة محاور ، كل محور تقدم عليه ربع من ارباعه ، ربع احمد على وعبد الله ابراهيم فى اليمين ، وربع الزاكى طمل اقوى الارباع فى الوسط ، وعربى دفع الله فى اليسار . اما

ترتيب اصطفاة التقدم فقد جعل حملة البنادق فى المقدمة وخلفهم تقدم حملة السلاح الابيض ، وتدافع فرسانه فى الامام وهم يتبادلون احتلال قسم الجبال للاستكشاف البعيد . اما ابو عنجة نفسه فقد تقدم امام الاحتياطى الذى كونه ملازمه خلف ربع الزاكى . وسرعان ما ابتلعت الهضبة الاثيوبية مؤخرة جيشه الهائلة واختفى بين جبالها لسبعة وثلاثين يوما ، انتقل فيها من نصر الى نصر .

ولترك ابو عنجة يصف معاركه بقلمه هو فى تقرير عملياته الذى رفعه للخليفة فى ٢٩ يناير ٨٨ :

ولما ترائنا مع الكفرة اعداء الله اذا هم من كثرتهم لا اول لهم يعرف ولا آخر فابتدونا ضربا بمدافعهم الاربعة بمسافة لا يصلها الرمتون لزعمهم اننا نقف مكاننا ونناوشهم مناوشة ومازالوا كذلك ونحن زاحفون زحفا عليهم حتى اطلقوا علينا ١٦ قنبلة ثم شرعوا بضرب السلاح . هذا كله والاخوان زاحفون عليهم يسبق بعضهم بعضا اقداما بلا احجام طمعا فيما ينالونه من نعمات العزيز العلام . ولم نأذن لهم بالضرب الى ان حققنا بان افواه السلاح امتلات من اعداء الله فعند ذلك شرعنا فى ضربهم بغاية الحزم وشدة العزم مع الزحف عليهم فما كانت لهم ساعة الا وقد زلزل الله اقدامهم والحق الرعب فى قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين مرتكبين عار الفرار ذاهلين عن كل ما لهم من ذراى ونساء وخيول وبغال وحمير وخدم وحشم ونحو ذلك . هذا كله والاخوان الصادقون يسمعون صوت الام بايه تضرب فى وقت اشتداد الحرب . وبعد انكشاف الاعداء اقتفينا اثرهم طعنا وضربا واسرا حتى اضطر الذين امامنا الى ان رموا بانفسهم فى النهر المذكور وكانوا يزيدون عن الف نفس من ذكر وانثى فمات اكثرهم غرقى . ومارجعنا عن مطاردهم الا بعد الساعة العاشرة من النهار ووجدنا الهالكين من اعداء الله الوفا مؤلفة لا يحصى عددهم الا الذى اراد هلكهم ولم يفز بلقاء الله من الانصار الا نفر قليل كما يرى فى الورقة الاخرى طيه هذا وجميع الغنائم مع المدافع الاربعة وبعض السلاح الذى تيسر جمعه والخيول

والبغال وغير ذلك اخذناه بفضل الله تعالى بلا منازع ولامعارض لان الكفار تركوا الديم كما هو . وقد اعلمنا نقاد راس صابون من ثقة مسلمي الجبيرة الذي شهد معهم الواقعة وسلم بالفرار ان عدد الكفار مائتين واربعين الفا بلا نقصان منها خاصة اهل الحربة والدرقة والسيف مائتين الف وخاصة السلاح الرمنتون اثنا عشر الفا والاجناس ثمانية آلاف والخيول عشرون الف والمدافع الاربعة . واهل الديار التي معهم لحربنا هم قجام ، واجفر ، وعلفه ، وطماقسه ، ودمبيا ، وقندر ، وشقلته ، وام بجاره ، وارمجوه ، وغيرهم من عامة الديار وقد هلك اكثر البطارقة والرؤوس ومن جملتهم الشقى دجاج كاسه قائد جميع الجيوش ، بعد الشقى راس عدار الذي حصلت على يده وقعة القلابات . وهذه ثلاثة ارؤس مع رافعه وهم دجاج كاسه عقيد الحربة ، وبزايه بن الشقى راس عدار وقدارعى بقرا عقيد السلاح وكان جملة من يقال له دجاج ستة عشر ومع كل دجاج خمسة عشر الف اعنى كل واحد صاحب جاه ونقاره ، وما ارسلنا هذه الارؤس الثلاثة الا لشهرة اربابها ومن جملة الاسارى لدينا اولاد الشقى راس عدار ذكورا واناثا مع حرم واولاد الرؤوس المفسدين بما فيهم بعض حرم وابناء عدو الله المخذول صالح شقى وغيره .

هذا ولما خلت الدار من الكفار وانتنت راحة الديم من جيف اعداء الله ورمم بهائمهم انتقلنا على بركة الله تعالى طالين قندر ام مدائنهم يوم السبت لسبعة جماد الاولى وقبل وصولنا اليها قابلنا اهل الديار المذكورة اعلاه راغبين الامان ورافعين الرايات البيض وفي ايدى البعض الاغصان انخضراء ثم قربنا اليها قابلنا جميع كبائرها من مسلمي الجبيرة بالطاعة والاذعان طالين الامان فامناهم وبعض المكائبات التي قابلتنا منهم بالطريق هاهى واصلة طى هذا وجميع الكفار الساكنين بها ولوا مدبرين فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يمينا وشمالا فاعجبنا بما شاهدناه من القصور الشائحات ، واحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ماعدا الكنائس التي احرقناها بالديار المذكورة وعند مرورنا بها وهى تزيد على ٢٠٠ كنيسة فلما لم نجد بالمدينة

المذكورة الا المسلمين من الجبرته (وكانوا نحو ٢٠٠) ولم نعلم جهة للعدو ولزيادة اشتياقنا لمخاطبة السيادة لانقطاعها عنا مدة غزوتنا هذه وايقاء بوعدنا السابق للسيادة عن تعجيل الأوبة قمنا منها ومعنا جمعا من الجبرته باموالهم واولادهم مهاجرين لله والغنائم المتقدم ذكرها آنفا وسيتم وصولنا الى القلايات غدا انشاء الله تعالى ولعلمنا ان الافكار الشريفة متعلقة بنا قد بادرنا بتحرير هذا في ١٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠٥ هجرية (٢٩ يناير ١٨٨٨ ميلادية) .

ولكن ابا عنجة لم ينعم طويلا بانتصاره فلم تستطع قواته احتمال قسوة الجو في الهضبة المرتفعة فعاد الى القلايات وهناك توفي متأثرا من مرض مفاجئ (١) وقد وقع الخبر وقوع الصاعقة على الخليفة فعدا صلته الشخصية به ، ونكته في اكثر قاداته اخلاصا ، تواترت الانباء في ذلك الحين عن الاستعدادات الضخمة التي بدأها الملك جون لاختار الراس عدار وجيشه المباد .

جمع النفر جيشا تجاوز ربع مليون جندي ضم كل شباب قادر على حمل السلاح وتدافع هؤلاء للانضمام لجيشه ، فقد نظروا للصراع كحرب دينية مقدسة . ويبدو ان الملك جون كان واثقا من جيشه كل الثقة فقد ارسل للزاكي طمل منبشا انه سيصل للقلايات يوم ٩ مارس وليستظر هذا ويرى عاقبة افعاله .

لم يكن هناك زمن لتعزيز القلايات واختار الخليفة فيمن يخلف ابو عنجة . . . فاختار مجلس شوره قريه احمد ود على قائدا وامثل الخليفة على مضض لرأيهم .

ولكن ما ان تحرك جمل البوستة وغادر ام درمان حتى ندم وسارع بنقض قرار المجلس وارسل خطابا آخر يعين فيه الزاكي طمل ، اقرب القادة لابي عنجه واكفأهم واصليهم عودا ، قائدا للجبهة الشرقية . واثبت الاحداث صحة قراره فقد كان الزاكي جنديا من نفس مدرسة ابو عنجة ورافقه منذ ايام الشباب الاولى عبر رحلة السنين الطويلة في حروب الزبير في افريقيا الوسطى ثم الى القلايات وكان ساعده الايمن في تنظيم وتدريب الجهادية واحتل مكانة نائبه الاول .

(١) قيل أنه أصيب بمغص فتناول بعض الاعشاب كعلاج قسمته وأدت إلى وفاته

وبدأ الزاكي في اكمال وتحسين دفاعات القلايات فاحاط المدينة من الجهات الاربعة بزرية سميكة وحفر خندقا لتحصينها من جميع الجهات وفي وسط الزرية شيد سورا مربعا جمع فيه العائلات والدخائر . ثم حشد داخلها ستون الف مقاتل جندي تسلحوا ب ١٥٠٠٠ بندقية وقبع منتظرا العدو .

وفي صباح ٩ مارس بدت طلّات « النقس » الجبارة يتقدمها الفرسان الذين اثاروا الغبار حتى اظلمت الدنيا ، فقد بلغت مواجهة تقدمهم ستة اميال . ومضى النقس متهاديا على صهوة جواده وقد ارتدى تاجه الامبراطورى .

وقف الملك جون على تله صغيره مشرفا على المعركة بعد ان اعطى اشارة الهجوم ، فاندفع مئات الالوف فى ضراوة متناهية فى اعنف معركة شهدتها افريقيا حتى ذلك الحين . ركز الاحباش هجومهم على نقطة واحدة من خطوط دفاع الزاكي التى بلغ عرضها ١٥ ميلا وهى قطاع احمد ود على . واستماتت الفرقة الشجاعة ولكن هجوم الاحباش كان قويا ومركزا وباعداد هائلة ، فافلحوا فى اختراق الدفاع وابيدت الفرقة عن آخرها واندفعوا داخل احياء المدينة ولم يقف انتقامهم الدموى عند حد ، فقد اعملوا ذبحا فى كل كائن يتحرك امامهم الى ان وصلوا قبر ابو عنجه وبدأوا فى نبش رفاته انتقاما « للراس عدار » ووجد المدافعون انفسهم يواجهون عدوا من الامام ومن الخلف .

فوجئ الزاكي بسير المعركة . فقد بنى دفاعه متوقعا هجوما عريضا بمواجهة كاملة لا ان يركز على جانب واحد « الجانب الغربى من الزرية » وعلى هذا الاساس وزع قواته ونيرانه توزيعا متساويا موزونا ولم تكن خطوطه العريضة محصنة تحصينا كاملا أو محتلة احتلالا قويا بالمدافعين .

دامت المعركة ٥ ساعات واصبحت الخطوط الامامية كلها تقريبا فى يد الاحباش فلجأت اغلب قوات الزاكي للخطوط الخلفية بعد ان امر بفتح النيران على قطاع احمد ود على مضحيا بالبقية الباقية من مقاتلى الفرقة المباداة لايقاف تدفق الاحباش ، ففتحت النيران وبدأ قصف الصديق والعدو سويا . وهنا سقط الملك جون صريعا بطلقة اصابته بجرح مميت فى صدره فى لحظة قمة انتصاره . وبعد ان

أخذ جنوده آلافاً من الأسرى وساقوهم أمامهم ، ولكن عندما تسرب نبأ مقتل الملك جون أصيب جنوده بالذهول لفترة ما وتراخت قوة اندفاعهم ثم أوقفوا العمليات العدائية وقنعوا بما سدده من انتقام وما فازوا به من أسرى وغنائم . وحملوا جثة ملكهم القليل وأنسحبوا .

والذي حدث أن القوة التي نجحت في اختراق الزريبة كانت تنتمي إلى قبائل الأمهرة ، الذين طالما آتهم الملك بالخبث نتيجة للهزائم السابقة . وغضب الملك عندما علم أن قبيلته « التقرى » التي عزز بها هؤلاء متفخراً بهم عجزت عن اختراق الزريبة . فتحمس وأمر خدمه بحمله على عتريبه الذهبى إلى الخطوط الامامية ليقود جنده مخترقاً الدفاع إلى داخل القلابات ويبدو أنه اقرب للغاية من الخط الامامى . فلاحظ رجال الزاكي ثلة كبيرة من الجنود بملابس القطيفة الزاهية تختلف عما يرتديه بقية جنود الاحباش نصف العراة فوجهوا نيرانهم نحوها . . . واصابوا الملك بطلقة اخترقت ذراعه ثم صدره . . . واصابة الملك تلك غيرت الموقف كله .

جمع الزاكي قتلاه وفكر طويلاً فاتخذ قراراً صائباً بمطاردة العدو فقد اخذ هؤلاء معهم كثيراً من السبايا ومن ضمنهم نساء قائدهم الراحل ابو عنجة فجمع البقية الباقية من جيشه وبدأ فى مطاردتهم . . . ولكن لترك الزاكي يصف الأحداث فى خطابه الذى ارسله لام درمان :

« وهو أنه بعدما سبق العرض للسيادة عما بلغنا من حضور اعداء الله الحبشة لمحاربتنا فقد تم وصول الاعداء المذكورين يوم السبت فى ستة رجب ومعهم نفسهم المالك الملعون يوحنا قريباً منا فكانوا على حالة عجيبة وقوة شديدة وجموع كثيرة العدد عظيمة العدد لا يحصى مقدارهم الا الله تعالى حتى من شدة كثرتهم ضاقت بهم الارض وما وسعتهم الطرق فصاروا يطلقون الحرائق امامهم لتنظيفها ولقد راينا نيرانهم من مسافة ثلاثة ايام فلما قربوا من المركز مسافة ساعتين ثار الغبار من جهتهم حتى سد الافق وصار من فى ديم الانصار لا ينظر من يكون بجذائه من

شدة ثوران الغبار وانتشاره وعندما شاهد الانصار ذلك اظهروا من الثبات والشهامة والاشتياق الى لقاء الله والوفاء بالعهد ما هم به حريون وبقينا مترئين ومستعدين على الحالة المعهودة ومتنظرين قدوم الاعداء الى ميدان الحرب لمناجرتهم وقطع دابرهم فحضروا اليانا فى الوف مؤلفة وعدد متنوعة ومعهم من الخيول والاسلحة واليقال مالا يحصى وقد ساقوا امامهم الوحوش كالجواميس والذئاب والغزلان وخلاف ذلك واحاطوا بنا من كل جانب حتى صرنا فى وسطهم كالحاتم الصغير وهم فى غاية الغرور والاعتماد على كثرتهم العارية من المعونة الالهية وكان عدد الانصار اهل الاسلحة النارية اذ ذاك سبعة عشرة الفا بخلاف الحراة لكون الاعداء المذكورين اتونا على حين غفلة قبل التمكن من جمع جيوش الانصار المتفرقة بالجهات فى المصالح . فبعدما احاطوا بنا من كل جانب ومعهم نقسهم الملعون بوخنا يحنهم ويحرضهم على القتال ويمنيهم بحسب مايلقيه اليه الشيطان وتسول له نفسه الخبيثة من القدرة على اطفاء نور الرحمن ابتدرونا بضرب المدافع والاسلحة النارية من كل الجهات وحملوا علينا حملة ارتج لها الكون وصار لهم دوى عظيم واصوات مختلفة من ضرب الاسلحة المتنوعة والانصار فى تلك الحالة فى غاية الثبات والصبر وقوة العزم وعدم الاكثراث لكثرة الاعداء وجموعهم لم يسبق لاحد مصادمة نظير هذه فيما نعلم من زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وعندما ابتدرونا بالضرب عاقبناهم بضرب المدافع من كل ناحية وصبرنا لهم حتى « ملأوا افواه الاسلحة » فتوكلنا على الله وضربناهم ضربة رجل واحد واستمر اطلاق الاسلحة النارية من الجهتين وتواتر حتى ارتجت الارض من اصوات الاسلحة واسود النهار وصار كالليل المظلم من تراكم الدخان والغبار فى الجو كأنما السماء اطبقت على الارض من عظيم ما حصل والانصار وقتئذ جزاهم الله خيرا مع قتلهم بالنسبة الى كثرة جموع الاعداء فى غاية الثبات والصبر والاقدام والشهامة والبسالة وشدة الوطأة على اعداء الله ضربا بالاسلحة وطعنا

بالرمح وقطعا بالسيف استمر الحرب بيننا وبينهم نحو خمسة ساعات
 بحيث لم يكن من انتهائها فاصل بين الضرب بالاسلحة والالتحام مع
 الاعداء . وبعد ذلك انزل الله علينا نصره وانجز لنا وعده وزلزل اقدام
 اعدائه فولوا هارين على اعقابهم ناكسين بعد ان اهلك الله نفسهم
 الملعون يوحنا وجماعة من رؤساء دولته ووزرائه واهلك من جموعه
 الوف مؤلفة حتى امتلأت الارض من جيفهم الحبيثة وجيف خيولهم
 وبقالهم . وبعد انكشافهم عن وجوهنا اخذوا نفسهم الملعون يوحنا
 ودخلوه في صندوق واشاعوا انه حي ولكنه مجروح جرحا خفيفا وحملوه
 معهم وفروا هارين ولعار الفرار مرتكبين . بالنظر لكون الانصار
 جزاهم الله خيرا ما انتبهوا في حالة التهام الحرب مع الاعداء لشيء سوى
 مصادمتهم وقطع دابرهم ولم يشغلهم عن ذلك شهيد ولا جريح حتى
 كشفوهم وصدوهم على اعقابهم فنحن بعد هرب الاعداء شرعنا في
 دفن من اكرمه الله بالشهادة من الانصار وهم عدد يسير وتميز المجاريح
 وكان ذلك يوم السبت ويوم الاحد . وتم تجهزنا بما لزم من الاستعداد
 واقتضينا اثر الاعداء المذكورين في صباح الاثنين وجددنا السير في طلبهم
 وادركناهم عشية يومنا هذا على بحر اثريه نازلين وبايتناهم هناك فطلعوننا
 في تلك الليلة بجانب من خيولهم فحملنا على طلائعهم فانهزموا - ولما
 اصبحنا بيوم الثلاثاء الموافق ٩ رجب « الواقع عشرة رجب ١٢ مارس »
 ناجزناهم الحرب ونشب القتال بيننا وبينهم فثبت لهم الانصار ثبوت
 الرواسى واشتد الحرب وعظم الخطب واستمر الحال على ذلك ستة ساعات
 فانكشفوا عن وجوهنا منهزمين لا يلوى منهم احد على احد لشدة مارأوه
 من سطوة انصار الدين بعد ان اهلك الله منهم كل من يقال له : راس
 أو دجاج من الباقيين بعد الواقعة الاولى فاقتضى الانصار ائيرهم ضربا
 وطلعنا استأصلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا الهارب وقد غنمنا جميع
 مامعهم من الاسلحة والمدافع والخبائين والخيول والبغال وبقية الامتعة -
 وبعد استئصال المنهزمين صار تفقد الهالكين من رؤساء الكافرين بواسطة

من لهم المعرفة الثامة بهم فوجدنا عدو الله الهالك النفس يوحنا مقتولا في
الواقعة الاولى كما ذكرناه آنفا مدخلا في صندوق مشمع ببطن خيمته
وعلى صدره صليب من ذهب كان يعبد من دون الله ومعه ايضا افخر
ملابسه وبعنقه العتبة التى يتخذونها وعليه انواع من الادوية لئلا يتمزق
فتنى الحال اخرجه من الصندوق وحزنا رأسه ورفعناه على قناة فاستبشر
الانصار بذلك وحمدوا مولاهم على تلك النعمة العظيمة ثم ارسلنا رأس
الهالك يوحنا المذكور ورؤوس وزرائه كراس الوله وغيره لصوب
السيادة اعلاما بتأييد الدين ودمار الكافرين ومعها تاج المملكة الذى
للملعون المذكور وقيامه ونحاساته وغير ذلك من امتعته الخاصة به . »

صحيح كانت حروب الحبشة اكثر انتصارات الخليفة ودعما قويا لحكمه
وامنت حدوده الشرقية لمدة طويلة وقضت على اخطر اعدائه فى ذلك الحين .
ولكن الثمن كان غاليا ، فقد فقد الخليفة فى الصدام الهائل خيرة وحداته واحسن
عتاده واسلحته واضطرتته الحروب الى الاحتفاظ بجيش قوى فى القلابات على
حساب الجبهات الأخرى .

وفى قائمة الاتهامات الطويلة التى وجهت للخليفة لم تكن هناك اسطر اكثر
سوادا من اتهامه باذه بعث ود النجومى لمصر متعمدا القضاء عليه . واذا كان اثر
حروب الحبشة هو اضعاف قوته العسكرية ، فائر مأساة توشكى امتد الى خارج
حدود بلاده فقد اظهرت لعدوه المتربص فى الشمال ضعف جيشه وامدته بضمان ،
ان لم يكن باحد الخوافز ، للاندفاع فى مغامرة استرداد السودان كما سئرى بعد
قليل . وعلا بعدها همس داخل البلاد وازدادت مرارة السكان الشماليين وزادت
شكوكهم فى نواياه تجاههم . ومن ناحية اخرى فان آلاف الاسرى الذين سقطوا
فى ايدى الجيش المصرى أملوا ونجت . مدير مخبرات الجيش المصرى ، بلخيرة
لاتنفذ من المعلومات عن ادق دقائق الخليفة وجيشه لم يتوفر له مثالا الا بعد سنوات
طويلة وذلك عند هروب سلاطين .

اما ان الخليفة لم يكن يثق فى ود النجومى ولم يكن يخلص له الود ولم يعامل

الرجل بما يستحق فهذا اورده اغلب المؤرخين . فود النجومى البطل الذى قاد
المهجوم الرئيسى المباشر فى شيكان وامير الامراء فى حصار وسقوط الخرطوم
تعرض للتجاهل والاعراض من ناحية الخليفة بدون مبرر معقول . فاختلاف
النجومى للخليفة لم يرق اليه شك ولم تظلمه إلا وشايات مساعد قيدوم . واختلاف
عنصره الجعلى . وقد قابل هو التجاهل والاعراض بالصبر والطاعة التى تدل على
روح الجندية الاصيلية والترفع عن الصغائر . فالقوة العسكرية التى قادها الى الشمال ،
والمسؤولية التى اوكلت اليه لانتساب مع سمعته ومكانته كحاكدا اوائل ابطال المهديّة
واشهر قادتها . ولكن حتى عندما انتهت الجبهة الشمالية واصبحت الجبهة الرئيسية
عند تقدم ود النجومى لمصر لم تزد قوته عن ٦٠٠٠ مقاتل بينما تقدم ابو عنجة
بعشرات الالوف نحو الحبشة . ومن الصعب قبول حديث من دافعوا عن الخليفة
باعتقاده بموالاته السكان المصريين وتوفر مكاتبات بينه وبين كبار المصريين من
جنوب مصر الذين شجعوه على التقدم ووعدوه بانه سيجد كل تعاون من قبلهم .
فهو يعلم انه سيواجه الجيش الانجليزى والجيش المصرى مجتمعين . وعندما وقع
الملازم « فينى » فى الاسر وارسل لام درمان وقصد الخليفة ان يبهره بقوة جيوشه ،
ارسله فى رحلة طويلة لرؤية جيوش ابو عنجة فى القلابات وكانما يعلم ان الضابط
المذكور لن يكون فكرة صحيحة عن قوته خلال مكوثه فى الجبهة الشمالية بحشدها
العسكرى الضئيل . ولعل التبرير الوحيد الذى يمكن ان يقدم ليبرهن على حسن نيته
عندما بعث النجومى ، كان هو استخفافه باى تهديد شمالي كما سترهن الاحداث
بعد قليل .

هذا من الناحية الرسمية اما الاهانات الشخصية فقد اكثر منها الخليفة .
فعندما احتدم الخلاف بين ود النجومى ومساعد قيدوم . توسل ود النجومى مرارا
للخليفة بان يسمح له بالحضور لام درمان لعرض قضيته ، فرد عليه هذا ببرود
امرا اياه بالكف عن الخلاف وان يمثل فى النواحي الادارية وشئون بيت المال
لاوامر مساعد . وعندما كثر طلب ود النجومى بالحضور لام درمان سمح له
اخيرا .

وتتحدث بعض الروايات ان الخليفة اهانه امام الملاء (١) في ام درمان ثم عزله وارسل يونس الدكيم حاكما لدنقلا مجردا ود النجومى من مسئولياته الادارية بحجة تفرغه للتقدم لمصر الذى امره به الخليفة اخيرا . ولم يرسل الخليفة التعزيزات المتوقعة ولو اقلها لود النجومى لتسانده فى زحفه على مصر . بل حتى لم يسمح له بالتقدم بكل القوة المتوفرة فى الجبهة الشمالية بل استبقى القوة الحقيقية المتمثلة فى الجهادية والاسلحة النارية والدخائر فى يد يونس فى مركز قيادته المتأخرة من دنقلا لتعزيز النجومى ان احتاج لها ؟ ! .

وعندما تحرك ود النجومى لغزو مصر ليقطع ١٥٠٠ ميل ويناطح الجيش البريطانى والمصرى كانت قوته بالضغط ٤٠٠٠ مقاتل و ٣٠٠ بندقية و ١٠ مدافع و ٧٠٠٠ من النساء والاطفال . وعندما اشتبك الاشتباك الاول والثاني والثالث ووزن قوة عدوه فى ارقين وبلانه لم يتوقف بل مضى قدما . وقد وصف حالة الضنك الذى لاقاه جيشه من العطش والجوع فى اكثر من خطاب للخليفة . فقد تبعهم بوارج العدو النبيلة خطوة بخطوة وحرمتهم مدافعها ورشاشاتها من ورود النيل لاختذ الماء أو الثمنون من ثمار نخيل الشاطئ وقد وصف المرحوم الشيخ بابكر بدرى مغامراته والاحطار التى كان يتعرض لها عند احضار الماء وصفا طويلا فى مذكراته . اما الجوع فكان اثره فتاكا على الجيش الشجاع ، فقد مرت فترة اعتمدوا فى غذائهم على التمر الاخضر . . . ثم طبخ نواه بعد سحقها . واخيرا كتب ود النجومى للخليفة موضعا حالة جيشه فى ١٠ يوليو ٨٩ :

« نرفع الى مكارمكم عن احوالنا واحوال الانصار الذين معنا انه قد مسهم الضرر الشديد الذى ماعليه من مزيد واشتد بهم الحال وضاق الامر جدا فان الجوع الحال بهم اضناهم واذهب قواهم فورم اجسامهم وغير احوالهم لانهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الاخضر المر

(١) اورد شقير هذه الرواية : ان الخليفة التفت إلى ود النجومى فى بعض جلساته فى الجامع وقال : « أنت يا ود النجومى ماك هين لكن هوين » ثم اتفت إلى أحد قضائه سائلا : اذا كان الرئيس هوين لكن موهين ألا يضر الجيش فقال القاضى : « يقال الف تلعب يقودهم أسد خير من ألف اسد يقودهم ثعلب » فضحك الخليفة عاليا . وانصرف ود النجومى واجما . وتمم لا احد اصحابه المواسين لا فائدة من العمر بعد هذا .. فاذا لقيت العدو لقيت نفسى بين أنيابه وموت شهيد شقير ص ١١٠٩

ونواه وانقطع عنهم من مدة ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا
البلد على حالة ضعيفة ولشدة الضرر جلسوا على الارض وكثيرون منهم
ماتوا جوعا واما ضعفاء اليقين منهم ، فلعدم صبرهم على البأساء والضراء
رغبوا فى الاعداء . والجهادية والعبيد والخدم لحقوا ايضا بالاعداء
وارتدوا عن الدين ولم يبق منهم الا النادر ثم ان الجهادية الذين ارسلوا
معنا طويحية للمدافع من طرف سيدى يونس كانوا ٣٥ الجميع رغبوا فى
الكفرة وهربوا اليهم ولم يبق الا ثلاثة وكذلك من انضم الينا نحو
٧٠ من الجهادية والجميع دخلوا القياقر ماعدا ستة منهم وما دعاهم لذلك
الا تراكم الضرر والاضطرار الذى الجأ الناس كافة الى اكل ما لا يذكر
من الحيوانات وغيرها ولم يبق معنا من الانصار الا من تداركه الله بلطفه
وصبر على البلاء والاختبار وله جلد على ذلك ولولا لطف الله بنا وجميل
نظرهم لما قدرنا على الوصول الى بلاجه « يلينه » . والحاصل ان الانصار
تعبوا وضاق بهم الحال وعظم الخطب وطالما صبروا على ذلك لانهم من
عهد ما « صرفوا » بدنفله لم يجدوا « صرفا » اصلا ولم يكن معنا مانعطيهم
لسد رمقهم وحفظ انفسهم وارجوا الله بجاهكم سيدى ان يتولاهم
ويصلح شأنهم ويأتيهم بالفتح من عنده . وكذلك الجمال التى كانت
عندهم وجمال الجبخانة والخيول والحمير ماتت من شدة المحل وطول
السفر ولم يبق منها الا النادر . وان الخيل الموجودة بالجيش فهى مائتان
بالكشف المعروض لسيدى يونس الدكيم فى تعداد الجيش مع انها كلها
هزيلة ولا تقدر على الكر والفرز . والخيل القسوية منها لاتزيد على
الخمس عشرة حصانا ولذلك فان خيل الكفرة دائما تبدو بنواحي الديم
وليس عندنا خيل قوية لمطاردتها غير الخمسة عشر المذكورة . وان
الجبخانة الرمتون التى معنا جميعها وزعت على اهل السلاح لعدم القدرة
على مشاها دفعة واحدة وكذلك جبخانة المدافع وزعت على الانصار جل
جله خرطوش خرطوش لموت جماها كافة وان من المدافع مدفعا جره
الانصار اولاد العرب على اعتاقهم الى مكان بعيد لعدم وجود جمل

يحملة - وكذلك بعض الجيخانة والمدافع التي كانت بسررس تركت
بجهاآها لعدم وجود الحمال . وجميع الانصار كبيرهم وصغيرهم ذكرهم
وانآاهم ماشون على ارجلهم حاملون على رؤوسهم كما شاهد ذلك
الاخوان المهجانة الذين اتوا من سيادتكم . »

ولكنه لم يتوقف لاستلام رد الخليفة وواصل التقدم الى ان اشتبك مع العدو
فى ارجين . وعلى الرغم من ضعف قوته الا انه كان البادى بالمجوم . ففقد ٩٠٠
من رجاله و ٥٠٠ من غير المحاربين من النساء والاطفال وجرح هو نفسه .

فبعد قبل مواصلة التقدم مجلسا حربيا واستشار قاداته . فاقترح اعلبهم العودة
الى المحس الحين وصول امدادات تمكّنهم من التقدم فهم ان تقدموا اكثر من هذا
ان يلاقوا الاصحراء قاحلة لاماء فيها ولا تمر وستر بهم ظروف اسوأ من سابقتها .
كان اقتراحا منطقيا وواقعا . ولكن يبدو انه تذكر المهانة والتجريح الذى
ينتظره من ام درمان . فخمّ المجلس قائلا : « لا والله لا ارجعن الى الورا الا جئة
هامدة . فاذا عطشنا أو جعنا فانما نحن فى جهاد فلنتذرع بالصبر والثبات حتى نفوز
بالنصر أو الشهادة » . وهز سيفه ومضى قدما فتحمس قاداته وتبعوه .

ولابد ان ود النجومى قد ساورته نفس الحواطر والافكار التي وردت فى
خطاب جرانفل الذى دعاه فيه للتسليم :

« انا عالم سؤ حالك انت وعالم انك فريسة لغيرة ذلك الخليفة الذى
جعل ابن عمه يونس عاملا فى مكانك وجعلك تحت طاعته وارسلك انت
والاعراب الذين يخشى شرهم بحجة فتح مصر وهو انما يريد هلاككم
فانه يعلم ان الذى ارسلكم اليه لمستحيل عليكم بل انتم ايضا تعلمون ذلك »
ولكنه طرد تلك الافكار ورد على جرانفيل ردا عثيفا وبعث خطاب جرانفيل
ورده عليه لام درمان . ومن ثمّ منعه الخليفة من استلام خطابات جرانفيل أو الرد
عليها .

تولى ود هاوس فى البداية قيادة قوة العدو المكونة من ثلاثة الوية مشاة ،
وسريتين خيالة وسريتين مدفعية و ٣٢٠٠ مقاتل . ثمّ تولى جرانفيل سردار الجيش

المصرى القيادة بعد وصوله على رأس التعزيزات من القاهرة .

ولكن على الرغم من تفوق جرانفيل الواضح الا ان ود النجومى كاد ان يكتسحه فى هجومه الصباحى الاول عندما تقدم من الشلال شرقا وهاجم مشاة جرانفيل . ولكن تراجع جرانفيل اتقذ موقفه . . . ولو توفر لود النجومى فى تلك اللحظة بضعة فرسان بخيول قوية لتغير سير المعركة . فقد تراجع جرانفيل عندما اشتد عليه هجوم ود النجومى حتى يكسب الزمن لحين وصول تعزيزات هنتر . ولكن ضعف قوى جنود النجومى والحيل عاقه عن مطاردة جرانفيل والاشتباك معه .

فى الساعة الحادية عشر بعد ان استنفدت قوى ود النجومى فى هجمته الشجاعة هجم عليهم جرانفل بالويته الثلاث تحت غطاء كثيف من نيران المدفعية حتى اجلوا جنود ود النجومى عن مواقعه وانسحب هؤلاء الى معسكر النساء والاطفال .

اندفع ود النجومى بجواده ليقف حائلا بينهم وبين الانسحاب ويللم شملهم ويحثهم على الثبات ، فاقرب من نيران العدو الذى احتل مواقعه السابقة فاصيب بطلقة اخترقت صدره فسقط مجذلا على الارض وسيقه فى يده .

واصل جرانفل اندفاعه الى ان طوق معسكر النساء واوقعهن ومن انضم اليهن فى الأسر .

~ ~ ~ ~ ~

ولكن السنوات الأخيرة من عهد الخليفة تميزت بالاستقرار والهدوء النسبى وللمرة الاولى لسنوات اصبحت حياة السكان تضى طبيعية مسالمة . فساد الهدوء الجبهات المتوترة وعم الرخاء النسبى كل ارجاء البلاد . فقد تميزت تلك السنوات بالامطار الوفيرة ، وتشير كل التقارير الى توفر المحاصيل والعيوش واختفى تهديد المجاعة لعدة سنوات ، وبرز احترام واضح للسلطة والقوانين من قبل السكان وبرز الخليفة وحكامه كفاءة ادارية واضحة فى ادارة شئونهم .

صحيح لقد بقيت هنا وهناك بعض الملامح للسنوات العنيفة الماضية ، فالخليفة واجه الاختيار الاقتصادى الصعب : جيش محارب قوى ام مجتمع رخاء ؟ وعلى الرغم من انه اختار الجيش القوى ، الا انه بذل اقصى جهده لتحقيق الرخاء للدرجة التى جعلته يسمح فيها باعادة فتح التجارة مع مصر على الرغم من تخوفه من ان يصبح التجار اداة طائعة فى يد استخبارات العدو (١) وبذلك فتح ثغرة فى الستار الحديدى الذى فرضه على تلك البلاد . ولم يكن الامر ابدا كما صورته الصحافة والكتب الأوربية التى اوضحت ان تلك البلاد لازالت غرقى فى الدماء وعمليات الابادة الجماعية . فقد ذكر مصطفى الامين (٢) فى الاستجواب الذى اجراه معه مدير شعبة المخابرات المصرية عام ٩٢ مايلى :

« لقد (٣) استفاد الخليفة بخبرة السنوات الماضية ، وهو يبذل قصارى جهده لتركيز دعائم حكم اكثر شعبية واكل ارهاقا للسكان . والواضح ان محاولته نجحت لحد بعيد . وهناك سياسة تنفذ ببطء وبالتدريج لاعادة السكان لحالتهم الطبيعية بعد سنوات الحروب ولفرض القوانين والنظام . ولذلك فالاحتمال كبير ان أى تفكير بغزو السودان سيقاوم ، حتى من قبل القبائل التى عارضت الخليفة فى البداية مقاومة جادة . البقارة الآن استقروا فى اوطانهم الجديدة وذابوا فى المجتمع الحديد والقبائل الأخرى تبدو راضية عن الموقف . والشعور القومى (٤) سيعتبر أى محاولة لغزو السودان من الشمال محاولة للنيل من استقلالهم . وهذا الشعور قوى جدا فى

(١) تهرر تقارير المخابرات من عام ٩٢ إلى عام ٩٥ مخاوفه ، فقد استجوب ونجت كل التجار الذين وصلوا من السودان تقريبا .

(٢) لم ينشر هذا الاستجواب ضمن تقارير المخابرات .

(٣) "He is profiting by former experience and is doing his utmost to establish a more lenient and popular system of government; and his efforts are not altogether unsuccessful.... thus a slow but gradual consolidation is being effected and is not unlikely that when the (Egyptian) Government does eventually decide to re-enter the Sudan, It will meet with opposition on the part of those very tribes who have been most clamorous for its return The Baggara have become nationalized in their new homes, the other tribes are accepting the situation, and now there is a more or less general feeling that an advance on the part of the government must→

امدردمان ويخف قليلا في المناطق المناخمة للحدود والتي ، تتعرض للتأثيرات الخارجية .
ولكن أعداء الخليفة لم يتركوه يهناً بالاستقرار طويلا .

be considered as an attempt to interfere with their independence. This feeling is strongest in Omdurman and its vicinity, and weakest among the population immediately in contact with outside influences.

Intelligence Report, 12.12.1898 quoted by Theobald p. 176.

(٤) يشير نفس التقرير إلى ان اعدادا كبيرة من القبائل الشمالية ومن المحس والدناقلة الذين هاجروا لمصر في بداية الثورة المهدية ، طلبوا من السلطات المصرية في ذلك العام السماح لهم بالعودة لاوطانهم .

لا بد أنها كانت آلة عسكرية جبارة ، تلك التي مكنت الخليفة من إدارة عملياته ومعاركه المتصلة عبر ثلاث عشر عاما ، وبمئات الألوف من المقاتلين ، وعلى مساح امتدت لمئات الألوف من الأميال المربعة .

تنظيم جيش الخليفة

التقسيم القتالي :

بعد وفاة المهدي ظل تقسيمه للقيادات الثلاث « الرايات الثلاث » ساري المفعول لفترة قصيرة . وكما سلف كانت الحملات العسكرية تتكون من وحدات تؤخذ عناصرها القتالية من الرايات وتوكل قيادة الحملة الى أحد الأمراء . فقد تركزت العمليات في ثلاثة أو أربعة مساح . ولكن بعد ان قسم الخليفة السودان الى «عمالات» أو مناطق إدارية سرعان ما أعاد تنظيم الجيش والقطر الى مناطق عسكرية . وأصبح العامل هو القائد للعمالة في نفس الوقت . ويمكن الخليفة جيشه من القيام بأبعائه العسكرية والمدنية ، سواء أكانت عمليات ضد الأعداء من الخارج أو حماية الحدود أو عمليات الأمن الداخلي ، فقد قسم جيشه الى عدة تقسيمات قتالية .

وعندما نتحدث عن تلك التقسيمات يجب ان نضع في أذهاننا اننا لانقسم قواته المسلحة فقط ، بل نصنف كل سكان السودان من الذكور تقريبا . ففي دولة الخليفة العسكرية ، كان كل الذكور مقاتلين ، وان تفاوتت أوضاعهم بين الجنود النظاميين المستديمين ، أو المتطوعين المؤقتين في الجيش الاحتياطي . لذا يمكننا تقسيم جيش الخليفة قتاليا الى ثلاثة أقسام :

(١) الحاميات الثابتة « العمالات » :

تتكون من جنود نظاميين مستديمين يقيمون إقامة دائمة في ثكنات «ديم» .

(٢) المتطوعون :

وهم كل سكان القطر من الذكور الذين توزعوا في أرجاء القطر الواسعة وتكونوا من مختلف القبائل ومختلف المهن .

امير الربيع

السابع

« وحدات السيطر والادارة »

كتبة

مؤونه

تقيد

هجمات
للمقاتل

الوحدات القتالية

الفرسان

رايات الجهادية

١٠٠ (جندى)

مقدمة مقدمة مقدمة مقدمة مقدمة

رايات الحرية

مجلس
رؤوس

مقدمة مقدمة مقدمة مقدمة مقدمة
٧٥ مقاتل ٧٥ مقاتل ٦٥ مقاتل ٦٥ مقاتل ٧٥ مقاتل





رايات الجهادية عدد من التعايشة كمدربين وللتوجيه الديني والتربية العسكرية. وقد بدأت نواة الجهادية كما شاهدنا من جهادية الحكم السابق. وكانوا في البداية مجموعة واحدة تحت قيادة ابي عنجة ، ولكن الخليفة سرعان ما بدأ في التوسع في استيعابهم لتعويض خسائر حروب الحبشة التي ابادت اغلبهم من ناحية ، ولانه احسن تقييم كفاءتهم القتالية من ناحية أخرى . فقرر ان يصبحوا عنصر دعم لكل وحداته ، فتم توزيعهم على كل ارباع وحداته القتالية في كل الجيش . والتوسع في استخدام الجهادية دفع الخليفة الى اصدار منشورا يحرم فيه بيع « المردان » طوال القامة معتدلي الاجسام الصالحين للخدمة العسكرية في الاسواق ، بل يبايعون للدولة بسعر حدد بثلاثين ريال مجيدى . وبذلك احتكر الخليفة بيع الذكور لتغذية وحدات الجهادية . والجهادية يوسمون (١) بحرف «ج» في يدهم اليسرى . وهى الوحدات الوحيدة التى كان جنودها يتلقون مرتبات شهرية منتظمة قدرها نصف ريال مجيدى وربع اردب ذرة . والجهادى يحمل بندقية واربعة احزمة رصاص تعلق على كتفه .

٣ - الخيالة : اغلب عناصر قوات الخليفة الراكبة كانت من البقارة ، واعتمد الخليفة على استيراد الخيول من دارفور . وقد خصص لكل ربع عدد من الفرسان انحصرت واجباتهم فى الاستطلاع الاستراتيجى البعيد أو العمليات التصادمية اثناء المعركة التكتيكية "Shock Tactics" وفى الغالب كانت همة المقاتل واستطاعته المادية لاقتناء الجواد هى التى تحدد ما اذا كان يقاتل راكبا أم راجلا (ماعدا الجهادية فكلهم مشاة) لذا كانت اعداد الخيالة غير ثابتة . ورغبة الافراد الطبيعية فى القتال من على ظهور الخيل كفت الخليفة مشقة شراء الخيول وتوزيعها على الجيش . والفارس مسلح بحربة طويلة وسيف يتقلده على جنبه الايسر . واذا كان واجبه الاستطلاع

(١) يبدو ان الدافع لذلك الاجراء لم يكن لتمييزهم بل لتسهيل العثور عليهم اذ كانوا كثيرى التنجب والمهرب فاغلب كشوفات الجرائم العسكرية توضح ان نسبة المخالفات وهجر الصفوف كانت عالية وسط الجهادية .

فهو يحمل بندقية وسبعة احزمة ذخيرة . وكل الفرسان يلبسون عمام حمراء وحزام احمر :

٤ - العناصر الادارية وعناصر السيطرة للربع : لكل امير ربع عناصر ادارية وعناصر سيطرة تتكون من الكتبة وشوثة الغلال والجمال لحمل المؤن ولتوصيل الرسائل اذا كان الربع يعمل فى منطقة منفصلة .

٢ - حامية ام درمان

تستحق حامية ام درمان وقفة قصيرة . فهى الحامية التى خاضت معركة كررى كما مثلت اكبر حشد عسكرى للخليفة فى الظروف العادية ، بل تجاوزت جميع حشود الخليفة العسكرية فى بقية المناطق اضعافا ، فيما عدا بعض الحالات النادرة كحروب الحبشة أو سنوات عثمان جانو العنيفة فى دارفور . وان برر المؤرخون اسباب ضخامتها برغبة الخليفة فى تأمين عاصمته من الانقلابات المسلحة خصوصا بعد تمرد الاشراف ، الا ان هناك اسباب لانتقل اهمية حتمت ان يتجاوز تعداد حامية ام درمان اكثر من أربعين الف مقاتل فى اغلب الاحيان .

فقد مثلت حامية ام درمان احتياطي الخليفة الاستراتيجى . وجعلها موقعها الجغرافى عاصمة للخليفة وبالتالي مكان قيادته العامة ، ومركزا تجمعت فيه وحداته الادارية ، ومخازنه ، وصناعاته العسكرية ، ورئاسات الرايات الثلاث ، وبالذات الراية الزرقاء ، او « مركز التجنيد للمتطوعين » . فبعد حل الراية الصفراء . اصبحت الراية الزرقاء هى الراية التى ينضوى تحت لواؤها كل المقاتلون المتطوعين . حتمت كل تلك الاسباب ان تصبح حامية ام درمان مركزا لأكبر حشد عسكرى . وقد اقسمت الى ثلاثة اقسام :

١ - وحدات الرئاسة التى تتبع للخليفة مباشرة وهى تضم حرسه الخاص والملازمين .

٢ - الراية الزرقاء .

٣ - الراية الخضراء .

وحدات الرئاسة والملازمين :

كان الملازمون مجرد حرس خاص للخليفة في البداية : ولما بدأ في التوسع وزيادة عدد الملازمين ليجعل منهم القوة الضاربة الرئيسية في جيش المهدي ، فصل حرسه الخاص ليصبح تحت قيادته المباشرة وتولى ابنه شيخ الدين قيادة الملازمين .

حرس الخليفة الخاص : - تكون من الفئ مقاتل سلخوا جميعا بالبنادق ، وقسموا لربعين بقيادة بحيث جاموس ، وفضلى جانقى . والربع الاول كان ربع الامدادية وكلهم يحملون بنادق الرمنجتون. اما الربع الثاني فقد قسم لعدة اقسام وهي الخشخشان : وهم يحملون بنادق صيد الافيال وكانت تسمى ربع مدفع . ميزتهم صديرية حمراء فوق الحبة .

المشمواتية : هم رجال طوال القامة ضخام الاجسام اختيروا بدقة وتجمعوا في رايتين سلخوا بحراب طويلة ويلبسون جبه شمريت سراويلها الى مافوق الركبة ولايلبسون العمم بل يلبسون طاقية ضخمة ذات قرنين « ام قرينات » البلطجية : وهم عدة مقدمات كان افرادها يحملون بلطات ضخمة .

كان الخليفة يهتم بمظهر حرسه الخاص اهتماما كبيرا ويتولى تصميم ملابسه بنفسه وقد انحصرت واجبات الحرس في حراسة منزله ومرافقته لاي مكان يتحرك اليه .

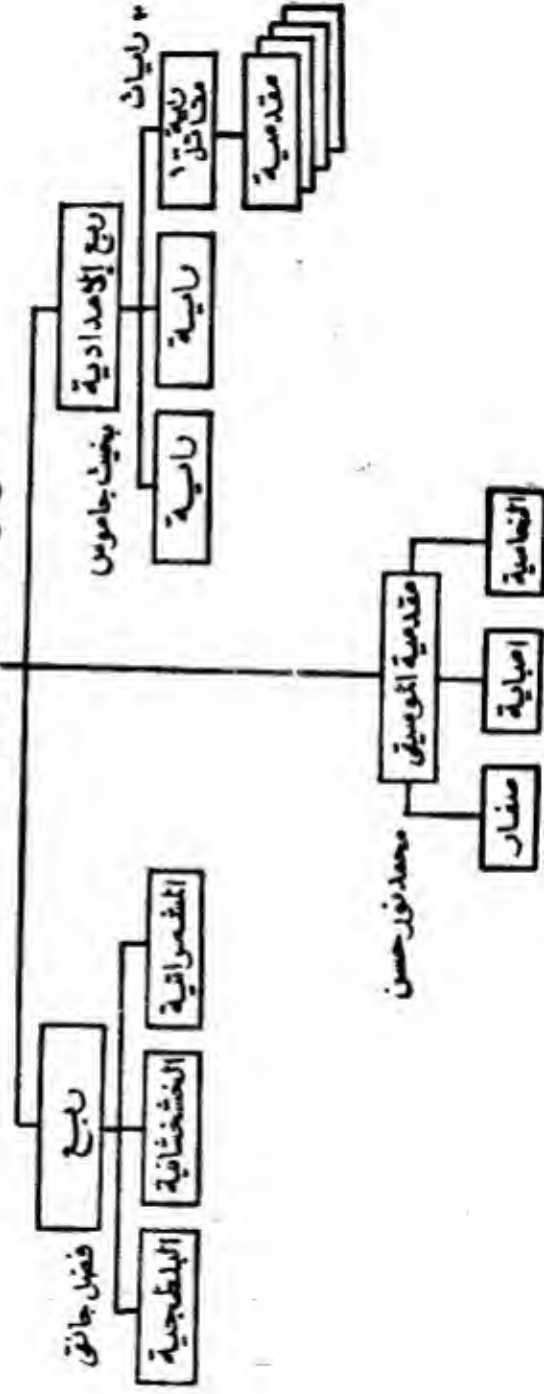
وحدات الموسيقى : حتى نغمات موسيقى الخليفة العسكرية وتكوين وحداتها كان انعكاسا صادقا للخبرات المختلفة المترجى في الجيش الجديد . فقد انقسمت لثلاثة اقسام :

أ - جماعة الآلات النحاسية واغلبهم كانوا من جنود جيش الاحتلال ممن وقعوا في الاسر .

ب - جماعة الصفارة وهم حملة الابواق والآلات المختلفة الايقاع على نمط موسيقى القور

ج - جماعة الامباية وهم أربعة عازفين يحملون الامباية « الامباية عبارة

حرس الخليفة الخاص



عن ناب فيل ضخمة مخوف، وعندما ينفتح فيها يصدر صفيرا حادا عاليا
يسمع لمسافات بعيدة وكانت الفرقة تعزف عند خروج الخليفة للعرضة
أو لتجميع المقاتلين .

ب - الملازمين :

بعد محاولة الاشراف الانقلاية وبعد ان ابادت حروب الحبشة قوته النظامية
الممثلة في الجهادية ، بدأ الخليفة في تجنيد نخبة ممتازة من الجنود النظاميين المستديمين
بدرجة عالية من التدريب والتسليح .

وقد بدأ في تجنيدهم من مصدرين : من ابناء زعماء القبائل والعشائر المنتخبين
ومن السود الذين احتكرت الدولة شرايتهم . وقد نما الملازمين الى ان اصبحوا
جيشا قويا ، ثم ضم اليهم الخليفة بعض جهادية جيش الغرب واوكل قيادتهم لابنه
شيخ الدين . وقد انقسم الملازمين الى قسمين :

١ - الملازمين بقيادة شيخ الدين (١)

٢ - الكاره تحت قيادة ابراهيم الخليل

تكون الملازمين من ١٦ ربةا سلحت كلها باحسن واحداث بنادق الرمنجتون
يقود كل ربع امير ربع . وقسمت الارباع الى عدد من الرايات تراوح بين ثمانية
واثنى عشر راية . تكونت كل راية من ١٠٠ مقاتل كتنظيم الجهادية وعلى راس
كل راية امير .

ملازمين الكارا :

وهم بقايا جهادية ابو عنتجة القدامى . وقد قسموا الى ستة ارباع (٢) بنفس
طريقة الملازمين .

وليتفرغ الملازمين للتدريب ولواجباتهم القتالية خصص لهم الخليفة مرتبات

(١) كان قائد الملازمين في البداية هو فضل المولى صابون وعزل بعد انضمامه للاشراف
(٢) الواضح من كشوفات الأمير يعقوب ان جزءا كبيرا من الكارا كانوا قد طعنوا في السن ولكن
ظلت اسمائهم ثابتة في الكشوفات ويصرفون المرتبات بكشوفات الكارا فالرواجع تقسمهم إلى قسمين
ويكتب امام كل ربع « قادرين » و « غير قادرين » أى طعنوا في السن .

منتظمة تبلغ نصف ريال ونصف اردب ذرة شهريا كما شيد لهم ثكنات دائمة (١) وجعل لهم بيت مال منفصل عن بيت المال العام . وقد خصصت اغلب ايرادات عمالة الجزيرة الغنية من الحبوب لتمويل بيت مال الملازمين والكارا ، وفصل سلاح الملازمين من بقية حامية ام درمان وعين له بيت امانة منفصل ، كما كانت لها وحدة موسيقية منفصلة .

الملازمين

عدد البنادق	عدد الخيول	عدد المقاتلين	
١٨٠٣	٢٧٦	٢٤٧٤	حرس عثمان شيخ الدين
١٢٣٦	٢٧٠	١٨٥٠	ربع العريفي الربع
		٨٠٠	جابر ابو شليخات
٦٨٧	١٩٠	١٢٣٠	ابراهيم جابر
٦٥٥	١٨٥	١٢٣٠	آدم اسماعيل
٤٢٠	١٥٠	١١٠٠	احمد حامد
٢٥٠	٨٠	١٢٥٠	فضل بشارة
٦٢٠	٢٣٠	١٥٢٠	ابراهيم مالك
٧٣٠	١٣٥	١٦٠٠	ابراهيم الخليل
٥٥٠	١٤٥	١٤٢٠	عثمان ادم
٧٥٠	٢١٥	٢١٠٠	جابر فضل
٧٥٠	١٨٠	١٣٧٠	عبد المجيد ابو ساق
٥٧٠	١٤٥	١٣٥٠	مسعود
٩٩٠	١١٠	١٩٠٠	عبد الله ادم
٦٠٠	١٩٥	١٩٢٠	ربع رابع الحبشى
٥٤٠	١٥٠	١٧٨٠	ربع الطاهر على
١٨٠	٩٥	٧٥٠	محمد ابو سعد
٤٧٠	٦٠	١٠٥٠	عيسى زكريا

(١) مكان حتى الملازمين العالي .

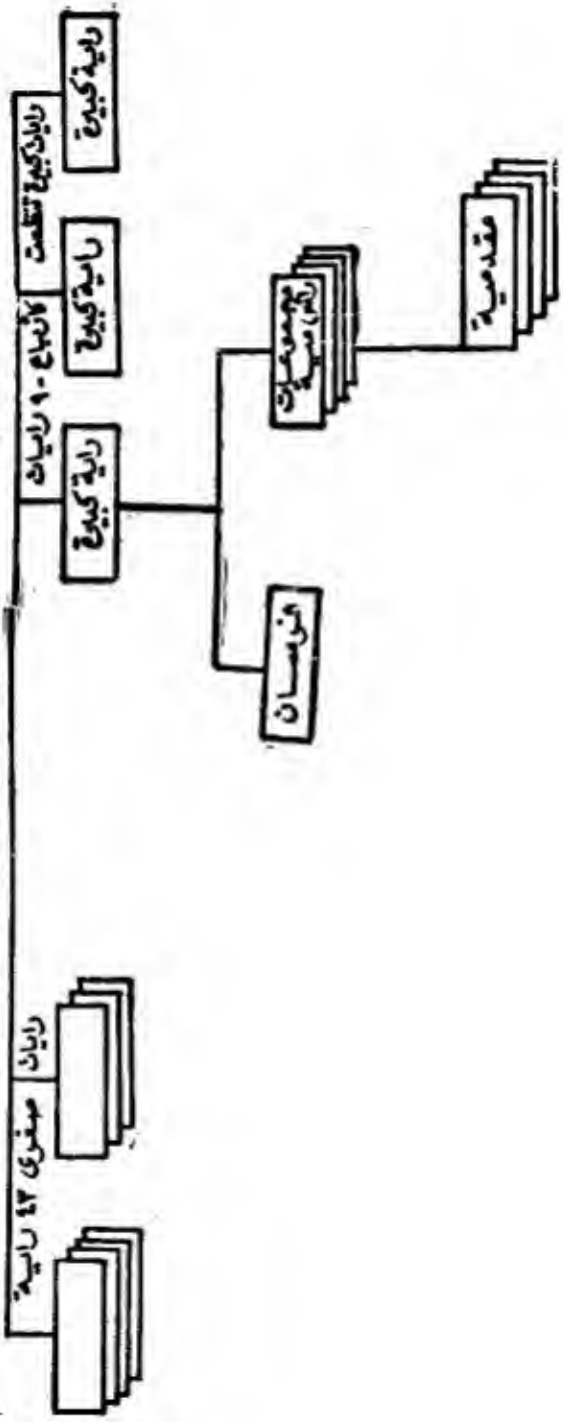
الراية الزرقاء :

كان للراية الزرقاء وضعاً مميزاً فلم تكن وحدة قتالية عادية . ففي البداية كانت الراية الزرقاء هي كل جيش المهدي ، ثم أصبحت الراية الرئيسية لكل الجيش ، ولما قسم الجيش الى ثلاث رايات أصبحت تضم مقاتلي الغرب والسودان ، ولما قسم الجيش قتالياً لمناطق وأصبح الملازمين هم القوة الضاربة الرئيسية ، تحولت الراية الزرقاء الى شبه تجمع للجيش الاحتياطي ، الذي يستدعى كلما حتمت الظروف استدعائه . وهناك عاملان مهديان لذلك الوضع . اولهما ان اميرها ، الامير يعقوب ، كان هو القائد العام لكل الجيش وهو الذي يصدر اوامر استدعاء الاحتياطي ، وثانيهما كان تصفية والغاء الراية الصفراء . فقد اضيف كل مقاتليها اهل الشمال والجزيرة الى الراية الزرقاء ، فانتفت عنها صفة الاقتصار على اهل الغرب . واصبحت تضم كل العناصر غير النظامية بالإضافة لكل سكان ام درمان بغض النظر عن قبائلهم ممن لم ينضوا تحت الحاميات أو الملازمين أو الراية الخضراء . فاصبحت اشبه بمركز حشد وادارة تجنيد منها بوحدة مقاتلة . وقد تسببت كل هذه العوامل في ان الراية الزرقاء لم تمر على الاطوار التي مرت بما بقية وحدات الخليفة . فتتنظيم مجموعة الربع القتالية لم يكن هو التنظيم السائد في حشود الراية الزرقاء واتخذ على نطاق محدود ، اما التنظيم السائد فقد كان هو تنظيم رايات القبائل وفروع القبائل بقيادة الزعماء الذين يتولون تجميعهم . ولذا تفاوتت احجام الرايات بين الالوف احياناً ، والعشرات احياناً اخرى ، حسب اعداد القبائل وحيوية زعمائها ومقدرتهم على الحشد . فالراية الزرقاء اعتمدت اذن على التحشد القبلي وليس على تنظيم قتالي . وهناك امر لا يقل اهمية ساهم في ان يتخذ تنظيم الراية الزرقاء ذلك الوضع وهو واجبها التكتيكي نفسه . فقد مثلت الراية عنصر اقتحام صرف لحماية ام درمان لانها اشتملت على الحراة فقط . فبينما مثل الملازمون والمدفعية عنصر النيران في حماية ام درمان مثلت الراية الزرقاء عنصر الاقتحام الرئيسي . لذا اختفت من صفوفها بقية العناصر القتالية الموجودة في الارباع النظامية ، كالجهازية والمدفعية ، فقد كفلت نيران الملازمين توفير عنصر النيران لكل حماية ام درمان ، ومن ثم انحصر تنظيم الراية الزرقاء في الرئاسة ، وانضوت تحتها ومباشرة رايات القبائل

المختلفة ، سواء كانوا مشاة أو فرسانا ثم تنقسم الرايات الى التقسيم المعهود أى الى مجموعات رؤوس ميه ثم مقدمات اذا كانت الراية كبيرة ، او تظل كما هى ان كانت راية صغيرة . ولم يكن للراية الزرقاء بيت مال أو بيت امانة أو عناصر ادارية أو كتبة أو مساعدين منفصلين ، فبحكم وضع قائدها وهو القائد العام لكل الجيش اصبحت تلك الواجبات تصرف ضمن واجبات القيادة العامة . فبيت المال للجيش العام كان هو ايضا بيت مال الراية الزرقاء ، وكتبة الامير يعقوب هم ايضا كتبة الراية الزرقاء .

التوازية الزرقاء

القيادة (الأمير يتيقونهم) الأمير يتيقون كماند الزرقاء الزرقاء قس عناصر السيطرة والأدوار التي تقدمه بصفتها مسؤولاً عن كل الجيش.



الراية الزرقاء . . اهل الغرب والسودان

عدد البنادق	عدد الخيول	عدد المقاتلين	
—	٤٢٤	١٦١٠	راية الامير مسلم عيسى «الحمير»
—	٣	١٣٠	«آدم جابر» مسيرية
—	٦	٧٧٠	«حسب الله عثمان المكي» محاميد
١١٠	—	٢٠٧	«عبد الرحمن احمد» بديرية
—	٢	٧٢	«حاج ابراهيم» برنو
١٢	—	٩٠	«بيلو الداى» فلاته
٦٠	١	٨٠	راية ابراهيم شمس الدين «فور»
١٠	١	٥٧	«صالح زيدان»
٦٧	٢	١٦٧	«الظاهر مكي» برقو
٢٢	—	٦٩	«حامد عربي» هواوير
٢٦	٥	٢٨٤	«عبد الرحمن دود» تامه
—	—	١٨	«موسى تابر» بنى فضل
—	—	١٧	«عبد الله حسين» بنى عمران
—	—	٣١	«حامد نواى» بازه
—	—	٢٢	«ابراهيم الترجماني» تراجمة
٤٠٠	١٠	٩٨٥	«احمد ابو جديري» برقي
٦٥	٤	٢٢٧	«دوديه» جوامعه
٦٠	—	١٠٥	«اسطى محمد» باقرمه
٤٢	١	٩٧	راية حسبو محمد «زغاوه»
١٠٢	—	١٣٥	«بخت النمامى» . . «التمامات»
—	—	٤٤	«حامد جبر الدار» مسبعات
—	١٢	٦٥	«شيبو» ميدوب
—	—	٦٥	«عبد الرحمن انبار» نوبه

عدد البنادق	عدد الخيول	عدد المقاتلين	
		٦٦	« احمد حمزه «سعداب»
	٩	٨١٣	« اولاد البلد «بقايا عكاشه وفركه وعطبره»
		٧٤	« يوسف ابراهيم «سابقا ميخائيل» «اقباط»
		٤٣	« جابر «سابقا» «جرجس كادماين»
			« سوريين واغريق ويهود - سميت بالمسلمانيه
	٢	٢٤٥	« فضل الله فضل المولى «شنابله»
	٢	٣٢٥	« محمد ود نوباوى «بنى جرار»
		٤٠٣	« تمساح ام بده «دار حامد»
		١٢٥	« محمد زروق «معاليه»
		٦٩٧	« عوض السيد قريش «كبابيش»
		١٣٠	« مكاوى احمد «ركابية»
		٢٨٧	« جابر الطيب «دناقله»
	٤	٤٣٠	« احمد جمال الدين «جعلين»
			راية محمد الباهى التعايشى - انشئت حديثا
	٣٤	٧٦٠	لتضم فلول فركة وعطبرة
	٤٢٧	١٣٩٦	راية عثمان الدكيم «تعاشة»
	٢٠١	٤٨٥	« محمود عبد الكريم «هبانية»
	١١٥	٢٤٢	« محمد حديد «حمر»
	١٧٥	٥٨٦	« يسن فضل «رزىقات»
		١٦	« حامد موسى «هواره»
		٢٨٣	« رضوان آدم «بنى هلبه»
		٧٨٨	« جاد الله عيسى «زياديه»

الراية الخضراء :

كان وضع الراية الخضراء من حيث التسليح اقرب للراية الزرقاء . اما تنظيمها فقد توسط بين الخطوط العريضة لتنظيم الراية الزرقاء التي اعتمدت على التقسيم القبلى من الناحية التعبويه ، ولكنه اعتمد على تنظيم الملازمين « الارباع » من الناحية القتالية . وقد امكن تطبيق التنظيم القتالى الاخير على الراية الخضراء بسهولة . فعلى الرغم من انها مثلت حشدا قويا ، الا ان انحصار عد القبائل التي ضمتها « قبائل النيل الابيض » مكن من تطبيقه بسهولة . وقد انتظمت تلك القبائل تحت ثلاث مجموعات رئيسية هي رابات دغيم وكنانة واللحويين بالاضافة لراية فرسان دغيم .

وكانت حامية ام درمان تقدم استعراضا عاما فى كل يوم جمعة يسمى بالعرضة والوصف الذى قدمه شقير للعرضة كان كالاتي :

« قالوا انه كان اذا اراد الاستعراض عندهم بالعرضة او الطرّ امر من الفجر بضرب نحاسه « المنصورة » المشهور الذى وضعه فى محل مرتفع فى بيت الامانة . فاذا سمع الناس صوت النحاس هرولوا الى الجامع فصلوا صلاة الصبح وقرأوا الراتب . ثم ذهب البيروقراطية الى بيت الامانة فأتوا بالرايات وانضم كل رجل الى رايته وساروا فرسانا ومشاة وهم يهللون ويكبرون الى محل العرضة فى ساحة فسيحة غربي المدينة تتقدمهم الراية الزرقاء فالراية الخضراء فالراية الصفراء فيقف الكل صفوفًا مستقيمة من الجنوب الى الشمال متجهين نحو الشرق . اما جهادية الكارة فانهم يأتون رأسًا من كارتهم ويقفون فى الجنوب والى يسارهم الراية الزرقاء ، فالراية الخضراء ، فالراية الصفراء ، فى اقصى الشمال ويقف الامراء على خيلهم كل عند رايته فى الصف الاول ويقف يعقوب والخليفة على ود حلو ، والخليفة شريف ، كل على جواده عند رايته العامة بارزين عن الصف الاول . ثم يأمر الخليفة فتضرب الامباية فيخرج جيش الملازمة ببنادقهم يتقدمهم شيخ الدين على جواده ويتبعه الارباع الستة عشر ربعا ربعا صفوفًا متوالية فى كل صف من ٦ - ١٢ رجلا وامام كل

الراية الخضراء

عدد البنادق	عدد الخيول	عدد المقاتلين	
	٥٣٢	١٨٤١	ربيع الامير عبد الله احمد ابوسوار «دغيم»
	٣٨	٢٤٥	، ، راية الشانخاب
	٢٨	١٤٣	، ، ، العيساب
	٢٦	٢٨٦	، ، ، الحسنات
	٦	١٢٨	ربيع راية دار محاسيب
	١٢	١٥٠	، ، ، المسلمية
	١٧	١٦٦	الامير مبارك ابراهيم «راية العقالية»
	١٣	٥٠	، ، عبد الله ادريس راية المحمدية
	٩	١٣٠	، ، مقبول احمد جبار النبي «الاوراب»
	٣	٢٦	، ، محمد ود احمد فضل
	٢٤	٤٦٨	، ، الامير عبد الله برجوب «اللحاويين»
	٧	١١٧	الشيلات
	٣	٦٨	بنى حسين
	٤	٥٥	العركيين
		٢٨٩	الامير محمد ود مسيعد
		١٤٢	راية المعاشرة
			، ، العمارنة
			، ، الاحامدة
	١٥٠	٦٩٢	الامير بشير عجب الفيه كنانه
			الامير ابوبكر عامر
		٦٥	راية العمارنة
		٤٧٦	، ، الكواهلة

المراتبية المختصرة

عليه وسلام

عبد الله أبو مسعود

كلمة الأمير عبد الله

رؤية كلمة الأمير عبد الله بن عبد الله

رأسية

رأسية

رأسية

عقارين

صالحين

عقارين

صالحين

عقارين

صالحين

معدنية

دشم رطلون

صالحين

ولاية الأميرين

رؤية فريمان

معدنية

صالحين

صالحين

صالحين

صالحين

صالحين

صالحين

ربع رايته واميره وفرسانه والبورى والطرنية . ثم يأتي وراءهم الخليفة بقلعته فيحيط به ملازموه الابخياء بالبناوق صقوفا اربعة من الجهات الاربع امامهم الباطنية ومن ورائهم المتشمرون ثم جوق اليبو والصقار والقروى الحرية . وفي ساقه القلعة وعن جانبيها الخشخاشية وفي وسطها الخليفة على جمل أو جواد فاذا ركب الجمل قاده محمد بشير كرار العبادى وهو رجل طويل القامة كبير الهامة ومشى على جانبيه جوادان مسرجان وحمار مسرج ومن امامه جوق الاماية ومن خلفه اصحاب النفر العسكرية لتبويق الوقوف أو السير وخلف هؤلاء خدومه الخصوصيون من الاحباش وغيرهم يحملون له ركوة الوضوء وسعن الماء وادوات التزين وفروة الصلاة والنعال والكبس والطبايق والرمح الذى يتوكأ عليه . ويسير الموكب الى ان يصل اول جيش الملازمة عند منزل (١) الخليفة فى محل العرضة فيقف صفوفا متوالية متجها نحو الشمال على زاوية قائمة مع صف الرايات ، فيمر الخليفة بقلعته من امامه الى ان يأتي المنزل فيحيط به ملازموه ثم يخرج من بينهم مع نفر قليل فيمر بالرايات مبتدئا من جيش الكارة الى ان يأتي على آخر الجيش . وقد يقف فى مروره عند امير فيخطبه قائلا السلام عليك يا فلان طيبين يا الاخوان الله يودىكم البركة يا انصار الدين الله يودىكم العافية يا الاخوان هذا والامير ورجاله يؤمنون على دعائه . ثم يرجع الى منزله فيستريح قليلا ويامر الامراء فيشيعون الرايات الى بيت الامانة ثم ينصرفون الى اماكنهم ويرجع اصحاب الخيل منهم الى ساحة العرضة لتشييع الخليفة الى منزله . ثم يامر جيش الملازمة فيرجع الى السور براياته ويعود بقلعته على نحو ما جاء ووراء الفرسان الى ان يصل منزل فبدعو لهم فيؤمنون وينصرفون .

جيش الاحتياط :

لئن تعرضنا فى الصفحات السابقة للقسم الرئيسى من آلة الخليفة العسكرية

(١) امتراحة العرضة

وهي العمالات أو المناطق العسكرية والحاميات الثابتة ، فالقسم الثاني المكمل ، وهو جيش الاحتياط ، كان يعتبر كعنصر معززة للقسم الاول ، تستدعى عند الحاجة لتعزيز وحدات المناطق العسكرية ، أو كلما شعر الخليفة بأنه ترك الحبل على الغارب لمقاتلي جيشه الاحتياطي وان الروح العسكرية (الجهاد) تحتاج لبعض الشحذ فيستدعيهم^(١) لام درمان ويمضون فترة من الزمن في معسكرات للتوجيه المعنوي ، يقضونها في قراءة الراتب والاشتراك في عرضة الجمعة الاسبوعية ، ثم يعودون لاطنائهم ومراعيهم . وجيش الاحتياط تكون تقريبا من كل سكان السودان الذكور ، أو من كل من استطاعت يد الخليفة الوصول اليه في تلك الارحاء الشاسعة . والملفت للنظر في جيش الاحتياط هو نظام التعبئة الذي كان متبعاً .

فنظام استدعاء الاحتياطي كان يتم بطريقتين : الاولى طريقة مركزية حيث يتم استدعائهم لام درمان وضمهم للراية الزرقاء تمهيدا لارسالهم للانضمام للحملات المختلفة . وبالطبع كانت هذه هي الطريقة المفضلة للخليفة ، فهي ترضى رغبته المحمومة في المركزية وتضع مقاتليه تحت رقابته المباشرة . ولم يمنعه منها الا لعراض المقاتلين ، أو عدم تمكنه من الوصول اليهم لاجبارهم على الهجرة . اما الطريقة الثانية فهي نوع من التعبئة المحلية يقوم بها قادة المناطق ويتم في الغالب اذا اصبحت المنطقة نفسها مسرحا لعمليات . وهي تستخدم في عمليات الأمن الداخلي ومقاومة الثورات ، كما حدث في دارفور ، عندما جمع عثمان آدم قبائل البقارة لمواجهة عصيان ابو جميزة ، أو لمواجهة بعض قبائل البقارة الأخرى التي اعرضت عن الهجرة ، بل وتعرضت لمن حاولوا الهجرة لام درمان ، أو عندما قام محمود ود احمد بتعبئة محلية ضخمة في دارفور وكردفان تمهيدا للتحرك ومواجهة الغزو الشمالى . وقد جرت العادة ان يكتب الخليفة تعليمات الاستدعاء بنفسه ويوجهها لامراء جيش الاحتياطي لتعزيز اوامر التعبئة الصادرة من العامل . كما حدث في حملة ود النجومى لمصر عندما كلف امراء قبائل الشمال بالانضمام لود النجومى مباشرة .

(١) اثبتت كشوفات يعقوب ودراسة موسى المبارك لعمليات التهجير لسكان الغرب مثلا ان الخليفة كان يستدعى بعض وحدات جيشه الاحتياطي بين الفينة والاخرى دون ان تكون هناك نية لاي بوادر حملة عسكرية .

اما تعليمات الاستدعاء للتعبة المركزية بام درمان فنصدر من الخليفة كناية وترفق مع خطابات من الخليفة للعامل ليتولى توصيلها . وفي العادة تكتب اوامر استدعاء الاحتياطي الموجودة في اوراق الامير يعقوب بالصيغة الآتية :

« بيان الانقار المجاهدين ومطلوب تنفيذهم واصلهم من راية - الصادر بها الاذن من سيد الجميع الى سيدنا الامام المهدي عليه السلام ومتخلفين باوطانهم ومطلوب حضورهم بوجه العجلة كالموضح ادناه . . . »

وعند وصولهم كافراد يجرى توزيعهم على رايات الخرابه في الارباع أو وحدات الفرسان أو يتوجهون مباشرة لتعزيز الحاميات أو ينضوون كافراد تحت رايتهم الاصلية ، التي انضوت بدورها تحت الراية الزرقاء .

التسلسل القيادي

كان التسلسل القيادي المتدرج من الفرد المقاتل في القاعدة والى القمة التي تمثلت في الخليفة ، يحمى بطريقة متوازنة مضمونة تمكن الخليفة من توجيه طاقاته العسكرية باحكام وضبط . وقد تدرجت الحلقات الرئيسية في هذه السلسلة كالآتي :

(١) الخليفة — هو القائد الاعلى المسئول عن توجيه الطاقات العسكرية وتطويرها وعن الاستراتيجية العليا والتخطيط العام لنشاط القتلى . اما خطط العمليات العسكرية فتوضع بعد عدة مؤتمرات ، اهمها المؤتمر السنوى الذى يعقده سنويا فى عيد الرجبية ويشترك فيه كل قادة الوحدات وقادة المناطق العسكرية وتضع فى نهايته الخطوط العامة للعمليات العسكرية للسنة القادمة . ويتم مناقشة تفاصيل هذه العمليات فى مجالس حربية شبه يومية أو عدة مرات يوميا يشترك فيها الخلفاء ، والقضاة ، والمستشارين ، أو مؤتمرات فى فترات غير منتظمة يحدد الخليفة المشتركين فيها ، وفى العادة تحدد لامراء او زعماء منطقة بعينها ستصبح مسرحا للعمليات . وتصدر أوامرها كتابة كما حدث كما حدث عندما قرر الخليفة أن يبعث محمود ود احمد للشمال . فقد استدعى زعماء « الجعليين المقتضى حضورهم وتوجيههم لخليفة المهدي بالبقعة حسب طلبه وأشارته . . . »

(٢) الخلفاء — مثل الخليفتين حلقة ضعيفة فى السلسلة القيادية . فقد كان دورهما اسميا وشرفيا اقتصر على حضورهم المجالس الحربية المنعقدة فى ام درمان ، خصوصا بعد تجريدهما من الاسلحة والجهادية والنحاس الخاص بهما .

(٣) الامير يعقوب — « امير جيش المهدي » كان الامير يعقوب هو الموجه الفعلى والمنفذ للسياسة العسكرية والمسئول عن الادارة اليومية لشئون الجيش . فكل ما يختص بشئون المناطق العسكرية أو الحاميات كانت تعليماتها تصدر من يعقوب . والامور العادية كانت تصدر باسمه اما الامور الهامة فكانت تصدر

باسم الخليفة وبجنته ، وكذلك الامر في المراسلات الصادرة من قادة المناطق العسكرية ، فجزء كبير منها يوجه ليعقوب مباشرة ، ويوجه الجزء الآخر للخليفة ليفوض يعقوب بالتصرف فيها . وقد حتم وضع يعقوب ، المدير الفعلي للقيادة العامة ، ان يصبح كل امناء ووكلاء الاسلحة الادارية المركزة في العاصمة والتي تخدم كل الجيش تحت قيادته الفعلية بالاضافة لبعض قادة الوحدات القتالية . ومن ابرز هؤلاء :

أ - امير مدفعية الخليفة :

تجمعت اغلب مدفعية الخليفة في ام درمان وكان يعقوب يلحق المدافع للمناطق العسكرية حسب سير العمليات . وقد قسمت المدفعية الى بطاريات حسب الكشف الذي قدمه يوسف منصور (قائد ثاني المدفعية) والمسئول عن تشييد ابراج واستحكامات المدفعية للامير يعقوب (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صورة كشف محرر بمعرفة يوسف منصور بيان توزيع المدافع على بطاريات عند البطارية الاولى رئاسة محمود عبد الرحمن ومعه الطاهر احمد :

١ كروب ٦ ٢ متريوز ١ قبص كبير ٢ جبلي
البطارية الثانية رئاسة محمد عبد العالم ومعه فريخه الشويح :

١ كروب ٢ متريوز ابو عشرة ١ متريوز ابو خمسة ١ شرخه كروب ٦ جبلي .

البطارية الثالثة رئاسة ابو زيد جبر ومعه ابكر الحاج :

١ كروب ٢ متريوز ابو عشرة ١ اوردى نخشن ٦ ٢ جبلي
البطارية الرابعة رئاسة سالم عرابي ومعه عريان يوسف الانصارى :

١ قس ١ شرخه كروى ٣ جبلي ٦ ١ متريوز ابو خمسة
البطارية الخامسة رئاسة احمد الشورالى ومعه نجم الدين التجزاوى :

(١) صورة طبق الأصل .

۱ کروپ ۱ متریوز ابو عشرہ ۱ شرخہ کرولی ۱ جسی ۲۶ جبلی

البطارية السادسة رئاسة سيد احمد معه خليل احمد :

۱ قسی ۱ متریوز ابو خمسہ ۱ جسی ۱ اوردی مخشخن ۲۶ جبلی

البطارية السابعة رئاسة سالم علی ومعه طيفور جلال الدين :

۱ کروپ ۱ متریوز ابو عشرہ ۱ جسی کرولی ۱ اوردی مخشخن ۲۶ جبلی

البطارية الثامنة مقدمة احمد الغزالی ومعه عباس البرقاوی :

۱ متریوز ابو عشرہ ۲ شرخہ کرولی ۳ جبلی

البطارية التاسعة رئاسة عبد الرحمن ماحی ومعه الطاهر القروی :

۱ کروپ ۱ متریوز ۱ شرخہ کرولی ۳ جبلی

البطارية العاشرة رئاسة عبد الرحمن ومعه محمد احمد محمد ابو قرین :

۱ متریوز ابو عشرہ ۱ قسی ۴ جبلی

البطارية الثالثة عشر رئاسة علی مصر ومعه ابراهيم كوكو :

۱ مدفع رامنجنون ۵ جبلی

جملة المدافع :

۶ کروپات، ۸ متریوز ابو عشرہ ارواح، ۵ متریوز ابو خمسة ارواح، ۲ جسی

۱ رامنجنون، ۳۰ جبلی، ۲ قسی، ۳ اوردی، ۶ شرخہ صغیرہ کرولی واحد

کبیر ۶۶ » .

ب - امین بیت المال العموم :

لم تكن موارد بيت المال تصرف على الجيش فقط ، بل على كل منصرفات الدولة ، ولكن الجزء الاكبر من ايراده خصص لتغطية منصرفات حامية ام درمان ووحدات القيادة العامة الادارية بام درمان . فلكل منطقة بيت مال منفصل كما سبق . وكان بيت المال العام يتولى صرف مرتبات الجنود، وصرف احتياجات المصانع، ومعدات الصيانة، فلم يحتفظ فيه بالنقود والحبوب فقط ، بل كان مخزنا مركزيا يضم كل الاحتياجات ماعدا السلاح والذخيرة . وقد تولى الآتية اسماؤهم وظيفة وكيل بيت المال في فترة المهديّة :

احمد سليمان . ابراهيم عدلان . النور الجريفاوى . العوض المرضى . ابراهيم
رمضان . الحاج احمد يس .

ولامين بيت المال عدة مساعدين اهمهم :
امين شونة الجيش بالموردة : « محمد احمد مضوى »

« وهى خلاف الشونتين العامتين شونة بيت المال وشونة الملازمين » وهو
المستول عن تخزين الحبوب وصرفها لحامية امدرمان وتكملة نقص الحبوب فى
بيوت مال المناطق العسكرية ولتمويل الحملات العسكرية المتحركة من امدرمان .

ج - وكيل هجانة البوستان : (كرار بشير العبادى)
كانت فصائل هجانة بريد الخليفة ويعقوب تستخدم لتصريف كل شئون
الدولة ولكن شئون الجيش استأثرت بالطبع بنصيب الأسد . وقد قسمت سرية
مواصلات الخليفة الى قسمين :

١ - الفصيلة الاولى ٤٠ جمل بقيادة المقدم كرار بشير كرار العبادى

٢ - الفصيلة الثانية ٣٠ جمل بقيادة المقدم الطيب عبد الكريم

د - وكيل ورش لخبخانة :

لقد قسمت مصانع الذخيرة الى ثلاث مجموعات مثلت تطور مراحل انتاجها
من تنقية البارود من التربة حتى انتاجها وتخزينها فى الصناديق . وقد استغل الخليفة
لخبرة الدكتور المصرى حسن زكى فى الكيمياء فعينه مشرفا على صناعة الذخيرة .
واشرف على المصانع الآتية :

١ - مصانع تنقية واستخراج البارود بادارة السيد عبد الواحد امين مخازن
البارود . (صيدلى سابق) المشرف على عمليات استخراج البارود
فى الخلفاية بادارة الحاج امين الفلاتي ، أو بكم بدارفور بادارة عبد
القادر ابكر .

٢ - معمل تصفية البارود فى امدرمان : امين المصنع عبد السميع سالب
« يوزباشى سابق فى جيش الاحتلال »

٣ - ورشة صناعة الذخيرة : مدير الورشة حسن حسنى « ملازم سابق فى جيش الاحتلال » . وامين ورشة الذخيرة الاسطى خليل خاطر ومساعدىه يوسف خاطر . ورئيس عمالها ابراهيم زكى .

هـ - امين بيت الامانة قمر الدين عبد الجبار :

كان بيت الامانة هو الترسانة التى تحفظ فيها جميع الاسلحة النارية والمدافع والذخيرة والمواد الاولية لصنع الذخائر وقد قسمت اعمالها الى الاقسام التالية :

أ - المخزنية تحت ادارة وكيل المخازن

ب - الكتبة

ج - جماعة التوفكجيه لاصلاح البنادق والمدافع وقد انقسموا لقسمين :

١ - جماعة اصلاح الجيش العام تحت ادارة بلوله جاد الرفيق

(توفكجى سابق فى مديرية بحر الغزال)

٢ - جماعة اصلاح اسلحة الملازمين بادارة السيد البرتاوى .

٤ - قادة المناطق العسكرية « العمال » : بعد يعقوب وقادة وحدات القيادة

العامة الادارية فى ام درمان ياتى قادة المناطق العسكرية . ولقب قائد المنطقة الادارى

هو العامل أى محافظ أو حاكم العمالة . اما اللقب العسكرى فهو امير الامراء .

والامير يدير شئون ولايته (العمالة) وشئون وحداته من غاصمتها «المركز» بواسطة

الخطابات والهجانة . الا اذا دعى الداعى وتحرك هو لقيادة الحملة فالعادة تتحرك

كل رئاسته معه . والافراد الذين يعملون كاركناحرب فى المركز كانوا فى العادة :

١ - حامل الراية « البيرقدار »

٢ - امير ملازمة الامير لحماية رئاسة وراية وشخص الامير

٣ - امين بيت المال

٤ - القاضى لكل العمالة

٥ - امير المدافع « قائد بطارية المدافع »

٦ - مقدم هجانة البوستة

ويندرج التقسيم القيادي للعمالة الى قادة الارباع أو قادة حاميات صغيرة
توزع فيها قوة العمالة العسكرية : امير الربع وهو مسئول بالطبع عن ادارة شئون
وحداته القتالية والادارية ، أو شئون منطقته اذا كان منفصلا . ويندرج تحت امير
الراية من الزعماء أو العمد أو من كبار القوم ، ثم المقدمين . ويمثل المقدمون اول
درجة في السلم القيادي . ويتضح لنا من كشوفات يعقوب وعشرات الاوراق
الحافلة بمجالس التحقيق ، ان المقدم كان يتمتع بسلطات قيادية ادارية واسعة
تتجاوز سلطات قائد الفصيلة العادي وهو المسئول عن الاعاشة والتدريب والقيادة
في الميدان .

المناشط

١ - التدريب :

كان التدريب من المناشط العسكرية التي اولاهها الخليفة اهتماما كبيرا . الا ان التدريب في جيش المهدي ، كشأنه في أى جيش اخر ، كان يعتمد على اتاحة فرصة معقولة من فترات السلم بين الحروب . فالحروب على الرغم من انها تمثل اثن انواع التدريب الا ان الجيوش كوحدات وافراد لابد لها من فرصة لتتعضم تجاربها العملية ولتبدأ تدريبها على ضوء تلك التجارب . ولسنا بحاجة لتوضيح ان جيوش المهدي لم تجد فرصة ابدا لتلتقط انفاسها منذ عصر يوم ٧ اغسطس ١٨٨١ الى ظهر يوم ٢ سبتمبر ١٨٩٨ وبالتالي لم تتح لها الا فرصة ضئيلة جدا لتتلقى تدريبا في دورات منتظمة على الرغم من حماس الخليفة للتدريب ، وارساله عشرات من المناشير لفقاده العسكريين حاثا اياهم على تدريب المجاهدين (وتربية الجهادية) . ومن ناحية اخرى كان اعتماده على نسبة كبيرة من غير النظاميين وعدم تفرغ هؤلاء للخدمة العسكرية المتصلة . وطريقة استدعائهم من مراعيهم ومزارعهم وتوجيههم مباشرة لميدان القتال ، ادى ذلك الى مضاعفة القصور في نواحي التدريب . لذا نرى تفاوتاً شامعاً بين نوعية ومعيار التدريب الذي كانت تتلقاه وحدات الخليفة المختلفة . ونلاحظ ان استمراره وفعاليته وجودته تزداد في الوحدات التي اتاحت لها فرصة فترات استقرار سلمية كجنود حامية ام درمان ، وبالاخص الملازمين والكارا ، وتقل في المناطق العسكرية الخارجية التي انغمست على الدوام في عمليات متصلة ، وتكاد تنعدم في جيش الاحتياط الذي كان ينتقل مباشرة من المراعى لمسارح الحروب .

أ - التدريب في حامية ام درمان : يمكن ان يقسم التدريب الى مرحلتين : تدريب اساسى يتلقاه من ينضوون حديثا الى وحدات الخليفة كمتجدين . ثم فترات التدريب التي يتلقاها الجنود القدامى في شبه دورات نظامية . وليس هناك اختلاف واضح بينهما الا التركيز في فترة التدريب الاولى على نواحي التوجيه

الديني وبالذات في حالة الجهادية . فخطابات الخليفة تحفل بالكثير من النصائح في كيفية شحن الجهادية (١) واغلبهم من الوثنيين بالطاقات الدينية والروحية . ثم تدريبهم على البيادة والطواير تخلق روح الضبط والربط . وحقيقة كل من عاش في ام درمان يذكر ان جامع الخليفة والقضاء المحيط به كان يحتل دائماً في الفترات التي تتوسط بين اوقات الصلاة بالآلاف من الجنود المتجمعين في جماعات يرتلون القرآن والراتب تحت اشراف اساتذتهم . أو يسرون في طواير منتظمة (٢) ويستجيبون لنداءات القادة والمعلمين من الضباط الاسرى وقدامى الجهادية المسنين .

اما تدريب القدامى في حامية ام درمان فقد توزع بين التدريب اليومي والاسبوعي والسنوي . فالتدريب اليومي وبالذات للملازمين المتفرغين للجندية كان يشمل خلاف الطواير وقراءة الراتب تدريباً يومياً على استخدام السلاح الناري

(١) خطابه لعثمان دقة في كيفية معاملة الجهادية مثال لذلك :

« فعلمكم حببي ان الجهادية لا بد لهم من التربية التامة وبعد المشقة في مذاكراتهم والتأليف الكل لهم أولاً حتى يواثقوا على الدين وتشرح قلوبهم وقد علمنا يقيناً شأنهم مما شاهدناهم فيهم من ابتداء المهدية إلى الآن فمن ذلك اننا في محاربة اعداء الله في جزيرة ابا أسرنا بعضاً من الجهادية وظهر لنا منهم الالفة والانسراح فتوجهنا بهم إلى قدير فلما غزونا القيفر هربوا منا لا عداة الدين بغاشوده ثم حضر اعداء الله جيش راشد فاسرنا منهم جهادية فهربوا ثانية إلى جهة فاشوده ثم حضرت جردة ولد الشلالى فاسرنا منهم جهادية بكثرة فاتحدوا مع الانتصار فظننا انه لا يحصل منهم مثل ما حصل من السابقين فعند حضورنا للابيض هربوا فانضموا إلى أهل ققرته حتى فتحها الله ثم بعد فتوح الابيض وجدوا فيها جهادية بكثرة فاعتمسنا بامرهم واكرمناهم وما تركناهم في الاكرام شيئا وبعد ذلك كله هرب بعضهم إلى جهة الخرطوم . وعند مجيئ جماعة أبى قرجة لحصار الخرطوم هرب بعضاً من معه وانضموا إلى القيفر وكذلك بعضاً من جهادية ود النجوم انضموا إلى أهل الخرطوم وبقوا حتى وقعوا في الامر ففر بعضهم إلى سنار حتى فتحت فمن ذلك اتضح ما ذكرناه فينبغي ان تعتنوا بالمذكورين غاية الاعتناء وتربوهم التربية التامة حتى يرسخ الايمان في قلوبهم فانهم اذا تربوا صلحوا للمساعدة في الدين وما يساعد على تأليف المذكورين اعطائهم زوجاتهم واذا كان لهم اقارب يضمون اليهم حيث ان مصلحتهم عمومية ولو انضم اليهم غير المستقيم من اخوانهم يجرء حالهم إلى الايمان والاذهان اذ الطبايع تسرق الطبايع والاروام الذكور الذين يطبقون حمل السلاح جميعهم يلحقون بالجهادية في جميع ما ذكر والدمور الموجود بمخازن كسلا أكسوا منه الجهادية ونسائلهم لا جيل تأليفهم . »

(٢) دخل المؤرخ محمد عيد الرحيم معسكرات التدريب هذه عدة مرات فهو يذكر قبل معركة ام درمان « كنت ضمن طائفة من الملازمين أمر القائد اسكندر بك الذي كان قمتان اورطة الابيض بتعليمنا الحركات العسكرية كحاز دور يمين دور دون اطلاق النار على الهدف وقد استعان الخليفة ببعض الضباط الأتراك لتعليم النير كالجيش النظامية وتحفيظهم النداءات التركية . »

فى الفضاء شرق القبة لكل الملازمين والكارا . ويمكننا ان نتصور فائدته المحدودة اذا علمنا انه لم يحتم بنهايته الطبيعية وهى تمارين الرماية بالذخيرة الحية ، فالذخيرة لم تصرف الا للعمليات (١)

اما التدريب الاسبوعى لحماية ام درمان فقد استمر بانتظام فى ايام الجمع . ويجب الا ننظر لعرضه يوم الجمعة باعتبارها عرضا عسكريا بل كانت عبارة عن يوم تدريبى اسبوعى يحفل بمئات من هجمات الفرسان التى تقوم بها الوحدات الكبرى والصغرى ، أو تحركات مجاميع المشاة والخليفة ويعقوب يأمران بتحريكها والتفافها وتغييرها للمواجهات تمهيدا للمناورات الكبرى كما اوضح فى منشور الحث على الجهاد « وانا بالعرضه ، اقدم الجيوش واؤخرها ، بمنة ثم يسرى » . اما المناورات الكبرى التى تحتاج لقدر كبير من الضبط والتخطيط فلم يتسنى للخليفة اجراؤها الامرتين عندما تجمع فى ام درمان عدد ضخم من الجنود النظاميين ، وكان ذلك عند وصول ابو عنجه من جبال النوبة لام درمان فى طريقه للجهة الشرقية ، وعند قدوم الزاكى بجيشه الكبير من الرجاف . والوثائق لا تحددنا عن هذه المناورات فيما عدا ما ذكره سلاطين عن مناورات الزاكى كمحاولة لم يكتب لها النجاح « ولما كان الزاكى طملى بام درمان قام الخليفة بعدة مناورات عسكرية تولى قيادتها بنفسه ولكن عدم النظام السائد بين الثلاثين الف عسكري جعل هذه المناورات تفشل فشلا تاما . ولكن اللوم وقع على راسى حيث كنت قائما بوظيفة اركان حرب ولما راي ماوقع فيه من الارتباك قرر بان هذا العمل كان مقصودا منى لاننى عدلت فى تنفيذ اوامره وبعث بالزاكى الى القلابات وطلب الى كعادته ان انفذ اوامره » .

(١) بالطبع فسر سلاطين أوامر الخليفة بعدم صرف الذخيرة الحية لوحدة ام درمان بخشيته على حياته أو خوفه من الانقلابات العسكرية . قد يصح هذا الأمر لحد ما ولكن الواضح ان الدافع الرئيسى كان قلة الذخيرة وخشية الخليفة من ضياعها . ويتضح لنا ذلك من الحاج قادة المناطق دائما فى طلب الذخيرة وتقديره الشديد وحذره فى صرفها . ومن ناحية أخرى كان نفس التشدد فى عدم صرف الذخيرة الحية يطبق على كل الحاميات وليس على ام درمان وحدها ، كما حرم الخليفة الصيد بالبنادق تحريما تاما .

٢ - الإدارة :

أ - التعبئة : اعتمدت آلة تعبئة الخليفة على عنصرين :

١ - الامراء من زعماء العشائر والقبائل

٢ - حملات التهجير سواء طوعية أو جبرا

اما الامراء فقد كان واجبهم الاول هو التنفير (التعبئة) . ولما كانوا يتواجدون دوما مع مقاتليهم ويعرفونهم فردا فردا ويزرعون ويرعون معا فقد تمكنوا من تنفيذه بسرعة وكفاءة . ويقسم افراد كل راية وهى فى موسم الزراعة أو فى المراعى الى رؤوس مائة والى مقدمات تبعثر فى انحاء القطر بحيث قسم كل السكان المذكور الى وحدات وقادة يعرفون سلفا الى من ينضوون وواجب كل فرد ان كان فارسا أو بيرقدارا أو كاتب الخ . ولم تكن الزعامات القبلية فقط هى التى تحدد خيوط شبكات التعبئة ، فالهمة والشهرة والبروز فى كل منطقة قد تكون الاساس .

أما السلطة التى تحدد « رفع الراية » فهى القيادة العليا . فكشوفات الرايات تتحدث عنه الاستدعاء « عن بيان الانتقار المجاهدين اصلهم من راية - الصادر بها الأذن من سيدنا الامام المهدي » واغلب هذه الرايات ظلت موجودة للنهاية ، ولكن بعد وفاة المهدي اصبح امر التعيين « لرفع الرايات » يصدر من الخليفة أو يفوض يعقوب وهذا بدوره يفوض عامل المنطقة . فامر التعيين فى هذه الحالة يتحدث عن « راية - التى رفعها له سيدى يعقوب » « وراية - التى رفعها له عبد الرحمن النجوى » وهؤلاء يحضرون اما للجهاد، أو متى مايتراى للخليفة استدعائهم ويعودون سنويا للزراعة بعد تسجيلهم هم وعوائلهم بكشوفات تبدأ ب « بيان عوائل ارباع المتوجهين للزراعة بجهة - بجهات الجزيرة كالبليان ادناه » وتقسم الكشوفات الى محاريين وعوائل وحيوانات ، وعند استدعائهم يحضرون كوححدات مقاتلة .

اما خضاد الطريقة الثانية من المهاجرين الجدد فقد كانت العادة ان يتوجهوا بعوائلهم ومواشيهم الى العاصمة وينضمون للراية الزرقاء لمدة من الزمن اشبه

بمعسكر تدريب يتناولهم فيه الوعاظ ويحضرون العرضة الاسبوعية والصلوات الخمس ثم يعاد تقسيمهم لرايات مختلفة ترفع لأول مرة بعد فرز النخبة الممتازة منهم للانضمام للجيش النظامي في الحاميات المختلفة . اما البقية وهم الأغلبية فيجري توطينهم اما في امدرمان أو الجزيرة بعد تخصيص المزارع والمراعى لهم ، وسرعان ما اصبحت الجزيرة بعد قليل مركز حشد ضخم اختير له الامير احمد السني ليتولى تنفير المقاتلون وترحيلهم لامدرمان بالسرعة المطلوبة .

٣ - الرتب والاقدمية العسكرية :

كيف كان نظام الاقدمية العسكرية في جيش الخليفة ؟ لقد بنيت الاقدمية على اساسين : اولاً اقدمية التسلسل القيادي لقادة الوحدات . وبالطبع كان قائد الربع اقدم من قائد الولاية والمقدم اقدم من المجاهد . ثم الاقدمية العامة للأفراد وهي اسبقيتهم في دخول الدعوة . (١) وهي في العادة شرفية وتبرز عند الدعوة لحضور المجالس أو الامامة في الصلاة أو خلافها . وتصبح فعالة في قاعدة المقاتلين العريضة المتساوية «الانفار» لتمييزهم ، ولكن الخليفة كما شاهدنا في كشوفات القادة والعمال سرعان ما منح للترقيات الاستثنائية بحيث لم يمض زمن قليل الا واصبح اغلب اصحاب الرايات الاصليين في مراكز ثانوية ، فقد تولى قيادتها امراء شبان من عشيرة الخليفة ارتفعوا للمناصب العليا (٢) .

(١) ضرب شقير مثلاً لنظام الاقدمية في جيش المهدي عندما روى القصة التالية :
 قيل ان اللواء ابراهيم باشا فوزى قد اجتمع بالملازم يوسف افندي منصور في بيت الحاج خاله العمري بعد سقوط الخرطوم فلما حضر الخادم بالقهوة قدمها إلى يوسف منصور أولاً فآشار اليه هذا ان يذهب بها إلى ابراهيم باشا فالتفت الحاج خاله إلى يوسف منصور وقال «لماذا ترد القهوة وتقدمها إلى ابراهيم فوزى». قال : « يا سيدى لانه أكبر منى مقاماً » فقال الحاج خاله «لا بل انت أكبر منه الآن لا نك اسبق إلى صحبة المهدي » وكان الخادم قد قدم القهوة إلى ابراهيم باشا فلما سمع كلام سيده أخذ الفئجان من يد ابراهيم باشا واعطاه ليوسف منصور ثم قدم لا ابراهيم باشا ففجأنا فاعتذر عن شرايه وانصرف .
 (٢) المدهش حقاً هو حداثة من قادة الخليفة العسكريين أو حكام المناطق فاعلم هؤلاء القادة العسكريين المتمرسين كانوا في اوائل العقد الثالث من عمرهم . فعندما تولى عثمان آدم عمالة الغرب لم يتجاوز الثانية العشرين و ابراهيم خليل لم يتجاوز العشرين وشيخ الدين لم يتجاوز العشرين ومحمد بشارة لم يتجاوز السادسة والعشرين والختم موسى وعرابى دفع الله اصغر منهم ومحمود ود أحمد كان في السادسة والعشرين .

اما مظاهر القيادة والرتب فقد تفاوتت بين حجم الراية وحيازة النحاس والنقاره لكل امير . كما كان كل الامراء فرسانا . وعبد الرحمن النجومي ظل يعتبر الى وفاته اقدم قادة الخليفة العسكريين ، ثم تبوأ مكانته عثمان دقنه .

٤ - **المرتبات :** خلاف الجهادية والملازمين الذين كانوا يتسلمون تعيينات ومراتب نقدية كان باقى افراد الجيش يتسلمون التعيينات اثناء فترة العمليات فقط . وتصرف جماعية للوحدات من بيت المال . اما كبار الامراء فكانوا يتلقون هدايا وهبات مختلفة فى شكل مال ، أو جوارى ، أو خيول ، ويقوم قادة المناطق العسكرية بتوزيع الهدايا شبه الموسمية على صغار الامراء وتظهر فى حسابات بيت مال المنطقة رسميا .

٥ - **اللوائح والمخالفات :**

لقد تحكمت الشريعة الاسلامية فى سلوك الجندى كإنسان وفرد فى المجتمع ، ولكن تطور الجيش وانشاء الوحدات النظامية المستديمة وبروز الجيش كمجتمع منفصل سرعان ما تمخض عن نوع من العرف للسلوك العسكرى اشبه باللوائح العسكرية ، ليتحكم فى سلوك الجنود . ومن ثم كانت بعض المخالفات تقع تحت طائلة الشريعة والبعض الآخر يمكن اعتبارها مخالفات عسكرية . وقد انقسمت المخالفات العسكرية من حيث اجراءاتها وعقوبتها الى درجات . فالمخالفات الكبيرة ان كانت اكبر من نطاق قاضى العمالة تحال لقاضى الاسلام فى ام درمان ويسبقها مجلس تحقيق قبل المحاكمة . وعندها يكتب للعامل لارسال المتهمين لام درمان للتحقيق بهذه الصيغة (بيان الانتقار الجارين الفساد وطلبتهم السيادة من جماعة . .) . وقد تفاوتت الجرائم التى تحدد نوع المحاكمة حسب مكانة المتهم وخطورة التهمة . فبينما وجهت للزاكى طمل تهمة التآمر على النظام وادخل السجن انتظارا للمحاكمة ، واجه عدد من الافراد تهمة الفساد الادارى واكتفى الخليفة بمحاكمة ايجازية عزلم بعدها من مناصبهم واستدعاهم لام درمان « ليلزموا الفروة » ببابه كلازمين لتأديبهم . اما المخالفات البسيطة التى يرتكبها الجنود البسطاء (الانتقار) فالكشوفات توضح ان اعلى نسبة كانت بين صفوف المتطوعين واغلبها ينحصر فى الهروب وهجر الصفوف . ولكنها تفاوتت بين الجرائم الكبيرة كقطع الطريق كما توضح يومية

السائر « سجن ام درمان » ١١ عدد مذكرين مساجين ابو البشر وجماعته قطاع طريق ومتمادين في عصيان الاوامر . « وهؤلاء كان نصيبهم السجن ثم الاعدام ، أو مخالفات بسيطة كالغياب من المعسكرات ودخول المدينة بدون اذن « بسيان الانصار من جيش الغرب الذين دخلوا الباب الغربي بدون اذن « وهؤلاء كان نصيبهم الجلد . وهذه صورة من توصيات احد امراء رايات حمدان ابو عنجه لتوقيع الجزاءات على مرتكبيها :

- ١ - افقه ولد كنونه هربان من سرية سيدى حمدان وارتجع الجبال .
- ٢ - محمد النيل من الحوازمة واحواله غير مستقيمة .
- ٣ - التاي ولد سبت وزوجته وراذ ومتردد الغياب .
- ٤ - محمد احمد البديري من عيال حمد الله من جماعة احمد يخذل متردد الغياب .
- ٥ - حسن جهادى من سرية سيدى حمدان مرتجع واحواله غير مستقيمة .

٦ - السجلات :

ان المتبقى الآن من القوائم والكشوفات التى تتحدث عن جيش المهدي تدل على اتباع نظام دقيق للسجلات والارشيف (١) وهى عبارة عن تسجيل دقيق لمناشط قوة الخليفة لاجل جندى وآخر طلقة ولا بسط تصرف أو مخالفة عسكرية وقد تناولت هذه السجلات :

أ - سجلات المناطق العسكرية والافراد والاسلحة

وهى تناول الربع ويقسم الى عواميد كالآتي :

(١) لعل من أكبر المصاعب التى تحول دون الاستفادة القصوى من المعلومات والبيانات التى تقدمها هذه الكشوفات والسجلات لوضع التصور الكامل لجيش المهدي ، يعود إلى أن أغلبها غير مؤرخ اطلاقاً مما يجبرنا على تخمين التواريخ من اسماء الشخصيات والحوادث والأماكن الواردة . والتفسير الوحيد لهذا الأمر هو أن الارشيف أو المظارييف التى كانت هذه البيانات تحفظ بداخلها كانت التواريخ موضحة عليها من الخارج .

مجاهدين	٥١٥	١٤٥	٨٦٠
رامنجنون	١٥٢	٢٧	١٧٨
بيادة	١٤٧	١	١٤٧
بروجي	١١٩	٧	١٢٦
حملة سلاح	٤١٧	٣٥	٤٥٢
خيول	٣٩	٢٥	٦١
ادرع	١٢	٣	١٢
بطاريات	٨	٢	١٠
رايات المجاهدين	نفر	٩٢	٢٥
	رامنجنون	٢٢	١٦
	بيادة	٢٠	—
	بروجي	١٦	١
	حملة سلاح	٥٨	١٧
	خيول	٧	٧
	ادرع	١	٣
	بطاريات	١	—
	بلك مرجان ابو الحسن		جماعة راية شايب عثمان

وتتبعها كشوفات بالرواجع لمحفوظات بيت المال وعماله من سروجية ،
وعمال اصلاح بنادق ، ثم الزيوت والمواد والذخيرة .

ب - سجلات رايات المجاهدين الاحتياطيين بالرايات والمقدمين ويذكر
فيها اسماء الافراد فردا فردا - وتتبعها كشوفات اخرى عن عوائلهم وخدمهم
وابقارهم في حالة الهجرة .

ج - الذخيرة : بعد تسجيل انتاج الذخيرة اليومي يسجل في كشوفات
ويتم الصرف منه للوحدات سواء الصرف المنتظم العادى أو للعمليات والطورى
وتقسم الكشوفات الى الآتي :

جبخانة لزوم المدافع الجبلية :

١ - الكروب صندوق
المريوز

٢ - جبخانة بيادة بالصندوق

رمنجتون

ابو لفته

ارشليك

ابو روحين

على ان كشوفات المرتجع من مظاريف الذخيرة (١) الفارغة كانت اهم من
كشوفات الذخيرة نفسها لصعوبة صنعها وندرة المعدن الذى تصنع منه .

رواجع الخسائر : اثناء العمليات كانت ترسل رواجع باسماء القتلى والجرحى على
ورقة شبيهة بالارنيك المسطر يكتب فى اعلاه « كشف باسماء المستشهدين
والمجروحين من الانصار الذين كانوا فى غزوة ————— حال محاربتهم اعداء
الله » ثم يوضح البيان اسماء القتلى ثم الجرحى .

(١) كتب الخليفة منشورا للعمال ليجمع كل مقاتل الظروف الفارغة بعد إنتهاء العمليات لارسالها
لامدرمان .

اما الوفاة الطبيعية الفردية فتضاف ملحوظة باسماء الموتى تحت راجعة كل راية وتذكر الاسماء ويكتب عليها «توفوا» (١)

الامداد :

التعينات : كانت طريقة الامداد بالتعينات فى جيش الخليفة تمضى على نفس الخطوط العريضة التى وضعها المهدي منذ ايام قدير واوضحها فى مناشيره المختلفة الخاصة بتنظيم الجيش . ولكن التفاصيل اختلفت لحد كبير لتتماشى مع التطور العسكرى . وقد انقسمت طريقة الامداد بالتعينات الى طريقتين ، طريقة مركزية وأخرى غير مركزية .

١ - اما الطريقة المركزية فهى تتبع عادة فى حالة العمليات عند تمويل الجيوش التى تتحرك من ام درمان من بيت المال الرئيسى وفروعه الشونتين المركزيتين . وان كان العدد ضخما كحملات ابو عنجة أو حملة محمود للشمال . فبيت المال يصرف القائد الحملة نقدا شراء العيش من المتعهدين . ولكن ظل الواجب الرئيسى لبيت المال العمومى هو امداد حامية ام درمان الضخمة ، ومصدر تمويله الرئيسى كانت الجزيره .

وكان قادة الارباع يتحركون اسبوعيا بعد اخذ مناديب من الرايات لاختذ التعينات وتجميعها ليتم الصرف للرايات اسبوعيا ، فالمقدمين فالافراد يوميا . اما طريقة الامداد اللامركزية فقد استخدمت فى المناطق الخارجية على النحو التالى :

١ - بيت مال العمالة (٢) - وتجمع فيه كل المواد الغذائية بالانحصار الغلال

(١) يتضح من لون الحبر المتغير فى الحاشية التى تشير للوقيات بان عمليات شطبهم كانت مستمرة بانتظام .

(٢) ليس من الضرورى ان يظل أمين بيت المال ، المسئول الأول فى هيئة اركان العامل الادارية ، فى المراكز ، فقد يتحرك للامام لتنظيم عملية الامداد كما فعل ود بشاره « ما حشد قواته شمال دنقلا وبعث محمد بشير أمين بيت مال دنقلا من المركز دنقلا العرضى لصوادة : وعندما ترجم ونجت خطابات ود بشاره بعد سقوط دنقلا « لقد بعث لك الحبيب محمد بشير ليرعى أمر الجيوب وليرسل لى حسابات شهرية عن المنصرف والوارد .. ويجب عدم الصرف من هذه الجيوب الا حسب اللوائح فيما »

التي تخزن في شونة المنطقة الرئيسية التي تستمد دخلها من الزكاة المفروضة على سكان المنطقة - ولا تصرف الحبوب للارباع الا بعد انزالها في كشوفات مخزومة بختم امين بيت المال (١) .

٢ - الشون الفرعية : لكل حامية شونة غلال تبني على مسافة بعيدة خلف الخطوط الامامية . والمصدر الغالب للحبوب كان حصاد الزراعة التي يقوم بها الجنود انفسهم أو عوائلهم . والمناطق الزراعية وخصوبتها ومقدرتها على تموين الجيش كانت ذات اثر كبير على توزيع الحشود ، بل حددت احيانا اهداف العمليات نفسها . ففي فترة معينة خلال العام تتحرك الوحدات للاماكن الحصبة وفيرة المياه لتتمكن من الزراعة والحصول على القوات . وتلك النقطة ساهمت في تكييف اسس اقامة معسكرات الحاميات . فلكل حامية خطوط دفاعية امامية وهي تحصينات (٢) دفاعية هندسية يمتد خلفها الديم حيث يسكن المقاتلون وعوائلهم الذين يقع عليهم العبء الاكبر في الزراعة . وخلف الديم تمتد المزارع ، وعلى مسافة تتجاوز بضعة اميال للخلف تبني شونة غلال الحامية . وزراعة الذرة في الشرق ، أو الدخن في الغرب ، أو النخيل في الشمال ، هو ما أبرز أهمية تواجد النساء والعائلات ، (٣) وبالتالي ابرز أهمية بناء «الديم» منفصلا عن الخطوط الامامية .

عدا المنصرف لطائع المجاعة والغيالة من الضرورة وبعد ان تحتم راجعة المنصرف بختمك وبختم محمد بشير .

وقد بدأ ونجحت مقدمة تلك الخطابات المترجمة مطلقا : « هذا الخطاب اوردته كمثال حتى توضح طريقة امداد العدو . ويوضح ان هناك قدرا كبيرا من الضغط في صرف التعيينات . وان الاسراف والا همال في صرفها لم يكن له وجود في ادارة وحكم البقارة . »

“Quoted as an interesting example of the dervish supply system, showing that amongst the many faults which may be attributed to the Baggara Administration, reckless extravagance has no place.”

Intelligence Report No 49 Annex O

(٢) كان تقسيم المعسكرات المذكور اعلاه مطبقا في الحاميات المتاخمة للحدود كالشرق والشمال أو الاماكن الحافلة بالاضطرابات كدارفور حيث كان تهديد العدو متوقعا في كل لحظة أما في الجزيرة أو داخل القطر فلم يكن مطبقا .

(٣) الواضح من كشوفات الأمير يعقوب ان وجود النساء والخدم كان هو المبدأ العام . ونجد ان القيادة حاولت ان توفر قدر المستطاع - فعدد كبير من ذواجع العمال عن حامياتهم ترسل في شكل بيانات « بيان الاخوان الخالين من الخدم والتحريم والجبارى ارسالمهم لطرفهم . »

الذخيرة : لقد تمكن مصنع ذخيرة الخليفة من انتاج ١٠٠ صندوق ذخيرة شهريا فى كل صندوق ١٤٤ طلقة . « تعبأ الجبخانه وتصرف دائما بالدسته » كل صندوق ١٢ دسة وعلى الرغم من ان الخليفة ورث كميات ذخيرة ضخمة من حاميات الاحتلال ، الا انه ادرك ان عملياته العسكرية المتصلة كفيلا باستهلاكها فى زمن وجيز ، لذا وجه اهتمامه منذ البداية لتصنيعها محليا ، ونجح نجاحا واضحا وستعرض هنا تعرضا سريعا لطريقة صرفها وتوزيعها (١) .

وتقدم طلبات الذخيرة من قادة المناطق العسكرية فى كشوفات مفصلة توضح احتياجات القادة من كل نوع « بالدسته » والاسس التى حددت توزيع الذخيرة بينت كالآتي :

١ - امداد بيت الامانة الذى يخزن فيه كل انتاج المصنع . وبيت الامانة بالاضافة لكونه مخزن منطقة ام درمان كان يمثل مخزن احتياطى للجيش كله .

٢ - العمالات : يقوم قادة المناطق الخارجية باستلام احتياجاتهم من الذخيرة التى بنيت على اساسين :

أ - الجزء الاحتياطى الثابت :

الاحتفاظ فى مخازن ذخيرتهم بكميات تضمن لهم الدخول فى العمليات المفاجئة الى ان يتم تعزيزهم بكميات اخرى من ام درمان .

ب - ذخيرة العمليات :

وتقدر كمياتها على حسب عدد المقاتلين وما يحمله كل من البنداقه وهو سبعة احزمة ذخيرة معلقة على الاكتاف أو فى اكياس ، وما تتمكن من حمله جمال الشيل المتقدمة ، والاحتياطى الذى يحتفظ به فى مخزن المركز . والاخير يعتمد بالطبع على عدد افراد حملة البنادق وعدد المدافع وعلى نوعية العدو المتوقع مواجهته . فابو عنجة والزاكى عند تقدمهم للقلايات وحروب الحبشة حملوا اضعافا مضاعفة تزيد عما حمله عثمان ود آدم فى نفس الوقت فى عملياته بغرب السودان .

ولئن حتمت طبيعة مصادر التعينات قلة المركزية لاعتماد اغلبها على المصادر

(١) ستعرض لوصفها من الناحية الفنية فى فصل « السلاح »

المحلية ، الا ان الامر كان مختلفا بالنسبة للذخيرة . فمصادر الذخيرة واحد وهو بام درمان . لذا تحتم الاعتماد على وسيلة نقل بخطوط حملة مضمونة . وقد اعتمدت خطوط حملة جيش الخليفة على طبيعة الارض . وانقسمت لثلاثة اقسام رئيسية :

١ - الجمال : وكانت هي العنصر الغالب في خطوط الامداد البرية وان كان الخليفة حذرا للغاية في صرفه للذخيرة فقد كان كذلك فيما يخص بالتصرف في الجمال - فالواضح ان الخليفة عانى من ضيق شديد في عدد الجمال المتوفرة لنقل ذخيرته الى مسارج عملياته المختلفة (١) .

٢ - البوارج : بالاضافة لواجب اسطول الخليفة النهري البخارى في نقل الجنود وحمل المدافع ، كان الواجب الاهم هو جر الصنادل والاطواف التي حملت عليها صناديق الذخيرة .

والبوارج والجمال مثلت خط الحملة الاول ، فهي التي تحمل الذخيرة من امدرمان لرتاسات العمال «المراكز» اما الخط الثاني اى من المراكز للحاميات المتفرغة ، أو خارج العمليات ، فعلى الرغم من توفر عدد محدود من الجمال لنقل الذخيرة الا ان الاعتماد كان فى الغالب على البغال أو الحمالين أو المراكب الشراعية الكبيرة .

الصيانة والاصلاح : لعل هذا الجزء من نشاط الخليفة العسكرى كان اضعف

الاجزاء وادى ذلك الى آثار بعيدة المدى على نتيجة معركتنا . والسبب الرئيسى فى ذلك التصور كان يكمن فى قلة الكوادر الفنية المدربة من المهندسين والعمال . فالقلة من العمال المهرة الذين ورثهم من الحكم السابق اضطر للاحتفاظ بهم فى امدرمان ، وبالتالي أدى ذلك الى مركزة واضحة فى طريقة الاصلاح والنجدة ، وبالتالي لم يوزع غير جزء ضئيل جدا من هؤلاء العمال لصيانة واصلاح الاسلحة المبعثرة خارج امدرمان ، ولم تتح لهم فرصة الاشراف والصيانة الكاملة لكل الاسلحة والمعدات فى تلك المناطق . فالواضح ان الآلات الميكانيكية المنحصرة فى

(١) لعل البيئه أثرا كبيرا فى ذلك الأمر فالشكرية والماعرية أهم مصادر الجمال كانوا ينظرون للابل باعتبارها مظهر عز ومفاخرة ولم يفلح الاغراء ولا التهديد ولا المصادرة فى حثهم على بيعها للخليفة . أما المصدر الرئيسى للجمال - الكيايش فقد كان لنفورهم وتمردهم أثرا واضحا فى اضعاف خطوط حملة الخليفة .

الخرطوم أو التي يجري اصلاحها في ورش الخرطوم كالبوارج والمدافع نالت
حظا من الصيانة والاصلاح أكبر من الذي تلقتة البنادق التي تشتت في كل انحاء
القطر واوكل امر صيانتها واصلاحها لحملتها فقط .

اما البوارج فالواضح أنها نالت نصيبا وافرا من العناية بدليل انه لم يتعطل
منها الا باخرة واحدة طوال ثلاثة عشر عاما رغم عملها المتواصل . وقد احتفظت
ورشة اصلاح الواهورات في الخرطوم بكفاءتها ومستواها الفني لآخر لحظة ،
لدرجة التي تمكنوا فيها من تركيب باخرة نيلية كاملة وصلت اجزاءها مفككة
من لندن وحصلوا عليها بعد سقوط الخرطوم . كذلك كان الامر بالنسبة للمدافع
فاطقم المدافع المصريين احسنوا صيانة مدافعهم . وبيت الامانة كان زاحرا
بتفكجية المدافع الماهرة . وقد خصص لكل مدفع مقدار معين من الزيوت ونسبة
معينة من قطع الغيار التي انتزعت من المدافع المعطلة ، وهذه صورة طبق
الاصل لكشف المنصرف من معدات صيانة المدافع المجرورة بالبغال لاحدى
بطاريات يوسف منصور :

١٤ صفيح لزوم الشحم والزيوت والسمن

٠٨ رطل سمن لزوم المترىوز

٣٢ رطل ودك

٢٤ رطل زيت

٠١ سروجى

٠١ نجار بعدته

٠١ حداد

٠١ نفقشى

٠١ مفتاح صاموله ابروجيت

٠٤ شوال

٠٩ حبال قـد

٠٦ لزوم ربطـة البغال

٠٢ بغال

٠١ بغل مطلوب غياره

١١

بطارية عبد الرحمن :

١٢ صفيح

٢٤ رطل زيت

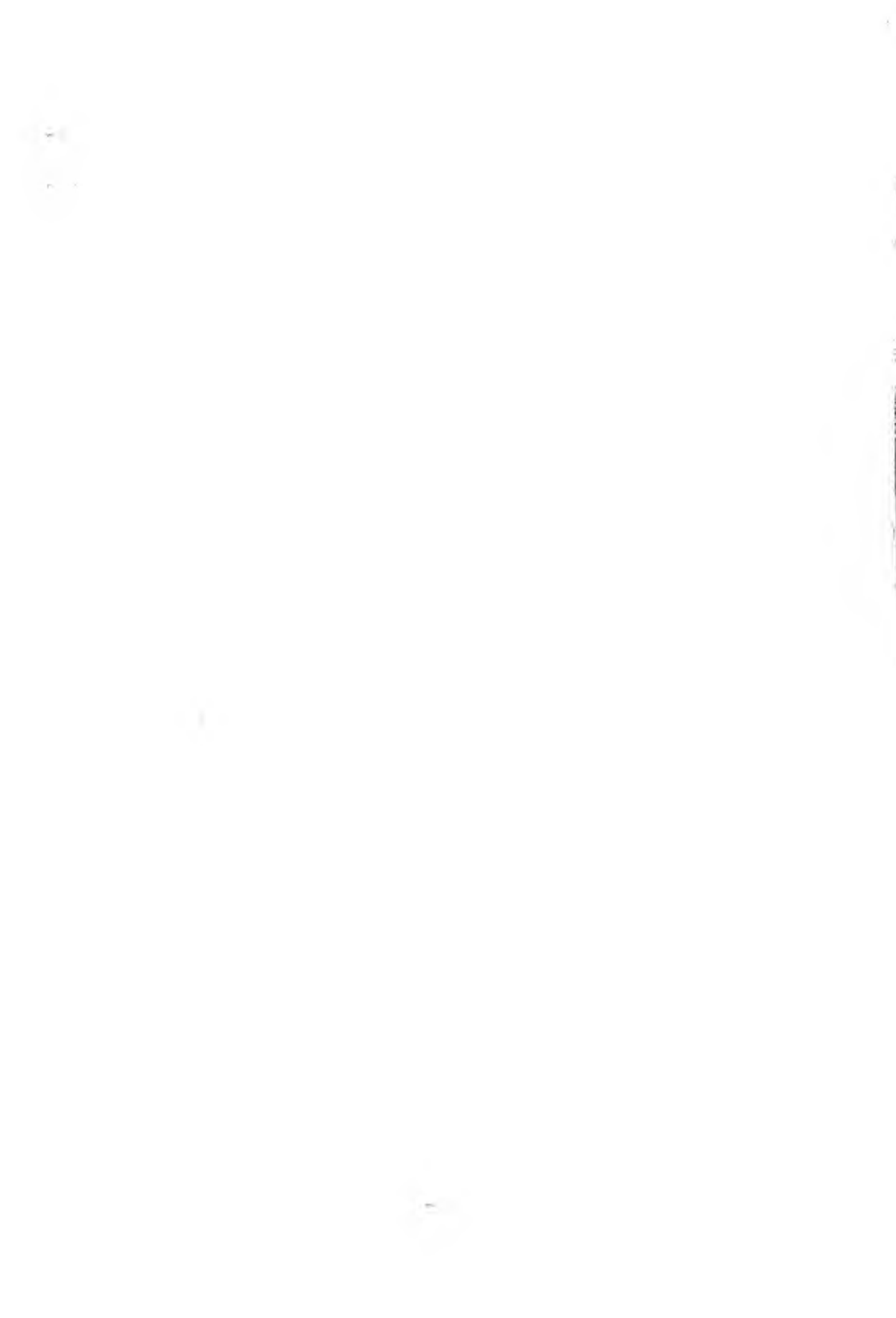
٢٤ رطل وودك

٠٦ غارات نقصان لزوم المدافع

٠٦ شناكل

٠٣ نواشي

٠١ نجار مستعد



الباب الثاني

الغزو

الحمل والذئاب

« ان الافرنخ اعداء لكم ولنا فاذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم ،
واذا غلبوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك . والآن فاننا اذا حضرت
الى بلادكم واهلكت المساكين ثم جثتم انتم واهلكتم المساكين
فما الفائدة في ذلك . فالرأى الا صوب ان تنفق عليهم ونحاربهم
ونغلبهم » .

خطاب الملك يوحنا لأبي عنجه ٢٥ ديسمبر ١٨٨٨

عندما افتتحت الملكة فكتوريا معرض اول مايو الصناعي "May Day" عام ١٨٥١ وبينما كان المدعوون يتجولون داخل القاعة البلورية وهي تسبح في اشعة شمس الصيف الذهبية ، واصداء الانغام الموسيقية وهدير محركات الماكينات يصمم آذانهم ، كان احساسهم الغالب ان ايام وترولو ومارنجو والطرف الاغر قد ولت الى الابد ، وان اوربا ودول العالم المتعدنة مقبلة على صراع من نوع جديد . ليست ميادينه هي ارض المعارك ودوى المدافع ، بل التنافس الصناعي والتجاري ، والتقدم التكنيكي والعلمي ، واخيرا حيازة المستعمرات واستثمارها . فالاخيرة كانت تعتبر احدى المنافسات السلمية « الشريفة » .

ولم يمض زمن قليل حتى ادت المنافسة السلمية الى الفترة التي سميت بالتكالب على افريقيا "Scramble for Africa" حين وصل الصراع الاستعماري قمته في ازمة فاشودة عقب معركة ام درمان ، وانفجر اخيرا في ١٩١٤ ببداية الحرب العالمية الاولى .

فعندما دوت مدافع الثوار قبل ستين عاما مفتحة اسوار سجن الباستيل ، مؤذنة باشتعال الثورة الفرنسية ضد عصر الاقطاع ، لم يقف الامر عند هذا الحد ، بل واصلت اقدام الفلاحين القرتسيين زحفها خلف الجبال الشاب نابليون وهي تدك قلاع اوربا وتذل ملوكها واحدا بعد الآخر . ولعشرين عاما اشتعلت القارة الاوربية من أقصاها الى أقصاها بالحروب والمعارك المتصلة . ختمت اخيرا في

واترلو بعد أن أصبحت الارض قفارا روثها الدماء .

ولكن الثورة الصناعية سرعان ما ولدت بعد الثورة الفرنسية . فالحرية والتغيير السياسى سرعان ما اتخذ شكلا لتحول تاريخى اجتماعى اقتصادى يبروز النزعات القومية من جهة ، والثورة الصناعية التى تزعمتها بريطانيا من جهة اخرى ، وظلت رائدة لها لفترة طويلة : تغمر منتجاتها اسواق العالم ، وتصب امبراطوريتها الواسعة المواد الخام الى مصانعها ، ويكفل اسطولها الضخم حماية طرقها التجارية .

ولكن الدول الاوربية سرعان ما لحقت بالركب ، وبدأت منتجاتها تغمر الاسواق منافسة لبريطانيا . وضاق السوق الاوربي بالمنتجات المتعددة فبدأ البحث عن اسواق جديدة . ومرة أخرى ماوضح التناقض الرأسمالى المعهود ، وكان المتنافس الطيعى له فى الاستعمار .

فالحروب والاستعمار دائما تجدد دماء وشباب الرأسمالية ، على الرغم من أنها تعتبر مظهراً من مظاهر ضعفها وتدهورها . وحقيقة كان التنافس الحر هو المظهر العام للصراع الرأسمالى الصناعى قبل الثورة الصناعية ، ولكن تطور ونمو الرأسمالية الصناعية السريع يقودها حتما فى أقصى درجاته الى بروز ظاهرة « الاحتكار » وقمته « الاستعمار » . فهو احتكار لاسواق وخامات اقطار وقارات باكملها ، وقفل باب التنافس الحر فيها ، وجعل خاماتها واسواقها حكرا لمنتجات من مصدر معين .

فكان ان اتسم النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالعهد الذى رمز له « بالعهد الاستعمارى الحديد » وفصلته اربعة قرون كاملة عن العهد الاستعمارى الاول - عهد اكتشاف واستعمار الأمريكتين واستراليا .

كان المجال الحديد هذه المرة هو افريقيا . تدافعت الذئاب وكل ينهش فى لحم القارة العذراء وهى مستكينة كالحمل الوديع .

وعلى الرغم من أن الدوافع الاقتصادية كانت هى جرثومة الحمى الجديدة ، الا ان هنالك دوافع ومؤثرات اخرى أسهمت فى خلق ذلك الموقف الدولى المعقد الذى برز فى السنين الاخيرة من القرن التاسع عشر فى افريقيا ، كانت هذه

التيارات والمؤثرات تبدو أحيانا مجرد إنعكاس للموقف الدولي الاوربي المعقد باحلافه وخلافاته المتكررة ، أو للسياسة الداخلية للدول الاوربية (١) واحيانا أخرى كان الكبرياء القومي والعنصرى يبدو أنه هو الدافع الرئيسى. ولعل كل تلك التيارات ستوضح فى موضوعنا ، السباق نحو حوض ومنابع النيل : كانت أطراف النزاع اربعة ، بريطانيا ، فرنسا ، وبلجيكا ، وايطاليا .

ولنبداً ببلجيكا فهى اوضح وأبسط المحاور . فالملك الاتوقراطى الطموح ليوبولد - لم يعان من تيارات السياسة الداخلية والاحزاب المتعددة ، فتمكنت بلجيكا من التفرغ بكليتها للاستغلال الحديد . وحتى مستعمرة الكونغو "Congo Free State" لم تكف لاشباع شهيته المفتوحة ابداً ، وسرعان مارئت أعينه شرقاً نحو حوض النيل . وهو ، خلاف كثيرين غيره ، اوضح بلا مداراة

(١) يوضح ساندرسون فى بحثه المنهك عن تلك الفترة ان وقوع السلطة فى يد سياسيين استعماريين ذوى كبرياء قومى فى أوربا حين كان الاستحواذ على المستعمرات جزءاً مكملًا للسيادة ومبعث مفاخرة قومية أدى إلى بروز بواعث جديدة للاستعمار وهى «الكبرياء والمكانة الاستعمارية» "The Prestige of Imperialism" وأدت تلك الدوافع إلى التسبب فى خلق مواقف وأزمات دون أن يكون وراءها أى دوافع اقتصادية . فهو يذكر كلمات روزبرى عندما تحدث مع مجلس العموم قائلا : « ومن صميم مسئوليتنا وراثتنا ان نتأكد اننا عندما نشكل هذا العالم ، أنه يشكل من عجيبة ذات صبغة بريطانية وليس من أى عجيبة أخرى » .

"Part of our responsibility and heritage to take care that the world, so far as it can be moulded by us, shall receive an English speaking complexion, and not that of other nations".

كما يوضح فى مقدمة بحثه ان تلك النزعة كانت من القوة للدرجة التى تغلبت فيها على وجهة نظر الملكة فكتوريا وسالنبورى رئيس الوزراء القوى . فعندما وصلت أزمة فاشودة إلى قمتها ، ووضح ان الحرب مع فرنسا لا مفر منها علقت فكتوريا « أنها لا يمكن ان توافق على شن حرب من أجل تحقيق هدف بمثل هذه التفاهة » .

"Queen Victoria wrote that she could hardly bring herself to consent to a war for so miserable and small an object."

وعلق سالنبورى على الملف الذى اوضح ثروات بحر الغزال المتوقعة «كلام فارغ» "Wretched stuff" ولكن رغما عن هذا لم يستطيعوا ايقاف تطور الأمور إلى أن أصبحت على شفا حرب شاملة مع فرنسا .

Sanderson, G.N., *England, Europe and the Upper Nile*
(Edinburgh, 1965), pp. 1, 395.

أن هدفه الرئيسى هو تأمين مستقبل بلجيكا اقتصاديا ، وتجسم طموحه بوضوح عندما جذبت استثمارات الكونغو ثلاثين مليون فرنكا من رؤوس الاموال البلجيكية ، ودرت عائدا يربو على ٢٦ مليونا فى فترة وجيزة .

فى حالة بلجيكا كان الاستغلال الاقتصادى بالاضافة لطموح الملك البلجيكى فى جعل دولته الصغيرة دولة كبرى - ولعل لعقدة المساحة أثرا كبيرا - هى الدوافع الرئيسة لاندفاع الملك نحو حوض النيل ، مما حفزه لان يتقدم لبريطانيا باقتراحات محددة لتقسيم تلك المنطقة من افريقيا . وصادفت تلك المقترحات هوى فى نفس بريطانيا . فقد اعترفت المعاهدة باعتبار منابع النيل منطقة نفوذ بريطانية ، بينما منحت بلجيكا حقا فى الاستحواز على المنطقة المتاخمة للكونغو والجزء الاعظم من بحر الغزال غرب خط طول ٣٠° . وبذلك قفل الطريق الجنوبى لمتابع النيل بالنسبة للمنافس الحقيقى وهو فرنسا . واصبح الطريق المباشر الوحيد بالنسبة لفرنسا يختم عليها الاصطدام بالصخرة الصلبة - الخليفة - وهو فى أوج قوته العسكرية . فلما نص لفرنسيين ان ارادوا الوصول لمتابع النيل من التقدم غربا مباشرة عبر دارفور وكردفان وسحق الخليفة فى ام درمان ثم الاتجاه جنوبا نحو منابع النيل . وكان ذلك شبه استحالة عسكرية وعسكرية .

ولكن ليوبولد سرعان ماتراجع عن تعهده مع البريطانيين عندما عجز عن مقاومة اغراء العرض الذى قدمه له الفرنسيون . وهو منحه الجزء الجنوبى من أوبانقى « افريقيا الوسطى حاليا » مقابل فتح ممر يتقدم عبره الفرنسيون لمتابع النيل بالطريق الجنوبى السهل متفادين جيوش الخليفة فى الشمال . وعاد ليوبولد وعدل الاتفاقية مع بريطانيا بالفاظ أكثر مرونة تنص على « عدم تجاهل الحقوق التركية والمصرية فى السودان » ، وكان السودان رسميا لازال يعتبر ضمن الممتلكات المصرية ، فبالطبع لم تعترف الدول الاوربية بالمهدية دوليا . وكانت الحقوق التركية والمصرية تعنى ايضا الحقوق البريطانية ، ولكن لا السلطان التركى ولا الخديوى توفيق كانا يخطران ، ولو على سبيل المجاملة ، بتلك التسميمات لمناطق النفوذ الاوربية .

أما ايطاليا التى كان موقفها المتدهور فى افريقيا هو الذريعة الرسمية التى تسببت فى الغزو ، وبالتالي فى معركة ام درمان ، فقد طعنت افريقيا فى جنبها

الأيمن من الشرق . كان الملك الايطالى حريصا كغيره على الاستحواز على قطعة من افريقيا للظهور بمظهر الدولة الكبرى . وحركته نفس عقدة بلجيكا «العقارية» بدأ الايطاليون اولاً باحتلال ميناء مصوع ، وتابعوا طريق القوافل من مصوع لكسلا وهم يشيدون القلاع العسكرية الى ان وصلوا كسلا واصطدموا باحمد ود على فى معركة دامية خرجوا منها منتصرين ، وبذلك اصبحت كل اريتريا فى قبضة ايطاليا .

وليأمن الايطاليون موقفهم اتبعوا سياسة « فرق تسد » . فبدأت ايطاليا فى مؤازرة رجل اثيوبي بارز هو - الامير منليك - امير اقليم شاوا الجنوبي ضد الامبراطور . وتمكن منليك من الانتصار على الامبراطور بالاسلحة الايطالية ونصب نفسه امبراطورا على اثيوبيا ، بعد أن عقد معاهدة « اوسىالى » مع الايطاليين منحهم فيها امتيازات اقليمية فى اثيوبيا ، الى جانب حق التحدث باسمه مع جميع الدول الاوربية . واصبحت اثيوبيا محمية ايطالية . وظل الحانبان يعيشان فى وئام . ولكن فرنسا سرعان ما تدخلت من الصومال الفرنسى . ولا يمكن الجزم أيهما مد يده للآخر اولاً ، هل ادرك العاهل الاثيوبي امكانية ضرب الاوربيين ببعضهم البعض - أم كانت المبادرة من الفرنسيين لفتح ثغرة نحو حوض النيل عن طريق اثيوبيا ؟

ففى صبيحة احد الايام الباردة تسلك رجل غامض ابيض اللون الى بلاط الامبراطور وهمس فى اذنه موضحاً له بالضبط ماهو المعنى الحقيقى لكلمة «محمية» فتتهيج الامبراطور وارغى وازبد واعلن ان الايطاليين خدعوه . ولكن حقيقة الامر انه هو الذى كان يخطط لخدعة كبرى . فقد اعلن انه فهم الجزء الخاص بتفويض الايطاليين للتحدث باسمه بانه « يمكنهم » التحدث باسمه عندما « يطلب » هو ذلك .

فبعد الزيارة الثانية للرجل الابيض الغامض الذى اتضح انه مبعوث فرنسى من الصومال ، بدأ تدفق الاسلحة الفرنسية الحديثة والاموال الفرنسية على اثيوبيا مقابل منحهم حق التعدين ، وامتياز انشاء خطوط السكك الحديدية فى اثيوبيا . استخدم منليك الاموال لدفع ديون الايطاليين ، واستخدم الاسلحة فى القضاء عليهم نهائياً . ولم يضع زمناً طويلاً بعد تسلمه الاسلحة الفرنسية فمزق معاهدة « اوسىالى » وبدأ التحرش بالايطاليين فى عدة معارك صغرى تمهيدا للمعركة الكبرى .

ففى صباح اول مارس ١٨٩٦ التقى الجيشان فى معركة لانتختلف عن معارك القرن التاسع عشر كثيرا . تحسم فى يوم واحد ، وتخاص فى مساحة ضيقة بعشرات الالوف وبضراوة متناهية . غطت حشود النفر الهائلة « ١٢٠٠٠٠ » مقاتل سلخوا ببنادق « جراسى » والمدافع الفرنسية سريعة الطلقات ، ممرات وسفوح الجبال لتوقع بجيش الجنرال بارانيرى الابطالى « ١٧٠٠٠ » هزيمة منكرة .

ثبت انتصار منليك على الابطاليين بالاسلحة الفرنسية اقدام النفوذ الفرنسى فى اثيوبيا . كان واضحا ان اطماعهم البعيدة تنجه الى حوض النيل مسترة خلف الامبراطور ، ليصبح تقدمهم نحوه من الشرق والغرب .

وان كان الهدف الفرنسى الاول ، وهو التوغل فى اثيوبيا ، اقتصاديا بحثا لاستثمار الثروات والمعادن الاثيوبية ، الا ان الهدف الرئيسى وهو الزحف غربا عبر اثيوبيا والاستحواز على منابع النيل كانت تتحكم فيه تيارات أكثر تعقيدا . فصعوبة الوصول لمانع النيل ، تلك الاصقاع البعيدة بمستقعاتها وسكانها الذين لازالوا يعيشون فى مستوى ما قبل التاريخ ، تجعل امكانية استغلالها كهدف اولى سريع امرا مستبعدا بالنسبة لفرنسا . وترجع ان الهدف الاساسى كان يكمن فيما تمثله منابع النيل لمصر ، ومن خلفها بريطانيا . ويمكن لمن يستحوز عليها ان يجبر بريطانيا على الجلوس معه على مائدة مفاوضات لمناقشة كل المشاكل المعلقة بينهما فيما يتعلق بتقسيم الممتلكات المصرية والتركية . فعلى الرغم من الحلف القائم فى مسرح السياسة الاوربية بين فرنسا وبريطانيا ، الا أن الاحتكاك والتشاحن بينهما كان هو السمة الغالبة على مسرح السياسة الاستعمارية فى افريقيا .

وعقدة فرنسا من بريطانيا بدأت منذ زمن طويل . ففرنسا بقيادة نابليون كانت هى النافذة الاوربية التى انفتحت عليها مصر فى العصر الحديث عندما اصطحب نابليون فى حملته مئات من العلماء والمهندسين والمؤرخين . وعندما اتجهت انظار محمد على والحديوى اسماعيل للاستفادة من المدنية الاوربية ، اتجهت انظارهم اول ما اتجهت لفرنسا . وديليسبس صاحب فكرة قناة السويس وخبرائه كانوا فرنسيين ، ورأس المال الرئيسى الممول للقتال كان رأسمالا فرنسيا . وعندما رفضت فرنسا التدخل فى مصر اثناء الثورة العربية . وتركت الاسطول البريطانى

يتصرف منفردا ، اطبقت بريطانيا بحسم على مصر وقصفت بوارج الاميرال سيمور الاسكندرية . وعندما وصل نبأ انتصار ولزلى على عراقي في التل الكبير ووضعت بريطانيا يدها نهائيا على مصر ، لم تكن فرنسا تظن ان تلك العملية البرمائية ستولد احتلالا لعشرات السنين ، وتجعل مصر حكرا لبريطانيا . وعندما ادركت الحقيقة المرة بعد فوات الاوان ، احست انها طعنت في كرامتها .

ان من يضع يده على منابع النيل ، تصبح مصر الزراعية تحت رحمته ، خصوصا والعالم يتابع مشاريع كرومر الانمائية في مصر وفكرة انشاء خزان اسوان تلوح في الافق ، لذا كان الهدف الاساسى لفرنسا هو استخدام منابع النيل كأداة للضغط على بريطانيا لاعادة النظر في استيلائها على الممتلكات المصرية والعثمانية . والاستيلاء على منابع النيل والاحتفاظ بها يحطم عرfa دوليا ترفضه فرنسا ، وهو ابوة بريطانيا المفروضة على الممتلكات المصرية والعثمانية .

في حالة اطماع فرنسا بالنسبة لحوض النيل كان الاستثمار والاستغلال الاستعماري جزءا ثانويا ، فحتى تحقيق الهدف الامثل وهو تخلى بريطانيا عن مصر لفرنسا كان اصحاب البنوك ورؤوس الاموال الفرنسية يتابعونه ببرود ، فقد كان كرومر البريطاني اقدر على حماية رؤوس الاموال الفرنسية وتوزيع ارباحها من اى قائد فرنسى عسكرى يتولى حكم مصر .

وعندما تولى وزارة المستعمرات الوزير القوى ديكلاسيه ، انطلق في سياسة تحرشية واضحة متجاهلا الخط العام للسياسة الخارجية الفرنسية وحلفها مع بريطانيا ، واطلق يد عشرات من الضباط الطموحين المغامرين وهم ينطلقون نحو النيل عبر داهومي والنيجر - كان النجاح الساحق الذى حققه اولئك الضباط المستكشفون أمثال ديكور ، وتوتي ، وبالوت ، مخالفا للقتل الذى لاقته بعثة ليوتارد التى مثلت المجهود الرئيسى للاندفاع نحو النيل من الغرب . ولكن كل هذه البعثات واجهت نفس الإغراض والتجاهل من المسؤولين الفرنسيين .

إذن في حالة الاندفاع الفرنسى نحو منابع النيل لم يكن الاستغلال الاقتصادى المباشر هو الدافع الرئيسى . ولكنه تمثل في اهمية مصر الاستراتيجية وهى تغاف

قناة السويس . ملتقى طرق الشرق بالغرب : وفي الكبرياء القومي الذي طعن
باحتلال بريطانيا لمصر ،

والاندفاع نحو منابع النيل لاختلو مسباته من دوافع رومانسية ايضا . فمنذ
قديم الزمان عندما كتب ابو التاريخ هيرودوتس عبارته المشهورة « وعن مصادر
ومنايع النيل لايعلم احد عنها شيئا » فهو يأتي من مصادر بعيدة غامضة « مارس
النهر العظيم سحرا غامضا على كل الفاتحين الذين غزوا مصر ، ولم يكن يوليوس
قيصر اولهم ولا نابليون آخرهم وازداد تشوق العالم وهو يشد انفاسه في متابعة
محاولات اكتشاف منابعه في الخمسينات والستينات من القرن الماضي بعد توالي
رحلات المستكشفين امثال ريتشارد بيرتون ، وسيبك ، وجرانث ، وصمويل بيكر ،
وكانت مؤلفاتهم التي تنشر في بلادهم بعد عودتهم تلاقى رواجاً منقطع النظير ،
واحتلت المجادلات والمباحثات العلمية حيزا كبيرا من صفحات الكتب والصحف ،
وكل من هؤلاء المستكشفين من يحاول ان يبرهن على صحة نظريته حول مكان
منابع النيل الحقيقية . والجمعيات الجغرافية ومن خلفها الدول تمول الرحلات
لاحراز شرف كشف الستار عن السر الابدئ لمنابع النيل . ثم امتلاكها » .
وماذا عن بريطانيا . . . الطرف الرئيسي في المشكلة ؟

لا بد للمرء ان يعجب من التحول الواضح في السياسة البريطانية نحو السودان
من تجاهل وتحاشي عام ١٨٨٣ الى الدرجة التي ارغمت فيها مصر على نقض يدها
منه ، وبين ١٨٩٦ عندما أمرت السردار بالتقدم نحو دنقلا بل واشتركت اشتراكا
عسكريا مباشرا . ان الدوافع التي برزت خلال هذه الاعوام متعددة ومتنوعة سواء
منها المباشر أو الغير مباشر ولكنها جميعا كانت تهيئ للموقف الجديد عام ٩٦ .

عندما اقتنحت بريطانيا مصر عام ٨٢ كان هدفها وضع الامور في نصابها
داخليا فقط حتى لا تهدد الثورة العربية مصالحها المحدودة ، ثم تنفض يدها بسرعة
من تلك البلاد الغارقة في الديون والمشاكل ، ولم يكن هدفها احتلالا دائما لحماية
قنال السويس وطرقها التجارية لآسيا كما يظن من الوهلة الاولى . فحسب مبدأ
« بالمرستون » فان الدفاع عن قنال السويس يجب ان يكون دفاعا ارضيا ضد الدولة
الوحيدة التي يمكن ان تندفق جيوشها الارضية نحو قنال السويس — وهي روسيا .

وتركيا هي المكان الذى يجب إيقافها فيه وليس مصر . أمنت المعاهدات والاتفاقيات مع السلطان التركى ذلك الهدف . اما أى خطر بغزو بحرى لقنال السويس من اوريا حيث تبرز أهمية مصر ، فكان مستبعدا . فالاسطول البريطانى فى القرن التاسع عشر ، وهو يتفوق على اسطول أى دولتين اوربيتين مجتمعتين ، كان كفيلا يستحق أى تهديد .

وفى تلك الظروف وبريطانيا تتدخل تدخلا محليا فى مصر بل وتطلب من فرنسا التدخل معها ، وهى لاتود التورط اكثر من ذلك فى المشاكل المصرية ولافى امبراطورية اسماعيل الضخمة المفككة ، ولازالته هى الدولة الصناعية الاولى فى العالم ومستعمراتها اكثر من كفايتها ، هبت الثورة المهدية . وكان الامر سيان بالنسبة لبريطانيا ، ان يقتل هكس البريطانى ويباد جيشه المصرى . أو أن يقتل غردون وتباد حامية الخرطوم . لم تكن كل تلك الاسباب كافية لاغراء بريطانيا للتورط فى ذلك الاقليم السحيق . وتجاهلت الحكومة الرأى العام البريطانى وهو يصرخ مطالبا بانقاذ غردون ، ولم تتحرك لارسال حملة الانقاذ الا اخيرا وبعد شهور طويلة وتحت ضغط الرأى العام .

يمكن حصر تلك الدوافع التى أدت لتغيير ذلك الموقف فى اربعة أسباب رئيسية . وفوقها جميعا يلقى الدافع الاقتصادى للمستقبل البعيد بمعادلته السهولة - المواد الخام والاسواق - ظلته الثقيل عليها .

وحقيقة لاتخلو قصة استعادة السودان وبريطانيا من دوافع ثأرية فى بداية الأمر . فبعد مقتل هكس وستيوارت . وانسحاب بعثة الانقاذ منهجرة تجر اذبال الخيبة وجيوش المهدية تلهب ظهورها بالجراح ، وبعد صدمة نبأ مقتل غردون ، خيم شعور من الوجوم على الشعب الانجليزى . اعقبه رد فعل سريع تمثل فى مئات المؤلفات التى مجدت غردون ثم تلتها فترة من الزمن اشاح فيها البريطانيون بوجوههم عن السودان ، مقبرة الرجل الابيض ، والحجل والشعور بالعار يملأ جوانحهم . فقد كانت تلك اول هزيمة تلحق بالرجل الابيض فى افريقيا . بل واصبح التجاهل المقصود والتحاشى هو الاتجاه الغالب . ولم يعدم العسكريون البريطانيون من غمرات ولزرات من الصحافة الاوربية بين الفينة والأخرى وهى تلمح من بعيد لهريمتهم المخجلة .

واعتبر الامر لسنين طويلة عارا قوميا . وهذا واضح من الاشعار والاغاني ورسوم الكاركتير التي سادت في تلك الفترة .

وعندما بدأت شعبة المخابرات المصرية تتحدث في تقاريرها الطويلة عن تضاؤل قوة الخليفة وعن الخلافات التي تمزق وحدة دولة الخليفة ، وعن ضيق السكان به ، تمكن ونجت من تهريب الاب اوهرلدر من قلب عاصمة الخليفة ونشر كتابه على العالم . والسرعة التي تم بها تأليفه وترجمته وطبعه توضح ان ايدى كثيرة كانت وراء نشره . فكتاب « عشرة سنوات في الاعتقال » يركزه على القصص الدموية والابادة والمجاعات (١) بصورة مبالغ فيها كثيرا كان القصد منها واضحا ، وهو تصوير اعادة فتح السودان كعملية انسانية من واجب الامم المتحدة . ثم تلاه كتاب سلاطين المشهور « السيف والنار في السودان » وما امتلأت به صفحاته من حقائق أو بالاحرى أكاذيب مفزعة معروفة للجميع . أفلحت كل تلك المطبوعات في نكأ الجرح القديم ، وأثارت حلما قديماً بالثأر ورد الكرامة ، وحلم أقدم منه بامبراطورية يربطها خط سكة حديد من القاهرة لرأس الرجاء ، وكان العسكريون على رأس هؤلاء الحالمين . وتحولت الانظار التي اشاحت بوجهها من قبل نحو السودان مرة أخرى . فاحتلال بريطانيا لكينيا اصبحت افريقيا تقريبا من الاسكندرية وحتى رأس الرجاء الصالح تحت سيطرتها ماعدا تلك البقعة من الارض التي تمتد بين حلفا ومنابع النيل وبين كسلا ومملكة وداي - وهي امبراطورية الخليفة .

ولعل النظرة البريطانية للخليفة تنضح من تقارير كرومر المتلاحقة فقد اوضح في تقاريره في اواخر عام ٨٩ بانه مقتنع تماما باهمية استرداد السودان بالنسبة لسلامة مصر وامنها بل لبقائها ، ولكنه يؤكد منذ زمن ان الحالة الراهنة "Status Qua"

(١) يوضح الأستاذ قاسم بدرى في رسالته مستعينا بالرسم البياني ، الذي يرتفع ارتفاعا رأياً مفاجئاً شبيهاً بالمسلة ، ان ما نشر عن السودان في عام ٨ ورمز إليه بأدب غردون "Gordon Literature" تجاوز مائة وستون مؤلفاً ويشهد الرسم البياني فجأة في بقية الاعوام الى أن يبدأ في الصعود مرة أخرى عام ٩٨ و ٩٩ .

Kasim Badri, M.A. Thesis, A Critical Analysis of British Historical Writing on the Mahadiya of the Sudan, Beirut, 1971 "Unpublished".

هى حالة مثالية طالما ان الخليفة لا يملك من القوة ما يهدد مصر مباشرة ،
وطالما كان هو المسيطر على منابع النيل وهو لا يملك من الامكانيات الفنية والعلمية
والهندسية ما يمكنه من تحويل مجرى النيل ، وهو حيوى لوجود مصر كلها . «واخشي
مايخشا» هو ان تدفع مشكلة السودان دفعا فى وجه بريطانيا قبل الاوان ، وان
ترغم بريطانيا على التصدى لمشكلة السودان رغما عنها . اى ان يهدد الخليفة غزو
خارجى من دولة اوربية تمكنها استعداداتها الفنية والهندسية من تحويل مجرى النيل .
«والاوان» فى نظر كرومر هو تدهور قوة الخليفة العسكرية من جهة ، واستعداد
الجيش المصرى ومقدرة الميزانية المصرية على تحمل نفقات الحملة الباهظة من جهة
اخرى ، فان استعادة السودان ستم على حساب «زيادة عالية جدا فى الضرائب التى
اثقلت كاهل السكان قبالا لدرجة لانتحمل أى زيادة جديدة . وعلى حساب ايقاف
مشاريع التنمية » « نصف ايرادات الميزانية المصرية كان يدفع لسداد ديون الخديوى
اسماعيل . »

وقصة كرومر وحساسيته لكل ما يمس الميزانية المصرية مشهور وموضع
تندر بين معاصريه . فقد افلح فى موازنتها وقطع شوطا كبيرا فى تسديد ديون
البيوت المالية الاوربية على حساب المنصرفات والخدمات الضرورية ، وبعد ان
اثقل كاهل السكان بالضرائب ، وبعدها تولى كل المناصب الادارية والعسكرية
فى مصر بريطانيون . وعندها عثرت ابواق الدعاية من مؤلفين وصحفيين بريطانيين
على مادة دسمة فى انجازات كرومر السلمية ، لتخفف من مرارة سقوط الخرطوم ،
ملقبة ضوئا قويا على مشاريع كرومر الاصلاحية . وبدأ كرومر ينظر للامر وكأنه
انجاز ومجد شخصى له . وكان يعارض دائما فى كل نمو للقوة العسكرية على حساب
اقتصاد مصر النامى ، وزاد موقفه تشددا بعد عملية استرداد طوكر . حين دفعت
الحملة الموجهة ضد عثمان دفعة ثمنا غاليا لا يتناسب مع ضالة قوات عثمان دفعة .

وبعد ان انتعشت الميزانية المصرية قليلا ، بدأ التفكير فى اعادة بناء الجيش
المصرى الحديث . كان الهدف الاساسى هو الامن الداخلى وحماية الحدود من
الغزو الجنوبي - تهديد الخليفة .

فى ديسمبر ١٨٨٢ وبقرار واحد من كرومر سرح كل الجيش المصرى

الذى اشترك فى ثورة عرابي وقاىل فى معركة التل الكبير . لم يمض زمن طويل حتى برزت ضرورة الاحتفاظ بقوة نظامية للامن الداىلى ولحماية الحدود الغربية والجنوبية من غارات عرب البدو من ليبيا ، وهجوم جيوش المهديّة المتوقع بين فينة واخرى .

لم تكن حالة مصر الاقتصادية تسمح باكثر من جيش صغير . فبدأ التجنيد الاجبارى بنظام القرعة . وبعد ستة شهور استعرض الحديوى توفيق وسير (ايفلن وود) سردار الجيش المصرى ستة الف جندي كانوا نواة الجيش المصرى الحديث على رأسهم صفوة من الضباط البريطانيين الشبان بلغ عددهم ٢٦ ضابطا وثلة من ضباط الصف البريطانيين للتدريب - سرعان ما ملعت اسماءهم فى بناء الامبراطورية البريطانية - جرانفيل - وودهاوس - كتشنر - ماكدونالد - هنر ورنديل .

وبينما كان هكس يعسكر فى الخرطوم عام ٨٣ على رأس فلول عرابي المقيدة بالسلاسل وهو فى طريقه لنهايته الدموية ، ارسل للسردار وود طالبا تعزيزه باربعة كتائب من الجيش الجديد . ولكن الاقدار رحمت الجيش النامى . فاعتذر كرومر عن إرسالها وأنقذ كتائب وود هاوس من الابادة السريعة بحراب النجومى وفيرانا ابو عنجة .

وبعد استقالة وود عين كتشنر سردارا للجيش المصرى . وفى عهده بدأ الجيش المصرى ينمو باطراد . فعندما انضم الى صفوفه الجنود السود الاشداء - احفاد من ارسلهم الدفتردار واسماعيل لمحمد على ليستخدمهم فى بناء امبراطوريته - طعمت روحه القتالية ، وعندما استكمل كتشنر عناصره القتالية من مدفعية وفرسان ووحدات ادارية اصبح جيشا كاملا ، ووفر له تقدم ود النجومى وغارات عثمان ازرق خبرة قتالية معقولة .

وفى عام ١٨٩٦ كانت العناصر القتالية للجيش المصرى تتكون من :

المشاة :

١٨ كتيبة مشاة من الاولى حتى الثامنة عشر ، منهم ست كتائب سودانية ، من التاسعة حتى الرابعة عشر ، واثني عشر كتيبة مصرية .

تكونت كل كتبية من ٦ سرايا مشاة «قوة الكتبية المشاة ٧٥٩ جندى»
سلحت كتائب المشاة بالبندقية مارتيني هـرى .

العناصر الراكبة :

٩ سرايا فرسان كلها مصرية — كل سرية ١٠٠ فارس

سلحت بالبنادق والسيوف والحراب الطويلة .

٨ سرايا هجانة — ٤ سرايا سودانية، و ٤ سرايا مصرية كلها تحمل البنادق.

المدفعية :

٦ سرايا مدفعية — سلاح اثنان منها بالمدافع مكسيم نور تفلدت سريعة الطلقات
عيار ٩ رطل . والبقية بمدفعية الميدان عيار ١٨ رطل .

١ سرية مدفعية خيول "Horse Artillery" سلحت بالمدافع كروب
عيار ١٢ رطل .

الضباط :

كل المناصب العليا — من قائد سرية وأعلى بريطانيون ماعدا الكتبية الخامسة
والسادسة فضباطها من الاتراك والشراسة .

بلغ تعداد الجيش المصرى عند الغزو ٢٠٠٠٠ جندى بما فيهم كتائب السكك الحديدية .
وبعد عام ٨٨ ، بينما كان الجيش المصرى ينمو باطراد ويكتسب ثقته بنفسه
وعتاده الحديث ، كانت قوة الخليفة العسكرية تتناقص باستمرار . وبدأ الميزان
العسكرى يميل فى اتجاه السردار . ثم حدثت معركة توشكى وقضت على الحالة
الاسطورية التى كانت تحيط بقوة الخليفة ويعمل لها الف حساب . ثم بدأت تقارير
ونجت تعزف على نغمة اضمحلال قوة الخليفة . وكان ذلك « اخشى ما يخشاه »
كرومر (١) وهو ان ضعف الخليفة قد يعزى العسكرين البريطانيين فى الجيش
المصرى بمحاولة اعادة غزو السودان حيث تلقوا اكبر صفعه وجهت لهم اثناء بناء
الامبراطورية .

(١) وقد سأل لورد روزبرى فى أبريل ٩٤ كرومر لاول مرة عن مشاعر المصريين هل هم مهتمون وهل
لهم الرغبة فى استعادة السودان . واجاب كرومر « ان الوزارة المصرية والعسكريين البريطانيين يتحرقون »

ولكن في بداية التسعينات بدأ يلوح في الأفق حدوث « اخشى ما يخشاه » كرومر حقيقة ، وهو ظهور موقف يرغمه على مغامرة عسكرية في السودان . فقد بدأت الانباء تتواتر عن نجاح البعثات الفرنسية في تقدمها من الغرب واخبارها تنشر في الصحف الفرنسية بلا مواراة . وكلما سئل السفير الفرنسي في لندن تارة ينكر وتارة اخرى يتهرب من الاجابة . وبدأت الانباء تتأكد تدريجيا عن اطماع فرنسا البعيدة في حوض النيل . وبدأ كرومر في النظر للتهديد الفرنسي لمناجم النيل نظرة جدية ويؤكد للندن ان حل الموضوع لن يتم في القاهرة بل حله حقيقة يكمن في مواجهة شاملة مع فرنسا :

« لاثني عشر عاما ظللنا ندور في حلقة مفرغة (١) فيما يختص بالمسألة المصرية ونصل دائما لنفس الحلول ، اما ان نخضع للضغط الفرنسي ونحاول الوصول معهم لاحسن شروط لنا ، وهذا الموقف لن يكون في صالحنا ، بالتأكيد « أى لا يمكن ان نصل معهم لشروط توفر لنا موقفا احسن من موقفنا الحالي » أو نتخذ سياسة اكثر ايجابية تحتمل مصالحنا نحن ونخاطر بنشوب التراع بيننا وبين فرنسا . »

رغبة في استعادة السودان قبل وقوعه في يد الفرنسيين وان الشيء الوحيد الذي يمنهم من التصريح بذلك هو معرفتهم لمعارضتي الثابتة لثقل هذا المشروع .
وذكر رأيه :

I have always been so afraid of the soldiers getting their bit in the teeth and running away with one that I have persistently put forward, the objection to the adoption of a forward policy The Sudan worth a good deal to Egypt, but it is not worth bankruptcy and extremely 'oppressive taxation.

« ولعلنا خشيت من جموح العسكريين وصعوبة ايقافهم اذا جنحوا لسياسة أكثر عدائية وأكثر حيوية ، ومن عدم مقدرتي على معارضتهم دائما .. ان السودان يعنى الكثير بالنسبة لمصر ولكنه لا يستحق ان ندفع فيه ثمنا غاليا مثل الافلاس أو الضرائب العالية . »

"In all Egyptian matters we have for the last twelve years been continually moving round in a circle and we always arrive to the same conclusion we must either yield to French and make the best of terms we can with them which must almost of necessity be very bad terms to us or if we take any decisive step on our own account, we risk a very serious quarrel with France."

وعلى الحكومة البريطانية ان تختار بين المسلكين وان توازن بينهما فالقضية ستحسمها فى النهاية القوة الحربية بين فرنسا وبريطانيا : « منذ احد عشر عاما قلت لكم ان حل المسألة المصرية (١) كلها يعتمد على التفوق البحرى بين فرنسا وبريطانيا ولم تأخذوا كلامى مأخذ الجد. وانا الآن اصر على ماقلت اكثر من قبل. » (٢) وأدى تزايد الشكوك البريطانية فى المطامع الفرنسية الى تصريح رتشارد جراى الشهير فى مجلس العموم ردا على سؤال احد النواب عن حقيقة تلك الاشاعات :

« ان تقدم بعثة فرنسية باوامر سرية من غرب افريقيا نحو منطقة يعلم الجميع منذ زمن طويل « حقنا المشروع » فيها ، لن يكون اجراء مفاجئا فقط ، بل يجب ان تعلم الحكومة الفرنسية اننا سنعتبره اجراء معاديا « وتبع التصريح ماتبعه من تملص تارة وتشديد تارة أخرى من جانب الحكومة البريطانية ، ومن احتجاج وتجاهل من قبل الحكومة الفرنسية . ولكن خفقات قلب كرومر بدأت تتزايد مع تلك المخاوف وبدأ يميل تدريجياً الى اتخاذ سياسة حرية أكثر ايجابية لحماية منابع النيل باسترجاع السودان .

وقبلا كان هناك مشروع يشغل بال كرومر ويعتبره اكبر انجازاته وهو — خزان اسوان . وفعلا تم تحضير كل التقديرات المالية والتجهيزات الهندسية .

Eleven years ago, I said the ultimate solution of the Egyptian question (١) would depend on the relative naval strength of England and France. At the time no one belived me. I hold to that opinion more strongly than ever.

(٢) يرجع مكى شيكة تغير موقف كرومر منذ أبريل ٩٥ :

it is obvious that if any civilized power holds that matter of the upper Nile it may in the end exercise a predominating influence on the future of Egypt. I cannot therefore help thinking, that it will not be possible or desirable to maintain a purely passive attitude."

Shibeika, Mekki, *British Policy in the Sudan* (Oxford), pp. 345-346.

« ويذهى ان أى قوة دولية ممتدة اذا تمكنت من وضع يدها على منابع النيل فستمكن فى النهاية من التأثير على كل مستقبل مصر . وامل الا اعتقاد بأنه ليس من المستحسن ولا الممكن اتباع سياسة سلبية دائما .

وكرومر وهو يمضى قدما فى المشروع مشجعا جارستين وزير الرى ، كان يعلم علم اليقين بأنه ستحل لحظة يوما ما سيختار فيها بين انشاء خزان اسوان ، كعملية تنمية للميزانية المصرية التى انهكتها الديون ، وبين عملية استعادة السودان التى يستتر فىها كل ثمار التوفير وشد الاحزمة على البطون لسنين طويلة .

فكان مكتب كرومر فى الوكالة البريطانية يشهد دائما زيارات متعاقبة منتظمة من رجلين . احدهما السردار كتشتر ليطلب تأييد وموافقة كرومر على اقناع لندن بالشروع فى الغزو ، موضحا خطورة التقدم الفرنسى البلجيكي من الشرق والغرب نحو منابع النيل ، وأنه بصفته سردارا للجيش المصرى مشغول عن حماية الممتلكات المصرية . ويعقبه بعد قليل سير ويليام جارستين وزير الرى ليطر به بموضوعه المفضل ، خزان اسوان . وفى اوائل فبراير كان السردار خارجا من مكتب كرومر ، وجارستين فى طريقه اليه فتقابلا فى الطريق وسأل المهندس الجنرال عن نتيجة مقابله مع كرومر فحذر السردار فى وجهه غاضبا ورد ببرود «لقد هزمتنى - متبني خزانك» . وانطلق فى الطريق ، واسرع جارستين بالدخول لكرومر والخبور يملأ جوارحه .

ولكن فرحة جارستين لم تدم أكثر من بضعة اسابيع . ففجأة فى الثالثة صباحا من يوم ١٣/٣/٩٦ . وصل التلغراف الشهير للجنرال نولز - قائد قوات الاحتلال البريطانية يحمل تعليمات القيادة البريطانية باحتلال عكاشة - نقطة خالية لاقية لها على بعد ٣٠ ميلا جنوب صرص - واوضحت كلمات التلغراف اللاحق الذى ارسل لكرومر :

« اعادة احتلال دنقلا سيكون احسن عملية اظهار قوة وذا فائدة عظيمة لتحسين موقف الايطاليين فى كسلا يجذب انتباه الخليفة بعيدا عنهم .

كما لا يمكن ان نتجاهل اثر التقدم فى تأمين الحدود المصرية الجنوبية من احتمال تقدم يقوم به الخليفة يشجعه عليه الانتصار الافريقى الاخير على الاوربيين تبدأ العمليات بأسرع فرصة ممكنة ليس هناك ضرورة للسرية اطلاقا » .

وهكذا بدأ غزو السودان فى يوم ١٣ ر ٣١ ١٨٩٦ وانتهى يوم ٢ ر ٩ ١٨٩٨ .
 فما الذى حدث فى تلك الاسابيع بالضبط وأدى الى ذلك التغيير المفاجئ ؟ الاجابة
 هى انتصار منليك على عدوه . ومنذ هزيمة جنرال باريتارى الاولى بادر كريسي
 رئيس الوزراء الايطالى بارسال تلغرافاته المهينة لقاتله . وبينما كان هذا يستعد
 للبدء فى تقدمه المنكوب نحو عدوه . كانت كواليس وزارة الخارجية فى لندن
 تشهد نشاطا متزايدا . فقد اوضح لها السفير الايطالى ان الايطاليين مضطرون لاختلاء
 كسلا اذا لم يتلقوا مساعدة سريعة من بريطانيا . كان مكان المساعدة الطيعى هو
 تقدم جنوبي من سواكن نحو كسلا لجذب انتباه الخليفة لثلا يتسبب تقدم المهديين
 فى وضع حامية كسلا الايطالية فى كماشة سودانية اثيوبية . ولكن ولزلى القائد العام
 البريطانى اعترض بأن المتقذين سيصبحون بعد قليل فى حاجة لبعثة انقاذ « كان
 ولزلى قائد بعثة الانقاذ لغردون » وعلى الرغم من موافقة كرومر على تسير البعثة ،
 وهو امر لم يكن متوقعا ، الا انه خير لندن فى الامر بعد أن اوضح « ان مثل هذه
 العملية ستضع الميزانية المصرية تحت رحمة البنوك الفرنسية ولكن لامر منها من
 اجل المحافظة على علاقتنا مع ايطاليا وبلتالى المانيا » فأوربا كان يتحكم فيها حلفان
 كبيران احدهما الحلف الثلاثي Triple alliance (المانيا - النمسا - ايطاليا)
 من جهة والحلف الثنائي (روسيا - فرنسا) من جهة أخرى . وكانت بريطانيا
 مرتبطة بحلف ثنائي مع ايطاليا . وبعد طلب السفير الايطالى المساعدة كان القرار
 البريطانى فى البداية هو القيام بعملية اظهار قوة Demonstration لتخفيف
 الضغط المتوقع على الايطاليين من ناحية الخليفة فى مدى صغير وباهداف محدودة
 لاثير فرنسا بحيث تجد ذريعتها فى التقدم نحو منابع النيل . ولكن كرومر اعترض
 على مبدأ اظهار القوة « فان الانسحاب الذى سيعقب عملية اظهار القوة » سيعتبر
 انتصارا للخليفة ، ليس فقط فى ام درمان ، بل فى كل الشرق الاوسط .

ومضت تعليمات مكتب الحرب البريطانى للجنرال تولز « ان التقدم سيتكون
 من عمليتين منفصلتين : الاولى هى التقدم واحتلال عكاشة فورا ، ثم عملية اظهار
 قوة بالتقدم نحو ابو حمد عبر صحراء النوبة من حلفا . »

أما الى اى مدى فى اتجاه ابو حمد ، فلم توضح التعليمات ولكنها اوضحت

أن التقدم يجب أن يستمر على الأقل بعد المورات - مركز العبادة حلفاء الحكومة .
ووسط هذا الأخذ والرد والافتراضات المترددة . كان كرومر خارج
الصورة . فقد وصلت التعليمات لقائد قوات الاحتلال البريطاني في مصر وصرف
تعليماته للسردار متخطيا كرومر - مرعان ما احتج كرومر بأن الأمور خرجت
من يده وأن التجهيز والصرف إذا لم يضع تحت مسؤوليته فسيقتل الأمر من بين
يديه كلية ليصبح في يد العسكريين .

رد سالبورى يجعل السردار مسئولا مباشرة امام كرومر . وأوضح في
تلغرافه المطول بتاريخ ١٣ مارس أن السر في كل هذه التناقضات هو « أن الهدف
الرئيسي من هذه العملية هو معاونة الإيطاليين ، لكن النيل اختير كمسرح للعملية
وليس شرق السودان أولا لأن ذلك أفيد للمصالح المصرية وبالتالي البريطانية ، وثانيا
لتنجنب الاصطدام بالحشود الاثيوبية في شرق السودان - أما حشود الخليفة فهي
بعيدة في أم درمان وقواته في الشمال بسيطة . »

ولكن الإيطاليين لن تكون مساعدتهم قيمة الا اذا اعتقد الخليفة ان هناك
غزوا حقيقيا سيشن ضده :

« ولهذه الاسباب فان الدعاية مهمة ويجب الاهتمام بها وزيادتها لدرجة
التحويل "Bluffing" وقد اخبرت اننا السفراء الاوربيين هنا انك ستبدأ
التقدم نحو دنقلا . » ومضى سالبورى معتذرا بالتحرك نحو مسألة السودان قبل
نضج الأمور « انتعاش الميزانية المصرية » بأن :

« هزيمة الإيطاليين الشيعة وموهبتهم العجيبة في الانكسار امام الافريقيين
اجبرتنا على اتخاذ هذا الاجراء قبل سنتين أو ثلاثة من اكتمال استعداداتنا في
حوض النيل . ولكنك توافقني انه ليس في صالحنا سواء من ناحية الموقف الاوربي
أو الافريقى ان نقف مكتوفي الايدي بينما يسحق الافريقيون الإيطاليون . »

وحقيقة منذ زمن بعيد كانت الدول الاوربية تعلم علم اليقين بتدفق الاسلحة
الفرنسية لاثيوبيا . وبدأت الشكوك تتراد بأن هناك تعاوناً بين الخليفة ومنليك قبل
معركة عدوه ، وازدادت الشكوك في وجود تنسيق بين الخليفة ومنليك وبالتالي

بين الفرنسيين والخليفة ، وان الفرنسيين سيتسللون منابع النيل ليس من الغرب مباشرة بتجنب امدرمان ، ولكنهم سيتسللون من الشرق عبر الصخرة القوية نفسها ،
الخليفة . كان تصور هذا الحلف الهائل - الخليفة - ومنليك - والاسلحة الفرنسية فكرة مفزعة وسدا منيعا يقضى على أى احلام باسترداد السودان ، ويعنى ضياع منابع النيل من بريطانيا الى الأبد .

وهكذا نرى ان الأسباب المباشرة لبداية الغزو لم تكن الحصول على منابع النيل بل احتلال دنقلا ، ولكنه كان نتيجة حتمية للصراع الدائر لأكثر من ست سنوات للاستحواذ على منابع النيل ، وانتهى الصراع عام ٩٨ بأزمة فاشودة ،
مفتاح منابع النيل ، بعد معركة امدرمان .

السردار يتقدم

« وتكلموا معي في قيام المركز من العرضى الى جهة الدبة وعيدكم توقف
عن ذلك الى ان قال من باب الارجاف ان جردة الترك هذه هي الجردة التي اشار
عليها المهدي عليه السلام بوصولها لحد كبرى »

خطاب ود بشارة للخليفة موضحاً
حقيقة انسحابه من دنقلا .

هل علم الخليفة بالغزو قبل بدئه ؟

تشير ظواهر الامور الى ان الاجابة كانت نعم . فالمؤرخ محمد عبد الرحيم
عندما يتحدث من موقعه كجندى في حاميات الحدود الشمالية وهو يرقب تحركات
التجار بين مصر والسودان يذكر ان شبكة مخابرات الخليفة وأغلب عناصرها من
التجار كانت هي الاخرى تعمل بنشاط في مصر :

« ماكان خليفة المهدي غافلاً أو جاهلاً بما يطبخ له طي الخفاء بل كانت
له جواسيس ومراقبين في القاهرة يراجعون الصحف اليومية ويقطعون مسنها
قصاصات عن تحركات الجيوش ومفاوضات السفراء وجلسات الوزراء وكل
مايكون به مساس بالكلام عن استرجاع السودان وترسل له تلك القصاصات
داخل مظاريف توضع بين طلبات المناقشاته التي يصدرها تجار السودان بمصر الى
السودان وبعد ان يراجعها الخليفة يكتب بذلك الى قواد جنده بالحدود ، وكفى
بنا برهان على يقظته انه لما تقدمت طليعة اللورد كتشنر امر بسحب حامية عكاشة
وتعزيز حامية صواردة . »

على أى حال ، منذ بداية العام بدأت تحركات الخليفة تبرر شكوك سالسبورى
وكرومر في قيام حلف بينه وبين الاثيوبيين .

ففى احتفال الرجبية فى ١٣ يناير ٩٦ عقد الخليفة كعادته مجلس حربه
السوى العام الذى يضم كبار الامراء وحكام الولايات ، وأعلن عزمه على استعادة

كسلا بتقدم بثلاثة محاور من قوات احمد فضيل ، وحامد علي ، وعثمان دقنة .
وعلى الرغم من استغلاله لحرب الاحباش والايطاليين ، وضعف موقف
الايطاليين لبدأ التقدم نحو كسلا ، الا ان الوثائق اثبتت ان ذلك الحلف مع
الاثيوبيين لم يقدر له ان يولد ابدا .

اما دنقلا ، مسرح الحرب الموشكة على الاندلاع ، فلم تتمتع يوما ما بأنها
كانت احدى مراكز الحشد القوية للخليفة .

وفي عام ٩٦ كان محمد ود بشارة (١) حاكما لدنقلا خلفا ليونس الدكيم
الذى جأر سكان دنقلا من مظالمه ، واستدعاه الخليفة « ليلزم القروة فى ام درمان » .
وعندما اندر الخليفة ود بشاره باحتمال تقدم العدو نحوه ، اضطر لاجراء تعديلات
رئيسية فى توزيع قواته فى المنطقة . ومن ارباعه الاربعة ، احتفظ بربع فى دنقلا ،
وأرسل ربعا لتعزيز حمودة ادريس قائد منطقة صواردة المنطقة المتقدمة التى حشد
فيها قبل ربعين ، وهى تساوى نصف قوة ود بشارة كلها فى دنقلا .

.. ..

فى يوم ١٥ مارس ١٨٩٦ ، وقبل تحرك حشود الحملة من القاهرة للجنوب ،
أصدر الكولونيل هنتر قائد منطقة الحدود الجنوبية اوامره لتجريدة صغيرة مكونة
من جميع العناصر القتالية بالتقدم لاحتلال عكاشة ، اول نقطة داخل حدود
السودان . وقد وجدت عكاشة خالية . وعادت كل القوة الراكبة لصرص لتعود

(١) محمد ود بشارة والى الخليفة عل دنقلا منذ أكتوبر ٩٥ وصفه سلاطين باشا فى تقرير المخابرات
بانه اكفأ قادة الخليفة الشبان . من التعايشة ولد عام ١٨٦١ فى قرية بر كس بالقرب من دارا بدارفور
وكان قائدا ثانيا لعثمان ود آدم فى حملاته الحافلة فى دارفور . بعد وفاة عثمان آدم وتولى محمود ود
أحمد ولاية دارفور شب النزاع بين ود بشارة ومحمود وارسل الخليفة واستدعاه لام درمان . ولما
كثرت شكاوى سكان دنقلا من يونس الدكيم وافادت تقارير عيون الخليفة عن طغيان يونس لم يجد أنسب
من ود بشارة ليخلفه حاكما لدنقلا . توضح خطابات وتقارير ود بشارة وتعليماته لقادته أو تقاريره
للخليفة أى مستوى من الكفاءة العسكرية كان يتمتع به ود بشارة حتى ولو قيست كفاءته بمستوانا
المصرى ولم تكن شجاعته الشخصية باقل من كفاءته فشرشل لا يذكر اسمه الا مقرونا بالشجاع « ود
بشارة الشجاع »

“Valiant Wad Bushara

محمد عيد الرحيم معجم الشخصيات

Hill, p 254

Churchiul pp 257, 258

بالجزء الاعظم من قوة الحدود الاصلية التى تكونت من الكتيبة السودانية الحادية عشرة والثانية عشرة بقيادة الميجر ماكدونالد وسرية مدفعية وقافلة ضخمة ضمت ٦٠٠ جمل حملت عليها اغلب مؤن حرس الحدود .

أمضى السردار الاشهر الثلاثة التى اعقبت احتلال عكاشة فى عمل دؤوب متواصل لتجميع قوات الغزو فى الحدود الجنوبية . توزع نشاطه بين استدعاء للاحتياطى ، لانشاء خط إمداد طوله ٨٢٥ ميلا من القاهرة حتى عكاشة . وصل السردار لعكاشة يوم ١ مايو ١٨٩٦ ليشرف على الترتيبات النهائية للتقدم ، وخلفه نكامل خط امداد مضمون يعمل بكفاءة عالية يضمن تدفق الكتائب والمدفعية على نقطة عكاشة ، مبرزاً مقدرة السردار التنظيمية والادارية . فقد استخدم السكة حديد اساسا لنقل حشود الحملة ، كما استخدم بوارج شركة كوك السياحية لتجبر وراءها مئات الصنادل لنقل صناديق الذخيرة والتعينات ، بالاضافة لاسطول صغير من مراكب الاهالى الشراعية « القياسات » وفى نهاية مايسو اكتملت استعدادات السردار وتمكن أخيراً من حشد ٩٧٠٠ جندي توزعوا كالآتي :

السردار كتنر : قائد الحملة

كولنيل هنتر قائد فرقة المشاة

اللواء الأول	اللواء الثاني	اللواء الثالث
بقيادة الميجر لويس تكون من : الكتيبة الثالثة «مصرية» ، ، الرابعة ، ، ، ، العاشرة «سودانية» ، ، الثالثة عشرة ، ،	بقيادة الميجر ماكدونالد تكون من : الكتيبة التاسعة «سودانية» ، ، الحادية عشرة ، ، ، ، الثانية عشرة ، ، ، ، الثالثة عشرة ، ،	بقيادة الميجر ماكسويل تكون من : الكتيبة الثالثة «مصرية» ، ، السابعة ، ، ، ، الثامنة ، ،

القوات الراكبة :

٧ سرايا فرسان

٨ سرايا هجاة

المدفعية :

١ سرية الخيول

٢ سرية مدفعية ميدان

١ سرية رشاشات مكسيم بريطانية « ٦ مدافع » .

كيف كانت الخطوط العامة لخطة السردار لاستعادة دنقلا ؟

حقيقة لم يجرؤ السردار في تلك الفترة على الكشف عن مخططه النهائي . ولكنه كان يعلم ، كما كان جميع من حوله في الحملة يحسون ، بان الهدف النهائي هو ام درمان وايسر دنقلا ، وقنع في تلك الفترة بدتقلا كخطوة اولى نحو هدفه الاعظم .

وقبل اثني عشر عاما ، بينما كان كل هم بريطانيا هو اخلاء الجنود المصريين من السودان وضمان سلامة بعثة الانقاذ البريطانية وهي تسرع منسحبة للشمال ، كان الميجر كتشير مبعوثا للمخابرات في مركز الدبة المتقدم يقدر ذهنه في كيفية اعادة غزو هذه البلاد . وامضى اغلب اوقاته في مسح منطقة دنقلا ، ومراقبة تيار النيل وارتفاعه وانخفاضه . وتوصل اخيرا الى ان الحل الوحيد يكمن في خط امداد مضطرب سريع هو السكة حديد - يكفيهم مشقة الاعتماد على آلاف الجمال البطيئة ، والتحرر من حمل قرب المياه لشق الصحراء . وعاد الى مصر وهو يعزف على هذه النغمة في انها العلاج الامثل للتغلب على عقبة الشلالات .

فكانت خطة السردار هي التقدم بخذاء النيل وخطه الحديدي يتبعه خطوة بخطوة ، وبوارجه تتقدم مشاته للاستكشاف وتدمير تحصينات ود بشاره . على ان يكون هدفه الاول فرقة . اول موقع دفاعي قوى للعدو لاحتلالها بمشاته فقط . ثم يمد الخط الحديدي بعد الشلال الثاني لتحمل عليه قطع البوارج الكبيرة الجديدة ليتم تركيبها في ورشة كوشة جنوب الشلال ويتم انزالها في الماء وينتظر ارتفاع النيل ليبدأ تقدمه بالبوارج والمشاه . فالشلال الثالث كان يشكل العقبة الوحيدة بين اسطوله النهري ودنقلا العرضي ، عاصمة منطقة دنقلا ، والمرجح ان البوارج ستمكن من عبوره في زمن الفيضان . كان حشده الارضي ، بالاضافة للبوارج

حاملة المدفعية ، أكثر من الحاجة لسحق قوات ود بشاره في دنقلا التي لا تتجاوز ٥٠٠٠ مقاتل و ٦ مدافع ، وبذلك تسقط كل المديرية في يده .

أما فرقة خط دفاع ود بشاره الاول . فقد كانت احدى نقاط حمودة ادريس قائد المنطقة الشمالية في دنقلا في البداية . حيث وزع قواته في المنطقة بين صواردة وفرقة ، ثم حشد فيها كل قوته امثالا لتعليمات ود بشاره . وقد بدأ احتلال فرقة بقوة في اواخر مارس كما يذكر احد جنود ود بشاره - المؤرخ محمد عبد الرحيم - : « وقد انتدب منا ٢٤ جنديا ١٢ منهم من المشاة حملة البنادق و ١٢ فارسا مدججين بالرماح كنت أنا ضمن المشاة وكلفنا باحتلال فرقة . وكذا سارت جماعة منا لقطع خطوط التلغراف بين كرسكو وابار المرات وقد أدت كل منهم رسالتها باحكام وضبط » .

وما أن تقدم طابور هنتر في اول مارس لاحتلال عكاشة الا وثرامى الخبر لود بشاره في رئاسته بدنقلا . والواضح من مراسلات ود بشاره مع الخليفة ، ومع قائده في فرقة . ان ود بشاره تمكن من تنظيم شبكة استخبارات دقيقة افلحت دائما في تقديم تحليل صحيح للاحداث . فزيارة السردار للحدود في فبراير قبل شهر من الغزو وصل خبرها لود بشاره وأشتبه في أنها تمهيد لتقدم السردار وسارع وطير الانباء لامدرمان طالبا التعزيز . وموضحا للخليفة انه بدأ في نشر شبكات الاستخبارات لمعرفة نوايا العدو . فقد كتب للخليفة :

« بالنظر لانقطاع الخبر عنا من جهة الاعداء في هذه الأيام ولضرورة لزوم معرفة ما هم عليه من الاحوال قد وجدنا من أهالي السكوت رجل يدعى مبارك محمد له منزل هناك وتوسمنا فيه الصديق وعينا معه نحو السبعة جمال من الانتصار ليتوجهوا مابين مكركى وصواردة ويتزلوا هناك ليلا على الاهالى وبواسطة مبارك المذكور يستحصل على خبر الاعداء وما هم عليه تفصيلا . »

وواقع الامر ان ود بشاره كان يعاني من عوامل مضادة عديدة . بالاختص من سلوك قادته ، فبعد تسلمه قيادة المنطقة من يونس ، وكان للاخير بالطبع

مراكز قوة كثيرة وسط الامراء ، لم ينظر اغلبهم بعين الرضى لاجراءات الحاكم الجديد الحاسمة ولا لاصلاحياته . وعلى الرغم من انه كان القائد الأعلى لكل المنطقة ، الا أن مقدرته على فرض كلمته على قادة مناطق كانت محدودة ، لبعد المسافات من جهة ، ولمركزية حكم الخليفة فى امدرمان من جهة أخرى . فیده مغولة عند اجراء أى تغيير فى القيادات أو حتى فى حرية التحرك لقيادة المعركة بنفسه الا باذن الخليفة من امدرمان .

كما توضح المراسلات ان حمودة ادريس اتعب ود بشارة تعباً شديداً . وقد وصل خبر التقدم لعكاشة لود بشارة قبل ان يصل لحمودة فى فرقة المتقدمة . وخطاب ود بشارة الذى ارسله لكل قادة النقاط المتقدمة فى ٢٢ مارس ليأخذوا حذرهم يوضح أنه لم يضع لحظة واحدة فى اعادة تنظيم دفاعه عن المنطقة بمجرد استلام انذار الخليفة له ، وخص حمودة قائد منطقة صواردة بالذكر .

والواضح ايضا ان ود بشارة كان يعرف صفة التواكل فى قائده المتقدم ، فحثه مرارا على اخذ المبادرة والبدء فى مهاجمة السردار وعدم الاستكانة والانتظار الى ان يهاجم ، ويمضى مباشرة الى ارسال منشور حماسى يقرأ على كل أفراد القوة . وعندما مر شهر ولم يحرك حمودة ساكنا اضطر ان يخطر الخليفة لكى يرسل منشورا عاما من امدرمان يقرأ على جميع المقاتلين فى منطقة دنقلا .

وقد حفل الشهر ان اللذان تليا احتلال السردار لعكاشة باكداس من الخطابات من ود بشارة الى حمودة ادريس ، موضحة من جهة أى كفاءة تنظيمية وادارية وملكات قيادية استمتع بها ود بشارة ، وموضحة من ناحية أخرى تقصير حمودة ادريس والمشاق التى تجسمها ود بشارة لخته على التحرك .

فراه فى ١٤ ابريل ٩٦ يرسل له وهو من الموقع المتأخر معلومات مفصلة عن توزيع قوات العدو ونواياه ، وتلمح فى ثنايا الخطاب انه يذكره بان هذا واجبه بصفته قائد القوة المتقدمة ويحثه على ارسال انباء مفصلة عن العدو .

وفى ١٧ ابريل يصل ود بشارة الى الدرجة التى يعرض فيها على حمودة خططا متتالية لمهاجمة العدو يخوض فيها فى تفاصيل تكتيكية كثيرة ، مثل التوقيت

الليلي، وتخصيص القوات، وواجبات محاور الهجوم، ويركز على ضرورة قطع خط امداد السردار والسكة الحديد. وفي ٢١ ابريل عبر ود بشارة لحمودة عن مخاوفه في سرعة تقدم السكة حديد وان السردار سيتقدم (١) ويحتل السكوت بعد اسابيع. ويشدد فيه على حمودة ضرورة مهاجمة السردار قبل ان يكتمل حشده.

وأخيرا تحرك حمودة. فقد هاجم قافلة السردار نفسه يوم ١ مايو وهو يتقدم لعكاشه. كان حشد حمودة مفاجئا لطلائع استكشاف السردار وكاد الهجوم ان يبيدها ليندفع لمهاجمة السردار نفسه وهو في موقف عصيب، اذ كان اقرب تعزيز يبعد اميالا عن مكان الاشتباك. اصر يوسف عنقرة قائد الجهادية على مواصلة الهجوم، ولكن حمودة امره بالانسحاب والعودة (٢). فرفض يوسف الانصياع ولكنه رضى في نهاية الامر. وبعد العودة لفركة قل احترامه لقائد المنطقة، وبدأ في تحديه والتحرش به جهارا، مما اضطر حمودة للتبليغ عن سلوك قائد الجهادية لود بشارة.

كان رد ود بشارة ردا مطولا، اوضح انه قد ينس اخيرا من حث همة قائده المتقدم، وعلى الرغم من انه لم ينصر يوسف عنقرة على حمودة صراحة الا ان تأييده لصحة اجراء يوسف تلمحها بين ثنايا السطور. واستمر ينصح حمودة في طريقة معاملة الجهادية. وعاد محاولا تنظيم دفاعات حمودة بنفسه وهو يوضح لحمودة الطريقة المثلى في تنظيم عمليات الامداد وتوزيع الذخيرة ووضع المدفعية.

(١) حتى ونجت لم يستطع اخفاء اعجابه بمخابرات ود بشاره وصدق حرمه بعد عثوره على خطابات ود بشارة في فرقة وترجمتها للإنجليزية.

"The God Forsaken Sirdar intends to occupy Sukkot in seven weeks time" It was occupied exactly six weeks after this letter was written".

Intelligence Report, Egypt, No 48

From 22nd May to 21 June 19 1896

« ان السردار الملعون ينوى التقدم واحتلال السكوت في خلال سبعة أسابيع » احتلت بعد ٦ أسابيع بالضبط من تاريخ الخطاب.

(١) اشترك في هذه العملية المؤرخ محمد عبد الرحيم وجرح فيها ويؤكد انهم كادوا ان يبيدوا حرم السردار لولا أوامر حمودة لهم بالانسحاب.

محمد عبد الرحيم المجلد الرابع - تاريخ المهديّة - « ضرب المؤلف »

وبعد تأزم الامور بين يوسف عترة وحمودة ، عمد ود بشارة العزم على تولى القيادة في المنطقة الامامية بنفسه وتحتية حمودة عن منصبه ، وكتب للخليفة في أول ربيع أول مستأذنا في التحرك لقيادة منطقة صواردة الامامية :

« وما حمل عبدكم على طلب الاذن للقيام مع الجيش بنفسه الا لكون ترى لنا ان قيام الجيش بدون حضور عبدكم فيه بنفسه لا يحصل منه المطلوب والاخوان مظنونين فيهم بالخير والشجاعة الا انهم في حالة الخرابة وتدبيرها لا يتأتى لهم انحرام امر الجيش وثباته الا بوجودنا فيه » .

والى ان يستكمل حشد القوات اللازمة والتعزيزات في دنقلا العرضى ، سارع في ارسال اكثر قادة الجبهة الشمالية ملاءمة للظروف التى تتطلب ايجابية وحسما وروحا عدائية ، وهو الامير عثمان ازرق . تحرك عثمان ازرق بربعة للانضمام لحمودة ، وسارع ود بشارة باخطار الخليفة بالتغيير الحديد طالبا موافقته . وفي ٢٧ مايو ارسل خطابا لحمودة وعثمان ازرق يحثهما فيه على التعاون ، وهو يحثى اعلان تحية حمودة صراحة . ولكن قبل وصول خطابه لحمودة وصل رد الخليفة كافيا اباه مشقة الالف والدوران . فقد وافق الخليفة على تعيين عثمان ازرق فوراً وبدون تردد .

سادت رنة الارتياح امر التعيين المرسل لعثمان ازرق من محمد بشارة بتاريخ ٢٨ مايو . بدأه ود بشاره مهنتا عثمان ازرق بالمنصب الحديد ، حامدا ربه على استجابة الخليفة لطلبه بتعيينه قائدا للمناطق الامامية ، موضحا انه عندما عزل صالح الزبير وعين حمودة مكانه ، كان يظن فيه الكفاءة ولكنه لم يؤد واجباته على الوجه الاكل وتجاهل اوامره وتعليماته القتالية مرارا . ومضى محذرا عثمان ازرق من ان لحمودة مؤيدين كثيرين خاصة والمنطقة حافلة بكثير من التعايشة وهم كلهم يطمعون في هذا المنصب منذ زمن ، وازرق لابد سيصبح هدفا وضحية لحسد الكثيرين . ويرجوه ان يخاف الله ولا يتخذله فان اى فشل أو تقصير من جانبه ستكون نتيجته وبالا على رأس عثمان وعلى رأسه هو نفسه « أى بشارة » .

وأثبتت الايام صدق نبوة ود بشارة فعلى الرغم من خطاب ود بشارة الا ان

قرائن الاحوال دلت على ان عثمان ازرق قاسى كثيرا من طاعة الامراء (١) .
وبعد انضمام عثمان ازرق كان تكوين حامية فرقة كالأتي :
— عثمان ازرق قائد الحامية

المشاة « السلاح الابيض » :

- أ — راية الهبانية ٣٣٦ مقاتل بقيادة حمودة ادريس .
ب — راية الدناقلة (٤٤١ مقاتل) بقيادة كرم الله كركساوى
ج — راية الجعليين : تحت قيادة محمد عبد الحلیم (٢٤٥ مقاتل)
الجهادية : تكونت من جماعتين سلحوا بالبنادق :
الجماعة الاولى : ٤٠٠ مقاتل تحت قيادة يوسف عنقرة .
الجماعة الثانية : ٢١٠ مقاتل تحت قيادة دودو بدر
الفرسان : ٢٥٠ فارس تحت قيادة الامير جبير
المهجانة : ١١٠ حمال ٧٢٠ بندقية ٥٠ صندوق جبخانة .

٥٥ ٥٥ ٥٥ ٥٥

فى اوائل يونيو مهد السردار لتقدمه باعلان الحرب الدعائية وتوزيع
المنشورات ضد الخليفة :

(١) يخالف محمد عبد الرحيم الذي اشترك فى معركة فرقة معظم المؤرخين الذين اتفقوا على ان قائد
معركة فرقة كان حمودة ادريس . وينا يؤيدهم تقرير المخابرات المصرية رقم ٤٨ نجد ان تشرشل
يتشكك فى هذه النقطة :

Whether Osman Azrak had actually assumed command on the sixth
of June is uncertain. It seems more likely that Hammuda declined to
admit this right, and that the matter rather stood still in dispute.

« لا يمكن الجزم بان عثمان ازرق كان متوليا القيادة الفعلية فى يوم ٦ يونيو . ومن المرجح
ان حمودة لم يتنازل عن القيادة لا زرق وان امر القيادة العليا لم يحسم وظل معلقا للنهاية » .

أما المؤرخ محمد عبد الرحيم فيحدد هذه النقطة بما لا يدع مجالا للشك :
ولقد عقد عثمان ازرق مجلسا دعا اليه الا مرء وبعد المناولة قرر المجلس لكل أمير ناحية .. »

Intelligence Report No 48, annex 3

Churchill, Winston, *The River War*, Vol, I (London) 1899, p. 221

محمد عبد الرحيم — المهدية — المجلد الرابع — موقعة فرقة .

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين اما بعد، فغير خاف على الحكومة ان الذى حملكم على شق عصا طاعتها انما هو تصديقكم دعوى محمد احمد المتهدى وقد اتضح لكم الآن ان تلك الدعوى لم تكن من المهديّة بشئ بل هي ثورة دموية افضت الى ملك جائر يتولاه الآن عبد الله التعايشى الذى عزل كل امير من غير اهله وولى اهله فاستبدوا بكم . ولما رأّت الحكومة سؤ مصيركم ارسلت الآن جنودها الجرارة لانتشالكم من وهدة الضلال التى اوقعكم فيها المتهدى وانقاذكم من الظلم الذى تقاسونه فى عهد خليفته التعايشى . وقد كان من مبتدعات المتهدى وخليفته هذا منع الحج الشريف مع انه فرض وجب على كل من استطاع اليه سبيلا . ثم ان كلا منهما فسر القرآن على رأيه وهواه واستنبط احكاما شرعية كما اراد ومنعكم قراءة كتب الحديث والتفسير فضلا عما يأتيه التعايشى الآن من جمع المال، وتفريق كلمة الاسلام، وهتك الاعراض، وظلم الفقراء، وهدم البيوت الكبراء، وبعد ان كان رجلا مسكينا لا يملك شروى فقيرا استأثر باموال الرعية كلها وسكن القصور المشيدة واتخذ نساء المؤمنين سراى له واستحل وطأهن بلا عقد ولا ملك يمين وهو مع ذلك يدعى بازهد والمسكنة ويتنعم سرا بكل ما تطيب به نفسه وتقر عينه وهو ظالم غشوم ماتكم احد بالحق الا قتله أو سجنه أو نفاه . وقد سجن الخليفة شريفا واهان الخليفة ود حلو واولاد المهدي وقتل ابراهيم عدلان واقارب المهدي مثل عبد القادر ود سائق، ومحمد عبد الكريم واخوانهم، سجن الزاكي طملى، والقاضى احمد، والحسين الزهرة، أماتهم جوعا . وخرّب مساجد المسلمين كمساجد الحسن الميرغنى واولاد نور الدائم والشيخ العبيد والشيخ حمد النيل العركى . ونفى امراء الجعليين مثل بدوى ود العريق وغيره وبذلك اسخط جميع العالم الاسلامى واصبحت مكة المشرفة وكرسى الخلافة العظمى تنظر الى عمله بعين المقت والكراهة . ولما رأى ولى النعم خديونا المعظم عباس حلمى الثانى ان جرائم هذا الطاغية تزداد يوما بعد يوم أخذته الشفقة على المسلمين المظلومين وصمم على انتقاذهم من الظلم فارسل جيوشه المظفرة لكى تهدم اركان دولة التعايشى وتقيم حكومة شرعية مؤسسة على العدل والاستقامة وتبنى المساجد وتعين على نشر الدين القويم . وقد اصدر سموه عفوه التام على جميع

ذنوبكم وامر برد املاككم . وهو يدعوكم الى استقبال جيوشه بالترحيب فاذا قبلتم الدعوة وعرفتم قيمة الانعام كنتم انتم الراجين الناجين والا فالويل لمن رفض نعمة ربه وكرم خديونا المعظم وباسمه الى الرجاء الوطيد ان اراكم قريبا طائعين ومعصدين للحكومة الحديوية والسلام . يونيو سنة ١٨٩٦ . الامضاء كنشور قائد جيوش حملة السودان وسردار الجيش المصرى » .

وفى الرابعة مساء ٦ يونيو بدأ تقدم السردار جنوبا عبر الطريقين اللذين يقودان لفركة فى الشمال وهما طريق الصحراء وطريق النيل . قرر السردار التقدم والهجوم بمحورين مستغلا كلا الطريقين . على ان تتقدم القوة الرئيسية المكونة من كل مشاته بطريق النيل مباشرة للهجوم على فركة باقنحام امامى مباشر ، بينما تتقدم كل قواته الراكبة بطريق الصحراء وتلتف التفافا واسعا حول فركة وتحتل مواقعها خلف الحامية لقفل طريق انسحابها للجنوب والغرب .

تكونت قوات محور النيل من فرقة المشاة ، سرية المدفعية الثانية والثالثة ، مدفعى مكسيم ومستشفى ميدان تحت قيادة السردار . كان ترتيب السير لمحور النيل كالآتي :

اللواء الأول فى المقدمة
مدفعى مكسيم بطاريتى مدفع
اللواء الثانى
اللواء الثالث — الكتيبة الثالثة
مستشفى الميدان
الكتيبة الثالثة حرس مؤخرة
أما محور الصحراء بقيادة ميجور بيرن مردوخ فتكون من :

سرية مدفعية الخيول

٨ سرايا فرسان

٨ سرايا هجانة

الكتيبة السودانية الثانية عشرة « محملة على الجمال »

٢ مدفع مكسيم عناصر طبية

استمر تقدم السردار ، ومشاته يتعرون وسط الصخور حتى الساعة العاشرة والنصف مساءً حين توقف محور المشاة في قرية ساركمتو على بعد ثلاثة أميال من فركة . في هذه الاثناء كان طابور الصحراء الراكب يعبر الصحراء في رحلته الطويلة عبر الصخور الحادة . توقف في الساعة الثالثة صباحا على بعد ٣ أميال جنوب غرب فركة حيث تركت الجمال التي حملت كتية المشاة في حراسة صغيرة وبدأ التقدم نحو فركة .

* * * * *

تنحصر قرية فركة بين ثلاثة هينات طبيعية ويوفر موقعها مزايا دفاعية واضحة . ولكن هذه المزايا كانت سلاحا ذو حدين . فهي تضمن لمن يحتلها موقعا دفاعيا مبنعا ، ولكنها من الناحية الأخرى تجعل الموقع الدفاعي مصيدة للموت اذا تمكنت القوات المهاجمة من احتلال هذه الهينات المرتفعة .

فقريه فركة تنحصر بين جبل فركة من الشمال الشرقي ، وسلسلة من الجبال المتفرقة تضغط على البيوت من جهة الجنوب الغربي ، والنيل من الغرب ، وخور الدومة يشقها من الجبال ليصب في النهر فاصلا بين جبل فركة والجبال الجنوبية . بينما امتدت منازل القرية بخذاء النيل لحوالى الميل بعمق يتجاوز ٣٠٠ ياردة .

كانت خطة عثمان أزرق هي الدفاع دفاعا حوليا متحصنا بجبل فركة من الشمال ، وسلسلة الجبال الجنوبية من الجنوب ، والنيل من الغرب . واتخذ هذا القرار بعد عقد مجلس حربي قبل ايام من المعركة كما ذكر محمد عبد الرحيم : «ولقد عقد عثمان أزرق مجلسا دعا اليه الامراء وبعد المداولة قرر المجلس لكل امير ناحية بدافع عنها عند حدوث الطوارئ . فعهد بالدفاع عن الجنوب (الجبال الجنوبية) الى كرم الله كركساوى (راية الدناقلة) والشرق (الجبال الشرقية والخور) الى يوسف عنقرة ، ودود بدر ، وحمودة ادريس (راية الجهادية والهبانية والفرسان) والشمال الى محمد عبد الحليم (راية الجعليين) لتغطية الممر الضيق بين

جبل فركة والنيل ، فاحتج الأخير قائلا انه ليس لديه عدا ٧٢ بندقية وربما جاءت جل القوات المصرية عن طريق النيل . فقال له حمودة : « اذا كان الامر كذلك فانا مستعد لانجارك » فاجاب محمد الامين عبد الحليم « لاينتظر ان يلتفت احد الى أخيه فى مثل ذلك الوقت الرهيب » فامتعض حمودة وقبض بكلتا يديه على لحيته وقال له « ان لم انجذك فى مثل هذا الوقت خيب الله هذه » .

ولكن ميزة موقع فركة الحصين انقلبت وبالا على المدافعين . فخطتهم اعتمدت على تحرك قواتهم من مساكنها داخل القرية واحتلالها لمواقعها المحددة بعد انذار مبكر من نقاط المراقبة ، سواء فى جبل فركة أو فى الجبال الشرقية . وهو امر مستطاع وطبيعى . وقد ظلت نقاط المراقبة والديدبانية تحتل تلك الجبال لسنين طويلة . وكانت قمم تلك الجبال بارترافعاها وتحكمها تمثل نقاط مراقبة مثالية . ولكن غفلة واهمال ديدبانية نقاط الملاحظة فى فجر ذلك اليوم مكنت السردار من الاطباق على فركة والمدافعين فى لحظات الاضطراب وهم يتدافعون لاحتلال مواقعهم الدفاعية بعد تناول اسلحتهم وذخيرتهم من مخزن الذخيرة الذى فتح ميرغنى سوار الذهب « امين بيت المال » بابه على مصراعيه . ولم يتمكنوا ابدا من احتلال مواقعهم . وبذلك اصبحت فركة بعد ان احتلت رشاشات ومدفعية السردار الجبال العالية ، ووجهت نيرانها نحو القرية المنعزلة وسط الجبال ، هدفا مثاليا محصورا .

فعندما بدأ الاقتحام فى الساعة الرابعة صباحا ، سرعان ماشق السكون دوى النقارة الذى وصل لآذان السردار والويته المتسللة المتلفحة بظلام الليل ، وظن ان هجومه الليلي الصامت قد انكشف ، وأمر بالتوقف على بعد ميل من جبل فركة . ولكن دوى الطبول سرعان ماتلاشى ، فقد كانت تلك نغمات النقارة التى تضرب كل يوم لتنبه المقاتلين للصلاة ، وبعد الصلاة يتجمعون بالرايات على ضفاف النهر ويجلسون جماعات لقراءة الراتب . ويتوقف دوى النقارة استأنف السردار تقدمه نحو القرية . وصل لواء لويس الى الممر الضيق المنحصر بين النيل وجبل فركة وبدأت كتائبه تتدفق عبر الممر للفضاء المتسع الذى توسطته القرية . وهنا فقط تنبهت نقطة المراقبة فى قمة الجبل بعد ان تجاوزتها طلائع لويس ، واطلقت طلقة واحدة

شقت سكون القجر . سرعان ما جاوبتها الجبال باصداء انفجارات المدفعية من بعيد - من الجنوب الشرقي - كانت تلك مدفعية الخيول - اذن نجحت العملية الهجومية ، فقد تطابق وصول محور النيل ومحور الصحراء في لحظة واحدة ، وكانت المفاجأة كاملة . احتلت مدفعية ورشاشات السردار كتف جبل فركة الايسر ووجهت نيرانا مركزة فوق رؤوس المشاة المقتحمين نحو المقاتلين والجهادية وهم يتدافعون لاحتلال مواقعهم .

اندفع الجهادية وراية الهبانية نحو سلسلة الجبال الشرقية ، وراية الجعليين والدناقلة نحو الممر الضيق لايقاف تدفق ألوية السردار ، ولكن فوات الأوان ، فقد اتجه اللواء الاول بقيادة لويس لجهة النيل في مواجهة عريضة نحو الجبال الغربية مباشرة حيث بدأ الجهادية والهبانية في التجمع . وقبل احتلالهم لدفاعاتهم المبنية على ضفاف خور الدومة ، وتحت غطاء نيران المدفعية والرشاشات ، تمكن لواء ماكدونالد من اجلائهم عن الجبال لينسحبوا نحو القرية . ولم تفلح هجمة الفرسان التي قادها حمودة ادريس ويوسف عنقره بكل خيالاته في تحطيم موجات الاقتحام بعد أن تقدم اللواء الثالث وسد الثغرة بين لواء لويس وماكدونالد . وتلاشى هجوم الخيالة بعد سقوط اغلب الفرسان وقتل حمودة ويوسف عنقره . . لقد أوفى حموده بوعده لمحمد عبد الحليم بأنه سينجده مهما كانت الظروف . بعدها انثنى لواء ماكدونالد وماكسويل للدخول نحو القرية في اتجاه النيل وانتظمت الالوية الثلاثة في مواجهة اقتحام عريضة .

سقط جواد عثمان أزرق تحته وهو يندفع لتنظيم عملية الدفاع ، وأدرك بلمح البصر أنه يخوض معركة خاسرة يائسة . فقد وجد نفسه محصورا في أرض منخفضة ، ويواجه عدوا متفوقا لا قبل له بمواجهته ، نتيجة لاهمال عناصر الانذار . وأدرك ان واجبه الاول هو سرعة الانفصال من العدو واستخلاص اكبر قدر من جنوده والانسحاب بهم من مصيدة الموت . وبدأت عملية الانسحاب كما وصفها محمد عبد الرحيم « ومن ثم وهنت عزيمة رجالنا وصرع ٨٠٠ منهم ووقع ٤٥٠ في مغالب الاسر واضطر الباقون الى الهزيمة فسلطنا طريقنا بين النهر والقيف وهجمت الأرض على القيف تطلق النار علينا وهكذا اندفعنا نحن ولما وصلنا خور الدومة وجدنا

سدا منيعا من الجنود فاقطحنا نيرانها وفتحنا فرجه بينها باشفار السيوف حتى خرجنا من محيط النار وقد نجا ٤٨٠ رجل كان منهم ٢٨٠ جرحى » .

وبينما كانت ألوية السردار تتقدم نحو القرية وجه عثمان أزرق أغلب جهده لتنظيم الانسحاب ، بدأ أولا فى ترحيل العوائل على المراكب التسعة التى ألقت مراسيها على الشاطئ خلف الديم . ثم جمع كل من بقى من الاحياء والجرحى من بقايا حامية فركة وانسحب بهم جنوبا ، وانتهاز فرصة الظلام لتنظيم عبور النيل بمراكبه التسعة نحو صواردة .

ولم يعبر عثمان أزرق بنفسه الا ليلة الثامن بعد أن تأكد من عبور الجميع . فجمع قوته فى كدين - مكان صومعة غلال الحامية - وسارع فاستدعى حامية أبو فاطمة لتعززه . وبدأ فى اعادة تجميع قلوبله بعد أن ارسل العوائل لدنقلا ، وبعث فرسانه للامام للاستكشاف البعيد .

افادته طلائع الفرسان بان طابورا ضخما من القوات الراكبة يتقدم نحو كدين . فأخلاها بعد ان احرق كل الغلال قبل ربع ساعة بالضبط من وصول العدو ، وانضم لود بشارة فى دنقلا .

بلغت خسائر حامية فركة ٨٠٠ قتيل وجرح ٥٠٠ واسر ٦٠٠ اغلبهم من الجهادية . اما السردار فقد فقد ٢٠ قتيلا و ٨٣ جريحا . وقتل فى المعركة من الامراء :

الامير حمودة ادريس (١) الامير ابو القاسم النويرى « ربع البقاره » ، الامير يوسف عنقره « جهادية » ، الامير الحاج عبد القادر « ربع الجعليين » .

تقبل ود بشارة انباء هزيمة فركة بثبات ورباطة جأش . ولم يضع دقيقة واحدة فى الاستعداد لمواجهة العدو فى لقاء فاصل . وامضى الشهور الثلاثة التى أعقبت

(١) تذكر مخطوطات على المهدى « وبعد نهاية المعركة جاء سلاطين باشا بيته ار كانحرب الجيش المصرى وتفقد المقتولين فلما تبين السيد موسى كاظم لفه فى قماش ولف معه بابكر ود كوكو وصب عليهم الجاز واحرقهما » أما بابكر فهو أحد الذين اشتركوا فى قتل غردون كما اوضحنا من قبل . أما موسى الكاظم فالروايات المحلية تذكر انه هو الذى كلف بختان سلاطين بعد اسلامه .

جهاد فى سبيل الله - ص ٢٠٢

انضمام عثمان أزرق في نشاط مستمر . توزع بين مواصلة بعث عناصر استطلاعها وهي تعمل بكفاءتها المعهودة في تحرير المعلومات ومتابعة العدو خطوة بخطوة ، وبين استكشافه الشخصي لمئات الاميال شمالا ليختار بقعة مناسبة لمواجهة تقدم العدو ، وبين مراسلة الخليفة طالبا سرعة ارسال التعزيزات الموعودة .

تواترت خطابات الخليفة في شهر سبتمبر لود بشارة . ففي ١١ سبتمبر اوضح الخليفة وجهة نظره في الدفاع عن دنقلا ، وهي مواجهة العدو مواجهة فاصلة ، وحشد كل قوته في مكان واحد ، والتخلي عن تقسيم قوته في نقاط متعددة . وقد أحس الخليفة بحساسية اهل الشمال واهمية جمع صفوف اهل المنطقة لمواجهة الغزو فأرسل خطابا لحسن ود النجومي امير الجعليين في ١٣ سبتمبر حاثا اياه على الجهاد وتوحيد كلمته مع ود بشاره .

واستجابة لنداءات ود بشارة المتواصلة بطلب التعزيز بعث له الخليفة مساعد قيدوم ، خصم ود النجومي القديم ، ان كان تخلصا منه بعد هزيمة اغردات أو لمراقبة الاحداث وتبليغها له . كما ابلغه في ١٨ اغسطس انه سيبعث له باقي النجدة بقيادة عبد الباقي عبد الوكيل .

وثناء استكشافه الشخصي المتواصل . وبعد تمحيص معلومات الاستطلاع توصل ود بشارة الى ان افضل موقع ينتظر فيه عدوه هو حفير مشو على الضفة الغربية ، كما اوضح في خطابه للخليفة المؤرخ نهاية صفر ١٣١٤ هـ ٩ اغسطس ١٨٩٦ :

« قد رأينا أننا إذا تحركنا بهم نحو الأعداد عند حصول الحركة من قبل الاختيار ومعرفة حال الرجال لايتأتى وقتها الامر نظرا لحصول الاستعجال ولذلك اتفق الحال على قيام الجيش في واسع الوقت الى جهة الحفير المحل الذي فيه الحيل الآن بالغرب قصاد كرمة لاجل التحزب والاستعداد هناك وقد كان قيام أربعة ارباع امس تاريخه . . . »

بعدها ارسل ود بشارة في اواخر يونيو ربعا كاملا كمقدمة لبناء الاستحكامات في كرمة والحفير . وقد استقر رأيه على الدفاع شرقا في كرمة

وغربا فى الحفير حيث يبلغ عرض النيل ٦٠٠ ياردة ، أقصى مدى لمدفعيةته الموجهة نحو بوارج العدو . وبدأ فى بناء الطوابي فى همة ونشاط . كان طول كلا الموقعين حوالى نصف الميل . بنى ثلاث طوابي ليحصن فيها مدافعه الستة . وبين المدافع وحول الطوابي حفرت الخنادق لحملة البنادق ليحتموا داخلها ، بينما كفلت اشجار النخيل الغزيرة على امتداد الشاطئ وهى تحيط بالطوابي ساترا ومكنا لبقية حملة البنادق .

ما أن اكتملت الطوابي ، حتى أمر ود بشارة عثمان أزرق بالتحرك بمعظم القوة والمدافع على أن يلحق بهم بمجرد وصول التعزيز من امدرمان . على أن يعبروا بعد وصوله لجهة الشرق لمواجهة مشاة العدو . ليصبح العدو وبوارجه محصورا فى ذلك المكان الضيق بين الضفة الشرقية والغربية .

كانت الشهور التى أعقبت فرقة اتعس شهور السردار . وتلك الايام وما اتسمت به من سوء طالع مضت وكأنها كانت لتنتفى الاسطورة التى انتشرت فيما بعد عن « حظ السردار » و « نجم السردار السعيد » وأنه أكثر القادة البريطانيين حظا : فقد كان الهدف الثانى للسردار هو دنقلا العرضى ، وقد عزم على التقدم نحوها بأعظم قوة وبكل بوارجه المدرعة السريعة الجديدة بتسليحها القوى « طولها ١٤٠ قدما وعرضها ٣٠ قدما . » عبر الشلال الثالث بصخوره البارزة الكبيرة وحيث يضيق عرض النيل الى ٤٠ قدما . لذا كانت الوثبة الاولى نحو دنقلا هى مد خط السكة حديد الى كوشة بعد الشلال كما أسلفنا ، ثم انشاء ورشة لتركيب اجزاء البوارج التى وصلت من لندن مفككة ليتم تركيبها وانزالها للماء حيث يمكن ارتفاع النيل من عبور الشلال ، والتقدم مباشرة نحو دنقلا .

ولكن حساب السردار الدقيق الذى اشتهر به لم يضع اعتبارات عديدة طارئة . فقد كان هناك عدوا اخطر من ود بشارة ، بدأ فى الفتك بصفوفة – الكوليرا . لقد وصل الوباء عبر خطوط امداد السردار من حلفا بسرعة رهيبه لمعسكر كوشة ولم تتركهم الكوليرا الا بعد أن بلغ حصاها ٧٨٨ توفى منهم ٦٤٠ جندى .

وبعد القضاء على الوباء بدأ السردار فى التقدم جنوبا نحو دنقلا مختصرا النفافة

النيل الكبيرة من كوشة الى اب سارات بتقدم عبر الصحراء - قاست فيه الوية المشاة من العطش وضربة الشمس . واشتهر ذلك التقدم الصحراوي باسم مسيرة الموت "Death March" ووصلت انباؤه للندن وهاجمت الصحافة البريطانية السردار متهمة اياه بالاهمال والتقصير .

ومن المعروف للملاحين في الجزء الشمالى من السودان ، ان الرياح الجنوبية لفترة شهرين تعكس اتجاهها فجأة من الجنوب للشمال لتهب من الشمال للجنوب ، عكس تيار النيل . وقد اعتمد جزء كبير في خطوط تموين السردار على مراكب الاهالى الشراعية . وما ان هبت نسائم الرياح الشمالية ليومين أو ثلاثة الاوغادت ، مخالفة عاداتها لمئات السنين ، وهبت من الجنوب لتزيد في ربك حسابات وتقديرات السردار .

أما الضربة الرابعة التى واجهها السردار فقد كانت موجعة حقا . فقد وضع املا كبيرا على الدور الذى ستلعبه الباخرة « الظافر » بتسليحها القوى من مدفعية ورشاشات وحمولة المشاة بالإضافة لدرعها السميكة الذى يمكنها من الاقتراب لاي مدى من العدو وصب نيرانها الهائلة عليه . وكان معسكر كوشه يرقب باعجاب نمو جسد الباخرة يوما بعد يوم ، الى أن تم تدشينها .

وانزلت للماء وسط التصفيق الحاد . وبدأ المتفرجون يستمعون بطرب لهدير محركها . . ولكنه صمت فجأة بعد دقائق . فقد انفجر احد مراجلها الرئيسية . وعند السؤال أفاد المهندسون أنه لا بد من طلب قطع الغيار من لندن . وكان هذا يعنى ضياع فرصة ارتفاع النيل وبالتالي عدم تمكن السردار من الاستفادة من ركيزته القوية اسطوله النهري - فى التقدم النهائي لدنقلا . فتركت الباخرة فى كوشه .

ولم يكن ود بشارة غافلا عن لحظات ضعف السردار هذه ، وادرك بحاسته الاستراتيجية الصادقة انها اكثر الفترات ملاءمة لتوجيه الضربة القاضية له فكتب للخليفة فى ١٨ صفر ١٣١٤ (٢٩ يوليو ١٨٩٦) طالبا السماح له بالتقدم شمالا :
« . . . نعرض سيدى ان الاعداء على ما قيل صاروا فى مضايقة لكثرة

من مات منهم بالوباء وحاصل فيهم القتل ولاسيما أنهم بجهة صوادة مقيمين بدون استحكام . . . ان وافق يصدر الاذن لعبدكم بان تأخذ من معنا من الجيش ونتوجه بهم لاجل ضربتهم بجهة صوادة عسى أن نجد فيهم الفرصة . . . »

ويبدو أن الخليفة امره بانتظار التعزيزات المرسلة من أم درمان ، فلم يتحرك ود بشارة للحفير الا بعد ان وصلت طلائع التعزيزات .

أما السردار فقد بدأ تقدمه نحو دنقلا يوم ٣ سبتمبر . وبينما كان فرسانه ومشاته يتقدمون على ضفة النيل الشرقية ، كان اسطول النهرى يتعثر وسط صخور الشلال الثاني . ربطت كل باخرى بحبال وجنازير حديدية امتدت الى الشاطئ حيث امسكت بها أذرع الفين من جنود السردار لجرها عبر الشلالات . استغرق عبور الاسطول اسبوعا بأكمله .

وصلت طلائع ألوية السردار الى دنقلا فى الخامس من سبتمبر . وهنا بدأ التجمع النهائي - على أن يلحق بهم السردار بالاسطول النهري يوم ١٢ سبتمبر . وبعد انضمام اللواء الرابع الذى وصل من القاهرة حديثا ، بدأ التقدم النهائي نحو كرمة حيث شاهدت مصادر الاستطلاع استحكامات ود بشارة . وصلوا الى كادومة يوم ١٣ سبتمبر ، والغريق يوم ١٤ ، ويوم ١٥ حدث اول اتصال مع عناصر الاستطلاع من فرسان ود بشارة . وفى يوم ١٨ احتل السردار بلدة ساردك وبات ليلته على بعد ٤ اميال من كرمة ، حيث وصلت طبول ود بشارة الى آذانهم . وقبل فجر اليوم التالى بدأ تقدم السردار نحو كرمة فى تشكيل الاقتحام بمواجهة عريضة نحو طابية كرمة ولكن عند دخوله اياها وجدها . . . خالية .

اثبتت معركة الحفير وماتلاها من أحداث قبل سقوط دنقلا أن سلاطين لم يبالغ أو يبتعد عن الحقيقة كثيرا عندما وصف ود بشارة بأنه أكثر قادة المهديّة الشبان كفاءة . فبعد نظره الاستراتيجي وكفاءته التكتيكية وهو يدير معسارك دنقلا مواجهها عدوا يتفوق عليه اضعافا ، ومواجهها حشدا هائلا للتيار من عدو تسليح باحدث وأقوى ما انتجته المصانع الاوربية من أسلحة الدمار ، ومتمغلبا فى نفس الوقت على سليلات قادته ، يبرزان دائما كدليل ناصع على مقدرته وكفاءته

وحتى بعد معركة فركة وانضمام فلول حموده اليه كانت كل قوة ود بشارة
لا تتجاوز ٥٦٠٠ مقاتل توزعت على النحو التالي :

محمد ود بشارة — قائد المنطقة

مساعد قيدوم — قائد ثاني

تكونت حامية دنقلا من ٤ أرباع من حملة السلاح الأبيض وجهادية
وملازمين وفرسان ومدفعية :

أ — أرباع حملة السيوف والحراب (٢٨٠٠ مقاتل)

١ — الربع الاول : ربع التعايشة : — تحت قيادة الامير احمد منجى تكون
من رايات القبائل المذكورة : تعايشة ، رزيقات ، اولاد حامد ، زغاوة ،
مسيرية ، معاليا ، تراجمة ، كنانة ، بقودهم ٢٣ أميراً (١١٦٥ مقاتل) .

٢ — الربع الثاني : ربع الهبانية ودغيم تحت قيادة حامد رقيات — تحت
قيادته ١٦ اميراً تكونت راياته من القبائل التالية : هبانية ، حمر ، دغيم ،
بطاحين ، عمارنة (٨٧٠ مقاتل) .

٣ — الربع الثالث : ربع الدناقلة تحت قيادة عثمان ازرق ، تكون من
الدناقلة تحت قيادة ٧ امراء و ٧ رايات مختلفة (٣٥٠ مقاتل) .

٤ — الربع الرابع : ربع الجعليين والشايقية (١١٢٠ مقاتل) .

ب — رايات الجهادية : ٩٠٠ مقاتل .

الربع الاول : تحت قيادة الامير مرشود ، ٣ رايات تحت قيادة ثلاثة «رأس
ميه » آدم برنجى ، جوهر ، سليم .

الربع الثاني : تحت قيادة الامير جلال ، تحت قيادته ٣ رؤوس ميه ، عبد
الرضى رزق الله حامد ، آدم النبل .

الربع الثالث بقيادة الامير دودو بدر ، تحت قيادته ٢ رؤوس ميه عبد الله
عبد حسب الله فوراوى .

ولكل قادة الارباع رايه ، ويساعد قائد كل ربع عدد من التعايشة كمدرين
وتعلمجية للجهادية .

ج - الملازمين ٨٠٠ مقاتل كلهم سلحوا بالبنادق - تكونوا من ٥ سرايا بقيادة
ود بشارة المباشرة بقيادة محمد ود العميد ، محمد ود جبريل ، محمد النضيف ،
محمد عبد الباقي .

د - المدفعية : ٦ مدافع جبلية ومدفع رشاش « نورد تلفت » تحت قيادة على
ريقون « مصرى » تكونت اطقم المدافع من مصريين أو باشيزق سابقين .

هـ - الفرسان ٦٥٠ فارس

و - الهجانة : حوالى ٢٦٠ هجاني للاستكشاف والمواصلات يساعدهم عدد من
الدلا .

ز - البواخر : الباخرة الطاهرة باخرة صغيرة سلحت بمدفع جبلى . قبطان الباخرة
حاج محمد ومهندسها عابدين نعيم مصرى .

ومع ارتفاع النيل وتواتر البلاغات من استخبارات ود بشارة عن اقتراب
السردار قرر التحرك لقيادة المعركة بنفسه . وهو يتأهب للتقدم شمالا . وصل
الامير عبد الباقي وهو يقود تعزيز الخليفة من ام درمان المكون من ربع جهادية
و ٥٠٠ من حملة السلاح الابيض . فأمرهم باللاحاق به فورا ، فقد أدرك ان اللحظة
الحاسمة قد دنت . وتحرك بالباخرة الطاهرة وقد حملها كل مدفعيته . وعند وصوله
لنقطة الحفير ارسل واستدعى قائد المقدمة عثمان ازرق من كرامة حيث احتل
الدفاعات الشرقية وعقد مجلسا لامراء الارباع . وبعد استماع المجلس لتقرير عثمان
ازرق عن العدو وعن تفوقه الماحق عددا وتسلحا ، احس انه من خطل الرأي
ان يدافع فى الضفة الشرقية لينحصر بين نارين ، العدو الارضى والبوارج .
فأستقر رأيه اخيرا على التعامل مع قسمى العدو كل على حدة : البوارج اولاً ثم
المشاة . فأمر بسحب كل نقاط الشرق فى مساء ليلة ١٩ سبتمبر . وعبرت قوات
عثمان النيل تحت ستار الظلام وانضمت الى ود بشارة فى الحفير .

أمضى ود بشارة أغلب ليلته فى تنظيم دفاعاته . واوضح سير المعركة فى
اليوم التالى أن كفاءته الادارية لا تقل عن كفاءته التكتيكية . فقد استفاد من اسطوله
النهرى البدائي لنقل وتكديس كمية ضخمة من ذخيرة المدفعية ، لتمكن مدفعيته
الضخيلة من الصمود لساعات امام مدفعية السردار . بينما جثم اسطوله الشراعى على

الضفة الغربية محملا بالنرة والمؤن لاعاشة الجيش لاطول مدة ممكنة .

بدأ حفر الخنادق منذ حلول الظلام لحماية حملة البنادق الذين وزعهم على خنادق الضفاف وعلى المتاريس ذات الفتحات وبين طوابي المدفعية ، وكن جزء كبير منهم وسط اغصان النخيل لتوجيه نيرانهم لاسطح البوارج وانتظر تقدم العدو .

بدأ السردار تقدمه في السادسة والنصف صباحا تسبقه زوارق المدفعية وهي تتقدم نحو مضيق النيل . أوقف السردار تقدم مشاته على النهر واحتلت مدفعية مواقعها . وفتحت نيرانها على دفاعات ودبشرة ، لم تستجب مدفعية ودبشرة للمدفعية السردار الارضية . فتقدمت البوارج « دال » و « عكاشة » و « ابو طليح » و « طماي » تحت غطاء المدفعية الارضية وهي تحمل سريتي مشاة نحو المجري الضيق حيث اخفى ودبشرة مدفعية ، وبدأت مدافع البوارج في قصف الطوابي ، ورشاشات المكسيم في الضرب على الخنادق . وما ان حازت البوارج الطوابي في مجرى النيل الضيق حتى انتهت عليها قذائف مدفعية ودبشرة التي خبئت بذلك ، فاصيبت الباخرة ابو طليح وطماي . وبعدها فتح حملة البنادق نيرانهم في اعالي اشجار النخيل نحو اسطح البوارج وحدثوا عدة خسائر في العدو . كان ضحيتهما قائد الاسطول النهري نفسه ، « الكابتن كلوفيل » . كانت مفاجأة للسردار فلم يتوقع ابدا ان تتمكن قوة صغيرة بدائية التسليح مثل قوة ودبشرة من الصمود امامه .

ولساعات طويلة استمر تراشق النيران ، من الفجر وحتى الرابعة مساء . كان مشهد المعركة اقرب للوحة فنية خيالية منها لمعركة حقيقية : جيش السردار وقد اصطلت الويتة وكتائبه على الشاطئ الشرقي وهي تقف متفرجة على المعركة المحتدمة بين الاسطول النهري ودفاعات ودبشرة وهي لاتستطيع حياها شيئا ، واسطول السردار النهري يتعثر وسط مياه النهر التي تحول سطحها المستوى ولونها الاغبر المخضب بطمي النيل الى هاويات وتلال مائية من الزبد والرداذ وشظايا مدفعية ودبشرة الشرسة التي لم تكف عن المجادلة والمبارزة طوال ذلك اليوم .

وعلى الضفة الغربية رفرفت عشرات الاعلام فوق صفوف ود بشارة
وأناشيدهم وتكبيرهم يطنى على اصوات المعركة ، بينما غطى دخان البنادق النهر
فى مواجهة طولها أكثر من نصف ميل لايقاطع دويها المتواصل الا سقوط احد
حملة البنادق من أعلى أشجار النخيل كالثمرة الناضجة بعد اصابته برصاص البوارج
أو صيحات ود بشارة الشجاع وهو يعبر خطوطه الدفاعية عشرات المرات بجواده ،
ليدير نيران المعركة ، والبوارج تتقدم لتتدف بضعه قذائف نحو الشاطئ ومع السيل
المنهمر من قذائف ود بشارة ، تضطر لتعود أدراجها الى احضان المشاة المأمونه فى
الضفة الشرقية .

أدرك السردار أن اسطوله النهري المدرع أضعف من أن يواجه مدفعية ود
بشارة ودفاعاته وبناذقه العتيقة ، فقد كان اختبار الامير لمواقعه الدفاعية رائعا ،
فابرزت المدفعية وبناذق المشاة أقصى فعاليتها ، وأدرك السردار ان اى محاولة
لعبور النهر بمشاته للضفة الغربية لمناطحة دفاعات ود بشارة فى الغرب ، سيدفع
فيها ثمنا فادحا . فقد اوضحت الساعات الماضية ان قوة نيران ود بشارة مؤثرة
للاغاية على اسطول السردار المدرع ، ولحأ السردار اخيرا لمناورة استراتيجيه ،
وقرر طعن ود بشارة من الخلف لايخراجه من ممكنه الحصين ، فأمر اسطوله
النهرى بالتقدم مباشرة نحو دنفلا متجاوزا دفاعات الحفير وبدون محاولة لاسكات
مدفعية الطوابي أو الاشتباك معها . ثم نقل السردار مدفعيته الارضية جنوبا الى ان
حازت مواقع ود بشارة وفتحت نيرانها لتوفر غطاء نيران يكفل ستر اندفاع
البوارج نحو دنفلا العرضى . فتجاوزت البوارج مواقع الحفير جنوبا نحو العرضى .

وكبقية قادة المهديه كان ود بشارة حساسا للغاية لخطوط مواصلاته وامداده
الخلفية . وظن ان السردار سيعقب بوارجه ويتقدم شرقا ويعبر الى العرضى ويستولى
على المدينة . لم يكن هناك حقيقة مبررا للمخاوف ود بشارة ، فلايمكن للسردار ان
يتقدم ويترك قوة معادية كبيرة لتهدد خطوطه الخلفية .

استمر تبادل النيران حتى العصر وقبل مغيبها اصابته احدى دانات المدفعية
خيمة ود بشارة وكان هو بداخلها يطلع على احدى خطابات الخليفة العاجلة فجرح
كما جرح عثمان ازرق . وعندما حل الظلام سارع ود بشارة بسحب جيشه وانطلق

جنوباً نحو دنفلا وخلفه صفوفاً طويلة من جرحى المعركة .

وعلى الرغم من أنه كان يعلم قبلاً من أن وقفته القادمة شبه ميثوس من نتيجتها ، إلا أنه قرر التوقف وإعادة تنظيم جيشه والدفاع عن مدينة دنفلا . وعندما وصل كانت البوارج قد سبقته وبدأت في قصف المدينة ، بدأ ود بشارة في إعادة تنظيم دفاعه ثم تحرك لديم جرادة شمال دنفلا وحصنه استعداداً لمقابلة العدو .

وفي منتصف ليلة المعركة - ليلة ٢٢ سبتمبر - عقد ود بشارة مجلساً لامراء الارباع ليتشاور معهم في تنظيم الدفاع . وما أن بدأ في صرف تعليماته للامراء الاواقاطعه حسن ود النجومى وقدم اليه اقتراحاً بالانسحاب كان الامراء قد اتفقوا عليه من قبل كما ذكر حسن النجومى لشقير بعد استسلامه : « عقدنا (١) نحن الامراء مجلساً دعونا اليه ود بشارة ثم قلنا له ياسيدنا اذا باشر احد الناس تجارة ثم تحقق انه خاسر لاحتالة أفلا يحجم عنها قال بلى . فقلنا له اذا كان هذا شأن الانسان والاتجار (١) فضايرت الروايات عن حقيقة انسحاب ود بشارة من دنفلا للذهاب فأوراق على المهدي تؤكد انه لم ينسحب ولكنه ارغم بعد اختطافه :

ولما رأى امراء الجيش عزمه للثبات للعدو اتفق منهم مساعد قيوم وعبد الباقي عبد الوكيل ومحمد جودة ومجبور شداد وأحمد الغال وأحمد منجى على أن يأخذوا أمرهم من محمد ود بشارة عنوة ويرغموه على الحرب فبلاغته أحدهم ويركب خلفه ويربطه على السرج ويحكم وثاقه ويمسك آخر عنان جواده وفعلوا أتموا فعلتهم وهربوا جميعاً حتى سقط جواد الامير محمد بشارة مرهقاً في أوزى فجددوه بآخر سقط في القولة فاركبوه على جمل واستمروا عارزين إلى أن دخلوا الدبة صباح الجمعة وتقدر هذه المسافة بثلاثة أيام .

جهاد في سبيل الله ص ٢٠٤

وتزيد الوثائق رواية على المهدي بالخطاب الذي أرسله ود بشارة للخليفة من المنة مبلغاً الخليفة تفاصيل الأحداث التي أدت لانسحابه . فود بشارة النبيل يرفض حتى هو يتعرض لاتهم بالجبن والمروء من العدو ان يسى بالآخرين ولم يقص ما حدث للخليفة الا مضطراً وبعد الاعتذار : « ان عيذك بحكم ارشادكم وثربيتكم له لا يتبني له أن يشغل بال سيده بالشكوى في حق الاخوان بحسب ما يتأتى منهم .. وتكلموا معي في قيام المركز من العرضى إلى جهة الدبة وعيذك توقف عن ذلك إلى ان قال من باب الارجاف ان جرادة الترك هذه هي الجرادة التي اشار عليها المهدي عليه السلام بوصولها لحد كبرى » .

خطاب محمد ود بشارة للخليفة المؤرخ ٣ جمادى ١٠ أكتوبر ١٨٨٦ / ١٣ / ٢ - ٣٣٧ - دار الوثائق المركزية .

وقد أثر إنسحابه في نفسه لحد بعيد فقد إنتشرت في أم درمان الأغاني والأشعار التي تعبير ود بشارة لقراره من ميدان المعركة .

فى المال فما قولك به والاتجار فى الارواح ؟ فأنت تعلم ان جيشنا كله من فرسان ومشاه نحو ٦٢٠٠ رجل وجيش المصريين ينيف على ١٥٠٠٠ ، ثم ان عدد بنادقنا ١٨٠٠ واما هم فكل رجل منهم مسلح ببندقية . فضلا عن ان بنادقنا من نوع رمتون وبنادقهم مارتين هنرى ، وعندنا من المدافع ٧ واما مدافعهم فتعد بالعشرات . ولهم جيش فى البر وعمارة فى البحر أفلاتظن أن قتالنا اياهم تجارة خاسرة يجب الاقلاع عنها ؟ نعم اننا اذا ثبتنا تحملهم خسائر جمة ولكن هل يمكننا الثبات الى النهاية حتى نظفر بهم ونردهم الى مصر ؟ اذا فالرأى عندنا ان نأخذ عيالنا ونقهقر بهم الى الدبة ومن هناك نطلب النجدة من ام درمان . قال ود بشارة عندى الموت خير من عار القهقري ورأيت ان نثبت ونقاتلهم هنا حتى نظفر أو نموت مشرفين .»

وفى صباح ٢٣ سبتمبر غطت مواجهة السردار العريضة الافق وهو يتقدم نحو دنقلا من الصحراء بينما تقدم ود بشارة ليقود جنوده للتصدى للعدو ، وهنا نفذ امرؤه ما اتفقوا عليه قبلا . فأمسكوا جواد ود بشارة واوثقوه وانسحبوا به بعد أن امروا الجيش بالانسحاب من دنقلا وانطلقوا بود بشارة الموثق وهم يتبعون عن فرسان العدو . استغرق انسحابهم ٣ ايام الى ان وصلوا الدبة ومن هناك واصلوا سيرهم للمعركة .

ودخل السردار مدينة دنقلا بدون مقاومة واحتلها . وبذلك سقطت مديرية دنقلا رسميا . وبدأ السردار فورا فى تنظيم ادارتها باعتبارها ولاية تابعة للحكومة المصرية . ثم تابع السردار تقدمه بالبوارج مستغلا خلو النيل من الشلالات فى انحنائه الكبرى . فاحتل الدبة فى ٢٤ سبتمبر عام ٩٦ ومروى فى ٢٦ سبتمبر .

بلغت خسائر العدو فى كل حملة دنقلا ٢٦ قتيلا و ١١٠ جريحا اما خسائر ود بشارة فقد تجاوزت الثمانمائة قتيلا والخمسمائة جريحا والالف اسيرا اغلبهم من الجهادية الذين اعيد تجنيدهم فى الجيش المصرى .

لم تكن خسائر الخليفة العسكرية فى معارك دنقلا ذات شأن ويمكن حصر الآثار المترتبة على انتصار السردار فى النقاط التالية :

١ - أدت الى رفع معنويات الجيش الغازى لحد بعيد واستعادته لثقتة بنفسه وعناده.

وعلى الرغم من تفوقه الماحق فى السلاح والعدد الا انه دخل المعركة فى البداية بروح معنوية مهتزة نتيجة لسمعة جيوش المهديّة الرهيبة وانتصاراتها الدائمة .

٢ - الظروف والملابسات التى سادت تقدم السردار اقنعت الخليفة بالتخلى عن المعارك الصغيرة واخلاء كل دنقلا ليعد لمعركة كبيرة فاصلة ، هى معركة عطبرة .

الشریان الحیدی

« ستقابل الخليفة في أدرمان - فما أنا الا كورقة الشجرة »

(الأمير محمود للسردار) بعد أسره

بينما كان الخط الحيدى يتابع الجيش الغازى خطوة بخطوة فى حملته النيلية ، كان السردار قبلا يخطط لاعظم انجازاته وابقاها على الاطلاق .

فحصاد حملته من الميداليات والاعجاد العسكرية وعشرات الألوف من الجثث تلاشت عظامها ورميمها فى فرقة ، والحفير ، وابو حمد ، وعطبرة ، وام درمان بعد بضع سنوات ، واشعة الشمس المحرقة تنصب عليها يوما بعد يوم ، والعواصف الرملية تدفنها عاما بعد عام . اما سكة حديد الصحراء فلا زالت باقية لعشرات السنين .

وسقوط دنقلا وبعد ان انهالت التهاني والابوسمة على السردار شعر أن مركزه قوى للدرجة التى تمكنه من الكشف عن مطمحه النهائي ، ألا وهو التقدم لام درمان . فاستأذن لأخذ اجازة قصيرة للندن وتمكن من اقناع الحكومة والقيادة البريطانية . وعاد الى مروي فى ديسمبر ٩٦ وهو يحمل الاذن بمواصلة التقدم لام درمان .

كانت مشكلة السردار الرئيسية هى خط امداده الطويل . ووجد نفسه امام ثلاث اختيارات : الاختيار الاول : أن يتقدم من الدبة عبر صحراء بيوضة للمتممة ثم الخرطوم سالكا نفس طريق حملة الانقاذ عام ٨٥ . وهذا كان يعنى انفصاله عن العنصر الرئيسى فى خط امداده ، البوارج ، وتركها تنعثر وسط الشلالات وهى تتبع النيل فى انحناءاته الكبرى ليلتقيا فى المتمة . على أن يعود للاعتماد على الجمال أثناء عبوره للصحراء .

أما الاختيار الثانى فكان أن يعتمد خط امداده على البحر إلى سواكن ثم على الطريق الشرقى من سواكن لبربر . اما الاختيار الثالث فهو الاعتماد كلية على

خط امتداده النهري بأن تتقدم الحملة البوارج وهي تبخر في مجرى النيل الطويل بانحنائه الطويلة ، ملقية ثقلها تارة على البوارج وتارة اخرى على الجمال عندما تعترض الشلالات الرابع والخامس طريق البوارج .

أما المسلك الرابع والذي اقتنع به السردار في قرارة نفسه ، وازداد وثوقاً^(١) منه بعد بروز فعالية مد السكة حديد من اسوان الى كوشة لتجنب الشلالات ، فقد كان مواصلة مد خط السكة حديد شرقاً من حلفا عبر صحراء العتمور مباشرة الى أبي حمد ثم الى جنوب بربر ، ليبدأ التقدم النهائي بمشاته وبوارجه المدرعة الكبيرة مباشرة الى ام درمان بدون عائق ، ويخطو امتداد ميكانيكية مزدوجة مضمونة وسريعة : السكة حديد مباشرة من القاهرة حتى عطبرة ، ثم التقدم النهائي في زمن الفيضان بكل قوته البحرية والارضية حاملاً مؤونته وذخائره على بوارج وصنادل النقل عبر الشلال السادس - شلال السلوكه .

كانت مخاطرة عظيمة من السردار أن يمد خط سكة حديد لمائتي ميل عبر صحراء تخلو تماماً من المياه ، وعبر اراض معادية .

وقد طلب السردار استشارة فنية من كبار المهندسين والعسكريين ، وقد اجاب المهندسون بالاجماع باستحالة مد الخط ، اما العسكريون فقد وصفوا الفكرة بأنها مضحكة بل جنونية . ولم يكثر السردار وقرر المضي قدماً في تنفيذ فكرته .

انفصل الخط الحديدي من النيل وبدأ يزحف من حلفا وقد مال شرقاً ليعبر الصحراء ليلتقي بالنيل مرة اخرى في ابو حمد . كانت سرعة التقدم نصف ميل في اليوم ، وازدادت قليلاً بعد ان نقل العمال والمعدات التي كانت تستخدم في خط النيل في امتداده لكرمة .

وعبر الزوايع الرملية وشمس الصحراء المحرقة ، تقدمت القاطرة خطوة خطوة وعجلاتها تلف لفة او لفتين بين فينة واخرى كلما امتدت امامها اجزاء من الخط الحديدي ، وهي تدفع امامها القى رجل ، بعضهم يحمل الكتل الخشبية من

(١) أنظر خريطة رقم - « أ » السكة الحديديه والنهر .

القاطرة ليغرسها فى الارض وبعضهم يحمل اجزاء الخط الحديدى ، وهى تحمل على عرباتها معدات بقائها واستمرارها ، الخشب والحديد ، واسباب حياتهم وبقائهم ، الطعام والماء .

كان الخط الحديدى الممتد خلفهم ، والقاطرة وهى تجر العربات خلفها هو كل انصاهم بالحياة . وأى قطع أو بتر للشريان الحديدى كان يعنى نهايتهم فى الصحراء عطشا وجوعا .

اما ابو حمد المهدف النهائي للقاطرة ومن خلفها كتائب السكة حديد ، فقد اصبحت الآن تمثل حدود الخليفة الشمالية ، ولم ينظر الخليفة اليها الا كنقطة تعطيلية فقط ، فقد قرر حسم الموضوع نهائيا بجيش كبير بعد ان تأكد ان الغزو سيتقدم نحو ام درمان .

لم تزد حامية ابو حمد بقيادة الامير محمد زين عن ٨٥٠ رجل ، ٢٥٠ من الجهادية و ١٥٠ فارس و ٤٠٠ من حملة السلاح الابيض وكل تسليحهم لم يزد عن ٣٠٠ بندقية . كانت تعليمات ام درمان لمحمد زين هى الثبات للعدو اذا تقدم بمشاته فقط ، والتقهقر لبربر اذا تقدم نحوهم بالبوارج والمشاة .

وفى أواخر يوليو ٩٧ كان خط السردار الحديدى قد قطع نصف الصحراء متجها نحو ابو حمد ، ولكن محمد الزين لم يقنع بالدفاع السلى . فقد بدأت غاراته المتقطعة التى بعثها للاشتباك مع اطواف استكشاف السردار فى الجنوب الغربى وهى تتقدم من مروي ، أو لازعاج كتائب السكة الحديد فى الشمال وهى تتقدم جنوبا . فاضطر السردار الى التقدم واحتلال ابو حمد ممهدا لوصول الخط الحديدى اليها .

وأصدر تعليماته للكولونيل هنتر قائد فرقة المشاة فى ٢٧ يوليو بالتقدم واحتلالها . تكونت تجريدة ابو حمد من العناصر التالية :

اللواء هنتر باشا قائد التجريدة

الكتيبة المصرية الثالثة

، ، السودانية التاسعة

، ، العاشرة

وفي فجر السابع من اغسطس تقدم هنتر بمواجهة عريضة نحو ابو حمد بعد التفاف واسع في الصحراء ليهاجمها من جهة الشرق : الكتيبة السودانية التاسعة في اليمين ثم سرية المدفعية فالكتيبة المصرية الثالثة ، فالسودانية العاشرة والحادية عشرة . وفتحت بطارية المدفعية نيرانها في الساعة السادسة والنصف صباحا . امر محمد الزين جهاديته بامساك نيرانهم ، وامضوا تلك اللحظات الحرجة والعدو يتقدم نحوهم وقد امسكوا انفسهم ونيرانهم بضبط اعصاب مثير للاعجاب . وعندما اصبح العدو على مسافة ١٠٠ ياردة فقط امر محمد الزين بفتح النيران : انهارت طلقات المدافعين على موجات الاقتحام في ضبط واحكام ، الا أن بنادق الرمنجتون البطيئة القليلة كانت اضعف من أن توقف موجات الهجوم العريضة المتدفقة فأمر بالانسحاب لخط الدفاع الثاني نحو موضع معركة الشوارع والازقة . تحصن كل من المدافعين في منزله وانتظر العدو ، سرعان ما اجتازت موجات الهجوم الهضبة الى القرية وبدأت معركة (١) ضارية داخل البيوت والازقة استمرت

(١) يؤيد تقرير قائد العملية الجنرال هنتر وصف شقيق لضراوة المعركة :

« حكى لي ضابط شهد الواقعة قال ان بقاريا يدعى كراوا لما رأى المساكر متشرين في البلدة نثر على عتبة بابه الريالات ليشغل المساكر بها وتواري بالعائط وصار كلما جاء عكسرى وهم بالنقاط الدراهم يصعده ويجره حتى قتل سبعة منهم فدرى به أحد الضباط الا تكلين فاحاط منزله بملك من المساكر فرماهم بالرصاص فأثنى بالدافع وذلك منزله عليه ثم بحث عنه بين الانقاض فوجد مقتولا وامرأته واولاده مذبحون بجانيه . »

فقد كتب هنتر في تقريره الذي قدمه :

The dervishes reserved their fire with great steadiness till the troops had arrived within 100 Yards or so, gave two well aimed volleys, and then retreated to the houses. A house to house fight ensued, which lasted nearly an hour and by 7-30 the whole village had been captured with the exception of one house, which was so obstinately defended that a gun had to be brought against it.

وعلى الرغم من هجومنا ، الا ان العدو امسك نيرانه بثبات وضبط عظيم ، إلى أن وصل جنودنا لمسافة ١٠٠ ياردة منهم وبعدها فتحوا نيرانا مضبوطة علينا مرتين ثم انسحبوا لبيوت . وبعدها انتقلت المعركة من بيت لبيت . وفي الساعة ٣٠ ٧ تم احتلال كل القرية ماعدا منزل واحد ، كانت مقاومته مستميتة للدرجة التي اضطررنا لحضار أحد المدافع واستخدام نيرانه لذلك المنزل .

Intelligence Report, Egypt No 55 From 18th July to 30 Sept. 1897.

ساعتين وبعدها تمكن هنر من احتلال القرية وبذلك انفتح الطريق امام الخط الحديدي لآبو حمد .

كانت خسائر العدو ٢٠ قتيلًا وستون جريحًا في معركة آبو حمد . أما المدافعين فقد ابدوا اباداة تامة . ٥٠٠ قتيل و ٣٠٠ جريح ، واسر قائدهم الشجاع . تقدم بناء الخط الحديدي حتى وصل سالما لآبي حمد يوم ٣١ أكتوبر ٩٧ . كان وصوله انتصارا كبيرا للسردار وهزيمة متكررة لمن افنوا باستحالة تنفيذ فكرته . بعدها بدأ الخط فى الزحف لبربر ، وبدأ السردار فى نقل جحافلہ للتقدم امام الخط الحديدي . وعندما علم الامير الزاكي عثمان حاكم الخليفة فى بربر بسقوط آبي حمد وتقدم السردار نحوه طلب النجدة من الخليفة فى ام درمان ومن الامير محمود فى المتمة . وقبل ان يصل خطابه بدأ جنوده فى التمرد عليه ، فانسحب جنوبا وانضم لمحمود فى المتمة .

ونادرا ماتعرض قائد عسكري لمثل ماتعرض له محمود ود احمد (١) من

(١) محمود ود احمد (١٨٦٥ - ١٩٠٦) ابن عم الخليفة. اشر ف الخليفة على تربيته بنفسه فى منزله كاحد ابنائه . وكان يؤمله ضمن الكوادر القيادية الشابة من عشيرته أمثال شيخ الدين ، وأبراهيم الخليل والختم موسى وود بشاره .. وعندما اختاره الخليفة ليحكم ولاية دارفور وكردفان المضطربة كان يبلغ السادسة والعشرين من العمر . وعلى الرغم من ارتباط اسمه بأعنف مجازر المهديّة - مجزرة المتمة ، الا ان الصورة التى يرسمها لنا موسى المبارك من خلال روايات شيوخ دارفور الذين عاصروا حكمه هى صورة ادارى كفء متمكن وشخصية رقيقة مسالمة . فقد استلم ولاية دارفور المضطربة بعد ان اغتصبتها الثورات والمجاعات وعمليات تهجير القارة الاجبارية ويعد عهد عثمان جانو العنيف . وتمكن فى شهور بسيطة من اعادة الرخاء وتنشيط التجارة والزراعة حتى ان سكان دارفور وبالذات الفور سموه « محمود عسل » مقاربتين عهده بعهده « عثمان بصل » الذى اخضعهم باسنة السلاح ولم يرحم أو يهادن أى بوادر للتمرد ، ويصف انه كان دائما ليثا طيب العشر . والواقع ان ملكته التكتيكية لا غبار عليها ، تشهد بذلك خطاباته للخليفة وتخطيطه لزرية عطبرة ، الا أنه لم يكن استراتيجيا ناجحا ابدا ويبرز قصوره الاستراتيجى بوضوح اذا علمنا ان عثمان دقنه الاستراتيجى المحتك خدم تحت قيادته فى معركة عطبرة .

Hill, Richard, *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian-Sudan* (Oxford, 1951), p. 224.

موسى المبارك - تاريخ دارفور السياسى ص ١٨١ .
أقوال الحاجة زينب بنت الأمير محمود - العباسية - فبراير ٧١ .

عوامل مضادة ، سواء من قيادته العليا ، أو من جيشه وقادته ، أو من الظروف والمنطقة المحيطة به ، وكان أقلها خطرا وازعاجا هو جيش عدوه الضخم وهو ينمو باطراد يوما بعد يوم ، والمؤن والتعزيزات تتدفق عليه عبر الخط الحديدى .

وعندما اقتنع الخليفة بإخلاء كل دنفلا وقرر تجميع قوته لضرب العدو ضربة حاسمة ، وتلفت حوالبه لم تكن هنا حوله قوة عسكرية جديدة بالوقوف امام العدو بخلاف حامية امدرمان ، الجيش الغرب الذى كان يمثل دائما احتياطيه الذى لا ينفذ . لذا أرسل للأمير محمود فى الفاشر طالبا حضوره لامدرمان فى مهمة مستعجلة . وبعد مقابلته طلب منه العودة للفاشر وجمع كل قادر على حمل السلاح من السكان وضمه لجيشه والتحرك به لامدرمان .

عاد محمود الى الفاشر وامضى اغلب عام ١٣١٤ فى تجميع الرجال لينضموا للجهاد . كانت حصيلة محمود من التعبئة فى كردفان ودارفور حصيلة كبرى ، وأصبح الجزء الاوسط من حزام البقارة مركز حشد كبير لجيشه كما اوضح فى خطابه للخليفة وهو يصف ضخامة جيشه فى ٢٠ جمادى آخر (٢٦ نوفمبر ١٨٩٦) « اوله الآن بكردفان وآخره قريبا من دارفور هذا فى الطول ، واما العرض فان حده فى صعيد المجلد ، ومن جهة الشمال حده دار كاجه وهذه الطرق جميعها مشحونة بفضل الله تعالى خيلا ورجالا . » ولم يمنعه من التحرك لامدرمان الا انتظار نهاية فصل الحريف . وعندما جفت الطرق ، تحرك بكل جيشه ووراءه جيش جرار آخر من النساء والاطفال الى الابيض حيث امره الخليفة بترك الجيش فى الابيض والحضور منفردا لامدرمان للتباحث معه فى تنظيم تحرك الجيش وتنظيم ادارة دارفور وكردفان بعد مغادرته لها . وقابل الخليفة فى ١٧ رمضان (٢٠ فبراير ١٨٩٧) وعاد مرة اخرى للابيض للتقدم بجيشه نحو امدرمان .

ومن هنا بدأت مسيرة محمود الهائلة من الفاشر حتى عطبرة . ومن هنا أيضا بدأت متاعبه . فقد لاقى مصاعب جمّة فى سبيل المحافظة على جيشه ومنع افراده من التسلل والعودة لمساقط رؤوسهم وهم يتقدمون للامام ، وينظرون فوق اكتافهم للخلف تاركين خلفهم اوطانهم وعشيرتهم وعائلاتهم التى امرهم الامير محمود بتركها تتجمع حول مركز بارة . فجيشه الذى تجاوز ١٩٠٠٠ مقاتل « كان اغلبه

من المتطوعين غير النظاميين وتكون من ٥٩ قبيلة وفرع قبيلة مختلفة . واضطر اخيرا الى اصدار اوامره للختم موسى الذي تركه خلفه واليا على كردفان بقطع طريق العائدين . وعندما اضطر للتأخر فترة من الزمن في الطريق لتجميعهم مرة اخرى لامة الخليفة مذكرا اياه ان الامراء الآخرين وصلوا لام درمان منذ زمن . فاوضح له محمود سبب التأخير « بلغنا ليلة البارحة بالتواتر ان كثيرا من الانصار ارتجعوا الى جهة بارة والى مركز الابيض . »

واخيرا وصل محمود بجيشه لام درمان بعد مسيرة مئات الاميال من اقصى غرب دارفور وعبر كردفان استخدم فيها محمود كل مايمكن من اساليب الضغط والوعد والوعيد لتجميع المقاتلين والمحافظة عليهم . واستنفذ فيها جيشه الكبير وهو يعسكر فى مناطق حشده آخر طاقات غرب السودان من المؤن والحبوب . وبوصوله لام درمان بدأت متاعبه الحقيقية ، حيث تبلورت اخيرا فى مجزرة المتمة . ولقد انصبت فى تلك الساعات القليلة التى استغرقتها موقعة المتمة خلفيات واحقاد قديمة كثيرة .

اولها الاشاعات الدائرة منذ زمن ان الخليفة مشول عن مقتل على ود سعد عندما دس السم له فى كبده نيئة قدمت له ، وسكان المنطقة من الجعليين كانوا قبلا قد ضاقوا ذرعا بأساليب يونس الدكيم فى جمع الغلال والحيوانات من أهالى المنطقة منذ شهور من الموقعة (١) ، ومن ناحية أخرى لم يخل الخليفة من حقد على

(١) فترة ولاية يونس فى تلك الأيام لمنطقة المتمة قبل وصول محمود لیس هناك ما يشبه رسميا غير رواية تشرشل وتؤيدها رواية على المهدي عندما وصف الجلسة العاصفة بين الأمراء الذين أرسلهم الخليفة لبربر وبين يونس .

« بعد ان أمروا حديثهم امثال الأمير يونس الدكيم غضبا وقال لهم :
« انت يا عثمان ازرق ، ويا محمد حمزه ويا ابراهيم ود عيسى ويا محمد الامين عبد الحليم وانت يا محمد عمر ختقاوى وانت يا عبد القادر ود حبوب وانت يا وداعة الله انا عارف كلاكم كلكم فلا تظنوني مثل أميركم بشارة الذى جرى مطلقا ساقه الريح ولا مثل مساعد قيدوم الذى ساقه مثل ساق الغزالة حتى تنتظرون أن أهرب وتهربوا معي بل سارسلكم أمامي إلى أبي حمد لمقابلة العدو هناك وإذا كان عمركم أردب سمس صوف يفرغ هناك فخير لكم ان تبتوا فى مصادمة العدو حتى تنالوا النصر أو الشهادة ولا تفكروا فى الهرب فامامكم مغارة عتمور أبو حمد فان لم تموتوا فى الجهاد فستموتون عطشا . »

Churchill, Winston, *The River War*,
Vol I, (London, 1899), p. 313.

ود سعد وعشيرته بعد ان اشتكى له ود النجومى من تخلفهم عن الانضمام اليه وهو يتقدم لمصر عام ٨٩ .

وعندما قرر الخليفة ان يبعث جيش محمود للشمال كان ظنه الغالب ان المتمة هي مسرح الموقعة الفاصلة القادمة لموقعها الاستراتيجى - فهي ملتقى كل الطرق المؤدية لامدرمان وخصوصا الطريق الصحراوى . فقد كان اعتقاده جازما حتى ذلك الحين فى ان حملة كشنر ، وخصوصا بعد تأخيرها كل ذلك الزمن وانتظارها بين الدبة ومروى ، ستبغ طريق حملة الانقاذ لنشق صحراء بيوضة عبر الطريق المؤدى للمتمة عبر الصحراء ويمر بآبار جقذول وآبار ابو طليح . وكان الخليفة يعلم ، كما كانت كل عاصمته تعلم عن تجربة ، طباع جيش محمود الخشنة سواء من البقارة ، أو الجهادية ، أو القور ، وتعودهم على أخذ ما يرغبون بالقوة ، وكان يعلم من الناحية الاخرى طباع الجعليين من افقة واعتزاز بالنفس ، لذا قرر اخلاء المتمة من سكانها ليعسكر بها الجيش وارسل واستدعى عبد الله ود سعد ليحضر له فى امدرمان وامره باخلاء المتمة وتحرك عبد الله ود سعد (١) عائدا

(١) تتفق أغلب المصادر فى الاطار العام لهذه المواجهة ولكنها تختلف عنها فى التفاصيل .

فيينا يذكر مكى شيبكة انها كانت ودية للغاية :

ازاء هذا الموقف استدعى عبد الله إلى العاصمة وسأله الخليفة عن نية الأمر وما كان من فى مثل مكانة عبد الله من حيث التل أن يكذب فإقر بأن الجمليين يتصلون تجاريا بالجيش وما كان للخليفة إلا أن يجازيه على تهاوله ولكن تدخل أهل الشورى فى المسألة ورأوا أن يولى عبد الله جهة الشرق فى شندى وأن تستد المحافظة على المتمة وما جاورها لمحمود ود أحمد . وهذا يستدعى أن يرحل عبد الله وأهل المتمة للشرق ليحتلها محمود بجموعه العديدة . وكان أن رضى الخليفة للشورى وصدر الأمر بالتولية والرحيل للشرق لعبد الله وتحرك من امدرمان وفى النفس اشياء واتى قومه وعرض عليهم الأمر .. »

شبكة - تاريخ شعوب وادى النيل ص ٧٦٥

ونجد أن على المهدي يذكر فى تحقيقه الشخصى عن حضر مجلس الخليفة ان المواجهة تمت كالاتى : « .. ثم طلب خليفة المهدي من الأمير عبد الله ود سعد إخلاء المتمة إلى شرق شندى ليمر جيش محمود ود أحمد فاجابوا بالموافقة ظاهرا واضمروا المصيان وكان رأى الخليفة أن يبقى عبد الله ود سعد فى امدرمان ويرسل من يتوب عنه فى إخلاء المتمة ولكن عبد الله ود سعد طمأنه على صدق نواياه فقال له خليفة المهدي : « ان الشريعة لها باقظاظر ولا استحسن أن اقبضك بدمك دون أن يدر منك شيء . اما الذى اعلمه عنك انك تقصر السوء ولك مكاتبات جارية مع العدو ولو فتشنا جيبك لوجدنا فيه بعضها واتى انصحك ان تبقى معنا ولا تذهب للمتمة فاصر عيادته ود سعد على الذهاب . وطلب خليفة المهدي من الشيخ محمد عمر البنا ان يقرأ آية فى ذلك الموقف العظيم فقل الشيخ البنا : « ووصى بهما

الملتمة على هذا الاساس .

وبينما كان محمود يشرف على تحريك مؤخرة جيشه للشمال ليلحق بهم اذا به يستلم خطابا فى ٢٢ حرم (٢٣ يونيو ١٨٩٧) من قادة وحداته وقع عليه ثلاثة من امراء الارباع هم على السنوسى ، والبشارى ريدة ، وصلاح ، وعبد القادر دليل يخطرونه فيه بعصيان عبد الله ورفضه اخلاء الملتمة « قد حضر لطرفنا ادريس ود حمزة . . . ويدهم بوسته لنا من احمد حمزه التوم السعداني يذكر فيها - ان عبد الله ود سعد اصبح منافقا وجاهر بالعصيان » وتوالت البلاغات لمحمود وهو بام درمان عن عصيان عبد الله من بعض وكلاء ارباعه يؤكدون الانباء فى خطابهم لمحمد بشارة « بأن عبد الله ود سعد ارتد عن المهديّة وجاهر بالمعصية وعرض بالملتمة وقصده محاربة المهديّة » .

انزعج محمود لنبا عصيان عبد الله ود سعد وأعطاه وزنا كبيرا . فهذا التمرد

ابراهيم لبيه .. آيه « فقال خليفة المهدي لعبد الله ود سعد . « اذهب حيث شئت فان الله سائلك من دماء الجعليين وهذه الآية تكون شاهدا بيني وبينكم امام الله » .

جهاد فى سبيل الله ص ٢٠٨ .

ويذكر شقير :

استدعى الخليفة عبد الله ود سعد أمير الجعليين وفرض عليه عددا معلوما من أهله يستغفرهم للجهاد وقدرا معيناً من المؤونة يقدمها للجيش المنوى إرساله إلى الملتمة فثقل الطلب على عبد الله ود سعد وقد طالما ارهقه الخليفة من قبل فعمد النية على عصيانه ولكنه أظهر الطاعة وعاد إلى الملتمة فجمع كبار قومه .

شقير ص ١٢٢٥

على أن بعض المصادر التي استمعت لرواية بعض من حضروا المجلس ذكروا ان المقابلة لم تدم كل ذلك الزمن وان الخليفة بعد ان عقد المجلس المتعاد وضم له كل كبار الجعليين فى أم درمان أمر بإدخال عبد الله ود سعد وسأله مؤالا واحدا :

« عبد الله ود سعد أعير لك الأمير عبد الله ولا عبد الله بك » فاجابه عبد الله ان الأمير عبد الله أحمد فطلب منه الا نصراف وفض المجلس .

ونجد تشرشل وفى الغالب مصادره المخابرات المصرية يتحدث عن مجريات المقابلة كالاتى :

وثار الخليفة فى وجه عبد الله ود سعد ثورة عارمة متخلية عن ضبط النفس الذى كان يتحل به فى العادة فى المقابلات الرسمية وإنفجر فى ثورة طويلة من السباب ذاكرا له انه منذ زمن يشك فى ولائه وأنه لا يقبل اعذاره ، وأنه يستحق الموت فوراً ، وأن قبيلته لظحة عار فى وجه الأرض ، وأن محمود سيتكفل بتأديبهم وتحسين سلوكهم .

Churchill, Winston, *The River War*, Vol. I, p. 319

سيشكل خطرا كبيرا على فرق المهديّة في الشمال ويقطع خط الاتصال بها . فأمر قادة ارباعه بعدم دخول المتمة ، وألا يتصرفوا لحين وصوله . واسرع للمتمة . وازديادا في الاحتياط بدأ يرسل فرق الكشافة وهو يتقدم ويتهمد لمقابلته مع عبد الله ود سعد مما سبب تأخيرا ضايق الخليفة كثيرا ، فلم يكن الخليفة يتهاون في امر المتمة اطلاقا . وكان رأيه هو حسم هذه الحركة الجانبيه التي تقلل من شأن الجهد الموجه للعدو الرئيسي . فراه يلوم محمود على التأخير ويأمره بسحق الحركة فورا فقد كتب في ٢ صفر (٣ يونيو ١٨٩٧) :

فنعلمك ايها المكرم ان المبادرة الى الاخذ بالحزم في امور الجهاد من المهمات وان المخلول عبد الله سعد قد مضت عليه مدة وهو في عصيانه ومجاهرته بالعداوة مع قربك منه وقلة المسافة ما بينك وبينه واستصحابك للجيش الكفاية المستعد لضرب الاعداء الذين هم اكثر منه عددا واغوى منه بكثير حتى كثر هنا الارجاف والاقاويل الغير لائقة بل فمن قاتل انك وقفت بالهويجي وصرت تكاتب عبد الله وتؤمنه وهو غير قابل لأمانك ومن قاتل ان عبد الله قد تحصن في بلده ولم تستطع الوصول اليه ومن قاتل ان الهمذكور يتوعدك بالقدوم اليك وهكذا من الاقاويل والارجاف التي سببها امهالك له فبوصول امرنا هذا اليكم فاحزموا امر الجيش وعاجلوا المخلول بالحرابة . » ولم ينتظر محمود اكثر من ذلك فبدأ تقدمه فورا نحو المتمة بكل جيشه .

عاد عبد الله ود سعد وجمع عشيرته في المتمة واوضح لهم مآدار في مقابلته مع الخليفة وواعده عليه العزم من رفضه لمغادرة المتمة والعصيان ومقاومة جيش محمود . وثار نزاع وجدل طويل بين مؤيد ومعارض : استحلف المعارضين في نهايته على المصحف بأن لا يوحوا السر وان ينسحبوا ان أرادوا (١) .

(١) صارت الكلمة التي قالها عبد الله ود سعد دفاعا عن رأيه في رفضه مغادرة المتمة « حارقاني قومة نمر من شندي » مثلا شعبيا .
أي ان انسحاب الملك نمر من شندي وفراره من وجه جيش الدقردار لازالت تحز في نفسه فكيف يكررها الآن .

ويوضح الأستاذ محمود عبد الله في بحثه المفصل عن ظروف معركة المتمة ان بعضا من الرواة ذكروا له ان عبد الله قال عبارته هذه ليس قبل العصيان ولكن بعده وبعد ان قامت الحرب بينه وبين محمود وبعد ان تأكد لا صاحب عبد الله وسعد انهم هالكون وأشاروا عليه بالفرار ففقد المقارنة بين فراره من وجه محمود وفرار الملك نمر من وجه الدقردار

محمود عبد الله إبراهيم - رسالة ماجستير - حملة الأمير محمود إلى الشمال ص ٦١

ثم بدأ الاستعداد لمواجهة محمود من داخل بيوت المتمة وحشد أغلب اسلحته النارية في الجهة الجنوبية التي كان يتوقع منها تقدم محمود على أن يوجهوا نيرانهم من داخل مزاقل اسوار المنازل . وفي صباح الخميس تقدم محمود بكل جيشه نحو بيوت المتمة (١) . وفتح عليهم المدافعون النيران من مدى مؤثر وتساقط حوالى خمسون قتيلا من موجات الهجوم في اللحظات الاولى ، الا ان المعركة غير المتكافئة سرعان ما حسمت وتمكن محمود من اقتحام المنازل وبدأت مجزرة المتمة الاليمة . وختمت في ربيع ساعة حسب تقدير محمود نفسه .

وعندما تحرك محمود ليعسكر بجيشه على شاطئ النيل ترك خلفه الفئ جثة في مدينة المتمة .

. . .

(١) على الرغم من ان خطاب محمود للخليفة بتاريخ ٢٣ محرم ٢٤ يوليو ١٨٩٧ يصف الحالة التي حارب بها عبد الله ود سعد بأنها لم تكن مدبرة تدبيرا عسكريا « بل كان كل واحد منهم يحارب بمفرده قيل ان ذلك اتباعا لكلام احد علمهم حيث قال لهم بانكم اذا تم محامين عن نساكم وذرايكم فأنتم الشهداء حقا » .

ويعترض الأستاذ محمود عبد الله في بحثه بانه باستجوابه للشيخ عبد الكريم الفاضل من أهالي الدامر ولكنه « عرض » مع عبد الله ود سعد وحضر معه واقعة المتمة فقال انهم ابعثوا النساء بعيد عن مكان « المحاص » واستعدوا استعدادا حريا لمقاومة جيش محمود .

وتكاملت اخيرا كل حملة محمود في المتمة وكانت قوتها كالآتي :

الامراء	حملة سلاح أبيض	جهادية	رمتون	بنادق	خيل
على السنوسي	١٩٤٥	١٥١٣	٨٢٠	٥٤٤	٣٤١
صلاح أبوة	١٤٢٢	١١٢١	٤٨١	٣٦٨	٣٢٦
محمد علي	١٨٠٤	٢٢٠٦	٨٩٥	٥٩٣	٤٨٦
عيسى زكريا	٠٤٩٠	٠٦٢٣	٢١٤	٢١٣	٠٨٢
البشاري ريده	١٥٨٦	٠٥٣٨	٣٤٢	٢٠٦	١٤٣
محمد فضل الله	٠٤٦١	٠٤٦٥	١٥٢	٢٥٨	١٤١
عبد القادر دليل	١٣١٤	٠٤٢٥	٢٠٨	٣٦١	١٧٩
الفضلي آدم	٠٤٤٣	٠١٤٧	١٠٢	١٥٨	٠٨١
العسطا اصول	٠١٢٨	٠٢٤١	٠٥٨	١٤٢	٠٤٧
المجموع	٩٥٩٣	٧٢٧٩	٣٢٧٢	٢٨٤٣	١٨٢٦
فضل الحسنة	٣٨٣	٦٥٧	٦٧٢	٢٢	٩٦
عبد الله حامد	٠٤٢٦	٣٣٤	٥٤٥	٠٦	٥٤
محمد الزاكي عثمان	٦٦٢	٩٩٥	٧٦٧	١٢٩	٣٧١
محمد ود بشارة	٠٢٧	٠٦٠	٠٥٨	٠٢	١٨
المجموع	١١٠٩١	٩٣٢٥	٥٣١٤	٣٠٠٢	٢٣٦٥

ثم بدأت شهور الانتظار الاليمة في المتمة وما صاحبها من مجاعة متصلة ، ومن تردد من جانب محمود وهو يعرض على الخليفة الحطة تلو الحطة ، وبوارج السردار تتقدم باستمرار من بربر لتقصفه . ولكن خطابات محمود كانت توضح انه لم يقاس من كل ذلك مثلما قاسى من جيشه نفسه . ولم يستطع هو نفسه شيئا لضبط الامور وسط جيشه الكبير ، واشتكى للخليفة في ٢٤ صفر (٢٥ يوليو ١٨٩٧) من عدم

مقدرته على ضبط تصرفات افراد جيشه ومنعهم من التعدى على الاهالى والمبالغة فى التشفى والانتقام من الابرياء والنهب والسلب الحرام .

« سيدى ان عبدكم منذ تعيينه لهذا الجيش عام ١٣٠٨ فهو يقاسى من امور تشيب لهُولها النواصى وتذيب الرواسى . . . تارة من عدم الرضا بالحكم وتارة من عدم الهمة فى انجاز الامر وتارة بعدم سماع النواهى وارتكاب مالايرضاه الله ورسوله ومع كل هذا فاننا ساكتين وللصبر ملازمين وللمرارة عدم المساعدة والموافقة متجرعين . . والحالة هذه خشيت على نفسى حيث ان ماسبق من الموعظة لى والتذكير فى عدم رفع الاحوال اذا حصل منى السكوت وترتب عليه ادنى خلل أو فشل فى الدين ساكون مسئولاً عنه فى الدنيا والآخرة ، وحقيقة العاقل من يسعى فى سلامة نفسه فى البدارة قبل ان تحتوشه الموبقات فى هذه الدار فلذا انجبرت وحررت هذا وانا أقدم رجلا واوخر اخرى وذلك لعدم سبقه منى وذلك ان الذى حملنى ان هذه الجهة لم تكن كجهات الغرب لافى ارضها ولافى اهاليها وسمعنا غير مرة بل تكررت الاوامر الرسمية بتأمين اهاليها . فبعد واقعة الهالك عبد الله ود سعد أمناهم وحررنا لهم مايفيد عدم مؤاخلة أى واحد منهم الا من كان مع الهالك المذكور فراجع اغلبهم فما كان من الاصحاب الا - خروجهم ثلة بعد ثلة مشاة وركبانا غربا وشرقا حتى اتوا عليها وجعلوها حصيدا وكأنها ماكانت بالامس حيث اخذوا البهائم وقتلوا ماكانت حيه وجرحوا كثيرا من الرجال واستولوا على النساء بصفات منكرة ينفر منها الطبع ويحرمها الشرع نحو اخذها لتحمل الماء على رأسها لسقاية الحصان أو حمل القلال مع ان البحر قريب ولاداعى لهذا الامر . . . » واضطر محمود اخيرا الى اعادة كل النساء لام درمان بيارجته الوحيدة .

ويخطاب محمود بدأت سلسلة طويلة من الشكوى من تصرفات جيشه واكثرها انصب فى التسلل المتواصل وهجر الصفوف ، تتخللها دائما الشكوى من اعداد جيشه المتناقصة . ومطالبة الخليفة بارسال التعزيزات ، والالحاح فى ارسال التعيينات والذرة لتموين جيشه الضخم فى تلك الاراضى القفار ، وحفلت خطابات محمود بالاقتراحات والخطط العديدة لمواجهة الغزو والخليفة يؤيده دائما تاركا له

وقد ظلت فكرة تقدم العدو الصحراوي من الدبة للمتممة تسيطر على ذهن محمود ، وتلقى ظلا ثقيلا على تخطيطه ، وقيدا أثقل يكبل أقدامه ويمنعه من التحرك لنشمال المهاجمة السردار ، خشية تقدم صحراوي من جانب العدو لاحتلال المتممة وقطع خط اتصاله بام درمان .

ولا يمكن ان يلام محمود في تلك كثيرا ، فحتى الخليفة نفسه وقبل شهرين من المعركة كان يعطى هذا الاحتمال وزنا كبيرا ، فذكريات بعثة الانقاذ لم تغب بعد عن الاذهان ، كما ان قوات السردار كانت لاتزال موزعة بين الدبة ومروى وهي تطل على اقرب طريق لام درمان ، الطريق الصحراوي .

وعندما استنجد محمد الزاكي من بربر بمحمود طالبا التعزيز أو السماح بالانسحاب والانضمام له في المتممة ، ارسل للخليفة في ٢٠ يوليو طالبا رأيه ، هل يترك محمد الزاكي في بربر وحيدا كما حدث لمحمد الزين في أبي حمد ، واعتباره نقطة تعطلية ، ام يأمره بالانسحاب والانضمام له في المتممة - ام يتقدم محمود نفسه ويدافع عن بربر . واقترح محمود السماح لجيشه بالتحرك شمالا لبربر ووافقه الخليفة . ونجد الخليفة هنا لأول مرة ، وان لم تكن الاخيرة ، يتحرر من عقدة التقدم الصحراوي موضعا لمحمود اهمية بربر ، فان سقوط بربر يعنى انفتاح النيل للسردار حتى ام درمان . ويؤكد لمحمود اهمية استغلال المضائق والشلالات التي تقع شمال بربر وتحصينها بالمدافع ، ويأمره اخيرا بالتحرك لبربر فورا ومقابلة العدو هناك وبعده بارسال التعزيزات من ام درمان . وامضى محمود الشهرين التاليين في مد وجذب مع الخليفة مبرا تجمعده في المتممة بانتظار وصول تعزيزات الخليفة للتحرك لبربر وإلا اصبح دفاعه عن المضائق بدون المدفعية والبنادق التي طلبها غير فعال .

وفي ٧ أغسطس سقطت ابو حمد ووضح محمد الزاكي لمحمود انه يتوقع وصول العدو لبربر في ظرف اسبوع وان لم تصله النجدة قبل ذلك فموقفه ميئوس منه .

أوضح محمود للخليفة أنه سيتقدم فوراً لنجدة بربر ، ولكن عبور جيشه من الغرب للشرق استغرق أكثر من ١٠ أيام ، وعندما أتم العبور للشرق أخيراً واستعد للتقدم برزت معضلة أخرى ، وعاد محمود لحساسيته القديمة وخشيته من تقدم العدو الصحراوي . فقد افادت مصادره عن تواجد قوة من فرسان ومشاة العدو في آبار جقدول ، على الطريق الصحراوي وهي تتقدم نحو المتمة . وعاد طالبا رأى الخليفة . فرد عليه الخليفة في ٢٢ أغسطس بحزم هذه المرة آمرا إياه بترك المتمة وشأنها والتحرك فوراً لنجدة بربر والاكتفاء فقط بترك قوة في المتمة لحماية ظهره . وعاد محمود يكرر بأنه تأكد أخيراً من خطة العدو وهي تقدم مزدوج ، صحراوي ارضي عبر بيوضة ، ونيلي بالبوارج . منتظرا أوامر الخليفة بأن يبقى بالمتمة ، وقبل أن يصل خطابه للخليفة أرفقه بآخر في ٣١ أغسطس يحمل أنباء تمرد حامية بربر واختلاؤها للمدينة ، واضطرار أميرها الزاكي للانسحاب جنوباً . سادت الماراة خطاب محمود للخليفة وهو يعتذر ويؤكد شعوره بأن سقوط بربر كان مسئوليته هو . واضطر أخيراً للاعتراف صراحة بأن جيشه لا يرغب في التحرك لبربر . رد الخليفة مطيحا خاطر قريبه الصغير مؤكداً له أنه لا يشك إطلاقاً في شجاعته وولائه . وعلى الرغم من أن سقوط بربر كان ضربة كبيرة وجهت للخليفة إلا أنه رضى بالأمر الواقع وبدأ يبحث عن خطة جديدة . كان البديل لبربر واضحاً - شلالات السبلوكة - منطقة تستمتع بنفس مزايا مضائق بربر واقترح الخليفة على محمود التحرك نحوها واحتلالها فهي موقع دفاعي ممتاز يضمن اتقاء شر بوارج السردار ويضمن سيطرته على الضفتين . ولكن محمود أجاب في ١٦ يناير رافضاً الخطة الجديدة رفضاً باتاً . فنى رأيه أن أى انسحاب من المتمة نحو أم درمان سيؤثر على معنويات جيشه وسيتمخض عن تزايد نسبة تسلل وهروب جزء كبير من المقاتلين ، وهم قبلاً يتسللون بنسب كبيرة .

وحقيقة تركزت معظم مشاكل محمود في شهور الانتظار ، ودارت معظم خطابات الشكوى الطويلة للخليفة حول محورين ، تسلل المقاتلين ، والشكوى من انعدام التموين والذرة مما جعلهم في شبه مجاعة دائمة ، وكان من ضمن الأسباب التي قدمها الخليفة وهو يرشح موقع السبلوكة لمحمود هو قربها من أم درمان لسهولة

وأخيرا تمخضت التعزيزات الموعودة في وصول اشهر قادة المهدي الاحياء وانضمامه لمحمود ، الامير عثمان دقنه ، على رأس اربعة آلاف رجل هي كل قوته التي ظلت مشتبكة في عمليات متواصلة طوال السنين الأخيرة . وكان محمود قد طلب منه الانضمام اليه في المتمة بكل قوته . فجيشه هو الجيش الرئيسي الذي وقع عليه مواجهة السردار . ولكن عثمان دقنه لم يكلف نفسه حتى عناء الرد عليه . ولم ينضم الى محمود الا بعد ان امره الخليفة شخصيا بالانضمام له . مرة أخرى ضاعفت زيادة القوة العددية من متاعب محمود ، فقد برزت هذه المرة مشكلة ازدواجية القيادة .

والخليفة وهو يطلب من عثمان دقنه الانضمام لمحمود - كتب محذرا محمود بان يتحرس في معاملة عثمان دقنه ، فالقائد الشهير لم يكن قائد قوة يعمل في خدمته فقط ، بل هو اقدم قادة الخليفة عسكريا « وهو اقدم منك في الدعوة » وقد عمل دقنه طول حياته قائدا وحاكما منفصلا واميرا على شرق السودان ولم يتعود على تلقي الاوامر الا من الخليفة أو المهدي .

واثبتت الايام صحة مخاوف الخليفة ، فسرعان ما نشب النزاع بين القائد الشاب وبين المقاتل الشهير ، وتطور الامر الى ان اضطر محمود لرفعه للخليفة . فبعد بدء التقدم نحو السردار في ٢١ فبراير وهو يعسكر في عطبرة التصق محمود بالنيل متحملا قذائف اسطول كتشنر طوال تقدمه للشمال ، فقد كانت خطة محمود هي التقدم تقدما مباشرا محاذيا للنيل وتسديد هجوم امامي مباشر للسردار في عطبرة . اما عثمان دقنه ، الاستراتيجي المجرب ، فقد اقترح مفارقة النيل من العاليا ب والالتفاف التفافا واسعا ليلتقوا بنهر عطبرة ويبدأوا التقدم نحو السردار . كان مسلك عثمان دقنه يتم عن تفهم غريزي لابعاد الاستراتيجية الهجومية ، فتقدمه الغير مباشر نحو جنب السردار الايسر يبعده عن الخطأ الاستراتيجي المميت بدئية الغرض « Obviousness of objective » ان تقدم تقدما مباشرا نحوه كما اقترح محمود ، ويحقق من ناحية اخرى اهم عناصر الاستراتيجية السليمة ، وضع العدو في موقف حرج وهو دائم الشك حائر الى أي جهة والى أي هدف سيوجه الهجوم

« Between the horns of a dilemma » فتقدمه نحو عطبرة دون النيل يجعل كلا من بربر وعطبرة فى متناول يده ليضرب أيا منهما ، كما يتعد به عن نيران ومراقبة البوارج الحاصده الراصده التى سيتعرض لها تقدم محمود النهري . أما التموين فيمكنهم الاعتماد على اشجار الدوم التى تغطى المنطقة . اشتد النزاع حول أى المسلكين يتخذ ، واضطر محمود الى رفع الامر للخليفة ليعطى كلمته النهائية . وصل رد الخليفة مؤيدا عثمان دقته . ومن ثم فارقوا النيل من العالاياب واتجهوا شرقا نحو نهر عطبرة .

كان تقدم محمود تقدما منهكا ، وقطعة لمسافه ٤٠ ميلا فى مسيرة واحدة دامت ثلاثين ساعة يعتبر اعجازا فى تلك الايام ، فقد قاسوا خلالها الأمرين من الجوع والعطش خلال تقدمهم وهم يعبرون الصحراء . ولما اقتربوا من نهر عطبرة ، ثار النزاع مرة أخرى بين دقنة ومحمود ، فقد رأى عثمان دقنة ان تمتد التفافته الواسعة الى الشرق قليلا ليصل الى ادارة . فمن ذلك الموقع البعيد من النيل الرئيسى سيضعوا العدو فى موقف عصيب . فالسردار لا يمكن ان يتقدم جنوبا نحو ام درمان ويترك خلفه قوة كبيرة تهدد جنبه الايسر وخطوطه الخلفية ، وان تقدم بخداء نهر عطبرة للمهاجمة محمود فان هجومه سيصبح فى صالح محمود - فسينفصل عن اسطوله النهري ويصل لهم منهكا بعد مسيرة طويلة . الا ان محمود لم يكن ابدًا استراتيجيا حصيفا ولم يستمع لدقنة ولم يترك الكلمة الاخيرة للخليفة هذه المرة بل اثنى للداخل نحو العدو ، وعندما وصل محمود للنخيلة واختار موقعه الدفاعى ، ثار النزاع مرة أخرى وتركز حول نقطتين : فقد اوضح عثمان دقنة لمحمود ان قرب الموقع من المجرى الرئيسى للنيل ومن قلعة عطبرة سيمكن السردار من مباغته محمود بعد مسيرة ليلية واحدة طويلة . كما ان الموقع الدفاعى وسط اشجار الدوم البخافة سيجعله عرضة للاشتعال بالنيران اثر القذائف الاولى من مدفعية السردار ، وسيضطرون عاجلا أم آجلا الى اخلائه والتعرض لهجوم العدو فى العراء . كان عثمان دقنة كماداته يتحدث كأنه يعلم الغيب .

على أى حال لم يستمع محمود لنصيحة عثمان ، وبدأ فى تجهيز موقعه الدفاعى . ترك مجرى نهر عطبره الجفاف ملاصقا لمؤخرة الزربية واتجه بزربيته

للشمال الغربي . وبعد بضعة ايام اكتملت الصورة النهائية لزريبة محمود الشهيرة
زريبة من الشوك تحيط ببقعة شبه دائرية من الارض قطرها الف ياردة تغطيها
اشجار الدوم واكواخ القش والحيام ، وخلفها بمسافة ٥٠ ياردة حفر الخنادق
لحماية حملة بنادقه ، وأقيمت الملاجئ لاستخدام مدافعه السبعة الموزعة على دفاعه
الدائري . وبدأ في تنظيف المنطقة امام الزريبة من الشجيرات لمسافة ٣٠٠ ياردة .

صحيح ان دفاعه الحولى داخل زربته الدائرية وفر تغطية كافة الاحتمالات
والاتجاهات ولكنه كان تكرارا للدفاع حمودة فى فركة . فمرة اخرى انحصرت
زريبة النخيلة كقرية فركة بين الاراضى المرتفعة ومجرى نهر عطبرة .

نظم محمود دفاعه على الترتيب التالى : ربع عبد القادر ود اصول فى مقدمة
الدفاع فى الناحية الشمالية من الزريبة (١) حيث كان اتجاه العدو متوقعا ويمينه
مدفعان ، وفى الركن الأيمن ربع على السنوسى . اما الجهة الشرقية فقد احتلها
البشارى ريدة ومحمود فضل الله ، بينما توسط الربعين مدفعين من مدافع كروب .
اما الجانب الايسر من الزريبة فقد احتله فضل الحسنه . بينما حدد احد المدافع
حدود اليمين بينه وبين ربع عبد القادر اصول ، وبرج مدفع آخر حدود اليسار مع
ربع عيسى زكريا فى الجانب الايسر من الزريبة . أما قوس الزريبة الايسر فقد
دافعت عنه ارباع الزاكي عثمان وود بشاره فصالح ابو ، وفضل آدم . . . واخيرا
فى مؤخرة الزريبة قبع عثمان دقنة . وليس هناك تفسير لفضالة المسئولية (٢) التى
ألقيت على كاهل عثمان دقنة سوى احتمالين : اما انه رفض الاشتراك فى معركة
يعلم انها خاسرة ورفضت كل مقترحاته التى قدمها حول الطريقة التى تخاض بها ،
أو لان محمود حدد له ذلك الواجب الثانوى للحساسيات التى نشبت بينهما .

انتهى محمود من احاطة الزريبة وحفر الخنادق وتشييد ابراج المدفعية وقبع

(١) أنظر الخريطة رقم ٢ معركة عطبرة .

(٢) تدور أغلب الروايات التى استقناها جاكسون من قاتلوا أو بالاحرى انسحبوا مع عثمان دقنة من
معركة عطبرة ان عثمان دقنة لما رأى عدم استماع محمود المتواصل لنصائحه أمر رجاله قبل المعركة
بالانسحاب دون التورط فى المعركة اذا رأوا انها معركة خاسرة وعدم تحمل أى خسائر .

Jackson, H.C., *Osman Digna* (London, 1929), p. 101.

منتظرا عذوه ، وازدادت معاناة محمود في اشهر الانتظار الاخيرة خصوصا بعد تقدم البوارج جنوبا وتدميرها واحتلالها لشندى حيث احتفظ بشونة غلاله .

ما ان بدأت الانباء تنواتر لاستخبارات السردار بان الخليفة يجهز جيشا ضخما في امدرمان للتقدم نحوه الاوانزعج انزعاجا واضحا وعادت الى الازدهان هالة انتصارات المهدي ، وأحس ان انتصاراته الماضية ما كانت الا طعما لاصطياده ، وجذبه جنوبا ، خصوصا والنيل في زمن انخفاضه .

كان مخططة من البداية هو انتظار ارتفاع النيل ليبدأ تقدمه نحو امدرمان في الفيضان القادم عام ٩٨ ، فقد فوت فرصة فيضان عام ٩٧ لان السكة حديد لم تتخط مضائق بربر بعد . ولكن هاهو الخليفة لم يتركه في سلام واخذ المبادرة وقرر التقدم والهجوم عليه . اوضحت استخبارات ونجت حشود الجيش الضخم والاستعدادات التي تجري في امدرمان . واوضحت شخصية القائد الجديد ابن عم الخليفة ، ثم مجزرة المتمة ، انه هذه المرة سيواجه معركة حقيقية ، وعلى الرغم من تفوقه الواضح في العناد والثيران والمعدات الا ان ثقته بجيشه بدأت تهتز ، وسارع مطالبا لندن بمعونة عسكرية بريطانية ولو بلواء واحد .

وافقت الحكومة البريطانية على ارسال لواء بريطاني ، وبدأت السكة حديد في نقل كتائبه لمركز الحشد المتقدم الجديد في بربر .

ساد السكون كل شهر نوفمبر وديسمبر ، وقنع السردار بعد احتلال بربر بانتظار خطه الجديد للتقدم معه . ومن ثم انشئت ورشة متقدمة في عطبرة لتجميع اجزاء البوارج الجديدة التي وصلت استعدادا للتقدم النهائي ، مكررا تجربة كوشة الناجحة لتفادي شلالات ومضائق النهر . وبعدها بدأ يجمع حشوده في كنور وتقدم بكل قوته نحو عطبرة . وبسرعة نمت عطبرة من نقطة ادارية صغيرة ، لمعسكر ضخم اكتظ بستة عشر الف رجل . وعندما افاد استكشاف البوارج البعيد ان محمود قد غادر النيل نحو الصحراء ، واكدت مصادر ونجت ان محمود ينوي شق الصحراء لنهر عطبرة ومهاجمة السردار في عطبرة أو بربر ، قرر السردار التقدم واحتلال رأس المودى على نهر عطبرة في نفس المكان الذي سيلتقى فيه محمود بنهر عطبرة . وبدأ في ارسال طلائع الاستكشاف للامام . ولما تأكد ان

محمود حط رجاله فى النخيلة ، نقل السردار كل قوته وحشدتها فى رأس الهودى .
وبعدها ساد السكون والتردد كلا الجيشين ، فاقسم النصف الأخير من مارس بتردد
واضح من جهة السردار وهو يستشير كرومر هل يهاجم محمود أم ينتظر هجومه ،
بعد أن فشل فشلا ذريعا فى اخراج محمود من زريته واغرائه بالهجوم عليه ، الى
أن ضاق كرومر به ذرعا ووضح له أخيرا أن القرار ملكه وحده لأنه خير من
يحسم الموقف . فقد كتب لكرومر فى أول إبريل بعد أن انتظر تقدم محمود مدة
طويلة بلا طائل :

« اننى اواجه موقفا محيرا . محمود يدافع ولا يرغب فى الهجوم على ، على
الرغم من أنه يعاني نقصا فظيعا فى المؤن ، وعلى الرغم من تسليح المقاتلين المتواصل
من صفوفه . ويبدو أنه ينتظر تعليمات الخليفة اما للتقدم أو للتقهقر ، ويؤكد
استجواب المتسللين من صفوفه أنه سيرفض فكرة الانسحاب ، فهو يخشى أن تؤخذ
دلالة على خوف أو جبن ، ناقشنا الموقف أنا وكاتكر « قائد اللواء الانجليزى »
وهنر امس . وحيد كاتكر فكرة الهجوم فورا على محمود بينما اقترح هنر
الانتظار . ان تقدمه وهجومه علينا سيكون بالتأكيد فى صالحنا ولكنه لو انسحب
قبل أن نهاجمه نحن فتضيع علينا فرصة عظيمة . أرجو شاكر التكرم بإبداء رأيك
عن هذا الموضوع . »

وأحال كرومر الخطاب لجرانفيل قائد قوات الاحتلال البريطانية فى مصر
واحاله هذا بدوره للقيادة البريطانية فى لندن .

وقبل أن يصل رد القيادة البريطانية بتأييدها وموافقتها على أى قرار يتخذه
السردار مهما كانت نسبة الخسائر ، ارسل كاتكر لكرومر يبلغه أن هنر عدل عن
رأية وانجذب لرأى كاتكر واجمع الاثنان على الهجوم فورا ، فأرسل له كرومر
فى ٣ إبريل يرجوه الهجوم فورا .

أجاب السردار فى الرابع من إبريل أنه سيهاجم ولكنه يؤكد له أنه سيتخذ
اقصى احتياطات لتقليل الخسائر ، فعلى الرغم من معاناته منذ الطفولة من تشاؤم
مستديم من كل أيام الجمع ، إلا أنه زيادة فى الحرص سيهاجم زريته محمود فى
يوم الجمعة الحزينة « Good Friday » الذى يقع فى ٦ إبريل طالما أن محمود

لن يتوقع هجومه فى يوم عيد مسيحى .

لم يكتف السردار بالمعلومات الدقيقة التى قدمها له ونجت عن زريبة محمود وقرر ان يقوم قادته باستكشاف شخصى نهائى قبل الهجوم بيوم واحد ، يشترك فيه الكولونيل ماكسويل قائد اللواء السودانى ، وجنرال هنتر قائد فرقة المشاة ، والكولونيل لونج قائد المدفعية على ان يقود عملية الاستكشاف بقوة الكولونيل بروود وود قائد الحيلة المصرية . تكونت قوات الاستكشاف من ٨ سرايا فرسان ، سرية مدفعية الخيول ، واربعة مدافع مكسيم ، وتحركت من المعسكر فى الرابعة صباحا يوم ٥ ابريل .

وعندما أبلغت عناصر الانذار محمود بتقديم قوة من فرسان العدو وضع خطة سريعة لمواجهة الفرسان ، ولم ينكشف تخطيطه الذكى لبرود وود الا بعد أن اشرف الفرسان على الزريبة . فقد اعتمدت خطة محمود على جذب الفرسان امام الزريبة لمطاردة خيالاته الرئيسية حيث اختفى ربع على السنوسى داخل منخفض مفاجئ فى المرتفعات امام الزريبة ، وحيث اختبأت جماعة اخرى من الفرسان خلف الزريبة ، وبذلك ينحصر فرسان العدو من كل الاتجاهات . فرسان بجيت النمورى يسارهم وفرسان الزريبة عن يمينهم والمشاة امامهم . على أن يصبح واجب بجيت النمورى هو الاحاطة بمؤخرة العدو بعد الالتفاف من يساره .

اشرفت طلائع الفرسان على الزريبة وشاهدوا امامهم فرسان بجيت وهم يرجعون بانتظام امامهم . فتحت مدفعية محمود نيرانها من الزريبة فى تلك الاثناء فانهز قائد المدفعية الفرصة ليدون اماكنها بالضبط . وبينما استمروا فى متابعة فرسان النمورى امامهم ، وهؤلاء يلتفون حول جناحهم الايسر ، برز فرسان الزريبة من يمينهم ، وعندما فتحت نيران المدفعية والرشاشات على مؤخرة فرسان بجيت النمورى برز ربع على السنوسى فجأة من مكمنه وبدأت اذرع الكماشة تنطبق على فرسان السردار . ولم يتمكنوا من الخلاص والعودة لمعسكر السردار فى ام ضبيب الا بعد ان فتحت كل مدفعيتهم ورشاشاتهم نيرانا متواصلة افلحت فى صد هجمات الفرسان التى شنت عليهم من مختلف الاتجاهات وبعد ان فقدوا ١٠ قتلى و٧ جرحى .

كان استكشاف السردار بقوة تمهيدا للمفاجأة التي نوى تحقيقها بتقديمه الليلي في مساء نفس اليوم . فمن المستبعد دائما القيام بعمليتين كبيرتين في يوم واحد ، وإذا اضيف لذلك ان اليوم كان يوم عيد المسيحيين نستطيع أن نفسر السكينة والطمأنينة النامة التي سادت زريبة محمود في ليلة ٧ ابريل .

بدأ السردار تقدمه من معسكر ابو ضبيع في مساء ٧ ابريل . لحقت به قواته الراكبة في الثانية صباحا ، ولم يتوقف الا في التاسعة بعد ان قطع نصف المسافة ، ثم استأنف التقدم في الواحدة صباحا . وفي الثالثة صباحا توقف السردار بعد أن بدت اضواء الزريبة الخافتة تبدو عن بعد .

اتخذت ألوية السردار مواجهة الاقتحام العريضة في شكل قوس هائل طوله أكثر من ١٥٠٠ ياردة للمشاة وحدهم خلاف الفرسان الذين حموا الجانب الأيسر ، لواء ماكسويل (١) السوداني في اليمين ، لواء ماكدونالد السوداني في الوسط ، ولواء كاتكر البريطاني في اليسار .

كانت خطة اقتحام السردار بسيطة وسهلة . فبعد القصف الابتدائي بمدفيعته القوية على ذلك الهدف المنحصر ، تتقدم صفوف الاقتحام التي قسمها لقسمين : القسم الاول عبارة عن المواجهة العريضة الامامية وواجبها هو تمزيق الزريبة بالايادي معتمدة على غطاء من نيران بنادقها ونيران المدفعية لخفض رأس العدو أثناء لحظات فتح الثغرات في الزريبة لتتاح بعدها الفرصة لسرايا الاقتحام خلفها للتقدم وتنظيف داخل الزريبة بالالتحام بسناكي البنادق . تكون القسم الاول من حوالى ١٠ سرايا من كل لواء منتشرة بعمق صف واحد ، وتكتلت خلفها عناصر الاقتحام للتدفق عبر الثغرات في عمق يتجاوز ١٠ سرايا . تفاوتت نسب التقسيم : فبينما وضعت الألوية السودانية ١٠ سرايا في الخط الأمامي العريض ، وضع اللواء البريطاني ٨ سرايا حمل اغلب جنودها البطاطين لوضعها فوق شوك الزريبة ، وترأست صفوف الالتحام في اطراف مواجهة كل لواء لعمق ٨ سرايا خلف بعضها البعض . وكنتموا أنفاسهم في انتظار الفجر .

(١) أنظر خريطة رقم ٢ معركة عطبرة .

بينما كانت خيوط الفجر الرمادية الاولى تسلسل وسط اشجار الدوم ، كان محمود فى شغل شاغل لتنظيم دفاعه . أسرع حملة البنادق لاحتلال خنادق ضربنار ، وخلفهم حشد حملة السلاح الابيض داخل خنادقه الثلاثة . وبعد ان تأكد من اتجاه الهجوم نقل أغلب قوته لتعزيز ربع العطا اصول فى المقدمة . ثم فتحت ابواب الزريبة اليسرى وخرج فرسانه بقيادة بجيت النمرورى واصطفوا بيسار الزريبة ، ثم انسحب لمركز القيادة وسط الزريبة ليشرف على المعركة .

ومع أول ضوء الفجر فتحت بطاريات السردار الخمس وكل رشاشاته نيرانها على الزريبة . واستمر القصف المدمر ساعة كاملة يقتلع الاشجار والحيام والرجال . احتمله المدافعين بصبر ، واستكانوا داخل خنادقهم الى ان بدأ العدو التقدم نحو الزريبة . وبضبط اعصاب مثير للاعجاب امسك المدافعون نيرانهم الى أن أصبح العدو على مسافة ٣٠٠ ياردة وفتحوا نيرانهم على قوات الاقتحام . واضطرت المدفعية المهاجمة لأن تتقدم مع صفوف الاقتحام لئلا يتعرض المهاجمون لنيرانها . كانت نيران المدافعين مؤثرة للغاية رغم قصف الدانات المركز الذى انصب فوق المدافعين ورصاص الرشاشات المطر . تمكن ربع العطا اصول فى اللحظات التى استغرقتها صفوف الاقتحام لعبور الحرسين ياردة التى فصلت بين الزريبة والخنادق من اسقاط اكثر من ٤٠٠ جندي من جنود السردار . وبعدها فتحت الثغرات فى الزريبة وتدفقت حشود الاقتحام الخلفية ، وبدأ اشتباك اليد باليد ، خندقا خندقا ، كوخا فكوخا . استمر الاشتباك وقوات الهجوم تدفع المدافعين امامها وهم يتراجعون للخلف بانتظام ويطلقون نيرانهم . اما ربع العطا اصول الذى تحمل صدمة الهجوم الاولى فقد ابعدوا جميعا فى خنادقهم . دام الاقتحام اكثر من ساعة فى معركة ضارية وفى دائرة لا يزيد قطرها على ١٠٠٠ ياردة احتشد داخلها ١٦٠٠٠ رجل وهم يتقدمون للامام وسناكيهم مشرعة امامهم تقطر الدماء منها .

والمدافعون ؟ قبر ٧٠٠٠ فى اماكنهم دون التخلي عن شبر واحد ، وامتلات

الحنادق عن آخرها بالحث (١) .

أما الكتيبة الحادية عشرة التي تقدمت نحو مركز قيادة محمود فقد تساقطت صفوفها واحدا بعد الآخر أمام نيران المدافعين . وعندما تمكنوا أخيرا من إبادة حرس رئاسته ، وجدوا محمود قد فرش فروته واتجه للقبلة منتظرا الموت ، فأخذ أسيرا .

دامت المعركة الضارية ساعة كاملة وبعدها وصلت قوات الاقتحام لنهر العظيرة بعد أن اجتاحت كل الزريبة ، ولم يفلت الا حوالى ٤٠٠٠ رجل أغلبهم من قوات عثمان دقنة . فقد السردار ٨٠ قتيلًا و ٦٠٠ جريحًا .

والسؤال الكبير الذى يواجهنا دائما خلال حملة محمود ود أحمد للشمال هو : لماذا تقدم محمود لمواجهة السردار بجيش الغرب فقط لحوض هذه المعركة الفاصلة ولم يشرك الخليفة حامية امدرمان القوية التي تجاوزت ٣٥٠٠٠ مقاتل وضمت الملازمين صفوة المقاتلين الذين ساحوا بكل البنادق الحديثة وحوالى ٥٠ مدفع ؟ الاحتمالات تفاوتت بين استخفاف الخليفة بقوة العدو القادم وظنه ان جيش محمود وحده يكفى ، أو استبعاده أن تكون معركة محمود معركة فاصلة

(١) يقدر الأستاذ محمود عبد الله أن عدد القتل والجرحى كان أكثر بكثير من التقدير الذى قدمه تقرير المخابرات وهو ٣٠٠٠ من القتل وان كثر اصفاء متمدا للاسياب التالية :
(١) خشيته من هجوم الصحافة عليه . ولم يرد ان تفسد مجزرة عظيرة احتفالاته وزيناته التي أقامها في بربر وهو يذكر ثورة الرأي العام البريطاني عندما علم بقتل السلطان العثماني لبضعة مسيحيين من الأرمن وكان يخشى الزوبعة التي سيثيرها الراديكاليون الذين يعارضون حملة السودان منذ بدايتها وما ذكره قائد المعارضة لا بوسير من ان مشاعره مع الافريقيين الذين يحاربون دفاعا عن اراضيهم وليس مع الاوربيين الغزاة .

وتحديد العدد : ٣٠٠٠ قتيل الذى قدم للعالم بالا جماع كان مصدره السردار نفسه . وان عددا من الضباط - ضمن اركانغرب كثر انفسهم - حاولوا عد القتل ووصلوا إلى ٢٠٠٠ وتعبوا ، كما حاول ستيفنسن ذلك وبعد ان وصل لا لغين تركه .

(٢) كان الغرض الاساسي لكثرت في معركة عظيرة هو إبادة جيش محمود ليمتنع من العودة لامدرمان والقتال ضده مرة أخرى . كما ذكر يرى أحد المؤرخين الاوربيين ولم يكن هدفه الاستيلاء على موقع استراتيجي فقط كما حدث في أبو حمد . »

ص ٢٣٦ - محمود عبد الله - رسالة الماجستير - حملة محمود ود أحمد للشمال

نهائية ، ولكنه هو وليس غيره الذى يحدد أنها فاصلة ام لا ، بحجم القوة التى يقذف بها فى وجه عدوه . والاحتمال الثالث هو الصعوبة التى تواجه الخليفة دائما عند تموين جيش كبير يتقدم خارج ام درمان .

ويمكن حصر نتائج هزيمة عطبرة واثرها العسكرى المباشر على المعركة الرئيسية القادمة فيما يلى :

(١) نقص حشد الخليفة بما لا يقل عن ١١٠٠٠ مقاتل سواء منهم من قتل أو جرح أو من تشتتوا فى أرجاء القطر الواسعة ولم يعودوا لام درمان ، بخلاف البنادق وسرية المدافع التى سقطت فى يد العدو .

(٢) زعزعة معنويات جيش الخليفة فى ام درمان ، بعد وصول فلول وبقايا جيش محمود ووصفها لاسلحة العدو خصوصا السلاح الحديد - الرشاش .

أما النتائج غير المباشرة للظروف التى سبقت المعركة فقد كانت ابعاد اثرا واشد ضررا على جيش الخليفة :

(١) انتشرت فى طول البلاد وعرضها تفاصيل مذبحة المئمة ، وبدأ جزء كبير من جيش الخليفة يتكتل ضده ، اما أول آثار المذبحة المباشرة فقد تجسم فى تكوين فرق العربان المحاربة « Friendly Arabs » لتحارب فى صفوف السردار ، واغلبهم من الجعليين الذين تدافعوا للانضمام لهذه الفرقة سعيا وراء الثأر لعشيرتهم التى ابعدت فى المئمة .

(٢) ازداد الخليفة اقتناعا بالتخلي عن كل المنطقة شمال ام درمان اذ اصبح لا يضمن ولاء سكانها من ناحية وخطابات محمود أبرزت صعوبة التموين لأى قوة كبيرة تتقدم للشمال من ناحية أخرى .

° ° °

بعد نهاية المعركة وقبل أن يقيم السردار احتفالاته المشهورة فى بربر ارسل واستدعى القائد الاسير ، واحضر الامير محمود امامه مقيدا بالسلاسل . عربى طويل وسيم دقيق الملامح ، شامخ الانف يحدق امامه مباشرة لا يلتفت يمنة ولا يسرة.

سأله السردار وهو على صهوة جواده : « لماذا هاجمتني وعنت قتلا وحرقا في هذه البلاد ؟ » .

أجاب محمود : « انا قائد مثلك تماما ، على أن اطيع الاوامر » وأجاب على بقية اسئلة السردار بهلؤ وبرود استحوذ اعجاب كل من شهد المواجهة . ولما جرى اخيرا من امام السردار صاح في وجهه : « ستدفع ثمن كل هذا في ام درمان . فما أنا الا كورقة الشجرة بالنسبة للخليفة . » .

الباب الثالث

المعركة

القادة

« قبل ليمتوب : سيأتي اليوم الذي يحتاجون فيه لأمثالي من الرجال
..... ولن تجدوهم » .

الزراكي طمل على فراش الموت

عثمان دقنة

(١٨٤١ - ١٩٢٦)

« فليكن اكرام المذكور واحترامه وحفظ مقامه : فهو العمود
والنقصد والشريك في المصالح الدينية ولم يزد الاخوان من قبلك واجب
حقه وانت حري بمعرفة حق المذكور فواصله بالاجوبة الحقة . »

خطاب الخليفة عبد الله للأمبر محمود عن
عثمان دقنة . .

لم نبدأ به لأنه صاحب الشهرة المدوية العالمية . . . فقد خلده كبلنج شاعر
الامبراطورية عندما خلد رجاله من المندوبين « Fuzzy-Wuzzy » (١) (٢) .

وليس لأنه قاد حشوداً ضخمة في ذلك اليوم . . . فلم يزد رجاله عن
سبعمئة رجل حينما قاد عثمان شيخ الدين ويعقوب عشرات الألوف . وليس لأنه
صاحب أطول خدمة بين أمراء المهديّة ، لم يقطعها عزل أو خلافه ، ولكن لأنه
صاحب الضربة الموجهة في ذلك اليوم ، فقد ظل عثمان دقنة لانهائية اخصائي المهديّة
في وضع الكمائن الناجحة والمتصدى والخارق للمربعات البريطانية الصرفة - فهو
الذي واجه الجيش البريطاني خمسة عشر عاماً ، وهو الذي أرغم بريطانيا على
انزال لوائين كاملين في سواكن بعد اعلانها عدم التدخل في شئون السودان .

وقد كانت مواجهة الفرسان البريطانيين شبه إعجاز
في تلك الأيام . ولكن هو لاغيره تصدى لفرسان

So here to you, Fuzzy-Wuzzy, at your home in the Sudan; (١)
You are a poor benighted, heathen but a first class "fighting man,
And here to you Fuzzy-Wuzzy with your hayrick head of hair-
You big black bounding beggar - for you break a British Square.
"Ali Wad Hilu, with his green Flag on the far left . . . Khalifa Sharif (٢)
with his red flag on the right . . . Osman Digna on the far right . . .
and his fame needed no flag."

Churchill

كتيبة الرماحة الحادية والعشرين برجاله الراجلين وأنخنهم جراحا وتقتيلا بسيوفه ورماحه . . . وفي مائة ثانية من الزمان .

أنحدر عثمان دقنة من قبيلة الدقناب ، ذات الأصل التركي ، فقد هاجر أجدادهم الاكراد من ديار بكر لسواكن منذ قرون بعيدة عندما كانت تتبع للخلافة العثمانية مباشرة . وجعلهم فرمانا سلطانيا لفترة من الزمن سادة على سواكن . ودرس في مستقبل حياته الفقه والتوحيد وعلوم الفلك فتفتح فكريا وتوسعت مداركه . وفي أيام شبابه الأولى مارس التجارة حرفة عائلته لفترة من الزمن ، فأصبح أحد التجار الموسرين في سواكن ، ولكن ميوله السياسية منذ البداية رفضت الاحتلال التركي القائم . وطالما شوهد يحرّض التجار علنا في السوق ضد الحكومة ، ولم يكن هنالك ما يستفز مشاعره قدر رؤيته لأحد الباشيرق أو أحد جنود الحكومة .

وبلغت كراهيته للاحتلال منتهاها عندما كان في رحلة تجارية لدارفور ، وفي طريق عودته ، داهمتهم قوات الحكومة . وصادرت القافلة كلها ولكن سراح التجار اطلق في النهاية ، وأعيدت لهم تجارتهم ، ماعدا عثمان دقنة . فقد كان خشنا في اجاباته للمستولين فوضع لذلك في الحبس تهيدا لمحاكمته . ولكنه في نفس الليلة ، استغل القوضى التي سادت في المعسكر اثر هطول الأمطار الغزيرة وفر من المعسكر قاطعا كل المسافة من الطويشة للنهوض بتقديمه .

وعندما وقع في يد الحكومة للمرة الثانية صودرت كل أمواله وأموال عائلته ، فأضاف ذلك دافعا شخصيا للدافع الوطني لكراهية الاحتلال ، ومضت السنين وعوامل الكراهية المكبوتة ترسب في أعماقه الى أن كان جالسا أحد الأيام أمام دكانه ، وبدأ أحدهم يتحدث عن المهدي وهو ينصت اليه ويستريده في شغف . وبانتهاء الحديث ترك دكانه مفتوحا ولم يكثر حتى بالتزود بأقل طعام أو مال بل اتجه غربا للأبيض حيث قابل المهدي فعينه أميرا على شرق السودان وسلمه راية الامارة .

ولكن إشعال الثورة في شرق السودان لم يكن بهذه السهولة . . . فقبائل البجة من الحاميين كانت مقسمة الولاء ، ففي الجنوب كان ولاؤها للطائفية المرغنية . . أما في الشمال فهي اما لم يمسسها قهر الادارة التركية ، واما أنها خاضعة لعشرات الطرق الصوفية المحرفة التي تكاد تقترب أحيانا من الوثنية . ولكن عثمان دقنة

تحرك من مركز قوة ، فقد توجه بخطاب التعيين للشيخ الطاهر المجذوب بالدامر ، صاحب النفوذ الديني الواسع في شرق السودان وأحسن هذا استقباله وبسط عليه حمايته وأمده بالتأييد اللازم فكان أن التهب قبائل البجة بالثورة .

ان الاقتحام الناجح عملية شاقة ، ولكن الانسحاب الناجح عملية أشق وهو الاختبار الحقيقي للقادة ، فهو يتم في ظرف عصيبة . فلا ذكريات المعركة الخاسرة ، ولا الموقف أو مجرى الحوادث يساعدان على إتمامه بقوة متماسكة لم تفقد بعد مواصفاتها القتالية . . . وتلك كانت عظمة عثمان دقته . فان كان اختراقه للمربعات الانجليزية عظيما . . . فقد كان انسحابه ومواصلته الكفاح في مكان آخر أعظم وأجدى . وعند استجوابه تقدم شقير وسأله في المعتقل « لماذا ترك أرض المعركة دائما ولا تقتل دون النصر ؟ » فأجاب : « لأقاتل ثانيا ، ولو فعلت ما أشرت به على لأبدت جيشي في المعركة الأولى ، ولما خضت عشرين موقعة انتصرت في ثماني معارك منها وانكسرت في ثمان . ولو ظللت في الميدان للنهاية حتى بعد وثوقي من فقدان المعركة لما حققت أهدافي في المدى الطويل . »

وقد ظل هذا التصميم الفولاذي يلزمه الى آخر لحظات حياته فمجرد ذكر أسماء مواقعه يثبت ذلك . فهناك واقعة الثيب الأولى والثانية والثالثة ، وواقعة طماي (١) الأولى والثانية والثالثة ، وقد شهدته هذه البقاع منتصرا بعد ابادته عدوه كما شهدته متقهقرا بعد هزائم مرة ، ولكنها لم تشهده ابدا يائسا أو متخاذلا .

والواضح ان دقته كان مدركا لعوامل الحرب النفسية وأساليب استخدامها واستطاع ان يستغلها لاقصى درجة . فعندما كان جنوده من البجا يضيقون ذرعا من الانهالك والتعب لمعاركهم المتصلة وحركتهم الدائبة ويؤثر ذلك على معنوياتهم ، كان يشيع ان الانجليز فروا وانهمزوا - فقد كان يعلم جيدا ان الانجليز لا يستطيعون المكث طويلا في سواكن ، ومن ثم يلتهب الحماس في جنوده مرة أخرى فيعيد تنظيمهم ويعاودون القتال بروح عالية وحماس منقطع النظير .

وقد اشتهر بغرامه الشديد بالخطابة ، وحتى حينما يكون العدو امامه لم يكن يحل القاء خطبه النارية على رجاله . وقد تستمر تلك الخطب خمس او ست ساعات .

(١) في الواقع اشتهرت طماي بهذا الاسم ولكن اسمها المحل الاصل هو تمانيت .

ولكنها دائماً تترك رجاله وقد عاودتهم روحهم القديمة والتهبوا بالحماس مرة أخرى فكان يطبق معهم اسلوباً مثالياً للتنوير يشحذ همهم فيقبلون على كل واجب بادراك وإيمان .

وقائد كهذا شغل الأذهان خمسة عشر عاماً ، لابد ان تنتظير الاساطير عنه ، فحتى شقير قال عنه « كان يستطيع العيش أياماً بلا طعام ولأماء ولكنه عندما يجلس للطعام يأكل خروفاً كاملاً ويظل يمزج الطعام لساعات طويلة » . أما انه كان يستمتع بقوة احتمال بدنية خارقة فهذا مارواه الكثيرون ، وهو في معاركه المتصلة كثيراً ما يظل سائراً بقدميه مئات الأميال حاملاً سلاحه وسلاح من أنهلكهم السير . أما عن اكتنازه من الطعام واحتماله للصيام الاجباري فيبدو ان مبعث تلك الرواية كان الآتي :

قبل ان عثمان دقنه كان من شدة إيمانه بأهداف المهدي وخلقه العسكري الاصيل يبدي طاعة حرفية لأوامر المهدي والخليفة ، ويظهر تبرماً وضجراً من جدل أمراء التعايشة مع قريبهم الخليفة في الصغيرة والكبيرة ، وهو ينتظر تسلم أوامره على أحر من الجمر لينصرف وينفذها فوراً دون نقاش . وحرفيته في تنفيذ الأوامر ، كانت تتجلى حتى في أبسط الأمور . فإذا وضع الطعام ودعا الخليفة الحاضرين للأكل واتم القوم طعامهم وبدأوا في الحديث يظل عثمان يأكل ويأكل لزمن طويل الى ان ينتبه له الخليفة ويأمره ضاحكاً ان يكف عن الأكل (١) .

ويقال اذا فُض الخليفة مجلسه الحربي وصرف أمراءه للتوجه كلا الى جهته قائلاً « امشوا » اتجه عثمان شرقاً مباشرة بعد خروجه من بيت الخليفة ويظل ماشياً الى ان تدركه حاشيته بالدواب بعد بحث طويل عنه وعلى مسافة أميال من المدرمان . كل هذا كان امعاناً في عكس طاعته العمياء وولائه الصادق . وليضرب مثلاً لبقية الأمراء في الطاعة الاصيلية .

(١) روى لي الحاج أمين أحمد شرفي أن بعضاً من أهله نزلوا ضيوفاً على عثمان دقنه فقدم لهم بعض الثمار القريبة من غلف الحيوانات وادخلوها في أفواههم ولكنهم سرعان ما لفظوها . ومضى عثمان يلوكها ويبتلعها إلى أن سأله أحدهم « ألا تخاف الله يا شيخ عثمان . هل هذا طعام . » فأجابوه وهو ماضٍ في مضغ طعامه « الله قال جاهدوا ما قال اكلوا . »

ولكن طاعته تلك لم تمنعه من ابداء رأيه عندما يرى خللا في أوامر الخليفة . فقد اعتذر عن تولي امانة دنقلا بعد وفاة ود النجومى . فقد قدر الموقف جيدا وأدرك ان المكان ليس مكانه ولا يستطيع العيش في جو الشمال المشحون بالخلافات وهو الذى تعود أن يطيعه رجاله في الشرق طاعة عمياء . كما خشى على جبهة سواكن المتوترة من الانهيار ، فلن يستطيع احد غيره التعامل مع البجا صعب المراس . كما تمرد صراحة على محمود ود احمد عندما طلب منه الانضمام له في عطبرة ولم ينضم اليه الا بعد ان وصلته اوامر الخليفة شخصيا . كما كان اعترازه بنفسه ومكانته واضحا ، فلم يعترف برئاسة محمود عليه حتى اللحظة الاخيرة .

وعثمان دقنة هو صاحب مدرسة « الاختراق من مؤخرة العدو » ويعود نجاحه الى بعد نظره وخياله التكتيكي الذى فاق تصور اعدائه من الاوربيين أو غيرهم ، عندما كانوا يشكلون قوتهم في مربعات هائلة للتقدم والدفاع . وأدرك نقاط الضعف والقوة في ذلك التشكيل فهو يؤمن نيرانا امامية وجانبية لتكسر هجمات العدو المباشرة مهما كانت قوية . ولكن ضعف المواجهات والاضلاع سهل اختراقها . لهذا لم يعرض قواته لنيرانهم في صفوف تغطى مواجهة العدو .

ولكن ادراكه الحقيقة أخرى كان اعظم اثرا ، وهو الضعف الكامن في الصف الخلفى للمربع . فعندما يوجه ضربته الاولى القوية للضلع الخلفى ويخرقه ، يضع اعداءه في موقف عصيب . فهو اولا يجعل عدوه بين نارين من الحلف والامام ، وسرعان ما تنهار الاضلاع الجانبية وتظل حائرة هل تعكس مواجهتها وتوجه نيرانها الى داخل المربع أو تسارع وتنضم الى الضلع الامامى . كما كان خرقه للمربع الخلفى اسرع طريقا لوسط المربع الذى تجتمع فيه الدواب والافراد الاداريين . فتموج الحيوانات بما عليها من أثقال وتنطلق صائحة في كل الاتجاهات ، وهنا يفقد قائد العدو سيطرته على قوته عدا الضلع الامامى . . . الذى يوجه اليه عثمان دقنة في اللحظات الاولى من المعركة جزءا صغيرا من قوته . . . ويلتفت هؤلاء ليجدوا أنفسهم وحيدين في صف لاعمق له ولا حماية لجانبه . وعند حدوث ذلك الارتباك تفقد القوة تشكيلها وترابطها المتماسك وتنقسم الى مجموعات صغيرة يلتهمها رجال عثمان دقنة واحدة بعد الأخرى .

ولكن تكتيكات عثمان دقنة كانت تتناسب مع نوع معين من الأرض ولظروف معينة . فهي مؤثرة وفعالة مع القوة المتقدمة وليس للنقاط الدفاعية التي تدافع دفاعا حوليا . وكان عثمان دقنة يختار الزمن المناسب للاقتحام اثناء تقدم العدو . فلم يكن يهجم فى زمن توقف العدو حيث جرت عادة هؤلاء ببناء زريبة حول معسكرهم بل كان يهاجم عدوه اثناء تحركه وخروجه من دفاعاته الحصينة . ثم ان طبيعة الأرض كانت مثالية لتطبيقه ، فجبال البحر الأحمر الوعرة وممراتها الضيقة ، كانت تمكنه من تحقيق المفاجأة اللازمة لنجاح انقضاضه ، فقصر الزمن بين ظهور قوته ، والاشتباك مع العدو ، يحرم الأخير من تنظيم قوته أو تغيير مواجهته ، ولم يكن من السهل تنفيذ مخططاته هذه لو كانت الأرض مكشوفة .

ولحساسية موقع سواكن دافع عنها دائما البريطانيون بأنفسهم . وهذا ما جعل عثمان دقنة فى مواجهة أغلب قادة العهد الفكتورى واشهر رجاله وهم جراهام ، وكنتشر ، وونجت ، وود هاوس . وادى بالتالى الى اكتسابه خبرة قتالية مستمدة من القتال المتصل ضد هؤلاء القادة الاكفاء وجيوشهم المدربة القوية ، فكان بالتالى القائد الوحيد المتبقى فى جيش الخليفة الذى لم يعاني من التخلف العسكرى الذى قاسى منه اغلب القادة فى كبرى .

وقد عمر عثمان دقنة الى أن بلغ الخامسة والثمانين من عمره وقد قضى أغلب الجزء الأخير منه فى المعتقل واستجوبه شقير وحاول كثيرون إستجوابه لكنه رفض التحدث . وقد ظل محتفظا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بنفس الايمان بدعوة المهدي وأخرج كل كبار الزوار الذين زاروه فى المعتقل أكثر من مرة ومنهم ملك بريطانيا وخديوى مصر .

الامير يعقوب

١٨٥٥ - ١٨٩٨

« يعقوب . . . جراب الرأى »

الخليفة

« الويل كل الويل لمن يتعرض ليعقوب بسؤ » هكذا قال كل الذين عاصروا حكم الخليفة فى امدرمان ، فقد كان يعقوب الرجل الثانى فى الدولة ، والقوة المحركة والمدبرة وراء الستار ، وصانع اتوقراطية التعايشة ، ولكنه كان سياسيا ناعما مترنا مكملا لشقيقه العنيف .

فى اتوقراطية التعايشة تميز يعقوب بشيئين : محبة أهل امدرمان له عكس شعورهم نحو باقى عشيرته ، فقد كان الرجل رقيقا عطوفا مهذب اللفظ ، كما كان حاتما فى كرمه ويقال ان آلاف من الناس كانوا يتناولون طعامهم يوميا فى منزله ، وترفعه عن التعصب القبلى جعله يتدخل أكثر من مرة ليصلح ما أفسده قومه المتعجرفين ، وحاول جهده ان يقرب الشقة بين قبائل الغرب وقبائل التيل كما تميز بأنه أكثر عشيرة عبد الله ثقافة وادراكا ، فقد احسن تورشين تعليم ابنه وكان يعدده ليخلفه فى مكانته الدينية . وحتى مسئولياته الجسيمة لم تمنعه من عقد مجلسه الأدبى فى امدرمان الذى شهد رقيا فكريا وذهنيا ملموسا ، وقد وضحت كفاءته الادارية عندما تسلم منصب رئيس اركان الخليفة فقد احتفظ بسجلات كاملة لكل افراد قوته التى تجاوزت عشرات الألوف بالامراء والسرايات والافراد ، وقد سجل كميات الذخائر والاسلحة واشرف على الترسانات المختلفة ومصانع البارود بكفاءة ، وخلاف مسئوليته عن كل شئون الجيش كان امير الراية الزرقاء التى تحتاج قيادتها الى مجهود كبير .

ويعقوب هو الرجل الذى يرجع له الفضل فى تحويل جيش الثورة الى جيش نظامى . فكما اسلفنا فقد وضع المهدى الخطوط العريضة للجيش فى الابيض وتولى الخليفة تنظيمه ليناسب مواجهة هكس وحصار الخرطوم . ولكن يعقوب

هو الذى حول الخطوط العريضة الى وحدات وتسليح وسجلات ومصانع ذخيرة ووحدات مدفعية .

وقد كان من اوائل الذين انضموا لشقيقه عام ١٨٨١ بعد هجرة المهدي لکردفان ، ومنها تولى منصباً رئيسياً ولعب دوراً مهماً فى حصار الابيض وابادة هكس ، وشارك مشاركة فعالة فى حصار الخرطوم . فقد كان نائباً لشقيقه وكان يتولى القيادة الفعلية للرماية الزرقاء عندما يكون هذا مباشراً مسئوليته كقائد اعلى للجيش . وعندما اعتلى شقيقه عبد الله الحكم اصبح يعقوب قائد الجيش والرجل الثانى فى الدولة ، فهو المسئول عن الأمن الداخلى وحماية العاصمة مركز القوة من المؤامرات التى كان بارعا فى حبكها واحباطها ، ولكنه كان يحرك الاحداث بهدوء وترو . فلم يكن يظهر أمام الاحداث ، بل حتى فى مجالس الشورى والحرب ، ومجالس القضاء ، لم يكن يعقوب يتحدث كثيراً ، بل يترك القوم كل يدلى بآرائه ويثور الجدل اذ لم يكن هذا مكانه هو . . . بل كان مكانه فى خلواته الطويلة مع شقيقه ليلاً ليدبر الامر معا ويتخذوا قراراً . . . ثم يجتمع المجلس . . . والقوم يتحدثون ويعقوب اما مطرق فى صمت واما مستأذن فهو يعلم جيداً نتيجة المجلس .

والواضح ان محبة الخليفة واحترامه لشقيقه الاكبر استمدت قوتها ورباطها فى المكان الاول من ولاء يعقوب الأعشى . وكان هذا اصيلاً فى اظهاره . ففى كثير من الليالى شوهد يعقوب يقف بباب الخليفة مطرقاً حتى طلوع الفجر منتظراً خروج الخليفة للصلاة . وكان الجميع يعلمون السبب فى هذا الانتظار الطويل ، فالخليفة كثيراً ما كان يستدعيه بعد صلاة العشاء وينسى ان يحضر البواب بترك باب جناحه الخاص مفتوحاً ، وهنا يفضل يعقوب الانتظار حتى مطلع الفجر على أن يندق الباب بعد دخول الخليفة منزله . « على الرغم من ان الزوار عندما يدخلون متحف بيت الخليفة اليوم اول ما يواجههم باب صغير يفضى الى حريم الخليفة كتب عليه « لم يكن يدخل من هذا الباب غير الامير يعقوب . » وتكرر هذا الامر عدة مرات الى ان اكتشفه الخليفة واناب عليه يعقوب .

اما التقييم العسكرى ليعقوب كقائد فى الميدان فقد توافرت له خبرة قتالية لا يستهان بها وابدى كفاءة منقطعة النظر فى شبكان والحرطوم كما ان مسئولية توليه القيادة العامة للجيش لمدة طويلة مكنته من الاحتكاك وتقييم المقدرة القتالية بحسنوده .

ولكن مقدرته وكفاءته العسكرية قاست بالطبع من مسؤلية التمدير والتخلف مثلما قاسى منه الخليفة وقادته فى كررى . وقد كانت هذه نتيجة طبيعية للستار الحديدى الذى فرضه الخليفة على البلاد أو فرض عليه طوال خمسة عشر عاما مما جعله عاجزا عن ادراك التطور الفنى فى التسليح للدول الاوربية والجيش المصرى الحديث .

لذا عانى يعقوب ، كقائد ميدانى ، من قصور واضح فى تقدير قوة العدو . فقد تطورت الاسلحة وكان هو فى امدرمان بعيدا عن ميادين والحرب .

اما الواجبات الرئيسية ليعقوب فقد انحصرت فى الآتى :

- ١ - ممارسة السلطات التنفيذية فى الدولة .
- ٢ - الاشراف على بيت المال الرئيسى وبيت المال فى كل انحاء البلاد .
- ٣ - الاشراف على بيت الامانة والذخيرة . « قبل ان يفصل شيخ الدين اسلحة الملازمين من بيت الامانة » .

- ٤ - تعيين الامراء وقادة الجيوش واجراء التنقلات .
- ٥ - تمويل وتسليح الجيوش والبعثات العسكرية .
- ٦ - ادارة كل شئون الامن داخل وخارج العاصمة .
- ٧ - الاشراف على ملكية الاراضى وتحرير الوثائق الخاصة بها .

ولكن آخر ايام الحكومة المهدية شهدت كسوبا جزئيا لنفوذ يعقوب مع بزوغ شمس عثمان شيخ الدين ابن الخليفة . فقد كان الخليفة يؤهل ابنه ليتولى الحكم أو على الاقل ليتولى منصبا رئيسيا بعد وفاته . وعندما عزل « مجلس الأبهات » عثمان شيخ الدين عن مجلس القضاء وتولى قيادة الملازمين بدأت المنافسة بين يعقوب وعثمان شيخ الدين « وعلى الرغم من انه صهره والد زوجته » أو بدأت المنافسة بين

الراية الزرقاء والراية الخضراء الغامقة، فقد بدأ عثمان في انتزاع خيرة جنود الراية الزرقاء وضمهم لقوته ، وكان يتخذ هذا الاجراء اثناء « العرضة » وبدون استئذان من يعقوب معتمدا على نفوذ والده . . كما جرد الراية الزرقاء من كثير من الاسلحة النارية وضمها للملازمين . كل هذا ويعقوب صامت على مضض فلم يرض أن يسبب اقل حرج لاختيه وكنم الامر ولم يبلغه اياه .

عثمان شيخ الدين

١٨٧٣ - ١٨٩٩

الطريقة التي رسمت لهجوم الملازمين يومئذ دلت بوضوح تام على عدم خبرة الامير بساليب القيادة ومكانه الحروب

« المؤرخ محمد عبدالرحيم - اشترك في هجوم الملازمين في معركة كررى »

شب عثمان شيخ الدين منذ طفولته في امدرمان ، ونشأ وسط حياة المدينة ، ووجد نفسه الابن الاكبر لحاكم كل هذه البلاد . ولم يعان أيا من شظف العيش في البادية ولم تصلب عوده مشاق الحياة شأن باقي عشيرته فنشأ « ابن المدينة » ، بل حتى لهجته كانت كلهجة اهالى امدرمان وسلمت من لكنة البقارة .

وقد اهتم والده بتربيته وتثقيفه اهتماما كبيرا واختار لتدريسه كبار علماء

السودان - شيخ الطبيب هاشم ومحمد عمر البنا ، فنشأ متشربا بمعرفة غزيرة مصقولة ندر أن تتوافر لمن كان في سنه وفي تلك الظروف . فعندما دخل شقير منزله بعد سقوط امدرمان وجد مكتبة ضخمة يكشف اختيارها عن شخصية مثقفة ذواقة للأدب بل وجد فيها أحد مؤلفاته . وفي مقبل عمره ادخله والده مجلس القضاء فاثبت كفاءة ونضجا في احكامه . ويقال انه كان عادلا لا يحابي احدا ولا يفرق بين التعايشة أو غيرهم بل كان نصيرا للحق ، كما كان يمضى اغلب اوقاته مع أهالى امدرمان من دون عشيرته مما أغضب عليه مجلس الابهات الذى أشار بتحويله للجيش . وقد اضر هذا القرار ليس بعثمان وحده بل كان أحد الاسباب المباشرة للهزيمة الشاملة التي منى بها جيش الخليفة في كررى .

وقد اتعب عثمان والده تعباً شديدا ، وبذل الخليفة جهده لتثقيفه وزوجه بابنة عمه يعقوب زواجا مبكرا ليحفظه من اقران السؤ . ولكن هؤلاء سرعان ما وجدوا سبيلهم اليه . وكانت سهرات عثمان شيخ الدين ومجالس طربه حديث المجتمع في امدرمان . وعندما سمع والده بكل هذا غضب عليه وامر بحجسه في المنزل وأمر بنقل منزله قريبا منه حتى يتسنى له مراقبته .

وفي أحد الأيام زار عثمان مطبعة المهديّة وكان مسئولاً عنها أحد الشيوخ العلماء . فأمسك عثمان بلحيته قائلاً « لم اطلتها هكذا » فصفعه الرجل . وانصرف عثمان ليشتكو لوالده . ولكن عبد الله لم يكن يرحم حتى ابنائه : فاستدعى الرجل وسأله ان يقص عليه ما حدث ، وعندما انتهى قال له : « للأسف عجلت وأخذت قصاصك بنفسك ولولا ذلك والله لقطعت يده » .

وعندما سمع الخليفة بأن ابنه واقرانه يلبسون شالات زاهية ناعمة استوردت من مصر . امر بنحبه في المنزل عقاباً له لابساً ناعم الثياب حين كان الآخرون يلبسون جبة الدمور المرقعة رمز الزهد والتقشف .

ولكن عذر عثمان كان واضحاً ، فقد كان في مقتبل العمر وكل تلك الافعال كانت من طيش الشباب الطبيعي . ولكن الخطأ يقع على عاطفة الابوة الغريزية . ويبدو ان عثمان سحر الجميع بما فيهم والده بأسلوبه الجذاب وآرائه المنطقية الناضجة في مجالس القضاء والشورى . لكن مكثه الدائم في العاصمة وعدم توليه أى قيادة ميدانية أدى الى قصور خبرته العسكرية ، فلم يقدر أى بعثة عسكرية أو يتولى ادارة اقاليم منفصلة كامراء آخرين في سنه مثل ابراهيم الخليل والختم موسى ومحمود ود احمد .

ولم يكن ذلك خطأ كبيراً في البداية اذا اعتبرنا ان الهدف الاساسى من تكوين الملازمين كان حراسة الخليفة ولأغراض الأمن الداخلى . . ولكن عندما توسعت قوتهم وضمت اغلب واحسن السلاح النارى فى جيشه ، بحيث اهلها ذلك للقيام بالواجبات الحربية ضد أى عدو خارجى ، اصبحت تحتاج الى قائد ميداني متمرس ، وليس شخصاً كعثمان شيخ الدين ، كل مؤهلاته انه اقرب الناس للخليفة .

ومع ما اتصف به شيخ الدين من القصور فى النواحي العسكرية إلا أنه حاز على صفات اخرى ثمينة لم تتوافر لغيره . فتفانته العصرية ، التى ربما انفرد بها ، مكنته من الالمام بالسياسة الدولية خارج حدود بلاده ، وكان أكثر الجميع مرونة وقاد التيار الذى نادى بالاستفادة من تناقض المصالح الاستعمارية والتعاون مع فرنسا .

ابراهيم الخليل

١٨٧٤ - ١٨٩٨

« المهديّة مهديتكم . لكن نصره مافى »

الامير ابراهيم الخليل يعد رفض فكرة هجوم لليل

كان الشاب الذى قاد الهجوم الاول ضد كتشّر أكفأ قائد فى الميدان باستثناء عثمان دقنة . . . على الاقل من وجهة النظر الاستراتيجية ، فابراهيم الخليل على الرغم من حداثة سنه الا ان آراءه الناضجة والتي لم تجد آذنا صاغية كانت آراء عملية قريبة للصواب فى مجالس الحرب المتعاقبة التى ترأسها الخليفة فى الاشهر الاخيرة قبل معركة امدرمان .

ولد ابراهيم الخليل فى دار الرزيقات ودخل الحلوة شأنه شأن كل الصبية فى ذلك العهد . وقبل ان يتم العاشرة من العمر ارسل اليه الخليفة واستدعاه مع اخوانه محمود ، واسماعيل ، وعبد الرحمن ليقيموا معه فى منزله . وقد اشرف على تربيتهم بنفسه وشبوا عن الطوق كأقران لابنه عثمان شيخ الدين وتلقوا نفس العناية والتثقيف اللذين تلقاهما . ولكن ذلك لم يغير ابراهيم كثيرا ، فكان أكثر امراء التعايشة تواضعا وسماحة خلق . واثرت فيه - كعثمان شيخ الدين - بيئة المدينة فنشأ متبرئا من التعصب القبلى الذى قاسى منه باقى الامراء . وكان لا يحالط الا كهول القوم من العلماء . ولكنه عكس شيخ الدين وجه طاقات شبابه الى النواحي المثمرة من تدريب وحداته واشترك فى العمليات العسكرية ، وتثقيف لنفسه ، حتى كان ابرع وابلغ المتحدثين مما ادى الى ضمه لمجلس شورى الخليفة على الرغم من حداثة سنه .

وفى العشرين من عمره اوكل اليه الخليفة قيادة حملته المتوجهة لقمع تمرد جبال التوبة بجبل ديزى . واستطاع ان يخمّد التمرد واحرز نجاحا سريعا مذهلا رغم وعورة الجبال وقوة المتمردين الذين أسر آلافا منهم وارسلهم لامدرمان . وعندما وصل استقبله الخليفة استقبالا رسميا اظهرا لسروره واعجابه بكفاءة

قريبه الصغير . ويبدو أنه في حملته تلك ترسم خطى صهره (١) العظيم ، عندما اخضع عشرات الجبال واحدة بعد الأخرى .

وبعد ان برهن الخليل على كفاءته ، ولاه الخليفة قيادة جيش الكارا في المكان الذى خلا بتمرد فضل المولى صابون . وعلى الرغم من كفاءة الكارا وتمرسهم فى القتال المتواصل لمدة عشرين عاما فان ابراهيم لم يكتف بذلك بل استمر فى تدريبهم وكان يشرف عليه شخصيا .

ويبدأ يوم التدريب فى جيش الكاره مباشرة بعد صلاة الصبح ويستمر الى مغيب الشمس فى الميدان شرق القبة . وكثيرا ماشاهد الخليفة جالسا فى العصر على عنقريه ممسكا بسبعته وهو يراقب تدريب جهادية ابراهيم الخليل . وكان أحيانا يستدعى ابراهيم ويبدى بعض الملاحظات فينتقل هذا وينفذها فوراً مصححاً الخطأ . وأغلب أوقاته كان ابراهيم يشاهد وهو ينتقل بين جماعات جيشه بحركته الوثيدة ، وقامته الطويلة ، وحديثه الخفيفة .

وكان واضحاً ان النظرة العامة نحو الخليل انه شاب ذو مستقبل مرموق وأن كفاءته وذكاؤه واحترام الجميع له أهلته لاحتلال احد المناصب الكبرى فى دولة الخليفة . فكان طبيعياً أن توكل اليه قيادة الهجوم الأول .

وقد أوضح خبر استشاده عظمة مكانته عند الخليفة ويعقوب مما أحدثه من أثر فى نفسيهما . كما ان الطريقة التى استخلصت بها جثته من بين جحيم نيران العدو المصبوبة توضح ان الخليل كان شخصاً عزيزاً على الجميع .

ولكن هناك ظاهرتين تستلفتان النظر فى شخصية ابراهيم الخليل . أولاهما انه على الرغم من اتزان وهذونه ، كان ضيق الصدر لايطبق الغباء وعدم الموضوعية المتفشى وسط امراء الخليفة . ووضح هذا فى انسحابه من المجلس عندما نوقش الاقتراح الذى قدمه للدفاع عن السيلوقه عندما بدأ المتحدثون يسفّهون رأيه ولم ينتظر للنهاية لفرض رأيه . ووضح مرة أخرى فى المشادة العنيفة التى شبت بينه وبين عثمان شيخ الدين فى ليلة المعركة عندما نوقش موضوع هجوم الليل . ولعل

(١) كان ابراهيم خليل متزوجاً من إحدى بنات حمدان أبى عتجه .

روح اليأس (١) والغضب التي دخل بها الخليل المعركة تلقى بعض الضوء على الاداء التكتيكي الضعيف لابراهيم الخليل وجنوده اثناء المعركة . اذ كانت لا تتناسب اطلاقا مع سمعته وكفاءته في النطاق الاستراتيجي من ناحية ، ولا المستوى العالي من التدريب الذي اشتهر به جيش الكاره من ناحية أخرى ، فأغلب الآراء الصائبة التي قدمت في مجالس الحرب الأخيرة لكيفية مواجهة العدو كان صاحبها ابراهيم الخليل .

اما الظاهرة الثانية فهي عدم الاستلطاف الذي وصل الى درجة الخصومة بينه وبين شيخ الدين على الرغم من قرابتهما ونشأتهما معا . وقد كادت تلك الخصومة أن تتسبب يوما في صدام مسلح بين الملازمين والكاره لولا تدخل يعقوب في آخر لحظة . فقد كان لود هية ، احد جنود ابراهيم الخليل ، جواد اصيل فشاهده شيخ الدين وأنتزعه من الرجل . وسمع ابراهيم الخليل بما حدث فعاد وانتزع الجواد واعاده لصاحبه . وبالطبع استشاط شيخ الدين غضبا وبدأ في تجهيز قوته لاختذه . وتكهرب الموقف الى أن سمع به يعقوب فاستدعى الخليل ولامه وامره باعطاء الجواد لشيخ الدين وتعويض صاحبه بجواد آخر خوفا من تطور الأمور . وظل الود مفقوداً بينهما للنهاية .

(١) في محيط عائلة ابراهيم الخليل يتحدثون اليوم بثقة عن خطاب أرسله ابراهيم لشقيقه محمود قبل عطية يوضح له مرارته من سير الأمور وقال له في نهايته : « موت هناك » . هذا ولم أعثر على هذا الخطاب ضمن محفوظات محمود ود أحمد بمتحف المملكة المتحدة ولم تجب سيرته رسميا في أي مكان .

عثمان أزرق

١٨٩٨ - ١٨٤٥

« (١) وهكذا كانت نهاية ذلك المقاتل العيد - عثمان أزرق
المراوغ - مخلصا حتى الموت »

تشرشل

لئن وقع عبء المحافظة على حدود الخليفة الشرقية على عثمان دقنة ، واصبح شوكة في جنب الجيش البريطاني في سواكن ، فقد كان هذا شأن عثمان أزرق في الحدود الشمالية . فان مركز قيادته المتقدم شمالا جعله على اتصال دائم بالحاميات والمدن المصرية على الحدود . وقد خصصت المخابرات المصرية صفحات وتقارير طويلة عن عثمان أزرق ، وانفقت اموالا وجهودا ضخمة لمقاومة العشرات من غاراته السريعة المفاجئة . فالفضل في المحافظة على تلك الحدود سنينا طويلة يعود الى عثمان اكثر من مساعده قيديم أو بونس الدكيم ، وخصوصا بعد كارثة نوشكي ومقتل عبد الرحمن النجومى ، وسجله العسكرى فى الشمال يحفل بمالا يقل عن مائة غارة داخل الحدود المصرية .

ولد عثمان محمد عيسى فى الابيض التى استوطنت بها عائلته الدنقلوية من زمن بعيد . وعمل هجانا يبريد الحكومة بين الخرطوم ودارفور وجاب اغلب الارحاء الواسعة على ظهر جملة أو جواده . وفى رحلاته المتعددة بدأ يسمع عن شيخ غريب ارتفع صيته كولى صالح . وفى احدى مأمورياته توقف لتناول الطعام فى احدى « القهاوى » المألوفة فى جنوب كردفان ، وكان اغلب الحديث يتناول سيرة هذا الشيخ . فانهى عثمان من تناول الطعام وركب جواده وادار اتجاهه بكل بساطة جنوبا . . . نحو قدير ولم يعد الى وظيفته ابدا .

(١)

“So came the end of that stubborn warrior of many fights, wicked Osman Azrak, faithful unto death.”

W. Churchill

وقد حتم مركز عثمان المتقدم فى الشمال ان تصبح قواته فى نشاط وحركة مستمرة ، سواء لايقاف قوافل تهريب الاسلحة والعتاد التى ترسل لاعداء الخليفة من مصر ، أو لمجابهة طواير الجيش المصرى الذى قويت عزيمته بعد هزيمة توشكى . ولكن عثمان لم يتخذ سياسة دفاعية ابدا ، بل انتهج سياسة عدوانية مستمرة طوال عشر سنوات من الغارات والتسلل داخل الحدود المصرية .

وتكشف دراسة سريعة للسياسة التى اتبعها عثمان أزرق فى ضرباته وغاراته عن فهم مبكر غريزى لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر . فقد ادرك عثمان أزرق انها خير وسيلة لتحقيق المفاجأة . . . العنصر الحاسم فى مثل عملياته تلك . وتطبيقها هو الذى ادى الى اشتهاار عثمان بالمراوغة . وقد اتسمت طريقته بالآتي :

يخرج بطابوره الراكب ويقطع اميالا طويلة يوما أو يومين فى اتجاه معاكس أو بعيد عن هدفه وعند الظلام يغير اتجاهه فجأة لهدفه الاصلى ويطبق على اعدائه المسترخين لتوقعهم هجومه على مكان آخر . ولتحقيق ذلك الالتفاف السريع والمراوغة كان لابد له من قوات سريعة خفيفة الحركة . وهذا ما جعل عثمان دائما قائدا لقوات من الفرسان الخاصة .

ويكاد عثمان وود النجومى ان ينفردان بأنهما الوحيدان من قادة المهديّة اللذان ادركا خواص وامكانيات الفرسان عندما يستخدمون كجواميع ، ولا يمكن ان نفصل ماضى عثمان أزرق كهجاني وفارس محترف وتأثير ذلك فى بلورة نظريات عملياته .

وقد بدأ فى تنفيذها مباشرة بغد تسلمه القيادة فى نقطة الحفير ، فقد تحرك من دنقلا العرضى جنوبا الى ان وصل القولد ثم غير اتجاهه غربا الى هدفه الاصلى ، واحة العقب ، لتأديب سكانها الذين رفضوا الدخول فى المهديّة وهددوا أمن الحدود الشمالية . وفى التاسع عشر من يوليو ١٨٨٦ تحرك بطابور رآكب من ثلاثمائة فارس وسار شمالا حتى صرص ، لذر الرماد فى العيون ، ثم انعطفت للتوقيفية فباغتتها وهرب سكانها على مراكبهم ونال بغيته منهم وهى الحبوب والملابس .

ثم وجه جهده طوال عام ٨٧ لالواحات الغربية متفاديا النقاط القوية فى

الشمال مكررا طريقته القديمة . فقد اتجه بقوته المفضلة - ثلاثمائة فارس مسلحين ببنادق الرمنجتون - شمالا في البداية ثم انعطف غربا في انعطافة حادة نحو الواحات لياغنها . ولم يعد منها جنوبا بل انعطف للشمال الشرقي ليهاجم طابية موسى بك ويقتحمها ويدمرها .

وعندما ضاق الحال بجيوش يونس من شدة المجاعة بدتقلا بعث بعثمان ازرق شمالا لنهب بلدة بريس الغنية ومده بالحبوب اللازمة لثموين جيشه . ونفذ تخطيطه بكاء للدرجة التي وجد القرية خالية من الجنود ، فغنم ٢٥٦ بندقية وكميات وفيرة من الذهب والحبوب والماشية ، امضى ثلاثة ايام في جمعها .

ولشهرته تلك وجه الخليفة شخصيا من امدرمان بأن يتولى عثمان ازرق قيادة حملته الانتقامية الموجهة ضد صالح بك حسين خليفة في المورات . وكان هذا قد باغت اهالى أبو حمد وهم يؤدون صلاة الفجر ، ففتك بهم واباد اغلبهم وسمع الخليفة بما حدث فاقسم ان يقتله ، وجهز يونس الدكيم قوة من ستمائة فارس وتسلم قيادتها عثمان وبدأ في التجهيز للتحرك ، فاخرج عدة اطواف صغيرة لايتجاوز عدد افراد كل منها خمسة فرسان تعمل خلف خطوط العدو . وتمكن احداها من اسر احد هجانة البريد وفيه خطاب من مركز المخابرات المصرى لصالح بك « تحرك عثمان ازرق بقيادة ثلاثمائة فارس - خذوا حذرکم - والنجدة في الطريق » . فغير عثمان طريقه الى أن هاجم النجدة نفسها ولم ينتصر عليها انتصارا حاسما ولكنه تمكن من الانفصال من المعركة بسرعة وتوجه الى المورات ليستبك اشتباكا عنيفا مع صالح بك دام يوما كاملا تمكن من قتله اخيرا وعاد الى مركز قيادته .

ولتخطيط عثمان يعود الفضل الأول في الايقاع بقافلة الاسلحة الكبيرة التي ارسلت للشيخ صالح زعيم الكبايش لتعزيز مقاومته ضد الخليفة ، وكان ضمنها نيوفيلد الالماني . فقد ارسل حمزة الانقريابي لقطع طريقهم واستطاع اسرهم جميعا . وامر الخليفة بقتلهم ماعدا الاسير الاوربي فقد طلب ارساله لامدرمان ، للحصول منه على المعلومات التي يحتاج اليها .

ولعثمان يعود ايضا الفضل في إصابة الباخرة الوحيدة من الجيش الغازي .
فعندما كان يشترك في ادارة معركة الحفير وقف خلف أحد المدافع التي صوبت
نيرانها نحو البارجة «فرقة» وخطأها ثلاث مرات على الرغم من قصر المسافة . وشك
في ان المدفعجي المصري «سليمان الدمياطي» يخطئ عامدا ، فترجل من جواده
وضربه بعرض السيف فرفع هذا يده اليسرى ليحمي وجهه فضربه عثمان بحد
السيف واطار نصف كفه واقسم له ان اخطأها قذيفة اخرى سيفصل رأسه عن
بدنه قبل ان تصل القذيفة مياه النيل . ورفع السيف مستعدا فأطلق المصري القذيفة
الرابعة والدماء تقطر منه فاصاب الباخرة اصابة مباشرة في مرجلها .

والخليفة ادراكا منه لكفاءة عثمان وجرأته استثناه من القاعدة العامة في
قيادة الجيوش . فقد كانت مكانة ومجهود كل امير في حشد المقاتلين والحيول
حول رايته هي التي تحدد حجم قوته وتسليحها . وعندما وصل عثمان لامدرمان
بعد انسحابه من معركة عطبرة لم يزد رجاله عن ثلاثة عشر رجلا . ولكن الخليفة
اقتطع جزءا كبيرا من الملازمين بسلاحهم الناري من قيادة شيخ الدين ، ووضعهم
تحت قيادة عثمان ازرق واوكل اليه محورا بعيدا عن شيخ الدين فاصبح قيادة منفصلة
بحد ذاتها . ولعل الخليفة حاول ان يخفف قليلا من مضار تولية شيخ الدين المسؤولية
الكاملة لقيادة كل الملازمين .

ولعل الاسباب التي حرمت عثمان ان يستمتع بنفس شهرة قادة المهديّة
العظام تعزى لسببين :

أولهما العدد المحدود دائما الذي وضع تحت تصرفه كامير صغير ، وثانيهما ،
الاهداف المتواضعة المحدودة التي حددتها له رئاسته في دنقلا . فغالبا ما كان الهدف
من ارساله للأغارة داخل الحدود المصرية هو لغنم الحبوب وفك ضائقة المجاعة
بدنقلا وملء بيت مالها الخالي .

الخليفة على ود حلو

١٨٤٢ - ١٨٩٩

ولد الخليفة على - الرجل الثاني رسمياً واسمياً في الدولة - في بلدة اغسل على النيل الابيض . وقد امضى صباه الباكر الى طور الرجولة في التفقه وتلقى علوم الدين ، فنشأ واشتهر كرجل دين اكثر منه كرجل دولة . وقد بدأت صلته بالمهدى منذ اول وصول الاخير الى ابا قبل مجاهرته بالدعوة وقبل مقابلته للخليفة عبد الله . ويعزى اليه فضل كبير في الانتصار الأول بأبا ، فقد كان معظم جنود المهدي من عشيرته دغيم ، ولعل ذلك كان السبب الرئيسي لتعيينه في منصب الخليفة الثاني .

ولعل السبب الثاني يكمن في تقواه وسمعته كرجل دين زاهد في الدنيا ومافيه . ولعل المهدي قرر ان يضعه في ذلك المنصب الكبير ليوازن به عبد الله المقاتل السياسي . ولكن عليا وجد نفسه مواجهاً كل ذكاء الخليفة الداهية الذي استطاع ان يحركه كما يشاء واقتصر دوره في النهاية كواسطة خبير للتدخل في الخلاف بين الخليفة من جهة ، والاشراف واولاد البحر من جهة أخرى ، لاسيما ان الخليفة شريف كان يحله ويحترمه احتراماً كبيراً .

ولكن مجرد احتفاظه بقوة ضخمة « خمسة آلاف » من رجال عشيرته المقاتلين في العاصمة جعل الخليفة يعطيه وزناً كبيراً . وعلى الرغم من زهده في السلطة الا أنه أبدى صلابة وحزماً واضحا في الامور الرئيسية . فقد اصر على محاكمة واعدام ود جار النبي عندما صار هذا يتحدث في المنتديات عن عزل على ود حلو وتنصيب شيخ الدين عاهلاً بدلا عنه .

ويقال ان الذي اغضب عليا هو مخالفة الرجل لمنشور المهدي في الخلافة ، اكثر من تجريع الرجل الشخصي له ولمكانته في الدولة . والواضح ان عليا لم يكن واجداً على يعقوب الذي تبوأ مكانته الرسمية فعلاً ، فقد اعطاه يعقوب حقه من

الاحترام والاجلال كما اتسمت تصرفاته بالحكمة والاتزان . ولكن شيخ الدين
بتهوره واهتمامه بالمظاهر هو الذى سبب الامتعاض لعلى ود حلو .

وقد استطاع على ان يحافظ على سمعته للنهاية كاكثر الرجال اخلاصا لدعوة
المهدية بغض النظر عن احداثها السياسية . فقد ظل حاملا لواءها منذ ان امتشق
حسامه فى أبا عام ١٨٨١ الى ان وجدت جثته فى امديكرات مباشرة على يمين
جثة الخليفة عبد الله .

الخليفة محمد شريف

١٨٦٨ - ١٩٠١

« فنظراً لما حصل منه من نقض العهد اقتضى نظر اصحاب المهدي تطبيق الوجه الشرعى ووضعه بالسجن . ولولا اظهاره التوبة لكان جزاؤه اعظم من السجن . »

حيثيات محكمة الخليفة محمد شريف

كان الخليفة شريف عم المهدي وزعيم الاشراف - ولعل هذا يكفى ليوضح نوع المتاعب المتوقعة بينه وبين اتوقراطية التعايشة . فسرعان ما جعله عنصره الدنفلاوى وقرابته للمهدي مغناطيسا يجتذب حوله عناصر المعارضة العنصرية من الجعليين ، والدناقلة ، واولاد البحر ، وعناصر المعارضة الروحية والدينية التى لم تهضم فكرة المهدي كدولة لاكدعوة . الى ان تطور الامر فى النهاية وقاد الخليفة شريف محاولته الانقلابية المسلحة لتسلم السلطة فى امدرمان عام ١٨٨٨ .

ولكن يجب ألا ننسى ان الخليفة شريف كان صغير السن فقد كان فى الثانية والعشرين من عمره آنذاك . وادرك اخيراً وصرح انه فى قرارة نفسه لم يكن يرغب فى تطور الامور لهذه الدرجة . ولكن فات الاوان ولاسبيل للتراجع . وكانت النتيجة ان الخليفة الثالث ، وعم المهدي صانع كل هذه الابداح ، امضى عدة سنوات من مدة المهدي . . . فى السجن .

ولد الخليفة شريف فى جزيرة لبب ، وقد سار على قدميه وهو صبي صغير لم يتحن بعد قاطعا كل المسافة من دنقلا الى ابا لينضم الى المهدي . واحتضن المهدي قريبه الصغير وبدأ فى الاشراف على تعليمه ، ولكنه لم يتفرغ له لانشغاله بأمر اعظم فاوكل امر تثقيفه الى الآخرين ، على أن الاحداث العنيفة التى تلت لم تمكن هؤلاء من اتمام تثقيفه على الوجه الاكمل . فنشأ شبه أعمى . ولكن لعل التصاقه بوجد النجومى الذى كان راعيا واستاذاً له لفترة من الزمن هو الذى ابرز كفاءته العسكرية . وتلك لايشك فيها اطلاقاً . فقد كان القائد الاعلى لقوات الحصار فى الخرطوم وادار

المعارك الأخيرة بكفاءة . وآرائه في مجالس الخليفة الأخيرة كانت آراء صائبة رغم تقديمه لها بطريقة لم تعجب الخليفة وكثيرا ما عرضته للتجريح . كما ان اعظم قادة المهدي كانوا تحت قيادته « الراية الصفراء » ولا يمكن لرجل عادي ان يقود رجالا امثال ود النجومى وابي قرجه وأحمد عبد الكريم .

قادة العدو

« كشنر »

أمضى الصبي هارولد فترة صباه في ضيعة والده الكولونيل المتقاعد كشنر ، وكان من الطبيعي ان تطبع بيئة كشنر الاولى بصماتها عليه الى آخر حياته ، فالكولونيل المتقاعد ادار منزله وكأنه يدير كتيبة ، فالواجبات كانت كالطوابير العسكرية ، حتى التزهة كانت تحسب بالامتار والدقائق . كما كانت العائلة الانجليزية بوجه عام تشعر برفع عن الاهالى الايرلنديين ، ولم يسمح للصبي باللعب كثيرا مع اقرانه . وكانت نتيجة ذلك ان كشنر شب وبرز ما اتصف به هو التعالى على الآخرين والمقدرة على اخفاء مشاعره ، والبرود العملي الذي كان من مظاهره ان يدفع بجواده وسط مذبحه ام درمان وكل الذي حرك مشاعره هو استمرار الجنود فى اطلاق بنادقهم بعد ان صد الهجوم ولم يجد تعليقا امام آلاف الجثث المكسدة غير « يا إلهي لم هذا الاسراف فى الذخيرة ! Oh god, what a waste of ammunition » واذا اضيف الى ذلك سنوات الخدمة العسكرية الطويلة ، نجد انفسنا امام قائد ذى كفاءة ميكانيكية يسندها عقل حسابي دقيق ، وضابط محترف متفرغ لحرفته بدون هوايات أو حياة خاصة تقريبا .

وعندما أمضى كشنر احدى اجازاته فى فرنسا ، وكان طالبا حربيا ، اصر على الاشتراك فى احدى المعارك وابدى رباطة جأش منقطعة النظير وسط مذبح سيدان الهائلة . وعلى الرغم من التقريع المؤلم الذى وجهه اليه القائد العام لاشتراكه بدون اذن فى تلك الموقعة ، فانه لم يستطع اخفاء سروره لاغتنامه تلك الفرصة الذهبية للمفاخرة وسط اقرانه كمقاتل محترف ونخرج كشنر فى ساندهرست بأقدمية متوسطة وانضم لسلاح المهندسين الملكى .

وعند انضمام كشنر للجيش المصرى كان ضابطا مغمورا وليس هناك ما يميزه عن زملائه غير اتقانه للغة العربية ووسامته المفرطة . وقد رشحته معرفته للغة العربية لانشاء مركز متقدم فى الدبة اثناء حصار الخرطوم . وبدأ اسمه يلعب

مع اتجاه الانتظار نحو غردون في الخرطوم . فقد كان دوره هو همزة الوصل بين غردون وبين بيرنج في القاهرة ، وبذل مجهودا ضخما مخاطرا بحياته خلف خطوط العدو ولكن كل ذلك لم يعفه من قلم غردون الجراح . فقد فشل في اىصال أغلب الرسائل لغردون في حين تمكن من تسليم كل رسائله كاملة وارسلها للقاهرة . ولكن السبب كان واضحا : فالجميع كانوا يرغبون في مغادرة الخرطوم ، ولكن لم يكن هناك احد يرغب بمحض اختياره في دخول المدينة المحاصرة .

ولم يكن كتشنر اثناء توليه لقيادة الجيش المصرى محبوبا . ويعزى هذا الى ترفعه عن الاندماج دائما مع الرؤسين ، كما انه لم يزر أيا من الضباط البريطانيين فى منزله قط وكان يفضل تمضية اوقاته مع اثرياء المصريين واليهود . ظاناً أن الاندماج مع رؤسبه يقلل من هيئته ، ولكن كل هذا التعالى تبخر فى لحظة واحدة ولم يمنعه من الكذب بلا مداراة عندما تعرض لغضب الملكة فكتوريا وانكر صلته تماما بموضوع معاملة الأسرى والجرحى والموتى .

ولم يحدث طوال السنين التى إستغرقتها الحملة أن كشف مخاوفه لاي من ضباطه حتى ونجت ، ولكنه كان يوضحها لبيرنج ، وحتى مع بيرنج كان حذرا كل الحذر . وقد اضطر ونجت مرارا الى اخراج نفسه بتقديم النصيحة أو المعلومات اللازمة لتساعد كتشنر فى التخطيط لانه يعلم ان كتشنر لن يطلبها منه مهما كانت حاجته ماسة اليها .

وقد بقيت خدمة كتشنر القصيره فى سلاح المهندسين عالققة بالأذهان ولم تستطع حتى خدماته الممتازة كضابط مخبرات فى السودان أو كحاكم لسواكن أو كسردار للجيش المصرى ان تجعل الناس ينسونها ، فخلفية حرفته العسكرية كضابط مهندس ابرزت الجانب الادارى « Q Side » لكفاءته العسكرية ، وهذا الجانب من سمعته اهله لقيادة حملة كان الجميع يعتقدون ان الناحية الادارية والامداد بالمياه وطول خطوط المواصلات هى اهم النواحي فيها .

ولم يخيب امل قيادته فأدار تقدمه من ناحية ادارية بامتيياز ولاشئ غير هذا الامتيياز الادارى . ولقد مجدته الصحافة البريطانية التى هاجت وماجت فى ولسون

لتأخره ثلاثة أيام فى المتمة وعللت سقوط الخرطوم بتأخره ، نفس هذه الصحافة مجدت كتشنر الذى استغرق ستين ليقطع نفس المسافة التى قطعها ولسون وستيوارت فى أسابيع .

ولذلك لم تتردد القيادة البريطانية طويلا ، واختارت كتشنر قائدا للحملة ولم ترسل لندن احد جبرالاتها لقيادتها خلافا لما حدث من قبل عندما ارسل ولزلى من لندن لقيادة حملة الانقاذ دون ان تستند قيادتها لوودهارس سردار الجيش المصرى .

ولكن ثقة كرومر بكتشنر رشحته لتولى منصب السردار فقفز فقزة سريعة جعلته اصغر جنرال فى الجيش البريطانى . وقد بررت ترقيته حين أحسن أداء واجبه طوال سنوات التجهيز الطويلة فى إعادة تنظيم الجيش المصرى ، كما قضى على الفساد والرشاوى المتفشية فيه ونجح فى ان يقدم فى معركة كررى جيشا يختلف جنوده تماما عن جنود هكس وفالانتين بيكر .

ولعل اللحظة الوحيدة فى معركة امدرمان التى اظهر فيها ملكته القيادية كانت عندما التفت فجأة للخلف وكان كل جيشه فى طريقه لامدرمان واكتشف موقف ماكدونالد الحرج ، فبعثر الويتة الستة لمواجهة الموقف وكأنه يبعثر فصائل صغيرة . ونجح فى تدارك الخطر وانقذ ماكدونالد من الابداء .

وقد تدرج كتشنر فى الجيش البريطانى الى ان وصل لمنصب وزير الحرب اثناء الحرب العالمية الاولى ولكن انزاله وتعاليه لم يفارقاه ، فتكتل ضده أغلب الوزراء المدثيين .

وظلت النظرة العامة لكتشنر وسط صفوف الضباط — على الرغم من الخدمات الجليلة التى قدمها للامبراطورية — انه يمثل مدرسة قديمة لم تستوعب النظريات العسكرية الحديثة خصوصا انه لم يجلس لفرقة الاكادمية بكامبرى التى كانت « المؤدة » فى ذلك العهد . كما ساعد على ذلك مظهر كتشنر وشجاعته الشخصية التى اشتهر بها . وتلك لم تكن محل شك اطلاقا . فقد كان دائما فى مقدمة جيشه ، وعندما كان قائدا الحامية سواكن وفى احدى مطارقاته لعثمان دقنه سقط جيشه فى كمين معد وكاد ان يسقط فى الامر . واصيب برصاصة استقرت فى

حلقة وسدته . وبدأ يَخْتَنِق . وامضى لحظات فى ألم ممض . فقرر ابتلاع الرصاصة
ليتمكن من التنفس ، وابتلعها بقوة ارادة رهيبة .

أما أبرز نواحي القصور فى شخصية كشنر كقائد عسكري فقد كان
تردده عند اتخاذ القرارات . فقد كشف ونجت فيما بعد أن كشنر كان يعاني
معاناة طويلة عندما يتحتم عليه إتخاذ قرار هام أو حاسم ، ويمضى أياما عديدة
فى ألم نفسى ممضى وهو يتخذ قراراً ثم يلغيه بعد ساعات ويتخذ قراراً آخر . إلى
أن يفتح الله عليه بالحل أخيراً وتشرق أساريره ويتراح عن كاهله عبثاً ثقيلاً .

وقد قيم معظم المؤرخين ادارته لمعركة امدرمان بأنها كانت اقل من المتوسط
لسببين . أولاً لتفوقه الساحق فى النيران وثانياً لأن أوامره التى أرسلها فى اللحظات
الحاسمة كانت أوامر خاطئة . ولكن لحسن حظه رفض قادته تنفيذها . فقد رفض
برود وود الانسحاب امام شيخ الدين والعودة لداخل الزريبة وقرر ان يتجه شمالاً
جاراً خلفه كل جيش شيخ الدين وكان اجراؤه صحيحاً . كما رفض ماكدونالد
العودة للزريبة وفضل ان يثبت ويواجه هجمة يعقوب وشيخ الدين ، ولو استمع
لأوامر كشنر لكانت العاقبة وخيمة .

ونجت

كان ونجت هو العقل المفكر الحقيقي للحملة ، وكانت اصابعه تلمح حتى وراء اتفه الامور - اذ كان خلف الاحداث منذ البداية للنهاية .

وكان ونجت طرازاً فريداً من ضباط المخابرات ، فهو لا يكتفى فقط بتحليل الاحداث وكتابة التقارير عنها ، بل هو يمهدها ويحركها حسبما يرى ، ولم تمتد اصابعه الى حملة السودان والحكومة المصرية التي يخدم تحتها فحسب ، بل استطاع بطريقة غير مباشرة أن يمدّها الى سياسة الامبراطورية العليا التي ترسم في لندن . وقد ممكنه من ذلك سعة افق وذكاء وسعة اطلاع لم تكنف باستيعاب الاهتمامات العسكرية لوظيفته نحسب ، بل امتدت الى كل ألوان المعرفة . ولقد برز خلاف شهرته كضابط مخابرات ، كمؤرخ ، وعالم اجتماع ، واداري من الطراز الاول .

وقد طلب ونجت عندما كان ضابطاً صغيراً ان ينقل للخدمة خارج إنجلترا ، لان احواله المادية واصله المتواضع لم يؤهلاه اجتماعياً للمظهر الذي يتطلبه مركزه مرافقاً لاحد كبار القادة .

ومنذ اول لحظة تسلم فيها مهام منصبه ادرك اى طريق وضعته فيه الاقدار ، ولم يتخل لحظة واحدة عن هذا الطريق وتخصص للنهاية في شئون السودان ، تلك البلاد التي الهبت خياله واثارت اعجابه وجند كل مايمكن تجنيده للوصول لغاياته « والتي في نظره طبعاً هي مصلحة الامبراطورية نفسها » وتبجلى ذلك في استخدام محبة كرومر له ، الى تأليف مئات الصفحات في كتابه الضخم ، الى ترجمة كتابي سلاطين والاب اورهلدر بكل ماجاء فيهما من أكاذيب مغرعة . . . مقدماً فيهما من المعلومات والقصص ماينخدم اهدافه مخفياً مالا يلائمها .

ولم يساعده مظهره العادى على الظهور - عكس كثر بقامته الطويلة وشواريه الخالدة . ولم يكن هو يجب ذلك كثيراً . فقد قنع ان يحرك الاحداث من خلف الستار ومن رتبته المتواضعة - ميجور ونجت - المخابرات المصرية ولكنه استطاع بذكاء وحنكة ان يفرض آراءه على رئيسه كرومر وكثيرون .

وكما سلف ، لم يكن كرومر يؤيد التدخل فى السودان اطلاقا خوفا من النفقات المادية . ولكن ونجت وضعه امام الامر الواقع عن طريق نشر ثلاث كتب استطاع عن طريقها كسب رأى العام البريطانى الى جانبه ، وعن طريق تقارير المخابرات التى كان يرسلها شهرياً للقيادة العليا فى لندن — تلك التقارير التى وجهت بذكاء الى اقناع ذوى الشأن بآرائه فى عدم التخلي عن السودان . وعندما انتبه كرومر للفتح الذى أوقعه فيه ونجت كان قد فات الاوان واصبحت الازدهان مهياة لاعادة فتح السودان . . فجارى كرومر الاحداث واعطى النور الاخضر لبداية الغزو .

والمتصفح لآلاف الصفحات من التقارير التى أعدها ونجت وبعث بها الى لندن طوال اثنى عشر عاما ، يلاحظ تخطيطه الذكى على المدى الطويل . فهو فى اوائل ايامه يتنبأ بتدهور قوة الخليفة . ورويدا رويدا بدأ فى ازالة مخاوف البريطانيين عن قوة الخليفة الاسطورية ، والتى كانوا يخشونها ويحسبون لها الف حساب . واخيرا اوضح بالارقام التى توافرت من استجواب سلاطين ، أوضح ضعف قوة الخليفة الحربية وسهولة تحطيمها . كل هذا فى خط مواز مع نشر كتابي سلاطين اورهلدر . ومع بداية عهد التكالب على افريقيا وتهديد منابع حوض النيل بواسطة الدول الاوربية .

ولم يكن باستطاعة ونجت تدبيج تقاريره الدقيقة تلك الا بعد ان تمكن من تهريب اورهلدر — وقد كان تدبيره بارعا للغاية . واعجب به كل العالم . فقد كان هروب اورهلدر شبيها باحدى قصص الاثارة ، خصوصا وقد توافر فيها العنصر النسائي . واكتسب ونجت شهرة عالمية عندما نشر كتاب اورهلدر وأبان فيه الدور الذى لعبه فى احداثه .

ولكن هروب سلاطين كان هو اكبر انتصاراته على الاطلاق فالفضل كله يعود الى ونجت .

وهذه المرة ادهش الجميع فعلا بدقة تخطيطه . وقد أثمر هروب سلاطين كتابه المسمى « السيف والنار فى السودان » كما أثمر صداقة طويلة مع سلاطين امتدت حتى نهاية العمر .

والمدهش حقا هو التفاصيل والدقة النسبية التي وردت في كتابه « Mahdism in the Egyptian Sudan » وذلك اذا نظرنا للزمن المبكر الذي طبع فيه وهو عام ١٨٩١ وقبل هروب سلاطين . على ان المعلومات الغريبة الدقيقة - على الرغم من الاخطاء الطفيفة هنا وهناك - توضح اى شبكة مخبرات رهيبة انشأها هذا الرجل داخل عاصمة الخليفة بل داخل بيته احيانا .

وقد بدت كفاءة ونجحت ظاهرة للعيان عندما استطاع تجنيد اعداد هائلة من السودانيين لخدمة قلم مخبراته ، وقد استغل هو ظروفًا معينة استغلالا ذكيا ناجحا . فقد ادرك واحس حتى قبل وصول سلاطين أين هو الوتر الحساس الذي يمكن ان يعزف عليه . وهو استغلال الخلاف بين الاشراف واولاد البحر والخليفة وعشيرته . فان الخطاب الذي وجهه جرائق لود النجومى عام ١٨٨٩ ، والذي يكشف عن الملام تام بمجريات السياسة فى السودان والذي حاول فيه ان يشكك ود النجومى فى القصد الحقيقى وراء ارساله لمصر ، ذلك الخطاب وضعه ونجحت .

ومع تقدم الحملة ازداد عدد عملائه . أما بعد واقعة المنحة فقد انقلب التأمر الى عداوة بلغت حد اشهار السلاح . وتمكن هو من تجسيم واستغلال رغبة الجعليين الطبيعية فى التأثر الى ابعد مدى .

وفى الثلاثي البريطاني الذى تدور حوله قصة المهديّة - كرومر - كتنشر - ونجحت ، كان ونجحت على الاقل فيما يختص بشئون السودان - هو الركن الاساسى . فهو الذى يحدد ويقرر أى المعلومات ينبغى ان تصل لكرومر وللقيادة العليا ولوزارة المستعمرات والخارجية وادى هذا الى اصطدامه اكثر من مرة مع كلا الرجلين . اما مع كرومر فلم يحس بخطورة ونجحت الا فى اواخر ايامه وبعد ان وقع فريسة لتخطيط دقيق من مخبرات ونجحت ولكنه لم ينبس ببنت شفه . ولم يحرك ساكنا . بل ابتلع الهزيمة فى صمت وظلت علاقته الابوية الودية مع ونجحت الى آخر أيامهما .

اما كتنشر فقد تجاوب طموحه مع افكار ونجحت فى بادى الأمر وايد الغزو بشدة فقد رأى فيه نصرا ومجدا جديدا ، ولكنه بدأ يضيق ذرعا عندما كان يحس انه خارج الصورة ، وتأزمت الامور بينهما عندما استغل ونجحت غياب كتنشر

فى انجلترا وجهاز حملة ام دبيكرات الموجهة لشخص الخليفة عبد الله الرمز الوحيد الباقي للمهدية . وبقتل الخليفة كسب الجولة الأخيرة ضد كتشنر وغضب هذا ولكن لم تكن له مبررات رسمية لاتخاذ اجراءات أو حتى شكوى ونجت . وهكذا سرق ونجت الاضواء من كتشنر فى اللحظة الأخيرة .

أما يومه العادى أثناء السنوات التى إستغرقتها الحملة ، فقد كان يمضيه فى خيمته وعشرات الاشخاص يدخلون ويخرجون واغلبهم من الاسرى والعلماء : وفى المساء ينصرف الجميع ويبقى هو وحيدا لتمحيص المعلومات وتقديم تقريره النهائى ، وحوالى منتصف الليل يحمل اوراقه ويدخل على كتشنر ويظلان معا لساعة متأخرة .

وقد كانت حملته الموجهة للخليفة فى ام دبيكرات هى اول خدمة ميدانية يتولى فيها مسئولية قيادية واستطاع اتمام مهمته بنجاح اطار صيته فى كل أنحاء الامبراطورية . وعلى الرغم من براعته وتخطيطه الدكى الجرى فان الفضل فى تمكنه من الخليفة لا يعود كله اليه ، بل يعزى الى قرار الخليفة القدرى بانتظار نهايته فى ام دبيكرات .

ماكدونالد

كانت معارك القرن التاسع عشر تعتمد على هندسة اصطفااف الوحدات كالقطع الهندسية ، لتقدم خطا صلبا من الزيران أو الاسنة البيضاء . لذلك نجد أن الالفاظ التكتيكية الشائعة هي الفاظ « هندسية » مثل المربع « Square » واصطفااف المعركة « In Line » واصطفااف التقدم « In colum » ومن ثم كان تدريب الجيوش يقاس لحد بعيد بالناحية الهندسية والمقدرة فى تغيير الاصطفااف لاصطفااف آخر : ولذلك كان الاهتمام مركزا نحو البيادة والطواير « Drill » كبيرا .

وقد ظلت مناورة ماكدونالد السريعة التى نفذها فى معركة امدرمان لتغيير مواجهة لواء مشاة كامل لاتجاه ١٢٠ فى حوالى ٢٥ دقيقة تحت نيران العدو ليواجه هجومين من اتجاهين متعاكسين . ظلت هذه المناورة مثالا مفضلا يدرس لسنين طويلة فى مدرسة الاركانخرب بكامبرى .

وقد ترقى ماكدونالد من الصف - وتدرج من رتبة جندى حتى وصل لرتبة اللواء نتيجة لمثابرته ورباطة جأشه ، وانحصر اهتمامه فى حرفته العسكرية . وكان يرمى كل وقته مع جنوده فى ساحات التدريب . وعندما دخل معركة امدرمان كان يقود اللواء الثانى الذى اشرف على تجنيد جنوده السودانين ، وأشرف على تدريبهم بنفسه لسنوات طويلة .

ولعل ماكدونالد ولواءه السودانى كانوا أكثر الجميع خبرة بحرب السودان فقد أمضى سنيًا طويلة وهو يقود كتائبه فى حلقات وفى حاميات الحدود الجنوبية وفى اشتباك مستمر مع قوات المهدي . وأشارك فى أغلب المعارك الكبيرة التى تخللت حرب السنتين وتحمل الجزء الأعظم خلال معارك فرکه وعطبره .

وقد كان ماكدونالد احد الاعمدة التى اعتمد عليها السردار فى اعادة تنظيم الجيش المصرى . وظهر نجاحه فى أنه أفلح فى تقديم وحدة نادرًا ما وجد مثلها فى التدريب العالى والانضباط فى أحلك الأوقات .

الجنود

« (١) لا يمكن لجنود بيض تحمل ذلك الموت المصوب ولو لدقائق معدودة : ولكنهم واصلوا التقدم في وجهه باصرار . »

مستيقظون

ان الصفة الأساسية المطلوب توافرها في الجنود ، هي أن يكونوا مقاتلين قبل أن يكونوا جنودا . والمقاتل هو تلك الأداة المشحونة بجرعة معنوية قوية تمكنها من التغاضي ونسيان غريزة البقاء مخاطرة بحياتها بحيث تعتبر القفز نحو الموت في نظرها أمرا هينا . ولكي تستطيع تلك الأداة القيام بواجبها لا بد لها من صفات أخرى غير الصفات المعنوية . . . لا بد لها من الصلابة الجسدية والمقدرة على تحمل المشاق ، والادراك الغريزي لأفضل الطرق لقتل العدو . وهنا يكمن دور البيئة ومقدرتها في تقديم أعيرة مختلفة من المقاتلين .

أما الجنود فهم مقاتلون مروا بفترة صقل من التدريب والتطبيع في المجتمع العسكري ليضفي ذلك نوعا من الواقعية العملية لأفضل الطرق لاستخدام طاقاتهم المعنوية والجسدية في أرض المعركة .

ولو طبقنا هذا التقييم على قوات الخليفة في امدرمان ، سنجد أنهم أفلحوا في أن يقدموا للتاريخ أحسن مثال للمقاتلين ، وهذا بشهادة أعدائهم ، وبشهادة راجعة الخسائر التي تجاوزت أكثر من ستين في المائة في خمس ساعات . وهنا ظاهرة تلفت النظر ، وهي أنه اذا كان مقياس المقاتل هو الشجاعة التي لاتعرف حدودا ولا تبالي بالموت ، نجد أن مقاتلي الخليفة لم يبالوا بالموت فحسب ، بل تمنوه ، وكان شيئا مستحبا لديهم . اذن فهم كمقاتلين تجاوزوا حد الكمال . أهلهم لذلك حافز قوى . . . الجنة . . . وجرعة معنوية قوية . . . دعوة المهدية . . . وصفات طبيعية غدتها بيئتهم وزمانهم .

No white troops could sustain such torrent of death for five minutes, (١) yet they kept coming

“Stevenson”

ومن السهل الوصول لتلك الحقيقة بالاستماع لأقوال أغلب من اشتركوا فى المعركة وخرجوا احياء أو للأقوال الأخيرة - حتى للقادة - لمن سقطوا فى أرض المعركة . فعباره « مشيت داير الشهادة » تقال برنة صدق لارباء فيها ولا تكلف . قد نستمع احيانا لرنة من اليأس الانتحارى « درنا الموت محافظة على بيعتنا للمهدى » ولكن تلك الرنة تسمع ممن كانوا أكثر الجميع مرارة ، سواء من الوضع عامة أو من الطريقة التى قررت القيادة أن تخوض بها معركتها الفاصلة ، وتلك كانت القلة . لقد كانت تلك الظاهرة - الاصرار على الموت - متفشية وسط مقاتلى الخليفة للدرجة التى أسهمت فى إبادة جيشه . أو على الأقل مكنت العدو من دفع ثمن رخيص للغاية لانتصاره . فان عشرات الصفوف اندفعت واحدا وراء الآخر لتباد فى نفس المكان وبفسس الطريقة . ولو توقفوا عند استحالة مواصلة اقتحام ناجح لخطوط العدو وعادوا أدراجهم لمعاودة الهجوم بطريقة أخرى ومن مسلك آخر لكان بإمكانهم بالتأكيد حرمان العدو من ذلك الانتصار السهل .

قد تكون القيادة وتهورها أحد الأسباب ، فابراهيم الخليل ، ويعقوب ، وعثمان ازرق ، جعلهم مركز قيادتهم المتقدم دائما أول الضحايا لثيران العدو . . بحيث لم تنح لهم الفرصة فى ايقاف اندفاع جنودهم نحو الموت المؤكد . ولكن احد الاسباب الرئيسية يكمن فى الجنود أنفسهم . . . وهو رغبتهم الأكيدة فى الموت .

وأثر البيئة الاصلية - حتى قبل أن يشحنوا بالجرعة المعنوية كان واضحا . فالنظرة العامة للرجل هى أنه « مقاتل » قبل كل شئ . ويبدو هذا جليا - حتى اليوم - فى الفنون الشعبية « Folklore » وفى الحكايات والاساطير « Mythology » .

والشخص المميز ، لم يكن يميز بغناه أو بنجاحه ، بل بشجاعته ، فلمسم يكن ذلك مجتمعا اقطاعيا أو بورجوازيا بل كان مجتمعا لم تزل سماته القبلية هى الغالبة . وقدود الفتيات والعذارى عندما تتمايل على الدقات والاهازيج المنعمة ، سواء أكان ذلك فى أعياد الحصاد ، أم فى ليالى الأعراس ، كانت تتمايل على الأغاني التى تمجد الشجاعة والبطولة الفردية . حتى المراثيات و « المناحات » لم تكن

تصف الحزن واللوعة بعبارة تقطع نياط القلوب ، بل كانت تتحدث عن صفات المفقود من شجاعة وأقدام وقوة تحمل .

وكيفما كان تقييم مقاتلي الخليفة كجنود ، فسجد ان هناك تفاوتاً واختلافاً كبيرين في مستوياتهم ، اذ أن مستوى جنود الراية الزرقاء الذين حشدوا من قبائل الغرب مثلاً ، يختلف اختلافاً كبيراً عن مستوى جيش الكارا أو الملازمين .

وهذا الاختلاف تكمن أسبابه في مجرى أحداث ستة عشر عاماً منذ أن خاض المهدي معركته الأولى . فاذا كان التحول والرقى من مقاتل الى جندي يكمن في مدى توافر قدر معين من التدريب والسلوك النظاميين ، نجد أن بعضهم لم يتوافر له ذلك اطلاقاً ، والبعض الآخر نجده تلقى أئمن وأرقى أنواع التدريب . . التدريب العملي في ارض المعركة الحقيقية . تلك التي لاتدانيها فرصة أقيم . ولنستعرض جنود الخليفة بسرعة لتقييم المقدرة القتالية لهم كأفراد .

أما وحدة الملازمين فكان أفرادها أحسن الجميع معياراً للجندية . أولاً لانهم ضمو جيش الكاره - جهادية أبي عنجة القدامى الذين تلقوا تدريباً عادياً في زمن الاحتلال وتدريباً عملياً عبر عشرات المعارك مع قادتهم الاكفاء . وثانياً لانها الوحدة الوحيدة من وحدات الخليفة التي ثبت أنها كانت تتلقى تدريباً منتظماً متواصلاً . وعملوا كجنود نظاميين وكانوا يتسلمون مرتبات منتظمة وتصرف لهم التعيينات يومياً - كما كانوا جنوداً محترفين متفرغين للجندية عكس باقي الرايات التي اكتفت بغير النظاميين الذين مكثوا أغلب أوقاتهم في مناطقهم ولم يخدموا في الجندية الا عند استدعائهم للحرب .

أما الراية الخضراء من قبائل النيل الابيض فعلى الرغم من انهم أقدم جنود المهدي وأول من انضموا اليه وشاركوه في معاركه الأولى وتوافر لهم التدريب العملي منذ البداية ، إلا أنهم ، بعد سقوط الخرطوم ، لم يشتركوا في عمليات الخليفة الكبيرة في جهات السودان المتعددة . فدخلوا المعركة تقريباً بنفس المستوى الذي خاضوا به وخاض به آباؤهم معارك المهدي الأولى . ولئن كان نجاح المعارك الأولى ساحقاً ، فلا أن طبيعة العملية والارض والعدو تختلف عن كررى .

أما الراية الزرقاء ، فقد تمثل فيها الجنود الغير نظاميين الذين كانوا مقاتلين وحسب . فأغلبهم حضروا للاشتراك فى المعركة مباشرة من المراعى . كما كان أغلبهم من الحيل الجديده « مقاتلين وليسوا جنودا » . لأن المتمرسين القدامى منهم من مناطق التكتشف السكاني : كردقان ودارفور وبالذات الرزيقات ، كانت الحروب المتصلة قد استهلكتهم قبلاً ثم استنفدت معركة عطبرة البقية الباقية منهم . هذا وقد أكل سكان امدرمان ، من جميع الحرف وجميع القبائل ، تكوين الراية الزرقاء فضمت حوالى اثنان وخمسون قبيلة وفرع قبيلة . ولكن أغلبها كما ذكرت حشد من عرب البقارة أو من قبائل غرب السودان . واولئك قوم كانت الحرب والصيد هى شغلهم الشاغل وليس لديهم حرفة أخرى غيرها . فان الحرف والعمل اليدوى كانت ومازالت تعتبر من واجب النساء . أما الرجال فهم للحرب والصيد والقتال . وهم ان لم يجدوا سبباً للقتال اختلقوه . فهم يقاتلون من اجل القتال . واذا اضيف اخيراً توافر « الدافع » القوى نجد ان اندفاعهم نحو الموت كان شيئاً طبيعياً .

ولكن كانت هناك عينة أخرى مختلفة تماماً . . وهم رجال عثمان دقنة من البجا عامة والمهندوة خاصة فهم يختلفون من حيث الأرض والبيئة . والملاحظ ان قبائل الشرق ، حتى فى خصامهم وقتالهم القردى « يعتمدون على المباغثة الخاطفة وهذا حتم عليهم توجيه ضرباتهم احياناً كثيرة من الخلف ، كما جعلهم فى منتهى البراعة فى سرعة الانفصال من العدو . ومن الصعب تصور طريقة أخرى يحقق بها هؤلاء اهدافهم اذا اعتبرنا العوامل المضادة التى واجهوها ألا وهى قلتهم العددية ونوعية العدو الذى واجهوه . والاهوال التى قاسوها سنينا طويلة من القتال المشتعل ، والحركة الدائبة والحسائر الكبيرة . وقوة الشرق هذه كانت أكثر الجميع خبرة واتصالاً بالجيش البريطانى لمدة طويلة ، ومن ثم كانت أعلم الناس بأساليبه وتكتيكاته وتسليحه المتفوق .

ومن الصعب تحديد ايهما أثر فى الآخر : هل كانت طبيعة المهندوة هى التى حددت وميزت طبيعة عمليات عثمان دقنة الخاطفة ؟ أم كان التصاقهم به كل تلك السنين الطويلة وتطبيقهم لنظرياته هى التى جعلتهم يشتهرون بالكمائن الناجحة والضربات الخاطفة ؟

ولعل احد الاهداف الرئيسية من سنين التدريب الشاقة فى كل الجيوش هى تهيئة المقاتلين ليصبحوا أداة طبيعة فى يد قادتهم الاصاغر ، وغرس صفات الطاعة الميكانيكية الغريزية لتنفيذ الاوامر السريعة فى أرض المعركة . ودور العلاقة بين القائد وجنوده يلعب دورا كبيرا فى هذه الناحية . ونظرة سريعة الى كشوفات رايات الخليفة توضح ان اغلب الامراء الاصاغر ورؤس المائة - حتى المقدمين كانوا من زعماء القبائل وفروع القبائل ، فضمن ذلك طاعة اصيلة قديمة من الجنود لقادتهم . وتلك ناحية اخرى تثبت بعد نظر يعقوب الذى تولى تنظيم وحدات جيش الخليفة وتعيين القادة .

أما من ناحية اللياقة البدنية فالواضح انها كانت عالية ، جنودا كانوا أو مقاتلين . ووضح هذا فى يوم المعركة عندما تجاوزت سرعة مشاتهم سرعة هجانة وخيالة برود وود وسط احجار كررى الوعرة ، وعندما طاردوها ثلاثة أميال شمالا واستمروا بركضون بسرعة تكاد تقترب من سرعة الخيل ثم عادوا مرة أخرى قاطعين نفس المسافة ليلحقوا بنهاية المعركة التى كادت أن تفوتهم . ساعدهم على ذلك اجسامهم النحيلة ، وعضلاتهم الخفيفة ، وتعودهم على مشاق الحياة وانعدام الرف ، وتجهيزاتهم الخفيفة .

والغريب ان تلك اللياقة البدنية العالية وقوة التحمل الجسماني لم يغذيها من الطعام الا أقله واتفهه . اذ قورنت بتعينات الجيوش النظامية التى واجهوها . فتعينات جيوش الخليفة كانت تقريبا من الذرة . وعلى الرغم من التنوع والتفنن فى صنعه فان العنصر الغالب المكون للطعام كان من الذرة . وقد تفاوتت طريقة تقديمه وبين تقديمه مسلوقا كبليلة أو كعصيدة أو « كآبريه » -والآبرى كان يستخدم بكثرة لسهولة حملته ويقدم مع الشطة والملح مبلولا كأكل وليس كشراب ، ونادرا ما كان يقدم اللحم . ولعل الرف الوحيد تمثل فى الشاى وكان هذا ماتوفر للقلة من سكان امدرمان ، وحملوا معدات اعداده معهم لأرض المعركة .

كيف بدا جنود الخليفة ؟ لقد كان اللبس العادى للجندى من جيش الخليفة يتكون من جبة مرقعة قصيرة تصل الى مائحت الركبة بقليل وسراويل وصندل « بعضهم كانوا حفاة » كما كانت تلبس العمامة فوق الرأس . وفى العادة كان

كل منهم يحمل سيفاً وأربع حراب قصيرة « الا الملازمين فهم يحملون بنادقهم » وكان الواحد يحمل ركوة بها ماء الوضوء « الركوة هي ابريق من الجلد » . وقد كان الاثرياء وخصوصاً من سكان امدرمان ، يأخذون عبيدهم معهم لحمل ابريق الوضوء والطعام وأدوات الشاي .

كما كان أغلب الامراء والقادة يحملون أكفانهم معهم وهي عبارة عن قطعة من الثوب توضع ملفوفة في مخلاة الجواد ، وكان ذلك دليلاً على أنه ذاهب للمعركة ليموت . ولوحظ أن عدداً قليلاً من أثرياء الامراء يرتدى دروعاً منسوجة من الحلقات الحديدية (زرداً) شبيهاً بتلك التي كان يرتديها فرسان الصليبيين ، ويبدو أنها كانت تصل لامدرمان مهربة من موافق البحر الاحمر .

.. .. .

والعدو ؟ :

أما الجندي البريطاني فهو سيد معارك القرن التاسع عشر وليس هنا مجالاً لتقييمه ، ولكن في امدرمان تحمل جزءاً هيناً من المعركة . وقد مكنته تدريبه العالي وتجهيزاته واسلحته المتفوقة من التصرف بميكانيكية وبرود ، فقد واجهت الفرقة الانجليزية الهجوم الاول واستمر مشاتها في ضرب جيش المهديّة من بنادقهم وكأنيهم كانوا في مرمى ضربينار وليس في معركة حقيقية . وعندما استنجد بهم ماكدونالد لمواجهة هجمتين متعاقبتين تحركوا ركضاً وشكلوا مواجهة سريعة وبدأوا في ضرب الجماعات (بالارشاق) « Volleys » بضبط ودقة .

اما الجندي المصري فهو صورة طبق الاصل للفلاح المصري بينائه المتين وفراسته الجسدية . ووضح أدائه في ذلك اليوم مدى التحسن الذي صار اليه امره . كما وضح الفرق الكبير بين هؤلاء الجنود وجنود هكس وتوفيق بك حسين الذين كان فارس البقارة يدفع امامه منهم المئات في ذعر وفوضى . فالضبط والربط العالي ، والتدريب ، والمعاملة الكريمة واهم من ذلك . . المرتبات المنتظمة أثمرت جنوداً ممتازين .

وأما جنود الكتائب السودانية « في جيش العدو » فقد كانوا هم ، وليس غيرهم ابطال ذلك اليوم . فلواء ماكدونالد الذي انقذ الموقف وتحمل هجوم ثلثي

جيش الخليفة من محورين متعاكسين ، وبفاصل نصف ساعة بين الهجومين ، كان أغلب جنوده من السودانيين ، « ثلاث كتائب سودانية وكتيبة مصرية » . ولقد صبر هؤلاء بشجاعة بل تحملوا بسرور هجمات يعقوب ثم شيخ الدين وعبد الله أبو سوار واستمروا في إطلاق بنادقهم ولم يتزعزع أحد منهم خطوة واحدة . ولو حاولوا التقهقر أمام صدمة الهجوم الكاسح لكان الموقف قد تغير تغيرا كبيرا ، ولعل وصف تشرشل للواحد منهم كان أمينا لحد بعيد حينما ذكر عنه :

« (١) الاخلاص والولاء يدعمهما قلب كقلوب الأسود ، وأهم خصائصه هما حبه لضابطه ، وعدم معرفته بالخوف إطلاقا » .

(١)

To the faithful loyalty, he added the heart of a lion, he loved his officer and feared nothing in the world."

Churchill

السلاح

« (١) المدفعية كانت سيدة اليوم »

ستيفنسون

لقد كان تسليح جيش الخليفة أكبر دليل على انعزال الدولة الفتية عن بقية العالم وهو يظل على القرن العشرين ، والثورة التكنيكية قد بدأت في الانطلاق . ويمكن أن نقسم تسليحه الى الاقسام الرئيسية التالية :

١ - السلاح الأبيض :

تسلح أكثر من نصف جيش الخليفة بالسيوف والحراب ، وكانت صناعة السيوف رائجة جدا في أمدرمان وتخصص فيها الكثيرون فالحديد الخردة «خصوصا بقايا قضبان السكة الحديدية في الشمال » كان يصهر في سوق الحدادين .

كان كل مقاتل يحمل ٤ حراب قصيرة ، وحرية رئيسية طويلة يراوح طولها بين ثمانية وعشرة اقدام ، وكانت هذه الحرية هي سلاح الاقتحام الرئيسي . أما الحراب الصغيرة فكانت تقذف من مسافات قصيرة قبل الاقتحام بالحرية الرئيسية .

٢ - الأسلحة الصغيرة :

دخل الخليفة المعركة بحوالى ١٥٠٠٠ بندقية تفاوتت أنواعها بين أبو لفته والرمنجتون ومارتينى هيرى .

أ - البنادق أبو لفته : كانت تمثل الغالبية العظمى .

الطول : خمسة اقدام وبوصتين

نوع الماسورة : ملساء

أقصى مدى للطلقة : ٦٠٠ ياردة

طريقة الاستخدام : توضع الطلقة في فوهة الماسورة ثم تدفع داخل

“Artillery was the hero of the day.”

R. Stevenson

(١)

الماسورة بسبيخ حديدى الى أن تصل لقاع الماسورة وبعدها ترفع فى الكتف وتطلق ، لذا لم يزد حجم نيرانها عن طلقة فى الدقيقة فى أحسن الاحوال .

ب - البندقية الحشخشان : بندقية صيد الافيال :

عيار الماسوره : ٧٠٠ ر . بوصة

الوزن : متفاوت

الطول : خمسة أقدام

أقصى مدى للطلقة : ٤٠٠ ياردة

ج - البندقية رمنجتون :

عيار الماسورة : ٤٣٣ ر . بوصة .

الوزن : تسعة ارطال ونصف رطل .

الطول : اربعة اقدام وبوصتان

اقصى مدى للطلقة : ٨٠٠ ياردة .

المدى المؤثر : ٣٠٠ يارده

وزن الطلقة : ستمائة وستة وخمسون جزئيا « Grain »

نسبة وزن شحن البارود للطلقة : ١ : ٥٥٣٣

طريقة الاستخدام : تعبأ واحدة بعد الاخرى ، بعد جر الترياس

للخلف . ثم تطلق الطلقة وبعاد تعميمها بنفس الطريقة . ولذلك فكمية النيران

المتوقع ضربها فى الدقيقة حتى بدون تصويب كانت لا تتجاوز ثلاث طلقات

فى الدقيقة . وتعتبر الرمنجتون بندقية حديثة بالنسبة للقرن التاسع عشر

فماسورتها مخشخشة من ناحية ، كما ان تعميمها يتم من الخلف وليس من

الماسورة مما سهل استخدامها .

ج - البندقية مارتينى هنرى « Martini Henri » :

حوالى ٢٠٠٠ بندقية

عيار الماسورة : ٤٥ و بوصة .

الوزن : تسعة ارطال .

الطول : اربعة اقدام وبوصة ونصف بوصة .

افصى مدى للطلقة : الف ومائتا ياردة .

المدى المؤثر : ٤٠٠ ياردة

وزن الطلقة : سبعمائة وثمانية وخمسون جريباً « Grain »

نسبة وزن شحنة البارود الى الوزن الكلى للطلقة : ١ : ٦

طريقة الاستخدام : نفس طريقة الرمنجتون وبالتالى نفس الناتج من

كمية النيران .

هذا وقد مثلت البنادق الجزء الرئيسى من قوة نيران جيش الخليفة . فسدفعيته لم تكن ذات شأن كبير فى المعركة . ولكن الخواص التى ذكرت اعلاه تمثل أداء السلاح فى احسن حالاته وهو بحالة جيدة من الصيانة ، وبذخيرة مصممة بدقة لتناسب السلاح . ولكن بنادق الخليفة ، بل فى الواقع كل اسلحته ، قاست من قصور يمكن تقسيمه الى قصور من ناحية أداء السلاح ، أى من ناحية النيران ، وقصور تكتيكية يكمن فى استخدامه الانفرادى والجماعى .

أما من ناحية أداء السلاح أو ناحية النيران فقد كن القصور فى البنادق والذخيرة . فمن المعروف ان جنود الخليفة لم يصونوا (١) بنادقهم على الاطلاق « على الرغم من حاجتها لقدر مضاعف من الصيانة لرداءة البارود » وتلك البنادق والتى غنم جزء كبير منها من جنود هكس والملك جون أو من الحراطوم اغلبها لم تشملها صيانة لسنوات طويلة . فلم تزيث لحمايتها من الرطوبة ، أو لازالة بقايا الطلقات المتجمعة فى الماسورة ، ولذا فقدت كثيرا من ضبطها . كما ان الاتربة والاوساخ المتراكمة فوق ابر ضربار جعلتها كثيرة الموانع والاعطال مما قلل كثيرا من حجم النيران . واغلب البنادق كانت من الانواع المستخدمة فى اوائل ومنتصف القرن ، اى ملساء الماسورة .

ثم ان أغاب الجنود كانوا ينشرون (٢) مواشير بنادقهم ليسهل حملها ،

(١) من العدل أن نستثنى ود بشاره من ذلك القصور . فقد أوضحت خطباته لقادته إهتمامه بصيانة الأسلحة وكان يحث دائماً القادة على مراقبة تنظيف وصيانة الأسلحة بل حتى قبل أيام من معركة فركه أرسل خطاباً لخموده وحاشيته « مرفق لكم ١٢ رطل زيت بنادق » .

(٢) اثبت الفحص السريع لاكثر من اربعمائة بتلقية اخذت من أرض المعركة محفوظة الا ان يحتف الخليفة ان مواشيرها نشرت جميعا بدون استثناء .

فقد كانت بنادق ذلك العهد ثقيلة وطويلة . ويمكن تصور أثر ذلك على دقة ومدى طلقات البنادق . وهذه نقطة ملفتة للنظر . ولا يدري أحد كيف فانت خطورة هذا الأمر على قادة الخليفة خصوصا من كانوا ضباطا وجنودا فى جيش الاحتلال السابق .

ومن الثابت أن أحد أسباب انتصارات إبي عنبجة والزاكى على الاحباش كان هو تفوق اسلحتهم النارية على بنادق الاحباش ، بالإضافة الى مداها البعيد ونيرانها المضبوطة . مما يوضح أنها كانت بخالة حسنة حتى ذلك العهد . ولكن كان ذلك فى ١٨٨٨ ، ولابد أن عشر سنوات من الإهمال وعدم الصيانة قد تركت أثرها فى تلك الأسلحة .

أما الذخيرة فمجرد صنعها محليا على رءاءتها (١) ، فهو إنجاز ضخم من جانب الخليفة . ولكنها عندما تقارن بنوع ذخيرة العدو الذى واجهوه يتضح لنا الأثر الفاتك لذلك الإنتاج .

بالطبع لكى تنتج الذخيرة لابد من مراعاة مواصفات دقيقة معينة . والمطلوب هو توفير سير مسطح بقدر الامكان للطلقة فى الهواء . فان عوامل جاذبية الأرض ومقاومة الهواء التى تباشر أثرها طوال سير الطلقة يجعل سير الطلقة يميل دائما الى الانحدار نحو الأرض . ولكى يتم التغلب على تلك المؤثرات التى تقلل من ضبط ومدى الطلقة يجب توفير أكبر قدر من السرعة للطلقة بعد أن تخرج من الماسورة للوصول لهدفها بتأثير قليل للعوامل المضادة . والسرعة تكسب بقوة ضغط الانفجار الأولى . فالسرعة تضمن من ناحية قوة الضربة على الهدف ، كما تضمن السير المسطح للطلقة الذى يوفر دقة أكثر ، ومسافة خطره أطول — بالطبع اذا تجاهلنا أثر رفع الماسورة الذى لا يفيد كثيرا اذا كان المدى قصيرا لتدخل كل تلك العوامل . وسنجد أننا يجب أن نوازن بين عدة عوامل :

(١) لو أخذنا بضع طلقات أخذت من أرض المركة — وهى محفوظة بمتحف بيت الخليفة الآن — كعينة نجد أن شكلها الهندسى لم يكن أسطوانيا منتظما . فالظروف يوجد به كثير من التناؤات . كما أن تدبب الطلقة لم يكن منتظما واحجامها غير متساوية والرصاصه لحمت مع الطرف بطريقة بدائية وهذا يوضح أن العمال الذين تم انتاجها على ايديهم لم تتوافر لهم المهارة اليدوية اللازمة فضلا عن أدوات الصنع نفسها وتخلفها التسيى .

١ - زيادة نسبة شحنة البارود بالنسبة للوزن الكلى للطلقة حتى توفر الانفجار القوى اللازم لزيادة سرعة الطلقة ، ولكن خطورة ذلك تكمن في ازدياد الصدمة الخلفية للضارب .

٢ - تقليل وزن الرصاصة نفسها مع الاحتفاظ بنفس نسبة البارود ولكن ذلك يجعل وزن الطلقة الخفيف قليل الاثر والاختراق للمسافات البعيدة .

الواضح ان مصانع ذخيرة الخليفة لم تنقيد كثيرا بتلك المواصفات (١) ، فلم يكن هناك مهندسون مؤهلون ليشرفوا على الانتاج الدقيق لكميات البارود والتصميم الحسابي لكل طلقة . بل كان اغلبهم (٢) في الاصل رؤساء عمال « Fore Men » في عهد التركي وكانت نسب التعبئة لكل طلقة تتم اما من الذاكرة واما بالتقدير النظري .

كما ان المعدن الاولى في صناعة البارود « Saltpetre » لم تكن تتم تنقيته تماما لينتج بارودا جيدا ، بل كانت تتعلق به الشوائب من غبار ومواد دخيله . وفي البداية عندما اعيد تشغيل مصنع الذخيرة - امدرمان - توفي ، كان الانتاج دقيقا لخبرة العمال ، ولكن بمضى الزمن وتغير رؤساء المصانع والعمال ووفاتهم بدأت النسب الدقيقة في الاختلال .

ويبدو أن المهدي ورثت كميات كبيرة من المواد الأولية (٣) لصناعة الذخيرة ولكن الحروب المتصلة كادت ان تستنفدها . وقد ادرك يعقوب أخطار هذا الامر فاحتفظ

(١) حتى الجنود البسطاء لم يكونوا مقتنعين بمستوى تسليمهم تمام الاقتناع . فعندما احضر بعض الجهادية القدامى الذين تعودوا على استخدام البنادق الرمنجتون والمارتيني الحديثة نسبيا ، وسلحوا بابو لفته والبنادق العتيقة التي تبعا من فوهة الماسورة بادخال الرصاصة بواسطة عصا رفيعة من الحديد انشروا المثل الساخر وسط الجنود « الشكو حبرى وقع » .

(٢) حتى الدكتور حسن زكي ، أكثر موظفي يعقوب خبرة بالعلوم الكيميائية ، لم يكن متخصصا في الذخيرة . فنيوفلد ، الأمير الألماني ، يذكر أن حسن زكي استشاره عدة مرات في صناعة الذخيرة . وفيوفلد لم يكن الا تاجرا تلقى تعليمه عاديا .

(٣) وجدت الكميات الآتية في بيت الامانة بامدرمان وكلها مواد خام لصنع الذخيرة :

١٥٠٠٠ أفية رصاص .

٢٠٨٠٠ أفية نترات البوتاسيوم .

٩٠٠٠ كبريت .

٢٥٣٣ أفية قصدير .

٤٢٠ أفية حامض الكبريت .

كل هذه المواد مواد أولية لصنع البارود .

بقدر كبير منها وامر بعدم التصرف فيها خشية أن تجرد الامور ويلتفت فيجد نفسه بدون ذخيرة . ثم بدأ التفكير في انتاجها محليا ونجح في استخراج بارود واستخلص من جبال دارفور ونجحت التجارب الأولية . واستطاعوا انتاج نوع جيد من البارود وبكميات وافرة . ولكن بعد المسافة لدارفور جعل يعقوب يفكر في البحث عن المواد الخام في منطقة قريبة من المصانع بامدرمان ، واخيرا نجح الشيخ مكى وعشيرته من القلته في استخلاص البارود من تربة حلقاية الملوكة ، ولم يكن هؤلاء دقيقين في استخراجهم كما ان المعدات اللازمة لم تتوافر لهم . وكان البارود يورد من مناطق انتاجه المختلفة الى المصانع في توتي والكاملين وامدرمان . ثم تخضر العينات لامدرمان لاختبارها (١) ، وبعد ذلك يوافق يعقوب على استخدامها ، غير ان هذا البارود لم يكن بنفس جودة بارود دارفور وبالطبع كان اقل كثيرا في جودته من البارود الاصلى المصنوع من الخامات التي ورثت من الحكم السابق . واذن فعدم التقيد بالدقة في النسب الحسائية لتعبئة كل طلبة ، بالإضافة الى التفاوت (٢) في جودة الخامات ، كل ذلك يوضح لنا العوامل التي تسببت في اضعاف اثر نيران الخليفة في كررى .

اما الاستخدام التكتيكي في مستوى الفرد والجماعات لبنادق الخليفة فقد تركز في عدة نقاط . أهمها ان قلة بسيطة جدا من حملة بنادق الخليفة كانت تهتم بالتصويب الدقيق - أو التصويب على الاطلاق . وان عزي هذا الى عدم التدريب فهناك اسباب لانتقل أهمية : ألا وهو النظرة التكتيكية لنيران البنادق التي اكتسبت عبر عشرات المعارك ، وهي ان البنادق والأسلحة الصغيرة لم تكن تعتبر أداة لقتل العدو واحداث الحسائر به ، بل كانت تستخدم كأداة لخفض رأسه لتمكن الجزء الرئيسى من حملة السلاح الأبيض الذين مثاوا عنصر الاقتحام من التقدم والاشتباك

(١) بواسطة الدكتور حسن زكى .

(٢) وضح هذا في يوم المعركة فان بعض الطلقات كانت ترمى لمسافات بعيدة فوق رموس جنود كتشتر داخل الزريبة والبعض الآخر كان يسقط أمام الزريبة عاجزا عن الوصول اليها على الرغم من انها اطلقت بنفس البنادق ومن نفس المكان . ولا بد أن الخبرة أوضحت للقادة ان الذخيرة التي غنمت من زمن الاحتلال اجمود كثيرا على قدمها من الذخيرة الحديثة المحلية . فلكي يوضح يوسف ميخائيل استشار شيخ الدين بكل المعدات الحربية الجيدة ذكر أنه « أخذ كل السلاح الجيد والجبخانة القديمة » .

مع العدو . والتمسك بهذه النظرية (١) جعل المهم في نظرهم هو اطلاق اكبر قدر من النيران ، وكانت دائما تطلق من الوسط وليس الكتف . وادى ذلك الى استخدامهم للبنادق وهم وقوفا ، ولم يشاهد أى منهم وهو راقد على الارض ليجد فرصة احسن لاستخدام سلاحه أو البحث عن ساتر أو مركز ضربنا جيد يقيه من نيران العدو ويمكنه من التصويب الدقيق . وكان هذا معقولا في حالة التقدم للهجوم على شريطة ان يأخذ مكانه على مسافة قليلة من العدو وليس على بعد آلاف الامتار . ولعل من الاسباب المباشرة التي أدت لذلك الاستخدام الخاطئ هي الفكرة السائدة بالاندفاع والاستشهاد دونما اعتبار لأي عوامل أخرى ، وحتى لا يعير الواحد منهم بالجن والخوف أن ينططح على الارض ليجد فرصة أحسن في تصويب سلاحه .

ويتضح مما ذكرنا أن البنادق شكلت عنصر النيران الرئيسى في جيش الخليفة وكان الواجب تنسيق نيرانها الجماعية لتصبح فعالة ومؤثرة . وأحسن طريقة جرى استخدامها في ذلك العهد كانت هي طريقة الضرب الجماعى « Volleys » . ولضمان تنفيذها لابد من فصل حملة البنادق وتنظيمهم داخل وحدات ، لا ان يدوبوا افرادا داخل كتل حملة السلاح الابيض ، فتداخلهم مع هؤلاء كان يحرمهم فرصة استخدام سلاحهم بفاعلية من ناحية ، ومن ناحية اخرى حرم أغلبهم من الوجود فى الصف الامامى لاستخدام بنادقهم دون اصابة باقى الجنود من حملة السلاح الابيض .

١ - الرشاشات

المدافع متراليوز Mitrailleuse

الوزن : طنان

اقصى مدى للطلقة : ألف وثمانمائة متر .

المسافة المؤثرة : سبعمائة متر .

حجم النيران : اربعمائة واربعة واربعين جزئيا Grain

(١) هناك نقطة ملفتة للنظر وهى عدم استخدام السناكى مع البنادق . فلم تشاهد جيوش المهدي فى كل حروبها حتى فى الاقتحام وهى تستخدم السونكى . ولعل هذا يوضح نظرهم إلى ان البنادق هى اداة نيران أولا وأخيرا وليست عنصر اقتحام .

وقد كانت المدافع المتراليوز من اوائل المدافع الرشاشة التى أدخلت فى الجيوش الاوربية . وكان الواحد منها يتكون من سبع وثلاثين ماسورة بنديقة وضعت ملتصقة داخل ماسورة المدفع الكبيرة وتم تعبئة المواسير بالطلقات بإدارة طاره تدفع بالطلقات داخل الماسورة وتطلقها فى نفس الوقت من جميع المواسير فى أقل من ثانية . والجندى المدرب يستطيع تكرار هذه العملية اثنتى عشرة مرة فى الدقيقة . وعليه فنتائج الضرب يكون اربعمائة واربعاً واربعين طلقة فى الدقيقة . والرشاش متراليوز هو الرشاش الوحيد الذى استخدمه جيش الخليفة فى المعركة على الرغم من توافر رشاشات خلافه ، نظراً لأن الطقم الاصلى الذى استخدمه مع هكس لم يباد فى المعركة كما ان الذخيرة الاصلية التى احضرت معه من مصر كانت متوافرة .

اما الرشاشات الأخرى جاتلنج (Gatling) وجاردنر (Gardner) ونوردندفلدت (Nordendfeldt) فقد حفظت فى بيت الامانة ولم تستخدم لافى كبرى ولا فى أى معركة من معارك المهدي . والسبب هو تعقيد استخدامها من ناحية ، كما لم يمكن العثور على طقم يستطيع إستخدامها ، فقد ابيد هؤلاء اثناء غنمها . كما ان انعدام ذخيرتها ، وصعوبة انتاجها محلياً ، بالاضافة الى ان عيارها يختلف عن ذخيرة الاسلحة الصغيرة ، كل ذلك جعل استخدامها مستحيلاً . وهى لم تختلف كثيراً فى طرق استخدامها وحجم نيرانها عن المتراليوز اذ أن التفاوت بينها يكمن فى عدد المواسير ، فللرشاش نوردندفلدت ست مواسير متوازية متلاصقة وللجاتلنج خمس مواسير .

المدفعية

أ - المدفع الجبلى Mountain Gun

تكونت اغلب مدفعية الخليفة من المدافع الجبلية « ٣٥ مدفع جبلى »
الوزن : مائتا رطل وهو اقصى حمولة البغل .
العيار : ٤ بوصة
اقصى مدى للطلقة : ٢٠٠٠ ياردة
وزن الدانة : ٦ ارطال

انواع الطلقات : طلقات الشظايا - ذخيرة نجوميه

كان المدفع الجبلى هو العنصر الغالب للمدفعية الخفيفة فى القرن التاسع عشر ، وخفة وزنه جعلت جره بواسطة بغل واحد امرا ميسورا كما ان زاوية الضرب المرتفعة نسبيا عن باقى المدفعية ، « اربع عشرة درجة » اهله لان يتقدم مع المشاة ويكفل لهم غطاء من نيرانه فى أى نوع من انواع المناطق ، حتى المناطق الجبلية . وقد تحصل الخليفة على أغلب مدفعيته من حملة هكس وبعد سقوط الخرطوم واثناء حروبه مع الحبشه .

ب - المدفع كروب : « ٨ مدافع »

الوزن : ٣ أطنان (١)

المدى : ٣٥٠٠ ياردة

انواع الطلقات : شظايا

العار : ١٢٠ مم

وكما رأينا فقد كانت أغلب مدفعية الخليفة تتكون من انواع متعددة عتيقة . فكلها ، ماعدا الكروب ، كانت ذات ماسورة ملساء وتعباً من القوهه مما جعل نيرانها غير مضبوطة . ولكن من الثابت كما أسلفنا أن حظ المدافع من العناية والصيانة كان أكثر من حظ البنادق . فقد تكونت اغلب اطقم المدافع وقادة البطاريات من المصريين جنود الاحتلال السابقين ومن المؤكد أنهم احسنوا صيانتها ، فهم جنود مدربون قدامى وظلوا كجنود محترفين حتى فى فترة المهديه . ولكن العيب الاساسى فى مدفعية الخليفة كمن فى ذخيرتها ، فهى ايضا تصنع محليا (٢) فقد كانت الصناعة المحلية تشمل ذخيرة المدافع الجبلية . ولكن مدافع كروب الحديثة لم تتمكن ترسانة الخليفة من صنع ذخيرتها . واستمروا فى استخدام الذخيرة التى تم غنمها من هكس وغردون . ولما رأى يعقوب انها كادت ان تنفذ امر بايقاف استخدام مدافع كروب ولكن العدد المتبقى من الدانات كان ضئيلا .

(١) يوجد مدفع كروب الآن أمام ضبعية ادمرمان ، أخذ من معركة ادمرمان . وماسورته مخششة الا ان وزنه وحجمه يدل على أن جره وتحريكه بالاضافة لحمل ذخائره استلزم عددا كبيرا من الجمال والبغال .

(٢) وجدت ٧٥ طلقة لمدافع كروب فى بيت الامانة .

وقد تمكنت ترسانة الخليفة من انتاج نوع واحد فقط من ذخيرة المدفعية ألا وهو الشديد الانفجار «HE» ولكن جسم الطلقة كان يصنع محليا^(١) من النحاس قليل السمك مما جعل له دويا كبيرا وقوة انفجار بدون اثر لشظايا قاتلة وسقط تجمعات العدو .

ولكن تفسير ذلك الأمر يكمن في نظرية استخدام المدفعية في ذلك الزمن ، واذا وضعنا في ذهننا أن قيادة جيش الخليفة اقتبست نظرية استخدامهما من جيش الاحتلال ، نجد انها هي نفس الفكرة التي كانت سائدة في اوائل ومنتصف القرن التاسع عشر . وهي ان المدفعية خصصت^(٢) للاحتراق سواء للحصون أو خلفها ، ولم ينظر اليها كعنصر نيران موجه لقتل مشاة العدو بانتاج كمية كبيرة كثيفة من الشظايا الصغيرة . وقد املت هذه النظرية بالطبع تصميم المدافع من ناحية وناتج النيران من ناحية اخرى . فالشظايا لم تتجاوز أكثر من شظيتين أو ثلاث عند الانفجار . وهذا اهلها للاحتراق أكثر من قتل مشاة العدو .

ولكن في سنة ١٨٩٨ تغير الموقف كثيرا بالنسبة للجيش الحديثة فبدى في انتاج نوع من البارود الذي يفجر كمية كثيفة من الشظايا وجهت اساسا لقتل مشاة العدو ، مما مكن مدفعية الاسطول البريطاني ، ومدفعية البريطانيين من احراز ذلك الأثر الفتاك في موقعة كررى . ولكن بالطبع كان جيش الخليفة متأخرا كثيرا في انتاج هذا النوع من الذخيرة ، وفي معرفته . ولانسى أن اغلب مدفعيته غنمت من جيش هكس عام ١٨٨٢ ومن الخرطوم والاحباش ، كما أن الطوابع كانت تعمل بالتصميم القديم للمدفعية . وقد رأينا كيف كانت مدفعية هكس وغردون والرأس عذار ضعيفة معدومة الأثر على مشاة المهديّة المقتحمين ، مما يؤكد قلة تأثير نيرانها ضد المشاة

(١) يوضح شقير أن الحرب الاقتصادية التي شنت على الخليفة أدت إلى رداة ذخيرة المدفعية وذخيرة الاسلحة الصغيرة « أما الذخيرة فقد كان عند الخليفة منها مقادير وافرة إلا أنه كان محاطا بالاعداء من كل جهة وكان في حرب دائمة معهم وقد منعوا عنه الاسلحة والذخائر منعا صارما بل منعوا كل ما يساعد على عملها كالرصاص والنحاس والذخائر وملح البارود والكبريت . ولذلك . جمع كل ما أمكن جمعه من آنية النحاس في البلاد فصنع منها الظروف . » شقير ص ١٢٥٥

(٢) ينطبق اعلا . على ذخيرة المدفعية التي تطلق لدى أكثر من ألف ياردة أي المدى أبعد من مدى الكانستر الذي لم يتجاوز خمسمائة ياردة في ذلك العهد .

من ناحية ، ومن ناحية أخرى يبرر قلة اعتماد قادة المهديّة على نيرانها في هجماتهم لاعتقادهم ان عنصر النيران المهم هو نيران البنادق اولا واخيرا ، ولذا أخذت لأرض المعركة خمسة مدافع فقط .

وهذا يوضح لحد بعيد ان الخليفة كان استخدامه من ناحية المبدأ صحيحا للغاية . فقد وضع أغلبها في الطوابي كعناصر اختراق لحصون العدو التي تمثلت في بوارجه المدرعة ، والتي مثلت أغلب مدفعيته المتحركة . وحرم بذلك هجوم مشاته وفرسانه من غطاء قوى من النيران .

اما الضعف الرئيسى في الذخيرة فقد تركز في عبوتها المتفجرة التي استخدم في صنعها نفس البارود المحلى الذى استخدم لأنتاج رصاص البنادق وذلك ما جعل اغلب الدانات التي وجهت نحو كتشّر عاجزة عن الوصول لبوارجه النيلية . والدانات التي وجهت نحو زربية كتشّر ، على قلنها ، كغطاء لهجمة (١) ابراهيم الخليل وعثمان ازرق انفجرت امام الزربية وعجزت عن الوصول اليها . وذلك يوضح اثر عبوة الطلقة في تغيير مدى مدفعية الخليفة . كما ان جسم الطلقة المصنوع من النحاس مع رفته أوضح قلة انتاجه من الشظايا من ناحية ، وضعف أثره في اختراق البوارج من ناحية أخرى .

.. ..

والعدو ؟ :

لقد كانت النيران والمدفعية التي قصمت ظهر الخليفة أكبر حشد للنيران شهدته افريقيا حتى ذلك الحين . وتسليح كتشّر من البنادق حتى مدفعية بوارجه المدرعة ، أوضح التطور الهائل في صناعة الحرب في العشرين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر . فأسلحة كتشّر هي نفس الاسلحة التي شهدتها ميادين

(١) بذلك هو الرأى السائد عند المؤرخين ولكن اذا تذكرنا ما قاله سلاطين أثناء اقامته في السودان من ان دانات مدفعية الخليفة لم يتجاوز مداها أكثر من مائة ياردة ، اذن فالاحتمال الأقوى ان يعقوب الحكيم استخدم الدانات الاصلية القديمة التي غنمت من جيش الاحتلال والتي حرم استخدامها احتفاظا بها لهذا اليوم الفصل . واذا اعتبرنا ان أغلب داناته وجهت من خلف جبل سرخاب أو من اطوار الهجوم الأول لعثمان ازرق نجد أنها استطاعت ان تصل لمسافة أبعد من اثنين ألف وخمسمائة ياردة فقد سقطت على بعد ٥٠٠ ياردة . اذن السبب الرئيسى في تقصير المدى أو عدم ضبطه يكمن في المدافع نفسها فواسيرها القديمة قللت كثيرا من ضبطها وكان هذا امرا طبيعيا حتى وسط الجيوش الأوروبية التي استخدمتها .

قتال الحرب العالمية الاولى والرشاش الحديد « المكسيم » هو بطل الحرب العالمية الاولى بدون شك .

البنادق

أ - البندقية لى متفورد ماركة « ٢ » Lee Metford MK 2

كانت هذه البندقية من أحدث البنادق التى أخرجتها مصانع اوربا وادخلت فى الجيش البريطانى عام ١٨٩٥ . واستطاعت بعد التعديل والتحسين المستمر أن تعمر أكثر من نصف قرن ، فشهدت حربيين عالميتين . وأهم خواصها التى تؤثر أثرا تكتيكيا مباشرا هى :

١ - ادخال الترابس للتعجير وتزويدها بخزنة تسع ثماني طلقات بحيث ضمنت انتاج كمية كبيرة من النيران بدلا من البنادق القديمة التى تعبأ من الماسورة أو تعبأ واحدة واحدة من الحلف .

٢ - خشخشة أكثر للماسوره مما ضمن دقة وضبطا أكثر للطلقة باكتسابها حلزونية تساعدها على شق طريقها فى الهواء .

٣ - رصاصة أصغر عيار ٣٠٣ ر . وعبوة ١٧٥ درهم من الكوردايت بدلا عن البارود الـ (Saltpetre) ودخانها الأسود الكثيف . مما ضمن لها سرعة تتجاوز اثنين الف قدم فى الثانية ممكنا الطلقات من الوصول الى أكثر من اثنين الف وخمسمائة ياردة ، وعليه فاحتمال اصابة الجندى لأى هدف يستطيع رؤيته بعينه المجردة أصبح احتمالا كبيرا .

٤ - تخفيف وزن الذخيرة مكن الجنود من حمل كمية اكبر لمجابهة شهية بنادقهم المفتوحة لانتهاهمها .

زاد ادخال هذه البندقية من قيمة المشاة القتالية لحد بعيد ، وخصوصا فى الدفاع . فزادت من فاعلية نيران المشاة المحتمين وراء دفاعاتهم ، وقللت لحد بعيد من فاعلية حشود المشاة والفرسان فى الهجوم . وبادخالها زادت نسبة القوات المهاجمة للمدافعة الى ثلاثة لواحد لضمان نجاح الهجوم . كما ان حجم النيران الكبير لبنادق المشاة جعل ضرب الجماعات بالارشاق (Volleys) ممكنا ومؤثرا ومتواصلا

فان الفصيلة مثلا عندما تؤمر بضرب الجماعات ، تبدأ الجماعة الاولى منها بضرب بنادقها كلها فى لحظة واحدة بعد اخذ تصويب دقيق ، وبعدها تعطى الاوامر للجماعة الثانية ثم الثالثة وهنا تجد الجماعة الأولى الفرصة فى اعادة التعمير والتصويب الدقيق والضرب مرة اخرى ، كل هذا يحدث بفواصل قصيرة للغاية . فتوافر بذلك تجمع وتكثف من النيران مؤثر للغاية ضد تجمعات مشاة وقرسان العدو المتقدمة .

الرشاشات

المكسيم :

عندما قدم هنرى مكسيم مدفعه لامبراطور المانيا ، واعتذر الأخير عن شرائه ببرود ، لم يكن مكسيم يحلم ان مدفعه سيكون مشغولا عن اباداة عشرات الألوف فى بضع ساعات . ولكن دولا أخرى سارعت بتبنى الفكرة الجديدة « للرشاش ذى الماسورة الواحدة » فهو قد ضمن نفس مزايا الرشاش القديم ذى المواسير المتعددة الذى امتاز بحجم النيران الضخم ، وفى نفس الوقت استطاع المكسيم التخلص من عيوبها . فهو يمكن طاقمه من التصويب الدقيق المستمر طوال الوقت ولم يكن هذا ممكنا فى الرشاشات القديمة . كما جعل امر الضرب المنتشر على صفوف افعيه للقوات المهاجمة امرا مستطاعا ولم يكن هذا امرا ميسورا ، فقد كانت كل مجموعة الرشاشات القديمة تسقط فى مكان واحد الى ان يعاد تحريك الماسورة لاتجاه آخر . كما وفر مدى أبعد (١) (٢) .

(١) يعزى التحسن الرئيسى الذى أدخله مكسيم فى الرشاشات إلى طريقة التعبئة الا توماتيكية مستغلا قوة انفجار الغاز المحبوس داخل وعاء مفلق إلى دفع الاجزاء للخلف والامام لتعمير الماسورة بدلا عن استخدام الطارة التى تدار باليد . وخوفا من انفجار البارود الجديد الأبيض Cordive مكنت تنفيذ ذلك لعد بعيد بحيث أمكن الطاقم من توجيه جهده لتصويب المدافع وتحريكها اقل بدلا من توجيه جهدهم لعملية التعبئة .

(٢) كانت أغلب ذخيرة الأسلحة الصغيرة التى استخدمت فى كررى من نوع دم Dumdum سواء التى استخدمت بواسطة البنادق أو الرشاشات . ودم دم هى رصاصة عادية شق رأسها المدب فى شكل صليب ويؤدى لك لتفتيت العظام والاحشاء والتسبب فى جروح كبيرة فزرى الطلقة عند دخولها فى الجسم البشرى تسبب خرقا صغيرا فى الامام ولكن عند خروجها من الظهر يمتد حجم الجرح إلى دائرة يصل قطرها أحيانا لقدم . ولعل ذلك يفسر كمية الدماء الغزيرة التى سالت من جيش الخليفة . ولا أقصد بالدماء ←

وإذا أضفنا قوة النيران المضبوطة الهائلة للرشاشات الى قوة نيران المشاة أصبحت قوة نيران القنصات المدافعة المتخذة كقنبلة بشل أى هجوم مباشر واصبحت فرصة الهجوم تكمن فى أحد المخرجين : أما شن الهجوم تحت غطاء قوى وتفوق عال من النيران واما الهجوم ليلًا .

أما الخواص المهمة للرشاش المكسيم فهى :

المسدى : ثلاثة آلاف يارده .

حجم النيران : ستمائة طلقة فى الدقيقة .

المرونة : يستطيع الضرب متشرا فى محور يبلغ مائة وثمانين درجة .

الوزن : ٢٥٠ رطل

ولا اكتمال فعالية الرشاشات تم تنظيمها فى شكل بطاريات تتكون كل بطارية من ستة مدافع لتغطية واجهات واسعة بتأثير قوى .

وعلى الرغم من الخفة النسبية لوزن الرشاش المكسيم الحديد ، فان أحد عيوبه الرئيسية كانت حجمه ووزنه ، مما جعله سلاحا دفاعيا ثابتا . فلم يكن من الممكن أن يحمل بواسطة المشاة أو الفرسان ، فأصبح عاجزا عن التدخل السريع كقوة نيران حاسمة حسب تطور المعركة ، ولقد تغلب كثر على تلك الصعوبة بتركيب جزء كبير منها على بوارجه النيلية السريعة .

المدفعية

مدفعية الميدان :

١ - المدفع ١٥ رطلا :

لقد مضى تطور المدفعية فى الجزء الاخير من القرن التاسع عشر بنفس السرعة

← الغزيرة هنا استخدمتا بلاغيا، بل اقصد فعلا كميات السائل الأحمر التى نزلت من الجرحى والقتل. وقد منع استخدام رصاص دم دوليا بعد معركة أم درمان حتى فى صيد الحيوانات . وكان استخدامها أحد فظائع المعركة الكثيرة كما سئرى . وفيها هاجمت الصحافة كثر إلى أن طالبته الملكة بتقديم ايضاح عن طريق الماركيز سالسبورى رئيس الوزراء . واعتذر هو ووافقه الكثيرون - بأن جرحى الخليج كانوا يقاومون مقاومة مستتية . فلا بد من اصابهم بجروح تعطلهم نهائيا . . . أو تقتلهم فى الحال .

موقعة كبرى - ٢٥٠ .

وفى نفس الخطوط العريضة التى شملت تطور الاسلحة الصغيرة وهذا التطور شمل المدافع نفسها ، إلا أن تطور الذخيرة كان أكبر أثرا .

فالمدافع فى ذلك الحين أصبحت كلها حلزونية الماسورة (Rifling) فوفرت دقة للدانات . وبادخال البليات استطاعت تحمل الصدمة الخلفية للمدفع . بحيث تعود الماسورة الى مكانها الاول بدون حاجة الى إعادة التصويب . اما المدافع القديمة ، فالمدفع يتحرك للخلف على عجلات متزلقا عدة ياردات مما يحتم اعادته للمكان الاول وإعادة التصويب مرة أخرى . وقد أدى ادخال ذلك التحسين الى تمكن الاطقم من اطلاق مدافعهم دون حاجة الى إعادة الضبط والتصويب ، كما امكن انتاج كميات مضاعفة من نيران المدفعية . بل استغلت هذه الميزة الى أبعد مدى لانتاج المدفعية السريعة الرمي (Quick firing Guns) طالما كان العائق الوحيد لسرعة اطلاق المدافع ، هو الزمن الذى يستغرقه الطاقم فى تعبئة الذخيرة واطلاقها من ثم فقد انتجت جبهة صغيرة نسبيا « ٦ أرتال و ٣ أرتال » لانتاج كمية أكبر من النيران فى زمن وجيز . كما وفرت التحسينات العديدة فى استخدام آلة إيجاد المسافة الجديدة ضمانا أكبر لدقة النيران .

ولكن التطور الذى جعل المدفعية سلاحا مؤثرا حقا كان هو التطور الذى شمل الذخيرة . فكما ذكرنا قبلا كان أثر المدفعية خصوصا فى المسافات البعيدة — أى أكثر من اربعمائة ياردة وهو اقصى مدى لاستخدام الـ (Case shot) — كان هذا الاثر ضعيفا على تجمعات العدو وكانت اغلب الاصابات على قتلها تحدث نتيجة لقوة الانفجار وضغط الهواء . اما الشظايا فكانت معدومة الاثر لأنها لم تتجاوز أكثر من شطيتين أو ثلاث نظرا لضعف قوة انفجار البارود الاسود المستخدم . ولكن باستخدام البارود شديد الانفجار (Cordite) استطاعت الدانة الواحدة ان تنتج كمية وفيرة من الشظايا كفيلة باحداث اثر قاتل على تجمعات المشاة وذلك بخلاف اثر قوة الانفجار . وهنا بدأ دور المدفعية فى البروز ليشاوى مع اثر نيران البنادق والرشاشات ، ويتفوق عليها فى المسافات التى يزيد بعدها عن ثلاثمائة ياردة . ولقد انقسمت ذخيرة المدفعية التى اطلقت يوم ٢ سبتمبر الى اربعة اقسام :

١ — ذخيرة الكانستر أو الـ (Case shot) وهى عبارة عن علبة من الصفيح

ملئت بقطع من الرصاص تنفجر بفيوز زمنى أو بالاصطدام . واقصى مدى - لاستخدامها كان خمسمائة ياردة ، ولكن بالطبع كان اثرها ماحقا على تجمعات المشاة . فهي فى الواقع « تكنس » الارض من مشاة العدو فى المسافات القريبة . ونادرا ما كانت تستخدم لقصر مداها .

٢ - الدانات شديدة الانفجار HE وهى الطلقات شديدة الانفجار وأكثر أنواع المدفعية استخداما لأنها تصل لمسافات بعيدة وتوفر قدرا أكبر من الشظايا وقوة الانفجار وبذلك يمكن توجيهها نحو المشاة أو دفاعات وحصون العدو .

٣ - الدانات الشارنبل (Sharpnel) (قذيفة المثار) وهى بنفس نظرية ال (Case shot) ولما كانت تطلق فى خط سير عال ، وليس فى خط مستقيم كالخبرة ، فقد مكنها ذلك من الضرب على تجمعات مشاة العدو من مسافات بعيدة حيث تنفجر فوق رؤوس الجنود وقبل الاصطدام بالارض وتنطلق منها مئات الشظايا الى اسفل نحو تجمعات المشاة فى شكل رذاذ كثيف (Shower) يغطى مساحة شاسعة ، واذن فهى عديمة الاثر من ناحية قوة الانفجار والصدمة والضغط ، وتصلح لقتل الافراد فقط .

« المدفع ١٥ رطل »

اهم الخواص للمدفع ١٥ رطل هى :

المدى : ٣٥٠٠ ياردة

الوزن : ٤٥٠ رطلا

وزن الدانة : ١٥ رطلا

طريقة الجر : بالبغال وأغلبها حمل على البوارج فى معركة ام درمان .

المدفع الهاوترز ٥٥ بوصة :

مثل المدفع الهاوترز مدفعية كتشنر الثقيلة . ويمكنه بالطبع استخدام كل الذخيرة المذكورة اعلاه ولكن الواجب الرئيسى الذى احضر من اجله هذا المدفع كان هو قصف مدينة ام درمان لو ظل الخليفة داخلها وقرر أن يخوض معركته داخل شوارعها . وهذا الواجب أهله له مداه البعيد وداناته الثقيلة . فقد زودت مدفعية الهاوترز بذخيرة اليداييت (Lyddite) لأول مرة وهى مواد متفجرة ، قوة انفجارها أعلى بكثير من الذخيرة ش . ف . العادية . واذا اجتمع ثقل دانتها مع

ضغط انفجارها العالى اصبحت مثالية للضرب على الحصون والمباني . ومدفعية الهاوترز هى التى وجهت نيرانها من الضفة الشرقية للنيل نحو حائط امدرمان وقبة المهدي .

المدى : ٥٨٠٠ ياردة

الوزن : ٤ طن

وزن الدانة : ٥٠ رطلا

طريقة التحميل : يحمل على عجلات تجرها الخيول أو البغال وحملت كلها على البارجة ملك .

~*~*~*~

كان ذلك حشدا هائلا للنيران . ولكن استغلاله يستلزم نقل كميات ضخمة من الذخيرة لآلاف الاميال : وهنا تجلت انجازات كتشتر وكفاءته الادارية فقد تمكن من نقلها على عربات السكة الحديد ثم بالبوارج .

البوارج

لم تكن الناحية الادارية هى أعظم انجازات اسطول كتشتر النهري . . بل كان اثر نيرانها القتالى والتكتيكي واضحا للغاية اثناء الساعات الحاسمة فى يوم ٢ سبتمبر . فقد كان اثر البوارج المحملة بقطع المدفعية والرشاشات فى المعركة هو تقريبا نفس اثر المدفعية ذاتية الحركة « Self Proppelled » فى هذه الايام . فمدفعية البوارج كانت هى المدفعية الوحيدة التى حملت بأداة نقل تتحرك آليا وبسرعة عالية مما جعلها سريعة التدخل ، ووفر لها مرونة عالية فى حشد النيران لمجابهة أى موقف . خصوصا وقد كانت أغلب البوارج التى اشتركت فى المعركة بوارج مدرعة ولاشك فى أنه انجاز ضخم من جانب الاسطول البريطانى ان يتمكن من اىصال قطع بحرية الى مسافة ألف ميل بعيدا عن ساحل البحر ، وفى البداية أبحر اسطوله النهري متعبرا وسط الشلالات ، ثم توصلوا الى فكرة انشاء ورشة لتجميع وتركيب قطع البوارج التى حملت على خط السكة الحديد وبذلك أمكن تفادي الشلالات ، التى أصبح عبورها شبه مستحيل خصوصا بعد وصول البوارج المدرعة الضخمة السريعة .

وقد انحصرت الواجبات التي قام بتنفيذها اسطول كنشتر النهرى حتى نهاية المعركة فى الآتى :

١ - انشاء مناطق حشد ومناطق ادارية فى اماكن عدة آخرها وأكبرها فى ود حامد استعدادا للمعركة الأخيرة الفاصلة .

٢ - نقل جزء رئيسى من الجيش بأسلحته وذخيرته من عطبرة حتى ود حامد .

٣ - حمل كل ذخيرة الجيش يوميا من معسكر الى آخر اثناء التقدم النهائى لام درمان .

٤ - استكشاف مبكر للمعركة .

٥ - الاشتراك بمدفعية البوارج فى المعركة سواء فى عمليات أول سبتمبر ضد مدفعية الخليفة فى الطواحي ، أو فى قصف ام درمان أو ضد هجمات الخليفة يوم ٢ سبتمبر .

اذن كانت البوارج احدى ركائز كنشتر القوية ولولاها لما تمكن من حشد هذه القوة الساحقة فى يوم المعركة . وقد ارتبطت البوارج النيلية بتلك الحقة من تاريخنا ارتباطا قويا . فقد كان غردون هو اول من تنبه لفاعليتها فى مهمته الأولى فى السودان كحاكم للاستوائية ، وبذل مجهودا كبيرا فى دراسة أحوال النهر والتيار والسدود لتساعد تلك المعلومات فى تحديد المواصفات اللازمة عند تصميم البوارج الأربع التى تعاقد على صنعها فى لندن .

ولم يندم غردون كثيرا على مجهوده الضخم . فالبوارج أسهمت اثناء حصار الخرطوم اسهاما فعالا فى عملياته الهجومية والدفاعية . كما اعتمدت عليها حملة ولزلى اعتمادا كبيرا . وقد كان هذا الاسطول النهري الذى اشترك مع حملة انقاذ غردون عام ١٨٨٤ هو المحك الاول . وبناء على الدروس التى استخلصت من استخدامهما فى تقدم سنوارت السريع نحو الخرطوم ادخلت عليها كثيرا من التعديلات والتحسينات ، خصوصا فى البدالات مما اكسبها سرعة اكبر ومقدرة على مقاومة تيار النهر السريع المعاكس .

ضم اسطول كنشتر النهري عددا من البوارج من نفس الانواع التى اشتركت

في حملة الانقاذ ، كما ضمت الطراز الحديث الذي بنى في لندن في اواخر التسعينات .

أما تسليح الاسطول النهري فقد تكون من القطع الآتية :

— عشر بوارج مقاتلة سلحت بالمدفعية والرشاشات .

— خمس بوارج للنقل .

أما البوارج المقاتلة فكان تسليحها كالاتي :

البارجة المدرعة طراز ١٨٩٨ :

٢ — مدفع نوردفيلد

١ — مدفع ١٢ رطلا سريع

الطلقات .

« سودان »

البارجة « ملك » كل منها سلحت بالآتي : ١ — مدفع هاوترز ٥ بوصة

البارجة « شيخ » ٤ — رشاشات مكسيم

البارجة المدرعة طراز ١٨٩٦ :

١ — مدفع ١٢ رطلا سريع

الطلقات

« الفاتح » كل منها

٢ — مدفع ٦ أرطال « الناصر » سلحت بالآتي :

٤ — رشاشات مكسيم « الظافر »

البارجة طراز ٨٥ :

١ — مدفع ١٢ رطلا « طمى »

« حفير » كل منها سلحت

٢ — مدفع مكسيم نوردفيلد « ابو طليح » بالآتي :

« المتمة »

تكونت أطقم البوارج من الآتي :

الطراز الحديث ٩٦-١٨٩٨

القائد — ضابط من البحرية البريطانية

اثنان من المهندسين من البحرية البريطانية

اثنان من الرقباء من البحرية البريطانية

٢٣ مدفعية

فصيلة مشاة

الطراز القديم

القائد — ضابط من البحرية البريطانية

اثنان من المهندسين من البحرية البريطانية

اثنان من الرقباء من البحرية البريطانية

١١ مدفعية

فصيلة مشاة

الحشد

وصلت أنباء هزيمة محمود ود أحمد الى الخليفة بام درمسان ، وبدأ في الاستعداد للمعركة الفاصلة مع ذلك العدو الذي كان ينتقل من نصر الى نصر ، وهو ماض في تقدمه ، وقد بدأ من تصميمه واصراره على مد السكة الحديدية انه عدو غزا ليقى ، وانه واصل لامدرمان لاحالة .

وقد قدر الخليفة ان تقدم العدو النهائي نحو امدرمان سيتم في الفترة بين منتصف اغسطس واول اكتوبر خلال زمن ارتفاع النيل ، حتى يتمكن اسطوله النهري من التقدم . فقد وافت الخليفة بأخباره طلائعه المتقدمة بقيادة الامير عبد الباقي الوكيل في تقرير له بتاريخ السابع من صفر عام ائف وثلاثمائة وستة عشر ورد فيه .

« الطوائف جارين اعمالها تحت في البحر وصار الشروع فيها وهي في المرصد الممكن لوابورات الكفرة وفي المضيق . وقد جرى الاستعداد والتحزب والتشمير التام في المرصد المذكور والمنشور المحرر من سيد الجميع تلوناه للصحاب ولبوه بالسمع . ونحن موجهين النظر نحو اعداء الله وعملنا المراسد اللازمة . نسأل الله أن يهلكهم ويجعل كيدهم في نحرهم اما اخبارهم حسب الوارد أنهم بجهة بربر الداخلة وشندى قيل بها اورطه واحدة فقط وامس حضر واحد من اولاد المكرم محمود احمد ود مرجان كان بجهة ابي حمد ومن جملة ما قيل ان وابور البر وصل الداخلة وكافة جيوش الكفرة بجهة عطبرة والداخلة . ولهذا لزم تحريره لسبدي بقيامنا من السلوقة وترك النقطة اللازمة لكشف خبر اعداء الله » .

وقد وجد الخليفة نفسه أمام ثلاثة مسالك لمواجهة العدو وخوض معركته

الفاصلة :

الأول : اما ان يواجهه في المنطقة بين امدرمان وعطبرة .

الثاني : أو يواجهه في امدرمان نفسها .

الثالث : أو ينسحب غربا الى كردفان ودارفور .

ولم يكن رأى الأخير يخلو من وجهة ، فسيترتب عليه حرمان كتشنر من مساعدة البوارج ، وجذبه الى غرب السودان بعيدا عن النيل الذى تعتمد عليه خطوط مواصلاته النهرية أو البرية ، دعتك من قوة نيران البوارج .

وتلك كانت نقطة مهمة للغاية ، فحتى هذه اللحظة افلح كتشنر فى استغلال النهر لتأمين خطوط مواصلات تضمن له تدفقا مستمرا من العتاد والمؤن والذخيرة . وتقدم قواته بجذاء النيل ، كفاه شر اضخم المشاكل التى قاسى منها هكس وستيوارت . مشكلة العطش . ولو انسحب الخليفة غربا لتجشم السردار مشقات جمة فى تدبير الجمال والحملة اللازمة لحمل المدافع والطعام والمياه وكان ذلك يعنى أن تتكرر شيكان أخرى ، وعلى نطاق اوسع .

ولكن ذلك المسلك كان يعنى عدة أشياء : اولها التضحية بام درمان وبكل ما يحمل ذلك من عواقب وحساسيات . والخليفة شأنه شأن أى عاهل آخر يمنع كبرياؤه من ترك عاصمته لتسقط فى يد الأعداء . فالعاصمة هى الرمز الاكبر لأى دولة وسقوطها يعنى سقوط تلك الدولة رسميا . وكان ذلك يعنى أيضا سقوط قبر المهدي ، ذلك الرمز الذى اعتمد الخليفة عليه كثيرا فى توطيد حكمه ، والذى ظل شعاعا يجذب الوف المحاربين دفاعا عنه ، وعما يمثله من دعوة ومبادئ .

ولا يمكن أن ننسى الصعوبات العملية الناشئة من اتخاذ ذلك المسلك أيضا : فإخلاء ام درمان يعنى التضحية بالترسانات والمصانع وتنفيذ عملية نقل ضخمة لمخازن الذخيرة والمؤن والاثاث والعائلات .

ولم يكن من السهل على الخليفة أن يترك خلفه كل سكان عاصمته — بعد أن ينسحب غربا فى هجرة بعيدة ليصبحوا خامات لاتنفذ فى يد استخبارات العدو ، وهم الذين عاشوا معه واطلعوا على أسرار دولته سنين طويلة .

ثم ان مبدأ الانسحاب غربا كان سلاحا ذا حدين ، فان الصعوبات التى سيواجهها كتشنر فى تقدمه سيواجه الخليفة جزءا منها فى انسحابه . ولن يكون طريق انسحابه مفروشا بالورود . فمن المحال اعاشة هذا الجيش الضخم سواء

في تحركه أو في اقامته بدار الغرب الجرداء الخالية ، لاسيما بعد تقدم الأمير محمود عبر دارفور وكردفان الذي امتص آخر مافي الديار من اباد عاملة ، وآخر حبة ذرة .

ولكن حتى ذلك الاقتراح عندما قدم الخليفة في مجلسه لم يقدم تقدما ذكيا منطقيا ، يذكر محاسنه العملية . بل قدم للخليفة بطريقة مهينة . ويقال ان يعقوب كان هو المثني له وصاحب الرأي الاصلى ، لكنه دفع بالأمير الزاكي عثمان . بصفته أحد الذين خبروا قتال العدو في الشمال ليقترحه على الخليفة . وقد قدم الاقتراح في أحد مجالس الخليفة في الاسبوع الاخير من ابريل . والواضح ان المجلس كان مجلسا عائليا أو شبه عائلي . ولم يكن شأنه شأن مجالس الخليفة الرسمية ، فالنقاش الذي دار والاقتراحات والافكار التي قدمت بها لايمكن ان تناقش في مجلس كبير يضم اشتاتا من عناصر مختلفة .

فقد قدم الزاكي اقتراحه مستندا الى قوة العدو حسب ماقدرها . موضحا انه لاطاقة للخليفة بمقاتلته في امدرمان « ثم ان امدرمان ليست وطننا في الاصل حتى ندافع عنها بل نُسحب منها غربا الى الابيض فاذا لحق بنا نتحرك لشاكا ونقف هناك وقفنا الاخيرة لنموت في ديارنا وفي تربتنا . »

ونسى الزاكي ان الخليفة لم يكن ينظر لنفسه كزعيم قبيلة لرعاية البقارة واهل الغرب فحسب . بل هو خليفة المهدي ، والمسئول عن كل تلك البلاد وحامل لواء المهديّة والمدافع عن عقيدته . لذا كان رد فعل الخليفة للاقتراح عنيفا . فقد اجاب « ألا تحجل من نفسك يا رجل . . . لقد وقف عبد الله ود سعد ببضع مئات من الرجال في وجه جيوش محمود الحرارة ورفض الفرار والتخلي عن حلة واحدة . . . وتريد مني ونحت يدي كل جيوش المهديّة أن أجبن وافر واثرك امدرمان والبلاد كلها في ايدي الكفار . . . سأحارب حتى انتصر أو يقتل جيشي كله فأجلس اذ ذاك على فروتي عند قبة المهدي واسلم امرى الى الله » وامر بوضع الزاكي في السجن وتكبيله بقيود الحديد . ونكس جميع من في المجلس رؤسهم

ولم يجرؤ أحد على ذكر هذا الأمر مرة أخرى (١).

والخليفة وهو يحشد قواه الداخلية للمعركة الفاصلة كان لابد له من التحرك والانجاء نحو سياسة خارجية أكثر مرونة مبتعدا قليلا عن سياسته التقليدية المتصلبة التي اتسمت بالعزلة والعداء نحو كل الدول التي لم تؤمن بالمهدية . فلم يحاول الخليفة أبدا - عكس حكام افريقيين آخرين مثل منليك - استغلال تضارب مصالح الدول الأوروبية ومطامحها الاستعمارية في افريقيا . فكل من لم يؤمن بالمهدية كان عدوا في نظره . الانجليز اعداء محاربون ، والفرنسيون اعداء متوددون .

عندما ارسل منليك ملك الحبشة خطابا للخليفة يخبره بانتصاره الساحق على الايطاليين في عدوه ويجددا عرضه بالصلح وعقد معاهدة للتعاون على الوقوف في وجه الاوربيين ، رد الخليفة بالموافقة بعد ان وضع شروطا قاسية . كانت شروط الصلح الاولى هي ان يخلو منليك حصونه وان يمتنع عن اى صلات أو علاقات تجارية مع الاوربيين « ليس بيننا وبينهم الا الحرب » . وكان هذا بالطبع كثيرا على منليك الذي استفاد للحد الاقصى من علاقاته مع الفرنسيين في مده بالسلاح . فكان ان عاد سفير الخليفة المتجول - محمد عثمان خالد - حاملا رد منليك بالرفض ولكنه جدد استمرار الاتصالات وتعاقب وصول السفراء المتداولين في العاصمتين ام درمان واديس ابابا . وتمت آخر زيارة للوفد الاثيوبي في ابريل ٩٨ في فترة الحشد والاستعداد .

وقد اعد الخليفة برنامجا حافلا للزياره وعين ابراهيم رمضان امين بيت المال السابق ليكون مسئولاً عن راحة الضيوف . وقد قصد الخليفة ان يبهير ضيوفه بعظمة دولته . ومن اجل ذلك تراخت قوانين المهديّة الدينية والاجتماعية المتصلبة لحد بعيد . فقد تمت الخمور وعرقى البلح للضيوف ونظمت الترسانة احتفالا كبيرا بالالعب النارية .

(١) وفي رواية شقير انه قال لمن كان عن يمين الزاكي ويساره « شيلة ام اضان » أي اصغعه على وجهه فصغاه وبعدها وضع في السجن معه تكييله بالحديد . ومن الثابت ان الزاكي أمضى فترة في السجن إلى ان شفع له شيخ الدين فأفرج منه .

وعندما تمت المقابلة المقفولة اخيرا بين الخليفة والوفد الحبشى ، قدم اليه الوفد علما فرنسيا لوضعه فى حدود دولته ، وبذلك تصبح دولته دولة مستقلة ، ولكنها تحت الحماية الفرنسية . فشكرهم الخليفة واخفى العلم . والمرجح انه فكر فى استخدامه جديا قبل معركة كررى بعد اصرار وتشجيع شيخ الدين ولكن يعقوب عارض معارضة متصلة فلم يستخدم العلم .

□ □ □ □ □ □ □ □

عندما قرر الخليفة خوض معركته النهائية على ضفاف النيل سواء فى ام درمان أو شمالها وقرر حشد كل طاقاته للقاء النهائي ، كان جزء كبير من جيشه مبعثرا فى ارجاء امبراطوريته الواسعة . وخلاف حاميات الشمال التى تبدد شملها كان للخليفة ثلاثة جيوش كاملة .

١ - جيش الامير احمد فضيل فى شرق السودان ورثاسته القصارف « ٨٠٠٠ مقاتل » .

٢ - جيش الامير عربي دفع الله فى جنوب السودان ورثاسته الرجاف « ٤٠٠٠ مقاتل » .

٣ - حامية الخنيم موسى فى كردفان ورثاسته الالبض .

وكان على الخليفة ، وهو يحشد طاقاته لمعركته المصيرية ، ان يوازن بين عدة عوامل عاقته اغلبها من حشد كل طاقاته البشرية والتارية فى ام درمان واهم تلك العوامل :

١ - الايطاليون فى الشرق يتحفزون للوثوب عليه بعد التدخل البريطانى .

٢ - فى بحر الغزال تواترت الانباء من عربي دفع الله عن كفره آخرين حمر الوجوه يتقدمون نحوه « البلجيكيون » .

٣ - فى دارفور عادت القبائل الى طبيعة التمرد مرة أخرى فقد ثار الهبانية وبنو هلبة واخيرا سقطت سلطة المهدي نهائيا عندما استغل ابوكوده ضعف حامية الفاشر الصغيرة التى تركها محمود خلفه بقيادة ام بدى الرضى واستطاع هزيمته وبذلك انفصلت دارفور نهائيا .

وفي كردفان كان الكبابيش يتصلون بوضوح مع العدو ، وبدأ الحمر في النهود في الاغارة على الاهالى وتحدى السلطة .

واذن لم يكن الخليفة يرغب اطلاقا في مواجهة كتشتر بكل قواته والا انهارت وتمزقت اوصال دولته . فكان لابد له من ترك بعض هذه الجيوش أو كلها للمحافظة على حدوده من الغزو الخارجى ولحفظ الامن من عبث اعدائه الداخليين الذين اشتدت عزيمتهم بعد سماعهم بانباء انتصارات عدوه المتواصلة .

وعندما قرر الخليفة استدعاء احمد فضيل بأغلب جيشه من شرق السودان لحماية الضفة الشرقية للنيل لم يكن يعلم بتقدم العربان المواليه (Friendly Arabs) كما دعاهم شقير ، من رجال الجعليين والشايقيه بقيادة ميجور ورثلى . ولكن غريزه ، ثم تقارير الباقي ، نبهته الى خطورة ترك جناحه الايمن مكشوقا .

فطلب من احمد فضيل ان يتحرك لام درمان بكل جيشه . وبدأ فضيل في تجميع كل قواته في القصارف ، وكانت خطته في البداية هى نقل كل جيشه الى ام درمان تدريجيا وفي وحدات صغيرة منفصلة ، لصعوبة اعاشه جيش ضخم يتجاوز عدده ثمانية آلاف جندي اذا تقدم مجتمعا ، ولينجنب الاضطرابات والعدوان الخارجى الذى قد يحدث اذا تم الاخلاء الكامل لكل المنطقة مرة واحدة ، وعليه رفع التقرير فى ١٥ محرم ١٣١٦ (١٥ يونيو ١٨٩٨)

« كان حضور المجانة يوم الخميس الموافق الحادى عشر منه ويوم صدور الاشارة الكريمة طلبنا الاعوان الرؤوس وتليت عليهم الاشارة وافهمناهم بأن يجمعوا كافة الاخوان جهادية واولاد عرب والخروج بهم لمحل العرضه لاجل تلاوة المنشورات الكريمة عليهم وقد كان بيوم الجمعة باجتماع الاخوان المذكورين استبشروا وفرحوا بالمنشورات ومذاكرات الخير والاصلاح . ثم تأهبوا للسفر بيوم الاثنين الموافق الخامس عشر من البخارى صار قيامهم من هنا ظهرا على بركة الله . واما الاولاد الذين كانوا مع المكرم محمود احمد فعلى حسب الاشارة كان اجتماعهم واقامتهم محلا واحدا مع رؤوس ميات ربع الامداد هنا والمذكورين اختاروا لهم اثنين مقاديم كانوا فى رأسهم

فى الطريق و كل مقدم منهم اخذ فى تجميع وتخريب ما هم تابعين اليه .
وبالحالة هذه لدى قيام السرية صاروا رفاقهم مع المكرم بحيث التمورى

« »

ثم بدأ فى ارسال وحداته كاجزاء صغيرة ، ولكنه عاد وتنبه الى خطورة
ترك القضايف خالية بدون قوات على الاطلاق ولا بد من الاحتفاظ بجزء كبير من
قوته لحماية الحدود والمحافظة على أمن المنطقة فكتب للخليفة برأيه هذا . ووافقه
الخليفة على ترك احد ارباعه الاربعه للمحافظة على المنطقة ، وترك له حرية الاختيار
فى ان يجمع ربعا كاملا أو يجمع ربعا بأخذ بضع رايات من الارباع كلها . وعليه
فقد كتب الخليفة لاحمد فضيل ١٧ ربيع أول (٥ اغسطس ٩٨)

« نعلمك ايها المكرم انه قد أسبقنا لك القول بأن تحضر بالارباع
الثلاثة التى هى ربع فضل حسنه وربع عبد الرحيم وربع سعد الله وتأخر
عبد الله حامد بربعه فى المركز وذلك حسبما بدأ لنا فى المصلحة لحفظ
الجهة وسد المفازات بعد حضوركم وحيث انك الشاهد وترى وجه
المصلحة فى ذلك فانظر فيما ذكرنا فان رأيت المصلحة فى حضور
الارباع الثلاثة المذكورة وتأخير المكرم عبد الله حامد بربعه فافعل وان
رأيت المصلحة فى حضور الارباع الاربعه معك وتعيين وكلاء معتمدين
منها بحيث كل ربع يوكل له وكيل معتمدا يقوم بحفظ الجهة وتعين وكلاء
عموميا حازما مثل عمر نحاس أو خلافة على حسب ماتراه — انما القصد
ان ترى ما فيه وجه المصلحة والحزم والحفظ التام للجهة والنقط . »

ولحساسية الموقف شدد الخليفة على ضرورة المحافظة على النقاط الخارجية
للحدود واحتلالها بالقوات . واجاب عليه احمد فضيل بأنه لم ينس هذا الأمر
بخطابه بتاريخ ٨ ربيع الآخر « ٢٦ اغسطس » الذى جاء فيه :

« » بعد ان تقدم الرفع بالايضاح بتأهب الجيش لقيام طبقا
لاشارة الطلب الكريمة صار الاخذ فى تنبيه الاخوان جماعة الربع الفاضل
قيادة المكرم سعد الله عز الدين وكيل المركز وتعيين الاخوان اللازمين
الكفاية منه لكل نقطة من النقاط المواجهة لطرق بحر اتبره من الرأس

الانصار اهل تمبول والسلاح وحضور من بالنقط من جماعة الارباع
 المسافرة وضمهم الى ارباعهم وكذا تعيين ما لزم لكل من جهتي امانات ،
 رمله ، والقلعه ، من الرؤس والانصار وتجييه لفئة الانصار العواجز الفاضلين
 بالمركز من كل ربع وتعيين الوكلاء اللازمين وهم اعوام الموضح
 اسمائهم اعلاه وارفقوا مع المكرم سعد الله عز الدين وكيل المركز
 العمومي لمؤازرته وشد عضده في امر الدين وكذا تحرر للاعوان النور
 صلاح ، وعبد القادر البشير ، عمال رباطي القلابات والتومات بما اقتضى
 تحول الاعلام وبقيام الجيش طبقا للإشارة الكريمة ان يكونوا بمجموعهم
 الاعوان والانصار على غاية اليقظة والتحزب والاستعداد وكشف الاحوال
 ورفعها اولاً باول للمكرم سعد الله ويرفعها هذا لوسيلة الاسلام في كل
 قليل من الايام كما تقرر بذلك مع مرور الدوريات في المراكز وفي
 اهل النقط لغاية بجزائه بجميع الطرق والمجالات دون قصور او اهمال .
 وبعون الله تعالى بيوم الاثنين الموافق ٤ الجاري صار تقديم الثلاثة ارباع
 قيادات المكرمين فضل الحسنه وعبد الرحيم البرجول وعبد الله حامد
 دفعة واحدة ونزلوا بام قلجى والانصار التابعين لهم متحزين تحت
 الرايات بالخيول والسلاح وبيوم الخميس الموافق ٧ منه قاموا من ام
 قلجى صباحاً على بركة الله . وبعد فالامر مفوض لسيدى والسلام .»

ولم ينس الخليفة وهو يحشد القوة البشرية ان يحشد ايضا الكفاءات . فسأل
 عن أحد القادة الاكفاء القلائل الذين تبقوا له من جيل الاسماء العظيمة وهو النور
 عنقره (١) وقد كان عند ذلك مريضاً ملازماً للفراش بمتزله في القضايف . . طلب

(١) تركنا النور عنقره بعد ان لمع اسمه في حرب الزبير ، ولكن النور انطبق عليه القول : خيارهم
 في الجاهلية خيارهم في الاسلام : فلم تكن الكفاءة والبطولة التي أبرزها في المهدي باقل من كفائته
 أثناء حرب الزبير .

فبعد سقوط دارفور وتمرد سليمان الزبير ، انضم للحكومة ومنح لقب بك وقاد الحملة الموجهة
 ضد السلطان هارون المطالب بعرش دارفور وقتله . وكان صديقاً شخصياً لفردون كما يذكر في
 مذكراته . ثم حارب ضد المهدي عندما حاصر بابه وبعدها استسلم وعين أميراً واشترك في أغلب حروب
 المهدي واشهرها ، معركة أبو طليح ومعركة القلابات تحت قيادة أبو عنبة وأخيراً معركة كسلا +

الخليفة من أحمد فضيل الاحتفاظ به في القصارف فهو خير من يستطيع المحافظة على الجبهة المتوترة في غياب أحمد فضيل . وعليه ارسل احمد فضيل خطابه بتاريخ ٢٩ ربيع أول (١٧ أغسطس ٩٨) يقول فيه :

... نرفع سيدى ان المكرم النور عنقره محمد منذ أيام حاصل له عيا وملازم الفراش ولايستطيع السفر الآن بالحالة التى هو عليها وكذلك صار ايصاله الاشارة الكريمة بمنزله الصادرة له بأمر الفضول مع الوكيل بالمركز لموازرتة .

وأما الأحباب جعفر احمد ابو سن، وعوض الكريم عيسى زايد، كماهو مطلوب لهم من الخير بمقابلة وسيلة الاسلام ورغبتهم فى تسامح لهم الاشارات الكريمة الخاصة بهم وصاروا على حالة السفر وبذا لزم الايضاح لسيدى . . . » ثم أرسل مع خطابه خطابا خاصا من النور عنقره للخليفة تضمن الآتي :

« ان كريم الخطاب الرقيم ١٧ ربيع اول الجارى ورد وتشرفت به غاية الشرف وحمدت الله على ذلك ومنوها فيه بفضول عبدكم بالمركز لموازرة من يعينه المكرم احمد فضيل للمركز وبمشيئة الله سبحانه وتعالى ونفوس السيادة العظمى ورضا سيد الجميع على عبده اكون كما المظنون والمأمول فينا ولايكون لعبدكم قصور ولافتور فيما اشار به عصمة الاسلام واسأل الله ان يمتنى على رضاه فالذى يصير تعيينه بمعرفة المشار اليه سأكون له اطوع الطابع واقف معه يدا واحدة وعونا واحدا لويكون عبدا حبشيا مملوكا لاكتساب الرضا التام من لدن الخليفة وقبل هذا منذ

+ ضد الايطاليين تحت قيادة أحمد ود على وأصيب فيها بجروح كثيرة، وقد قيل كثير من الشعر القومى مدحا في شجاعة النور .

والخليفة فى تقديره للكفاهات تفاضى كثيرا عن سلوك النور الشخصى . وكان من المعروف ان النور يحتسى الخمور علانية ويدخن . وهناك قول مشهور للخليفة عن النور عنقره ، فعندما يستشير الخليفة شخصين ويشعر من أقوالهما ان احدهما يتأفقه خوفا منه والاخر يقول الصدق بغض النظر عن الاضرار المترتبة عليه يلتفت اليهما ويقول قوله المشهور : « انت بتخاف منى وما بتخاف من الله .. وانت بتخاف من الله وما بتخاف منى .. والنور عنقره لا يخاف منى .. لا يخاف من الله » الا ان النور تعرض لشكوك الخليفة فى آخر أيام المهديّة واكفى بالا احتفاظ به بعيدا عن ام درمان . وقد عمر النور حتى بعد نهاية المهديّة وتوفى عام ١٩٢٠ م . « مذكرات النور عنقره بخط اليد - مجموعة وثائق السيد عبد الله الأمير » .

Hill P 297

ايام كان عبدكم عيان وتحسن الآن حاله ولاسيما عند ورود هذا الخطاب
الكريم حصل لى استكمال الشفاء ببركته . . . »

• • • • •

اما جيش عربي دفع الله فلم يحاول الخليفة مسه ، لانه كان بالكاد يكفى
لمقاومة الغزو الغربي ، ولبعد مسافته من امدرمان . وتلفت الخليفة للمناطق الأخرى :
غرب السودان والجزيرة . وقد قرر بعد تواتر الاخبار ببدء تمرد القبائل ألايستدعى
وحدات كاملة كما حدث مع احمد فضيل بل يكفى بالمتطوعين للجهاد لينضموا
تحت رايات امدرمان فرادى .

أما فى الغرب فقد أمر الخليفة حاكمه الامير الختم موسى بارسال أى فرد
قادر على حمل السلاح لامدرمان والاحتفاظ فقط بالقوة الضرورية اللازمة لحفظ
الأمن فى منطقته الواسعة التى اشتملت على مديرتى كردفان ودارفور . ولم يتوافر
له بالطبع حشد كبير هذه المرة . اولاً لأن تعبئة جيش محمود ود احمد المباد
استهلكت معظم القوة البشرية التى كان من اهم مصادرها البقارة فى الشمال ،
والجائى فى الجنوب . . وثانياً لان القوة الباقية للختم موسى كانت لاتكاد تكفى
لقمع بوادر التمرد وسط عشرات القبائل على طول وعرض مئات الالوف من
الاميال المربعة . وها هو ذا الختم يبلغ الخليفة تعاون الكبايش الواضح مع العدو
حيث يقول حين كتب للخليفة فى ١٩ محرم ١٣١٦ (٩ يونيو ١٩٠٨) :

« أنه قد بلغنا ان المخدولين الكبايش الذين أخذوا الجمال
من البادية حضروا بلجهة كجمر وقد قابلهم واحد رجل من الجعليين
يسمى ولد ابو جدري كان مكسوا له خديم ولاجل ذلك توجه لهم
وقابل جموعهم فوجدهم كبايش وشايقية وجعليين ريسهم واحد من
مواليد الترك الزرق وسألوه عن الاحوال بجهة كردفان فعرفهم بما هو
موجود »

ولم تكن حال دارفور بأحسن من كردفان . فهاهم بنو هلبه عادوا للاغارة
على الاهالى ، وهاهم الهبانية قد اغاروا مرة اخرى على مركز النهود . وقد اضطر

الختم للقيام برحلة تفقدية واسعة شملت كل ارجاء مقاطعته ليحقق غرضين ، قمع مظاهر التمرد التي بدأت في الانتشار من جهة ، واعتصار آخر عناصر القوة البشرية في غرب السودان . ويبدو ان رحلته لم تحقق نجاحا يذكر كما وضح هو في تقريره بتاريخ ١٧ محرم :

« انه لحال مرورنا في جهة كردفان لانجد فيها عمارة بالطريق غير حلتين حلة اولاد ابو سليمان فيها عبارة عن عشرون منزل واهلها الموجودين فيها عادمين بالكلية من عدم المعاش والثانية حلة محمد ادم البحرية بالمثل لانجد فيها زيادة عن خمسة أو ستة رجال واثقين واما مركز بارا فيه بعض ناس عادمين ومعهم محمد احمد عدله كنا عيناه لمحافظة المركز قبل قيامنا اما جهة ود حامد قد بلغنا اكيد ان عمر محمد قش قد خابر عربان الكباشي واتحد معهم وقاصد ادخالهم في جهته وحميه بهم ويشنوا الغارات ودليلا على ذلك انه بحضورنا لمركز بارا خابرنه ليقابلنا ببارا وانتظرنه اياما لاكان يحضر لنا وان المرسلين منا حضروا لنا منه بدون افاده وبالنظر لما تبالغ لنا من المضايقة الحاصلة بالمركز وخشيتنا عليه قد تركنا عمر المذكور وتوجهنا ، وايضا تحرر منا الى الشامي هباني وعبد القادر رحمه ليقابلونا في الابيض للنظر ماهم عليه وعليما قبل ان الشامي هباني وعبد القادر بينهم منافسة وبعد حضورهم افيدكم بالحالة . »

ولم يكتب للختم النجاح الا في منطقة المسيرية حيث ارسلهم واغلبهم من صغار السن أو كبارها . اما في شمال دارفور ، فقد أفلح في تجميع مئآت وارسلهم للخليفة وابلغه بخطابه المؤرخ آخر محرم ٢٠ يونيو ٩٨ : « ونرفع لمقامكم ان كافة الجليدات البعض منهم توجه النهود والبعض اخذهم مقدمهم ايدهم ولد جوده وتوجه بهم إلى البقعة المنورة »

أما الجزيرة ، فعلى الرغم من ان الخليفة كان يعتبرها منطقة لتصدير المحاصيل والحبوب ، وليس لتصدير المقاتلين ، وحاول طيلة سنين حروبه المتصلة ان يترك بها عددا كافيا لزراعة الارض التي اعتمد على محصولها في تموين جيوشه واهالي

عاصمته، الا انه اضطر الى ضم كل السواعد التي حملت المناجل من قبل الى حمل السيوف هذه المرة .

وقد قرر الخليفة منذ هزيمة محمود ضم الضفة الشرقية للنيل الازرق وضم مسئولياتها الادارية لاكثر حكامه كفاءة الامير احمد السنى . فطلب منه ترحيل كل أهالى الضفة الشرقية الى داخل الجزيرة . أولا لتجميعهم وارسالهم لام درمان وثانيا لوضع مانع طبيعى ، النيل الازرق ، بينهم وبين العدو الذى اصبح طريقه مكشوفاً للوصول اليهم . وقد بدأ احمد السنى بنشاطه وهمته المعهودة فى تنفيذ اوامر الخليفة . ثم حرر بتاريخ ٣ ربيع اول ١٣١٦ « ٢٢ يوليو ٩٨ » خطابه التالى :

« طبقا للامر الكريم الصادر لى من سيدى بتفقدى للاهالى فى حلال الشرق التابعين راية المكرم العباس محمد بدر فتفقدناهم فوجدنا اهالى السبعة عشر حلة الموضحين بالكشف مرفوقه قطعوا من الشرق هم وعوائلهم وجميع ارزاقهم ولم يبق منهم أحد بالشرق واقاموا بالهوى بالمحلات الموضحة بالكشف واخلوا محلاتهم الشرقية بالكلية وهذه الجهة من العيلفون لغاية الهلالية وذات الهلالية مقيمين بها أهلها لان لم يعدوا ومازلنا متفقدين جهات الشرق المذكورة اذا وجدنا أحد منهم لم يعدى نقيب على حقيقته ونجربى تعديته ونرفع امره للمسامح الكريمة »

الكشف المرفق طى الخطاب عاليه بأهالى الحلال الذين نزلوا برفاعة ونواحيها : « ٢٣١ » ١ - حلة بريده ٢ - حلة ابوشام ٣ - حلة الطنطب ٤ - حلة زرق ٥ - حلة كربوت ٦ - حلة غريقانه ٧ - حلة الحوا ٨ - حلة عد الحاج ٩ - حلة الهيال ١٠ - حلة العبودات ١١ - حلة تنبول ١٢ - حلة النجاضه .

وعندما اصدر الخليفة امره النهائي بترحيل اى شخص قادر على حمل السلاح حتى وكلاء جمع العيش صارفا النظر عن الاضرار الاقتصادية المترتبة على اوامره تلك ، طلب احمد السنى ابقاء اثنى عشر مساعدا فقط لمساعدته فى تأدية واجبه بخطابه بتاريخ ٢٩ ربيع اول عام ١٣١٦ (١٧ اغسطس ٩٨) - اذ جاء فيه :

« انه بعدما فرقنا خمسة آلاف اردب جديده ومجتهدين فى نزولها ومنظور خلاصها فى مسافة قريبة . وتفقدت محلات وجود العيش فما كان من المكرم محمد الطيب البصير امس تاريخه نبه كافة الاهالى بأنه صدر اليه امر كريم من السيادة بحضور كافة المجاهدين بدون ترك أحد منهم بما فيهم متعهدين العيش ومنبه بأن السيادة نبه اليه بحضورهم سريعا وبذلك ابطى حركة التحصيل بالكلية واني لم اريد ان اعارضه فى اهالى الجزيرة انما لضرورة لزوم العيش ومصلحة الدين اليها وقتئذ اريد تخليص اثني عشر رجل فقط الموضحين بالكشف مرفوقه هؤلاء اكتفى بهم فى عموم الجزيرة واجرى مصلحة العيش بهم ان كان يوافق يتحرر لولد البصير بتركهم لنا والا فالامر مفوض لسيدى . »

ثم تحرك السنى فى جولة اخرى تفقدية للتأكد من تنفيذ اوامره ، محررا بتاريخ ٧ ربيع آخر عام ١٣١٦ (٢٥ أغسطس) تقريره الآتي :

« فما نرفعه للمسامع الكريمة من احوال الشرق سيدى ادام الله بقاءك ان الامطار بجهة الشرق قد تواتر نزولها واتسع الخريف بها والعبوش المزروعة بها صارت بليغه وتحتها المياه الكفاية وجهة الشرق البحرى من الهلالية لحد العيلفون جميع اهاليها عدو للجزيرة ولم يتأخر احدا منهم بالشرق وحلالهم جميعها صارت خالية وتفقدناها بالمرار العديدة فلم نجد بها احد ولازالوا جماعتنا مقيمين بتلك الجهة لبتفقدوا احوالها وليعلمونا بها لرفعها للمسامع الكريمة واما فى الهلالية وصعيد حتى الشريف يعقوب فهؤلاء مقيمين فى محلاتهم وللآن لم يعدى منهم احد للجزيرة وايضا الاخوان جماعتنا مقيمين معهم بالمراكز مثل رفاعة وابو حراز والشريف يعقوب وافهمناهم بتفقد الاحوال ويعلمونا بها لرفعها للمسامع الكريمة والمكرم عبد الرحيم ابو دقل قد ابتداء القطوع بمن معه من الانصار بقصاد حلة البطاحين المقابلة لرفاعة بالهوى ولغاية ثاني يوم من تاريخه مأمول تكامل قطوع الجيش الذى معه للهوى . »

واما منطقة . فقد ارسل الخليفة لعاهله عثمان الدكيم بالامراع

واخلاء المنطقة والحضور بنفسه وكل القوة التي لديه وأجاب عثمان الدكيم بالبدء في تنفيذ الاوامر بخطابه بتاريخ ٢٠ محرم ١٣١٦ (١٠ يونيو ١٩٨) وفيه يقول :
 « . . . فعرض سيدى انه بعد تحرير البوستان لسيادتكم مرقومة وقيامها للسفر فى يوم تاريخ وردت لنا مكاتبة من المكرم يعقوب محمد بجمع كافة الاخوان الذين معنا والحضور بهم دفعة واحدة وعمل به بوقته ارسلنا مخاصيص لجمعهم وقريبا نحضر انشاء الله تعالى » .

• • • • •

وقد جرت عادة الخليفة فى اهمال حشد الخيول واستجلابها من مناطق السودان المختلفة ، لانه اعتمد على رغبة الافراد الطبيعية فى ان يقاتلوا على ظهور الجياد وليسوا مشاة . وذلك الحافز الشخصى كفى الخليفة مجهود تجميع الخيول أو شرائها وترك امرها لهمة الافراد واستطاعتهم المادية فى شراء الخيول . ولكنه هذه المرة لم يكتف بذلك ، بل امر يعقوب بشراء اكبر كمية من الخيول من بيت المال . أو انتزاعها بالقوة ان لزم الأمر . وكان عدلان محمد سرور عامله فى منطقة الفونج احد الذين اصدر لهم الخليفة هذا الامر ورد عليه عدلان شاكيا من مراوغة موردى الخيول فى تسليمها بخطابه بتاريخ ٨ محرم ١٣١٦ (٢٩ مايو ١٩٨) القائل :

« سبق التعريف بمقدار الاثنا عشر حصان التى تحصلنا عليها من بعد توجه الخمسين التى ارسلت وعند حضور جماعتنا الذين ارسلناهم للجبال الفوقانية فما يأتونا به من الخيول نفيد بمقداره ويومين من تاريخه ، حضر لنا عبد من مواليدنا القدم اخذ عوايله من نساء واولاد وهرب لجهة الدينكا بالبحر الابيض اذ انه فى الاصل دينكاوى وقد عرفنا به اخواننا واولاد عمنا خاصة بما فيهم ادهم اونسه واحمد حسن وخليل الضو ومن معهم على ستة خيول من ضمن الخيل الذى عرفنا عنها ولما وصلوا البحر الابيض وافوا حضورهم احمد محمود هناك وعلى حسب ميلان قلوب الانصار على بعضها ما امكنهم التزول بالدينكا ولاعرب الجهة بل اتوا اخوانهم الانصار فما كان من احمد محمود المذكور الاوقد هجم على جماعتنا وجرى ضبط خيولهم دون وجهه حتى وما امكنه ان

يسلمها لهم وعندما بلغنا حصول ذلك حررنا له خطاب وعينا له مخصوصين ويدهم الاوامر الكريمة المنورة بحضور الخيل فمن بعد مطالعته الخطاب ماسلم الخيول بل تحيل بمقاله ان الخيول وبما فيها للسيادة غير ما يأتيني فيها امر لم اسلمها وهاهو رد خطابه طى هذا وما كان هذا منه الا بوجه التعديه فقط نخابر السيادة بأن خير لنا وجماعتنا بطرفه لغاية الآن وان احمد محمود المذكور والاخي ادريس ولد رجب قد شغلوا افكارنا بتعدياتهم وامس حضرت لنا مخابرة جماعتنا متضررين من ادريس المذكور مورين عدم راحتهم منه بتعديه عليهم بواسطة جماعة عبد القادر محمد الخليل وخلافه وهاهى مخابرتهم طى هذا والآن منتظرين من عال الجناح صدور الاوامر الكريمة منها لاحمد محمود لتسليمنا خيولنا ولادريس ولد رجب بحفظه طرفهم وكف يد جماعته . ثم والامر الكريم الذى تحرر برسم خوجلى الحسن قد ارسل له وقتيا وكذا عبد الرحمن خوجلى قد تحرر له حسب ماتنوه وقد ارسل له وقتيا عبد الرحمن خوجلى من طرفنا بواسطة الحبيب محمد محمود حميدى اذ ان خطابه السابق ورد لنا بواسطة المذكور وبعد حضور الرد منه نفيد عنه السيادة وجزى الله الحبيب محمود محمد حميدى خيرا لازالت افعاله مرضيه ولو يوافق بحرر له امر كريم لاستجلاب خاطره زياده وفيما ابدينا الامر مفوض .

وعندما نجح عدلان فى الحصول على الخيول المطلوبة على قلتها كتب للخليفة بتاريخ ١٩ صفر ١٣١٦ (٩ يوليو ٩٨) مانصه :

« سيدى كان سبق التعريف بمقدار الاثنا عشر حصان التى تحصلنا عليها بما فيها الستة التى اجرى مسكها احمد ولد محمود وبمحمد الله الان قد حضروا جماعتنا من ايجال القوقانية فصارت ثمة الموجود تحت اليد اربعة وعشرون حصان بخلاف التى بيدى احمد ولد محمود والجميع بيدى الاخوان الانصار جماعتنا القايمين معنا بأمر المساعدة فى مصالح الدين ولازلنا بازلين الجهد بتحصيل هذا الصنف وكلما يتحصل شئ نفيد

عنه وكذا سيدى كان عرفنا بمقدار العشرة بنادق والتي تحصلنا عليها لحماية نفوسنا بها من الاعداء المنافقين بواسطة الحبيب خوجلى الحسن وبالنظر للخشية الحاصلة من الاعداء حسب المسموع قد تبصرنا ايضا على استحصال احدى عشر بندق آخر بواسطة الحبيب خوجلى المذكور جميعها رمنجطون بواقع الواحد وقيّة ذهب وقد صارت التتمة واحد وعشرين بما فيهم واحد ابو روحين وانشاء الله قدر مانتحصل على شئ نفيد المقام العالى وجميع هذا القدر بيد الاخوان .

ولم ينس الخليفة فى حشده للكفاءات والرجال امر عثمان دقنة . وقد خرج عثمان دقنة بقوته سليما من معركة عطبره ولم يبذل ادنى جهد فى معركة علم قبلها انها معركة خاسرة .

وبعد المعركة تشتت رجاله فى انحاء الشرق وعاد هو الى ادارما ومكث فيها قليلا . ثم تحرك منها الى ابي دليق فالقصارف ، وهناك ارسل له الخليفة ، وعاد مرة أخرى فى رحلة طويلة لجمع رجاله وشق طريقه الى امدرمان بعد رحلة شاقة عانى فيها رجاله كثيرا من الجوع والعطش الى ان وصل الى البر الشرقى للعاصمة . ولقد اعد الخليفة استقبالا يليق بقائده الشهير ليزيل قليلا من مرارته . فأرسل احدى البوارج لتنقله من الضفة الشرقية الى امدرمان ، وتقدم الخليفة مباشرة بعد عرضه الجمعة متقدما حشود العرضة الضخمة ووقف على صهوة جواده الى ان نزل عثمان دقنة من الباخرة يتبعه رجاله فترجل الخليفة واحتضنه ومضيا سويا الى صلاة الجمعة . ووقف عثمان دقنة مباشرة خلفه اثناء الصلاة .

لم يخطب الخليفة ذلك اليوم بعد الصلاة كعادته وانما صعد عثمان الى المنبر وخطب فى الجموع خطبة ملتهبة واصفا ظروف الهزيمة فى معركة عطبره قائلا : « لا تخزنوا ان سقط الامير محمود اسيرا فى ايدي الكفرة . . . صحيح انه ابن عم الخليفة . . . ولكن كان الزبير بن العوام خيرا عشرين الف مرة من محمود ولكنه اسر ايضا . ولا يمكن ان نتصر دائما . بل يجب ان نتقبل الهزيمة ونحولها لنصر . . » ولقد استمرت خطبته من صلاة الظهر الى مغيب الشمس واغمر على البعض من حرارة الشمس كل هذا ودقنه يتحدث دون انقطاع .

أما الراية الثالثة التي إنضوى تحتها سكان الشمال والجزيرة في العادة ، وهي «الراية الحمراء» التي أُلغيت وتمت تصفيتُها اثر تمرد الخليفة محمد شريف وسجنه ، فقد أحس الخليفة بأنه قد حان الحين لاعادتها لتساعد في عملية التعبئة . فأمر باعادتها في احتفال رسمي ودعا الخليفة على ود حلو ومجلس قضاائه وكبار الامراء لحضور المراسيم ثم تحدث الخليفة وذكر للحاضرين انه يرغب في اعادة «الراية الحمراء» الاصلية التي كان اميرها ود النجومى الى الخليفة محمد شريف . ووافق المجلس . وتناول الخليفة الراية من عنقريب وضعت فيه وسلمها للخليفة شريف . وناولها هذا لاحمد عبد الكريم الذى اختير وكيلها في مكان ود النجومى القديم والبست الراية في قناتها في احتفال كبير حضره كبار الامراء والأعيان . وبدأ أنصارها القدامى ينضوون تحتها مرة أخرى (١) .

كم بلغ الحشد النهائي للخليفة وماهو تعداد القوه التي دخل بها معركة أم درمان يوم ٢ سبتمبر ؟ أخشى ان حاولنا الاجابة عن هذا السؤال أن نجد أنفسنا أمام مغالطة تاريخية كبرى (٢) .

(١) لم يكن بالضبط التحقق من تاريخ هذا الاحتفال الذى تمت فيه اعادة الراية الصفراء ، عل ان على المهدي لا يوضح التاريخ ولكن من مجرى الأحداث يتضح انه تم في عام ٩٧ . فالمصادر التي استشرتها حاولت ان تبين ان اعادة الراية تم عام ٩٧ بقرنها باحتفال آخر تم في نفس المناسبة وهو تزويج ابنة الخليفة «الرضيه» مطلقه ابن المهدي الأكبر محمد من شقيقة الأصغر البشري كمناوله لتصفية آخر مظاهر الانشقاق . ونذكر هنا ان ابن البشري من ابنة الخليفة كان مولودا رضيعا عندما نشبت معركة كبرى .

(٢) كان أول ما اثار شكوكي هو قصيدة معركة أم درمان Battle of Omdurman المشهورة التي نشرت مباشرة بعد المعركة بناء على وصف المراسلين الحريين الذي ارسل بريقيا . وقد جاء من أبيات القصيدة :

With fierce and frenzied cry,
From many a camp and ken,
The proud Khalifa came,
With thrice ten thousands men.

وظننت في مبدأ الأمر أن وزن وقافية القصيدة حتمت على الشاعر أن يقول ثلاثين الفا Thrice ten thousands بدلا من ان يقول خمسين الفا . ولم أعر الأمر انتفاتنا إلى ان بدأت الا حظ ان تقدير قوات الخليفة بثلاثين الفا يظهر في أكثر من مصدر . وثابت التحقيق السريع ذلك الفارق الشاسع بين الحقيقة وبين ما ظهر في تقارير المخابرات .

كل من شاهد تقدم الخليفة يوم ١ سبتمبر قدر القوه بثلاثين ألف مقاتل ، سواء من المراسلين الحربيين أم قادة الفرق وظهر ذلك التقدير فى عدة مصادر وتقارير . وفجأة اختفى ليرز التعداد الذى قدمه كشنر — ومن خلفه ونجت — فى تقاريره الرسمية سواء لكرومر أو للقيادة البريطانية وهو « ٥٢٠٠٠ مقاتل » وقد قبله جميع المؤرخين بدون استثناء كحقيقة بديهية .

فقد ذكر الجنرال هنتر ، قائد الفرقة المصرية ، فى تقريره الذى رفعه لرئيس الاركان بعد المعركة بأيام — وهذا التقرير لم ينشر ضمن تقرير المخابرات — ذكر فيه بالحرف الواحد : « تقدر قوة العدو الذى شاهد السردار تقدمه نحونا من مسافة ٥ أميل بثلاثين الفا » (١) .

ثم ذكر المراسل الصحفى لجريدة « الدليل تلغراف » بنيت بارلى تقديره لقوة الخليفة كالاتي : « لقد قدرت قوة العدو ، وأنا أحاول عدها بأكثر دقة ممكنة ، بثلاثين ألف مقاتل ، وربما وصلت خمسة وثلاثين ألف مقاتل » (٢) .

ولا يمكن الا ان نلمح سوء النية ، لاحسنها ، وراء هذا الخطأ التاريخي الكبير من جانب كشنر ونجت ، وذلك أولا : لأنه بعد معارك الشمال والتي كانت عمليات إبادة أكثر منها معارك ، وبلغت نسبة الخسائر فيها أحيانا ٨٠٪ . هاجمت الصحافة (١) كشنر وأتهمت بوحشية لامبرر لها . ويبدو أنه حاول أن يتفادى مثل ذلك الهجوم فى معركة أمدرمان ، فذكر ان عدد مقاتلي الخليفة « ٥٢٠٠٠ » وبذلك قدرت نسبة خسائر الخليفة ب ٥٠٪ بدلا من ٧٠٪ أو ٧٥٪ اذا علمنا أن عدد الخسائر من قتلى وجرحى بلغ ٢٦٠٠٠ من صفوف الخليفة البالغة ٣٥٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠ . ولم يتمكن هذه المرة من أخفاء عدد القتلى كما حدث فى عطبرة ، فمعركة أمدرمان شهدتها كل المراسلين ، ومثل القيادات العسكرية الاوربية وكل من كان داخل زريبة السردار شاهد تطور المعركة بوضوح .

“the enemy estimated at 30,000 was seen by the Sirdar to be advancing on us from a distance of 5 miles”

Egyptini DIV CO Report Cairint 1/60/320

“Counting as carefully as I could, I estimated the enemy who were to be seen at least numbering 30,000 and perhaps 35,000”

Burleigh,” Bennet, Khartoum campaign, London, Chapman and Hall, 1899, p. 131.

ثانيا : رغبة كمتشتر الطبيعية كأي قائد في رفع شأن انجازته وانتصاره عن طريق رفع شأن العدو الذي انتصر عليه . خصوصا اذا علمنا انه بعد أن اتضحت تفاصيل المعركة وصفها كثير من المعلقين العسكريين لاسيما الالمان بأنها نزهة عسكرية .

ولكن كان ونجت وشعبة المخابرات - ومن ضمنها شقير - اذكي من أن تطفر تقديراتهم هذه الطفرة الكبيرة دون أن تعززها أسانيد تاريخية . وقد وجدوا بغيتهم في أوراق الأمير يعقوب .

والواضح أن هذه الكشوفات لم تكن حديثة عهد « Up to date » بل هي كشوفات لحامية أم درمان قبل سنين من المعركة ، وهي بالتأكيد قبل معركة عطبرة وقبل اباداة عدد كبير من هؤلاء في المعركة . ولاشك أن الأمير يعقوب وكتبته انشغلوا بامور أعظم والعدو على الأبواب ، ففاتهم تعديل كشوفاتهم . وكل هذه الكشوفات كما سلف غير مؤرخة إطلاقا فيما عدا القلة من الاوراق ، ولاندل ابدا على أن هذا هو حشد الخليفة في سبتمبر ٩٨ .

ولو أخذنا الوحدات كما شوهدت حقيقة في المعركة وقورنت بالكشف الذي قدم في تقرير المعركة ضمن تقرير المخابرات رقم ٦٠ سنجد الفرق شاسعا . ولنا أن نقارن هنا كشوفات تقرير المخابرات الأساسي الذي اعتمد عليه معظم المؤرخين وبينهم تشرشل (١) الذي اعتبر بدوره كمرجع أخير ، وبين كشوفات الطبيب ود الحسين التي قدمها لونجت قبل أربعة ايام من المعركة ، وهذه الكشوفات دقيقة ويؤيدها معظم الأحياء ممن اشتركوا في المعركة ، فهم يذكرون أمراء الأرباع الذين شوهدوا في المعركة . وقد تركز الخلاف أساسا حول الملازمين وقوة عثمان دقنه وجيش الكارا .

(١) نجد أن تقدير تشرشل دقيق وينطبق تماما مع المصادر المحلية بما فيها كشوفات الطبيب الحسن عندما يصف الاشتباكات التي شاهدها بنفسه ، مثل هجوم أبراهيم الخليل أو عثمان أزرق أو الاشتباكات الرماحة ، أما هجوم الملازمين أو هجوم الراية الزرقاء فقد كان بعيدا عندما حدث ونجده يتجذب لأرقام ونجت بل يفصل الأعداد ليكمل العدد (٥٢٠٠٠) .

فقد قدم تقرير المخابرات الملازمين بالكشوفات الآتية :-
الكشف الأول

عدد البنادق	عدد الخيول	عدد المقاتلين	
١٨٠٣	٢٧٦	٢٤٧٤	حرس عثمان شيخ الدين
١٢٣٦	٢٧٠	١٨٥٠	ربع العريف الربيع
٦٨٧	١٩٠	١٤٢٠	،، ابراهيم جابر
٦٥٥	١٨٥	١٣٣٠	،، ادم اسماعيل
٤٢٠	١٥٠	١١٠٠	،، احمد حامد
٢٥٠	٨٠	١٢٥٠	،، فضل بشاره
٦٢٠	٢٣٠	١٥٢٠	،، ابراهيم مالك
٧٣٠	١٣٥	١٦٠٠	،، ابراهيم الخليل
٥٥٠	١٤٥	١٤٢٠	،، عثمان ادم
٧٥٠	٢١٥	٢١٠٠	،، جابر فضل
٧٥٠	١٨٠	١٣٧٠	،، عبد المجيد ابوساق
٥٧٠	١٤٥	١٣٥٠	،، مسعود
٩٩٠	١١٠	١٩٠٠	،، عبد الله ادم
٦٠٠	١٩٥	١٩٢٠	،، رابع الحبشي
٥٤٠	١٥٠	١٧٨٠	،، الطاهر علي
١٨٠	٩٥	٧٥٠	،، محمد ابوسعد
٤٧٠	٦٠٠	١٠٥٠	،، عيسى زكريا

وهذه القود (٢٩٠٠٠) مقاتل وزعت في المعركة حسب تقرير المخابرات كالآتي :

١٥٠٠٠ هجوم الملازمين بقيادة شيخ الدين (بينما قدرها الكولونيل (١) بروود وود الذي اشتبك معها ب ١٠٠٠ فقط ويؤيده المؤرخ محمد عبد الرحيم الذي اشترك في الهجوم في صفوف الملازمين)

(١) The force attacking us was some 10,000 men and advanced on us with great rapidity ;col, Broadwood Report 1/60/320)

- ٨٠٠٠ هجوم عثمان أزرع
- ٦٠٠٠ هجوم ابراهيم الخليل (قدرها المراسلون الحريون ب ٤٠٠٠ فقط)
- أما كشوفات الطيب الحسين والتي قدمها لوليت بدقة متناهية موضحا الأسلحة والخيول والأفراد ، وقبل ثلاثة أيام من المعركة ، تنطبق تماما مع ما ذكره الأحياء عندما شاهدوا أمراء أرباع الملازمين أثناء التقدم لكررى ، وأثناء المعركة نفسها ، وهذا هو كشف الطيب الحسين :-

أفراد	خيول	
		كل الملازمين أغلبهم من السود وممثلين لمعظم القبائل وهم تحت قيادة شيخ الدين وقد قسموا لارباع .
٢٠٠٠	٧٠	حرس شيخ الدين الخاص
٣٥٠٠	٧٠	العربى الربيع « تعايشى »
١٢٠٠	٣٠	جابر ابو شليخات
١٠٠٠	١٠	رابح « حبشى »
٨٠٠	١٠	مسعود « حبشى »
٨٠٠	١٠	الطاهر على
٨٠٠	١٠	عبد المجيد ابو ساق
١٠٠٠	٢٠	ابراهيم مالك
٨٠٠	٢٥	عثمان ادم
٧٠٠	١٠	فضل بشاره « تعايشى »
١١٠٠	٣٠	محمد ساغه (بدل ابراهيم الخليل الذى غضب عليه الخليفة)
٨٠٠	١٥	محمد ود ابو سعد
٨٠٠	٥	عبد الله ادم

ونلاحظ هنا اختلافه مع تقرير المخابرات الذى اعتمد على الأوراق القديمة

فى وجود جابر ابو شليخات كقائد لربيع كبير ، وهو ما أكدته كل من اشترك فى الهجوم من الملازمين من الأحياء بل قاد الهجوم الفعلى لفترة ما ، كما اختفت فى كشوفاته أسماء امراء الارباع ، ادم اسماعيل ، وأحمد حامد ، وعيسى ذكرى وعدم وجود اسم الاخير دليل واضح على ان كشوفاته جديدة ومطابقة للواقع . فبينما قدم اسمه فى تقرير المخابرات ضمن قوة الملازمين نجد ان الطيب خدغه . فهو قد انفصل من حامية ام درمان قبل اسابيع ليدافع فى الضفة الشرقية كما اتفقت جميع المصادر .

كما نرى اسم ابراهيم الخليل مستبعدا فى كشوفات الطيب عن الملازمين ووضع كقائد لفرقة منفصلة « جيش الكارا » ، حسب ما يعلم جميع سكان ام درمان منذ سنين وما أكدته سلاطين ، وما أوضحه تقرير المخابرات مناقضا نفسه عندما قدم خسائر جيش الكارا كفرقة منفصلة .

أما تعداد جيش عثمان دقنه فدليل صارخ على المبالغة ، فالثابت قطعاً من جميع المصادر الأجنبية وتقرير كتية الرماحة الذى اشتبك معها ان تعداده لم يزد عن ٧٠٠ مقاتل و ٥٠ بندقية فقط . بينما نجد ان قوته فى كشف المخابرات ٣٧٠٠ رجل و ٣٦٠ بندقية ، مع العلم أن بنادق عثمان دقنه لم تزد عن ٥٠ بندقية وضالّة عدد البنادق هو الذى حدد واجبه أخيراً فلم يخصص له واجب هجومى . أما الـ « ٣٧٠٠ » فهى قوته الأصلية قبل معركة عطبرة وقبل أن يتشتت رجاله ، وهو أعظم عدد دخل به عثمان دقنه المعارك فى تاريخه الطويل .

وبمجرد أن أصبح معلوما أن عثمان دقنه الشهير اشترك فيها سارع رجال المخابرات و اضافوا كل قواته للكشف حسب كشوفات يعقوب القديمة لكل حامية الشرق . وأول اسم يقابلنا فى قوات عثمان دقنه هو ربيع محمد موسى على دقنه بينما تثبت تقارير المخابرات فى تقارير لاحقه أن محمد على موسى على دقنه لم يشترك لاهو ولا رابعه فى المعركة وأنه استسلم بكل ربعه بالقرب من رفاعه .

وما انطبق على الأفراد انطبق على الخيول ، فبينما أوضح ونجت ان عدد الخيول التى دخل بها الخليفة كانت « ٥٥٠٠ » جواد . نجد أن تشرشل ، وهو من سلاح

الفرسان ، يذكر « كان (١) العدو ضعيفا من ناحية الفرسان ولم ترد قوة فرسانه عن ٢٠٠٠ جواد أغلبها خيول خاصة للأفراد » . وما انطبق على الملازمين والكاره وقوات عثمان دقته انطبق على باقي الفرق ، الراية الخضراء والراية الزرقاء ، فقد ذكر تقرير المخابرات أن عدد أفراد الراية الخضراء هو ٥٠٠٠ مقاتل ، بينما قدم كشف الطيب العدد ٢٨٠٠ . ولكن ستعامل هنا بتقرير المخابرات طالما لم يؤيد كشوفات الطيب مصدر آخر .

ولكى يكون تقديرنا أكثر دقة يجب أن نعطي وزنا لشهود العيان من قادة كتشتر الذين اشتبكوا أثناء المعركة وقاتلوا . فعلا ضد وحدات الخليفة واحدة أثر الأخرى .

العدد	الهجوم
١٠٠٠٠	هجوم الملازمين
٨٠٠٠	، ، عثمان أزرق
٤٠٠٠	، ، جيش الكارا
٤٠٠٠	، ، الراية الخضراء
١٢٠٠٠	الراية الزرقاء
٧٠٠	عثمان دقته
١٠٠٠	حرس الخليفة
٣٩٧٠٠	المجموع

(١) "The devirshes were weak in cavalry, and had scarcely 2000 horsemen in the field, mostly the personal retainers of various Emirs" Churchill, Winston, The River War, VOL II P.

وفي الأشهر التي سبقت المعركة برزت في امدرمان مدرستان عسكريتان
تحملان رأيين في الإستراتيجية التي تخاض بها المعركة . مدرسة تحبذ التحرك شمالا
ومواجهة العدو في منطقة مناسبة ، وبالتحديد في السلوقة ، وقد مثلت هذه المدرسة
وجهة نظر قبائل النبل . وترعّمها من كبار الامراء شيخ الدين و ابراهيم الخليل
والخليفة محمد شريف . اما المدرسة الثانية والتي مثلت وجهة نظر قبائل الغرب
ومجلس الابهات بزعامة يعقوب ، فبعد تجربة الزاكي عثمان الدرامية ، قنعت
بخوض المعركة في امدرمان بعد رفض الخليفة التحرك غربا .

وعلى الرغم من ان اقوال يوسف ميخائيل يجب ان تؤخذ بحذر فهي في
أغلب الأحيان تمثل الشائعات المتداولة وسط المجالس إلا أنه ليس هناك ما يمنعنا من
أخذ هذه الرواية الآتية بعين الاعتبار :

« وذات يوم حضر شيخ الدين عند والده كما بلغني من الملازمين سليمان
الحبشي . حصل عتاب شديد ما بينه وبين والده وقال له انا مطلع على تواريخ وكتب كثيرة
واعلم جيدا ان الانجليز لهم سياسة كبيرة وامور عجيبة ولهم خبره في امور الحرب
كما ظهر لي من التواريخ والآن ظهر لي من الانجليز ما كنت أحذر منه . والحمد لله
انت سمعت مايقوله لك جماعة محمود ويحضروا عندك والامر امرك . انما ليس
عندكم انسان يحارب دون خصوص اولاد البلد انت واخوك يعقوب لم تتركوا
لهم ناس بل قتلوا كافة رؤوس القبائل لا أحد منهم يحارب . والعربان ليسوا أهل
حرب واخوك يعقوب لايقبل النصيحة بل يقصد ضياع الملك وعجبته نفسه بكثرة
العربان ويش تدبيره يقول لي تدخل تحت طاعة النصارى هل في دولة خالية من
النصارى ؟ والله يموت هو واولاد عمه والانجليز ياخذوا تارهم منكم وانا ماشايف
ليكم نصره بهذه الصنعة والامر لله ياوالدي » .

شيخ الدين يتظلم ووالده يسمع مايقوله . بعد ذلك قال الخليفة « الامر لله
والكائن من الله يكون وانا سأعمل كل تدبير » وقام منه . وكان سليمان الحبشي
قرب الباب كمثل عادته ويسمع كل شيء . ووجدني سليمان على باب يعقوب
وعرفني بحضور شيخ الدين وكلامه .

وبعد عشرة ايام لما انخبر وصل شيخ الدين بتزول المدافع (١) والنقطة زعل
زعل شديد جدا وقام دخل بيت الامانة بنفسه واحضر ملازميته واخذ كافة السلاح
الحديد والخبانة القديمة . . . »

•• •• •• ••

لم يبق للخليفة الا مسلكان لمقاومة العدو بعد رد فعله العنيف على اقتراح
الانسحاب غربا واخلاء ام درمان . ويدعو ان الخليفة ارهق نفسه بالتفكير في تلك
الايام . فقد ذكر ملازموه انهم لاحظوا انه اصبح كثير الاطراق بعد الصلاة وهو
ينظر بعيدا ساهما ، واقر اخيرا عقد مجلس للتشاور في الامر كماداته . والملاحظ
ان للخليفة نوعين من المجالس : مجلس شورى يضم الخلفاء وبعقوب وكبار امراء
التعايشة ووكلاء الرايات الرئيسية . ومجلسا آخر يضم القضاة والعلماء . اما في
الميدان فيندمج المجلسان في مجلس واحد ويبرز المجلس الثاني لحيز الوجود . وهو
مجلس مكون من قادة التشكيلات وغالبا مايكون القصد منه استشارة سريعة ثم
صرف الاوامر .

وقد انعقد مجلسه في الاسبوع الاول من مايو وكان هؤلاء بعضا ممن
حضره :

الخليفة على ود حلو

الخليفة محمد شريف

الامير يعقوب

عثمان شيخ الدين

عثمان دقنه

ابراهيم الخليل

احمد عبد الكريم (وكيل الراية الصفراء)

عبد الله ابو سوار (وكيل الراية الخضراء)

يعقوب ابو زينب

عثمان ازرق

محمد بشارة

(١) من السبلوقة

وقد بسط الخليفة امامهم آخر معلومات وصلته من طلائع الاستكشاف ،
وهي ان العدو قد امضى الشهور الماضية في التحشد في عطبرة للتحرك عند ارتفاع
النيل . وبدأ الحديث الخليفة محمد شريف قائلا : « قد اخبرني المهدي ان الترك
ان تجاوزوا وادى سيدنا جنوبا فهم منصورون علينا . والواجب اذن التحرك
والحاق بهم وان كان لابد من ترك جزء من الجيش في ام درمان فاقترح وضع
احد ارباع شيخ الدين القوية تحت قيادتي والتحرك بها شمالا لاحتلال السبلوقة » .

كان اقترح الخليفة شريف منطقيا ، ولكن طريقة تقديمه سببت امتعاضا
للخليفة . فقد رد مختدا « احنا كلما ننادىكم نسايلكم رأيكم تردوا علينا بالمغيبات
والكشف . الكلام دا خليه . الدين دين الله والله مخير فيه ينصره ولا يخليه . »

ولكن ابراهيم الخليل وعثمان دقنه تداركا الموقف بسرعة . فبدأ ابراهيم
الخليل الحديث مقدما آراء عملية وخطة كاملة لمواجهة الموقف . وتتلخص وجهة
نظره في التحرك شمالا والاشتباك مع العدو في السبلوقة على ان تبنى طوابي على
جانبي مجرى النيل الضيق تنقل اليها كل المدفعية (٥٠ مدفع) ويظل جزء من
الجيش يحميها ، ويردم مجرى النيل في الشلالات وهو ضيق نسبيا ، مع تشييد
الموانع من كتل الاحجار الكبيرة في الشلال صفوفها بعضها وراء بعض .
وقد علل ابراهيم رأيه بالآتي :

١ - ستكون تلك الخطة انقاء شر البوارج وقد رأى كل من قاتل هذا العدو
الجديد اثرها . فان ضيق المجرى سيجعل البوارج هدفا قريبا ، كما ان الموانع
ستمنعها من التحرك أو على الاقل سيستغرق قطعها زمنا طويلا ، وبطؤها أو
وقوفها سيجعلها هدفا سهلا دحك من استطاعة مشاة الخليفة خوض المياه
الضحلة والوصول اليها .

٢ - ضيق المجرى وطبيعة الجبال الوعرة العالية التي تطل مباشرة على النيل ستكون
اي قوة بالبنادق مهما كانت بسيطة ان تصبح ذات فاعلية من ذلك الموقع
لشل حركة البوارج . اما الجزء الاكبر من الجيش فيصبح واجبه مجابهة
كثثر الذي يصبح أمام امرين اما ان يحاول الالتفاف حول مرتفعات

السلوكة للتقدم نحو ام درمان ويحاول اقتحام مواقع المشاة ليتقدم نحو القوة الرئيسية وهنا تسهل مواجهته بالجيش الرئيسى وقد انفصلت عنه اهم مكوناته وهى البوارج ومدفعيتها ، واما أن يقف كتشتر فى مكانه متمسرا حول بوارجه المشلوله وليس اسهل هنا من مصادمته « الغريب ان ابراهيم الخليل لم يشاهد تلك المنطقة فى حياته وتمكنه من تقديم تلك الخطة التى اعتمدت على ادراك واستغلال رافع لطبيعة المنطقة يوضح انه كان ينقل آراء عثمان دقنه الذى اقام مدة من الزمن فى تلك المنطقة ، والملاحظ دائما ان آراء عثمان دقنه والخليل متوافقة ومكملة لبعضها بعضا مما يقوى الاحتمال بأنهما كانا ينسقانها قبل دخول المجالس » .

لقد كانت خطة الخليل خطة دفاعية صرفة وتدور حول محور جذب جيش كتشتر بعيدا عن البوارج . اذن فهو قد ترك المبادأة للعدو . ولعل هذا ما اضعف موقفه لحد بعيد . فالجميع اجتمعوا تظللهم فكرة واحدة . وهى ان النصر ظل دائما فى جانبهم منذ حروب المهدي الأولى طالما كانوا هم البادئين بالهجوم ، وان القشل الأخير فى مواجهة العدو الشمالى يعزى لانتظارهم له فى اماكنهم كما حدث فى فرقة والحفير واخيرا فى زربية محمود فى النخيلة .

وعندما تحدث عثمان دقنه ايد رأى ابراهيم الخليل . وتحدث كعادته حديثا طويلا عن تلك المنطقة وعن طبيعة حرب الانجليز . الا انه اختلف مع الخليل فى انه فضل الهجوم بدلا من اتباع سياسة دفاعية . فهو يرى بعد تحصين الموقع بالدفعية والموانع أن يهجم كل جيش الخليفة على كتشتر فى توقيت معين تحدده نتائج طلائع الاستكشاف . وقد اصبح الاتجاه العام فى المجلس هو الموافقة على مبدأ القتال فى السلوكة — فقد تولى الحديث ابراهيم الخليل ودقنه وعثمان ازرق : بدأ الخليل بحديثه الهادئ الرصين : ودقنه الذى غمر المجتمعين بالحديث بلا مداراة ولكنه الهدندوة . ولكن الجدل اخذ يطول والمواضيع تشعب والخليل وعثمان ازرق يوجهان دقة النقاش للنقطة الاصلية كلما انحرف عنها الحوار — وطال الاجتماع إلى أن تحدث أب جكه (١) مذكرا المجتمعين بنبؤة المهدي بأن جيشا

(١) أب جكه هو أحد ملازمى الخليفة وكان يسير بالقرب منه دائما كملازم شخصى . وقد اشتهر بولائه الأعمى للخليفة وبقوته البدنية الخارقة وواجبه هو مساعدة الخليفة فى الركوب والتزول من الخيل فكان يرفع الخليفة كالطفل الصغير ويضعه على ظهر جواده .

عظيما للكفار سياد على ربي كررى .

وهنا ضاق الخليل ذرعا والتفت لمن كان قريبا منه قائلا : « كان الرأى بقى عند اب جكه احسن احنا نسكت . » ولكن المجلس انفض وقد اتخذ القرار بخوض المعركة النهائية فى السبلوقة .

وبدأ الخليفة يعمل بنشاط وهمة فى تنفيذ قرار المجلس ، وامر يعقوب بالبدء فى جمع العيش اللازم لتموين الجيش . شرع يعقوب فى شراء وتجميع الذرة من امدرمان وارسل عدة مناديب لشراؤها من الجزيرة وللحصول على الجمال اللازمة لترحيل مؤونة الجيش .

وتجربة الخليفة فى موقعة عطبرة جعلته يميل للأخذ برأى عثمان دقنه . وهو التحرك والهجوم عند اقتراب العدو ووصوله السبلوقة وليس احتلالها قبله . فقد ادرك الضنك الذى سيقاسى منه جيشه الضخم فى تلك المنطقة الجرداء اذا تحرك وعسكر بها شهورا طويلة . وقد ادرك الخليفة ان مثل تلك المعركة سيحددها تحرك وتوقيت مضبوط مبنى على تحرك العدو . وذلك يستلزم توافر عنصر استطلاع وانذار ومخابرات قوية تتمكن من ارسال تقارير وانذار مبكر عن ذلك التحرك . فعين احد كبار قادته الامير يونس الدكيم لاقامة مركز لاستطلاع على طريق الدبة وفى اواخر مايو أنشأ الامير يونس مركزه المتقدم فى آبار جبره على الطريق الصحراوى بين الدبة والمنعة . ولعل هذا يوضح ضعف استخبارات الخليفة فى ذلك الحين . فقد كان يظن حتى فى ذلك الزمن المتأخر ان العدو سيقدم بمحورين كما فعلت بعثة الانقاذ ، هما : طريق النيل ، وطريق صحراوى يخترق صحراء بيوضه من الدبة للمنعة .

لقد كانت فكرة الدفاع فى السبلوقة فكرة عملية وهى فى الأصل فكرة قديمة تعود الى ايام تقدم محمود الى الشمال . والدفاع فى السبلوقة ، كما ذكر الخليل ، يشطر بضربة واحدة نصف نيران كتشتر ويبعد البوارج وهى الجزء الوحيد المتحرك بالآلات تمكنه من التدخل السريع ، كما كانت الضمان الأخير لخط رجعة

كتشتر - فالبوراج تمثل خط الحملة الرئيسى الذى يضمن لكشتر انفصالا من عدوه . لو قرر الانسحاب والعودة شمالا . وطبيعة المنطقة الجبلية الوعرة التى تحيط بالشلالات تخدم غرضين لقوات الخليفة فهى تقلل لحد بعيد من نيران كتشتر كدافع ، وتقوى موقف المهاجم امام تلك النيران وتمكن من يحتلها من السيطرة بمجهود بسيط على المنطقة . كما تمكنه من سد النهر - شريان مواصلات كتشتر الى الابد ، وتجعل السردار فى موقف عصبى ، فتقدمه يكون مشلولا وهجومه فى منطقة النيل بين سلاسل الجبال لن يمكن قوته من خوض المعركة كقطعة واحدة واتخاذ التشكيل المناسب لها . وكل ذلك من شأنه أن يسهل التعامل معها وهى فاقدة لقوة صدمتها ونيرانها .

كما ان الاحتفاظ بجزء كبير من الجيش فى تلك الجبال يجعل السردار يدفع ثمنا غاليا سواء قرر الدفاع أو الهجوم أو الالتفاف حول الجبال متقدما نحو ام درمان ، فخلافا لحرمانه من مواصلاته النهرية ، فلن يمكنه أيضاً التقدم جنوبا وترك قوة كبيرة للعدو خلفه لتهدد خطوطه الخلفية .

صحيح ان جيوش المهدي لم تسجل فى تاريخها نجاحا وهى مدافعة . عدا إنتصار الزاكي فى القلابات ، ولكن كان ذاك عدوا مختلفا فى نوعه وتسليحه عن هذا العدو الجديد . فقلة النيران وضعف المدفعية جعلت جيوش المهدي من الناحية الدفاعية فى غاية الضعف تكتيكيا . واعتمادها على السلاح الابيض وعلى التفوق العددي والحماس وخفة الحركة جعلتها دائما قوة هجومية مثالية فى مثل تلك المنطقة اذا تم تجميد نيران العدو . ولكن الخليفة لم يجهد احتلال السبلوقة مباشرة فى ذلك الوقت المبكر بكل جيشه بل قرر إحتلالها بجزء بسيط منه . على ان يكون الجزء الاكبر من جيشه مهيا للانقضاض على العدو سواء قرر هذا العدو ان يتقدم بمحاذاة النيل الضيق أو يتقدم ملتفا الى جهة الغرب مبتعدا عن شريانه الرئيسى النيل .

وقد ادرك الخليفة ومستشاروه ان من يحتل السبلوقة اولا يستطيع التحكم فى النهر وعليه قرر اتخاذ عدة خطوات بالترتيب الرمنى الآتى :

أولا احتلال شلالات السبلوقة بجزء صغير من جيشه لحرمان العدو من

استغلالها بالنسبة لمواصلاته ، ولاستغلال مميزات السبلوقة الطبيعية الى اقصى حد ،
اما ادني حد فهو بالطبع تحييد اثر الاسطول .

ثانيا : نقل كل مدفعيته للسبلوقة لتكون تحت حراسة المشاة الذين سبقوها
وفي معاونتهم ايضا .

ثالثا : الجزء الاكبر من جيشه والذي كان لايزال في فترة التجمع يكون
مهيأ للانقضاض على العدو بعد انذار مبكر ، سواء قرر هذا العدو ان يتقدم عبر
المضيق أو يتقدم ملتقا التفافه واسعة الى جهة الغرب مبتعدا عن النهر . ولتنفيذ هذا
الطور الأخير من مناورته الضخمة كان الخليفة يعتمد اولا واخيرا على تقارير
دقيقة من عناصر المخابرات .

١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤

يبدف نهر النيل لآلاف الأميال شمالا في انطلاقة المسترخية لايقف امامه
عائق الى ان يصطدم فجأة بسلسلة جبال تقف حائلا منيعا في طريقه ، سلسلة جبال
السبلوقة . وهي صخور بركانية ترتفع احيانا لأكثر من اربعمائة قدم تضغط على
الجانب الغربي للنيل لامتداد اكثر من سبعة أميال شمالا ، ولاكثر من تسعة اميال
غربا . فيحاول ان ينعطف شرقا لتفاديها ليصطدم بصخور سلسلة جبال العقبة التي
تمتد لأكثر من عشرة اميال بلجهة الشمال وثلاثة اميال بلجهة الشرق . فيللم النهر
المنطلق نفسه راضيا بالامر الواقع ويجراه الضيق ويندفع للأمام ، ليجد المجرى
نفسه مسدودا بمجموعة من الجزر اكبرها جزيرة مسكيت .

تحف تلك الجبال بمجرى النيل ويتراوح بعدها عنه بين خمس ياردات
ومائتين وخمسين ياردة . ومن النظرة الأولى لتلك البيئة الطبيعية الضخمة يكشف
المرء أى مانع دفاعي يمكن استغلاله اذا اعتبر النيل منطقة « حيوية » للدفاع .

وقد استدعى الأمير يعقوب يوسف منصور المسئول عن إستحكامات المدفعية
الذى اشتهر بالكفاءة الهندسية « (١) » وأوضح له ضرورة تشييد الدفاعات على

(١) ذكر لي الشيخ ابراهيم الحجاز أحد كبار السن في المنطقة وكان لا يزال صبيا عندما وصل يوسف
منصور وهو « رجل احمر الوجه كث اللحية » وكانوا هم يخدمونه . ذكر ان يوسف بدأ في صنع
جزير ضخم ليربط بين الشاطئين ضمن خطة وضع الموانع في مجرى النيل .

السلوكة لتسكين نيران المدفعية والبنادق من التصدى لليوارج .

وبدأ يوسف منصور في الاستعداد للتحرك فخصص له يعقوب مائتين من الملازمين لاتمام عملية البناء . وقدم يوسف ليعقوب (١) رسما توضيحيا للطواحي . على أن يكون نصف قطر كل طابية أربعين ياردة ، وسمك الحائط عشرا ، وبكل طابية ثلاث فتحات لاطلاق المدافع ، لتتمكن من استيعاب ثلاثة مدافع وفصيلة من حملة البنادق . وافق يعقوب على التصميم وبعدها تحرك يوسف في الخامس عشر من ابريل لاتمام عملية البناء . وبينما كان يوسف منصور يجمع معداته اللازمة ويقلب التصميمات المناسبة لدفاعات السلوكة ، تحركت قوة من المشاة (٢) لاحتلال موقع السلوكة على ان يلحق بها قائد المنطقة الشمالية التي وضعت تحت قيادته .

* * *

وبعد ان أفاق الخليفة من صدمة هزيمة عطبرة تنبه الى ضرورة السيطرة على الأرض الحرام التي فصلت بينه وبين عدوه . واستنادا الى اعتقاده الخاطي بتقدم جيش آخر عن طريق الصحراء بعث بالأمير بونس الدكيم كما رأينا في أواخر مايو لينشئ نقطة قوية في آبار جبره على الطريق الصحراوي لمدة بأخبار العدو ولمراقبة اهالي صحراء بيوضه :

اما عن محور التقدم الرئيسي للعدو بمحاذاة النيل فقد عين له الامير عبد الباقي عبد الوكيل قائدا لكل المنطقة من امدرمان شمالا . ووضع تحت تصرفه ثلاثمائة فارس مسلحوا بالبنادق . وكان واجبه الرئيسي هو ارسال تقارير يومية عن العدو ، وتسلم اوامر صريحة بعدم الاشتباك مع العدو وبالاتسحاب جنوبا كلما تقدم . وقد قسم الامير عبد الباقي قوته الى ثلاثة اقسام .

١ - القسم الاكبر احتفظ به في رئاسته لمواجهة كافة الاحتمالات .

٢ - القسم الثاني يتكون من مائة فارس للعمل في المقدمة للاتصال مع العدو

(٢) عثر على رسومات يوسف ضمن أوراق الأمير يعقوب . ولم يتمكن من العثور عليها ضمن أوراقه المحفوظة بدار الوثائق والوصف المذكور اعلاه أخذته من بقايا الطواحي التي لازالت آثارها باقية حتى الآن في السلوكة .

(٢) لم يمكن العثور على حجم هذه القوى بالضبط ولكن إشارة الأمير عبد الباقي اليها بقوله « وقد جمعنا امراء الارباع والرايات » توضح انها لا تقل عن القى جندى .

وجمع الاخبار عنه أو لارسال الاطواف المحاربة للاغارة أو للحصول على الاسرى لاستجوابهم .

٣ - اما القسم الثالث فقد كان عنصر مواصلات للخلف لاغير . وتكون من حوالى عشرين فارسا فى محطات يريد تستبدل فيها الجياد المنهكة بأخرى نشطة لايصال المعلومات للخليفة وليعقوب فى امدرمان .

وقد استطاع الامير عبد الباقي تنظيم قواته لتؤدى واجبها بكفاءة وسرعة . ففرسانه المتقدمون يبحثون له المعلومات الشفهية من الامام ليمحصها ، أو يرسلون له الاسرى ، وعلى ضوء استجوابهم يحرر تقريره اليومى ويرسله لامدرمان مشفوعا فى بعض الاحيان ببعض الاسرى اذا استصوب استجواب الخليفة أو يعقوب لهم .

ولم ينس الامير عبد الباقي وهو فى طريقه لرئاسته « بوادى بشاره » ان يتوقف وقفة قصيرة لياشر واجبه الثانوى كقائد لكل قوات المنطقة الشمالية . فبدأ فى تفقد قوات السبلوقة ، ولم ير غبارا فى نشاط يوسف منصور وذأبه السريع فى عملية البناء . الا ان ما أثار ضيقه هو قوة المشاة . وقد مكث هؤلاء مدة طويلة فى منطقة السبلوقة القاحلة وذاقوا الامرين فى تصيد الطعام فتركوا قوة رمزية هناك للمراقبة ومساعدة يوسف منصور ورحلوا الى نفسه حيث توافرت سبل العيش . وقد هال عبد الباقي عدم الانضباط ومخالفة الاوامر الصريحة . فجمع امراء الارباع ووجههم وامرهم بالعودة فورا لاحتلال السبلوقة حسب الاوامر - ولكن هؤلاء ردوا عليه بتقديم عريضة للخليفة رأسا فى امدرمان فأرسل عبد الباقي العريضة بتاريخ ٩ محرم ١٣١٦ (٣٠ مايو ٩٨) مع خطاب يوضح فيه سير الامور . ويطلب من الخليفة ارسال توجيه شخصى لامراء الرايات للامثال لاوامره وقد ورد فى خطابه :

« أبدى الى المقام الكريم وتعلم سيدى ان هذه البوغاز معلوم فانه محصن بالرجال الكفاية وبه ارباع معتمدة من القبائل ومستعدة بخيولها ورجالها وانهم قائمين فيه بحسبما اقتضت اليه المصلحة وحيث عند قيامنا من البقعة ووصلنا بمركز الجيش والتفقد الى الاحوال فوجدنا الرايات خالية من الانتصار ولم يفضل منهم الا اليسير من القدر ولذلك قد جمعنا امراء الارباع والرايات وتذاكرنا معهم وتكلمنا فى الاسباب الذى اوجب لغياب الانتصار وعدم اقامتهم فى البغاز فلم

نرى منهم اجابة سديدة واخيرا قد اتضح لنا منهم ان نيتهم صارت مصروفة من هنا وتعلقت بالدخول الى جهة نفيسه هم ومامعهم من الانصار الباقين تحت راياتهم فلم نوافقهم الى ذلك الى ان صدرت لنا الاشارة الكريمة من سيد الجميع فاحضرناهم وافهمناهم بما صدرت به الاشارة ولما تراءى لنا من عدم موافقتهم الى مارغبوه من الدخول الى جهة نفيسه بدون اشارة كريمة فيوم تاريخه اجتمعوا واحضروا لنا هذه المكاتبه طيه الواصلة الى سيد الجميع . وحيث قد علم لنا من المكاتبه المذكوره ما هم منطوين عليه وكون لايمكن السكوت على هذه الحاله مع خلو الرايات من الانصار وقد طلب منهم كشوفه بمقدار الانصار الموجوده والخيول وارسل لسيدى يعقوب للاطلاع عليه . تعلم سيدى بما اوضحناه نؤمل مع الموافقة تحرير مذكره الى الامراء الاصحاب بزيادة الهمة فى الدين وجمع ناسهم والاستعداد فى المحل الذى توافق عليه الاشارة الكريمة . »

وقرر عبد الباقي الانتظار بالسبوقه مدة من الزمن الى أن يصل رد الخليفة بحسم الموضوع قبل أن يتحرك لوادى بشاره . وبدأ فى ارسال اطواف الاستكشاف للشمال من السبوقه . وعندما عادت طلائع الاستكشاف ارسل المعلومات التى تحصلت عليها للخليفة بتقريره المؤرخ ١٦ من محرم ١٣١٦ (٦ يونيو ١٨٩٨)

« أما عن حركات اعداء الله فى هذه الايام لم نرى لهم حركة وانهم من جهة الغرب خالين ما عندهم فيها نقطة لغاية المتمة لامن كفره ولا من الاهالى كما اتضح لنا ذلك عند كشف الاخبار الا انه حركتهم من جهة المغاوير ولغاية قبالة بربر واما الشرق فعملوا لهم نقطة بجهة شندى وشارعين فى بناها واما كامل جيشهم المخدول واستعداده الآن هو بالداخله وقد بلغنا ان المكرم محمود احمد احضروه بالداخله المذكوره واما ان سألتم سيدى من احوال الشرق فان اهاليه متصلين مع أعداء الله وبما ذكرناه فاننا نوجه فكرنا الى حركتهم وربما هذه السكته تكون مكيدة ومنى تلاحظ لنا شئ منهم اول باول نرفعه الى سيد الجميع »

ولكنه عاد وخشى مغبة انتظاره كل ذلك الزمن فى السبوقه متجاهلا واجبه الرئيسى . فتحرك لرئاسته فى وادى بشاره ليشراف بنفسه على عمليات الاستكشاف وقد قرر أن يصبح اكثر عداء واجباية فى عملياته . فقد كتب للخليفة فى تقريره

المؤرخ ٢١ محرم ١٣١٦ (٦ يونيو ١٩٨٠)

« ثم ارفع الى السامع الكريمة على حسبما هو مشاع ان
اعداء الله قد تجمعوا وحضروا بجهة الحوش وشندى وكونه من
الضرورى الوقوف على حقيقة هذا الخير فلدى وصولنا ندبنا المكرم حماد رقيعات
وعينا معه مائة حصان من الخيل الموجوده وعليها من الاصحاب الصادقين وتقدم
عليها واحد من الاخوان اهل الهمة ، خيل كنانه عليها عمر ولد مصون ،
وخيل دغيم عليها على ولد ابو شمه وخيل الحمر التليب العريض وخيل بنى هلبه
محمد حامد وخيل ابو الحليل عليها احمد محمد والجميع ذكرناهم بالخزم والامثال
للمكرم حماد رقيعات وصار قطوعهم بالشرق بعد أن زودناهم مع الاصحاب
بالبانحة والدعوة الصالحة وتوجهوا منا على بركة الله بيوم الثلاثاء وبيوم الاربعاء
نص النهار شنوا الغاره على الحوش فلم يجدوا فيه شئ ومنه شنوا الغاره على شندى
فلم يجدوا فيها سوى نقطة اهل الوابور وهجمت الخيل على النقطة الى ان ضربوا
فيهم بالسلاح ووجدوا احد اولاد عم المخدول عبد الله ولد سعد ومعه نفر آخر من
الجعيلين مساعدين لاهل الوابور فى بناء الطواحي فصادف الخيل عند هجومها على
حلة شندى ونقطة المخدولين فقتلتهما واعداء الله انجازوا على الوابور ودخلوا فيه
وتوسطوا بلجة البحر وجالت الاصحاب بخيلها فى حلة شندى ميمنة وميسرة فلم
تجد شئ فعند ذاك نزلوا بالحلة المذكورة واخذوا راحتهم لغاية العصر قاموا منها
وعند رجوعهم ووصولهم بالحوش وجدوا واحد شخص يسمى على ولد سريره
خرج من البقعة وقاصد جهة الاعداء فقبضوا عليه وحضرت الاصحاب يوم تاريخه
لم يصعبهم شئ بل ادخلوا الرعية فى اعداء الله وكشفوا حقيقة الجهة واحضروا
راس ابن عم المخدول عبد الله ولد سعد ورفيقه الذى وجدوهم بنقطة شندى
والرباطاني الذى كان متوجه بلجة الاعداء ولدى وصوله طرفنا وكونه من المرتدين
اهل الفساد صار قطع راسه وتطهير الارض منه وحيث قد اتضح سببى ان اعداء
الله ليس لهم حركة بالبر الشرقى لغاية شندى ماعدا نقطة الوابور وكذلك بالقرب
لغاية الميمة عدا ان حركة وابور انهم تدل على مكرهم وخداعهم وان كل يوم مره
بالجزاير لغاية ام جركى وسلامته وحجر العسل لحرق القشوش وتنظيف بطن
الجزاير من البيوت والمسموع انهم يرحلوا جيوشهم بداخل الجزاير المذكورة

بحاله خفية لانتهازهم فرصة البغاز والوصول اليه كون بالهم صار مصروف نحوه
وفى يومين تاريخه حضر واحد جهادى من ضمن الجهادية المأسورين التابعين ربيع
المكرم محمد الزاكي عرف بأنه كان وجهه مع المكرم محمود احمد لغايتما وصلوا
جهة اسنا ومن هناك رجع مع المخدولين وترك المكرم محمد احمد فى محله .

ولكن ركود العدو لم يستمر طويلا . فسرعان مادب النشاط فى اوصاله ،
وبدأت طلائعه فى الظهور . فقد ابلغت مصادر مخبرات عبد الباقي ان السردار نفسه
تقدم من بربر على رأس اربع بواخر للاستكشاف ولقياس صلاحية النيل لاجار اسطوله
وهنا سطر عبد الباقي تقريره المؤرخ اول صفر ١٣١٦ (٢١ يونيو ١٩٩٨) : وقد ورد فيه الآتي :

« ثم اعلم سيدى ان اعداء الله لازال احوالهم حسبما هو سابق رفعه
انهم بجهات الداخلة ولكن مجتهدين فى عمليات استعدادهم وشارعين فى
الترحيلات شئ فى شئ بجهة شندى وان هذه السكته منهم ماهى الا مكاييد وحيل
قاتلهم الله ويومين تاريخه حضر واحد شايقى من ربيع المكرم الشهيد العطا اصول
كان اسر بواقعة الطويل فى الخوش ولغاية ماوصل دنقلا واخيرا حضر بربر ومنها
الى هنا فالمذكور عرف ان عدو الله عثر (١) حضر بجهة شندى ومعه اربعة
بابورات رست فيها وشارعين فى نظافتها وفى المنمة وانهم عينوا الف وخمسمائة
جمل من الالهائى بقصد ان تهجم على جهات ام ضبان وحواليها وتأخذ ماها من
الاموال - وكذلك حضر واحد من الجعليين باولاده وعرف كقالة الشايقى ،
وسيرسل المذكورين خلف هذه البوستة اما وابورهم المستعد طليعه لكشف اخبار
البحر شرق وغرب وقياس فلازال متواتره حضوره لغايه مشرع وادى بشارة
ونحن لازلنا واقفين فى كشف احوالهم . »

وفى الأسبوع الاول من صفر وصل خطاب الخليفة مستجيبا للعريضة المطالبة
التي تقدم بها امراء حامية السيلوقه حيث وافق على سحب الجزء الاعظم من قوة
المشاه لنفسه وابقاء القوة التي تكفى فقط لاتمام عملية البناء . واضطر عبد الباقي
للعودة جنوبا من رئاسته للسيلوقه لتنظيم نقل القوة لنفسه . وكله إستياء : لعدم
استجابة الخليفة لمطلبه أوضحه فى تقريره الجاف بتاريخ ٧ من صفر ١٣١٦ « ثم

(١) يقصد بعثر السردار كثر .

اعلم سيدى على حسب الامر الكريم الصادر الى عبدكم الحقيق بترحيل الجيش الذى ييغاز السبلوكه لجهة نفيسة بناء على ما عرض منا شرحا تقدم لنا من الاصحاب بالنظر لما رأوه من المصلحة فى الدين فى هذه الجهة من نحو اتساع الاعمال والمساعدة لهم فى جمع الانصار والتحزب تحت الرايات واعمال المراسد اللازمة والطوايى المستعدة لاغاظة اعداء الله قد صار قيام الجيش بغاية الحزم وتم وصولنا بجهة نفيسة وتركنا ستين حصان تحت قيادة المكرم المد الغالى بجهة السبلوكه لكشف الاخبار ورفعها لنا اول بأول وعملنا تلك النقطة بعد ان تشاورنا مع الاخوان واتفقوا على تعيينها من الخيل وبعد ان وصلنا نفيسة صار نزولنا فوق الحله .

اما عملية البناء فقد استمرت بهمة حسب تقرير عبد الباقي المحرر بتاريخ ٨ من صفر ١٣١٦ (٢٨ يونيو ١٩٠٨) :

« والطوايى جارى عملها تحت فى البحر وصار الشروع فيها وهى فى المرصد الممكن لوابورات الكفرة وفى المضيق وقد جرى الاستعداد والتحزب والتشمير التام فى المرصد المذكور والمنشور المحرر من سيد الجميع تلوناه للصحاب فاجابوا بالسمع والطاعة ونحن موجهين الانظار لاعداء الله وعملنا المراسد اللازمة . »
وقد بعث يعقوب قائد المدفعية الامير سيد جمعه تصحبه بطاريئان لتنظيم وضع المدافع من جهة وللتفتيش على الطوايى من جهة أخرى واعطاء تقرير عنها .
وفجأة ، بعد ان انتهى التشييد والانجاز الضخم ، وبعد ان فتشها سيد جمعه وعاد لاحضار بقية مدافعه فى الاسبوع الاول من يونيو امر الخليفة باخلاء موقع السبلوكه واعادة المقدمة التى احتلتها . وقد تفاوتت الاقوال فى الاسباب التى دفعت الخليفة لاتخاذ ذلك القرار :

فقد شهدت امدرمان نشاطا متزايدا من مخابرات ونجحت وعملاته مع اقتراب كشنر . وكما ذكر بابكر يدرى لم يخلو مجلس تلك الايام من قصص شخص ضبطت معه اوراق أو خصص له مرتب من قبل ونجحت .
وعلم ونجحت بنية الخليفة بتقل مدفعيته إلى السبلوكه والدفاع عنها فأوعز الى عملائه ان يعرفوا تنفيذ هذه الفكرة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وعندما عقد

الخليفة مجلس القضاة للاستشارة الأخيرة في الأمر كان عدد لا يستهان به من القضاة انفسهم من « اصحاب المرتبات » . وكانوا قبلا يعلمون بنية الخليفة وحاولوا حتى قبل استشارتهم الرسمية بواسطة الخليفة تسفيه هذا الرأي في احاديثهم الخاصة مع امراء الجيش . بدأ الخليفة مجلسه بعد ان تفرس فيهم جيدا وذكر انه تحت يده في الوقت الحالي ٣٥ مدفع جبلى و ١٠ مدافع متراليوز و ٥ كروب وقد قرر وضعها في السبلوكة فما رأيهم . واول من تحدث كان الشيخ (٢) النذير خالد واندفع قائلا : « كانت تلك المدافع في يد الترك واخذناها بالسيف والرمح . وقد قال المهدي « سنقتل هذه الجردة » ونعود نصلى الجمعة بالجامع » فقال الخليفة « من منكم سمع هذا الحديث من المهدي » فسكتوا جميعا فأدرك عدم موافقتنا وصرف المجلس .

وكان تأثير الخليفة بآراء مجلس شوراه من القضاة واضحا للدرجة التي جعلته يرسل من يسألون سرا في امدرمان ليتحقق ممن سمع هذه النبوة نبوة اباداة الاعداء في كررى ، من فم المهدي . والواضح ان رساله اجروا استطلاعا واسعا كما ذكر الشيخ بابكر بدرى « جدت فكرة في تلك الايام وهي ان المهدي قال ان الترك يقتلوا في كررى وصار الخليفة يسأل باحثا عن سمعها من المهدي ليستأنس وقد جاءنا من سألنا عنها فاجبناه سلبا » .

وهذا يوضح ان الخليفة يبحث كالعادة لتبرير قرار رأى من قبل اتخاذه . فان الاسباب الرئيسية التي جعلت الخليفة يتخلى عن السبلوكة تركز في الآتي :

١ - الصعوبات الادارية التي تكتنف ترحيل واعاشة مثل هذا الجيش الضخم وقد رأى قبلا المشاق التي واجهها محمود . وازدادت تلك الفكرة انطبعا في ذهنه بعد وصول عريضة حامية السبلوكة التي قاست على قلنتها من شظف العيش هناك ، وهي تلك القوة البسيطة ، فكيف حال جيشه الضخم ، واين امكانيات جر المدافع وحمل المؤن والذخائر .

(٢) روى هذه القصة الشيخ النذير خالد للمؤرخ محمد عبد الرحيم - مجلة المهديّة الرابع - الأستاذ محمد عبد الرحيم ص ٧٣ .

٢ - كرهه لمغادرة عاصمته شمالا . فمن الثابت ان اقصى مكان وصله الخليفة شمالا فى حياته هو هجرة ود البصير ثم زار كررى ثلاث مرات لاستقبال قاداته . ومن ثم اذا تحرك شمالا فهو سيقاقل فى أرض لايعرف طبيعتها ولم يرها فى حياته . وهذا شعور طبيعى وغريزى عند القادة . فمن منا لايفضل القتال فى أرض شاهدها وخبرها ؟ .

ولو اضطر الخليفة للتحرك شمالا فسيوكل امر القيادة العامة لاحد قاداته . ولو اعتبرنا رغبته فى ان يقود هذه المعركة بنفسه ، فمنطقة امدرمان هى انسب منطقة شمالا لمواجهة الجيش الفاتح .

هذا ويجدر ان نتذكر أن الخليفة لابد أن تكون قد اثرت فيه نتيجة معركة عطره التى أخذت مكانها شمالا بالاضافة الى مالايسها من ظروف واحداث اليمه . وقد تأكد له من قبل ان كل سكان المناطق الشمالية اعداء لايركن إليهم - ان لم يكونوا اعداء ظاهرين مثل عبد الله ود سعد، فهم اعداء مستترون لايطمنن على اسرار جيشه منهم . لذلك قرر أن يركز جهده فى معركة فى منطقة امدرمان، وعلى هذا الاساس شرع فى تجهيز دفاعاته . ويمكننا أن نلمح اصابع يعقوب فى هذا القرار ، فقد انتصر رأيه اخيرا .

° ° ° ° ° ° ° °

صدر امر الخليفة ببناء الطوابى والتحصينات وتشيد مواقع منيعة للمدفعية فى امدرمان وكانت وجهة نظره تتلخص فى توجيه الجزء الاكبر من نيران المدفعية لاسكات واغراق البوارج النيلية وخصص احد الأرباع من الملازمين المكون من اثنا الف مسلحين بالبنادق لحماية بطاريات المدفعية على النيل وتكثيف نيرانها . وقد كانت فكرته الاولى وضعها كلها فى الضفة الغربية لسهولة حمايتها بواسطة الجيش وخوفا من اضاعتها وانعزالها لو وضع جزء منها فى الضفة الشرقية بعيدا عن القوة الرئيسية، ولكنه بعد ان استمع لوجهة النظر السليمة التى قدمها المدفعية المصريون - فهم خير من يعلم المدى المؤثر لمدافعهم والذى لايتجاوز سبعمائة ياردة رأى أنه ينبغى الحرص على هذا المدى بوضعها على الضفتين حتى لاتمكن بوارج

العدو من الانحياز للشاطئ الشرقى وتصبح خارج مدى مدفعية الضفة الغربية ، وقد أيد ابراهيم الخليل وجهة نظرهم هذه ووافق عليها الخليفة .

وعليه اصدر اوامره ببناء الطوابي وتوزيع المدفعية فى الضفة الشرقية والغربية وجزيرة توتي والمقرن على ان تخصص ثلث المدفعية لأرض المعركة لتغطية تحركات ومناورة جيشه اذا كان مهاجما ، أو القصف البعيد لقوات العدو المتقدمة اذا كان مدافعا .

وعلى ذلك فقد وزع مدفعيته على هذا الأساس :

الموقع	قائد الموقع	قائد المدفعية	التسليح	المشاة	طواقم المدفعية
طابية بيت الامة	محمد عبد الله « تعايشى »	سالم على « مصرى »	٢ مدفع جبل	٨٠ مسلحون بالبنادق	٥ مدفعية
طابية السجن	ادريس السائر	محمد عبد الملك « مصرى »	١ مدفع كروب ١ مدفع اوردى ١ مدفع متر اليوز		٨ مدفعية
طابية بوابة عيد القيوم	عبد القيوم	عبد الجواد « مصرى »	١ مدفع جبل ١ مدفع كروب		٥ مدفعية
طابية الباب الكبير	الطريفى ربيع « تعايشى »	سيد احمد ريش « مصرى »	٢ مدفع جبل		٥ مدفعية
طابية سوق الصمغ	الطريفى ربيع « تعايشى »	سيد احمد ريش « مصرى »	١ مدفع كروب ١ مدفع حبشى		٦ مدفعية
طابية المواليد	الشريف حميدان « تعايشى »	أبو سعيد جابر « مصرى »	٢ مدفع جبل		٥ مدفعية
طابية الشقىر	حاج على الدغيمى « دغيم »	ابراهيم الفخراوى « مصرى »			٥ مدفعية
طابية غور شمبات	البدار رجب « دغيم »	السيد سلامة « مصرى »			٥ مدفعية
طابية السرايا	الرشيد كرومه « هبانى »	ابراهيم التحشوانجى	١ مدفع جبل		٢ مدفعية
طابية المقرن			١ مدفع شركيا		٢ مدفعية
طابية توتى الشمالية	على عبد الجابر	جمعه على العمرانى	١ مدفع جبل		٢ مدفعية
طابية توتى الجنوبية			١ مدفع جبل		
طابية شمبات	محمد فايت جوده « تعايشى »	محمد فرج « مصرى »	١ مدفع جبل		٣ مدفعية
طابية الصبابى	عيسى زكريا « تعايشى » قائد لكل الضفة الشرقية	محمد فرج « مصرى »	١ مدفع جبل		٢ مدفعية

اضاع الخليفة فرصته الأخيرة عندما أخلى موقع السبلوقة انقواء شر بوارج
كتشتر ، ولكنه لم ينس امرها بتاتا . وعندما تقدم احد المساجين ويدعى الحاج
منور المغربي للخليفة وذكر انه يستطيع تدمير البوارج وهى على الشاطئ بواسطة
الغام مائية تنفجر بمجرد ملامسة البوارج لها ، امر الخليفة يعقوب بتسهيل مهمته
وتنفيذ كل طلباته على أن يظل سجيناً مقيداً بالقيود الحديدية .

واحضر الامير يعقوب السجين واجرى امامه تجربة فى وعاء صغير ملي
بالبارود وادخل فيه « فيوز » ودل حجم الانفجار على نجاح التجربة . وبدأ الحاج
منور فى تصميم (١) اللغم الاسلى وتحصل على مرجل ضخمة لاحدى البوارج
المعطلة وملاؤه بأنابيب ملئت بالبارود الاسود ، والزئبق ، والكبريت ، والحديد ،
بحيث بلغ الوزن النهائي للغم مائتى قنطار من المتفجرات . ثم وضع فوق صندل
اخذته البارجة الاسماعيلية وجرتة شمالا الى شمبات لوضعه فى النيل . كانت
الفكرة هى اغراق الصنادل التى تحوى على الالغام على ان تبرز « الفيوزات » خارج
سطح الماء وترتبط بالاسلاك على الشاطئ وتنفجر الالغام بمجرد اصطدام السلك
ببوارج العدو . ولكن التيار السريع ادى الى دفع الصندل الى ان حاذى الباخرة
والتفت الاسلاك حول بدالات البارجة فشدتها مما فجر « الفيوز » وادى الى انفجار
البارجة ببوارحى البادغين قبل أن تصل الى هدفها .

كان الانفجار قويا وعنيفا للدرجة التى ادت الى الاطاحة بأكثر من نصف
الباخرة الاسماعيلية التى جرته وأدى الى مقتل جميع من فيها وكانوا حوالى عشرين
شخصا بما فيهم المخترع المغربي الذى عثر على أجزاء من جسده وكانت السلاسل
ما زالت عالقة بها . لم يهتم الخليفة كثيرا بالكارثة طالما ثبتت فعالية اللغم فأمر
بالاسراع فى صنع الغام أخرى .

* * * *

كيف سارت الامور فى عاصمة الخليفة فى الاسابيع الأخيرة التى سبقت

(١) رواية تشرشل وتقرير المخابرات تختلف قليلا ، فهو يصف تصميم اللغم بأنه كان عبارة عن وعاء
من البارود وفى داخله سدس مربوط بسلك لينجذب السلك فينتقل السدس وينفجر اللغم . ولكن
الرواية المذكورة اعلاه هى رواية الاسطى عبد الله أحد الذين اشتركوا فى تصميمه ، واستجوب
وأقواله مشتهة فى سجلات مصلحة الواپورات تحت ملف الباخرة الاسماعيلية .

المعركة ؟ ؟ أما أثناء النهار فقد مضت الحياة عادية فى أسواق ومطاعم المدينة المتضخمة بالسكان بعد انضمام التعزيزات من خارجها ، وكالعادة كان كل سكان امدرمان يجتمعون لاداء الصلوات الخمس فى الجامع الكبير والخليفة يؤمهم كعادته ، ولم يتخلف الا مرتين أو ثلاثة ، الا انه لم يخطب الا قليلا عكس عادته السابقة ، فكان يسرع بعد الصلاة مباشرة لمتزله لحضور المجالس العسكرية التى لم يتوقف لإنقطاعها تقريبا .

وفى الأيام القليلة التى سبقت المعركة بدأت نذر المعركة القادمة فى الظهور فقد توقفت الحياة تقريبا فى امدرمان فترة الصباح ، فكل السكان كانوا يجتمعون فى مكان العرضه تحت راياتهم المختلفة وتجرى كل رايه احصاء لمقاتليها وينصرفون الى منازلهم بعد الظهر .

أما الملازمين فقد ادخلوا معسكر تدريب ضخم يبدأ العمل فيه منذ شروق الشمس ويستمر حتى مغيبها ولم ينضموا لبقية السرايا فى العرضة . وقد استمر تدريبهم الذى أشرف عليه أسكندر بك وكانت أصداء النداءات العسكرية لطواير البيادة تسمع طوال اليوم .

ويبدو أن فكرة الخليفة واسكندر كانت ان يبدأوا بطواير البيادة ثم يعطى التدريب الى ان يتختم ختامه الطبيعى بمناوره يتدربون فيها على تحركات وتكتيكات المجاميع .

كان هذا ظاهر الأمر فى المدينة أما باطنه فقد اختلف قليلا ، خصوصا فى الفترات التى تلت انصراف السكان من مكان العرضه الى منازلهم ، فقد أصبحت المدينة أرضا خصبة للشائعات التى تنتشر بسرعة البرق والجميع فى لفة لسماعها ونشرها ، وأشار الشيخ بابكر بدرى الى تلك الفترة ساخرا عندما روى انه كان يستضيف بعض اصدقائه فى المنزل وغاب عنهم لمدة أقل من دقيقة ليستدعى خادمه ولما عاد سأله بلهفة « هل من خبر جديد » وأراد هو مداعبتهم فاخترق خبرا عن تقدم العدو ، وبعد يومين سمع هو نفسه الخبر من أفواه الآخرين .

العدو

« مما ذكرناه فان السلوكة وملزم العقبات الشرقية والغربية هو الرباط
ومرصد ممكن من أعداء الله وغاذهم انشاء الله فان كان ترى الى النظر
الشريف مسك قم بغازهم والاستعداد لهم شرق وغرب بالجيش الكفاية
فذلك من باب المكيدة لهم . »

تقرير الأمير عبد الباقي للخليفة

أمضى السردار اغلب شهور انخفاض النيل فى عطبرة فى الاحتشاد انتظارا
لبقية التعزيزات التى وعدته بها القيادة البريطانية ، استعدادا للمرحلة الأخيرة من
الحملة التى استغرقت خمسة وعشرون شهرا حتى الآن . واقتصر نشاطه على ارسال
البوارج جنوبا الى أقصى مدى يسمح به ارتفاع النيل للملاحة ، الى جزيرة نسرى ،
محفقة هدفين ، الاستكشاف ، وجمع أكداس الحطب التى كدستها على الضفاف
اربعة كتائب سودانية ارسلت لقطع الاشجار وانتشرت على طول شاطئ النيل
من عطبره حتى المئمة .

كانت أغلب تقارير قباطنة البوارج تفيد بعدم رؤية أى عدو . الى يوم ٣٠
ابريل . حيث تمكنوا من مشاهدة فرسان استكشاف عبد الباقي . فارسل قبطان
الباحرة « الظافر » التقرير التالى :

« سعت ٠٩٠٠ ابجرت جنوبا وفى سعت ١٢٣٠ عندما اقتربت من جزيرة
نسرى تمكنت لأول مرة من رؤية ٤٠ فارسا يتحركون للشمال »

« يوم ٨ مايو سعت ١٢٣٠ ابجرت جنوبا وعندما وصلت وادى حبشى
- رأيت ٣ فرسان فى الجبال العالية . الواضح انهم كانوا يراقبون البوارج .
اطلقت عليهم مدافع المكسيم الا انهم كانوا خارج المدى . »

وفى ١٤ يوليو وصل الخط الحديدى - عطبره . وبعدها بدأت التعزيزات
واطنان المؤن تنهال على السردار . وصل اللواء الثانى البريطانى ، فكتيبة فرسان
الرماحة الحادية والعشرون ، سرية فرسان مصرية ، سريتى مدفعية من سلاح

المدفعية البريطانية « احدهما سرية الهاوترز ٥ بوصة » .

أما الكولونيل ونجت فقد امضى وقته فى بث شبكات الجواسيس حتى عاصمة الخليفة ، وفى التخطيط لأعظم انجازاته على الاطلاق - العربان الموالين - « Friendly Arabs » وهى قوة مختلطة من الجعليين والعبادة والبطاحين . استطاع تجميعهم حتى بلغوا أكثر من اربعة آلاف مقاتل أو كل امر قيادتهم للميجور ستوارت ورثلى بمساعدة الشيخ فرح ، وعبد العظيم بك حسين خليفة ، وميسرة الزبير باشا .

وعندما أوصلت السكة الحديدية المؤن اللازمة ، انشأ السردار نقطتين متقدمتين فى شندى والمتعة كوئيات اولى ، كما اقيمت قاعدة ادارية متقدمة فى جزيرة نسرى ، آخر نقطة تستطيع البوارج الوصول اليها « ١٢ ميلا شمال السبلوكة (١) » ، ليرسل اليها المؤن التى حملتها صنادل البوارج المحملة بمؤن ثلاثة أشهر للفرقة الانجليزية ، وشهرين للفرقة المصرية .

» * * * *

سرعان ما تأقلم الأمير عبد الباقي على واجباته الجديدة فاستطاع تصريفها بيسر وسهولة أكثر ، للدرجة التى تمكن فيها من ارسال تقارير يومية حافلة باخبار العدو ، وتمكن أحيانا من ارسال ثلاثة تقارير فى اليوم الواحد . مكنته من ذلك تقسيمه المتوازن لفرسانه بين الواجبات المختلفة ، وضابط اطوافه النشاط - المد الغالى - الذى لا يعرف الكلل ولا الملل . ولم يكن عبد الباقي غافلا عن نشاط العدو . ولاعن تكوين العربان الموالية ومسرح نشاطهم شرق النيل .

فقد أرسل للخليفة بتقريره المفصل الدقيق بتاريخ ٤ ربيع أول (٢٣ يوليو) :
... أرفع ائى المقام الكريم انه فى الاخبار الواردة عن لسان اهل الخيول الذى جارى طلوعهم لكشف اخبار أعداء الله ورفع الاحوال البنا فقد حضرت منهم طائفة أمس تاريخه من السبلوكة وعرفوا ان أعداء الله عملوا لهم . بحرية بجزيرة نسرى بواسطة اهل الوابورات وان كافة اهل الجزيرة

(١) أنظر الخريطة رقم ٣ « العدو »

الذى كانت بالخلا ومن ياتي من جهة البقعة دخلوا جزايرهم لان البحر احتوى على الخيران والجزاير وامنوا على أنفسهم من جهة البر واخرجوا ما عندهم من المعاشات واقاموا فيها شارعين فى التنظيم والخدمة فى نسرى وام جركى وجزيرة سلامته ومرنات وكجوج والوابورات جاعله عليهم دورية لحفظهم من الطوارق البرية والخيول لازالت واقفة معاهم وواردة ومتردده لنا بذلك واما جيوشهم المخذولة فهى لازالت بالداخله وبربر ولهم نقطة خفيفة بشندى والمتمة ولم يسمع لهم بتحريك قدم ازال الله اقدامهم ونكس اعلامهم الا انه بلغنا بأنهم عددوا لهم جمال ركب نحو الاربعة آلاف من الجعليين والحسانية والبطاحين وغيره من القبائل قليل أنهم قاصدين جهة رفاعة . فى هذا الشهر فان وافق بصير التنبيه الى النقط الشرقية بأخذ الحذر لئلا يأتوا عليهم بغتة ونحن هنا ومن معنا من الاصحاب واقفين ومتحزين ولازالت الخيول واقفة على جهاتهم لئلا يتأثروا بحركاتهم وانشاء الله ان نحصل غفلة بل جميع ما يحدث يصير رفعه اول بأول الى الجنب الشريف ولهذا لزم تحريره لمعلومية سيدى بما توضح والسلام . »

« حاشية :

مما اوضحنا اعلاه يوم تاريخه عند ساعة الضحى نسمع ضرب مدافع ثقيلة على جهة السبلوقه واضنها وابورات الكفرة خيول الاصحاب بايتها وصارت تضرب فيهم وللآن لم يأتينا منها خبر فعند حضورها وتعريفنا بها نجرى رفع احوالها ولاجل المعلومية لزم الحاقه . »

ولكن الخليفة كعادته - وضع عينا لترصد عينه الراصدة ، وتبلغه عن أى افعال من قبل عبد الباقي فى تأدية واجباته . فقد ترمى لسمع الخليفة انباء متواترة من مصادره الكثيرة ان العدو قد وصل لجهة المتمة . فارسل بشير كرار العبادى لعبد الباقي طالبا ايضا عن تقصير عبد الباقي فى تبليغه هذه المعلومات الهامة . ورد عليه عبد الباقي بلهجته الحازمة المؤدية نافيا تلك الأنباء مؤكدا ان عينه لاتغفل لحظة واحدة عن العدو :

« ثم ارفع الى المقام الكريم فقد تشرفنا بالامر الشريف الرقم ١٢ الجارى بيد

المكرم كرار بشير المنوه فيه بأنه قد تبالغ الى المسماع الشريفة بأن اعداء الله
المخذولين تحركوا بثقتهم ووصلوا الى جهة المتمة وشندى ومرغوبا منى
متى يكون عندنا خبر نجرى تفصيله ومداومة كشف الاخبار ورفعها اول بأول
الى آخر ماحواه الأمر الكريم علمناه وتبركنا بتلاوته والحال سيدى فانه
بالنظر لتأكيد الخبر والوقوف على حقيقة الاعداء المخدولين كان سبق اعلنا
سيد الجميع خليفة المهدي عليه السلام بالبوسطة المحررة فيها عوايل الشايقية
المظبوطين فى المركب ومرسولين بأنه عزمنا بتعيين خيل مخصوصة تكشف
لنا الاحوال لغاية المتمة وتأتينا بالاكيده وقد كان وسبق تعيينها تحت قيادة
المكرم المد الغالى ووصلت لغاية المتمة وكشفت حقيقتها ووجدت بعض
من الاهالى ومعهم اغنام فقتلوه واحضروا منهم بندقية وما وجدوه من
الاغنام والمتمة خالية من الكفرة ويوم تاريخه حضروا مصحوبين السلامة
ومعهم واحد من الجعليين السعداب يدعى محمد كان بربر وحضر منها
وصادفوه اهل الحبول اجرؤا عليه القبض بجهة الهويجى وقد اخبر المكرم
المد الغالى ومامعه من الاصحاب ان اعداء الله شارعين فى الدخول
بالوابورات والمراكب الى جزيرة نسرى واتخذوها لهم مركز الى جيوشهم
المخذولة وقد شاهدوا ورؤا فيها الخيام منصوبة وان الكفرة مجتهدين فى
الترحيلات والتثقيات عليها وهم فى حركة مهمه واما السعدابي السلى
قبضوا عليه واحضروه اخبر بأن الكفرة واقفين على التحريك وقد انفصلوا
على ثلاثة طوائف وكل طائفة مقيمة فى مركز فاو لاد الريف جميعهم
بالداخلة والانجليز بحلة ولد العجمى بالقرب الى الداخلة والسودان فى بربر
وقد عين فى تشهيلاتهم المخدول عدو الله عنتر شيئا فى شىء فى نقطة الى
نقطة والجميع مركزهم نسرى واما كافة خيولهم وجمالهم جرى قطعها
على الغرب والتلغراف اوصلوه لغاية المغاوير بالغرب وعزمهم وصوله نسرى
وهذه الجمال والحيول تعينت لدمه منع المغارات وتعطيل عمله واما شندى
فلا زالت تقطنها القديمة فيها وكذلك عملوا نقطة بالشرق بحلة ولد سلفاب

موازيه الى جزيرة سلوه وان الواپورات القديمة فهي خمسة وقد استجد عليهم اثنين هنا في بربر احضروا آلاتهم بالسكة الحديد الجمله سبق وكذلك الامراء الذين اسروا بواقعة الشهيد عبد الرحمن النجومى ادخلوهم معهم فى الخدمات ورجعوهم الى حلفه والمكرم محمود احمد اوصلوه مصر ومنها صار رجوعه الى حلفه مع المكرم محمد الامين ورتبوا له صرف وان فى عزمهم ونيتهم الخبيثة التحرك والقدوم فى آخر الشهر القابل فهذا ما أخبر به السعداني وذلك بحضور المكرم كرار بشير وهامو واصل معه وحيث هذه الاحوال التى استجدت علينا من جهة الكفرة من نحو تحريكهم واجعال جزيرة نسرى نقطة مستعدة لتكامل جيوشهم المخدولة فيها كما تراءى الى الاصحاب الخيام والحركة بداخلها وما أخبر به الرجل المأسور لزم تحريره لسيدى بيد المكرم كرار بشير للمعلومية ولازلنا واقفين على الاقدام لكشف الاحوال ومتى ما استجد خبر يصير رفعه أول بأول الى المسامع الشريفة ونسأل الله الرضاء والتوفيق الى مرضى الخير سيدى .

* * * * *

وأخيرا تكاملت قوة السردار وتجاوزت ٢٤٠٠٠ جندى ، منهم ٨٢٠٠ بريطاني والبقية من المصريين والسودانيين توزعوا كالاتي :

القائد : جنرال هارولد كتشنر « Kitchner »

رئيس الأركان : ميجور جنرال رنسل « Rundle »

المشاة :

الفرقة البريطانية : ميجور جنرال جاتكر « Gatcre »

اللواء الاول : بريجادير ووشوب « ٤ كتائب مشاة » « Woshope »

اللواء الثاني : بريجادير ليتلتون « ٤ كتائب مشاة » « Lytlitone »

الفرقة المصرية : ميجور جنرال هنتر « Hunter »

اللواء الأول : كولونيل ماكدونالد « McDonald » كتيبة مصرية

٣ كتائب سودانية »

اللواء الثاني : كولونيل ماكسويل "Maxwell" « كتيبة مصرية - ٣ كتاب
سودانية »

اللواء الثالث : كولونيل لويس "Lewis" « ٤ كتاب مصرية »
اللواء الرابع : كولونيل كولنسون "Collinson" « كتيبة مصرية - ثلاث
كتاب مختلطة مصرية - سودانية »

القوات الراكبة :

كتيبة الرماحة الحادية والعشرون « ٤ سرايا راكبة »
كتاب المجانة « ٨ سرايا »
كتاب الفرسان المصرية « ٩ سرايا »

المدفعية : كولونيل لونج "Longe"

٢ سرية رشاشات بريطانية : « ١٠ مدافع مكسيم »
١ سرية مدفعية بريطانية : « ٨ مدافع ٤٠ رطل »
١ سرية مدفعية بريطانية : « ٦ مدافع هاوترز عيار ٥ بوصة »
١ سرية مدفعية خيول « ٦ مدافع كروب »
٤ سرايا رشاشات مصرية : « ٢٤ مدفع مكسيم »
عنصر مهندسين من سلاح المهندسين البريطاني .

الاسطول النهري : « كومودور كيبل "Keppel" »

- ١ - البارجة المدرعة طراز ١٨٩٨ « السودان »
 - ٢ - البارجة المدرعة طراز ١٨٩٨ « ملك »
 - ٣ - البارجة المدرعة طراز ١٨٩٨ « الشيخ »
 - ٤ - البارجة المدرعة طراز ١٨٩٦ « فاتح »
 - ٥ - البارجة المدرعة طراز ١٨٩٦ « ناصر »
 - ٦ - البارجة المدرعة طراز ١٨٩٦ « ظافر »
- البارجة : « طماي »
البارجة : « حفير »

البارجة : « ابو طليح »

البارجة : « المنمة »

بوارج الترحيل :

البارجة : « دال »

البارجة : « عكاشة »

البارجة : « الطاهره » (١)

البارجة : « او كما »

البارجة : « خير »

فى يوم ١٤ يوليو بعد ان تأكد السردار من تكديس المؤن فى جزيرة نسرى ، اصدر امره ببدء التقدم . على ان تحمل الفرقة الانجليزية بالبوارج ، وان تتقدم الفرقة المصرية بالارجل لواء بعد الآخر ، فى صحبة الفرسان البريطانيين والمصريين . ولما كان السردار مدركا من قبل ان العدو قد اخلى مركز السبلوكة فقد استطاع التقدم تقدما غير تكتيكى مريح ، طالما ان ليس هناك ما يهدده . ومضت ألويته تمر واحدة بعد الأخرى على وثبات المنمة ، والمغاوير والتراجمة . فى طريقهم لمركز الحشد الحديد - فى ود حامد ١٢ ميلا جنوب جزيرة نسرى . وبذلك انتهت وظيفة عطبره كمركز للحشد فقد انتقلت كل المؤن الى نسرى ، وبدأ معسكر ود حامد مركز التجمع الحديد فى الاتساع يوما اثر آخر ، بوصول كل لواء من ألوية الفرقة المصرية وهى تفسح مجالا للفرقة البريطانية المتقدمة عبر النيل . كما أوضح تقرير عبد الباقي المؤرخ ١٧ ربيع الأول « ١٥ اغسطس » :

« . . . ثم نعلم سيدى انه وان كان امس تاريخه فصلت الى سيدى اخبار الكفرة وتحريكهم وتجرید جيوشهم المخذولة بلجهة نسرى واجعلها مركز مع قطوع جمالمهم وخبولهم بالغرب بجهة المغاوير ووصول تلغرافهم ايضا بالجهة

(١) كانت الطاهره هى باخرة ود بشاره التى غنمها العدو فى الحفير واعاد اصلاحها . وسماها الخليفة « الطاهره » لانه لم يدنسها قدم « كافر » عكس كل بوارجه . فقد طلبها غردون من لندن ووصلت كاجزاء قبل سقوط الخرطوم وتم تركيبها ودشت بعد سقوط الخرطوم . فلم يجر على ظهرها غير مسلم .

المذكورة والنقط التي جعلوها بحلة سلفاب الموازية جزيرة نسرى من الشرق وارسل بيد المكرم كرار بشير فيوم تاريخه حضر محمد ولد كوكو الانصارى المعلوم عند سيدى واخبر ايضا ان المخدولين تحركوا وجيوشهم متجدة على نسرى بالوابورات والمراكب وآخرها الان بالداخله لانها تخلصت من بربر وتلغرافهم وصل بالمتمة والتجاريد المذكورة بطريق البحر على الوابورات والمراكب ولم يمسكوا طريق البر الشرقى ولا الغربى وهامو ولد كوكو ذاته واصل صحبة الهجانة رافعين هذا لاجل متى لزم الحال لزيادة خبر منه يعلم به كما وفى تاريخه رفعنا تلك الخبر الى سيد الجميع خليفة المهدي عليه السلام وعلمنا جنايه الشريف بارساله صحبة الهجانة اما نحن بفضل الله تعالى مادام ان الكفره صاروا بالقرب لنا وليس بيننا وبينهم سوى مسافة قليلة فان شاء الله تعالى لانغفل من حركاتهم واخبارهم ليلا ونهارا برا وبحرا وكلما حدث شئ نجري رفعه اول بأول نسأل سيدى الدعوة الصالحة الخ»

بعدها اضطر عبد الباقي للانسحاب من موقعه بوادى بشاره . فقد كادت عناصر العدو المتقدمة ان تجتاح رئاسته . واضطر للتحرك غربا عن مجرى النيل مضحيا بابتعاده عن مصدر مياه الشرب ليظل على قرب من العدو لرصد تحركاته بدلا من الانسحاب جنوبا تاركا كل جبال السيلوكه بينه وبين العدو .

الا أن عبد الباقي استمر فى عملياته العدائية كما اوضح فى تقريره المؤرخ ١٩ ربيع اول « ٧ اغسطس »

« ثم ارفع الى الجناب الشريف ان طليعة الخيل المعينة من طرفنا من الاهل دغيم تحت قيادة مقدمها جبارة لكشف اخبار اعداء الله حضرت واخبرتنا ان اعداء الله المخدولين اولهم نزل بحلة ولد حامد وتقابل مع الخيالة المذكورة ومن الحملة خمسة خيل من الاصحاب هجموا على بعض من الكفره وجذبتهم منفردين فقتلوا منهم اثنين والكفره ضربوا فيهم فقد اراد الله الى ثلاثة منهم بالشهادة وهم آدم عليان ، وعلى ولد طاهر ، وعبد الواحد الجزولى ، وخبوهم اثنين قبلوا وواحد عاد دخل فى وسط الكفره مسكوه وبقية الاصحاب

حضرُوا مصحوبين السلامة بخير وفي خلفهم وجهنا الخيل لتقف معهم ولا تفارقهم . »

وفي ذلك اليوم ارتفعت كفاءة عبد الباقي عندما تمكن من التوصل لمصدر معلومات يعمل في معسكر العدو واستطاع ان يحصل منه على معلومات أدق عن موقف العدو :

« وبخلاف طليعة الخيل الذي اخبرت بوصول طليعة اعداء الله بولدها حامد حضروا نفرين جهادية احدهم يدعى قادم من اولاد ابو جنون الذين كانوا مع المكرم محمود أحمد وسعد من ربيع البرنجية اسروا بواقعة الجيش واحضروهم لخدمة الحطب لوابورات الكفرة وقد تخلصوا وفروا هارين ويوم تاريخه وصلوا بطرفنا عرفوا ان اعداء الله جميع متقلاهم وآلة استعدادهم شهلوها بجزيرة نسرى وهم تحرکوا باكملهم وتجردوا الى السفر وغالبهم وصل بجزيرة نسرى وتقدموا منهم اورطين سودان نزلوا بحلة ولد حامد وهى التى صادفتها الخيل الطليعة ومهتمين بالقيام فى هذين اليومين وليس عندهم نية فى التأخير كون تخلصوا من بربر وآخريهم بالداخله واولهم بولد حامد والجزيرة نسرى وهم على قدوم واما وابوراتهم اخبروا انها اول كانت سبعة وقد استجد عليهم ثلاثة كبار الحملة عشره وحيث ان اعداء الله المخدولين شارعين فى القدوم ولا زالت خيولنا معهم ليلا ونهارا واولهم صار بولد حامد فقد حررنا هذا بالمعلومية . »

وقبل وصول تقريره للخليفة بامدرمان ، استطاع ان يحرز تقدما أكبر فى أداء مهمته عندما استطاع التغلغل فى صفوف العدو فعلا عندما توصل الى جمع معلومات من جندى نظامى يعمل فى جيش العدو . والواضح ان تصور عبد الباقي ارتفع كثيرا ووضحت له امور كثيرة . فاسلوبه تغير وأصبح يتحدث عن العدو بدقة وتحديد اكثر ، فهو هنا يتحدث عن الوحدات « الاورط » ، وبتفصيل اكثر عن موقف العدو وتحركاته .

« بكثير الشوق ومزید الغرام الى الطلعة النورانية والآثار المحمدية ثم تعلم سيدى من بعد تحرير البوسطة المرسولة بخبر وصول اعداء

الله بحلة ولد حامد واستشهد الثلاثة اخوان من الاهل دغيم ناس الخيل وقد احضروا ناس الخيول الذى تعينت خلف المذكورين لكشف اخبار الكفرة واحدا جهادى يدعى عبد الله من ربع المكرم محمد الزاكي عثمان أسر بواقعة الجيش وادخلوه التعليم وحضر ضمن جيشهم المخذول فر منهم هارباً بالمغرب وصادف طليعة الخيل المعينة منا بالسبلوقة صباحاً أمس تاريخه واحضروه ولدى سؤاله عرف ان اعداء الله حضروا بحلة مديسيه وهم ستة اورط سودان والحلة المذكورة هى بالقرب الى وادي بشاره مركزنا سابقا وفي رأسهم عدو الله عنتر والوابورات رجعت لحضور الانجليز ومزاحمين فى تتابع جيوشهم وجد السير الى القدوم هنا خذلهم الله وكافة ركايبهم من خيول وجمال وبغال بكره أو بعده تحضر طرفهم وبعد تكامل جيوشهم المخذولة وحضور رأس الضلال السردار يقوموا ، وتركهم على هذه الحالة وحضر منهم وحيث ان المخلولين سؤل لهم الشيطان اعمالهم وعزموا الى المحبى فقد صار توجيه الخيول من طرفنا لتكون معهم الخ .

والواضح ان عبد الباقي ادرك ، شأنه شأن كل من شاهد منطقة السبلوقة وعلم مدى اعتماد السردار على بوارجه ، اى مزايا تكتيكية تكمن فى تلك الهيئة . ونراه يحاول جهده ان يقنع الخليفة باعادة النظر فى قراره باخلاء السبلوقة وينصحه بأن يتحرك بجيوشه ويقف وقفته الاخيرة فى جبال السبلوقة وان لايتخلى عن هذا الموقع الحصين :

« ومتى وافق يتأكد على اهل الطوائى شرق وغرب بالتيقظ والاستعداد وعدم الغفلة حيث نيتهم السؤ قادتهم الى الهلاك . وما ذكرناه فان ملزم العقبات الشرقية والغربية هو الرباط ومرصد ممكن من اعداء الله وخاذهم انشاء الله فان كان تراءى الى النظر الشريف مسك فم بغازهم والاستعداد لهم شرق وغرب بالجيوش الكفاية فذلك من باب المكيدة لهم والا فما يترأى فى مصلحة الدين بلجهاد اعداء الله الكافرين فهو الامر مفوض فيه الى سيد الجميع »

.. ..

لم يحدث فى عمر النهر الطويل ان شهد مثل هذا الحشد . فقد امتزجت مياهه

الارجوانية المخضبة بظمى الفيضان ، وهو فى انطلاقه العاصف للشمال ، باللون الكاكي الغالب على القطع البحرية من كل الانواع ، بوارج مدرعة ، بوارج ترحيل ، مئات الصنادل ، وغابات من صوارى المراكب الخشبية « القياسات » اكتظت كلها باللون الكاكي ، آلافا من الجنود فى الاسقف وعلى أرضية البوارج وعلى الصنادل . ملأ صياحهم وضجيجهم الضفاف التى ظلت ساكنة لقرون . كان ذلك تقدم الفرقة الانجليزية وهى تحمل على البوارج فى رحلة واحدة بدون توقف من عطبرة الى معسكر ود حامد . وزاد الضجيج والصخب بارتفاع الغبار المتصاعد من الضفة الغربية من عشرات الفرسان ، بينما استمرت ألوية الفرقة المصرية فى تقدمها عبر وثبات طويلة منهكة يتقدمها الحيلة ويرافقها المراسلون الحريون والجمال . لم يتوقف التقدم الأرضى الا فى المنمة حيث شاهدوا آثار مذبحة المنمة وهى لازالت ظاهرة للعيان ، وآثار الخنادق التى حفرتها بعثة ولزلى لانقاذ غردون قبل ثلاثة عشر عاما .

أما معسكر ود حامد ، نهاية الوثبة فقد إمتد طوله لأكثر من ميلين على امتداد النيل الذى وفر حماية ضلعه الشرقى ، اما الجنوب الغربى فقد حددت أطراف المعسكر زربية كثيفة امتدت الى ان تلاحمت مع الحور الذى حوى جنبه الأيمن . تلاصقت فى نصفها الجنوبي خيام الفرقة البريطانية ، اما النصف الشمالى للمعسكر فقد ازدحم بأكواخ القش التى أوت الفرقة المصرية . وبرزت خيمة السردار البيضاء الكبيرة على هيئة مرتفعة قليلا يرفرف أمامها العلم المصرى . كانت أوامر السردار أن تتجمع كل القوة قبل يوم ١٦ أغسطس .

* * * *

اضطر عبد الباقي بعد تكامل انشاء معسكر ود حامد وبعد أن أصبحت كل المنطقة المكشوفة غرب النيل أرضا محرمة عليه ، لأن يتقل رئاسته جنوبا الى الرويان ، جاعلا كل جبال السبلوكه فاصلا بينه وبين عدوه . ولكن مصادر فرسانه المتقدمة استطاعت تصوير الموقف تصويرا جيدا ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بعدد البوارج المقاتلة بالضبط ، أم بوصف معسكر ود حامد ، أم كشف أمور أخرى كانت غامضة . إذ أنه وجد الاجابة الصحيحة لسؤال الخليفة المتردد عن

صديقه اللود « سلاطين » . فقد أوضح في تقريره المؤرخ ٢١ ربيع الأول (٩ أغسطس) :

« نعلم جنابه الشريف انه بخلاف الجهادية الثلاثة المحضرين من اعداء الله السابق رفع خبرهم يوم تاريخه حضروا ثلاثة منهم اثنين اسماهم زيد وزايد صادفتهم دورية الخيل وارسلتهم ، والثالث يدعى مرجان قام من اعداء الله المغرب وصادفوه الاخوان عند الصباح بقرب الديم احضروه لنا وقد اخبر أن اعداء الله المخلولين استعدوا وكافة آلتهم وخيولهم وجمالهم وما هو متأخر من جيوشهم المخلولة تكامل عليهم بجهة مديسيه الكاينة بالقرب وادى بشاره وان عدو الله السردار حضر وتركهم في حالة القيام والقعود لينالوا منا جهنم التي اعدّها الله لهم وعزمهم ونيتهم السيئة القدوم الى مدينة المهدي عليه السلام وليس عندهم تردد ولا تأخير وتركوا كافة ماؤوهم وزوادتهم ومقتلاتهم واوقفوا عليها القفر وعملوا لها زريبة بجهة ولد حامد ومعهم من الواورات الحربية عشرة تمر بالبحر وهم يمرّوا بالبر الغربي وحيث سيدى ان اعداء الله خذلهم الله صاروا قايمين علينا وربما باكر صباحا أو بعده نتقابل معهم ونجاهدهم فقد حررنا هذا الى المقام الكريم لاجل العلمية وان وافق ينه على الطوابي البحرية بالاستعداد وعدم الغفلة وكذلك يتأكد بجمع الاصحاب وعدم غياب واحد حيث الملعونين حضروا وما قادهم الله الا الى هلاكهم واما عدو الله عبد القادر شواطين فهو الان ببربر » سرعان ما عاود الحنين جنود الخليفة الذين اسروا في المعارك السابقة واعاد العدو تجنيدهم ، وبدأوا في هجر صفوفه والانضمام لعبد الباقي بمجرد ان علموا ان هناك اخوة حملوا معهم السلاح سابقا يتواجدون بالقرب من معسكر السردار . جرت العادة أن يعرض هؤلاء انفسهم لطلائع عبد الباقي وينضموا لها ويتولى عبد الباقي ارسالهم لامدرمان . فارتقى مستوى تحليله للمعلومات للدرجة التي بدأ يلم فيها بنية العدو ، وان يضع تحديدا دقيقا للزمن المحدد لبدء تقدمه لامدرمان . كما ارسل كعادته الأسرى المهمين لامدرمان ليستجوبهم الخليفة بنفسه كما اوضح تقريره المؤرخ ٢٣ ربيع أول (١١ أغسطس) :

« ثم نعلم المسامح الشريفة فان السبعة جهادية الواضحة اسماهم وارباعهم حضروا من الكفرة فارين منهم وصادفتهم دورية الخيل احضرت طرفنا ولدى الوقوف منهم عن احوال الكفرة عرفوا انهم قايمين وقاصدين التزول بالسبوة وان عدو الله عثر حضر بالوابور وتطلعها ورجع لقيام جيشهم المخذول كونه تكامل عليهم ولم عندهم تأخير وصار ما بيننا وبينهم الا عقبة السبوة فقط وحيث الامر كذلك وان خيولنا لازالت معهم ليلا ونهارا فقد حررنا هذا الى الجناح الشريفة لاجل المعلوماتية وان استعداد اعداء الله المخدولين كونهم صاروا قادمين والجهادية المذكورين واصلين صحبة رافعة سراج الدين جميع الامل بعد وصولهم يكرم على عبدكم بالافادة . »

الا أن عبد الباقي وموقعه البعيد في النقاط الامامية عن مؤتمرات ومؤامرات ام درمان تعجب من تخلى الخليفة عن منطقة السبوة بهذه البساطة . ولم يستطع ايضا ان يهضم أوامر الخليفة بترك العدو في سلام طوال تقدمه نحو ام درمان وراح يستجدي الخليفة في أن يسمح له بازعاج العدو ومناوشته . وعندما وصلت تعليمات الخليفة القاطعة بعدم التعرض للعدو استسلم على مضض وهو يحاول محاولة أخيرة باقناع الخليفة بفائدة المناوشات لادخال الرعب فيهم :

« ثم نعلم الجناح الشريف حظينا بأمركم الكريم المشير لنا فيه بالتيقظ والانتباه ليلا مع نهارا وكشف اخبار الكفرة ومتى زحفوا علينا فلاتحصل منا مناوشة بل ننحاز نحو جنابكم الشريف الى آخر ما بالامر الكريم احطناه وتبركنا بتلاوته والحال سيدى فان خبرنا وزيادة ديننا هو تنفيذ الاشارة والعمل بموجبها وانشاء الله تعالى نعمل بها لكنى مع الموافقة الى سيد الجميع فاذا كان اتتنا الخيول لنحاربهم بها ولو فى الشيخ الطيب لادخال الرعبة فيهم فذلك لاجل كيدهم والافالخير فيما يراه سيد الجميع فى ذلك »

..

ساد الموقف بعض الركود . فقد استمر السردار فى انتظار تكامل وحداته . بينما امضى عبد الباقي تلك الايام فى مراقبة العدو ، واستقبال مصادره الثمينة الجديدة - الهاريين من صفوف العدو وتنظيم ارسالهم لام درمان ، ووجد بعض

الوقت للتفرغ لواجباته الثانوية وأهمها ضبط الحارين من صفوف الخليفة لصفوف العدو :
« أمس تاريخه صار ضبط مركب محضره من وجهة البقعة قاصدة جهة
الاعداء عليها نحو السبعة وستين عايلة حريمات وعيالهم ومعهم رجال شبيه
والرجال وقعوا فى البحر وعاموا وهم ثمانية والعوايل مابين شايقيه وجعليين
وسيصير ارسا لهم بكره انشاء الله وللمعلومية لزم . »

فى يوم ٢٥ أغسطس إستأنف العدو التقدم . فقد أمر السردار الفرقة المصرية
بالتقدم بالتفاف واسع لجهة الغرب لتفادى جبال السلوكه ، كقعدة لتقدم الحملة
الى ان تتكامل مرة أخرى فى الرويان على النيل وتبدأ الوثبة النهائية حيث لايفصلهم
عن ام درمان برا الا جبال كبرى ، وحيث يسمح النيل بالملاحه الى منبعه بدون
عائق خلافاً لجبال السلوكه .

« وعرفنا ان اعداء الله المخذولين قاموا من وادى بشاره وتحركوا بكامل
جيوشهم المخذولة ونزلوا برأس العقبة الموصلة الى الرويان وتركوا بعض
طلائع الخيل معهم وحضر نفر منهم اخبروا بذلك وحيث ان المخذولين
قاموا متحركين لهلاكهم فقد حررنا هذا الى المسامع الكريمة وفى تاريخه
وجهنا خيل زياده على السابق لتكون معها وتواترنا باخبارهم لاجل رفعها .
كانت عادة السردار فى تقدمه لوثبة ود حامد - الرويان ، أن يبعث بقواته
الراكبة للتوغل فى الامام لعدة أميال . واضطر عبد الباقي تحت ضغط الخيالة
لانسحاب جنوبا الى السروراب فى اول ربيع ثاني (١٩ أغسطس) حتى لايتعرض
فرسانه للاسر :

« نعلم سيدى ان طلائع الخيول حضرت واخبرت ان أعداء الله المخذولين
قاموا من اول العقبة ودخلوا العقبة الموصلة الى الرويان وحلة الكوداب وقبل
ان ينزلوا بالرويان فصار حضور بعض الخيل المذكورة وعرفتنا بهذا الخبر
ولذلك عينا ثلاثين جواد ووجهناها الى الخيل التى واقفه معهم ونحن ومن
معنا من الاصحاب صار قيامنا من الجميعاب ونزلنا بأول السروراب الكاين
ماين قبة الشيخ الطيب والفقيه الأمين كونه مرتع للخيل وفيه القشوش .

وعلى صرفهم الذى صرف مدة اقامتنا يتقون للجهاد وانشاء الله هذا المحل يكون لنا مرصد لغاية حضور اعداء الله المخدولين ودخولهم العقبة وقصدهم هو الرويان وجهة الكوداب الكاينة بالقرب الى نفسه ووقوف الخيل معهم لكشف احوالهم . »

ونرى عبد الباقي ينصح الخليفة بأن يؤخر خروجه من ام درمان قليلا ان كان يريد ملاقاته العدو فى المكان المحدد للمعركة - جبال كبرى . فقد قدر عبد الباقي وصول العدو لكبرى بعدة ايام :

« أما نحن ومامعنا من الاصحاب صار قيامنا من الجميعاب ونزلنا فى أول السروراب الموالية جهة الشيخ الطيب من صعيد كونه محل مرتع الى الخيول وفيه القشوش الكفاية لرشد الخيل وانشاء الله تعالى تكون لنا مركز الى ان اعداء الله المخدولين يصلوا جهة الجميعاب ويقصدوا الشيخ الطيب حتى يصير تحوزنا امامهم حسب الاشارة الكريمة اما فى هذين اليومين مادام ان اعداء الله قصدوا جهة الكوداب ونفيسه وعلى حسب عوايدهم الفاسدة يقيموا لهم ثلاثة اربعة ايام حتى يقدموا فان وافق ونحسن برأى سيد الجميع يتأخر عن الخروج للهجرة واول ما يتحركوا من نفيسه أو الكوداب حالا نرفع خبرهم ويكون لهم الخروج والاستعداد الكلى اذ ان طلائع الخيل معهم وكذلك عينا ثلاثين جوادا اخره ووجهناها زياده على الاول لتكون لهم بالمرصاد . »

سرعان ما أقام عبد الباقي رئاسته بصرعته المعهودة . فقد اصبحت اقامة المعسكرات والرئاسات ، وحرقتها تستغرق منه ساعات بسيطة . كان عبد الباقي عادة يختار رئاسته على شاطئ النبل حيث يتمكن من رؤية ابجار بوارج العدو ، وحيث تزداد كثافة وارتفاع الاشجار على ضفاف الخبران كلما انحدرت نحو النبل وحيث يمكن أن تخفى رئاسته المزدحمة بنشاط الفرسان وهم فى طريقهم للخروج للاستكشاف ضارين غربا لتفادى اصطدامهم المباشر مع العدو . وهم عائدون ليقدموا تقاريرهم ولتناول وجبات الطعام ، واستلام اقلام البوص المجهزة قبلا ودوابات الحبر من خيمة عبد الباقي ، والتي كان يوزعها بنفسه . وفى كل

المعسكرات التى أقامها لم توجد غير خيمة واحدة هى مسكنه الخاص ومكتبه الذى يستجوب داخله الاسرى والمهاجرين ويجمع المعلومات من فرسانه العائدين أو يوجه غاراته الحاطقة قبل أن يمنعه الخليفة من شنّها ، وحوّلها لتأثّر البروش للفرسان ، والعناقريب للمقدمين . أدار عبد الباقي قوته الصغيرة « ٣٠٠ فارس — ٥٠ بندقية » بمستوى عال من الانضباط . فلم تكتشف رئاسته قبل اختلاؤها الا مرة واحدة .

١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢

فى يوم ٢٥ تقدم جيش السردار فى كتلتين بشريتين طويلتين ، تكونت مقدمتها من لوائين فى الامام ، ووشوب البريطانى فى اليسار ملاصقا للنهر، ويمينه لواء لويس المصرى فى الجانب البعيد من النهر نحو الصحراء ، وكلا اللوائين فى صف واحد عريض . وخلفهما اخذت باقى الالوية مكانها فى ذلك التشكيل المزدوج . وعن يسارهما انساب اسطول السردار النهري ببطء على النهر مبحرا بنفس سرعة المشاة للاستكشاف وحماية الجانب الأيسر .

وكل ذلك المكعب البشرى الضخم اختفى وسط عاصفة الغبار التى أثارها قوات السردار الراكبة التى انطلقت فجرا متقدمة الجميع نحو الصحراء فى انعطاف حاد عن مجرى النهر لتلافى جبال السبلوكة . وعندما اجتازت مشاة السردار اقصى امتداد غربى لجبال السبلوكة ، أمر السردار بايقاف التقدم وعسكرت القوة فى الفضاء وامضت بومى الخامس والسادس والعشرين فى معسكرها الضخم وراء زريبة سميكة .

فى تلك الاثناء كان اسطول السردار النهري يتعرّ ببطء وصعوبة وسط مجرى النهر الضيق فى شلال السبلوكة . لقد كان الاسطول وحيدا ولم يبعث معه السردار ايا من قواته الارضية لحمايته . . . فقد علم منذ مدة أن الخليفة سحب حامية السبلوكة . ورأى هؤلاء أى خطر مميت كان من الممكن أن يتعرضوا له عندما اجتازوا الطوابى الخمسة التى بناها الخليفة وتركها خالية . . . فبضعة مدافع فى تلك الطوابى التى بدت غاية فى المناعة من جانب النهر ، كانت كفيلة باغلاق النهر فى وجه اسطول السردار .

٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦

راقب عبد الباقي عبور البوارج دقيقة بدقيقة :

« ثم ارفع الى المقام الكريم انه يوم تاريخه حضرت الينا طلائع الخيل واعلمتنا ان أعداء الله المخذولين صاروا يجردوا جيشهم المخدول بالبحر بواسطة الوابورات وماذا لا خوفهم من العقبة وعدم اطمئنان عقلمهم من جيوش الاسلام كون حضرت اربعة وابورات بجهة الكوداب ومعها ستة مراكب وركزت بالبر الشرقي واخرجت ما بها من الكفرة فى محل هناك متسع الفضاء وبعد ذلك حضر وابور خامس كبير وقف قصاد حلة الكوداب المذكورة بالبر الغربي وضرب البورى الى الوابورات الاربعة فصار رجوعها وفضل الوابور المذكور واقف وطلائع الخيل مناظره الى حركتهم ولغاية العصر ، كذلك رؤى دخان ثلاثة وابورات خرج من جهة الرويان وقاصد محل الوابور الاول وهناك دخل بينهم الليل وصار وقوف بعض الخيل والبعض حضروا واخبروا بذلك والمراء لطلائع الخيل انه بعد ان يستكملوا مناقلة جيشهم المخدول بالجهة المذكورة ويتخلصوا من العقبة بواسطة الوابورات يخرجوا بجهة البر الغربي وبالتنظر لذلك فى تاريخه وجهنا خيول اخره واكدنا عليهم ان يقفوا على حقيقتهم بالوجه الاتم وبأتون بها سوى مسوكلهم الى الشرق أو قطوعهم بالغربي ولا يغفلوا . »

اوقف السردار تقدمه فى الرويان بعد أن عادت قوته مرة أخرى الى شاطئ النهر ، ليجد اسطوله فى انتظاره ، وشيد زربته المعهودة وامضى يومه . وفى الساعة الرابعة مساء يوم ٢٨ اغسطس أمر السردار ببدء التحرك نحو الوثبة التالية ، وادى العبيد ، بتشكيل شبه قتالى منتشر هذه المرة ، فقد سمحت له طبيعة الأرض المكشوفة بأن ينشر فى الصحراء الواسعة ثلاثة من ألويته فى مواجهة ميلين . وأوقف قوته بعد مسيرة ٦ أميال . فقد أُنذرتهم السحب المتجمعة بليلة عاصفة ممطرة .

تقدم فرسان كتبية الرماحة واحتلوا جبل الشيخ الطيب الذى استخدم بواسطة قوات الخليفة المتقدمة كنقطة ملاحظة ، واخليت بعد أن آتمت واجبها بالتبليغ عن

تقدم العدو . ومضى فرسان كتيبة الرماحة في استكشافهم البعيد . وأحيانا قد يصادفهم أحد أفراد أطواف الخليفة ويتدفعون للحاق به ولكن الفارس السريع يخف مبتعدا .

وهنا وهناك كثيرا ما صادفتهم القرى الطبية الصغيرة ولكنهم لم يلتفتوا اليها . فلم تكن تلك مهمتهم بل كانت العثور على الجيش الضخم الذي انتظرهم به الخليفة . ولكن عند إحدى القرى بالقرب من النهر وحسب تعليمات ونجت أحاط الفرسان بالقرية واخرجوا الأهالي من بيوتهم وبدأوا في استجوابهم عندما برز أحد (١) الرجال مرتديا الجبة المرقعة وتم أسرهم وأعيد للخلف بعد أن قدم اليه جوادا

(١) هو الطيب الحسين . جاسوس ونجت الذهبى حقيقة ، وتوضح رنة الارتياح التي سادت يومية المخابرات يوم ٢٨ قيمة المعلومات التي قدمها الطيب ، والمتصفح لتلك الصقعات يصاب بالذهول من اللحظة الأولى . فذقة وكمية المعلومات توضح أى عقل فوتوغرافى تمتع به صاحبنا . وقد استهل ونجت اليومية في ذلك اليوم بمقدمة طويلة عن المكانة الرفيعة التي يحتلها جاسوسه في دولة الخليفة وفي الشناء على قدرته وكفاءته :

الطيب الحسين . تحرك من أمدرمان يوم الجمعة الماضى - كان أمين بيت المال لخالد زقل في دنقلا - وبمدها تولى أمين بيت المال ليونس الدكيم سجنه يونس في دنقلا بتهمة « كلمة غير واضحة » قدم التماسا للخليفة الذى أمر بإطلاق سراحه . واعاد تعيينه أمين بيت المال لمحمد ود بشاره وعادمع ودبشاره لا مدمان وبعث مع محمود للشمال ومكث معه في أشهر وعاد بمدها . جعله الخليفة أحد ملازميه المقربين وكان يثق فيه - وهو رجل على درجة عالية من الكفاءة والذكاء . ولم بالموقف في أمدرمان جيدا . »

بعدها صور الطيب الموقف تصويرا دقيقا موضحا كل استعدادات الخليفة ، ثم قدم اليه كشوفات مطولة عن وحدات الخليفة وتعداد كل منها من المقاتلين والأسلحة النارية والخيول - سواء منها ما بداخل أمدرمان أو بخارجها . وأخيرا أوضح لونيبت خطة الخليفة بمواجهة الغزو « الملحق ب » ورسمها ونجت على كروكي استنادا على معلومات الطيب - ويوضح تقديمه للخطة أنه تمكن فعلا من التغلغل لداخل مجالس الخليفة - دار الوثائق المركزية

Field Intelligence Diary - 1/60/321 - p 26, 23, 24, 25, 22. "In Pencil"

ولعله من الطرافة أن تعلم تقدير الموقف الذى قدمه لونيبت عن المعركة المرتقبة :

الخليفة سيقا تل حتى الموت . وسيقاتل معه هؤلاء . للنهاية :

أ - الخليفة على ود حلو والراية الخضراء .

ب - الخليفة شريف ورجاله .

ج - الملازمين .

د - كل من يوضع تحت قيادة عثمان أزرق أو عثمان دقة ولكن كل الرايات المستقلة في أمدرمان والراية الزرقاء ورجال المدفعية - باستثناء يوسف منصور المتطرف في إيمانه بالهدية - كل هؤلاء يمكن زعزعتهم بالنيران الشديدة وسينسحبون عندها .

لقد كان الرجل الذي أثار دهشة كل المعسكر بتجرؤه دخول المعسكر مرتديا جبة الانصار أحد عملاء ونجت السريين (١) ووضحت المعلومات التي بلغها لكشنر ان الخليفة قرر ان يهاجم عدوه بالقرب من كررى بجيش لا يقل تعدادة عن أربعين الف مقاتل . وأوضح له تفاصيل القوة ومواقعها ومدفعتها . بعدها عقد ونجت اجتماعا مع كشنر استمر لساعة متأخرة من الليل .

أما الفرسان والهجاة فقد عادوا حوالى الساعة التاسعة واقتلت الزربية ومنع ايقاد النيران فاستسلم المعسكر الى صمت تام لا يقطعه الا بعض الطلقات البعيدة

(١) بمقارنة يومية المخابرات مع كتاب تشرشل يتضح أن الطيب أسر بواسطة تشرشل شخصيا أو بالأحرى ظن أنه أسره - وبالتالي افقد حياته وقدم خدمة جليلة لو نجت .

"and while thus waiting I saw a dervish in orthodox Jibba and advanced towards the nearest vedette - who of - course continued to look in the opposite direction. On my shouting, the soldier turned swiftly, saw the dervish and thrust at him with his lance-the native avoided the thrust with great agility, and made no attempt to attack the lancer. I arrived and invited him to lay his arms, this he did making friendly gestures. Had he been seen in the thick bush instead of an open space, he would assumedly been shot at and perhaps been hit.

Churchill, Winston, *The River War*, Vol II 1899. London, p. 69

« وبينما كنت أقف منتظرا رأيت أحد أفراد العدو يرتدى جبة مرقعة متقدما نحو أقرب الفرسان اليه وكان هذا يحدث في الاتجاه المعاكس . وصحت فيه منبها فالتفت مسرعا وعندها شاهد العدو اندفع نحوه بحريته ، الا ان الرجل تمكن من تفادى العربة بخفة ومهارة ، ولم يحاول مهاجمة فارس الرماحة وعندها وصلت لهم امرته بأن يضع سلاحه ففعل وهو يشير بيده اشارات ودية . واخذته للخلف متفائرا بأسيرى . ولو كان قد شوهد وسط الأشجار الكثيفة لتعرض بالتأكيد للنيران ولربما أصيب . »

"I too was proud of my prisoner until we reached the army. Then it appeared that the dervish was no ordinary dervish. He was a most important individual in the employment of the Intelligence Department who had been spying in Omdurman and came to tell his news, news which he might have never lived to tell

« كنت فخورا بأسيرى إلى أن عدت إلى المعسكر . وبعدما اتضح ان الأمير لم يكن أسيرا عاديا بل كان عميلا مهما للغاية يعمل مع شعبة الاستخبارات وكان يتجسس في امدرمان ليبلغ معلوماته . تلك المعلومات التي لم يكن ليقدّر له ايصالها ابدا لولا انقاذى لحياته .

The River War, p. 69, 73, Vol. II.

وظلال النيران الخافتة من نقاط مراقبة الخليفة على الجبال البعيدة .

ازداد معدل تقارير عبد الباقي الى ثلاثة تقارير يومية :

« ثم ارفع الى المقام الكريم أمس تاريخه حضر جندي هربان من الكفرة يدعى موسى وعرف ان المخذولين جميعهم تكاملوا في وادى العبيد ونفيسه وان عزمهم الفاسد بعد ان يصلوا قبة الشيخ الطيب يقدموا الوابورات لتحارب البقعة الشريفة خذلهم الله كما وطلّاع الخيل ايضا حضرت واخبرت بأن وابوراتهم جميعها حضرت وهم في حالة حركة واستعداد كونها جميعها مولعة نيرانها وراسية ولم كان ترجع الى خلفها ولا قدمت نحونا والخيل تركتهم بهذه الصفة وحضروا واعلموا بذلك وبقيّة الخيل واقف ملاحظ الى احوالهم حيث هذا منا يجب رفعه للمسامح الشريفة والجهدى المذكور واصل صحبة رافعه اباشايب . مما اوضحناه سيدى فان الكفرة لاهم حركة بالشرق مطلقا بل جميعهم صاروا بالغرب وعولوا عليه ولأجل المعلومية لزم . »

ولكن عبد الباقي لم يستطع أن يكبح جماح فرسانه ومنعهم من الاتصال بالعدو ، ولعله هو نفسه لم يستطع مقاومة اغراء مناوشة العدو ، فقد اوضح الهجوم المنفرد الذى قام به أحد فرسانه ويدعى الطاهر (١) ضد فرقتين ، الاثر الكبير الذى يمكن ان تتركه العمليات الازعاجية فى ظلام الليل - واسرع عبد الباقي ورفع تقريره

وصف تشرشل تلك العملية المنفردة :

« وعلى الرغم من انشاء الزرية - الا أن أحد فرسان العدو تمكن عند حلول الظلام من اختراق الزرية ومحاربة كتيبة يور كثير وقذف بحريته ذات الرأس العريض فى وجوههم متحدياً ، وأثارت العملية الجريئة المفاجئة الدهشة والاضطراب للدرجة التى تمكن خلالها الفارس الشجاع من الانسحاب دون أن يصاب بخدشة واحدة . »

But a single dervish horseman managed to evade these, and just as the light faded, rode up to the War-wickshire Regiment, and flung his broad-bladed spear in token of defiance. So great was the astonishment which this unexpected apparition created, that the Bold man actually made good his escape uninjured.

Churchil, *The River War*, Vol. II, p. 121.

للخليفة موضحا اسم الفارس الشجاع في تقريره المؤرخ ١٠ ربيع آخر (٢٧
اغسطس)

« ثم ترفع الى مقامه الكريم فان احد الاخوان المسمى الطاهر من الاهل
الحمر ابن اخت المكرم ابو شامه الطاهر كان تعين ضمن الخيول الطلائع
المعدة لكشف احوال الكفرة انفرد بنفسه وجواده وقصد محل الكفرة
واقامتهم هو وادى العبيد وكمن الى ان دخل الليل بينه وبينهم وتربص الى ان
اقرب منهم وهجم على طائفة منهم بالزربية في ظلام الليل وطعن فيهم
واحد وصرخوا وهاجوا في بعضهم وقد نجاه الله ولم يصبه سؤ منهم وحضر
يوم تاريخه اخبرنا بذلك والدم على حربته وترك اعداء الله في محلهم المذكور
وحيث هذا من الفعال الحميدة الذى يفعلها اهل المصم والعزائم الصادقة
فقد حررنا هذا لسيد الجميع خليفة المهدي عليه السلام بما حصل منه من
التوكل والافتراء بنفسه في طاعة مولاه سيدى والسلام . »

امضى السر دار ليلة التاسع والعشرين في الشيخ الطيب :

« ثم ارفع الى المقام الكريم ساعة تاريخه حضرت لنا بعض من طلائع الخيل
واعلمتنا ان اعداء الله الكفرة المخدولين حضروا بالشيخ الطيب هم
ووابوراتهم وبقية الخيل واقف معهم وحيث هذا منا يجب رفعه الى مسامح
سيد الجميع خليفة المهدي عليه السلام لاجل المعلومية . . . »

.. .. .

اشرفت شمس الحادى والثلاثين من اغسطس وبدأت الحياة تدب ببطء
فى المعسكر الضخم . وعندما بدأت الآلاف تفرك عيניה وتنفض اثر النعاس عنها ،
فتحت ابواب الزربية وانطلقت كل القوات الراكبة فى الفضاء العريض مغطية
مواجهة زادت عن عشرة اميال ، تفصلها عشرة اميال أخرى عن القوة التى
انتظمت فى تشكيل القتال هذه المرة . . . فلم يفصلهم عن امدرمان اكثر من
عشرين ميلا . امتطى السردار جواده يرفرف فوقه العلم المصرى وحوله اركانخره
والجميع فى انتظار فارس مسرع ينطلق عائدا حاملا خبر جيش الخليفة .

وكالعادة انسابت البوارج النيلية متقدمة الجميع حتى الفرسان والهجانة .
وهي التي اشتبكت الاشتباك الاول مع قوات الخليفة المتقدمة بقيادة يونس بعد
انضمام عبد الباقي له : بعد تجميعها استعدادا للتقهقر والانضمام للقوة الرئيسية في
الخلع . وقد استطاعت البوارج فتح نيرانها على قوات يونس وعبد الباقي التي
انتشرت في ثلاث مجموعات كثيفة متجهة شمالا . وأمد طرفها الايمن الى مسافة
ميلين من النيل . أما هجانة برود وود فقي أثناء استطلاعها المتقدم الى عمق
الصحراء . تمكنت من تبادل بعض الطلقات مع الطرف الأيسر من قوات عبد
الباقي . وسرعان ما نشطت اعلام الاشارة الصغيرة الملونة في خفقاتها السريعة لتنبئ
رئاسة السردار بأخر اخبار العدو .

لم تقطع قوات السردار أكثر من ثمانية أميال في ذلك اليوم . ومنذ الظهيرة
امر السردار بالتوقف في قرية السروراب ولم يسمح بالتقدم أكثر من ذلك ، فقد
أراد أن يوفر زمنا كافيا لاقامة حصن يقضى فيه ليلته حتى لا يباغته الظلام .
وراء العدو . وهو في العراء . لم تمض ساعات قليلة حتى امتلأ السطح بمئات
الخيام البيضاء التي نبتت فوق سطح الارض كالاشجار الصغيرة .

ومن تلك المسافة التي تجاوزت العشرين ميلا تمكنت عناصر استكشاف فرقة
الراحة من رؤية امدرمان وملتقى النيلين بالمنظار المكبر . ولكن السماء كانت
ملية بالسحب فلم يميزوا المعالم جيدا . وبدأت قطعة الأرض الضخمة التي تفصلهم
عن امدرمان خالية الا من بعض فرسان الخليفة كالنقط السوداء الصغيرة هنا وهناك .
الا ان عامودا من الدخان يشق الافق البعيد اوضح ان نقاط مراقبة الخليفة تمارس
واجبها بنشاط . وبعدها بدقائق اندفع عامود آخر خلفه عاليا هذه المرة من جبل
كررى ، أعلى هيئة طبيعية في تلك المنطقة ، وبعدها انطلقت بضعة نيران صغيرة
الذهب في خط شبه منتظم جنوبا نحو امدرمان .

أقام السردار زريبة سميكة هذه المرة . يتناسب سمكها مع المسافة الضيقة التي تفصله
عن عدوه العظيم . وللمرة الثانية في هذا الأسبوع كتب على جيشه أن يمضي ليلة
مزعجة . فمنذ الظهيرة تجمعت السحب منبهة عن ليلة ممطرة ، ولم يطل الانتظار
حتى فتحت السماء أبوابها وابواقها قبل منتصف الليل ، فبللت المياه الخيام واصمت

جلس السردار داخل خيمته وهو يغالب الأفكار التى تضطرم فى رأسه .
فما الذى يمنع الخليفة من الهجوم الآن ولا تفصله عنه الا بضعة أميال ؟ فذلك الليل
المظلم وتلك الفوضى باخفاء ضجة آلاف الجنود المتقدمين .

صحيح انه اتخذ كل الاحتياطات ، فقد شيد زربيته المعهودة واقتلت كل
مداخلها منذ مغيب الشمس . وبعث عشرات الاطواف خارج الزريبة وفى كل
الاتجاهات ولعدة أميال جنوبا لتوفر انذار مبكر فى حالة مباغتة العدو له . وانطلق
« اصدقاء سلاطين » فى دهمة الليل ليخطفوا فى الظلام للانصات . ولكن الرؤيا
كانت محدودة والسمع كان معدوما . وصحيح انه أمر كل الرتب بالنوم بملابسهم
كاملة وفى صفوف منتظمة واسلحتهم فى متناول اليد . . . ولكن كل ذلك لم
يكن كافيا . . . ولا يجدى فتىلا امام هجوم مباغت من العدو يختلط فيه الحابل
بالنابل وتحصد رشاشات ومدفعية السردار العدو والصدى على السواء .

ولكن الليلة مرت بسلام . وعندما بدأ ضوء الفجر الخافت بتسلل وسط خيام
المعسكر الهائل . . . تنفس كئشئ وونجت الصعداء بانتهاء ليلتهم المسهدة . . .
فهاهى كررى أمامهم . . . على بعد خطوات . ولا بد أن جيش الخليفة فى
انتظارهم فى الزمن المحدد والمكان المفضل . . . كررى .

• • • • •

أوضحت اللفظة التى سادت لمجة عبد الباقي فى تقريره الأخير يوم ٣١
أغسطس أن العدو أصبح على الأبواب . وسارع هو بعد تحريره الى الانضمام
ليونس فى جبل كررى ، ومنها انطلق لامدرمان لمقابلة الخليفة :

« ثم نعلم جنابه الشريف ان اعداء الله الكفرة المخنولين حضروا وثرأينا
معهم رأى العين ومافضل بيتنا وبيتهم الا الحرابه والحالة هذه نحن ومن معنا
من الاصحاب اجتمعنا مع المكرم يونس الدكيم وعيننا فيهم وهم مناظرين
الينا وحيث هذا منا يجب اعلام سيد الجميع خليفة المهدي عليه السلام
بالاسراع وخروج الجيش والرايات فقد رفعنا هذا الى مقامه الكريم فالمقصود

سرعة حضور جيش الاسلام اذ ان ساعة تاريخه نحن وهم في مسافة اللقاء
وانشاء الله مخلصين واينما يتوجهوا مهلكين سيدي والسلام . »

*** * * * *

التقدم

« القبة ينشأها من طين
وسنبنها من طين »

الخليفة عبد الله

استيقظ سكان امدرمان فجر الاربعاء ٣١ اغسطس ، على دوى النحاس وصفير الامايه معلنة بداية تقدم آخر جيوش المهدي نحو ميدان القتال . احتشدت الفرق المختلفة منذ طلوع الفجر بالجامع الكبير وفي القضاء شرق القبة . وفي تمام الساعة السادسة بدأ تحرك الجنود بالارباع لميدان العرضة في صفوف منتظمة ، كل صف مكون من اربعة جنود ، وامام كل ربع ركب امير الربع شاهرا سيفه ، بدأ التقدم بخطوات منتظمة على توقيع الموسيقى وعلى اناشيد عشرات الالوف « لا اله الا الله لا اله الا الله جودوا الكفار في شأن الله . »

كانت تعليمات قادة الارباع هي التقدم الى ميدان العرضة والتجمع هناك الى حين وصول الخليفة . وقد بدأ الباب الغربي للجامع الكبير يقذف الى شارع العرضة بأفواج البشر المسلحين منذ الفجر حتى الرابعة مساء . وفي منتصف الرابعة كانت الرايات قد اصطفت والامراء امامها انتظارا لوصول الخليفة .

خرج الخليفة من محراب القبة بعد الظهر . واتجه نحو باب منزله حيث امتطى جملة الابيض وادار عنائه غربا . وصرعان ما وجد نفسه داخل المربع المعهود الذي شكله حرسه الخاص . تدلت ذوائب عمامته الطويلة وارتركز حد سيفه الطويل على كتفه ، فقد حملة هذه المرة بنفسه ولم يكل أمر حملة لغلامه الحبشى . واخيرا وصل موكبه الى جيشه المصطف في هيئة الاستعراض . مماثلا لاصطفافه العادى كل يوم جمعة .

بدأ الخليفة جولته المعهودة امام جيشه واستقبله امراء ومقاتلو كل راية بالهتاف المعهود « ابشر بالخير » ورد هو على كل منهم بتلويح سيفه عاليا . فهاهو المقاتل

القديم يعود مرة أخرى الى ميادينه . بعد طول ابتعاد جاوز ثلاثة عشر عاما . فقد شهدته قواته آخر مرة لها في حصار الخرطوم . بدت آثار السنوات الطويلة من المشغوليات والمهموم والمسئوليات والاحداث العنيفة واضحة للأعين . فقد ترهل جسده وثقلت حركته قليلا ، وتخللت الشعيرات البيضاء لحيته وغمرت بشاشة وجهه القديمة مسحة من الانقباض وعلته تقطبية دائمة .

لقد كان ترتيب جيش الخليفة نفس ترتيبه في ايام العرصة عدا اختلافين بسيطين ، اعادة الراية الحمراء « راية الخليفة شريف » الى مكانها القديم . وانضمام قوات عثمان دقنه . اتخذ الخليفة على ود حلو اقصى اليمين « مكان محطة اللاسلكى الان جنوب المنطقة الصناعية » ورفرت خلفه الراية الخضراء . وازدحمت صفوفه بقبائل النيل الابيض دغيم وكناته محاربي المهدي الاوائل والذين لم يفارقوه منذ تجريدة ابو السعود بالجزيرة ابا عندما قهروا عدوهم فجرا بالسيوف والعصى والحجارة . وقد امتدت صفوفهم في مواجهة احتلت اكثر من نصف ميل . وعن يساره رفرت الراية الخضراء الغامقة الضخمة فوق عثمان شيخ الدين وقد غمره الزهو فقد كان قائدا لاكبر قوة في الميدان . وتجمع في مربعه الضخم اغلب السلاح الناري الذي غنمته المهدي في حروبها الدامية طوال خمسة عشر عاما . بنادق الشلالى ، وهكس ، وراشد ، ويوحنا ، وغردون . كما تكونت صفوفه من زهرة جيوش المهدي ، الجهادية السود والملازمين ابناء زعماء القبائل العربية . وعن يسار شيخ الدين وقف الخليفة شريف والراية الحمراء تعلوه مرفرفة فوق الجعليين والدناقلة حارسها . واخيرا فى اقصى اليسار تجمع رجال عثمان دقنه الذين قطعوا آلاف الاميال للادلاء بدلوهم فى اليوم الحاسم ، كان دقنه راجلا ولم تكن هنالك راية تميز رجال المهندوه الذين كانوا اول من وصل للميدان من ديم عثمان دقنه البعيد فى طرف امدرمان الشمالى . وخلف الجميع رفرت الراية الزرقاء كجيش قائم بذاته ولكن لم يكن اميرها يعقوب بالقرب منها . فقد تقدم يعقوب منذ رؤية موكب الخليفة واستقبله وكان اول من حياه « وبشره بالخير » وركب يمينه ومضى معه لاستعراض جيشه العظيم .

وبعدها اقتربت الصفوف حول الخليفة الذى توسطهم والقى خطبة نارية

حادثاً جنوده على الاستبسال فذلكم هو اليوم الفصل .

وقبل مغيب الشمس بقليل انتهى الخليفة من خطبته وأمر الأمراء بتجميع مقاتليهم والمبيت في ميدان العرضه استعداداً للتحرك صباحاً . ومضى هو إلى خيمته التي أعدت وسط المعسكر . كانت خيمة الخليفة هي نفس الخيمة التي تقدم بها الملك يوحنا نحو القلابات غازياً قبل عشر سنوات ، كثيرة الزخارف ، إلا أن الصلبان المطرزة أزيلت وحلت محلها الآيات القرآنية .

تناثرت خيام كبار الأمراء حولها حسب مراكزهم . أما بقية الجيش فقد توزع في الخيام في شكل نصف دائري هائل اتجه قوسه شمالاً . ولم تسع الخيام كل الجيش فاختلف الشكل المنتظم قليلاً بعد أن تبعثر الآف المقاتلين في فضاء ميدان العرضه للاحتماء من النسمات الباردة التي هبت منذرة بهطول مياه الأمطار التي غمرت أمدرمان في التاسعة مساءً .

وانتشرت هنا وهناك التيران التي أوقدها الجيش المحارب لطبخ عشاءه . فقد احضر كل منهم زاده من منزله ، عدا الملازمين وجنود الراية الزرقاء فقد صرفت لهم الذرة كمجموعة منذ الصباح الباكر وجلسوا جماعات وشلل صغيرة يتحدثون في انتظار العشاء .

امضى الخليفة الجزء الأول من ليلته تلك لم يقطع خلوته أحد خلاف الأمير عبد الباقي الذي ادخل عليه بعد وصوله مباشرة من كرري بعد أن انسحبت آخر نقاط ملاحظته . وجده منفرداً فقدم إليه تقريره الأخير عن العدو . وانصرف عبد الباقي ودخل عليه يعقوب وظلاً سوا إلى ساعة متأخرة من الليل . وبعدها أمر فادخل عليه مجلس شوراه وبسط أمامهم آخر معلومات عن تقدم العدو .

١١ ١٠ ٩ ٨

كان السردار يعلم أن جيش الخليفة ظل داخل أمدرمان حتى تلك اللحظة . وكان في رأيه أن اعظم الاخطار تحقيق بجيشه إذا وقف الخليفة وقفته الأخيرة داخل أمدرمان ، فبال تأكيد سترفع نسبة الخسائر إذا خاض معركته داخل شوارع أمدرمان الضيقة ، وفي ميادين قتال لا تتجاوز بضعة امتار موفرة للعدو فرصة مثالية للالتحام

والاشتباك يدا بيد في الدقائق الاولى من معركة يلعب فيها التفوق العددي والشجاعة العمياء الدور الاكبر - وبالتالي يقل تأثير اسلحته وتفوق نيرانها كثيرا ، وتنعدم الفرصة امام جيشه المدرب لاطهار كفاءته القتالية التي امضى سنوات مضيئة من التدريب يعدهم فيها لهذا اليوم .

صحيح ان كتشّر كان يعلم انه يستطيع ذلك ام درمان بمدفعيته في قصف تمهيدى يقذف فيه كل الذخيرة التي توفرت له . . . ولكنه كان يعلم انه نادرا ما كسبت معركة بنيران المدفعية . وحتى لو استطاع ذلك فلم يكن في مقدوره تجنب معركة التحامية في النهاية . ثم ان ام درمان بضخامتها وانتشارها كان من الصعب تغطيتها كلها بنيران المدفعية . واخيرا لم يكن ذلك ماتمناه كتشّر فقد امل حسب آخر معلومات قدمها جاسوس ونجحت الغامض في الليلة الماضية ان العدو سينتظره على ربي كررى وبالقرب من النيل وفي ارض قضاء تتوفر فيها ارض قتل مثالية لاحد ما انتجته مصانع بريطانيا ووفرته مدافع الاسطول من اسلحة التدمير .

فقد ذكر تقرير المخابرات رقم ٦٠ :

« لما كانت مصلحتنا تتمثل في خوض المعركة في ارض قضاء فقد ارسلت شعبة المخابرات بعض العملاء لاقناع الخليفة بأن فرصته الوحيدة في الانتصار كانت في التقدم واخذ المبادأة . وان يضربوا على نغمة ان العدو كان منتصرا دائما كما حدث في فرقة ودنقلا وابو حمد واتبره طالما كان الانتصار هم المدافعين . ولتذكيره بنبؤة قديمة للمهدي ان جيشا ضخما للكفار سيباد على ربي كررى . (١) ولكن الخليفة لم يكن بحاجة لمن يحثه ، فقد قرر قبلا التقدم لكررى ، وقد

As it was to our interest to fight the Khalifa in the open, special agents were sent by the intelligence department to Emirs who were known to be well disposed to the Government to cause them to convince the Khalifa that his only chance of victory lay in his taking the initiative. They pointed out that when ever the government troops had attacked as at Firket, Dongola Abu Hamad and Atbara they had been successful, they reminded him also of an old prophecy of the Mahdi that an advancing force would be attacked and defeated near Kerreri.

Sudan Intelligence Report 60-p 2

عسكر بقوته خارج المدينة استعدادا للتقدم . وعندما اجتمع مع مجلسه للتباحث الأخير اندفع اغلب من فى المجلس فى تأييده بالتقدم لكررى . لم يدم اجتماع المجلس طويلا فقد انفرط عقده قبل منتصف الليل . ولكن ظلت خيمة الخليفة مضاعة حتى الساعات الاولى من الصباح .

والواقع انه لو كان امام الخليفة فى تلك اللحظة طريقان لاثالث لهما ، وهما القتال داخل شوارع امدرمان الذى خشاه كمنشئ ، أو الخروج لمقابلته فى العراء فالواضح ان الخليفة كان سيختار الأخير . فجيوش المهدي لم تكن ابدا تلك الجيوش التى تقبع ساكنة داخل الازقة والبيوت فى انتظار عدوها . وطبيعتها وتسليحها حتم عليها ان تصبح قوة هجومية ، حتى دفاعها كان دفاعاً هجومياً . فهو جيش استمد خبرته وامجاده من الحركة . وحتى معاركه الساكنة ظاهرياً ، كعمليات الحصار الكبيرة مثل حصار الخرطوم والايض ، أو الكمائن ، كانت تنتهى دائماً بالمهجوم والتقدم . وجيش هذه شيمته ، يقارب اربعين الفا لابد له من ارض واسعة تمكنه من المناورة وتحقيق الصدمة الهجومية المطلوبة . والواضح ان الخيال العسكرى لخوض المعارك فى نظر قادة هذا الجيش الذى خاض مايزيد على الخمسين معركة كبيرة فى اقل من عشرين عاماً كان لايتعدى الهجوم أو الكمائن الانقضاضية المفاجئة ، والانتظار فى امدرمان لايمكن ان يحقق كينا مفاجئاً .

وتغيير تلك الفكرة تغييراً جوهرياً كان يستلزم الماما وتصوراً كافيين لطبيعة تسليح هذا العدو الجديد . والواضح انه عندما قرر الدفاع فى السبلوكه كان قد بدأ فى تكوين الفكرة الصحيحة عن ذلك العدو . وخصوصاً خطورة البوارج التى كان يخشى شرها للحد البعيد ، وما اضطر الى إخلاء السبلوكه الا مكرها . ولكن كان الدفاع فى السبلوكه شيئاً مختلف تماماً عن الدفاع داخل امدرمان . فطبيعة القتال فى السبلوكه تناسب تسليحه وطبيعة جيشه .

.. .. .

كيف كان مخطط الخليفة بالضبط لمواجهة عدوه عندما قرر التقدم والاصطدام به فى كررى ؟ لقد قرر خوض معركته الهجومية الكبيرة على طراز

شيكان ووضح هذا رأى وشرحه واتفق عليه مع قاداته .

وعليه (١) قرر تقسيم قوته الى قسمين . قسم نيران كونه ملازمة شيخ الدين هذه المرة كما مثله جهادية ابو عنجة من قبل فى شيكان . وقسم اقتحام كونت الجزء الاكبر منه الراية الزرقاء كما مثله ود النجومى من قبل . على ان ينتظر الخليفة العدو فى طريقه لامدرمان وقد قسم جيشه الى محورين يهجمان فى اتجاهين مختلفين : يتقدم الملازمون شمالا نحو العدو الى ان يصلوا الى المدى المؤثر لبنادقهم مع العدو ويفتحون النيران . اما القسم الثانى قسم الاقتحام من المشاة والفرسان والذى شكل زاوية قائمة مع القسم الاول فينفذ فجأة تحت سائر النيران ومن اتجاه الغرب على العدو وهو متقدم نحو امدرمان .

ولكن طبيعة الارض فى شيكان غيرها فى امدرمان ، فان حشائش واشجار كرددان كفلت سائرا لنيران جهادية ابو عنجة للتقدم وصب نيرانهم من اقرب مكان من العدو . كما ان جيش هكس كان جيشا يختلف تماما عن جيش كشنر تسليحا وعتادا وتصميما ، فكيف يتمكن من تنفيذ خطته وايصال عنصر نيرانه الى مكان قريب حتى تصبح نيرانه مؤثرة . . . الظلام يسدل استاره فيحجب الرؤيا ، وهو نفس الحل الذى وجده المهدي عندما هاجم ارض الخرطوم المكشوفة ، فقد هاجم فى الثلث الاخير من الليل . وحسب معلومات عبد الباقي الوكيل قدر الخليفة الزمن الذى يشتبك فيه مع العدو . على ان يبدأ الملازمون فتح نيرانهم طول الليل . وقبل طلوع الفجر مباشرة تنقض الراية الزرقاء والفرسان على العدو من اتجاه مختلف تماما عن اتجاه نيران الملازمين . كانت تلك الخطوة ماثلة تماما لمعركة شيكان - الجهادية بالجوانب يصبون نيرانهم من وراء سائر الحشائش والاشجار الى ان مكثوا عنصر الاقتحام بالسلاح الابيض من الاندفاع نحو العدو وابادته . وتنفيذ ذلك المخطط حتم على الخليفة توقيت تحركه من امدرمان كما حتم عليه التقدم باصطفاف معين .

فقد قرر ان لا يلتحم مع العدو قبل حلول الثلث الاخير من ليلة الخميس

وذلك القرار املى على الجيش توقيت التحرك واتجاه التقدم، واخيرا املى عليه إيقاف تقدمه على بعد خمسة أميال من العدو .

اما التكتيك الذى قرر خوض المعركة به فقد املى عليه اصطفاة تشكيل التقدم . والواضح ان الخليفة اذا اعتمد على نيران الملازمين كعنصر نيران يكفل لعنصر الاقتحام « الراية الزرقاء » غطاء وسانرا كافيا للتقدم والانقضاض على العدو، كان لابد له ان يفصلهما عن بعضهما البعض ليتمكن عنصر الاقتحام من التقدم والانقضاض من اتجاه مختلف يكفل لهم مسافة امان معقولة وغطاء نيران لا قرب مكان من العدو ويضمن عدم تداخلهم وتعرضهم لنيران الملازمين .

قد يبدو ظاهريا ان شيكان قد حسمت فى اقل من خمسة دقائق ولكن لم تكن تلك الدقائق الخمس هى كل شئ ، بل كانت اسابيع المناوشات واغلاق مضجع العدو وخسائره المتواصلة اثناء تقدمه المتعثر هى التى حتمت تلك النهاية السريعة ، خيول أبو قرجة فى تعقبها وملازمتها للعدو كظله لمئات الاميال . . . نيران ابو عنجة ليلا ونهارا . . . عشرات الافراد من جيش العدو الذين هجروا صفوفه وانضموا للمهدى سواء من المصريين أو الاوربيين حيث اعتصر منهم المهدى معلومات مفصلة طازجة عن أدق دقائق العدو .

لماذا لم ينبع الخليفة ذلك التكتيك مع العدو وظل ساكنا فى امدرمان ولم يظهر أى نوع من العدائية نحو العدو خلاف عناصر عبد الباقي ؟ هل لأن طبيعة المنطقة من عطبرة الى امدرمان لم تسمح بذلك ؟ أم لطبيعة تقدم العدو حين كان يقذف بستاره من قواته الراكبة لعشرات الاميال للاستكشاف البعيد ؟ أم لأنه لم يحبذ تجزئة جيشه وقرر الاحتفاظ به كله فى امدرمان ليخوض به معركته النهائية، وخشى ان دفع ببعض منه لمناوشة العدو ، أن يباد وتلحق به هزيمة نكراء تضاف الى قائمة هزائم جيشه الطويلة منذ ان بدأ هذا العدو الجديد فى التقدم قبل سنتين ؟ وخشى بالتالى اثرها على روح جيشه المعنوية وعزيمته ؟ وقد رأى بعينه منظر فلول محمود المقرزة وهى تعود لامدرمان . واحس بأثرها فى معنويات جيشه . لقد كانت تلك أحدى الفرص المفتوحة أمامه ، مناوشة العدو ، كل ليلة اثناء تقدمه الطويل من عطبرة حتى كررى كما نصحه عبد الباقي .

ولكن كان ذلك عدوا ذكيا لم يتقدم مجموعة واحدة كما فعل هكس ، بل كان يدفع امامه وغربه بقوات راكبه لاكثر من عشرة اميال للاستطلاع ، وبالتالي وفر عنصر انذار مبكر لجيشه لاحتياط وليستعد لكل خطر كل ليلة عند المبيت . وطبيعة المنطقة المكشوفة لعشرات الاميال غربا وجنوبا ستحرم أى قوة اكبر من قوة عبد الباقي من ان تناور وتباغت وتناوش كما فعل ابو قرجه مع هكس . وفوق كل هذا وذلك اصبح الخليفة حساسا بعد الهزائم المتواصلة من ناحية كفاءة قادته ، وفى داخل نفسه لم يكن يثق الا فى نفسه لقيادة كل جيشه لمعركته القادمة .

..

فى صباح الخميس الاول من سبتمبر وقف كل الجيش لتأدية صلاة الفجر وأهمهم الخليفة وتماوجت عشرات الالوف فى حركة منتظمة وهى تركع . . . وتسجد وتقف . أما التكبير فقد طغى على صوت الانفجارات البعيدة الصادرة من شاطئ النهر ، فقد بدأت معركة المدفعية بين الطوابي واسطول السردار النهري . ولم يقف الخليفة خطيبا كعادته بعد الصلاة فلم يبق مايقال . فالمدافع ستتكلم . وبعد الصلاة تجمع امراء الرايات حوله لاستلام اوامرهم الأخيرة قبل التحرك . ومن ثم انطلق كل منهم عائدا لقواته . وفى الحادية عشر وخمس دقائق خطا جواد الخليفة ، متبخرًا ، خطوته الاولى ، وعلى دقائق النحاس ووسط التهليل والزغاريد تقدم جيش الخليفة نحو كررى .

وقد وزع ذلك الفيضان البشرى الذى قاربت مواجهته اربعة اميال وعمقه اكثر من ميل على النحو التالى :

بفاصل تجاوز الميلىن من التجمع الرئيسى تبعثر اثنا عشر طوفا راكبا فى مواجهة غطت اكثر من خمسة اميال ، من الفرسان الذين سلحوا بالبنادق وكانت قوة كل طوف تراوح بين خمسة وعشرة فرسان .

وفى أقصى اليسار رفرفت الراية الخضراء . . . راية الخليفة ود حلوله وخلفها تجمع أربعة الف مقاتل فى اربعة صفوف بلغت مواجهتها نصف ميل . اما اكثف كتلة بشرية واعرضها مواجهة فقد كونتها القوة الضاربة الرئيسية للجيش . . .

الملازمون، وخلفها مباشرة تقدم قائدها شيخ الدين امام المربع الذى شكله حرسه الخاص .

أما الجناح الايمن فقد احتلته راية الخليفة شريف وتقدمت قليلا امام القوة الرئيسية . فلم يستطع الخليفة محمد شريف كبح حماسه فهو من اهل المهدي فقد ربطته رابطة الدم بالتأثر العظيم الذى تجسدت دعوته فى كل ذلك الجيش الضخم . بلغت مواجهة رابع الخلفاء ، واصغرهم سنا ، ستمائة متر فى تشكيل غير منتظم ادى الى امتزاج صفوفه مع القوة الصغيرة التى قدر لها ان تبرز صفاتا قتالية اخرى لجيش المهدي بجانب الشجاعة والتضحية والايمان المطلق بالهدف صفات العقل العسكري المدير الذكى تلك كانت قوة عثمان دقنة . . . ولم يكن موقعها فى اقصى اليمين بمحض الصدفة . فمنذ الليلة الماضية لفت عثمان نظر الخليفة الى خطورة ترك جناحه الايمن - جهة النيل - مكشوقا والطريق نحو امدرمان الحالية مفتوحا بدون حماية . فكان ان وضعت قواته لحماية طريق انسحابه وايقاف اى محاولة من جانب العدو للالتفاف حوله واحتلال امدرمان وطعنه من الخلف . وقد ظل ذلك واجبه حتى نهاية المعركة . وفى تلك النقطة برهن دقنة عن بعد نظر استراتيجى منقطع النظير . وكأنه كان يقرأ تفاصيل المعركة المقبلة فى كتاب مفتوح . فقبل مضى يوم وعندما وصل الراحة الى خور أبو سبط . . . ، وجدوا الثعلب القديم فى انتظارهم .

اما رئاسة كل ذلك الجيش فقد تكونت من موكب الخليفة وحرسه الخاص من الملازمين الذين بلغ عددهم الف رجل مسلح بالبنادق ، فقد اخذت مكانها مباشرة خلف مربع الملازمين . يليها احتياطي القوة بقيادة يعقوب وهم جنود الراية الزرقاء مئتين لثلاثة واربعين قبيلة من قبائل غرب السودان سلح أغلبهم بالاسلحة البيضاء . كان واجب يعقوب هو تعزيز وتقوية أى ضعف يظهر فى مواجهات الهجوم الامامية . كما كان واجب على ود حلو هو حماية الجهة الغربية أو جناح الجيش الايسر وحرمان كتنشر من ممارسة التطويق والقيام بحركة التناف حول ميسرة الجيش . وكان الخليفة حساسا من هذه الناحية ، فتقارير الوكيل اوضحت اكثر من مرة القوة الراكبة الضخمة المعادية التى كانت تتقدم دائما من جهة الغرب

وبدت من وجهة نظر الوكيل ، وبالتالي من وجهة نظر الخليفة ، وكأنها هي القوة الراكبة الرئيسية للعدو . فقد تركزت أغلب قوات كتشنر الراكبة « سبعة عشر سرية راکبة هجانة وخيالة برود وود » فى الجناح الأيمن بعيدا عن النهر . وتوقع الخليفة أن يتبع العدو تكتيكا قديما طالما مارسه القوات الاوربية ، وهو هجوم الفرسان على اجنحة الجيش واختراقها وتخطيمها ممهدة لهجوم المشاة على وسط العدو . لذلك خصص واجب حماية الجناح الايسر لعلى ود حلو ووفر له عنصرا راکبا قويا بلغ اربعمائة فارس لحماية الجناح الايسر للجيش من فرسان العدو . وهى قوة الفرسان الوحيدة التى شوهدت ككتلة واحدة .

وضع الخليفة قوات الراية الحمراء بقيادة الخليفة شريف وعززتها قوات عثمان دقنة لحماية الجناح الايمن ، واحتفظ عثمان دقنة أثناء تقدمه وهو فى اقصى اليمين بفاصل يكفل له مسافة امان معقولة من رشاشات العدو ومدفعية البوارج .

وفر تشكيل التقدم مجابهة كافة الاحتمالات . لكن لعل هناك خطأ عاما مينا برز فى كل صفوف الخليفة سواء فى الاجناب أو المقدمة أو الوسط أو الاحتياطي ، وهو عدم الاحتفاظ بفاصل ، ولو بضعة ياردات ، بين كل فرد وآخر ليقفل ذلك من اثر نيران العدو ، بل مضى الجميع وكتف كل مقاتل يكاد ان يلاصق كتف جاره . وبذلك وفرت المجموعات المتحركة اهدافا مثالية لأى نيران كثيفة من اسلحة ورشاشات العدو ولأى قصف مركز من مدفيعته ، اهدافا لا يحلم بها اى قائد فى أية ظروف . ولكن من الناحية الأخرى كان توسيع الفواصل بين قوات الخليفة يعنى انتشار جيشه الضخم فى مواجهة تتجاوز عشرات الاميال بحيث تصعب سيطرته عليها . والخليفة اعتمد حتى الآن على حيوية على الجبل ورسله الآخرين كعنصر المواصلات الوحيد للسيطرة على كل تلك الآلاف . وقد برزت تلك الصعوبة ، صعوبة السيطرة على وحداته المنتشرة اثناء المعركة ، وادت الى نتائج وخيمة .

ولكن كل تلك القوة التي توفرت لها كل العناصر لمعركة ضخمة فى القرن التاسع عشر كان لابد لها للقيام بأى واجب هجوميا كان أم دفاعيا ، من غطاء نيران قوى من مدى بعيد اين اذن كانت مدفعية الخليفة ؟

لقد خصص ثلث مدفعيته « ١٩ مدفعا » لميدان القتال للمعركة الارضية . ولكن اغلب مدفعيته اتخذت مواقعها داخل الطوابي فى الضفة الشرقية للنيل وفى توتى والمقرن وبعضها وضع على الضفة الغربية فى ام درمان لمواجهة اسطول كشتى النهرى . اذن فواجب المدفعية الاول هو اسكات مدفعية العدو . . . ومدفعية كشتى تركزت فى اسطوله النهرى .

تجمعت مدفعية الخليفة التى الحقها بحيشه المتقدم كجموعة واحدة يمين رئاسة الخليفة . حيث كانت تفاصيلها كالاتي :

أ - ثلاثة عشر مدفع جبلى

ب - مدفع كروب

ج - ثلاثة مدافع متراليوز

د - مدفع رمنجتون

هـ - مدفع فرنسى

كانت المدافع تُجر بواسطة الخيل والجمال وخلف كل مدفع تجمع عدد من الجمال لحمل الذخيرة التى وضعت داخل الجوالات واكياس سميكه من قماش الخيام .

..

فتحت ابواب زربية كشتى بالسروراب فى الساعة الخامسة صباحا يوم ١ سبتمبر وانطلقت كل قواته الراكبة فى المقدمة . وكالعادة انتشرت كتية الرماحة فى جهة اليسار ، جهة النهر ، بينما انطلقت اغلبية القوات الراكبة ، الفرسان والهجانة المصرية يمينا ضاربة فى عرض الصحراء ، ولم يمض زمن قليل حتى انتشرت فى شكل هلالى لحماية مقدمة وميمنة الجيش .

قطعت القوات الراكبة اكثر من ثمانية اميال قبل ان يتخذ مشاة كشتى

التشكيل النهائي للتقدم . وعندما تحرك الثعبان البشرى الهائل اخيرا . . . كانت القوات الراكبة بعيدة عن نظره واوامرها واضحة : استكشاف امدرمان وجيوش الخليفة . بينما انساب اسطول كتشنر النهري بفواصل اقصر قليلا من سابقتها واوامره واضحة ايضا . . . تدمير امدرمان وتحصيناتها واسكات مدفعية طوابيها على شاطئ النهر . الا ان ذلك كان يستدعى احتلال راس جسر المدفعية الهاووزر الثقيلة بعيدة المدى . . . وانسب راس جسر كان يمكن احتلاله هو الضفة الشرقية . لذلك امر الميجور ورثلي « قائد العربان الموالية » بالتعاون مع مدفعية البوارج لاحتلال الضفة الشرقية وتنظيفها ليتمكن المدفعية من احتلال مواقعها والبدء فى قصف امدرمان .

ما ان تسلق الرماحة القمة اليسرى لجبال كررى حتى ظهرت قمة المهدي فى الافق البعيد ، وامتدت امدرمان فى بقعة واسعة من الارض غربا وجنوبا . حجب جبل سركاب بقعة الأرض غرب امدرمان . ولكن خيالة بروود وود التى انطلقت غرب الرماحة استطاعت ان ترى المنظر كاملا . خيام معسكر الخليفة التى تناثرت كالبقع البيضاء هنا وهناك . . . الفرسان يتناوبون سقاء خيولهم من برك المياه المتخلفة من أمطار الليلة الماضية . . . التحركات الاولى لجيش الخليفة ليستظم فى تشكيل التقدم نحو كررى واطواف الفرسان المتقدمة التى فصلتهم عنها مسافة لاتزيد عن ميلين . ولما لم يتمكن ضباط الخيالة المصرية من رؤية تفاصيل جيش الخليفة تقدموا ميلا آخر واحتلوا قمة احد جبال المرخيات على بعد أربعة اميال من شاطئ النهر . ولكنهم سريعا ما اصبحوا على وشك الاشتباك مع اطواف فرسان الخليفة المتقدمة . ترجلوا عن جيادهم وبدأوا فى اطلاق نيران بنادقهم من مسافة ثمانمائة ياردة . وتمكنوا من اصابة فارسين من فرسان الخليفة — وترجل باقى الطوف وحمل احد المصابين وعاد ببطء نحو القوة الرئيسية . اوضح ذلك بجلاء جهل فرسان الخليفة بالمدى البعيد للبنادق الجديدة .

فى الساعة الحادية عشر والنصف طلب الكولونيل مارتن قائد كتيبة الرماحة من مركزه المتقدم فى قمة جبل سركاب من أحد قادة السرايا ارسال ضابط بجواد نشط . فارسل له قائد السرية الملازم ثاني ونستون تشرشل . وعند مقابلة قائد الكتيبة

طلب منه هذا دراسة الموقف جيدا والعودة والتبليغ للسردار مباشرة فى الخلف .
 حذق الضابط الصغير جيدا الى ان انطبع المنظر فى ذهنه وعاد مسرعا ليقطع الأميال
 الستة التى فصلت الرماحة عن رئاسة السردار وسط المشاة . لم يكن الملازم سعيدا
 بالمهمة . فقد كان الود مفقودا بينه وبين السردار . فقد رفض السردار انضمامه
 للحملة رغم عشرات الوساطات ، الى أن تدخل رئيس الوزراء شخصيا .
 فالسردار لا يطبق رؤية هذا الضابط الصغير الذى يؤلف الكتب وينقد الجحالات .
 ولكنه اسلم أمره لله وتقدم باحثا عن السردار . كان السردار مطرقا برأسه يرفرف
 فوقه العلمان المصرى والانجليزى ، عندما تقدم الملازم وحاذى جواده قائلا « سيدى
 الجنرال ، القوة الرئيسية للعدو على بعد سبعة أميال من هنا . . . وقد بدأ تحركه
 بعد الحادية عشر بقليل . . . » صمت السردار طويلا ثم سأل الملازم « انت تقول
 ان الخليفة يتقدم . . . كم من الزمن فى رأيك تبقى لى ؟ » فأجاب الملازم مسرعا
 « ساعة ونصف على الأكثر » فصرقه السردار والتفت مناديا الجنرال رندل رئيس
 الأركان .

عمليات الضفة الشرقية :

كان الامير عيسى زكريا يعلم منذ يومين ان اللحظة الحاسمة قد دنت . فقد
 افادته طلائع الفرسان المتقدمة بقرية الجعلى عن قوة كبيرة من الاعراب تتقدم
 بسرعة نحوه . كان موقفه حرجا - ففى البداية عين الامير احمد فضيل بكل جيشه
 للدفاع عن الضفة الشرقية ، وبدلا من جيش فضيل البالغ عدده ثمانية آلاف مقاتل
 مسلحين كلهم بالبنادق ، وجد عيسى نفسه مسئولاً عن كل ذلك القطاع وعليه
 ان يدافع عنه بالف وعشرين رجلا وثلاثمائة بندقية ومدفعين فقط . وقد ارسل
 فى البداية ليشراف على الطواحي على ان يتبع لاحمد فضيل عند وصوله . ولكن
 عندما طال انتظاره لاحمد فضيل عبر النهر لمقابلة يعقوب وبسط مشكلته امامه
 موضحا مسئولياته المتضخمة :

- أ - فهو اولا سيواجه قوة ارضية تزيد عن الثلاثة آلاف مقاتل .
- ب - عليه ادارة معركة المدفعية ضد اسطول العدو النهري بالاضافة لقيادته
 لطايبى توتى .

ج - واخيرا كان عليه ان يقطع خط اتصال العدو بقبائل البطانة والنبل الأزرق .

وقد اقنعه يعقوب بان قوة العدو المتقدمة من الشرق ليست كبيرة وأغلبها مسلح بالسيوف ، اما العدو الرئيسى الذى اوشك على الاقتراب فهو العدو المتقدم غرب النيل - على اية حال سيهرع يعقوب الى مساعدته بمجرد الانتهاء من امر هذا العدو ثم ان احمد فضيل سيصل قبل المعركة بالتأكيد .

عاد الامير عيسى وبدأ يخطط لانشاء دفاعه ليناسب تحقيق واجباته المختلفة . وقد وجد عيسى امامه طريقين لخوض معركته الدفاعية . فهو ان دافع على النيل وفى الطوابى فسيجمع قوته ويصبح الدفاع سهلا ومتماسكا . ولكنه سيجد نفسه بين نارين ، العدو الارضى من جهة ، والبوارج من جهة أخرى ، وقد استمع مثل كثيرين غيره لاقاصيص من نجوا من معركة عطبرة عن النيران الهائلة التى تقذفها هذه البوارج وعن « المكنة » و « القلعة الحديدية » التى تقذف بالرصاص ليكنس الأرض وما عليها . فخير تشييه وصف به جيش الخليفة طقطقة رشاش المكسيم هو صوت القلعة ذات الفوهة الضيقة عندما ينسكب الماء منها . وان حاول تجنب البوارج وانحاز بعيدا عنها ودافع من رئاسته الحالية فى قرية الصبائي التى لا تريد عن بضعة بيوت ، فهو معرض لخطر التفاف العدو حوله من جهة النيل وقطع الاتصال بينه وبين الطوابى .

واختار الامير عيسى اهون الشرين وقرر ان يدافع بفرسانه ومشاته فى قرية الصبائي وان يعزز الطوابى بجزء من قواته المسلحة بالبنادق . وعليه وزع قوته كالآتي :

- أ - الحق عشرين مقاتلا تحت قيادة ود فايت قائد طابية شحبات
 - ب - وضع عشرين مقاتلا تحت قيادة جوده قائد طابية الصبائي .
 - ج - تحصنت القوة الباقية من المشاة داخل منازل قرية الصبائي .
 - د - وضع ثلاثين فارسا فى القضاء جنوب القرية وسط الاشجار .
- وأمر قادة الطوابى بالانسحاب والانضمام اليه اذا وجه الهجوم نحوهم .

تقدمت البوارج المدرعة « السلطان ، الناصر ، الملك ، الفاتح ، الشيخ ، وطماى » منذ القجر لتدعم تقدم الميجور ستوارت ورثلى بنيرانها . وبعد مقابلة قصيرة بين الميجور استوارت والكمندور كيبيل على شاطئ النهر نسقا خلالها العملية المقبلة ، عاد استوارت لرجاله وشرح لهم خطته بناء على المعلومات التى تحصل عليها من استجواب الجهادية الذين اسروا فى قرية الجعلى قبل يومين ، على أن يتم الهجوم على الاغراض الاربعة بثلاثة محاور :

المحور الأول بقيادة الشيخ ابراهيم ود فرح « ٨٣٠ مقاتل » بجذاء النيل لمهاجمة الطوابي من الخلف تساعده نيران الاسطول .

المحور الثانى « ٦٠٠ رجل » لمهاجمة قرية الصبايى هجوما مباشرا حيث تجمع أغلب رجال الامير عيسى .

أما المحور (١) الثالث فقد وضع تحت قيادة ميسرة الزبير باشا للتقدم بعيدا عن النيل والالتفاف حول الامير عيسى ليقطع طريق انسحابه .

بدأت المعركة سعت ٧٤٠ . فقد اصبحت البوارج النيلية فى مرمى نيران مدفعية عيسى . فامر الطوابي بفتح نيران المدفعية عليها واغراقها . اما طابية شمبات ، فقبل ان تتمكن من اطلاق قذيفة واحدة ، انهالت عليها ست قذائف من البارجة المتقدمة اصابها اغلب اطقم المدافع ودمرت المدافع نفسها . وبعدها انهمرت عليهم نيران الرشاشات فى ضرب منتشر على مواقع البنادق على اجناب الطابية . وبينما كانت البارجة المتقدمة فى لحظات الاشتباك الاخير مع طابية شمبات ولا زالت رشاشاتها تسلط نيرانها على مشاة الطابية ، فتحت طابية الصبايى نيرانها ، واستطاع مدفعها الوحيد فى الدقائق السبعة الاولى اطلاق ثمانية قذائف سقطت كلها فى النيل حول البارجة . وبعدها تمكنت البارجة من تحويل مدافعها نحو طابية الصبايى واستطاعت تدميرها بعد اطلاق خمس طلقات ، فقد كان التصويب مضبوطا والهدف قريبا ، وطواقم المدفعية من رجال الاسطول البريطانى المدرب .

تقدم الشيخ فرح بجذاء النيل واحاط بقرية شمبات ووجدها خالية . فانعطف غربا نحو الطابية التى كانت تبعد ميلا واحدا عن القرية ، ولكن اميرها ود

فايت ومن بقى معه من الرجال « ثمانية رجال والبقية أما اصببت اثناء القصف أو انضمت لعيسى في بلدة الصبائي « سلموا للشيخ ابراهيم فقد كان قريباً له ثم تقدم رجاله نحو طابية الصبائي .

اما غالى جودة قائد الطابية فقد جمع رجاله بعد تدمير الطابية والمدفع واتخذوا ساترا طبيعيا خلف بقايا واحجار الطابية المتناثرة وبدأوا فى اطلاق بنادقهم على رجال الشيخ فرح المتقدمين . دارت معركة عنيفة استمرت لعشر دقائق قرر بعدها غالى جودة الانسحاب والانضمام لعيسى حسب الاوامر . فجمع رجاله وحاول التسلل مستترا ببضع شجيرات ولكن الشيخ فرح شعر بهم فلاحقهم وتمت ابادتهم .

وزع الامير عيسى رجاله داخل خمسة منازل فى القرية بواقع مائة رجل فى كل منزل . ووضع مثنى مقاتل تحت قيادته فى اكبر المنازل وتسلق بعضهم اسطح المنازل أو اتخذوا مواقعهم خلف السور . اما من كانوا داخل الغرف فقد ثقبوا فى الجدار ثغرات (مزغل) واسعة ليتمكنوا من اطلاق بنادقهم . اما الفرسان فقد شهبوا رماحهم ووقفوا على استعداد خلف المنازل .

فى التاسعة صباحا شوهدت طلّاع المحور الأوسط بقيادة الميجور ستوارت تتقدم نحوه . وضع عيسى خطة سريعة لمجابهة الهجوم . وهى ان يمسك نيرانه وعند اقترابهم منه يدفع نحوهم بالفرسان ، وبعدها يفتح نيرانه المفاجئة من جنوده المستترين داخل المنازل على العدو بعد ان ترغزهم هجمة الفرسان . وعندما اصبح الميجور ورثلى على بعد اربعمائة ياردة ، اشار الامير عيسى بيده من النافذة الخلفية للغرفة التى وضع بها رئاسته لقائد الفرسان ، فاندفع الفرسان من داخل القرية فى هجمة يائسة وشجاعة نحو العدو . افلحت هجمة الفرسان فى اللحظة الاولى فى اختراق صفوف الميجور ورثلى . وتمكنت من طعن ثلاثة افراد من قوته وتشتت قوته فسحبها فى غير نظام . انتشر الفرسان لتعقب العدو المنسحب . لكن الشيخ ابراهيم ظهر من التل يلقي برماح مسرعا لنجدة استيوارت بعد ان اباد قوة طابية الصبائي . فتنبه قائد الفرسان الى موقفه الحرج فهو بين نارين ، الشيخ ابراهيم من جهة التل ، ورجال ستوارت الذين للموا انفسهم واشتدت عزيمتهم مرة اخرى بعد رؤية النجدة . فجمع فرسانه وكر عائدا الى القرية لينضم الى الامير عيسى .

واخيرا تقدمت المحاور الثلاثة نحو القرية - ابراهيم ود فرح من الغرب - ورثلى من الوسط - وميسرة الزبير من الشرق . ومن مسافة مائة وخمسين ياردة فتح عيسى نيرانه على العدو المتقدم ودارت معركة عنيفة بنيران البنادق تمكنت فيها نيران عيسى من ايقاف تقدم العدو لأكثر من اربعين دقيقة ، فقد كانت نيرانه كثيفة مضبوطة والمدى قريبا فتسمر الهجوم . وبعدها التف رجال الشيخ ابراهيم حول القرية وتسلفوا اسطح المنازل بعد اشتباك سريع مع المدافعين فوق السقوف وتمكنوا من اجلائهم عنها وثقبوا سقوف المنازل ووجهوا نيرانها من اعلا الى داخل الغرف مما ادى الى تزايد خسائر المدافعين واضطراب نيرانهم الموجهة نحو العدو المتقدم ، فقد كانوا يواجهون رصاصا مضبويا من اعلا ونيرانهم لاتستطيع الوصول الى مصدره . كما لم يستطيعوا الخروج من مكمنهم الحصين لتنظيف السقوف . انتهز الميجور ورثلى غطاء النيران بالحديد فدفع برجاله نحو المنازل وتمكنوا من اقتحامها ودارت معركة غير متكافئة بالسلاح الابيض فقد فيها الامير عيسى اكثر من مائتي مقاتل وتم اسره .

أخذ الامير عيسى الى احد البوارج لتقله تحت الحراسة لتسليمه لادارة المخابرات لاستجوابه - ولكن احد حراسه اخرج مديته وطعنه طعنة قاتلة (١) فانفعل الملازم ستيوارت لفقد هذا المصدر الثمين للمعلومات وقضى برصاص طبنجته على قاتل الامير عيسى . وانتهت بذلك عمليات الضفة الشرقية .

اشتملت مسئولية سيد جمعة على قطاع كبير ، فبالاضافة لمسئوليته كقائد لاجلب مدفعية الخليفة على الضفة الغربية « ٢٦ مدفع » كان مسئولاً عن قطاع يبلغ

(١) ذكر شقير ان عيسى قتل أثناء المعركة كما ذكر ذلك في تقرير الميجور ورثلى Cairo/int 1/61/322 بدار الوثائق . ولكن يسأل الشيخ أحمد النور أحد الذين اشتركوا في المعركة وخرجوا احياء تؤيد المذكور اعلاه أى أنه قتل في النهاية بعد استلامه وبديل أن جسده سلمت لعائلته في امدرمان وتم دفنها في امدرمان . ويؤيد ذلك تقرير طانيوس شحاده موظف المخابرات الموافق للميجور ورثلى Sudan intelligence App.7 الا انه لم يذكر الجزء الخاص بقتل حارسه على يد الملازم ستيوارت .

شقير ١٠٩١

Intelligence Report N. 60 A 6

استجواب الشيخ أحمد النور - العباية ١٢ يونيو ٧١ .

طوله ٦ اميال . وضع تحت قيادته الفئ مقاتل مسلحين بالبنادق . وقد مر في الصباح الباكر مرورا سريعا على ظهر جواده للتأكد من ان كل شئ على مايرام . وعاد مسرورا فقد وجد اوامره قد نفذت حرفيا . فوهات المدافع تبرز من الفتحات داخل الطوابي ، اكنداس الذخيرة في متناول يد الاطعم ، الرجال وقفوا خلف التحصينات وبنادقهم مصوبة نحو النيل .

وعند ظهور بارجة العدو المتقدمة « السلطان » فتحت طابية شمبات الغربية ، اقرب الطوابي ، مدفعيتها على البارجة . سقطت اربع قذائف على مسافة خمسين ياردة من البارجة ، واطلقت نيران البنادق ولكن اغلب الطلقات سقطت بعيدا عن البارجة التي اجابت بفتح المدفعية سريعة الطلقات . لم تسبب نيران البوارج ضررا كبيرا فقد اطلقت نيرانها على عجل وكان الغرض منها تمكين البارجة الفاتح من التقدم جنوبا تحت ستار النيران لتدمير اهدافها .

وحسب الاوامر التي صرفها الكمدور كليل كان ترتيب الاهداف من حيث العجلة والاهمية كالآتي : أ - تدمير قبة المهدي ب - تدمير حائط ام درمان كتمهيد للقصف المركز على مدينة ام درمان اذا قرر الخليفة تحصن بها ، وبالتالي اجبر السردار على اقتحام تحت غطاء كثيف وقصف عام لكل المنطقة ج - اسكات طوبي الخليفة .

حددت اوامر السردار ، حسب نصيحة شعبة الاستخبارات ، تلك الاسبقيات - فالكونيل سلاطين كان يلح دائما على اعطاء قبة المهدي الاسبقية الاولى في التدمير . فقد سلخ ثلاثة عشر عاما من عمره على بعد امتار منها . وشاهد ملايين السكان الذين قطعوا مئات الاميال ليحجوا اليها . وادرك قدسيته والهالة التي تحاط بها واصر على أن تصبح اول هدف . وقد رسم مخططا كروكيا لكل مدينة ام درمان ، موضحا كل الأماكن الحيوية لتقصف بعد القبة . بيت المال - بيت الامانة حيث تكدست الذخائر والمواد الناسفة المتفجرة - ثكنات (١) الملازمين - بيت الخليفة . . الخ - وبناء على معلوماته تلك اعد اركان حرب السردار خطة

(١) أنظر الخريطة رقم ٤ « عمليات الضفة الشرقية » .

كاملة لقصف ام درمان قصفا تمهيدا لاقتحام المدينة . وبناء عليها ارسلت بطارية الهاوترز الثقيلة مزودة بذخيرة تستخدم لأول مرة صممت خصيصا لتدمير الاستحكامات والمباني ، وكل افرادها من سلاح المدفعية البريطاني . وحم ذلك الواجب - قصف مدينة ام درمان - وضع الاسبقية التالية وهى تدمير أو احداث ثغرات كبيرة فى حائط المدينة العالى الذى حجب المدينة وعشرات الالوف من المدافعين خلفه . وعليه كان واجب الكمدور كيبل الرئيسى بالتعاون مع الميجور ورثلى هو احتلال بقعة من الارض وتأمينها ليتم انزال بطارية الهاوترز .

وما ان فتحت الطابية الاولى نيران مدفعيتها على البارجة المتقدمة حتى اصدر يوسف جمعة اوامره لكل مدفعية الشاطئ بفتح نيرانها . فقد شاهد كل قطع الاسطول تحاول التسلل وتجاوزه بعيدا نحو الجنوب لجهة الخرطوم ، عدا بارجتين توقفتا بعيدا ووجهتا نيرانهما على الطوابي واطلقنا بضعة دانات لتصحيح المسافة . سرعان ماغطى دخان المدفعية كل ضفة النيل لامتداد اربعة اميال واشتبك كل قطاع سيد جمعة فى مبارزة عنيفة بنيران المدفعية . اصيب اغلب اسطول كيبل بشظايا مدفعية الخليفة ، ولكنها لم تسبب ضررا يذكر ، ماعدا قذيفة واحدة اخترقت درع البارجة « الفاتح » فى اصابة مباشرة .

بلغ عرض النيل الفا واربعمائة ياردة ، مما اعطى مجالا اوسع للاسطول لتنفيذ عملية الضرب مع الحركة المائية . فقد تسلت البارجة التى حملت بطارية الهاوترز جنوبا تحت غطاء من نيران البوارج المتقدمة . وفى الفترة التى إستغرقتها لإنزال البطارية والهاوترز على الضفة الشرقية بحذاء توتي ، كانت معركة المدفعية قد بلغت قممتها . واشتبكت بطاريات سيد جمعة فى معركة غير متكافئة مع بوارج الاسطول . وعبثا حاول سيد جمعة ايصال داناته الى البوارج التى استغلت عرض النيل واقت مراسيها بالقرب من الشاطئ الشرقى ، وبذلك اصبحت خارج مدى مدفعية الخليفة الذى لم يتجاوز الف ياردة فى احسن الاحوال .

ولكن مدفعية البوارج لم تترك اثرا يذكر ، فالمدفعية سريعة الطلقات ومدفعية ١٥ رطل على الرغم من دقتها لم تصب الطوابي السميكة المنيعة الابتدمير جزئي ولم تتمكن من اسكانها وتدميرها تدميرا كاملا ، الا بعد ان تم انزال بطارية

الهاوترز . وقد ظلت مدفعية الخليفة مسيطرة على طول الشاطئ حتى الساعة الثالثة ظهرا . وبعد ان تم تأمين الضفة الشرقية تقدم الكمدور كيبيل واحتلها وتم انزال بطارية الهاوترز في راس جزيرة توتي الشمالى حسب المخطط القديم ، ولكن الاسطول والمدفعية وجدت نفسها فى متناول مدفعية الخليفة التى وجهت نيرانها نحو الجزيرة مما اضطر كيبيل الى انزال البطارية فى الضفة الشرقية وقد وجد انه لازال فى المدى المؤثر للقبة . وقد ظلت نيران سيد جمعة كثيفة وبدون توقف لأكثر من ثلاث ساعات مما اوضح انه وفر لبطارياته كبات ضخمة من الذخيرة ، وهو الأمر الذى ادى الى تطور المعركة لغير صالحه فى النهاية .

فشراسة مدفعية سيد جمعة ونشاطها المحموم أجبرت قائد بطارية الهاوترز على اجراء تغيير رئيسى فى اسبقيات اهداف بطاريته ، فلم يكن من الممكن ابدا البدء فى قصف القبة والسور ، وبطاريته تحت وابل من نيران الطوابي . وبمجرد ان احتلت المدافع مواقعها ، وجهت نيرانها على طوابي الشاطئ الغربى . كان المدى ٢٥٠٠ ياردة والتصحيح ممكن ومؤثر فبدأ اسكات الطوابي واحدة بعد الأخرى . ولايعزى الاسكات والتدمير فى المكان الاول الى قدرة دانات الليدايت شديدة الانفجار بقدر مايعزى الى حقيقة أخرى . فحرص سيد جمعة على توفير اكبر قدر من الذخيرة فى متناول يد طواقم المدافع لضمان استمرار المعركة ، ارغمته على وضع ذخيرته كلها داخل الطوابي ولم يوزعها على نقاط امداد متتالية بعيدة عن متناول نيران العدو لتضمن له امدادا متواصلا بالذخيرة ، وفى نفس الوقت تجنبه تعريض ذخيرته ، وبالتالي حياة اطقم مدفعيته لانفجار الذخيرة . وهذا ما ادى فى النهاية الى سلسلة من الانفجارات داخل الطوابي وسط ذخيرته نفسها ادت الى ان اصيحت الطوابي نفسها مصيدة للموت . فقد تطايرت قطع الاحجار والاعضاء البشرية (١) واجزاء المدافع عاليا فى الهواء فى اربعة طوابي . وعندما مالت الشمس

(١) لاحظ الكاتبين من Capt Milne قائد ثانى بطارية الهاوترز ذلك بعد ان تفقد أثر النصف فى ام درمان بعد المعركة . وقد طلبت القيادة العليا البريطانية تقريراً مفصلاً عن أثر دانات الخمسين رطل من الليدايت Lyddite على المباني وعلى الأفراد . فقد كانت تلك أولى مرة تستخدم فيها فى المعركة وكان استخدامها كاختبار للدانات نفسها . وعند زيارة الطوابي لاحظ أن أثر دانات سيد جمعة التى انفجرت داخل الطوابي أثناء المعركة كان أكبر أثراً من دانات الليدايت .

Cairo/int 1/61/322 دار الوثائق .

Arty Report.

غربا كان نشاط مدفعية الخليفة قد خف كثيرا الا من بعض الانفجارات هنا وهناك .

.. ..

تسلى أغلب صبية امدرمان اسطح منازلهم فى صبيحة ذلك اليوم ، كان بينهم الصبية ، عبد الله عبد القادر ، وامين احمد شرفى ، وموسى يعقوب . فقد صرفهم استاذهم مبكرا ليعودوا الى منازلهم للاحتماء داخلها . ولكن مشاهدة المعركة كانت أكثر اغراء . ومن مكانهم ذلك تمكنوا من رؤية تفاصيل معركة الضفة الشرقية بين الامير عيسى « والكفار » بوضوح . وعلى أية حال فمنازلهم قريبة ويمكن الجرى سريعا والاحتماء بداخلها . ولذلك لم ينصرفوا بعد الدرس لحفظ الألواح بل تأبطوها معهم . وعندما تعالى صوت الانفجارات وازداد عنف المعركة سرعان ما نسوا امرها

اما فضاء الجامع فقد بدأ يكتظ بالكثير من النساء والاطفال الذين اخلوا المنازل القريبة من الشاطئ بعد أن هددتها نيران المدفعية . انضمت لهم فلول المدفعية الذين انسحبوا بعد تدمير مدافعهم . واكتظ صحن الجامع نفسه بمائة وثمانية عشر شخصا (١) .

اما القبة ، الهدف الرئيسى لبطارية الهاوتوز ، فقد ارتفع رأسها شامخا فى سماء امدرمان لاكثر من مائة قدم . وذلك الارتفاع عززته قاعدة مربعة احاطت بقبر المهدي . بلغ سمك الحائط ثلاثة اقدام . اما سمك القبة نفسها فقد تجاوز القدمين والنصف . وقد اتخذت القبة كنقطة شهيرة وهدف فى نفس الوقت . وفى

(١) بينما قدر المرحوم محمد عبد الرحيم عدد من كانوا بالقبة أو حولها بألف شخص . نجد أن نيوفيلد الأسير الألماني ذكر للكاتبين ملن عندما تفحص القبة بعد تدميرها ان عددهم كان ١١٨ شخصا داخل الجامع - توفي منهم ١١٢ نتيجة للذاتة الثانية . ولا يدري أحد كيف تمكن نيوفيلد من تقديم هذا الاحصاء الدقيق فى تلك اللحظات الحرجة الا أن يكون قد تمكن من احصاء من خرجوا من الأحياء ساعة اندفاعهم وهم قلة واضافها لعدد الجثث . «عل الرغم من أن نيوفيلد كان داخل السجن إلى أن انتهت المعركة ولم يكن السجن محاطا بسور .. بل كان بقعة أكواخ طينية محاطة بخرية» . أو الاحتمال الثانى ان يعقوب أبو زينب ، محافظ امدرمان أثناء المعركة ، قد أجرى تماما لقوته داخل الجامع فى الصباح - فقد كان الجامع مقرا لورثاسته .

الساعة الثالثة وعشر دقائق انطلق صغير الدانة الاولى زنة خمسين رطلا تشق النيل الى هدفها الاول . وعندما دوى صوت الانفجار الهائل بعد اصطدامها بالارض ، خيم السكون لثوان قصيرة . وبعدها انطلقت الصيحات من الجموع المتدافعة للخروج من مصيدة الموت . وعندما انفجرت الدانة الثانية داخل الجامع انفجرت بالضبط وسط التجمع البشرى . وفي اقل من ثانية اصبح مائة وثمانية عشر شخصا كتلة من الدماء والاذرع والعظام ، ولم يخرج منهم حيا سوى ستة اشخاص فقط ، اما البقية الباقية ، فلم تنقل جثثهم الا بعد ايام من الحادث ، وبعد قصف الجامع اختفى الصبية من اسطح المنازل واتجهوا غربا بعيدا عن الموت المصوب .

ثم توالى القذائف على القبة نفسها وفي عشر دقائق تمكنت القذائف السبعة من احداث ثغرة رأسية كبيرة طولها اكثر من عشرين قدما وعرضها اثني عشر قدما وبلغ قطرها اكثر من ثلاثة اقدام . أما القذيفة الحادية عشر فقد اطاحت بسبعة اقدام من طرف القبة المدب فاصبحت مسطحة ، وتمكن جيش كتشنر ، والخليفة على السواء ، من رؤية اثر التدمير من بعد اكثر من سبعة اميال .

.. ..

لقد كان تقدم جيش الخليفة منتظما . . . عدا الراية الصفراء التي تقدمت قليلا عن باقى القوة . . . اما احسنها نظاما فقد كانت المقدمة التي تمكن كتشنر من رؤيتها من قمة جبل سركاب . . . كان ذلك ربع ابراهيم الخليل . قد غطت الاعلام التي دلت على السرايا والارباع والكتائب الصفوف الامامية . وفي الساعة الثانية عشر والنصف عاد الطوف الذى أشبك مع خيالة بروود وود يحمل جرحاه ومثل قائده امام الخليفة الذى استجوبه استجوابا سريعا .

تقدم جيش الخليفة بنفس الترتيب الى ان تجاوز خور شمبات . وفي الساعة الثانية وخمس دقائق امر الخليفة بايقاف التقدم . توقف الجيش وبصبيحة واحدة هتفوا مكبرين وافرغوا بنادقهم فى الهواء ، وفي لحظة واحدة غطى دخان البنادق اربعة اميال من مواجهة الجيش المنتشر .

وبعد الساعة الثانية بقليل امر الخليفة امراء الرايات بالثول امامه . ووقف

وسطهم على صهوة جواده ووصف لهم بإشارة من يده موقع كل راية واتجاهها .
وانصرفوا على ان يتوقعوا لإستلام اوامرهم منه بعد قليل ، وعلى ان يظل جنودهم
فى استعداد تام وفى نفس التشكيل القتالى . انطلق الامراء كل عائد الى جنوده . .
وبعد قليل ماج السهل الفسيح بتحركات الجيش الضخمة لاتخاذ المواقع النهائية .

اتخذ الخليفة رئاسته - داخل خور شمبات نفسه وانتظر عثمان دقنه برجاله
داخل منخفض الخور بعيدا عن الاعين . اما الراية الحمراء فقد تقدمت قليلا
امام رجال عثمان دقنة . واختار الخليفة شريف شجرة ظليلة غرس رايته امامها .
اما عثمان شيخ الدين فاتخذ موقعه جنوب غرب جبل سر كاب يسار الخليفة فى
مواجهة امتدت لمسافة لم يتمكن الجبل من تغطيتها عن انظار زربية كتشير ، فبدت
فرقة شيخ الدين الضخمة واضحة للاعين . ولكنه غير من تشكيل المربع الى تشكيل
منتشر حيث اصطلقت قواته فى اربعة صفوف بفاصل مائة ياردة بين كل صف .

اما على ود حلو فقد اتجه شرقا مباشرة فى اتجاه زربية كتشير إلا ان ثنايا
وتعرجات الارض اخفت رايته عن عيني السردار . كان طرف جناحه الايسر
يبعد خمسمائة ياردة من نهاية جبل سر كاب الغربية وامتد تشكيله شمالا فى مواجهة
بلغت ميلا . وضع الخليفة ثلاثة من مدافعه فى السفح الشمالى للجبل « لم يصل معه
الى ارض المعركة الا خمس قطع فقط اما البقية فقد تركت أو قرر الخليفة اعادتها
لامدorman . اما المدفعا الباقيان فقد تركا فى الخلف مع الراية الزرقاء .

لماذا امر الخليفة جيشه بالتوقف على بعد ستة اميال من العدو ؟ لقد قرر وقف
تقدمه لأن التوقيت الذى حدده لم يحن بعد ، وليس هناك تفسير آخر ، فلو كان
يرغب فى معركة نهائية لكان فى امكانه خوضها ، فلا زالت هناك اربع ساعات
متبقية قبل مغيب الشمس ويمكن خوضها فى ظروف مناسبة للغاية له . فالعدو
متحرك وليس مدافعا أو متحصنا خلف زربية عالية أو خنادق عميقة . وان لم
يتحرك فهو لازال فى لحظات الارتباك التى تحيط دائما بانشاء الدفاعات وحفر
الخنادق . ولو كان هدفه الانتظار لصباح اليوم التالى لما شهدت تلك الليلة عدة
محال كما سئرى ولما اتخذ ذلك التشكيل - فلم يكن تشكيل مبيت ، بل تشكيل
اقتحام .

كانت الالوف قد استقرت اخيرا على الارض الرطبة المبتلة . وعلى الرغم من الاوامر المشددة بأن يظل كل شخص فى مكانه لم يستطع المقاتلون السيطرة على فضولهم وبدأت الجماعات تتحرك لمرتفعات جبل سركاب لمشاهدة معركة المدفعية . وعندما ظهر الشرخ الطويل فى القبة فى البداية بدأت الاصوات تخفت قليلا قليلا . ثم ارتفع الدوى المكتوم لاصوات الانفجارات البعيدة . . . ثم غطى الغبار والدخان القبة لدقائق بدت دهرا . . . ثم انجلى الغبار وظهرت القبة مرة اخرى . . . ولكن رأسها المدبب بدى مسطحا فقد اطيح برأسها . عندها خيم الصمت الثقيل على الالوف « وحدث خجل وسكات طبعى وسط الجيش » كما ذكر يوسف ميخائيل .

لقد شاهد الخليفة المنظر من رئاسته وهتف قائلا « لاحول ولا قوة الا بالله . . هدموا القبة ولم يخافوا الله » : ولكنه تمالك نفسه بسرعة وعندما بدأت أصوات الاضطراب والهلل ترتفع زجرهم قائلا : « القبة بنيناها من طين وسنبنيها من طين » .

ليلاً... أم نهاراً؟

« الكفار أنا طاعتهم كان
اديتوني ارباع شيخ الدين
اسلمكم جنائزهم الصباح . »

الأمير ابراهيم الخليل في مجلس
الحرب الأخير . .

في بداية الأمر لم تكن الاجابة المتوقعة على هذا السؤال التاريخي، والتي اثبتت الاحداث انها قررت وحسمت مجرى المعركة، لم تكن الاجابة أبدا ليلا، أم نهارا. بل كانت الليل المبكر أى الآن، أم الليل المتأخر أى قبل فجر الغد. ولكن سير الأمور والمجالس التي انعقدت في ذلك اليوم العاصف هي التي حتمت أن يكون السؤال هو: الليل. أم وضح النهار.

ولعلنا نذكر ان توقيت تقدم الخليفة من امدرمان وخطته التي شرحها لقادته، واخيرا توقف جيشه عند خور شمبات، كانت كلها اجراءات اتخذت لتمكن جيشه من خوض معركته الليلية.

وقد دعا الخليفة مجلسه الاستشاري للانعقاد في عصر يوم الخميس للاستشارة الأخيرة قبل صرف الأوامر بالمهجوم. وعقد الاجتماع في رئاسته بخور شمبات وهؤلاء كانوا بعض ممن حضروه:

الخليفة على ود حلو - الخليفة محمد شريف - الأمير يعقوب - الأمير يونس الدكيم - الأمير احمد عبد الكريم - الأمير جابر الطيب - السيد المكي - الطيب العربي - عبد القادر ود ام مريوم - كر كساوى - عبد الله ابو سوار.

وكان اول المتحدثين بعد أن اذن لهم الخليفة بالحديث هو الأمير جابر الطيب احد امراء الدناقلة المسنين « على مابلغنا ياسيدى ان الجماعة ديل خايفين. واحسن تدبير الحرب أسى دى بالليل وماترجى الفجر وناوشهم بالليل. ان ربنا ناصر دينه

يبنتصر . » والتفت الخليفة متسائلا فوافق عليه وايده احمد عبد الكريم ويعقوب وبعدها حدثت شبه موافقة اجماعية على مبدأ الهجوم الليلي المبكر بتعديل طفيف فى الخطة الرئيسية «.... سمح ... كلكم متجامعين عليه ؟» . . . فاجابوا بالايجاب . فوافق عليه وأرسل لاستدعاء شيخ الدين والامراء قادة التشكيلات

• • • • •

فى ليلة الثلاثاء ٣٠ اغسطس تقدم الشيخ خوجلى ومحمد احمد عبد الله ود سره الى مقدمهم بطلب اذن غياب لمدة يومين للذهاب لقريتهم العجيبة واخلائها والعودة بالعوائل لامدرمان - فاستشار المقدم رأس الميه ، ورفع هذا الامر الى وكيل الراية الذى وافق على الاذن بالغياب على أن يعودوا مسرعين . فحتى ذلك الحين لم تشتم نية صرف اوامر نهائية بالتجمع والتقدم ولازال الوقت متسعا . ولكنه منعهم من اخذ أى خيول أو جمال لتنقل الامتعة بل يتركون الخيول ويذهبون للعجيبة ليعودوا بعوائلهم راجلين . فعلى أى حال المسافة قريبة وهو مستعد لتحمل مسئولية غيابهم ، ولكن غياب الجمال والخيول مسئولية خطيرة - وبعد مشى متلكئ وصلوا القرية وامضوا ليلة الاربعاء مع عوائلهم . وأصبحوا الصباح وامضوا يومهم فى التسكع وتجميع ماخف حمله من الاثاث والاخشاب التى سيبينوا بها رواكيب مؤقتة لايواء عوائلهم فى امدرمان لحين نهاية المعركة . وعندما انتهوا وتأهبوا للتحرك جنوبا لامدرمان تعالت الانفجارات فجأة وسط القرية . مزقت احداها بقرة الكباشى عرفو . وعندها تجمعوا بسرعة للتحرك بعيدا عن جهة النيل ، ولكنهم وجدوا أنفسهم محاطين بخيالة الرماحة الذين اسرعوا واسروهم واخذوهم لمقابلة رئيس شعبة المخابرات ونائبه الكولنيل سلاطين .

• • • • •

لقد تقدم السردار مسرعا نحو عدوه منذ الصباح الباكر وقد قرر أن يصل امدرمان ويحسم المعركة قبل حلول الظلام ، وطفحت نفسه سرورا عندما شاهد العدو يتقدم نحوه وأمل فى معركة سريعة فى وضح النهار وبالقرب من النيل حيث تمدد اسطوله الضخم . وقد سار مجرى الاحداث حتى هذه اللحظة سيرا حسنا

واصبحت مخاوف رئيس مخابراته في الايام الماضية بدون مبرر . فمنذ ثلاثة أيام أوضحت له شعبة المخابرات ان خطة الخليفة تدور حول محور مهاجمته ليلا ، مما دفع به الى اتخاذ احتياطات عديدة طوال الليالي السابقة . ولكنه شاهد بعينه تقدم الخليفة وعاد مسرعا لتنظيم دفاعه منتظرا هجوم العدو في ظروف لم يكن ليحلم بأحسن منها .

ولكن هاهي المخاوف تتجدد ، فقد ابلغته كتيبة الرماحة عن توقف العدو على بعد خمسة أميال . وبذلك تأكدت نية الخليفة بالهجوم ليلا . فقد ذكر تقرير المخابرات (١) :

«لقد كان توقف جيش الخليفة على بعد خمسة اميال في عصر الاول من سبتمبر تأكيدا قويا للانباء التي بلغت للسرदार بأن الخليفة قرر أن يهجم ليلا .»

عقد ونجت اجتماعا سريعا مع كشنر وسلاطين لبحث الامر . ووضحت على الفور الاخطار التي سيتعرض لها جيش كشنر اذا قرر الخليفة الهجوم ليلا أو على الأقل مع بداية حلول الظلام . فان تفوق نيران اسلحة كشنر التي وضع تأثيرها في عمليات الصباح ضد مدفعية ومشاة الخليفة على شاطئ النيل سيقل كثيرا ان لم ينعقد في معركة لا يتجاوز فيها مدى الرؤية لرشاشات ونيران المشاة أكثر من اربعمائة ياردة . بالطبع كان بإمكان السردار استخدام الانوار الكاشفة للوابورات لتلقى اضواءها القوية امام الزريبة طول الليل ، وان يأمر فصيلة المهندسين باطلاق الطلقات المضئية . . . ولكن كل هذا لن يجدى فتىلا مع أربعين ألف مقاتل اشتهروا بالشجاعة والاستماتة ، وسائر الظلام سيتيح لهم الفرصة للتقدم وراء الجبال الى اقرب مدى . . . الى بضع مئات من الزريبة الرهيفة ، والى دفاعاته التي لم يكتمل تجهيزها حتى هذه اللحظة . ولم يكن من المتوقع ان تتمكن اسلحته ونيرانها من اباداة اربعين ألف مقاتل صفا وراء الآخر في بضع دقائق وتحت ضوء الوابورات

“It was again reported to the Sirdar on the 1st. September that the Khalifa contemplated attacking the expeditionary force by night, and the fact that the dervishes halted early in the afternoon within 5 miles of our Zeriba seemed to render this eventuality extremely probable.”

الخفاف بين ظلال الجبال . ولقد قلب الامر كثيرا فى كيفية التصرف فى جيشه الضخم اثناء الظلام . هل يجمعهم فى مربعات صلبة متماسكة يصعب اختراقها ؟ أم يتركهم فى ذلك التشكيل النصف دائرى لانتاج أكبر كمية من النيران الامامية فى جميع المواجهات ؟ كان هذا هو الطريق الذى قرر اتخاذه اخيرا وانتهى به واجبه كفائد للقوة . وبدأ واجب ونجت وسلاطين كرجال للمخابرات ، وها قد دنت اللحظة التى يمكن ان تعوض مئات الالوف من الجنيهاات التى صرفها قلم المخابرات .

فقد كان واجب ونجت هذه المرة أكثر تعقيدا واشد حساسية بالنسبة للنجاح النهائي للحملة . فالمجال ضيق ، فليست هناك مئات الأميال ، أو عشرات الطرق المهجورة لتسمح بحرب المخابرات ، أو الأخذ والرد مع العملاء ، وأخيرا كان هناك عامل الزمن ، ذلك البعد الحاسم وهو يمضى مسرعا نحو الليل . وما قد يحمل فى طياته من قصة اباداة جيش التبل مع صيحات الوف المحاربين وأستهم الباترة وهى تعمل يمينا ويسارا وتكرر رواية شيكان والخرطوم . لقد أصبحوا جميعا تحت رحمة قرار واحد من ذلك الرجل الملتحي الذى وقف على رأس جيشه لاي فصلهم عنه الا خمسة أميال .

ويبدو ان سلاطين كان هو المخطط للخدعة الكبرى . وتنفيذها كان يستلزم اتصالا مع الخليفة وبأى وسيلة . بدأ البحث عن شخص يمكن أن ينفذها ، فكان ان امرت كتيبة الراحة فى المقدمة بالحصول على اى اسير مهما كان الثمن .

.. .. .

تقدم رجل اوربي يرتدى بذلة كولونيل من محمد احمد عبد الله والكباشى عرفو وحياهم بلسان عربي طلق . وسرعان ما تعرفوا عليه . عبد القادر ملازم الخليفة والذى كان يسير دائما بالقرب من جواد الخليفة . سألم سلاطين عن مكان الخليفة فأجابوه ان الخليفة خلف الجبل مع جيشه فطلب منهم الذهاب الى الخليفة وتبليغه الآتي : « ان يستعد جيدا وان لا يترك ميدان القتال ويفر فان السردار سيتقدم اليه غدا قبل الفجر بجيوش لا طاقة له بها . وان تقدم هو فالسردار مستعد له كل

الاستعداد . « ثم أطلق سراح محمد أحمد عبد الله والكباشي وتركهما يذهبان إلى معسكر الخليفة وأخذوا للمقابلة يعقوب الذي سألهم بعض الأسئلة ثم أخذهم للخليفة وكرروا له ماقاله سلاطين وسألهم عن العدو واستعداده . وأوضحوا له مكانه بالضبط ووصفوا الغبار المتصاعد من جراء عملية حفر خنادق الفرقة المصرية . فأمرهما بالعودة وجمع معلومات أكثر والتسلل وأخبره بها . وعاد الرجلان إلى معسكر السردار ولكنهما قيذا وأرسلا تحت الحراسة لاحدى البوارج (١) .

(١) هناك أربعة روايات عن تلك الحادثة تلتقى أحيانا وتتناقض أحيانا أخرى . هناك أولا رواية أبطال القصة أهالي العجينة أنفسهم وهي ما ذكرت أعلاه وتطابق لحد كبير رواية « عبد الله » غلام الخليفة الذي استجوبه . جاكسون في بربر يوم ٩ أبريل ١٨٩٩ . ثم هناك رواية ونجت في تقرير المخابرات رقم « ٦٠ ص ٥ » وأخيرا رواية جاكسون في كتاب Osman Digna لقد ذكر عبد الله عند استجوابه .

“During the night two men came in, stating that the turks had dug a very deep trench hoping that the Khalifa will attack them, fall in and be slaughtered, that if the Khalifa did not attack, the turks intended attacking the Khalifa before dawn”.

« في ليلة المعركة قابل رجلان الخليفة وأبلغاه أن العدو قد حفر خندقا عميقا حتى إذا هاجمه الخليفة سقط جنوده في الخندق وتمت إبادةهم . أما إذا لم يهجم هوفسيهجم السردار قبل الفجر » كما ترى تكاد هذه الرواية تطابق رواية ود سره وكباشي عرفو . أما رواية ونجت في تقرير المخابرات الرسمي فكانت كالآتي :

“An attack by the Khalifa at night, when the superiority of our weapons will be to a great extent nullified was to be avoided if possible and with this object natives of the neighbourhood of Omdurman were sent into the Khalifa camp to report to him that the Government troops had received orders to advance and attack him during the night. This had the desired effect, for on the receive of the news the Khalifa assembled all his relatives and Emirs to consult them on the subject. At this meeting which took place during the 1st September it was decided not to make a night attack.”

« أن تفوق أسلحتنا سيخفف لحد بعيد إذا هجم الخليفة ليلا . ولذا كان يجب علينا منع الخليفة من تنفيذ ذلك القرار بأي ثمن ومن ثم أرسلنا بعض أهالي القرى المجاورة لأم درمان ليبلغوه أن جيش السردار قرر التقدم والهجوم عليه أثناء الليل . وكان لهذا الإجراء الأثر المنشود ، فبمجرد أن بلغه سارع وعقد مجلسا ضم كبار الأمراء وبعض أقربائه . وقد تقرر في ذلك الاجتماع الذي عقد في عصر يوم الخميس إلغاء هجوم الليل والانتظار حتى صباح اليوم التالي . »

قبل سغيب الشمس وبعد ان وثق الخليل من توزيع ارباعه تسلق قمة جبل
سركاب وشاهد زربية كشنر أثناء لحظات النشاط الاخيرة التي سبقت حلول
الظلام . . . الديديانية ازواجاً ازواجاً امام الزربية . . . الغبار المتصاعد من حفر
الخنادق . . . الفرقة الانجليزية وهي تكس الشجيرات الشوكية امامها . وعندما
كسا الظلام المنطقة انحدر الخليل شرقاً يرافقه اثنان من الجهادية ومكث مدة طويلة
الى ان بدأت الضجة الصادرة من الزربية تنحفت تدريجياً ومن ثم كر عائداً الى مواقع
جنوده في خور شمبات حيث اخطر ان الخليفة يسأل عنه ، ومضى من هناك
لمجلس الخليفة .

انعقد مجلس الخليفة لقادة التشكيلات وحضره كل من :

يلا حظ أولاً الاختلاف الواضح في توقيت عقد المجلس فبينما ذكر عبد الله ان الرجلين قابلا
الخليفة أثناء الليل فيستحيل ان ينعقد المجلس في العصر أى ان الاجتماع الذى حدث نتيجة لمعلومات
الاهالى عقد قبل وصول هذه المعلومات .

ثم ان المنطق يستد رواية غلام الخليفة . فلو كان هناك أثر لخديعة ونجت على الخليفة ومجلسه
فقد كان الجزء الخاص « بحفر الخندق العميق » أكبر أثراً من « تقدم العدو » فهو بالطبع يخشى الهجوم
على نقطة تدافع دفاعاً قوياً أكثر من الهجوم على قوة تتقدم في العراء وفي الليل وقد رأينا قبلاً ان خطته
بنيت على الهجوم على العدو وهو متقدم وهذه النقطة لم يتطرق اليها تقرير المخابرات اطلاقاً . وتقرير
المخابرات المذكور أعلاه نشر وطبع بعد المعركة . ولكن يومية المخابرات لم تنشر قط .

أما رواية جاكسون وغالباً استقاهها من سلاطين فهى « تقدم سلاطين وذكر للاهالى انه تقديراً
لحسن خدماتهم التى أدوها لجيش الحكومة قرر ان يخبرهم بسر على أن لا ييوسحوا به لأحد وهو ان
السردار قرر التقدم ليلاً والهجوم على امدرمان وتدميرها ونصحبهم بالا سراع واخراج الهوائى من
امدرمان وتحذير كل من يستطيعوا الوصول اليه من جيش الخليفة ليحذوا حذوهم على أن لا يخبروا
أحدًا غير ذويهم . »

ان عبارة « تقديراً منا لخدماتكم لجيش الحكومة » توضح بأن الرجلين كانا قبلاً فى « خدمة
جيش الحكومة » ويتفق لحد ما مع التقرير الرسمى الذى يشى بأن الاهالى ارسلا ، وهذا يخالف قول
ود سره والكياشى من انهما وقعا فى الاسر قبل ارسالهما وعند عودتهما وضعا تحت الحراسة مرة أخرى .
ومن الثابت ان كل المنطقة شمال امدرمان اغليت من الاهالى الذكور وكان اخلاؤها احد واجبات
الأمير عبد الباقي . ومن الثابت أيضاً ان أى شخص قادر على حمل السلاح كان من ضمن الجيش خارج
امدرمان ، تعرض لسؤال عسير من رجال عبد الباقي ولما هو اسواء كما رأينا فى تقاريده .

الامير يعقوب - الامير عثمان دقنه - الامير احمد عبد الكريم - الامير عبد الله ابو سوار - الامير شيخ الدين - الامير ابراهيم الخليل - الامير يونس الدكيم - الامير عثمان ازرق - عثمان الدكيم - ومحمد ود بشاره .

ولا يمكن الجزم كيف افتتح الخليفة مجلسه ، ولا إلى أى مدى اثرت فيه معلومات « ود السره والكباشى » عندما اتخذ القرار النهائي . وهل بسط المعلومات كعادته منتظرا تبلور النقاش نحو رأى محدد ، أم أوضح منذ البداية ميله إلى ترك هجوم الليل - المرجح ان الاحتمال الأول صحيح والا لما استغرق المجلس زمنا طويلا . على انه من الثابت ان ابراهيم الخليل كان اول المتحدثين ، وقاد الاتجاه المنادى بالهجوم فوراً أى فى الليل المبكر . وعارضه شيخ الدين منذ البداية وقد تفجرت الحساسيات بينهما ، واذكت ناراها الخلافات القديمة .

فقد قال الخليل : « الكفار انا طالعتم . . . كان ادينونى ارباع شيخ الدين اسلمكم جنائزهم مع الصباح » - وهو يقصد ان يبدأ الهجوم بنيران الملازمين تحت قيادته فى حوالى منتصف الليل ، وتستمر العملية إلى ما قبل الفجر حيث يقتحم باقى الجيش زريبة السردار . والواقع ان ابراهيم الخليل لم يقتصر على تقديم الاجابة لسؤال الساعة ليلا ام نهارا فقط ، بل قدم خطة متكاملة . وهى نفس الخطة القديمة مع تعديل يناسب الوضع الراهن ، وهو توقف وانشاء العدو لدفاعه وحفر خنادقه . وذلك ما اضعف موقف ابراهيم فى المجلس لحد بعيد ، واثار حفيظة شيخ الدين ، فهو اولا سيتولى قيادة العملية وليس شيخ الدين ، وثانيا سيضع تحت قيادته بنادق شيخ الدين . ثالثا ضرب ابراهيم على نعمة تفوق العدو الساحق من حيث قوة النيران بحيث يستحيل مهاجمته نهارا . وركز على نيران البوارج التى رأوا اثرها المدمر اليوم فى الطواحي والقبة .

ثم التفت الخليفة لباقى المجتمعين فتحدث عثمان دقنه حديثا طويلا ختمه مؤيدا هجوم الليل « والله الانجليز انا اعرفهم خمسة عشر عاما والراى النجيص نداوسهم بالليل . غير حرب الخدعة مافى شئ ينفع معاهم » وجلس عثمان والمجتمعون ينظرون اليه باعجاب . . . فالرجل لا يتحدث عن هوى ، بل عن خبرة استمدت عبر سنوات طويلة من القتال المرير ضد حامية سواكن ومع مربعات

والخليفة حتى ذلك الحين لم يشاهد ولا جنديا انجليزيا واحدا عدا جثة هكس ورأس غردون . وكان لا يفرق كثيرا بين الدول فالجميع يبض الوجوه «ترك» . وكان اكثر الجميع انبهارا بحديث عثمان دقته واستمع اليه مبتسما . ثم تحدث عثمان ازرق مؤيدا رأى الخليل ودقته . والتفت الخليفة الى شيخ الدين الذى كان عن يمينه ، وعندها تحدث شيخ الدين حديثا طويلا فى شبه خطبة حماسية بدأها « ارباعى انا مابديها » ثم علل وجهة نظره بعدة نقاط « اليمسك العرب ديل فى الليل منو ؟ » يقصد اهل الغرب من الراية الزرقاء ورد عليه الخليل محتدا « انا بيمسكهم » وتجاهله شيخ الدين واستمر فى تنفيذ هجوم الليل مركزا على النقاط التالية : (١)

سيقبل اثر السلاح النارى فى مثل هذه الرؤية . « وكان هو يعتد بالطبع بنيران الملازمين ورغبته الطبيعية فى أن تلعب وحدته « الملازمين » الدور الرئيسى فى هزيمة العدو وان يعود فخر النصر اليهم . والظلام لن يمكنهم من تحقيق ذلك » .

(١) لم أتمكن بالطبع من أخذ أقوال أى من حضر المجلس فقد توفوا كلهم . ولكنى اعتمدت على أقوال الشيخ أمين أحمد شرفى الذى استمع لها من خاله أحمد عبد الكريم أمير أمراء الراية الصفراء الذى اشترك فى المجلس . وإلى رواية السيد موسى يعقوب بن الأمير يعقوب الذى استمع لها من الأمير يونس الدكيم والأمير اسماعيل أحمد الذى اشترك فى المجلس أيضا . تكاد الروايتان تنطبقان حتى فى الالفاظ التى ذكرت أعلاه . هناك عشرات من الروايات السماعية التى تتحدث عن ما دار فى هذا المجلس . وهى تورد عبارات وأقوال متفاوطة ولكنها تتفق اجماعيا على الخلاف العنيف بين شيخ الدين والخليل داخل المجلس وبعد انفضاضه . على أن العبارة التى قالها أبراهيم الخليل غاضبا يائسا وهو ينفخ جلبة « الخير فيما اختاره الله لكن نصره ما فى » ذكر الكثيرون انه قال « المهدية مهديتكم لكن انحنأ قدنا بنسده . « أى الامر لكم لكنى ساؤدى واجبى . كما تؤيد رواية الأمير عيسى ود الزين الذى استجوب فيما بعد الرواية المذكورة اعلاه جزئيا :

“I arrived in Omdurman on Tuesday before the battle of Kerreri which was fought on Friday.

I had an interview with Khalifa on the night before the battle, it was raning hard, and the Khalifa after greeting me, said that my men were to fight under Yaccub and the black flag. We had a council of war. Khalil Ahmed, Mohamed's brother urged a night attack, but Shekh El Din said that it was not the custom of Mahdiya to make surprise attack.

« وسنهجم صباحا بعد صلاة الفجر ولن نكون مثل الفيران والشعالب تدخل ابحارها بالنهار وتمرق بالليل . »

والواضح ان شيخ الدين كان يقدر قوته النارية اكثر من حقيقتها . وكان يرغب فى معركة صباحية لنفس أسباب كتنشر . وهى الرؤية الجيدة لاسلحته النارية التى ظنها العنصر الحاسم فى نجاح المعركة أو فشلها . وبدأ النقاش يطول حتى تطور الى مشادة كلامية بين (١) الخليل وشيخ الدين انتشر اثرها فى كل الصفوف وتناقلها الجنود حتى ادنى الرتب . صمت الخليفة طويلا ثم قال : « الخير فيما اختاره الله . . نداول الصباح بعد الصلاة . »

انفض المجلس ونفض الخليل جلبابه فقد كانوا جلوسا على الأرض ، وقال للمجتمعين وهم يتفرقون عائدون إلى مواقعهم « الخير فيما اختاره الله . . . لكن نصره مافى . . »

.. ..

وقبل ان نتحدث عن الاسباب التى دفعت الخليفة لاتخاذ قراره التاريخى ، لابد لنا هنا ان نعيد تقييم كفاءته العسكرية ومقدرته القيادية بالنسبة لخصومه ، وبالنسبة لزمن المعركة - نهاية القرن التاسع عشر - ومطلع القرن العشرين .
والواضح ان ملكة الخليفة الاستراتيجية كانت حتى تلك اللحظة اقل ما توصف به انها . . . سليمة وعملية . . . فعلى الرغم من الاخطاء الشنيعة التى

J.A.Reid

Acting Governor of White Nile Province.

Interrogation of Isa Wad El Zein, Wakil of Kordofan.

Sudan Notes & Records, VOL IX, No. 2 (1926)

« وصلت امدرمان يوم الثلاثاء قبل المعركة التى حدثت يوم الجمعة . وكانت السماء تمطر بشدة وقابلت الخليفة الذى أمرنى بالقتال فى صفوف الراية الزرقاء بقيادة يعقوب . عقدنا مجلس حرب . وكان الخليل أحمد يلح فى الهجوم ليلا ، ولكن شيخ الدين اعترض قائلا ان الهجوم المفاجىء ليس من عادة المهديّة . »

(١) حتى الشيخ بابكر بدرى الذى اشترك كجندي عادى فى الراية الزرقاء وصلت اليه أنباء الخلاف بين شيخ الدين وال خليل فكما ذكر « جاتنا بالليل أوصاف ترتيب الجيش . وقالوا هجوم الليل بطل بسبب الخلاف بين الخليل وشيخ الدين . »

وقع فيها برفضه الدفاع عن السبلوكة واخيرا الهجوم نهارا الا اننا نلمح هنا وهناك كثيرا من المنطق والمبررات . ولكن المهم هنا هي خلفية الخليفة العسكرية منذ المعركة الاولى التي خاضها عام ١٨٨١ ، حتى مساء يوم ١ سبتمبر . فكيف اثرت تلك الاحداث طوال العشرين عاما في مقدراته كقائد قوة في الميدان "Field Commander" وهو أمر يختلف اختلافا كبيرا عن تقييمه كمصمم ومنفذ لاستراتيجية عظمى "Grand Strategy" .

الغريب ان الاثر السلبي لتلك الفترة ، كان اعظم وقعا من الاثر الايجابي . بمعنى ان ما لم يفعله أو يراه الخليفة يبدو اكبر اثرا مما شاهده . فعدم قيادته لاي قوة طوال فترة حكمه حرمت حرفته العسكرية من ادراك الكثير عن تطور الاسلحة والتكتيكات . فقد كان آخر عهده ببنادق هكس البطيئة والمدافع الجبلية وهي كلها تقريبا قصيرة المدى . كما لم تتح له الفرصة لتقييم أثر رشاشات المكسيم وحجم نيرانها الهائل وهي تكنس الارض يمينا وشمالا ولا البوارج المدرعة واطقم مدفعيتها الذين اختيروا من صفوف مدفعية الاسطول البريطاني المتفوقة على مدفعية اقوى الدول الاوربية - دحك من مدفعية الخليفة . ولم تتح له الفرصة لتقدير اثر دانات المثار "Sharphel" على المشاة وشظاياها الكثيفة تنهمر فوق رؤوس المشاة لتختفي بعدها صفوفهم من وجه الأرض - بل كان آخر عهده بالمدفعية ذات المدى القصير والدوي الهائل وبضعة شظايا تقتل بضعة جنود . ولم يعرف ذخيرة "Case Shot" خرطوشة شظايا « ذات الاثر الماحق الفعال على تجمعات المشاة والفرسان في المدى القصير . واخيرا لم يكن يعلم ان الهجوم المباشر في وضوح النهار وبدون غطاء نيران قوى اصبح شبه مستحيلا بعد ادخال بنادق « لى متفورد » ومقدرتها على انتاج كمية كبيرة من النيران المصوبة . ثم ان العدو الذي اختبره قبلا كان يختلف عن العدو الذي يواجهه الآن فالجيش المصرى الحديث كان يختلف عن جنود هكس خائرى العزيمة الذين لا يجيدون شيئا غير القاء اسلحتهم واستجداء الرحمة من اعدائهم فهذا جيل جديد لم تمسه حساسيات شعور النفي والانتحار الاجبارى ، طعم بنخبة ممتازة من اقوى جيش فى العالم فى ذلك الحين وانتظم فى صفوفه المقاتلين السود الاشداء .

ومن الناحية الأخرى كان الخليفة حساسا من ناحية قدرته على السيطرة على قواته ، مصرا على إدارة الهجوم بنفسه وتحت عينه . وكان يعلم اثر شخصيته وأن مجرد وجوده بين الجنود كفيلا بتحقيق الكثير بحيث يتمكن من إدارة المعركة بالطريقة التي يرغب في سيرها . والظلام كفيلا بحرماته من تلك الميزات . ولا بد ان تقيمه لقادته الحاليين كان له وزن كبير ، فلم يكن يثق في مقدرتهم على تنفيذ اوامره بالطريقة التي يريدونها . ومن الصعب ترك مصير المعركة بين أيادي قادته كلية وهو ماسيفرضه عليه الظلام وهم قادة غير مجربين . فعثمان شيخ الدين ليس ابو عنجه الذي ترك بين يديه جيشا ضعفا جيشه الحالي ليختفى به وراء جبال الحبشة وعثمان ازرق ليس ود النجومى لقد مضى زمن القادة الذين برهنوا على كفاءتهم واستأذبتهم فى قيادة وتحريك المجاميع الكبيرة .

والجنود أنفسهم ليسوا احسن حالا من القادة . فجهادية شيخ الدين على الرغم من تدريبهم ونظامهم إلا أنهم اختلفوا كل الاختلاف عن جهادية ابو عنجة المتمرسين . واغلب صفوف الراية الزرقاء اكتظت بالقبائل الغريبة التي على الرغم من انه لايشك فى شجاعتهم وولائهم اطلاقا ، الا انه يشك كثيرا فى امكانية ضبط تصرفاتهم ودخولهم المعركة كجيش نظامى . وله مبرر فى ذلك ، فمحمود ود احمد لاقى الويل واشتكى كثيرا من عدم خضوع هؤلاء لأى نظام أو قوانين . لذلك قبل ان تكون المعركة تحت عينه وبصره وتوجيهه المباشر ، وهو لاشك يعلم ارتفاع نسبة الخسائر فى تلك المعركة ، لكنه رغب فى معركة كبيرة حاسمة ينتهى فيها الى الابد - مهما كان الثمن غالبا - من هؤلاء الغزاة الذين دقوا باب عاصمته اخيرا . وآخر ما كان يرغب فيه هو معركة يتيح فيها للعدو فرصة الانسحاب واعادة تنظيم قوته وبالتالي اعادة ازعاجه مرة اخرى فقد كان غرضه الابداء الكاملة ولم يكن غرضه تحقيق نجاح وقضى او احتلال زربية فارغة ، وهو ما سيحققه هجوم الليل على احسن الفروض فى نظره . فها هو العدو داخل زربيته ، وخلفه مباشرة البوارج النيلية لتنتقله فى انسحاب سريع ، لا يدري احد الى أين ، المهم سيقفل شوكة فى جانبه . فكل البوارج ، المقاتلة منها وبوارج النقل ، ألقت مراسيها خلف الزربية مباشرة ومدت الكبارى بينها وبين الشاطئ جاهزة للتحرك بجيش

العدو فى اى لحظة وانوارها الكاشفة ضربت بعيدا فى الصحراء امام الزربية . . .
وهى الاخرى كانت مصدر ازعاج بالغ للخليفة . . .

فها هنا زربية تختلف عن زرائب هكس والشلالى او دفاعات الخرطوم . . .
فالظلام ليس كاملا يمكن من الاقتراب من العدو بل الاضاءة توفرت امام الزربية
لمدى بعيد . . . ولو هجم على الزربية فهو سيهجم على عدو يراه جيدا . . .
ولكنه لا يستطيع رؤيته ، وهذا ما بدا واضحا من رئاسته فى خورشيدات . . . فان
الزربية بدت غير ظاهرة المعالم بينما كسا الضوء الباهر الارض امامها .

ولكن يجب ان لانغبط الخليفة حقه فهو فى قرارة نفسه رأى فرصته الحقيقية
فى الهجوم ليلا . . . فقد كان هذا رأيه الاول وعلى هذا الاساس شكل جيشه فى
تشكيل منتشر نهائى للهجوم فى الساعة الثالثة والنصف ظهرا . وكان هذا رأيه
الاخير قبل عقد الاجتماع ، حتى انه تسرب لولنجت .

فهو احس انه فقد معركة المدفعية صباح ذلك اليوم وان مدفعيته لن تستطيع
الوقوف امام مدفعية « الكفرة » . وبدأ يعيد تقييم قواته من جديد بناء على نتيجة
المعركة الصباحية التى لم يعلم تفاصيل نتيجتها حتى تلك اللحظة . وقرر مواصلة
التقدم والاشتباك النهائى مع العدو بحيث تبدأ المعركة الرئيسية غالبا فى الثلث الاول
من ليلة ١ سبتمبر . ولكن المجلس الذى عقده بعد ذلك هو الذى حدد موقفه .

لقد تمت اغلب انتصارات المهدي لاعتمادها على حرب العصابات ، وعدم
المواجهة الا فى ظروف مناسبة . فقد احجموا عن الهجوم مرة ثانية على الابيض
وفضلوا حصارها أربعة اشهر . واحجموا عن الهجوم على الخرطوم وحاصروها سنة
كاملة ، ورفضوا مواجهة هكس مباشرة الى ان جذبوه مئات الاميال لارض
القتل المناسبة . تلك هى مبادئ حرب العصابات . الهجوم على العدو فى لحظة ضعفه
وتجنبه فى لحظة قوته . ولكن مضى عهد حرب العصابات واصبح جيش المهدي
جيشا نظاميا متكاملا . هل اصبح قاده وعلى رأسهم الخليفة « جبرالات نظاميين »
يتجنبون بطبعهم معارك حرب العصابات الليلية غير النظامية وفضلوا المعارك النظامية
النهارية التى يتوفر فيها ضبط الافراد واليران، ويمارس فيها القادة قيادة وتوجيه

وحداتهم وافرادها ؟ خصوصا اذا كانوا معتدين بقوتهم النارية والعديدية ؟ !

ولا يمكن التنبؤ بالضبط بنقل الأثر الحقيقي لمعلومات اهالى العجيبة عندما اتخذ قراره ، وقد عزا معظم المؤرخين قرار الخليفة بترك الهجوم ليلا لتأثير تلك المعلومات عليه ، وبالطبع كان لها بعض الأثر وقد تكون هى السبب المباشر أو على الأقل ساعدت فى جذب لآراء شيخ الدين . وعن تلك الحادثة . المرجح ان الجزء الخاص « بحفر الخندق العميق وانشاء العدو لدفاعاته » كان اكثر اثرا من الجزء الخاص ب « سيهجومون ليلا » . والجزء الأخير ماذكره تقرير المخابرات الرسمى وماذكره من وصفوا المعركة . والاول ما لم يذكره وتجاهله ونجت والمؤرخون . فليس هناك سبب ليمنع الخليفة من دخول المعركة مع العدو أثناء تحركه ، وهى انسب كثيرا . وسيجد نفسه فى وضع مريح ان هاجم العدو وهو متحرك وهو ما يعرفه جيدا وما بنى عليه خطته القديمة ، وهى احد الاركان الرئيسية التى اعتمدت عليها خطته الجديدة كما سرى .

ولابد ان معلومات اهالى العجيبة عن الحفر والخندق العميق قد طافت بذهنه فى لمحات خاطفة اثناء فترة صمته الطويل وادرف تلك المعلومات والموقف الجديد الذى اخل بمخططه ، بمنطق شيخ الدين وبعدها اصدر قراره بالهجوم صباحا .

تلك كانت وجهة نظر الخليفة للموقف بكل ماصاحبها من قصور من جانبه فى ادراك اثر بعض العوامل الهامة ، وتجسيم لاطار لاجود لها اطلاقا . اما الموقف حقيقة بالنسبة لذلك السؤال ، ليلا ام نهارا ، فهو يختلف بالطبع عن تصويره .

لاداعى لتكرار اثر نيران كتشتر الهائل ، فهو الذى اعتمد عليه كتشتر اولا واخيرا . ولكن اضاءة البوارج أو القذائف المضيفة أو غيرها لن تمكن نيرانهم المؤثرة لا كثر من ثلاثمائة ياردة . والقصف البعيد بالمدفعية الذى تعرضت له هجمات الخليفة الاولى فى صباح اليوم التالى لم يكن ليؤثر فى ظلام الليل ، فلا المدفعية ستتمكن من تصحيح نيرانها لتصبح مؤثرة فعالة ، ولا البوارج كانت ستتمكن من التدخل الحاسم بسرعتها ونيرانها كما فعلت صباح اليوم التالى . وبالتالى كان جيش الخليفة سيجد فرصته فى اشتباك قريب والتحام مباشر مع العدو ، وقد

وضحت نتيجة ذلك عندما اتبحت الفرصة للوحدة الوحيدة من جيشه التي تمكنت من الاشتباك القريب مع كتيبة الرماحة في خور ابو سنط .

لقد بنى كتشنر دفاعه المؤقت على اساس انتشار كل القوة لـ فير اكبر قدر من النيران في الامام . . . وكان من السهل على الخليفة الاندفاع وخرق الزريبة ثم ضرب صفوف الجنود والانتشار في كل الاتجاهات نحو لواء كولنسون في الخلف ونحو آلاف الحيوانات . والضرب على العدو من كل الاتجاهات من الامام والخلف والاجانب . وقد يتعرض الانصار لخسائر ثقيلة ، الا ان قوتهم العددية كانت كفيلة باحتمالها ولا يمكن مقارنتها بخسائر الهجوم النهاري ، وهجوم كذلك الهجوم مهما كان مرتجلا ومهما كان فاقدا لعنصر الضبط والسيطرة اللذين اعطى له الخليفة وزنا كبيرا كان كفيلا بتحقيق اعظم النتائج باعتبار شجاعتهم المشهورة .

اما الانسحاب الناجح والذي اعطاه الخليفة بعض الوزن فقد كان استحالة عملية لكتشنر . ولا بد ان كتشنر قد فكر فيه ولكنه في تلك الليلة وفي ذلك الموقف لم يكن بتلك السهولة . فالبورج لم تكن كلها بورج نقل ولم تكن بمستطيعه نقل كل جيشه ومدفعيته ، وحيواناته . كما ان انحصار ارض المعركة لم يكن ليوفر الزمن اللازم لاتمام هذا الانسحاب .

الليلة الاخيرة

مضت الساعات بسرعة نحو الظلام ، وبدأ قرص الشمس فى الانحدار سريعا ليختفى وراء الجبال الغربية . . . وكلما تقدم الليل كلما زاد ضوء القمر ، الذى أسرع شاقا كبذ السماء مشققا على نفسه أن تفوته معركة القرن فى افريقيا . وسرعان ما كشف عن جيشين هائلين تكدر فى صفوفهما عشرات الألوف ، جلس جنودهما أفرادا يتبادلون الحديث فى انتظار قادتهم . ومرت فترة الظهيرة بدون حوادث تقريباً . ولم يكدر السكون فى الفضاء الواسع غير ثلاث اشتباكات بين أطواف الخليفة وفرسانه ، وبين أطواف كتية الرماحة التى تقدمت حتى اجتازت امتداد جبل سر كاذب نحو النهر - نتج عن تلك الاشتباكات اصابة ثمانية من جيش الخليفة وبضعة جرحى من الأطواف .

وللمرة الأولى منذ ثلاثة عشر عاماً لم يسمع سكان ام درمان صوت الآذان من جامع القبة . وجلس الآلاف ينظرون فى ذهول الى القبة الصامته وقد اختفى رأسها المدبب وظهر شرخ واسع يشق جانبها الشمالى . تبعثر مقاتلو الخليفة أفرادا وجماعات فى خور شمبات وفى الفضاء العريض الذى فصله من جبل سر كاذب . وقد بدأوا فى التجهيز لوجبة العشاء . وبدأت النيران تشتعل هنا وهناك ، وأغلبها كان لاعداد القهوة والشاى ، وهؤلاء كانوا بالطبع من أهالى ام درمان . بينما تجمع فى منخفض خور شمبات الأفراد الاداريون من خدم وعبيد وجمال بعض الاثرياء الذين حملوا زادهم وطعامهم مطبوخاً من ام درمان .

أما جنود الراية الزرقاء خلف الجبل فقد كانوا أكثر المجموعة تبعثراً فى الفضاء الواسع . ومضوا يتسامرون ويتحققون من الاشاعات التى تطايرت فى كل المعسكر وهم ينظرون بين فينة وأخرى لصاحبهم الذى أوقد النار تحت قدور الذرة والعصيدة فى انتظار نفوجها ليتناول كل منهم نصيبه من البلبلة والبلح والعصيدة . أما الآبرى فقد وضع جافاً فى قدور ضخمة وبجانب كل قدر آنية وضعت فيها الشطة والملح . . . بالطبع تناولت الأحاديث اشاعات اليوم . . . بعضها يتحدث عن ان الهجوم سيكون ليلاً . . . والآخرون يتحدثون عن الخلاف بين الخليل وشيخ

الدين ، فكما ذكر الشيخ بابكر بدرى « فمن قائل ان سلاح النار قام فعلا ليهجم على جيش الترك فى مكان خدعة ، ومن قائل ان الخيالة يكونون معه ومن قائل ان شيخ الدين والخليل اختلفا وباختلافهما بطل هجوم الليل » . ولكن اجمع رأى الجميع تقريبا انه من الاصوب خوض المعركة بعيدا عن النيل . . . فهذه القطع السابحة فى الماء والتي تقذف حمما ورصاصا ، الخير كل الخير فى الابتعاد عنها . وبعد صلاة العشاء ساد السكون التام خطوط الخليفة . فقد طلب من قادته أن يلزموا السكون التام حتى الحيوانات التى صدرت منها أصواتا عالية داخل الخور أمر بتكميم أفواهها ، وعندما بدأ الجمل الذى حمل عليه الامير يوسف ميخائيل فى الرغاء انتهره الأمير يعقوب آمرا صاحبه بتكميم فاه الجمل .

تمدد عبد الرحمن على أرض خور شمبات المبتلة وقد تشتت افكاره بعيدا . وعندما احضر الطعام ابتلع بضع لقيمات فى صمت . لقد أصر على الحضور مع الجيش للاشتراك فى المعركة على الرغم من معارضة الأمير يعقوب واصراره على أن يبقى عبد الرحمن بالقرب من عمه يعقوب ابو زينب . كان يعقوب رقيقا كعادته وركز على أن الحاجة اليه فى ام درمان اكثر منها فى ميدان القتال ، ولكن السبب الحقيقى كان واضحا . واضطر اخيرا الى توسط شقيقه الاكبر الامير ابراهيم الخليل . وعارض هذا فى البداية ولكنه رضى فى النهاية لرغبة أخيه ، فقد كان الاخوان يتبادلان اخلاصا ومودة . واصر الخليل على أن يقيم شقيقه معه فى المنزل حتى بعد زواجه . وعندما انتهى عبد الرحمن من تناول الطعام مد يده الى خادمه ليأخذه لغسل يده وبعدها قدم اليه الغلام عصاته وامسك يده وقاده الى مكان المبيت . فقد كان عبد الرحمن أحمد . . . ضريرا .

أما الفضاء العريض بين جبل سركاب وكررى والنيل الذى مثل الأرض الحرام بين الجيشين فقد تبعثرت فيه أطواف استكشاف الخليفة . وقد شق أحد الأطواف طريقه بهدؤ وصمت أمام الزريبة متجنباً ضوء البوارج الذى اضاء المنطقة وتجاوزها الى أن اقرب من جبل كررى ومكث مدة من الزمن وبعدها قفل راجعا

ليقدم تقريره للخليفة . لم يشارك العدو أطواف الخليفة في نشاطها العدائي فخلافاً
الديدبانية امر السردار كل القوة مشاة وفرسانا بالدخول لدخل الزريبة .

أمضى على دينار - أحد أحفاد السلطان ابراهيم ، آخر سلاطين دارفور ،
والوريث الشرعي للمملكة التي أسقطها الزبير ، أغلب ليلته في الحديث الهامس
الخافت مع قمر الدين عبد الجبار أمين بيت الأمانة ومع مادبو زعيم الرزيقات .
فقد دنت اللحظة الحاسمة التي انتظرها طويلاً .

لقد بعث به الأمير محمود ود أحمد عندما تولى أمانة دارفور لامدرمان
ليوضع تحت الرقابة . فلم يكن محمود يثق فيه إطلاقاً . وطيلة وجوده في أمدرمان
وضع تحت الرقابة المشددة ، كملازم للخليفة في البداية ، ليصبح طول الوقت تحت
رقابته المباشرة ، ثم ألحق بجيش الكاره بقيادة ابراهيم الخليل ، واشترك في عمليات
ابراهيم الناجحة في جبال النوبة . وأثناء إقامته في أمدرمان كملازم للخليفة تمت
صداقة متينة بينه وبين السجين الشهير « سلاطين » . وها هوذا يسمع أن صديقه
على بعد أميال قليلة منه ، ولكنه في الجانب الآخر . وقد حانت اللحظة الحاسمة
أخيراً ، وستحدد هذه المعركة ، على الأكثر في الغد مصير حياته ، فان انتصر
العدو وانهارت دولة المهديّة فسيهرع عائداً في اندفاع سريعة لموطنه لاستعادة
عرش آبائه . ولقد أعد عدته جيداً وكان يعلم أن حامية الفاشر بقيادة الأمير أمبدة
حامية صغيرة بعد أن أخذ محمود ود أحمد معظم قواته وأسلحته معه عندما تحرك
لامدرمان وترك أم بده قائداً لحامية صغيرة لحفظ النظام ، ولو سارت الأمور
سيراً حسناً فسيتمكن من هزيمة أمبده بسهولة والاستيلاء على مملكة دارفور بالقوة .
ولو اعترض الختيم موسى في الأبيض طريقه ، فلم يكن الختيم بأحسن حالاً من
أمبده ويمكن سحقه هو الآخر . لم يكن وحيداً . فقد اشترك آخرون في التآمر معه .
موسى مادبو ابن زعيم الرزيقات الشهير الذي امتلأت نفسه مرارة ، فوالده الذي
قدم خدمات جليلة للثورة في أيامها الأولى ، كان جزاءه الاعدام (١) .

(١) تفاوتت الأقوال في حجم القوة التي انفصلت مع علي دينار . ولا زالت تضارب في تحديد اللحظة
التي غادر فيها أرض المعركة . هل غادرها ليلة المعركة . أم اثنتان . أم بعد انتهائها .
أما ما يؤيد مغادرته للمعركة في ليلة الخميس . فخطاب السردار الذي أرسله لعلی دينار في
الفاشر :

بعد انقضاء المجلس الأخير عاد بعض كبار الأمراء والتفوا حول عنقريب الخليفة وجلسوا على الأرض . كان آخر من وصل الأمير يعقوب ، وبعدها أحضر عشاء الخليفة ووضع على الأرض ودعى الأمراء لتناول العشاء . . . وأرسل لاستدعاء عثمان دقنة الذى اختفى وسط رجاله داخل خور شمبات . وبدأ الجميع فى تناول العشاء ولكنهم لم يصيبوا من الطعام الا قليلا ، حتى عثمان دقنة بشهيته الجبارة لم يأكل كثيرا . وأخيرا مد الخليفة يده وتناول بضعة لقيمات وهو يحلق ساهما فى الظلام . . . وبعدها عاد الى عنقريب واضطجع عليه متكئا بمرفقه مسندا رأسه بيده . وقد ظل فى ذلك الوضع حتى صباح اليوم التالى ، وهو يبذل يدا متعبة ،

→ You are well known to us through Slatin Pasha, who is your friend and we know that you are a descendant of the old Sultan of Darfur, and that Mahmoud brought you against your will and that you escaped from Omdurman with all your men one day before the battle and did not fight against us.

« لقد حدثنا عنك صديقك سلاطين باشا ونحن نعلم أنك أحد أحفاد سلطان دارفور السابق . وان الأمير محمود أحضرك لامدرمان رغما عنك . وفعلسم جيدا أنك لم تشترك فى القتال ضدنا وأنك غادرت امدرمان قبل يوم من المعركة .

Appendix 96 – Sudan Intelligence Report Cairofint 334/1/64

كذلك بريقة ماكسويل لونغت – دار الوثائق

Theobald, Ali Dinar Last Sultan of Darfur p. /

على أن أغلب ابنائه أكدوا تواجد والدعم فى المعركة وأنه غادر أرض المعركة بعد انتهائها . ولسبب أو لآخر لم يشترك على دينار فى المعركة تحت قيادة إبراهيم الخليل بل دخلها ضمن ملازمى شيخ الدين . والمرجح أنه غادر أرض المعركة أثناء القتال فى لحظات مطاردة شيخ الدين لبرود وود . بل يقال أنه هدده واقتلع جنوده بالقوة . على أن أغلب المصادر التى استشرتها من الأحياء أو من شاهدوا على دينار بعد مغادرة المعركة تؤكد ذلك . فقد ذكر العمدة آدم يوسف أنه يذكر جيدا أنه شاهد على دينار ضمن ملازمى شيخ الدين فى صلاة الفجر صباح المعركة . وذكر الفكى حامد الزملو « وكان فى الثالثة عشر » أنه قابل على دينار فى اليوم الثانى للمعركة غرب امدرمان أثناء محاولتهم الهلاك بالخليفة . وان على دينار وقف بعيدا بجواده . وبعث لهم مادبو الذى حاول اقناعهم بالعودة لدارفور «فان المهدية قد انتهت وسنعيش فى وئام التعايشة تعايشة والرزيقات رزيقات . » ولكن والده رفض . وأجاب بأنه سيلحق بالخليفة ولم يتعرض لهم على دينار بأذى .

أما القوة فأقل تقدير لما هوثلثمائة – « تاريخ دارفور السياسى – الأستاذ موسى المبارك . » وهناك مصادر زادت على الألف . الا أن الجميع اتفقوا على أنها كانت من أحسن الخيول والبنادق فى الملازمين .

بيد أكثر تعباً ، متحدثاً بين القينة والأخرى مع عثمان أزرق الذى لم يفارقه طيلة تلك الليلة . ولا بد أنه سأله كثيراً عن هذا العدو وعن تلك القبيلة التى اقتحمت أرضه ، ليتمكن على ضوء اجابات عثمان من وضع خطته التى بدأت صورتها النهائية تكتمل فى رأسه .

هل ياترى حل أخيراً الزمن الذى يتحقق فيه الجزء الأخير من نبؤة «تورشين» . . . هل تباد الآلاف ويعود هو كما بدأ رحلة المجد الطويلة . . . على ظهر حمار .

كان هناك شيثان ضايقه كثيراً أولهما بالطبع ضرب القبة وتدميرها ، ليس لأنه بذل جهداً طائلاً فى سبيل بنائها ، فقد نقل مواد البناء طوبة طوبة وحجراً حجراً من أنقاض الخرطوم ، وسخر لبنائها كل سكان امدرمان ، واشرف على النواحي الهندسية أحسن مهندس وجد فى عاصمته . . . لم يكن ذلك هو الامر الذى ضايقه . ففى قرارة نفسه لم يكن يحفل كثيراً بالأضرحة والتقسيب . فعندما طلب منه كبار أمراء التعايشة بناء قبة فوق قبر والده تورشين بأبي ركه ، سفه رأيهم وأجاب انه لو ترك له الخيار شخصياً لما بنى حتى قبة المهدي . وان بناء قبة عالية ليست كل شئ لتخليد المهدي . ولكن معرفته بنفسية سكان عاصمته ورعاياه وماتعودوا عليه من تعظيم الأبنية لتخليد علمائهم وفقهائهم دفعه لبناء ذلك الصرح الشامخ ، لم يضايقه تدمير القبة فى حد ذاتها ، ولكن ماتمثلة القبة وداخلها وقبر المهدي الذى اعتمد الخليفة على اسمه وتعاليمه طوال ثلاثة عشر عاماً ، وقد احس هو بأثر منظر القبة المدمرة على معنويات جيشه ، فقد أصيب كل جيشه بهزة عنيفة وكان هو خير من يعلم أثر ذلك على الآلاف الذين قطعوا مئات الأميال للدفاع عن دعوة صاحب القبة .

أما ماضيه حقيقة فقد كان ضوء البوارج الذى أضاء سهل كررى . . . وهو ما حرمه من النوم طول الليل . فقد جعله يتوقع تقدم العدو بين القينة والأخرى ، وأخيراً أجبره على الوقوف على قدميه عندما دوى صوت انفجار عنيف تلاه وهج ضوء ساطع انطلق فى السماء ثم غمر كل الأرض . . . ومضى متقللاً بين الجبال والخيران والسهول ليحبل ظلمة الليل الى نهار واضح . لم يصل الضوء موقعه ذاك ولكن عند اقترابه تحرك عثمان أزرق مسرعاً ور كل الخيمة البيضاء بقدميه الى أن

انهارت على الأرض . . . ففى مثل ذلك الضوء كانت الخيمة البيضاء هدفا لاخطئه
عين .

لم يعد الخليفة لعنقرية الا بعد مدة . . . وظل واقفا فقد شك فى أن الضوء
الساطع ذلك كان مقدمة لقذائف رهية من سلاح جديد يقذفها هذا العدو الذى
يأتى كل لحظة بجديد .

بعد منتصف الليل استدعى الخليفة امراء الرايات الثلاث يعقوب - وعبد
الله ابو سوار - واحمد عبد الكريم . ووجدوا معه عثمان أزرق جالسا بالقرب
من عنقرية . وسأل الخليفة الأمير يعقوب قائلا « يعقوب . . . اوصيت بعدك
منو فى امارة الراية الزرقاء ؟ » فاجاب الأمير يعقوب « سيدى خليفة المهدي ، مخير
وان كان لابد المقدم جديد او الامير يعقوب ابو زينب والرأى لك » فوافق الخليفة على
الاثنين ، والتفت الى عبد الله أبو سوار « امير امراء الراية الخضراء » سائلا اياه عن
سيخلفه فى قيادة الراية ان استشهد . فرشح عبد الله ود برجوب احد امراء دغيم
أو احمد عبد الجليل بن عم الخليفة على ود الحلو . أو البشير عجب الفيه « فوافق
الخليفة على الاول . واجاب احمد عبد الكريم بأنه رشح عبد الصمد حاج شرفى
فوافق الخليفة . ثم سألهم عن أحد الامراء وأجاب أحمد عبد الكريم انه اخذ اذن
غياب من الخليفة شريف . ويبدو انه كان كثير الغياب فى اللحظات الحرجة على
الرغم من كونه من كبار الامراء ، فعلق الخليفة غاضبا « كلما نكوسه فى امر
نلتفت للقاه غياب ؟ » وامر بعدها الامراء بالعودة الى مواقعهم .

وبعد منتصف الليل عداد احد عناصر الاستكشاف من استطلاع البعيد
واوضح للخليفة مواقع العدو وتوزيع قواته بالتقريب . فلم يتمكن الطوف من
جمع معلومات دقيقة عن توزيع اسلحة العدو وقواته لعدم استطاعتهم من الاقتراب
من الزريبة لانتشار الضوء الساطع والديديانية الذين امر يعقوب بعدم الاشتباك معهم
أو فتح النيران عليهم بل وتجنب لفت انظارهم . اوضح ذلك التقرير (١) للخليفة

(١) يمكن تقدير الزمن الذى قابل فيه قائد الطوف الخليفة بين الثالثة والرابعة والمنتصف . وقد وصل هذا الطوف
إلى أقصى مدى وصلته عناصر استكشاف الخليفة شمالا . وحسب رواية الغلام عبدالله الذى كان يجلس
تحت عنقرية الخليفة فان قائد الطوف افاده عن تحرك المصريين إلى جبل كبرى . وغياله برود وود
المصرية لم تتحرك لتحل كبرى الا قبل الساعة الرابعة بقليل .

ان « الانجليز على البحر . . . ولكن المصريين يتحركون نحو جبال كررى . »

* * * * *

تجاوزت الساعة منتصف الليل عندما غادر ونجت خيمة السردار تاركاً إياه وحيداً يغالب أفكاره ومخاوفه . وهاهى ليلة أخرى متوترة يقضيها داخل خيمته مرهفاً آذانه لكل حركة . . . ففى أى لحظة قد يندفع احد ضباطه حاملاً النبأ المزعج : تقدم جيش الخليفة بين ظلال الجبال نحو زريته للمعركة الفاصلة .

لقد ظل هو صاحب المبادأة لعدة سنين . . . وقطع ألف وسبعمائة ميل وهو يهاجم دائماً . . . وكفل له تكوين قوته أن يخوض معارك ذات نغمة ووتيرة واحدة : قصف تمهيدى قوى يقصم ظهر العدو ، ومدافع وبوارج تفتت دفاعاتهم وطوابيقهم الطينية وتمزق صفوفهم تتبعه الرشاشات لتحصدهم وتكنس الأرض من فلولهم . . . ثم المشاة والفرسان ليلتهموا ماتبقى من ثلل العدو . وقد مكنته الاقدار وضابط مخابراته الساحر دائماً من نبيل بغيته وهو ما اراده هذه المرة ايضا ، معركة على نفس النمط وفى نفس ظروف فرقة والحفير وعطيره . فالسردار ليس ستيوارت وليس ولسون الجسور الذى تقدم بحملة الانقاذ بجيش يبلغ تعداداه اقل من عشر تعداد جيشه ، ضارباً عرض الصحراء فى تقدم سريع لم يسمع به القرن التاسع عشر لانقاذ رجل واحد . . . وليس ولسون الذى واصل التقدم فى الظرف أسوأ ومع هذا لم ترجمه الصحافة ولا الرأى العام وذاب اسمه فى ظلال النسيان عندما لم يتمكن من انقاذ غردون . لقد حسب السردار كل العوامل حساباً دقيقاً من مد خطوط السكة الحديد ، وماوفرته من أطنان الذخيرة والعتاد طناً طناً ، ولكن هذا الموقف الحديد الذى وجد نفسه يواجهه كان يمكن أن يقلب كل حسابه رأساً على عقب .

لقد شد العالم أنفاسه كلها فى انتظار نتيجة المعركة واكتظت شعبة المخابرات بعشرات من المراسلين الحربيين مثلوا أكثر من عشر صحف ومجلات ، واستجابت لندن لطلب هيئة الاركان الحرب الالمانية لتبعث مندوباً للاستفادة من الدروس التى تبرزها الحملة ونقلها لهيئة الأركان الالمانية . والمندوب الالمانى - البارون فون ثيدمان - لايقترن بكرر عبارته المفضلة التى لمح كتشتر فى ثنائياها سخرية خفيفة :

The first of September . . . your great day and
our great day SUDAN AND SEDAN

« أول سبتمبر ، يومك العظيم ويومنا العظيم ، السودان
وسيدان » .

الخططة

« كانت خطة الخليفة خطة عبقرية معقدة »

تشرشل

كانت الخطوط العريضة لخطة الخليفة هي الهجوم بمرحلتين ، كل مرحلة تتكون من إقحام بمحورين . على أن المرحلة الثانية مثلت المرحلة الرئيسية التي احتفظ لها بالجزء الأكبر من طاقاته البشرية والنارية .

١ - مناطق التشكيل :

أ - خطوط التشكيل للمرحلة الأولى :

١ - جيش الكاره تحت قيادة ابراهيم الخليل « ٤٠٠٠ مقاتل »
خط تشكيله السطح الجنوبي لامتداد جبل مركاب .

٢ - قوات عثمان أزرق « ٨٠٠٠ مقاتل » اقتطعت هذه من الملازمين
بالإضافة لعناصر معززة ، خط تشكيلها جنوب غرب جبل مركاب .
مع الراية الزرقاء والصفراء .

ب - خطوط التشكيل للمرحلة الثانية :

١ - قوات شيخ الدين « عشرة آلاف مقاتل » أى الملازمين ناقص قوات عثمان
أزرق ، تعبر السهل بين كررى وسركاب بعيدا عن نيران الزربية
ثم تنعطف انعطافا واسعا لتتقوض على جبل ابو زربية وتحتل خط
تشكيلها حين حلول زمن اشتراكها في المرحلة الثانية . ولما كانت
منطقة كررى محتلة بواسطة العدو من قبل لذا مثلت « غرضا »
بالنسبة للمرحلة الأولى « وخط تشكيل » بالنسبة للمرحلة الثانية .

٢ - الراية الخضراء « أربعة آلاف مقاتل » تحت قيادة عبد الله ابو سوار

“The Khalifa's plan appears to have been ingenious and complex”
Churchill

يعبرون السهل بين سركاب وكررى امام وبعيدا عن الزريبة
ويتخذون خطوط التشكيل وراء جبال كررى « ابو زريبه » بعد
تنظيفه بواسطة الملازمين .

٣ - الراية الزرقاء « اثنا عشر الفا مقاتل » بقيادة يعقوب ، تحتل خط
التشكيل غرب جبل سركاب .

ج - قوات عثمان دقنة « سبعمائة مقاتل » تحتل خور ابو سنط ولم يكن ذلك
يعتبر خط تشكيل فلم يكن الاشتراك فى الهجوم من ضمن واجبات هذه
القوة بل كان واجبا الرئيسى هو حماية طريق امدرمان ومنع العدو من
القيام بحركة التفاف لتطويق جيش الخليفة .

د - المدفعية : فى جبل سركاب « الحق مدفعين لعثمان ازرق ليشر كا
معه فى الاقتحام » .

٢ - المراحل والواجبات : (١)

المرحلة الاولى :

التوقيت : بعد صلاة الصبح . تتكون المرحلة الأولى من هجوم يشن على
محورين :

المحور الأول : عثمان ازرق « ملازمين » التقدم الى جهة الشمال الشرقى لجبل
سركاب ويتجاوز شمالا لينعطف شرقا مباشرة نحو النيل لتسديد هجوم مباشر على
وسط الزريبة "Frontal Attack"

المحور الثانى : ابراهيم الخليل « الكارا » التقدم لجهة الشمال الشرقى ثم الانعطاف
شمالا شرق جبل سركاب بين النيل والجبل لتسديد هجوم جانبى للجانب الأيسر
من الزريبة .

كان لازما ان يشن الهجوم من المحورين فى وقت واحد وتحت غطاء من
فيران مدفعين الحقا لعثمان ازرق .

(١) أنظر خريطة رقم ٥ « الخطة » .

وعلى الرغم من ان القوة النارية التي مشترك في هذا الهجوم كانت حوالى ثلث قوة الخليفة التي دخل بها المعركة وكانت صغيرة نسبيا « اثنا عشر الفا مقاتل » الا انها ضمت جيش الكارا ، وقاد الهجوم اثنان من اكثر قادته كفاءة ، كما توفرت لها قوة نارية كبيرة « اربعة آلاف بندقية » .

اما باقى القوة فقد كان واجبها اثناء المرحلة الأولى كالاتى^١ : الملازمون

(١) من هنا نرى ان تقديم تشرشل لخطة الخليفة كان أقرب تقديم للحقيقة . ويتطابق لحد بعيد الحقائق التي استخلصتها سواء من سير المعركة أو ما اورده المصادر المحلية عن ردود فعل الخليفة عندما تعرضت الخطة . وقد تمكن تشرشل من الحصول على المعلومات اللازمة بما شاهده من التحركات فى بداية المعركة أو ما تمكن من جمعه بعد ستة من المعركة عندما زار القاهرة لجمع معلومات لكتابه "The River War" وأمدته ونجحت ورجال المخابرات بأحدث معلومات تمكنوا من الحصول عليها بعد استجواب كبار الأمراء الذين خرجوا أحياء بعد ام ديبكرات .

الا أن نقطة الخلاف لا زالت تحوم حول واجب الملازمين بقيادة شيخ الدين . فقد تسامد تشرشل عن واجب شيخ الدين :

His real intentions are still a matter of conjecture, whether he had been ordered to attack the Egyptian Brigade, or to drive back the cavalry, or to disappear behind the Kerreri Hills in conformity with Ali Wad Hilu is impossible to pronounce.

فهو يتساءل ولا يجد الاجابة الصحيحة عن واجب شيخ الدين فى الخطة . هل واجبه هو مهاجمة مينة الزربية ، أم تنظيف جبال كبرى من الخيالة المصرية ، أم الا انتظار بعيدا مع على ود حلو خلف جبال كبرى للاشتباك فى المرحلة الثانية .

والواقع ان الاجابة كانت نعم للسؤالين الاخرين ولا للسؤال الأول . وأصبح من الممكن الاجابة بسهولة على تلك الاسئلة عندما تقارن بأقوال عبد الله غلام الخليفة بعد استجوابه بستة أشهر من المعركة فقد أوضح عبد الله أن الخليفة كان يعلم بوجود قوة من العدو فى جبل كبرى .

"The Khalifa Scouts brought news during the night that the English were on the river but the Egyptians were moving behind Jebel Kerreri".

لقد بلغت الاطواف الاستكشافية ان الانجليز يدافعون على النيل وان المصريين يتحركون نحو جبال كبرى .

اذن لكى يتمكن شيخ الدين من تنفيذ واجبه الرئيسى وهو الاشتراك فى المرحلة الثانية من خطة تشكيله كان لا بد له من الاشتباك مع المصريين واجلائهم لا احتلال خط تشكيله . اذن فالواجب الأول هو احتلال خط تشكيله الذى يمكنه من تسديد هجوم المرحلة الثانية ولكن الاسبقية الزمنية حتمت وضع الواجب الثانوى أولا وهو الاشتباك مع الخيالة واجلائها عن جبال كبرى . ويجب ان نذكر ان عناصر الاستكشاف ظنت ان العدو الذى احتل كبرى هو العدو من المشاة احتل الجبل احتلالا نهائيا وليس خيالة وهجانة برود وود . التى احتلتها مؤقتا «احتلال القوات الراكبة» كما أن تقرير المخابرات -

بقيادة شيخ الدين تتقدم منتهزة انشغال العدو اثناء تطور هجمات المرحلة الاولى لتتجاوز مبتعدة عن مدى نيرانه المؤثر لاحتلال جبال كبرى والانتظار بها .

الراية الخضراء : تتحرك خلف الملازمين وتحتل خط تشكيلها شمال جبل ابو زريه والانتظار به .

الراية الزرقاء : تمثل احتياطي للمرحلة الأولى بحيث اذا احزرت هجمات المرحلة الاولى نجاحا عليها ان تتقدم وتجهز على العدو .

وبذلك خدمت هجمات المرحلة الأولى غرضين ، اما ان يكتب لها النجاح وتحقق خسائر كبيرة في العدو ويبقى واجب الاحتياطي في القضاء النهائي على العدو . أو تحقق نجاحا جزئيا بالخاق بعض الخسائر بالعدو ويتمكن من صدها وهنا

← ٦٠ يؤكد هذه الحقيقة على الرغم من عدم تمكنه من التعرف على تلك القوة .

The Khalifa Wad Hilu had received orders to proceed via the Kerreri Ridge and fall upon the fugitives from the Zeriba and soon became hotly engaged with our mounted forces.

« لقد كانت أوامر على ود حلول هي التقدم نحو جبال كبرى ومهاجمة الهاربين من الزرية أثر الهجوم الأول . . » اذن فواجبه هنا هو عنصر « توقيف » أى قطع خط أى انسحاب من الزرية وليس اقتحام الزرية . الا ان التقرير خطأ في التعرف على هذه القوة فلم تكن تلك قوة على ود حلول « الراية الخضراء » بل كانت قوة شيخ الدين « الراية الخضراء العائمة » ولتقارب الألوان نشأ الا لتباس بينها وبين الراية الخضراء . فمن الثابت ان الراية الخضراء لم تشبك مع الخيالة اطلاقاً طوال المعركة ، وظلت بعيدة عن الخيالة ووصلت إلى كبرى بعد انسحاب برود وود من كبرى بعد اشتباكه مع شيخ الدين .

ولعل ماريك تشرشل لحد ما في طبيعة واجب شيخ الدين . هل هو الهجوم على الزرية أم الإنتظار والا اعتفاء خلف كبرى كان هو طبيعة تشكيل وتقدم الملازمين فهو يصف تقدم شيخ الدين :

“The tempestuous advance of Osman soon brought him in contact with the mounted forces.”

« سرعان ما حتم تقدم شيخ الدين العاصف إشتباكه مع الخيالة . »

فلقد كان تقدم شيخ الدين قدماً مسرعاً ويشكيل متسرع ، وتشكيل اقتحام ، عكس تقدم عبدالله أبو سوار لاحتلال خط تشكيله وراء أبو زرية فقد كان تشكيل تقدم عادي Column formation وكان ذلك وضع طبيعياً فشيخ الدين سيتخذ خط تشكيله في أرض محتلة اذن لابد له من اتخاذ تشكيل اقتحام . وعلى الرغم من ان هناك احتمالاً بأن تشرشل لم يطلع على نتيجة استجواب عبدالله او على تفاصيل خطة الخليفة المبدئية التي وضعها في ام درمان وأوضح فيها نظريته في استخدام الملازمين وأدى هذا إلى ارتباكه ، لكننا سرعان ما نجد قد عاد إلى الخط الصحيح . فيواصل تقديم الخطوة واصفاً المرحلة الثانية . ←

يكمن واجبها الرئيسى كقطعم لجذب السردار خارج زريته . وتبدأ المرحلة الثانية والتي من أجل تنفيذها احتفظ بالراية الخضراء والزرقاء والملازمين وأغلبية قوته النارية بعيدا عن مسرح عمليات المرحلة الأولى .

وعليه لم تنقيد هذه المرحلة - المرحلة الثانية - بزمن معين حتى مكان تنفيذها حدد بالتقريب . فقد اعتمد تحديد توقيتها ومكانها على رد فعل من العدو . أى الهجوم بالفرسان والمشاة على جيش السردار حين يبدأ التقدم نحو أمدرمان وهو فى موقف اضعف . . . مكشوبا خارج دفاعاته وزريته العالية وخنادقه العميقة ، وبوارجه غير مستطبعة تقديم نفس المساعدة ، ومدفعيته غير ثابتة على الأرض وعاجزه عن تقديم نفس المساعدة التى تقدمها له وهو متحصن داخل زريته ، واخيرا بعد مواجهته لصدمة الهجوم الأول حين يصيبه الضعف نتيجة لتحمله وقعها وبغض النظر عن النتيجة الحتمية لهذا الهجوم .

٢ - المرحلة الثانية : التوقيت بمجرد مغادرة العدو الزرية متجها لامدرمان

أ - المحور الأول : هجوم من جهة الجنوب الغربى تقوم به الراية الزرقاء بقيادة يعقوب « اثنا عشر الفا » من غرب جبل سر كاب متجهة شرقا مباشرة نحو جنب قوات كشنر المتجه جنوبا ، للالتحام معها فى هجوم تصادمى تحت غطاء من نيران المحور الثانى « نيران الملازمين » ونيران الامدادية من قمة جبل سر كاب

→ "The Enemies of God exulting in their easy victory. Then while they were yet dispersed in the plain, with no Zeriba to protect them, then the chosen warriors of the true religion will abandon all concealment and the Khalifa with 15000 falling upon them from Surgham: Ali Wad Hilu and all that remained of Osmans army assailing from Kerreri. . . ."

« وعندما يتقدم العدو نحو أمدرمان مختالا بانتصاره السهل ، وهو فى الغراء بدون حماية من الزرية ، ينقض عليه جنود الله المختارين من كل اتجاه - يعقوب من خلف سر كاب وعلى ود حلو وكل ما تبقى من جيش شيخ الدين من كررى : « وهو يقصد عبد الله أبو سوار وليس على ود حلو كقائه لقوة الراية الخضراء . « أما قوله كل ما تبقى من جيش شيخ الدين فليس المقصود بها المتبقى بعد الاشتباك مع الزرية ، بل المتبقى بعد انفصال قوات المرحلة الأولى وازرق والخليل . فتكما ذكر على جله ان الخليفة فى لحظات حنقه على شيخ الدين عندما تخلى عن واجبه فى الخطة الاصلية وأخل خط تشكيله المحدد واندفع فى مطاردة الحياالة شمالا ، ان الخليفة أرسله لشيخ الدين آمرا اياه بالعودة والا نظار بخط تشكيله حسب الخطة الاصلية . »

بقيادة الامير خير السيد .

ب - المحور الثاني : هجوم تصادمي تشنه الراية الخضراء « اربعة آلاف » منهم أربعمائة فارس بقيادة الامير عبد الله ابو سوار من مواقعها من ابي زربية لجهة الجنوب الغربي ليسدد هجوما نحو مؤخرة العدو وهو متجه لام درمان بالاشتراك معه ، وتحت غطاء من نيران الملازمين « عشرة آلاف » اغلبهم مسلحون بالبنادق . كان لزاما للذين الهجومين ان يتما في لحظة واحدة . وقد وفر لهما الخليفة أغلبية حشده البشرى والتارى المكون من :

الراية الزرقاء « اثنا عشر الف » التى حشدت من اهل الغرب اكثر العناصر اخلاصا له ومثلت قوة الاقتحام الرئيسية بالسلاح الابيض وقادها اقرب الاقربين اليه ، الامير يعقوب .

الملازمون : مثلوا قوة النيران الرئيسية وصفوة جيش المهديّة من ابناء القبائل المختارين « عشرة الف بندقية » بقيادة ابنه شيخ الدين .

ويجب ان نلاحظ ان اختيار خطوط التشكيل للمرحلة الثانية وهى بعيدة عن نظر ونيران العدو مكنتها من ان تمثل مناطق اعادة تجميع لفلول هجمات المرحلة الاولى . "Reassembly area" كالاتى :

الراية الزرقاء : خلف جبل سركاب لتنضم اليها بقايا المرحلة الأولى من الاحياء والجرى ليعاد انتظامهم فى صفوف الراية .

الراية الخضراء : مختفية وراء جبال كبرى لينضم اليها ملازمة شيخ الدين لو تعثر هجومها على قوات العدو فى الجبال ليعاد تنظيمها من جديد استعدادا للمرحلة الرئيسية . ولذلك كان المتوقع ان يتوفر لهذه المرحلة عند الهجوم حشدا اكبر من الحشد المخصص لها أصلا . بالاضافة الى الحاق قوة من الفرسان الخالصة « فرسان دغيم » .

والواقع ان الفرصة المتوفرة لهذا الهجوم كانت فرصة اكبر فى تحقيق النصر النهائي لو تم فى الظروف التى تخيلها الخليفة . فسيوجه نحو خلف وجنب العدو ، تحت غطاء نيران قوى « ضم اغلب أسلحته النارية » نحو قوة غير مسترة ، ومدفعيتها غير ثابتة على الارض .

اما عثمان دقنة فقد كان واجبه طوال فترة المرحلتين هو حفظ خط انسحاب الجيش لامدرمان . واتفاق الخليفة مع عثمان دقنة على أهمية وضع قوة مدافعه بمثابة الحراسة لطرق انسحابه تؤكد نيته على خوض معركة ثانية داخل امدرمان حتى لو فشل في تنفيذ معركته المعقدة ذات المراحل المتعددة . . . وتؤكد احساسه بفعالية معركة الشوارع والازقة داخل امدرمان كأمل نهائي .

اما استخدامه للقوة الراكبة في جيشه فقد وزعت توزيعا متساويا في كل المراحل وكل المحاور ، ولعل طبيعة الخطة املت عليه ذلك . . فلا احد يدري بالضبط أى الهجمات والمحاور ستحسم المعركة ، هل هي المرحلة الأولى ام الثانية ولذلك لم يحاول القاء ثقل قوته الراكبة مع أى من فرقته بالاضافه إلى قوتها الراكبة الاصلية .

اما عنصر المواصلات الوحيد الذى توفر للخليفة لضمان تماشى تخطيطه مع المواقف التكتيكية التى لابد ان تجدد عند تنفيذ خطة معقدة كخطته تلك ، فقد تمثل فى « على الجلة » (١) بساقية اللذين يسابقان الريح . . وجواده السريع . بالطبع كان هناك عشرات الفرسان على أهبة الاستعداد للانطلاق لنقل رسائله من رئاسته خلف جبل سركاب ولكنه لم يكن يثق بمقدرة أى منهم ، مثل ثقته بعلى ، فى تبليغ رسائله كما يريد ان تصل لقادته .

* لاشك ان الخطة التى وضعها الخليفة كانت خطة مرنة كفيلة بمواجهة كافة المواقف والاحتمالات . بالطبع اذا غصصنا الطرف عن الاخطاء البديهية التى وقع فيها بلجهله التام بعدوه — بينما كان العدو يعرف الكثير عن قوات الخليفة وتجهيزها . كما كانت خطة الخليفة متوازنة ، وخصوصا الميزان الدقيق للتوزيع النسبى

(١) على الجلة كان مرسله ميدان الخليفة الرسمى وكانت قدرته عجيبة فى البقاء حيا رغم انه أكثر من تعرض لرصاص العدو أثناء توصيله لرسائل الخليفة الشفهية داخل المعركة . . ولم يصب على الجلة بسوء فى معركة كررى . . وخرج حيا من معركة ام ديبكرات . وكان صديقا لسلاطين منذ أيام الاحتلال ونصب ناظر المسيرية فى أيام الحكم الثنائى ، إلا أن على الجلة كان شخصاً مهماً فى قبيلة المسيرية قبل ذلك . فكتيسون يذكر نقلاً عن هندرسون أن على الجلة كان هو رسول على مسير للمهدى عندما كان هذا فى قدير . وقبل ذلك استخدمه غردون دليلاً أثناء رحلاته فى كردفان .

Cunnison, I., *Baggara Arabs* ;Oxford, 1966), p. 135.

لطاقات البشرية والنارية على المراحل حسب طبيعة كل مرحلة ونسبة نجاحها ونتائجها . فنحن نرى انه يقذف بثلاث قوته البشرية وثلاث قوته النارية فى مرحلة ذات نسبة نجاح اقل ، صحيح انها موجهة نحو عدو فى مركز اقوى ، ولكنه لا يقذف بها فى واجب انتحارى بدون هدف ، بل يوفر لها كل احتياطيه لوبرهنت على فعالية ، ويوفر لها مجهر د جزئي مؤقت من قوته النارية ، وذلك مامثله هجوم شيخ الدين على جبال كررى ذى الهدف المحدود المؤقت . فالعملية التى كان على شيخ الدين تنفيذها كانت ستؤدى بطريقة أو أخرى ، الى انشغال جزء من العدو عن هجمات المرحلة الأولى .

أما فى المرحلة الثانية ، عندما يخرج العدو من زريبة ويصبح فى موقف أضعف فلننا نرى ان الخليفة يقذف نحوه بكل طاقاته ، وتلك النظرة لا يمكن الا أن تحوز الاعجاب ، لان أساسها هو الضرب بقوة فى لحظة ضعف العدو . وفى تلك ابرز الخليفة خبرته القتالية الطويلة ، خبرته التى استمدتها من عشرات الكمائن الناجحة . فان المرحلة الثانية خططت لتحقيق أكبر قدر من المفاجأة لتفقد العدو قدراته وتوازنه "Taking enemy off balance" . فالواقع كانت عملية كمين على مستوى ضخم ، أكثر منها عملية اقتحام عادية .

ولعل ذلك ينهى لحدا ما أن القيادة قدفت بعشرات الألوف نحو الموت المؤكد فى مجزرة من أكبر مجازر التاريخ . فالتفسير الوحيد لبقاء الراية الزرقاء كاملة لمدة ثلاثة ساعات وهى ساكنة محتفية وراء سركاب ، تؤكد ان العملية كلها كانت تخطيطا لكمين على مستوى كبير ، وليس هناك تفسير غير ذلك لبقاء الراية الزرقاء والخضراء وراء كررى منذ الساعة حتى العاشرة والربع والمركة تستخدم تحتها فى ضراوة متناهية ، وأخيرا كان ذلك هو التفسير المقنع لانقاف شيخ الدين البعيد متجنبا الزريبة وثبرائها ليصل لكررى .

أما الطريقة التى قرر أن يناور بها الخليفة بجيشه فلم يتعد تشرشل بعقله اللماح كثيرا عندما وصفها بالعبرية مخالفا الكثيرين . ونلاحظ أن كلا المرحلتين كانتا على شكل كماشتين هائلتين تطبقان على العدو من اتجاهات مختلفة ، وهو استغلال ذكى لقوته البشرية . فتللك الطريقة تضمن ارتباك وتشتت جهود العدو عند مواجهته

لمحاور متعددة. وهى أجدى كثيرا من خطته البسيطة الأولى حين صب كل قوته البشرية فى لحظة واحدة من اتجاه ، وصب نيرانه من اتجاه آخر . وهنا يجب أن لاننسى أن توقيت تنفيذ خطته الأولى كان ليلا ، والخطط البسيطة ذات المرحلة الواحدة ، هى أضمن وأحسن فى العمليات الليلية الكبيرة .

وقد يبدو من الوهلة الأولى أن فكرة الخليفة الملحة فى الفصل التام بين قوته النارية « الملازمين » وقوات الاقتحام بالسلاح الابيض، هى التى مدت جناحي الكماشة الهائلين ، وقد ينطبق هذا على المرحلة الأولى ، ولكن عند النظرة المدققة لكل الخطوة عندما توضع على الأرض ، سرعان ما يكتشف المرء أن منطقة كررى نفسها كانت مفصلة على الخطوة . بحيث كفل وجود الهيتين الطبيعيتين البارزتين جبال كررى، وجبل سركاب، متبعا لتفجر هجمتى المرحلة الثانية، بحيث يمتد منها ذراعا الكماشة ليطبقا على خناق العدو فى اللحظة المناسبة . ونظرة سريعة لخريطة منطقة شاطىء النيل أو محور تقدم العدو من امدرمان حتى السبلوكة تجعل المرء يشك أحيانا أن الطبيعة نفسها ساهمت فى التخطيط لهذه المعركة ، بروز مفاجئ هيتين طبيعيتين بهذا الوضع تسمحان باخفاء قوات كبيرة خلفهما ، مسافة مثالية بينهما أربعة أميال ، سهل ينحدر انحدارا رقيقا نحو النهر حيث انحصر العدو فى المرحلة الأولى ، وحيث سيسقط فى الفخ عند تقدمه فى المرحلة الثانية .

ومن الخطأ نقد خطته تلك بأثر « تقدمى » . أى باعتبار ماحدث فعلا فى اليوم التالى بل من خلال امكانياته والمعلومات المتوفرة لديه عن العدو . . . وحسب خلفيات كثيرة للمعركة . . . ولكن حتى من خلال تلك لا أظننا نستطيع أن نقول ان كررى كانت ألمع أيام الخليفة كقائد ميداني .

ولعل أول سؤال يقفز إلى ذهن المتفحص لتلك الخطوة هو ، اذا كان الخليفة يعلم ان لحظة الضعف فى موقف العدو تكمن عند خروجه من دفاعاته متقدما نحو امدرمان . اذن لماذا لم ينتظر لحظة الضعف هذه منذ البداية ، ويوفر على نفسه مشقة الهجوم على عدو فى مركز قوة متكبدا خسائر لا مبرر لها ، ليحافظ على جيشه سليما للحظة الحاسمة ؟ هل رغب فى خداع العدو حين دفع أعدادا ضخمة ونيرانا كثيفة بينما اختبأ جزء كبير آخر خلف الجبال ليقنع العدو أن هذا هو كل جيشه

حتى يسقط فى القنخ ؟ . . . أم لأنه خشى أن ترك المبادرة للعدو أن يسبقه هذا لامدرمان ؟ لقد ترك ذلك العدو متقدما نحوه لآلاف الأميال ولسنين متخذاً المبادرة والمبادرة دائماً فلماذا لم يسمح له بأخذ هذه المبادرة الأخيرة التى ستمكنه هو من إبادته الى الأبد ؟ .

ليس لأن الهجوم وأخذ المبادرة كان خاطئاً فى تلك الظروف ، فتلك نقطة أوضحناها من قبل ، بل لأن الأصح دائماً هو توجيه الثقل الرئيسى ضد العدو عندما يكون فى موقف ضعف . أخشى أن تكون الاجابة مرة أخرى هى عدم التقدير الصحيح لقوة نيران العدو .

وهناك امر جدير بالملاحظة وهو أن خطوط التشكيل ، وهى فى الواقع خطوط ابتداء ، كانت بعيدة عن الأغراض . ولورضحنا للأمر الواقع ، واعتبرنا ان الهجوم كان يجب أن يتم بعد صلاة الصبح ، « انتهى الجيش من صلاة الصبح وبدأ التقدم فى الخامسة والخمسين دقيقة » . ألم يكن من الممكن أن يبدأ التقدم - وسمى مكان بدايته ماشتت خط تشكيل أو ابتداء - من مكان أقرب للعدو قليلاً شرق وشمال سركاب ، على الأقل بالنسبة لقوات المرحلة الأولى . بحيث تصبح المسافة للغرض بين ميل وميلين . ويتم قطع المسافة الحرجة فى لحظات بزوغ الفجر - بدلاً من الأميال الطويلة التى تحتم على قوات المرحلة الأولى قطعها وضوء الفجر يزداد وضوحاً بين كل دقيقة وأخرى . فقد كان على شيخ الدين أن يعبر عشرة أميال كاملة لغرضه . وعلى الخليل وأزرق أن يعبرا سبعة أميال .

أما توزيعه لقواته الراكبة « الفى فارس » على المراحل والمحاور المختلفة دون استخدامها ككتلة واحدة كما فعل مع فرسان دغيم ، فلم يكن حكيماً على الإطلاق . فلو جمعها أو على الأقل خصص جزء أكبر منها لأى المراحل لكان ذلك أجدى كثيراً . فسرعة الفرسان كانت كفيلة بإيصال اندفاع هجومهم حتى زربية كشتنر على الرغم من النيران المركزة القوية ، فأنحدر الأرض نحو النيل وتخرجها هنا وهناك كان سيجعل خسائرهم قليلة نسبياً ، اذ يقلل فترة تعرضهم لرشاشات ودانات العدو عكس المشاة بسرعتهم البطيئة وصفوفهم المتراسة التى تمثل أهدافاً مثالية للرشاشات فى ضربها المنتشر من اليمين للشمال ، ولنيران المدفعية

لكي تجد الفرصة وتصحح نيرانها في ضربها المؤثر على صفوفهم . ثم ان قوة صدمة الفرسان ضد مشاة العدو داخل الزريبة كانت كفيلة باختراقها .

ولكن في جميع معارك المهديّة لم يبرز أبدا استخدامهم للفرسان في مجاميع « تشكيلات خيالة منفصلة » تسبق هجوم المشاة وتمهد لها بقوة صدمتها الهائلة ، فيما عدا معارك ود النجومى فهو الوحيد الذى كان يستخدم فرسانه وهو على رأسهم فى مجاميع كبيرة مسدداً هجوماً راكباً يسبق هجوم مشاته .

وفي تلك النقطة لا يمكن إلا أن نلمح خطأ يعقوب كستول عن تنظيم وتسليح الجيش . فمعظم الخيل التي دخلت المعركة « حوالى ٢٠٠٠ جوادا » كانت ملكا خاصا للأمرأ والمقدمين والأثرياء وكان تجميعها فى كتلة واحدة يعنى حرمان الجيش من كل مستويات القيادة العليا والصغرى .

وأخيرا التوقيت ، فهناك ضوء الشمس التي تلقى أشعتها في مواجهة جنوده المتقدمين لمواجهة عدو كانت الشمس خلفه . مما قلل من قدرة رؤيتهم للعدو والشمس تسطع في وجوههم ، وزادت من وضوحهم كأهداف بارزة للدفعية العدو ورشاشاته ونيران أسلحته الصغيرة . . . صحيح ان مشاة الحليفة لم يكن من عاداتهم الاكتراث كثيرا بالتصويب الدقيق واتخاذ مراكز ضربنار قبل الضرب ، ولكن كان لذلك العامل أثرا كبيرا .

أول ما يلتفت النظر في خطة الخليفة أنها بنيت على معلومات لم يتوفر فيها من التفاصيل عن العدو غير موقعه بالتقريب . . . أما تفاصيل ترتيب العدو وفرسانه ومدفيعته فلم يثبت أن الخليفة استلم غير تقرير واحد عنها طوال تلك الليلة ، ولعل ضوء البوارج حرم عناصر استكشافه من الاقتراب من الزريبة ، وهو نفس السبب الذي حرم ونجت للمرة الأولى من معرفة نوايا الخليفة بالضبط .

0.2 0.3 0.2 0.0

قبل ظهور فجر ٢ سبتمبر بساعة تحرك الخليفة من مكان مبيتة نحو وسط جيشه لتأدية صلاة الصبح . أخذ الخليفة مكانه أمام الجيش في تبة عالية خلف الرامة الزرقاء التي أحضرت من الحلف وغرست أمامه ، ووقف خلفه مباشرة

الحلفاء، ثم شيخ الدين وكبار الأمراء . . . إمتد الجيش أمامه بجناحيه الهائلين وعمقه المكثف بمقاتلي الراية الزرقاء .

واهتزت الجبال وهي تردد هتاف الألوف بالأدعية خلف قائدها ، وتماوجت الصفوف وهي تسجد وتركع وتقف في حركة واحدة . ومن تلك الآلاف ، كان مايزيد عن عشرة آلاف رجل يؤدون صلاتهم الأخيرة .

انهى الخليفة صلاته وقرأ الفاتحة ، وقرأها أربعون ألف مقاتل خلفه . . ثم جرد سيفه وهزه ثلاثا في اتجاه النهر . . . نحو العدو . . وكبر ثلاث مرات . . وأعاد سيفه لغمده وتقدم نحو العدو يتبعه جيشه .

ما أن تقدم الخليفة حتى تجمع قادة الرايات حوله لاستلام أوامره — عبد الله أبو سوار — عثمان دقنة — شيخ الدين — ابراهيم الخليل — عثمان أزرق . ويعقوب . ترجل الأمراء من ظهور جيادهم وتقدموا نحو الخليفة الا أنه لم يترجل ووقف وسطهم على صهوة جواده وشرح لهم خطته مستعينا بإشارات من يده الى المواقع والجبال المختلفة . موضحا واجب كل منهم بادئا بعثمان أزرق ثم ابراهيم الخليل ، ف عبد الله وشيخ الدين ، ثم صرفهم وهو يدعو لهم بالخير وترجل عن صهوة جواده .

* * * * *

في الساعة الثالثة والأربعون دقيقة امتلأت ضفاف النهر بأصوات عازفي الأبواق داخل زريبة السردار . . . وللم كل من في داخل الزريبة نفسه وتمطى ليزيل أثر الرقاد المتعب على الأرض الرطبة . فقد أمر السردار كل الرتب بالنوم بملابسها كاملة وأيديها على أسلحتها ، تجمع الجنود لتناول وجبة الافطار وأجبر كل منهم نفسه على تناول أكثر من طاقته من الأكل . فأمامهم يوم طويل حافل بالقتال ، ولايدري أحد متى تسنح الفرصة بتناول الوجبة التالية .

أما السردار فقد هنا نفسه . فها قد مضى الليل بمخاوفه وتوتره وأصبح الصباح ، وهامى آفاق المجد والشهرة قد فتحت أبوابها أمامه . . فقط لو قبل الخليفة المعركة في هذا الصباح . سواء مدافعا أو مهاجما . . بالطبع لو هجم الخليفة فهذا ماكان يتمناه ، ولكنه استبعد ذلك الخاطر فلم يكن هناك قائد يفكر في شن

هجوم فى هذا السهل الفسيح مواجهها أسلحة دمار الامبراطورية التى فغرت أفواهاها لتناول وليمتها الدامية . . . لذلك أمر بأن تتحرك كل قواته بالتقدم واستكشاف نوايا العدو ، فلو ظل العدو فى مكانه فسيبدأ هو بالهجوم ، ولكنه كان يرغب فى معركة سريعة يتقدم بعدها لالمدرمان لتفادى الالتحام مع العدو بداخل المدينة وقبل أن يثبت أقدامه بها .

لذا فتحت أبواب الزريبة فى الخامسة صباحا لتخرج من يسارها كتيبة الرماحة . . . أما بقية قواته الراكبة ، أى خيالة وهجانة برود وود ، بالإضافة لمدفعية الخيول المصرية فقد تحركت للشمال الغربى واحتلت جبال كررى منذ الثالثة صباحا ، نظم برود وود هجائته متجها للجنوب الغربى ووضع مدفعية الخيالة يسارهم . . . أما كتيبة الرماحة فقد تقدموا بسريرتين فى الامام . . . وسيرتين فى الخلف . . . وتوقفت كل الكتيبة لتدفع بأربعة أطواف راكبة كل منها بقيادة ضابط ، لتسلك جبل سركاب وارسال تقرير للسردار فى الزريبة عن موقف ونوايا العدو . تسلفت أطواف فرسان الرماحة قمة جبل سركاب . . . ليفجر المشهد العظيم أمامهم . . . فقد امتدت تحت أقدامهم وعلى مسافة لاتتجاوز ميلا فى مواجهة زادت عن أربعة أميال كتلة بشرية هائلة رددت الوديان هتافاتها التى سمعت من ذلك الارتفاع كهدير البحر . . . أسرع الأطواف بالتزول من الجبل وأبلغت قائد السرية . . . « العدو يتقدم نحو الزريبة » . . . مرر قائد السرية البلاغ لقائد الكتيبة ، وأسرع هذا بإبلاغها للسردار ، وسرعان ما مرى الخبر سريان النار فى الهاشم . . . « العدو يتقدم » .

.. ..

رفرفت الراية الزرقاء عاليا فوق الخليفة . . . كانت أبرز رؤية وسط مئات الرايات وهى التى أوضحت مكانه وسط حرسه الخاص . وانفرج قسمى الجيش خلفه ليتمكن من تخطى حرس الخليفة . ومن مسافة ميلين من جبل سركاب بدأ جيشه فى اتخاذ التشكيل الذى سيمكنهم من إحتلال مناطق التشكيل والتقدم حسب أسبقيتهم فى تنفيذ الخطوة : عبد الله أبو سوار فى أقصى اليسار ، يليه ومخاضا له عثمان شيخ الدين ، فى كتلة بشرية مثلت البقية الباقية من قوته بعد انفصال قوات

ابراهيم الخليل وعثمان أزرق .

أمام قلب الجيش ، تقدمت منه القوة التي أوكل اليها تسديد الهجوم المباشر في المرحلة الأولى . . . مجموعة عثمان أزرق . أما الجناح الأيمن للتقدم فقد احتله ابراهيم الخليل ، ليتمكن من تسديد هجوم من الجنب اليمين . وخلفه اختفت راية الخليفة شريف وامترجت صفوفه مع صفوف عثمان دقنة . . فقد كان واجبه الانعطاف يمينا في اتجاه النهر لحماية طريق امدرمان .

وخلف التسق الأول المكون من عبدالله . وشيخ الدين . وازرق . والخليل ، ومحاذيا لشيخ الدين تقدم الخليفة وسط حرسه الخاص ليتمكن من احتلال رئاسته التي اختارها جنوب غرب جبل سركاب .

وراء الجميع تقدم يعقوب — بدون الراية الزرقاء هذه المرة — فقد كانت ترفرف فوق رأس الخليفة . تحرك يعقوب في الخلف ليتمكن من احتلال المكان الذي يمكنه من تأدية واجباته كاحتياطي للهجوم الأول لو قرر الخليفة ذلك . . . ولتأدية واجبه المتأخر في المرحلة الثانية . أما أصاغر الأمراء فقد انبثوا هنا وهناك بعضهم يركض ، وبعضهم يتقدم بنفس خطوة المشاة على صهوات جيادهم .

تقدمت صفوفه جيش المهدي وآخر حشود عسكرية لأول أمة افرقية قامت على أكتاف بنيتها وحدهم وبثمن دماهم وحدهم نحو المعركة . . . وسارعت الجبال لتقل أصداً أناشيدهم وتكبيرهم المنغم « لا اله الا الله . . . » لم يطلع على الهتافات إلا ضربات النحاس وهي تنظم خطوة الجيش المسرعة . . . ولم تقاطع تلك الا صفير لإمباية العالى . . . وحق للنحاس أن يدوى . . . وحق للإمباية أن تصم الآذان فقد كان ذلك آخر أيامها .

في الساعة الخامسة وعشرون دقيقة وعلى بعد ميلين من جبل سركاب ، بدأ جيش الخليفة في الانقسام ليتوجه كل منهم إلى الموضع المعين — فافصل الجناح الايسر والوسط . الراية الخضراء وقوة شيخ الدين . واتجه شمالا . . نحو كبرى . . عبر السهل الواسع الذى فصل بينها وبين جبل سركاب ، وعلى مسافة اربعة أميال من زريبة كشتار . ومضى الخليفة وسط حرسه الخاص ووراءه الراية

الزرقاء مباشرة في اتجاه جبل سركاب . . . أما مؤخرة اليمين عثمان دقنة . . فقد
انعطفت يمينا نحو النهر .

أما الصفوف الامامية التي تقدمت الجميع . صفوف عثمان أزرق ، فقد التفت
حول جبل سركاب من جهة الشمال . لتعطف شرقا مباشرة أمام مقدمة زربية
العدو .

أما جيش الكارا بقيادة ابراهيم الخليل فقد إنعطف شرقا ليختفي خلف
المنخفض في طريقه لبصعد امتداد جبل سركاب متوجها نحو الجنب الأيمن لزربية
العدو . وهكذا بدأت معركة ام درمان .

٥٥ ٥٥ ٥٥ ٥٥

المرحلة الاولى

«(١) تلك عظمة الرجولة الصامدة . كانوا أشجع من مشى على وجه الأرض ،
دمروا ولم يقهروا بقوة الآله .»

تشرشل

الأمير أبراهيم الخليل سعت ٦٥٠

فى الساعة السادسة والنصف كانت كل قوة السردار قد انتظمت ووجهت
نيرانها لجهة الغرب . ومع انحناء الزريبة الدائرى ، كدس السردار كل قوته
الراجلة ومدفعيته فى قطعة من الأرض على شكل قوس ، بلغ طول قاعدته حوالى
الميل ، وقطره ألف وثلاثمائة ياردة . ومن اليسار لليمين - أى من الجنوب للشمال
ومع الانحناء الرقيق للزريبة - اصطفت كل ألوية السردار حسب الاصطفاف
التالى :

فى أقصى الجنوب وعلى بقعة من الأرض الصخرية المنعرجة احتلت ثلاث
سرايا مشاة من الفرقة الانجليزية مواقعها لتسد الثغرة بين نهاية الزريبة والنيل .
وبمينها ، وقبل بداية الزريبة احتلت ثلاث من سرايا المدفعية مواقعها السرية ٣٢ « ١٥
رطل » من سلاح المدفعية البريطانى وسريتان مكسيم نورد فلدت « ١٢ رطل » وستة
مدافع مكسيم . وضعت ذخيرة المدافع وأشرطة الرشاشات بجانبها فى متناول يد
الاطقم . إلى المدافع كل لواء ليتلتون . وفى الثغرة القصيرة : بين لوائى الفرقة
الانجليزية ليتلتون ووشوب : وضع مدفعان رشاشان « مكسيم » . كما وضع
مدفعان آخران وسريتى مدفعية كروب « عيار ٦ سم » مجرورة على البغال بين
الفرقة الانجليزية والفرقة المصرية . وتوسطت سرية من مدافع المكسيم لوائى الفرقة
المصرية ماكسويل وماكدونالد . وبين كتائب ماكدونالد احتلت بطارية من
المكسيم نورد فلدت مواقعها .

شكل السردار كل قوته البشرية على خطى دفاع بشريين . الخط الأول

The dignity of unconquerable manhood, yet these were as brave men as ever (١)
walked the earth, destroyed, not conquered by machinery.

Churchil

تكون من صفين مثلوا الخط الأول مباشرة خلف أشجار الزريبة . والخط الثانى على بعد ثلاثين ياردة خلفه لتناوب البنادق وتمير الذخيرة للأمام ونقل الجرحى للخلف .

أما الفناء الذى انحصر بين قوس الزريبة والنيل . فقد تكدست فيه مهمات القوة والمستشفى وأطنان الذخيرة وحوالى ثلاثة آلاف جمل كانت فى حراسة لواء كولنسون المصرى . وعلى طرف الزريبة جثم أسطول السردار : فى الطرف الأيسر القت أقوى بوارج الأسطول المدرعة تسليحا « ملك والسلطان » ، والظافر « مراسيها » بينما مضت بقية البوارج تدرع النيل جيئة وذهابا كالحيثان الضخمة وهى فى إنتظار وليمتها الدموية . لقد وضع السردار كل مصادر نيرانه البعيدة المدى ، وبالذات رشاشات المكسيم ، فى الخط الأمامى . موفرا أكبر كمية من النيران للاشتراك فى المعركة من الوهلة الأولى . وتركز ثقل قوته النارية فى ميسرة الزريبة حيث كان اتجاه صدمة الهجوم الأولى متوقعا . ثلاثة سرايا مدفعية من سلاح المدفعية الملكى ونيران الفرقة الانجليزية بينادقها الحديثة بعيدة المدى .

وفى مواجهة حشد النيران الهائل .. أكثر من مائة مدفع ، وثلاثين رشاشا ، ونيران فرقتين ونصف وجه أبراهيم الخليل وعثمان أزرق هجومهما .. فى وضح النهار وفى أراضي مكشوفة لأكثر من ثلاثة آلاف ياردة بدأت بطاريات الهاوترز المعركة فى تمام الساعة الخامسة والثلاث معاودة قصف امدرمان وقصف مقدمة قوات عثمان دقنه وهى تتوجه نحو النهر لاحتلال مكانها فى خور أبو سنط .

* * *

تقدم جيش الكاره بقيادة أبراهيم الخليل محاذيا الشكل الدائرى لجنوب جبل سركاب فى طريقهم لتسلق امتداد الجبل الشرقى الذى حجب العدو عن انظارهم . كان الخليل فى الصف الأول على صهوة جواده ، ويتبعه خادمه يقود جوادا ثانيا . وكعادة أصحاب الخيول فى تسمية جيادهم . كان الخليل يدخل المعارك دائما بجوادين ، يمتطى أحدهما والآخر يتركه مسرجا خاليا خلفه ويسمىها دائما « الغاية » و « النهاية » كان الخليل فى تلك اللحظة على ظهر « الغاية » تقدمت صفوف ارباعه فى مكعب بشرى مواجهته ثمانمائة ياردة وعمقها عشرة

صفوف محاذية لبعضها البعض وفي خطوة منتظمة سيطر الخليل (١) سيطرة كاملة على قوته والاعلام الكثيفة « أكثر من خمسمائة راية » التي كادت تغطي مواجهته كانت تدل على أماكن ضباطه وقادة وحدات جيش الكاره . تركز أكبر عدد من تلك الاعلام حول منتصف المواجهة ، حيث تقدم ابراهيم وخلفه حامل رايته وعن يمينه وكيل الراية ، وبعدها المئات وكل ربعين في صف واحد وأمام كل مائة مقاتل ركب قادة الرايات . أوضح تجمع المقاتلين في تلك المساحة الصغيرة ان كتف كل مقاتل كاد أن يلاصق جاره بل ان التدافع والتلاحم كانت ظاهرة ملحوظة هنا وهناك في صفوف القوة ، حتى وصل الصف الأول المنحدر الخلفي لامتداد جبل سركاب الشرقي . توقف الخليل على المنحدر والتفت لاعادة تنظيم قوته لتتوسط في اصطفاق اقتحام . اطارق الخليل برأسه ولم ينس بكلمة واحدة أثناء تحرك قادة الأرباع لاتخاذ مواقعهم . كان محمد اسحق التعايشي قائداً لأكبر ربع . اصطف كل ربعه في المقدمة . تلاه ربع حامد صابون قائداً للصف الثاني . ثم الأمير حسب الدائم . وبعدها توالى الصفوف الستة الباقية . ازدحمت صفوف الكاره أخيراً في كتلة عريضة سميكه بلغ عرضها الف ياردة وعمقها ثمانية صفوف . استدار الأمير ابراهيم الخليل أخيراً ليتقدم نحو العدو يتبعه جيش الكاره .

* * * * *

حاذى عثمان أزرق وهو متجه نحو الشمال الشرقي نهاية جبال سركاب ومنها حول اتجاهه لجهة الشرق مباشرة نحو زريبة كشتن . امتدت صفوف عثمان في شكل هلالى (٢) أو تشكيل شبيه بزاوية منفرجة . فقد برز جناحان هائلان عن يمين ويسار قلب التشكيل الكثيف الذى امتد عمقه لأكثر من ثلاثمائة ياردة للخلف . انتظم فيها أحد عشر صفاً . ومع طرفى القلب امتد للامام جناحان

(١) رمز تشرشل ومن بعده كثير من المؤرخين الأوربيين لفرقة ابراهيم « بأصحاب الراية البيضاء » "The while flag" ولكنها لم تكن بيضاء في الواقع بل كجزء من الملازمين كان لون الراية الرئيسية أخضر غامقاً ، أما الرايات الصغرى الكثيرة التي تدل على اصغر الامراء فلونها كان أبيضاً طرزت على قماسه الآيات القرآنية .

(٢) أنظر الخريطة رقم ٦ « المرحلة الأولى سمت ٦٤٠ »

فى تشكيل أقل كثافة عمقه ثلاثة صفوف .

غطت مواجهة عثمان أزرق ميلين من السهل الذى يقع بين جبل سركاب وكررى ، بحيث كان نهاية تشكيله أو الطرف الأيسر للهلال محاذيا لزرية كشنر . وعندما تداخل الطرف الأيمن مع قوات ابراهيم الخليل وهى فى صعودها لامتداد جبل سركاب ، امتدت كل مواجهة الهجوم الأول لميلين ونصف بالضبط . كتلة كثيفة فى اليمين - جيش الكاره - ربطتهم خيوط رقيقة تكونت من ثلاثة صفوف متقدمة عن قلب عثمان أزرق الكثيف ، ثم قلت الكثافة قليلا فى جناحه الأيسر . لم ينظم عثمان أزرق وحدات الهجوم بالارباع خلف بعضها البعض كالخليل بل امتدت كلها فى المقدمة فى خط واحد - ربع مسعود فى أقصى اليمين يليه عبد الله آدم ثم ربع عبد الباقي . توسط الاصطاف ربع ابراهيم جابر الذى مثل العمود الفقرى للهجوم . أما الجناح الأيسر فقد أحمله عبد المجيد أبو ساق ، ثم يساره محمد ود أبو سعد .

كان تقدمه أقل إنتظاما فقد كانت الفواصل بين كل فرد والآخر أكبر كثيرا من مثيلاتها فى كتلة ابراهيم البشرية المتقدمة يمينها .

وعندما أكمل الجناح الأيمن حركة تمدد صفوفه المتقدمة عن قلب التشكيل لجهة اليمين ، بدأت أطواف فرسان الرماحة فى اطلاق النيران عليها . تحرك أمير الراية التى كانت فى أقصى اليمين على رأس عشرين من فرسانه لاجلاهم عن جبل سركاب . ولكن عثمان أزرق أرسل فارسا سريعا ليأمر قائده بتركهم وشأنهم ، فالعدو الرئيسى أصبح على مسافة أقل من ميلين أمامهم .

لم يجعل عثمان فرسانه فى المقدمة لقيادة الهجوم بل توزعوا هنا وهناك داخل الصفوف .. وكانت مدفعيته بقيادة محمد عبد الرحمن وعلى المصرى . جرت بواسطة الجمال والخيول . تقدمت بسرعة أقل من سرعة التشكيل المتقدم وهى تتعثر ببطء فى منتصفه . اتجهت مواسيرها شرقا نحو العدو . وعندما انثنى التشكيل لجهة الشرق متجها نحو الزرية ، أوقف عثمان التقدم ليتمكن المدفعية من التقدم وأخذ مكانها فى الصفوف الأمامية .

وفي سعت ٦٣٥ ، وعلى بعد ٣٠٠٠ ياردة من العدو رفع عثمان أزرق يده إشارة لفتح نيران المدفعية ، أوقفت المدافع وتعالّت أوامر الضرب ... ثم انطلقت قذيفتان لم تتمكنا من الوصول لأهدافها فسقطت احدهما على بعد خمسين ، والثانية على بعد مائة ياردة من الزريبة الا أن المدفعية استمرت في القصف وتمكنت من اطلاق بضعة قذائف لم تصل واحدة منها إلى زريبة العدو . ما أن انطلقت القذيفة الأولى من صفوف أزرق ، إلا وأمر السردار الذي تقدم للخطوط الأمامية كل مدفعية الفرق الأمامية في يسار الزريبة بفتح نيرانها على صفوف عثمان أزرق التي بدت كهدف مثالي للمدفعية من مسافة ٣٠٠٠ ياردة ، وفي مواجهة تكلس فيها الرجال زادت عن الميئين والنصف .

.. ..

وصل الصف الأول من جيش الكارا الذي توسطه الخليل ربع ابراهيم الخليل إلى قمة امتداد جبل سركاب في سعت ٦٤٠ . وعندما وصل الصف الأخير إلى القمة ، كان جواد الخليل قد اجتاز الانحدار ووصل إلى الأرض المنبسطة . اكتملت الصفوف تحت لإنحدار جبل سركاب وتمكنوا من رؤية الزريبة وقد وقف العدو وراءها صفوفًا . كانت المسافة من العدو ٢٨٠٠ ياردة، وما أن وقعت أعينهم عليه حتى كبروا بصوت واحد وأسرعوا خطواتهم نحوه واطلقوا بنادقهم . انتشرت فقاقيع دخان البنادق الأبيض هنا وهناك في صفوف الخليل . فقد أصبح في مدى أقرب من قسوات عثمان أزرق التي حاذت جبل سركاب . أطلقت النار من الوسط وبدون تصويب وبدون توقف ولم يحاول أحد أن يقف أو يتخذ ساترًا أو مركز ضربًا بل مضوا يطلقون نيرانهم بحماس وهم يتقدمون في خطواتهم السريعة . لذا كان سقوط الطلقات أما عاليًا فوق رؤوس الفرقة الانجليزية ، أو واطًا أمام الزريبة .

ومن مسافة ٢٨٠٠ ياردة فتحت سرية المدفعية ٣٢ وسريتنا المكسب ومدفعية البارجتين « ملك والفتاح » نيرانهما عليهم . سقطت عشرون دانة في الدقيقة الأولى وسط صفوفهم وفي وجوههم بالضبط - كان أثرها ماحقًا ، فقد كانت المسافة لجبل سركاب وامتداده ، حيث كان اتجاه الهجوم متوقعًا ، محكمة منذ الليلة

الماضية . هز ارتجاف الأرض وأصوات الانفجار العنيف كل صفوفهم واضطرب نظام الصفوف المتقدمة بخطوة كانت منتظمة ثابتة حتى تلك اللحظة .

وعندما تلاشى الدخان والغبار أثر مجموعة الدانات الأولى ، وضع أثرها على الفور في الصفوف المتحمة ، فقد ظهرت الفجوات الواسعة هنا وهناك وسط الصفوف . وبدأت الاشكال الهندسية للصفوف وتشكيلات الجنود تختل قليلا وسط تدافع المقاتلين أثر الصدمة القوية من مدفعية العدو .. وبدأ الأمر وكأن الدهشة قد غمرتهم قليلا ، إلا أنه حتى ذلك الوقت لم تكن خسائرهم كبيرة ، فقد كان معدل تأثير كل دانة عشرة أشخاص تقريبا . ولكن شعور الدهشة والصدمة لم يدم إلا قليلا ، بل أمد تقدمهم بحوية دفعتهم إلى التصرف السريع ورد الفعل الفوري . فقد ارتفعت أصوات الأمراء والمقاتلين وسط دوى الانفجارات : « سدوا الفرقة سدوا الفرقة » فما هي الا لحظات حتى انضمت الصفوف مرة أخرى وبدأوا في اطلاق النار على الزربية .. ولكن قبل أن يستعدوا لاعادة تعمير البنادق لضرب الطلقة الثانية بدأت الدانات تنفجر في وسطهم مرة أخرى .. بمعدل أسرع ونيران اكثف ، غطت كل مواجهتهم وعمقهم للخلف . لقد استطاعت المدافع أن تصحح المدى وأن تجد المسافة الصحيحة ، فكانت داناتها مؤثرة للغاية . وكان أثر الدانات التي انفجرت في الهواء فوق رؤوسهم أوضح من تلك التي انفجرت وسط صفوفهم ، فقد كانت تلك دانات « الشاربيل » من البطارية ٣٢ . تساقط رذاذ المعدن الساخن فوق رؤوسهم لتختفي صفوفاً بأكملها .. وحتى الدانات التي أخطأت هدفها كانت تجد أهدافا أخرى في عمق التشكيل للخلف . أما نيران المدفع عيار ١٥ رطل من البوارج فكانت مضبوطة للغاية من قوس نيرانها المسطح .

اشترك في قصف مشاة ابراهيم اثنان وثلاثون مدفعا ، وجهت نيرانها من الجزء الأيسر من الزربية . من مدفعية الفرقة البريطانية القوية . كان الخليل في الصف الامامي كاجا جماح جواده لثمضى خطواته في نفس سرعة مشاته ، وبالتالي ظلت قوته متماسكة حتى تلك اللحظة رغم الفجوات الواسعة التي بدأت تظهر في صفوفه . وبعد أن عبر الجواد ربع المسافة بين الجبل والزربية تهاوى الجواد وراكبه فجأة على الأرض . ووسط الاضطراب الذي شمل الصفوف لمقتل القائد ، نهض

ابراهيم الخليل من الأرض سليما . فقد اصابت شظية كبيرة عنق الجواد فسقط بالخليل على الأرض . وأسرع خادمه من الخلف بالجواد الاحتياطي فامتطاه الخليل . سقط « الغاية » وامتطى الخليل « النهاية » . دام ذلك الاضطراب لحظات قصيرة وبعدها استمر الخليل فى التقدم مع قواته التى قطعت ٨٠٠ ياردة من جبل سركاب . ولكن اعدادها بدأت تتناقص بسرعة بعد السيل المنهمر من الدانات فى وسطها . كانت الدانات تنفجر بالعشرات وتتطاير الشظايا وقطع اللحم والبنادق عاليا فى الهواء .. ثم سادت لحظات سكون قصيرة لئلم الرجال فيها أنفسهم وبعدها يبدأ التقدم ، ولكن فى اعداد أقل وفى كتل مبعثرة . ومع اقتراب صفوفهم من العدو بدأت طلقات البنادق تجد مقتلا وسط الجنود السردار الذين وقفوا على اقدامهم وارتكزوا على الأرض .. ولكن قليلا ما كانت الفرصة تستح لرجال الخليل باعادة تعمير بنادقهم أو الضغط على التلك ، دحك من التصويب ورفع البنادق على الكنف .

ظلت أطواف الرماحة التى منع عثمان أزرق فرسانه من الاشتباك معها محتلة لجبل سركاب حتى تلك اللحظة . وفى السابعة والخمس دقائق وصلت اشارة من السردار للاطواف بالعودة فورا لداخل الزريبة اذ أن الرشاشات والمشاة على وشك فتح نيرانها .

على مسافة ١٠٠٠ ياردة أحس الخليل بالأثر الساحق لمدفعية العدو فقد امتلاء السهل بالآف الجثث .. وغطت بقع الدماء التى نزفت من الجروح الكبيرة نتيجة للشظايا والملابس والأرض كل ذلك ولم يمض على رؤية العدو نصف ساعة بعد . وقد شعر بتناقض قوته أمام جحيم المدفعية التى انصبت عليها - وعلى مسافة ٨٠٠ ياردة قرر أن ينحرف لليمين قليلا ليتمكن من دخول أحد الخيران (١) . علمه يستطيع تفادى المدفعية ليتمكن من تجميع قوته واعادة تنظيمها والاستمرار فى التقدم ، فلم يبق له إلا ١٢٠٠ ياردة من الزريبة ، فأشار لجنوده ليتبعوه إلى جهة اليمين .. وفى هذه اللحظة سعت ٧٠٥ - أصيب الخليل بأربعة طلقات فى صدره ورأسه

(١) الخور الصغير الذى حاول الخليل دخوله ليس له اسم ولا يتصل بالنيل - الخريطة رقم ٦ « المرحلة الأولى سعت ٦٤٠ » .

وتهاوى مع جواده على الأرض. ولم ينهض « النهاية » ، وأصيب هو الآخر ، فقد بدأت رشاشات المكسيم فى إطلاق نيرانها وكان أول ضحاياها الخليل قائد جيش الكارة . ولكن مجرد بقاءه حيا حتى تلك اللحظة كان معجزة . فقد ظل طوال قصف المدفعية فى الصف الأول . اثرت إصابة الخليل على اندفاع هجوم رايته فهو من أكفأ قادة الخليفة ، ودائما وسط جنوده . ترجل أربعة فرسان من جيادهم وحملوا الخليل وسط الرصاص المنهمر وعادوا به للخلف . أصبح أثر الرشاشات قاتلا ومدمرا على جيش الكارة للدرجة التى شلت حركتهم ومنعتهم من محاولة الانعطاف لجهة اليمين للاحتماء بالخور — فحتى تلك اللحظة كان أثر معركة المدفعية واضحا على الصفوف ، كتل بشرية متراصة ، تتناقص إلى جماعات قريبة من بعضها البعض ، تتلاشى إلى ثلل متفرقة . ولكنها حتى الآن وعلى الرغم من القصف المروع استمرت فى التقدم ، فكانت الدانات تنساق وتنفجر وسط الصفوف وتلقى الحشود صدمتها فيسقط من يسقط . ويخرج من يخرج . ويرقد الجميع على الأرض لكى ينهضوا مرة أخرى بأعداد أقل ، و صفوف مختلة ، ولكن بتصميم وعزم أقوى . وفى اللحظات التى كانت تمنح لهم فيها القصر كانوا يطلقون رصاصهم . أما الرشاشات فقد كانت شيئا مختلفا ، خصوصا عند انضمام نيران البنادق لها ، فهنا نيران مصوبة مضبوطة والمدى أقرب والأهداف أوضح وأكبر وأكثر إنحصارا ، فقد اشترك فى ذلك المدى ١٢٠٠ ياردة أو أقل ، رشاشات البوارج الثلاثة واثنا عشر رشاشا وأخيرا انضمت لهم النيران الأمامية لمشاة فرقة كاملة ، « ٢٧ سرية مشاة منها عشرون سرية فى الصف الأمامى خلاف النيران الصادره من داخل الزريبة » ، وكانت نيران المشاة مصوبة ومضبوطة . وبالاخص ضرب الجماعات "Volleys" بنواصل قصيرة منتظمة منعمة كما وصفها الشيخ بابكر بدرى وهو على بعد أميال منها « وضربوا بطلق متقطع فرماهم الجيش بطلقة متخذ صوته رن .. رن » .

تمكنت النيران المصوبة من شل حركتهم وهم يحاولون الانشاء لجهة اليمين للوصول للخور — قاد محاولة الانعطاف لجهة اليمين الأمير محمد اسحق وهو يقطع الأرض مسرعا بجواده أمام الثلل لتجميعها مشيرا بيده إلى الاتجاه الجديد للتقدم ، ولكن سرعان ما سقط صريعا على الأرض بعد اصابته بمجموعة من الرشاشات

.. وكانت الأرض فضاء وليس ثمة ساتر واحد يتخذة مقاتل لكي يصوب منه نيرانا مركزة عدا بضعة شجيرات هنا وهناك . ولكن عند اقترابهم منها سرعان ما تصبح هدفا لنيران كثيفة من الرشاشات ، لتقتلهم والأشجار سويا .

وفي الساعة ٧٢٠ ، امتلأ السهل بالجثث والجرحى والثلل الصغيرة من الرجال تتقدم إلى جهة اليمين أو اليسار للتفادي النيران المصبوبة وتلاحقهم تلك ، ولكن تقدمهم كان دائما للأمام .. ليس من بينهم من تكص على عقبه بشهادة العدو ، ماعدا أولئك الذين حملوا رفاقهم الجرحى للخلف .. وحتى وسط اللهب لم يحملوا جرحاهم ويطلقوا سيقانهم للريح . وتلك كانت من أهم النقاط التي قللت كثيرا من العدد المقاتل في المعركة .. وهو تفرغ جزء كبير من المقاتلين لحمل زملائهم الجرحى .. وكان التقليد أن يحمل المجروح بواسطة من كان على يمينه ومن كان على يساره . وفي بعض الحالات كان كل جريح يحمله ثلاثة أشخاص للابتعاد به بعيدا عن أرض المعركة . ولكن يجب أن لا يلاموا الا قليلا فقد كانوا أقرباء بعض .. وكل راية تمثل عائلة أو عشيرة واحدة ومن الصعب أن يتركوا اشقاءهم .

لم يبق هنالك صف أمامي ولا خلفي بل مجموعة من الثلل تجمعت في مجموعتين : مجموعة انتظمت في صف واحد .. وأغلبها من حملة السيوف والحراب .. وتقدمت في هجمة يائسة نحو الزريبة . وعندما أصبحت على بعد ٥٠٠ ياردة أبيدت جميعا ولم يبق منها ولا مقاتل واحد . أما المجموعة الثانية فقد انعطفت إلى جهة اليسار لتنضم إلى صفوف عثمان أزرق شمال جبل سركاب والتي وصلت معركتها قمة العنف في تلك اللحظة .

.. ..

تقدم الخليفة وسط ملازميه في اتجاه الشمال الشرقي مباشرة لجبل سركاب . وعلى مسافة ٢٨٠٠ ياردة جنوب غرب سركاب أوقف ملازميه وأقام رئاسته في سهل منبسط مغطى بالحجارة وجعل جبل سركاب يقف ساترا بينه وبين النيل والعدو . جلس حرس الخليفة الخاص « الامدادية » حول رئاسته بقيادة الأمير خير السيد صفوفا خلف بعضهم البعض . وضعت بضعة عناقير ، لكن الخليفة

لم يجلس عليها بل فرش قروة جلس عليها ، والتف حوله الخلفاء والمستشارون وكبار أمراء الحرس الخاص . وهؤلاء بعض ممن كانوا في رئاسته في تلك اللحظة :

- ١ - الخليفة على ود حلو (١) .
- ٢ - الخليفة محمد شريف .
- ٣ - السيد مكى .
- ٤ - محمد عمر البنا .
- ٥ - عبد القادر ود أم مريوم .
- ٦ - المدثر الحجاز « حامل اختام الخليفة » .
- ٧ - الطيب هاشم .
- ٨ - السيد البدوى .
- ٩ - أب جكه « ملازم الخليفة الخاص » .
- ١٠ - على الجلة « راكب مستعدا لتوصيل رسائل الخليفة للقادة » .
- ١١ - يونس الدكيم .

توقف الخليفة ولكن يعقوب إستمر فى التقدم تتبعه كل حشود الراية الزرقاء ، سلم الخليفة الراية لأحد الفرسان وأسرع هذا واعادها ليعقوب أما صفوف الراية الزرقاء فاستمرت فى التقدم إلى أن توقفت خلف يعقوب ، وبذلك اتبحت لها الفرصة لاعادة تنظيم صفوفها لتقف مستعدة للتدخل فى المعركة بعيدا عن نظر العدو ونيرانه . والتفت بعدها إلى قوته التى تكدست بدون نظام فاستدعى

(١) خلافا لما ذكره كل المؤرخين ، ترى هنا أن الخليفة على ود حلو لم يشترك فى هجوم الراية الخضراء ولم يغادر رئاسة الخليفة بصفته الرجل الثانى . وقد نشأ الاعتقاد بأنه اشترك فى الهجوم أولا لأن الراية الخضراء رايت اشتكت فى الهجوم وظن الجميع أنه قادها وثانيا لأنه جرح فى المعركة فى فخذه . ولكنه لم يجرح مع الراية الخضراء بعيدا فى جبال كررى بل جرح بشظية أصابته وهو فى رئاسة الخليفة . أكد لى هذا الشيخ عبد الله محمد نور ملازم الخليفة على ود حلو الذى لم يبرح الرئاسة طوال فترة المعركة « قلى ٢٩ / ٦ / ٧١ » وتأكدت من تلك النقطة وثبوتها بما لا يدع مجالا للشك . وفى الواقع لم يكن الخلفاء بعد معركة قدير يشتركون فى المارك . كان لكل راية أمير أمراء - مثلا ود النجومى أمير امراء الراية الصفراء ، يعقوب أمير أمراء الراية الزرقاء ، عيسد الله أبو سوار أمير الراية الخضراء وهو الذى يقود الهجوم .

أمراء الأرباع وأمرهم بالتجمع في صفوف العرصة الممهودة . وبدأ السهل بموج بالتحركات التي استلزمها تشكيل رايته . امتدت صفوفه في مواجهة بلغ طولها ٢٠٠٠ ياردة متجهة جهة الشمال الشرقي إلا أن جبل سركاب أخفاها وعزلها عن بقية المعركة .

وضع مدفعان أمام الخليفة . وبعد قليل سمعت من بعيد أصوات الطلقات المتقطعة بعد بداية هجوم إبراهيم الخليل . فارسل على الجلة لتسلق جبل سركاب وتبلغه عن الموقف وتطور الهجوم الأول .. وهل يحتاج إبراهيم لتعزيز من الخلف ؟ عاد على الجلة وأعطى تقريراً مفصلاً عن هجوم الخليل فعلق الخليفة قائلاً « ده محروق على ود أمه » (١) ثم أمر الأمير خير السيد باحتلال قمة سركاب وتحرك هذا متسلقاً الجبل وخلفه مائة مقاتل من الحرس وضعهم في القمة وكر عائداً لرئاسة الخليفة .

أما شيخ الدين وعبد الله أبو سوار فقد انفصلا عن التجمع الرئيسي للجيش على بعد ميلين في نفس اللحظة التي انفصلت فيها قوات المرحلة الأولى — شيخ الدين في المقدمة وخلفه أبو سوار . كان محور تقدم شيخ الدين لجهة الشمال الشرقي ، بحيث أصبحت سلسلة قمم أبو زربية تعترض طريقه مباشرة .

شكل شيخ الدين قوته في مستطيل كثيف بلغت مواجهته ١٢٠٠ ياردة أما عمقه فقد كونه أرباع الملازمين المتراسة خلف بعضها البعض ، ربع العريفي الربع في المقدمة — وكله مسلح بالبندق — شكلت رايته الأربع الصف الأمامي وتجاوزها ربع عثمان قليلاً من جهة اليسار . تلاه ربع جابر أبو شليخات ثم آدم اسماعيل ثم فضل بشارة ثم ربع إبراهيم مائل فربع الطاهر على في المؤخرة . كان تشكيل شيخ الدين تشكيل اقترحام والخطوة مسرعة مع انحدار الأرض نحو البروز المفاجيء (لأبو زربية) .

خلف الشكل المنتظم لمستطيل شيخ الدين انتظمت على مسافة ٢٠٠ ياردة قوة أخرى يقدر عددها بالآلاف في شكل مربع ضخم . كان ذلك حرس شيخ

(١) يقصد أن إبراهيم الخليل له ثأر شخصي مع العدو فقد أخذوا شقيقه محمود ود أحمد أسيراً .

الدين بقيادة رابع الحبشى وهو على جواده فى الوسط . كان شيخ الدين على مسافة بعيدة من صفوف الاقتحام الأمامية اذ حجب عنها بالوف من البشر . لم يكن شيخ الدين من مركز قيادته ذلك بعيدا فى الخلف متمكنا من ابراز أى تأثير قيادى على قوته المسرعة . وفى الواقع تعزى تصرفات قوة الملازمين منذ بداية التحرك إلى حيوية قائد موجه الاقتحام الأولى ، الأمير العريفى الربيع الذى أسرع بجواده جارا وراء كل قوة الملازمين (١) .

أما الراية الخضراء بقيادة عبد الله أبو سوار فقد تقدمت باصطفاف العرضه العادى . أبو سوار فى المقدمة وخلفه أرباع الراية فى صفوف تكون كل منها من مائة مقاتل فى كل صف ، حسب القوة العددية لفروع قبائل النيل الأبيض . وخلف عبد الله أبو سوار تقدم ربعة الأصلى ثم ربيع عبد الله برجوب ثم محمد المساعد ثم البشير عجب الفيه . بينما تقدم فرسان دغيم بعذاء التشكيل لحماية جناحه اليسر . إنعدمت الأسلحة النارية تماما من صفوف الراية الخضراء .

فى البداية تقدمت الراية الخضراء ككتلة واحدة مع الملازمين . ولكن الفاصل سرعان ما بدأ يتسع بينهما عندما مال الملازمون لجهة الشرق قليلا ليتمكنوا من تغطية أبو زريبة والانقضاض عليه . كان أبو زريبة محتلا فى تلك اللحظة بكل خيالة وهجانة برود وود وبكل مدفعية الخيالة .

* * * *

انطلقت القذائف الأولى من وسط صفوف عثمان أزرق - كان ارتفاع انفجار الدانات ممتازا دلى على الضبط الدقيق للفيوز الزمنى .. الا أن الغلاف النحاسى الذى وضعت داخله العبوة المتفجرة كان رهيفا للغاية مما جعل أثر الشظايا ضعيفا ، كما كانت المسافة بعيدة ، فسقطت أغلب الدانات على بعد مئات الياردات

(١) يتضح مما ذكره المرحوم المؤرخ محمد عبد الرحيم أن شيخ الدين كان بعيدا عن موجات الهجوم الأولى ولم يشترك فى ادارته . فبعد أن اشترك فى اشتباك الملازمين مع الخيالة وعبر كل منطقة كبرى وتعرض لليران وجرح ، وهنا فقط ظهر شيخ الدين وسط حرسه « فبحرحت أنا جرحا بليغا فى فخذى الايمن من الامام وبعد أن صرعت على الأرض هنيهة وثبت قائما وصرت أنوكا على عمود رمح وأنا عائد للخلف ظهر أمام جيش يتكون من الفرسان التى هى الحرس الخاص بالامير شيخ الدين وما كاد يرانى .. » محمد عبد الرحيم - معجم الشخصيات - شيخ الدين .

من طرف زريبة العدو . أمر عثمان أزرق المدفعية بأن تتحرك يمينا لجبل سر كاب وتتخذ مواقعها فى قمته وان تساعد الهجوم من ذلك الموقع الحاكم .

بدأ جناح عثمان أزرق فى الانتشار يمينا ويسارا وهم يقصرون المسافة بينهم وبين عدوهم بسرعة . إلا ان الشكل الهلالى بدأ يختل قليلا . فأوامره للاجنحة بالانتشار لكسب الأرض يمينا ويسارا للاحاطة بزريبة العدو جعلت سرعة تقدم الوسط أسرع قليلا للامام . وبدأت الأحجار والأشجار تختفى كلما وصلها الطوفان البشرى فى تدفقه السريع . لم يجمع عثمان البنادق فى مكان واحد أو مجموعة واحدة بل تبعثروا فرادى هنا وهناك وسط حاملى السلاح الأبيض . . . لذا حرم تقدمه منذ الوهلة الأولى من الاستفادة من مجموعة مؤثرة من النيران وعندما رفع بندقيته فى الهواء وضرب الطلقة الأولى ايدانا للبندقجية بفتح النيران ولحاملى السلاح الأبيض بالاندفاع نحو العدو . . ظهر دخان البنادق كفقاقيع صغيرة من الدخان هنا وهناك وسط المواجهة الواسعة ، لذا لم تثر كثيرا من الاهتمام فى زريبة العدو .

كان ذلك سعت ٦٥٥ وهو على مسافة ٢٨٠٠ ياردة من العدو . ردت عليهم مدفعية العدو على الفور . فقد كان عثمان أزرق بتقدمه مواجهها لكل نيران الزريبة تقريبا . . ومباشرة أمامها . . وقد وضع كتنشر بطارية كاملة من رشاشات المكسيم « ٦ مدافع » فى منتصف الزريبة بالضبط . كما وضع سرية من المدافع « ١٥ رطل » ذات التصويب الدقيق فى وسط الزريبة .

وعندها أمر السردار بفتح النيران ، وليس من المدفعية وحدها ، بل المدفعية والرشاشات وكل مشاة الزريبة التى مكنها موقعها من تصويب نيران أمامية مباشرة . اشترك فى الضرب على صفوف عثمان أزرق ٦ مدافع رشاشه و١٢ مدفع ١٥ رطل ونيران البنادق ١٢٠٠٠ من المشاة . كانت موجه النيران الأولى قليلة الأثر على التجمع . فقد كانت المسافة بعيدة نسبيا ، والسهل بين سر كاب وكررى مغطى بالشجيرات وحشائش الخريف إلى مسافة ١٠٠٠ ياردة من النهر ، حيث تقل كثافتها ويبدأ السهل المنبسط المغطى بالحصى حتى النهر .

أما النيران التى فتحت من الجنب الأيمن من الزريبة الذى احتلته الالوية

المصرية فلم تؤثر في صفوف الاقتحام على الاطلاق ، فقد سلحوا بالبنادق « مارتن هنرى » وكان مداها أقل كثيرا من بنادق « متفورد » التي فتحت نيرانها من جانب الزريبة الأيسر ، جانب الفرقة البريطانية ، ولكن أغلب كتائب الفرقة الانجليزية كانت مشغولة في تلك اللحظة في صد هجوم ابراهيم الخليل .

كان رد فعل عثمان أزرق أن أبطأ سرعته قليلا وأشار يده إلى الأجنحة لترداد انتشارا إلى أن تلامست مع الطرف الأيمن لابراهيم الخليل .. ولكن مدفعية العدو سرعان ما وجدت المدى الصحيح من مسافة ٣٠٠٠ ياردة في عمق صفوف الهجوم وبدأ فتكها في صفوفهم الخلفية . ولكن صفوف أزرق الأمامية تمكنت من التوقف والبدء في اطلاق النار فاستطاعت مئات الطلقات أن تجد طريقها داخل زريبة العدو . خصوصا وسط الفرقة الانجليزية حيث كان هؤلاء وقوفا على أرجلهم ، وإليهم وجه عثمان أغلب نيرانه ، فاللوية المصرية لم تكن أهدافا ظاهرة فلم تظهر الا رؤوسهم ، فقد كفلت لهم الخنادق التي احتموا داخلها ساترا جيدا من طلقات عثمان أزرق . وعلى الرغم من أن نيران عثمان كان أغلبها طائشا — فقد كان الضرب من مسافة تتراوح بين ٢٠٠٠ و ١٦٠٠ ياردة — الا أن بعض طلقاته وجدت مقتلا داخل الزريبة ، وسرعان ما بدأ جنود الفرقة الانجليزية يتساقطون حتى بلغت خسائرهم اربعين ما بين قتيل وجريح .

أوقف السردار جواده خلف لواء وشوب ، وعندها لاحظ الحركة الدائبة لحملة النقالات ، فأمر بتعزيز وسط الزريبة بمدفعين من اليسار — حيث بدأ هجوم ابراهيم يخف قليلا . وفي تمام الساعة السابعة احضر المدفعان وأشركا في المعركة ، كما تم سحب ٤ مدافع مكسيم من جبال كررى حيث كانت تعزز قوات برود وود الراكبة .

كانت الموجة الثانية من دانات المدفعية أكبر تأثيراً . فقد انفجرت وسط الصفوف الأمامية ، كما حصدت الرشاشات الأجنحة وقلب التشكيل وبدأت الفجوات تظهر هنا وهناك وتساقط مئات . بل شوهدت رايات بأكملها تختفي بالفعل ، ويسقط رجالها مبعثرين بين قتلى وجرحى .. وعندما تلاشت الموجة الثانية وتبعثها الموجة الثالثة وضح أثر صدمة المدفعية وفعالية الرشاشات في اضطراب الصفوف

.. وفى اختفاء نصف الجناح الأيمن وجزء كبير من قلب التشكيل . كما أن طلقات البنادق انقطعت ، وعلى افتراض أنها فتحت نيرانها ، فلم تشاهد على الإطلاق وسط الغبار والحصى والشظايا المتطايرة .

وبتحركات أملتها الغريزة بدأت الصفوف تنضم إلى الوسط . وهنا كانت الفرصة أكبر للمدفعية والرشاشات . فحتى الآن استطاع عثمان شق طريقه للإمام على الرغم من جحيم النيران واهتزاز الأرض بدانات المدفعية .. نظرا لأن كثيرا من طلقات العدو لم تجد مقبلا للفواصل الواسعة بين الأفراد والرايات . ولكن فى تلك اللحظة ، بعد أن أصبحت مجموعة الهجوم كتلة واحدة ، فقد بدأ حصاد الموت . فقد انصببت كل نيران العدو الثقيلة والصغيرة على تلك الكتلة البشرية . وحتى نيران البنادق وجدت ضحاياها من ذلك المدى البعيد وسط الآلاف المراسه ، فقد كانت المسافة أقل من ١٢٠٠ ياردة عن زريبة السردار .

وعبثا حاول عثمان إعادة تشكيل قوته وإعادة انتشارها .. فكل الذى أفلح فيه صياحه وإشارات يده أن زادت من اندفاع الآلاف للإمام .

لاحظ عثمان أن النيران التى فتكت بنصف قوته تنصب من جهة اليمين ولكى يتفادها قرر أن يحول اتجاهه لجهة اليسار حيث الألوية المصرية يتنادقها ذات المدى القصير نسبيا ، وحيث خف ثقل نيران مدفعية العدو كثيرا . وعلى الرغم من أن العدو لم يكن يبعد منه إلا ميلا واحدا أو أقل ، إلا أن الواضح أن قطعة تلك المسافة ، وبذلك السرعة كان كفيلا بأن يستهلك جزءا كبيرا من صفوفه ، لذا قرر شن هجمة سريعة بالفرسان ليصل الزريبة ويحرقها لتتمكن الجموع المتكدسة أن تصل الزريبة والخنادق وتشتبك مع العدو .

أمر الأمير جابر التعايشى بالتحرك برايته والهجوم مباشرة على الزريبة واستطاع هو أن يستخلص خمسين فارسا ومائة من المشاة وأطلق لجواده العنان وعلق بندقيته على كتفه واستل سيفه واندفع فى اتجاه مائل قليلا لجهة اليسار ، يتبعه حامل رايته ثم بقية فرسانه .. وانطلقت كل الراية خلفه فى ركض سريع نحو العدو .

كان اقتحامه مباشرة أمام سرية رشاشات المكسيم فى منتصف الزريبة التى فتحت كل نيرانها بدون توقف . بدأ الفرسان يتساقطون حول عثمان أزرق وهو فى اندفاعه نحو الزريبة والمسافة تقصر قليلا قليلا بينه وبين العدو .. إلى أن أصابته طلقة فى فخذه ولكن اندفاع الجواد حمله مئات الياردات للامام وبعدها انهالت الطلقات عليه فسقط من جواده على الأرض على مسافة ٥٠٠ ياردة من الزريبة .. الا أن الرشاشات لاحقته وهو على الأرض .

ولكن حامل الراية وخمس فرسان آخرين كانوا هم المتبقين من الخمسين استمروا فى اندفاعهم السريع نحو الزريبة، ولكن النيران حصدهم واحدا بعد الآخر ولم يبق إلا حامل الراية، رجل مسن فى العقد السادس من عمره، واصل الاندفاع وحيدا نحو الزريبة إلى أن جندلته هو الآخر مجموعة من الرشاشات وسقط يتلوى على بعد ١٥٠ ياردة من الزريبة . كان ذلك أقصى مدى وصله هجوم عثمان أزرق فى الساعة ٧:٣٥ .

كانت المجموعة الثانية التى أمرت باختراق الزريبة بقيادة ابراهيم جابر أوفر حظا وأثرها أكثر وقعا على العدو فقد استطاع ابراهيم جابر أن يشق طريقه بالرغم من نيران رشاشات ومشاة الفرقة الانجليزية . ولكنه عندما أحس بكثافة النيران التى وجهت عليه استحسن أن يكون هدفه - فى تلك المرحلة على الأقل - احتلال موقع قوى يتمكن منه من توجيه نيران بنادقه نحو العدو ليتمكن السلاح الأبيض من الوصول للزريبة .. وفى تلك اللحظة لم تكن المرتفعات هى المواقع المثلى لتوجيه النيران .. بل كانت منخفضات الأرض وتعاريجها .. ولذلك اندفع مباشرة ووراء ثلاثمائة مقاتل تسلحوا بالبنادق نحو منخفض من الأرض الرملية على مسافة ٥٠٠ ياردة أمام لواء ووشوب . حماهم المنخفض من الدانات التى وجهت نحوهم ، وتساقطت يمينا ويسارا ، الا أنها لم تصب أحدا . كما أن قوس النيران المسطح لم يمكن كل المدفعية التى وجهت نحوهم من نيل بغيتها منهم . فرقدوا على الأرض وبدأوا فى توجيه نيرانهم على الزريبة وأهدافها الواضحة التى تمثلت فى الالوية الانجليزية وهى تقف على قدميها ، وبدأوا فى اصطياذ العدو من سائرهم الرمل . وفى العشرة دقائق الأولى تساقط خمسة من العدو ثم ارتفع

العدد إلى عشرة ، إلى عشرين ، إلى خمسين . ولكن المدفعية رفعت نيرانها عنهم لمواجهة الكتل البشرية التي استطاعت على الرغم من إبادة نصفها ، وعلى الرغم من عاصفة المعدن الساخن التي انطلقت في وجوههم ، ان تصل إلى مسافة ٢٠٠ ياردة من الزريبة . فقد استمر التقدم ، ولكن بصعوبة وتعثر ، واستمرت المدافع العشرين والرشاشات في الضرب على الكتلة المتقدمة بمعدل تجاوز ٦٠ دانه في الدقيقة . وعلى الرغم من أن الرشاشات كان أثرها حسيابيا ، فقد تساقطت الصفوف واحدا بعد الآخر نتيجة لضربها المنتشر ، الا ان رمى المدفعية كان أكبر اثرا على تقدم المجموعة فالرشاشات تأخذ من كان على يمين ويسار كل مقاتل بدون أثر ، ان لم تصبه هو .. أما المدفعية ، فالدوى العالى والغبار المتصاعد استطاع ان يشل عقول واقدام الكثيرين وان يبطئ لحد بعيد من سرعة تقدمهم ، ليوفر فرصة أوسع للرشاشات وآلاف البنادق لترفع في الاكتف وتطلق بعد تصويب طويل دقيق .

وفي سعت ٧٤٠ ، كانت شوكة الهجوم قد كسرت تقريبا .. وانقسمت موجاته إلى جماعات لم تكن الرايات ، ولا رؤوس المائة رابطا بينها ، بل ثل كبيرة هنا وهناك سرعان ما ذابت في مجموعات صغيرة مكونة من ثلاثة أو أربعة رجال لحمل الجرحى والعودة بهم للخلف . وبعدها بدأت مدفعية العدو في تنظيف السهل الواسع . وعلى كل ثلة وجهت نيران المدفعية لتسقط وسطهم . لينبطحوا على الأرض إلى أن يزول الدوى وينهضوا للتقدم وهم أقل عددا وهنا تتناول الرشاشات نفس التجمع .. لينبطحوا على الأرض .. ثم توجه نحوهم نيران المدفعية لينهضوا وتنصب عليهم نيران الرشاشات إلى أن امتلاء السهل بالجثث والجرحى ولم يبق من الأحياء الا حاملي الجرحى في تهقرهم البطيء للخلف ، وراية ابراهيم جابر التي لازالت متمسكة بمكمنها الحصين باصرار ، وهي توجه نحو العدو نيرانا حامية .

وفي الواقع يعزى استمرار المعركة لنصف الساعة الأخيرة لرجال جابر . لم تكن نيران جابر موجهة بالجماعات بل كان الضرب منفردا ، كلما سنحت الفرصة لاحد المقاتلين أثناء فترة السكون القصيرة بين كل انفجار وآخر ، وبعد مرور مجموعات الرشاشات فوق رؤوسهم ، ليرفع بندقيته ببطء ، ويحدد هدفه

وبسرعة يطلق عدة أعيرة نارية ويخفى رأسه مرة أخرى ، فالهدف واضح وكبير تكون من آلاف الجنود من الفرقة الانجليزية وقد وقفوا على اقدامهم . وعلى الرغم من أن المسافة بينهم وبين العدو كانت أبعد من المدى المؤثر ليران بنادقهم ، وعلى الرغم من عدم توفر الفرصة للتصويب الدقيق ، وعدم توفر الذخيرة ، إلا أن الراية الباسلة استطاعت الصمود في مكانها ساعة كاملة والمركة دائرة بينها وبين الالوية الستة على هذا المنوال إلى أن فكر ووشوب جديا في طلب المساعدة من الفرسان لاجلائهم عن موقعهم . وتعود أغلب خسائر الفرقة الانجليزية في المرحلة الأولى « ٥ ضباط و ١٥٥ جندي » إلى نيران راية جابر .

كانت الساعة ٧٥٥ عندما أوشك القصف التفتيشي للعدو على الانتهاء من مهمته ولذا وجهت نيران البطارية « ١٥ » رطل في يسار الزريبة إلى المنخفض الرملى لاسكات بنادق على جابر التي وقفت الرشاشات عاجزة حيالها ، فبدأت الدانات تتساقط حول موقع الراية إلى أن سقطت دانة وسط موقعهم بالضبط واسكتت نيرانهم لحين وبعدها وجدت مدافع البطارية المدى والارتفاع الصحيح فبدأت الدانات تتساقط داخل المنخفض . وجد على جابر أن مكمنه الحصين أصبح مصيدة موت فأمر جنوده بالخروج والتقدم نحو الزريبة حيث تلقفتهم نيران الرشاشات والبنادق فأبيدوا عن آخرهم ، عدا جابر فقد أصيب في معدته وحمل للخلف على مسافة خمسمائة ياردة من العدو .

وبذلك انتهت المرحلة الأولى . بلغت خسائرها ٧٤٠٠ بين قتيل وجريح « ٢٩٠٠ قتيل ٤٥٠٠ جريح » كما توفي الامراء الآتين :

- ١ - جيش الكارة « كل أمراء الأرباع »
- ٢ - مجموعة عثمان أزرق (١)
- الأمير إبراهيم الخليل
- عثمان أزرق
- الأمير مسعود

(١) بنى هذا التقدير على عدد الجماجم التي أحصاها كابتن بيرجز في فبراير ١٨٩٩ وبعد خمسة أشهر في المركة وقد أحصى عدد الجماجم فوجدوه ٢٣٠٠ في مسرح المرحلة الأولى من المركة فإذا اضيف لذلك الرقم نسبة ٢٥٪. دفنوا في ارض المركة أو في أمدرمان كما لاحظ هو ذلك أصبح عدد القتلى حوالى ٢٩٠٠ وإذا اضيف لذلك العدد ١٥٠٪. وهى نسبة الجرحى من الخسائر يصبح الرقم النهائى حوالى ٧٥٠٠ .

الأمير فضل بشار

الأمير محمد اسحق

الأمير حامد صابون

كما جرح الأمير عبد الباقي

الأمير حسب الدائم محمد

والأمير ابراهيم جابر

الأمير اسماعيل ود صالح

الأمير عبد اللطيف محمد

أما العدو فقد فقد ٥ ضباط و ١٥٥ بين قتيل وجريح .

* * *

إنتهى الهجوم الأول كمنبجة لم يشاهد التاريخ مثلها الا قليلا ، وفي عرض
لافضل خصال البشر عندما يتجردون من كل ضعف ونحور وتبرز صفات الشجاعة
التي لا تعرف حدودا ، والتضحية التي لا تطلب الا تقديم المزيد ، وفي أعنف
اختبار يؤديه البشر ، ونادرا ما اجتازته أمة بمثل النجاح الذي برز يوم الثاني من
سبتمبر . ومن الألوف التي اقتحمت النار ، كانت المسيرة الدموية لكل واحد
منهم تكون مادة دسمة لقصة كاملة .

كانت تلك كلمات العدو :

« والعدو ١٢ لقد حاز هو شرف اليوم . لقد وصل رجالنا درجه الكمال ،
ولكنهم هم فاقوا حد الكمال ، لقد كان ذلك أعظم وأشجع جيش خاض
حربا ضدنا ، وأبىد وقتل جنوده بشجاعة جديرة بالامبراطورية الهائلة التي
أقاموها والتي حافظوا عليها طويلا .

حملة بنادقهم يحوط بهم الموت والقناء من كل جهة ، وهم يجاهدون عبثا
لاطلاق ذخيرتهم القديمة الرديئة عديمة الأثر في وجه أقوى وأحدث أسلحة
التدمير .. » .

والفضل ما شهدت به الأعداء (١) .

* * *

شنت هجمات المرحلة الأولى على العدو يختلف وضعه عن العدو الذي واجه

هجمات الخليفة في المراحل التالية، عدو متحكم داخل دفاعاته وأقدامه ثابتة على الأرض ، وشتت هجمتي عثمان والخليل بتكتيك جديد لم يلاحظ من قبل في جيوش المهديّة . أما الجديد فيه فهو انعدام أى أسس تكتيكية على الإطلاق - فكل الذى شوهد ببساطة هو آلاف من المقاتلين يندفعون نحو الموت . ولأن نسبة الخسائر في هذا الهجوم كانت أعلى نسبة ، ولأنه يختلف كثيرا عن باقى الهجمات ، فيستحسن أن نتعرض له الآن وقبل أن نتوه في مراحل وتفاصيل المعركة اللاحقة .

لقد بدأت الأخطاء منذ المراحل التحضيرية للهجوم . وأقصد بذلك الاستطلاع ، سواء من عثمان أو الخليل . واعتقد انه لا بد لنا هنا من العودة مرة أخرى إلى مرقف القادة ووضعهم . وبالأذاة ابراهيم الخليل . فاقترحام ابراهيم الخليل وهو يرمى مباشرة نحو العدو متجاهلا طرق اقتراب مستورة كثيرة ، تكاد تعلن أن الخليل قاد هجمومه وهو لا يعلم عن عدوه وعن مسرح معركته إلا موقع العدو ، ولكن الثابت عكس ذلك . فالخليل ، كان أحد القلائل الذين خرجوا للاستطلاع في عصر الخميس ، ولم يكن العثور على طرق الاقتراب بحاجة إلى تخصيص زمن مثل الزمن الذى خصصه له الخليل ، فهناك خور أبو سنط في اليمين وعشرات من ثنيات الأرض وتعاريجها وسواترها كانت تقود لزريبة السردار . هل أهمل الخليل دراسة الأرض دراسة وافيه على اعتبار أن الرأى الذى توصل اليه ، الهجوم ليلا ، سيأخذ به بداهة ، وان سائر الظلام كفيلا بتقليل أهمية اختيار طرق الاقتراب ؟

ويجب أن نوضح هنا أن عملية الاستكشاف نفسها لم تكن جديدة على جيوش المهديّة . ولا أقصد الاستطلاع الاستراتيجى البعيد الذى خصص له ٣٠٠٠ فارس كما حدث في شيكان ود براسين ، بل أقصد الاستكشاف الشخصى للقادة قبل الدخول في المعركة مباشرة . وهو ما كان يحدث دائما بأوامر المهدي والخليفة حتى في الحروب الأولى . بل ان عبدالله نفسه كثيرا ما قاد مجموعات الاستكشاف .

قد يقول قائل ان هجمات الخليل وأزرق شقت طريقها وسط أرض فضاء متشابهة ، كما وصفها معظم من تحدثوا عن المعركة فيما بعد ، ولكن هذا ليس صحيحا . فالسهل أمام ويمين زريبة كشتى لا تنقصه التعاريج وثنيات الأرض هنا وهناك . وقد أوضح ذلك بجلاء موقف راية ابراهيم جابر عندما استغلت منخفضا

من الأرض لا يزيد طوله عن ١٥٠ ياردة حيث مكنتها من الصمود ساعة كاملة أمام نيران أربعة الوية مشاة ومدفعية ضخمة ، ووضح الأثر الكبير لابتسط استغلال لطبيعة الأرض سواء في نسبة الخسائر في صفوف العدو أو من ناحية الاقتصاد في الأرواح .

لا يستطيع أحد أن يجزم بأن ما ذكر أعلاه هو التفسير الحقيقي لسلوك الخليل وقيادته المنهورة لذلك الهجوم ، وقد كان أكثر القادة حماسا للهجوم الليلي ، وبالتالي أكثر الناس احساسا بأهمية السواتر لثقى من نيران العدو وتفوقها . ولكن يكاد المرء يميل للرأى القائل بأن الخليل هجم ليموت ، وليس ليحقق انتصارا : امتلا نفسه غضبا من تسفيه شيخ الدين لرأيه ، الالتاظ النى تفوه بها بعد المجلس ، واطراقه وصمته وهو يقود الهجوم حتى مقتله .

كما لم تراع أبسط أوليات التشكيل لقوة الاقتحام الفواصل بين كل فرد وآخر وبالذات فى هجوم ابراهيم الخليل - صحيح أن حروب المهدية لم تكثر لهذا الأمر كثيرا منذ بدايتها ولم يكونوا أبدا حريصين على تطبيقه ، ولكن التخطيط الاستراتيجى الذى كثيرا ما كفل تخفيف أثر هذا العيب فى الحروب الأولى كان مفقودا هذه المرة منذ اللحظة التى قرر الخليفة فيها خوض المعركة فى كررى ومع تلاشى الظلال الأخيرة لليلة الأول من سبتمبر .

كان ذلك موقف الخليل وموقف جيش الكارا . ماذا عن الهجوم المباشر . ان الذى يتابع محور الاقتحام المباشر اليوم ، وفى نفس الفصل ، والخرىف فى أوجه ، يلاحظ أن طبيعة السهل المنحصر بين جبال كررى وسركاب ليس كما وصفت بأنها أرض منبسطة جرداء ، بل تغطيها الشجيرات الصغيرة إلى مسافة ٢٠٠٠ ياردة من النيل . وبعدها تبدأ مساحة كبيرة من الأرض الجرداء مغطاة بالحصى حتى النهر . لقد بدأ انكسار الهجوم الحقيقى من مسافة ١٢٠٠ وحتى من مسافة ٥٠٠ ياردة . اذن كيف تسنى ايقاف الهجوم فى زمن تعرضه القصير ذلك ؟ هناك عاملان رئيسيان وضحا فى سير الهجوم . يكمن الأول فى اختيار محوره ، والثانى فى تشكيل الاقتحام .

فأولا كان هجوم عثمان أزرىق هجوما مباشرا "Frontal Attack" - وفى

الواقع منذ ادخال البنادق Metford التي تعمر بواسطة الرصاص وتغذى نيرانها بخزنة مثبتة عليها ، ومنذ استخدام الكوردايت الذي يوفر مدى أبعد وضبطا أكثر ، أصبح أى هجوم مباشر فى وضوح النهار وبدون غطاء نيران متفوق مقصيا عليه بالفشل . وإذا اضيف لقوة بنادق المشاة "Musketry" السلاح الرهيب الجديد ، الرشاشات ، قلت فرصة الهجمات المباشرة فى تحقيق النجاح . وقد احتاج العسكريين لعشرين عاما ، وحربا عالمية دامت أربعة سنوات لاستيعاب هذا الدرس .

كان هناك عامل آخر ساهم فى سرعة شل الهجوم ، ألا وهو المواجهة العريضة من دون توفر العمق الكافى لتحقيق الانسياب الذى يضمن اقتحام الألوف بالسلاح الأبيض والاطاحة بزرية العدو وخنادقه . لقد بلغت مواجهة عثمان أزرق عندما امتدت صفوفه للاقتحام لأكثر من ميلين . وقدر من كان فى الزريبة أن عمق الهجوم كان ثلاثة صفوف فى كل المواجهة تقريبا ، عدا بعد التكشف هنا وهناك .

ان العمليات العسكرية ما هى الا تطبيق لخيال ونظريات ناجحة . ويجب دائما تصور الاقتحام فى صورة سيل من الرجال المسلحين ينساب مسرعا هادرا نحو هدفه للاقتحام معه والاطاحة به . بحيث تشكل نقطة ابتداء الهجوم منبعا لتوليد سيل المقاتلين ، وان تمثل سرعة اقدام الجنود أو مركباتهم تيار هذا السيل المتدفق إلى الغرض ، كمياء الأنهار المنحصرة ، وهى دائمة البحث عن المجرى الملائم . وعن النقاط الضعيفة فى الأرض سواء من التربة الناعمة أو منخفضات الأرض . وأين تمثل ذلك فى زريبة السردار ؟ تمثلت فى مئمة الزريبة التى احتلتها الفرقة المصرية . ومن الخطأ دائما نشر مواجهة الاقتحام فى مواجهة عريضة لتغطية كل الهدف . اذ أن ذلك يؤدى لتقليل العمق .. القوة الدافعة الرئيسية للسيل البشرى المناسب . ان المواجهة الضيقة المتدفقة بسرعة فى خط طويل نحو نقطة العدو الضيقة بانسيابيتها واستمراريتها هى التى تعطى الاقتحام تلك الخاصة السيالة الانسيابية . وعكس ذلك هو انتشار قوات الاقتحام فى مواجهة عريضة كحائط بشرى . فذلك يجعل من عاصفة الهجوم الساخنة لفحة أو لفحتين ، ويجعل سيل الهجوم المستمر ، موجة واحدة حائرة سهلة الانكسار والتلاشى .

ولم يكن تشبيه الهجوم بمياه الأنهار والجداول من وحى الخيال ، بل الواقع أنه أول ما يخطر ببال من يشاهد المنطقة التي عبرها اقتحام عثمان أزرق . فأول ما يلفت النظر في تلك المنطقة بين سركاب وكررى هى شبكة من مجارى الخيران تدل عليها الأشجار ، وتزداد خضرتها وكثافتها كلما اتجهت شرقا نحو النيل ، لتتجمع أخيرا فى خور كبير عميق كثيف الأشجار هو خور عمر . وهو ينحدر مباشرة ليشق زريبة السردار فى أضعف أماكنها عند مواقع ألوية الفرقة المصرية - ماكسويل ولويس ، كانت الطبيعة نفسها تشير إلى محور الهجوم المثالى لزريبة السردار ، ان كان ليلا أم نهارا .

حقيقة ان تحقيق ذلك الهجوم المثالى لا يتم إلا بعد أن تمثل نقطة بداية الهجوم خزانا "Reservoir" لتوليد المقاتلين ليندفعوا نحو هدفهم ، ويستلزم ذلك حشد آلاف الرجال لضمان استمرار تدفق موجات الهجوم . وفى ذلك لا يمكن أن يلام الخليل أو أزرق ، فقد كان تخصيص قوات المراحل من شأن القيادة العليا ، وقد أوضحنا أن نظرة القيادة العليا للهجوم الأول « كقطع » لجذب السردار كان أكثر من نظرتها له كضربة حاسمة .

لقد صب ود النجومى ما يزيد عن ٤٠ ألف مقاتل عبر فتحة ضيقة لا يتجاوز عرضها أكثر من ٥٠٠ ياردة فى دفاعات الخرطوم القوية . بينما كان جزء لايزيد عن عشرين ألفا منتشرين فى أميال بطول مواجهة دفاعات الخرطوم . وحينما وصل هؤلاء وبدأوا فى الالتحام مع القوات الأمامية خلف الخندق ، كانت الموجات الأولى لعناصر الاختراق قد وصلت لسراية غردون . وقد ذكر الشيخ بابكر بدرى « حينما دخلنا الخندق وجدناه مليء طين مائعا . ففصت إلى ما بعد ركبتى وجعل كل من جاء من الأنصار بمسكنى فى كتفى ويقفز أمامى فبعضهم يمسكه الطين والخفيف منهم يخرج إلى الياأس حتى جاء والدى مصطفى فلما وضع يده .. » يعنى بذلك بوضوح أن الراوى وهو فى موضعه ذلك داخل الخندق مرت به عشرات من صفوف الاقتحام ، واستمرت عشرات أخرى من الصفوف فى الاقتحام السريع حتى بعد خروجه من الخندق .

وكان ذلك التكتيك هو التكتيك الذى اتبعه عثمان دفنة عشرات المرات

مع مربعات العدو بنيرانها القوية ، ولم يحدث أبدا أن ضحى بقوة تيار الهجوم وتدفقه "Affluence" بنشر صفوفه في مواجهة واسعة لتغطية مربع العدو. فقد كان هدفه دائما اختراق صفوف العدو ونجح في ذلك دائما . وكانت تلك السمة واضحة في أغلب معارك المهديّة حتى المعارك الأولى . ولكن مواجهة عثمان أزرق العريضة في مواجهة نيران الزريبة بدت وكأنها قطاعات خصصت واحدة واحدة كأهداف مقسمة بالتساوى على نيران وحدات العدو .

أما عثمان أزرق ، بطل الحدود الشمالية طيلة عشر سنوات بلا منازع ، فلا يستطيع أحد التشكك في كفاءته ومقدرته طيلة المعارك التي خاضها . واشتهاره بالمرأعة ، واتباعه دائما لطريق اقتراب غير مباشر ، وتأنيده لهجوم الليل في ليلة المعركة ، لا يتناسب مع هجومه المباشر ولا مع تجاهله لمسلك اقتراب مثالي مثل خور عمر ولا مع تخيله وتسيانه التام لواجباته القيادية أثناء الهجوم ولإنحصر همه كله في شن هجمة شبه انفرادية أمام نيران فرقتين .

أما تشكيل قوات الخليل وعثمان فلعل العوامل التي أدت لتلك المجزرة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلا الا نادرا تكمن كلها فيه .. ونحتاج منا للعودة للوراء قليلا.

صحيح ان المقارن بين حروب المهديّة في ٨٤ و ٨٥ و ١٨٨٩ ومعركتها في سبتمبر ١٨٩٨ يلاحظ ان الشجاعة الخارقة هي أظهر ما توفر في كلا العهدين ، ولكن خلاف ذلك لاوجه للشبه بينهما اطلاقا . والمؤلم ان التخطيط والذكاء واتباع مبادئ تكتيكية معينة سليمة توفر في الأولى ، لا في الأخيرة .

فمنذ حروب نابليون وإلى عهد قريب ظلت فكرة هجوم المشاة الرئيسية هي إيصال صفوف الاقتحام التي يقع عليها عبء الالتحام بالسلاح الأبيض أو خلفه - إلى أقرب مسافة ممكنة من مواقع العدو . ويتم تحقيق ذلك الهدف الجوهري بصب أكبر كمية من النيران من مدى بعيد على العدو المدافع ، تمثلت هذه النيران في ذلك الحين في البنادق والمدافع وتطورت بالطبع إلى وسائل أخرى . والغرض من هذه النيران هو خفض رأس العدو وحرمانه من رفع رأسه خارج خنادقه أو زريبته ليتمكن من التصويب الدقيق ، وإنتاج النيران المؤثرة . وبينما تنطلق

نيران العدو الطائشة الغير مصوبة . يبدأ التقدم . ويسبق حشود الاقتحام المسلحة بالسلاح الأبيض صف طويل سلح بالبنادق بفتح نيرانه وهى متقدمة على العدو المستحكم . بالطبع سيتعرض صف الأسلحة النارية فى المقدمة إلى خسائر كبيرة من نيران المدافعين .. ولكن نيرانهم المستمرة اذا اضيفت لها حركتهم الدائبة ستحرم العدو من توجيه نيران مركزة عليهم .. وبذلك تتوفر الفرصة لعناصر الاقتحام بالسلاح الأبيض - بعد أن مكنتها نيران البنادق أمامها من قطع أغلب المسافة فى أمان ، للوثوب بعد قطع مسافة قصيرة والاشتباك مع العدو .

فى عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ كان من الواضح أن قادة المهديّة وجيوشها من ورائهم قد ألبوا بأوليات هذه النظريات واحسنوا تطبيقها حتى فاقوا أعداءهم المنظمين المدربين فى الابتداء والتفنن فى تنفيذها . نفذها ود النجومى بنجاح فى شيكان حين مثل جهادية أبو عنجة « عنصر النيران » وود النجومى « عنصر الاقتحام » بالسلاح الأبيض .. ونفذها بذكاء واحكام أبو عنجة فى الهجوم على أمدرمان وابتدع فكرة اقامة الطوابى لرماة البنادق ، فلم يطق حتى تحمل الخسائر الطبيعية فى صفوفهم .. ونفذها النور عنقرة فى أبو طليح ضد بعثة الانقاذ الانجليزية ... بنفس الحرفية المذكورة أعلاه : صف طويل من حملة البنادق يتقدم وهو يطلق نيرانه من مسافة ٨٠٠ ياردة ويطوق مربع العدو بالتدرج محققا هدفين : خفض رأس العدو وجذب نيرانه وانتباهه لتمكين القوة الرئيسية للاقتحام من تحين اللحظة المناسبة والوثوب عليه من مسافة قصيرة . وحتى عام ١٨٨٨ تمكن أبو عنجة من تطبيقها بنجاح فى دبراسين ضد قوات تتفوق عليه عددا وسلاحا حين وضع كل البنادق فى الصفوف الأمامية وظل يتقدم غير مبال بالقصف البعيد المدفعية العدو حتى أصبح على مسافة يتمكن فيها حاملو البنادق من اطلاق نيران مؤثرة مكنتهم هم وحملة السلاح الأبيض خلفهم إلى الوصول لبضع مئات من الياردات من العدو ، وهجم هؤلاء « ٥٠٠٠٠ » على العدو واجهزوا عليه فى ساعات ، وكان ذلك هو نفس التكتيك الذى إتبعه السردار عندما أقتحم زريبة محمود فى عطبرة .

من كان صاحب هذه المدرسة التكتيكية المتقدمة ؟ فقادة المهديّة لم يدخلوا

مدارس عسكرية ولم يتلقوا أى نوع من التدريب العسكرى . بالتأكيد لم تكن غريزة المقاتلين فقط هى التى هدتهم إلى مبادئ طبقوها خيرا من اعدائهم المدربين النظاميين ؟ لو قلنا ان أبو عنتجة ، والزركى وعنترة اقتبسوها من الزبير فماذا عن ود النجومى وعثمان دقنه ؟ .

لعل الاجابة هى الموهبة الطبيعية والخيال والخبرة . فالابداع التكتيكى والاستراتيجى يحتاج للفكر العسكرى تحتل فيه الدراسة والتحصيل والخبرة جزءا محدودا ، فالشاعر لا يمكن أن يبدع شعرا ولو قرأ دواوين الدنيا ، والرسام لن يحسد فنه فى لوحة فنية ولو ظل يمسك بريشته طول النهار والليل ، ما لم يكن ذا موهبة طبيعية اصيلة ليقويها بالدرس والتحصيل والخبرة . ولم يتعد فردريك كثيرا عن الحقيقة عندما اعترض على تعيين أحد قاداته الأغبياء اعتمادا على خبرتهم عبر عشرات المعارك قائلا « هناك بغل فى صفوف الجيش البروسى اشترك فى أربعين حملة ولكنه لا يزال بغلا » واخيرا الخيال .. الخيال الناضج الذى تسنده خبرة عملية ، خيال القادة أنفسهم وهم يحسمون النظريات فى تشكيلات ووحدات ومعارك .

والملاحظ ان السنوات التى تطور فيها جيش المهديّة من بعد هجوم الخرطوم إلى أواخر الثمانينات بأشراف يعقوب ، كانت قيادته تضع دائما هذه المبادئ نصب أعينها ، وكلما زاد حجم القوات ، كلما ارتفع مستوى القادة لتحمل مسؤوليات قيادية أكبر ، وادراكا منهم لتلك النظريات حاولوا تطويرها وجعلها أكثر فعالية باستخدام نيران المدفعية ، فكان أن أعيد تنظيم المدفعية فى بطاريات وبدأ صنع الذخيرة محليا .

ولنقارن الآن تلك التكتيكات التى نفذت عام ٨٤ و٨٥ بما حدث فى هجمتى ابراهيم الخليل وعثمان أزرق عام ١٨٩٨ ، لم يكن حملة الأسلحة النارية وحملة السلاح الأبيض منفصلين عن بعضها البعض ، بل ذاب حملة الأسلحة النارية أفرادا ، وليس جماعات وسط حملة السلاح الأبيض . ولم يكونوا قوة منفصلة لا فى المقدمة ولا فى الجنب . وعندما رأى حملة السلاح الأبيض العدو اندفعوا للامام وحملوا معهم حملة السلاح النارى .. وعندما بدأ حملة البنادق اطلاق النار

لم تكن الطلقات من صف واحد أو في جهة واحدة، بل فقاقيع من الدخان إنتشرت هنا وهناك :

ولو دققنا النظر في تقدم الخليفة في ضحى يوم الخميس الأول من سبتمبر ، نجد أن التهليل والتكبير بدأ بعد أن أفرغ حملة البنادق طلقاتهم في الهواء . ليس المهم هنا أثر هذه الطلقات فقد اطلقت على بعد آلاف الياردات من العدو .. بل من أين وجهت . وجهت من حملة البنادق . وأين كان هؤلاء ؟ كانوا في الصف الأمامى فى مواجهة غطت ٤ أميال ، وعندما انتشر دخان البنادق غطى مواجهة الجيش من أقصاها إلى أقصاها . بل عندما قرر الخليفة التقدم ومواجهة عدوه فى كررى كان ذلك الفصل التام بين عناصر النيران والاقترحام هو أول ملامح خطته المبدئية (١) والتي على أساسها أعد وهيا جيشه قبل خمسة أيام من المعركة ، فقد كان الخليفة من المدرسة القديمة صاحبة النظريات والتجارب المستمدة من عشرات المعارك ، ومن تطبيق لخيال ناضج .

ولكن هجوم الخليل وعثمان كان شيئا مختلفا تماما، سواء فى هندسة الاصطفاف ، أو فى ميكانيكية الاقترحام . فعندما صد هجوم عثمان وأصبحت قواته عاجزة عن التقدم رقد حملة البنادق على الأرض واتخذوا مراكز ضربنار ووجهوا نيرانهم نحو العدو . صحيح أنهم وجهوا نيرانا مؤثرة نوعا ضد العدو ولكن ما الفائدة الآن من نيرانهم ؟ ... فقد أيد حملة السلاح الأبيض الذين كان وصولهم للزريبة هو الغرض الأساسى من هذه النيران لتمكينهم من الالتحام .. ولم يكن الهدف أبدا هو سقوط بضعة مئات من القتلى والجرحى داخل صفوف العدو . وهكذا نستطيع أن نلمح الفارق العظيم بين التطبيق السليم لأفكار عسكرية تعتبر متقدمة بالنسبة لاعدائها فى الأيام الأولى .. وبين هجمات لم تتميز إلا بالشجاعة الحسية الخارقة .. ما هى أسباب هذا التدهور والاعتدار غير الطبيعى الذى أعقب فترة من الرقى الفكرى والابداع التكتيكى أذهلت حتى أقوى أمم الأرض فى ذلك الحين ؟

السبب واضح طبعا وهو القادة "Generalship" فكل القادة الاكفاء الذين قامت

(١) انظر الملحق « ب » .

على أكتافهم تلك الأمجاد العسكرية إختفوا من في الميدان يوم ٢ سبتمبر :
ودالنجومي الجسور قتل وكله حسرة ومرارة في مهمة إنتحارية ، أبو عنجة استاذ
تحريك المجاميع توفي ، الزاكي الذي قاد عشرات الألوف مدافعا ومقتحما ..
أعدم ، النور عنقره وكل كفاءته التي وضحت خلال أكثر من ربع قرن افتقدت ،
فقد كان بعيدا في القضايف تحوطه الشكوك . لقد افتقدت الثورة رجالها وقادتها
في يومها الحاسم ، فقد كان هؤلاء قادتها وعلى أكتافهم برزت مبادئها العسكرية
وهم الذين نفذوها وصانوها وطوروها لتماشى المواقف المختلفة التي تعرضوا لها .

ولكن القادة في يوم ٢ سبتمبر كانوا شيئا مختلفا فابراهيم الخليل على الرغم
من ذكائه وآرائه الناضجة في النطاق الاستراتيجي على الأقل لم يقاتل ضد هكس
ولا جراهام ولا غردون . ولعلنا تحدثنا عنه وعن موقفه بما فيه الكفاية .

هل يمكن أن يرفع اللوم عن قادة الهجوم الأول اذا اعتبرنا انهم توقعوا
غطاء قويا من المدفعية ، لا أظن فهم يعلمون أن أغلب المدفعية نصبت ضد البواخر
بل وكان ابراهيم مشرفا على وضعها هناك ، ثم انهم لابد قد أحسوا بمدى مدفعيتهم
الضئيل قبل ذلك .

صحيح ان الانتصار والهزيمة يعزيان في الحروب دائما إلى تطبيق
أفكار متجددة ، ولكن تطبيق أفكار معينة جديدة كانت سببا للنصر .. يمكن
ان تصبح بعد ١٥ عاما هي السبب في الهزيمة . فقد أصبحت نظريات ووسائل
متخلفة ، وحلت محلها نظريات وأسس جديدة . لكن المدهش — وبالذات في
المرحلة الأولى — أن قوات المهدي دخلت المعركة ولم تستطيع حتى تطبيق نظريات
أوجدتها هي قبل ١٥ عاما ولم تتسك بمبادئها القديمة .. بل قعدت بنفسها عن
تطبيق تلك النظريات التي مهما بدت عتيقة إلا أنها مثلت الحد الأدنى المأمون في
ذلك الحين .

قد يبدو صحيحا أن اتباع سبل تكتيكية سليمة، سواء في تشكيل الاقتحام أو
في استخدام حملة البنادق كان سيؤدي إلى تغيير ضئيل محدود في النتيجة النهائية
للمرحلة الأولى . فقد كان أثر نيران السردار ماحقا كما كانت الأخطاء في

الاستراتيجية والتوقيت أعظم من أن يخفف من أثرها اتباع تكتيك ناجح ، ولكن ذلك التكتيك السليم كان يجب أن يبرز من جيش أمة أمضت العشرين عاما الأخيرة من عمرها في معارك متصلة .

.. .. .

في سعت ٦٥٠ كان شيخ الدين على وشك الوصول إلى جبال كررى .. وبمواجهة الملازمين العريضة الكثيفة كان واضحا أنهم سيتمكنون من تغطية كل جبل أبو زربية بقسمه الثلاثة . ادار اقتحام الموجه الأولى الامير العريفى الربيع بربعه القوى الذى احتشدت فى صفوفه ٢٠٠٠ بندقية ، يساره ربع عثمان آدم ، وتدافعت خلفهم كل ارباع الملازمين . فصلت الف ياردة بين كتلة الملازمين وكتلة الراية الخضراء ، وقد اتجهت للمنطقة التى حددت لها لإحتلالها مباشرة . لقد كفل الهجوم الأول بمحوريه بقيادة عثمان أزرق والخليل انشغال مدفعية وألوية الزربية عن عثمان شيخ الدين وعبد الله أبو سوار . وتمكنت قوة الملازمين من التقدم لاحتلال مناطق تشكيلها دون تدخل من مدفعية ونيران العدو . فقد كان خط سيرها يبعد حوالى ثلاثة أميال من الزربية . وعندما أصبحت على بعد الف ياردة إنتظمت وخفت سرعة الصفوف الأمامية للملازمين قليلا لتسمح لربع عثمان آدم بتجاوزهم من اليسار للاحاطة والالتفاف حول ميمنة العدو ومنعه من الانسحاب شمالا .

تتكون جبال كررى مسرح المعركة الوشيكه الاندلاع ، من هيتين طبيعيتين ترتفعان أحيانا لأكثر من ثلاثمائة قدم هما جبل أبوزربية ، وجبل دهم . ويفصل بينهما سرج عرضه أكثر من ألف ياردة . أما جبل كررى الذى سميت المنطقة باسمه فهو عبارة عن تلة منعزلة صغيرة تكاد لا ترتفع عن سطح الأرض بالقرب من شاطئ النيل . تتكون أكبر الهيتين « جبل أبو زربية » من ثلاثة قمم تشكل بمحاورها المختلفة الاتجاهات ، وخلف بعضها البعض ، اتجاها عاما للجنوب الشرقى أو الشمال الغربى سمرمز لها بالجبل الشمالى والأوسط الجنوبى . وتغطى كل تلك المنطقة ، مرتفعاتها أو منخفضاتها ، صخور حادة داكنة اللون تعوق تحرك الجمال والخيول وتقلل من سرعتها لحد بعيد .

وعندما بعث كتنشر بكل القوة الراكبة المصرية لاحتلال جبل كررى قبل الفجر ، كان هدفه الأساسى هو منع العدو من الالتفاف وتطويق الالوية المصرية فى يمين الزريبة بعد أن أضعفت بنقل أغلب عناصر نيرانها للفرقة البريطانية يسار الزريبة . وقد وزع بروود وود قواته الراكبة على النحو التالى :

احتلت ٨ سرايا هجانه مترجلة الجبل الشمالى والأوسط . واحتلت مدفعية الخيالة الجبل الجنوبى وقد اتجهت لجهة الجنوب الغربى . اصطفوا فى صفين متتاليين وارتكزوا على أقدامهم . أما الخيالة « ٩ سرايا » فقد وضعوا فى العمق ليسدوا الثغرة بين الجبل الأوسط والجنوبى . بينما تجمعت كل الخيول والجمال بدون راكبيها فى المنحدر الخلفى لآبوزريبة . وبينما كان بروود يتوقع هجوما جانبيا صغيرا اذ به يجد نفسه مواجهها لهجوم رئيسى اشترك فيه عشرة الف رجل (١) أغلبهم مسلحون بالبنادق وخلفهم خمسة آلاف آخرون . أصبح موقفه عصيبا ، فقد سحب منه السردار أقوى قطعه النارية - ٤ مدافع مكسيم - وأمره بارسالها للزريبة ليشترك فى صد الهجوم المباشر .

وبينما كان الفاصل يتسع بين الراية الخضراء والملازمين وكل منهم يتجه نحو هدفه ، الراية الخضراء شمال سلسلة الجبال بعيدا عن المرتفعات ، والملازمون نحو أبو زريبة ، أدرك بروود حرج موقفه والمسافة تقصر بسرعة بينه وبين الكتلة البشرية المدفوعة نحوه وهى تغطى الصخور والأشجار فى تقدمها ، وأدرك انه لا قبل له بمواجهتها . فقد تمكن ربع عثمان آدم من تسلق قمة أبو زريبة الشمالية متجاوزا

(١) من هنا نرى القارق العظيم فى تقدير القوة العددية لجيش الخليفة كما قدمها المؤرخون استنادا على معلومات ونجحت ، وما شوهه حقيقة . فبينما ذكر الجميع ان قوة الملازمين التى اقتحمت جبال كررى كانت ١٥٠٠٠ مقاتل . نجد أن التقدير المذكور أعلاه « ١٠٠٠٠ » هو تقدير بروود وود نفسه الذى اشتبك معها . وقدمه ضمن تقريره إلى الجنرال هنتر قائد الفرقة المصرية :

“The force attacking us which was now at right angle with the force attacking the Zeriba was some 10000 strong and came on with great rapidity”.

دار الوثائق المركزية .

Cairint. I/60/320 DIV OC REPORT

« كانت القوة التى تقدمت بسرعة للهجوم علينا ، والتى شكل محور تقدمها زاوية قائمة مع محور تقدم القوة التى هاجمت الزريبة ، تقدر بحوالى ١٠٠٠٠ مقاتل » .

صفوف الملازمين . وعندها أمر برود وود كل الخيالة والمهجانة المترجلة بالانسحاب فورا والعودة لحيواناتهم فى الخلف وركوبها والتقهقر لجبل دهم . كما أمر بطارية الخيول المجرورة بالانسحاب لجنوب جبل دهم على ان تتبعهم الخيالة (١) .

لقد شاهد السردار تطور الموقف كاملا من الزريبة . وأدرك الخطر الداهم الذى أطبق على أغلب قوته الراكبة . ومن مكانه فى الزريبة بعث لبرود وود بإشارة أمرا إياه بالعودة فورا لداخل الزريبة والاحتماء بالمشاة ، الا أن برود وود رفض تنفيذ الأمر وفضل الانسحاب لجهة الشمال . جارا خلفه كل قوة شيخ الدين . ذلك هو ما برر به برود وود تصرفه ونال به أعظم الثناء . فنتيجة قراره كانت أثرا حاسما وبعيدا على كل المعركة ، وليس فقط على سلامة سرايا الفرسان والمهجانة .

والواضح ان دوافع برود وود لاتخاذ قراره ذلك كانت تختلف تماما فى الحقيقة عن الدوافع التى قدمها . والسبب باختصار هو أنه حتى لو أراد اطاعة السردار لما استطاع . فان اندفاع الملازمين إلى الأمام وبسرعة أكبر من سرعة القوات الراكبة وسط الصخور ، وبوصول ريع العريضى الربيع إلى قمة أبو زريبة الجنوبية واحتلالها مندفعاً للامام ، أصبحت أى محاولة للانسحاب المباشر متجنباً كتل مشاة الملازمين مستحيلة ، كما كان الاصطدام بهم محتملاً . كما ان قراره فى البداية لم يكن الانسحاب شمالاً « كما نرى من الخريطة » بل كان الانسحاب لجبل دهم واحتلاله بواسطة مدفعية الخيالة لتغطية انسحاب المهجانة للزريبة .

فحينما وصل المهجانة والخيالة بهرولتهم المضطربة إلى مرابط خيولهم وامتطوها مسرعين ، كانت طلائع عثمان آدم قد احتلت القمة الشمالية ، وتوقف حملة البنادق لإطلاق بنادقهم على العدو المنسحب بينما استمر حملة السلاح الأبيض فى الاندفاع للأمام . ومكنتهم قوة الاندفاع المكتسبة من الانحدار على طول السرج من اللحاق بالمهجانة المتعثرة وسط الصخور الحادة وتمكنوا من الالتحام بمؤخرتهم وسرعان ما تلاشت الصفوف الخلفية للمهجانة وايدت عن آخرها . وفى دقائق تساقط أكثر من خمسين من العدو وفقد أكثر من سبعين جملاً . أتاح الاشتباك

(١) أنظر الخريطة رقم ٧ « المرحلة الأولى سمت ٧٠٥ »

مع مؤخرة الهجاة فاصلا زمنا قصيرا لبقيتها لتخليص أنفسهم والاسراع فى الانسحاب باتجاه الشمال الشرقى نحو الموقع الجديد فى جبل دهم . كما وفر لبطارية الخيول المجرورة الزمن الكافى لفتح نيرانها من الموقع الجديد - فى جبل دهم - على الربع المتقدم .

تمكنت بقية كتلة الملازمين المتأخرة قليلا من الوصول للقسم الثلاثة وتغطيتها وتوقفوا للحظة قصيرة حتى لمحو فريستهم وهى تحاول الافلات . وبعدها تدفقوا نحو السرج وقد اتجهوا خلف قوات برود وود المنسحبة . وسرعان ما تلاحمت صفوفهم مع صفوف عثمان آدم وهى تندفع بميلانها لجهة الشرق ، فالتحمت القوتان واكتملت المواجهة العريضة مرة أخرى وطلانها تتقدم امامها .

كانت معركة الزريبة قد خفت قليلا ، فوجهت أغلب مدفعية الفرقة المصرية نيرانها نحو الآلاف المندفعة خلف برود وود . وبانضمام مدافع مدفعية الخيول « كروب ٩ رطل » من جبل دهم بدأت نيران العدو تتكثف وتزداد عنفا . إلا ان اصوات الانفجارات لم تتمكن حتى من ابطاء خطوة الآلاف المقتحمة .

ادرك برود وود ان اتخاذ مواقعه فى جبل دهم . ما هو إلا تأجيل مؤقت للكارثة . فلا نيران مدفعية الخيول الموجهة نحو صفوف الملازمين من مدى قريب مباشر افلحت فى التأثير عليهم ، ولا نيران الزريبة الكثيفة البعيدة قللت من قوة اندفاعهم . كان أكثر مما اثار قلقه هو الهجاة ، بخطواتهم البطيئة ، ومعاناة الحيوانات وهى تجاهد لشق طريقها بسرعة وسط الصخور الحادة . أما الخيالة فبامكانها المناورة والانسحاب بسرعة إلى أى مكان . لمح برود وود أحد الزوارق « ملك » تراقب الموقف من بعيد ، ولم تكن بمسئبة التدخل فقد كانت المعركة حتى الآن محصورة بين الجبال . بدأ الزورق فى التقدم شمالا للتدخل فى اللحظة المناسبة ، وعندها قرر اعادة الهجاة للزريبة تحت غطاء من نيران الزورق ، ومهما كلفه الأمر ، ولو حتى الاستعانة بكل خياله فى هجمة خيالة يائسة .

قرر برود وود ان تنسحب الهجاة شرقا نحو النيل ثم تنعطف جنوبا بمحاذاته إلى داخل الزريبة . بدلا من طريق الانسحاب المباشر من دهم إلى الزريبة . فذلك

الطريق الطويل يوفر الفرصة للخيالة لقطع طريق اقتحام الملازمين ، ليتمكن الهجانة من الوصول لشاطئ النيل . وهناك يمكن للزورق ان يمد يد المساعدة . كما ان حركة الحيوانات السريعة فى أرض الشاطئ الهشة كانت كفيلة بتخليصهم من مطاردتهم . ولما كان الاتجاه المباشر للنيل يمثل جزءا من سفح جبل دهم الجنوبى ، وهى أرض مغطاة بالصخور الا أن إنحدارها كان خفيفا نحو النيل ، فقد بدأت الهجانة فى التحرك عبر هذا الطريق شرقا نحو النيل بدلا من الاتجاه للجنوب الشرقى للزربية مباشرة .

تمكن العريفى ربيع من تجميع قوته بعد انضمام ربيع عثمان آدم وتقدموا ككتلة واحدة تحت قيادته مرة أخرى . تجمعت فى مواجهة أربعة رايات كاملة أى حوالى ألف مقاتل . أدرك الربيع غرض الهجانة وهى تقرب من النيل بعد أن عبرت المنطقة الصخرية بينها وبين النيل . وأنها تحاول كالفريسة المطاردة أن تلوذ وتختبئ بالزربية بعد أن تصل لشاطئ النيل . وأدرك أن فريسته التى كادت أن تصبح تحت رحمته لا بد متمكنة من الافلات ان وصلت شاطئ النيل ، فالجمال بخطواتها الخفيفة المسرعة ستجد الأرض المثالية لتستعيد سرعتها فى أرض الشاطئ .

كانت الهجانة تبعد عنه ألف ومائتى ياردة أمامه بلجهة الشرق ، والخيالة تتجمع على بعد ثمانمائة ياردة يساره وكانت هى الأخرى صيدا ثميناً . بينما بقى للهجانة ألف وخمسمائة ياردة من الزربية بعد أن وصلت للأرض المنخفضة واتجهت مباشرة جنوبا بجذء النيل . كان السير فى نفس خط سيرها عقيما ، لذا اتخذ قرارا سريعا بالاتجاه نحو الزربية لتقصير الفاصل بينه وبينها والاصطدام معها وقطع طريق انسحابها المحاذى لشاطئ النيل .

أدار الأمير العريفى الربيع عنان جواده بعنف بلجهة الشرق وأشار ببندقته لجنود الصف الأمامى ليتبعوه ومن خلفهم كل قوة الملازمين . وفى دقائق معدودة كانت الآلاف قد غيرت اتجاهها بلجهة الشرق فى سرعة ودقة مثيرة للاعجاب وانطلقت بسرعتها المعهودة . ليس خلف الهجانة مباشرة بل إلى نقطة تقع فى منتصف المسافة بينهم وبين الزربية . تجاهل العريفى كل الخيالة التى كانت على يساره تجاهلا تاما فقد أدرك أن صيده الحقيقى هو الهجانة .

أدرك برود وود أن مناورة العدو الأخيرة ستمكنه من الاصطدام بالهجانة وإبادتها، فباتجاهه الجديد وبخطواته المسرعة كان كفيلا بالوصول إليها قبل أن تتمكن من الافلات والوصول إلى داخل الزريبة . ولم يبق الا مسلك أخير يأخذه لانقاذ هجائته . وهو القيام بهجمة يائسة بكل خيالاته والاصطدام مباشرة مع كتلة الملازمين الكثيفة لتعطيلهم واستخلاص بضعة دقائق لفتح طريق الانسحاب للهجانة . أمر برود وود كل خيالاته بالاصطاف فى سفح جبل دهم فى اصطفاف الهجوم "In Line" استعدادا لشن هجمة الخيالة ، واتجهوا جنوبا لتسديد هجومهم .

بينما كانت سرايا برود وود تنتقل من الاصطفاف العادى إلى اصطفاف الهجوم . كان موقف الهجانة وهى تتجه جنوبا بمحاذاة النهر ميثوسا منه فقد كان الملازمون بمواجهتهم التى تجاوزت ستمائة ياردة والالآف التى اندفعت خلفها يقصرون المسافة بسرعة لتقطة الاصطدام مع الهجانة . الهجانة وهى تتجه جنوبا والملازمين ينحدرون شرقا فى زاوية قائمة مع أعدائهم . ولم يبق الا أربعمائة ياردة وتصبح كل هجانة برود وود أثرا بعد عين .

ولكن فجأة تغير الموقف .. فان تغير الملازمين اتجههم نحو النيل وعبور منطقة جبال كررى إلى الأرض المكشوفة عرضهم كهدف عريض للبارجة « ملك » أقوى قطع الأسطول ، والتى ظلت مغلولة اليدين حتى تلك اللحظة والمركة تدور بين الصخور الساترة . فكان أن اشتعلت كل البارجة بالقصف المحموم بدون تصويب تقريبا ، وبأقصى سرعة مكنتها منهم عملية التعبئة والتفريغ . حجب دخان الرشاشات والمدفعية البارجة من الأعين ، كان أثرها ماحقا وسريعا « ١ مدفع ١٢ رطل سريع الطلقات ، ٢ مدفع توردنفلدت ، ١ مدفع هاوترز ، ٤ مدافع مكسيم و ٢٥ من بنادق الطاقم » وسرعان ما انضمت لها البارجة « الظافر » لتكمل الباقي . وكأن جدارا من الرصاص الساخن والغبار وقطع الصخور قد نبت فجأة أمام ووسط الملازمين حائلا بينهم وبين التقدم . وتساقط المئات فى تلك اللحظة .

واختفى الصف الأول والثاني من الوجود (١) وكأتما بفعل ساحر . اشترك في قصف الملازمين لحظة تعرضهم الكامل وتحملوا نيران كثيفة مؤثرة من أكثر من اتجاه ومن مصدر : الزوارق من النيل مباشرة أمامهم - ونيران لوائي ماكدونالد ولويس من الزريبة جنوبا ، ومدفعية الخيول من خلفهم .

توقف الاقتحام للحظات كانت كافية للهجأة للانزلاق والابتعاد عن نقطة الاصطدام الخطرة . حاول الملازمون التقدم مرة أخرى رغم القصف المؤثر الذي بدأ يتناول أجنحتهم وتشكيلاتهم - فتوقفوا وبدأوا في إعادة تنظيم صفوفهم للتقدم . أصيب جواد الأمير العريفي ربيع في تلك الأثناء . وكانت قوته قد تجمعت مرة أخرى في كتلة كثيفة عاجزة عن التقدم ، وراغبة عن التقهقر .

وبكل الغيظ والحنق الذي فاضت به جوانحهم ، عادوا مرة أخرى شمالا لجبل دهم للتنفيس عن غضبهم بالاشتباك مع بقية قوات برود وود والتي لا زالت تحتل جبل دهم . وتكونت من كل مدفعية الخيالة في السفوح الغربية لدهم ، وثمانى سرايا خيالة لازالت مصطفة في اصطفاة في الهجوم .

سرعان ما بدأ الملازمون في قطع المسافة التي فصلتهم عن عدوهم . كانت سرية مدفعية الخيول هي الهدف الأقرب وقد إتجهت مدافعها جنوبا . وتوالى قصفها على أجناب الملازمين . وعندما كثر الملازمون عائدون بلجهة الشمال للاشتباك مع الخيالة أمرهم برود وود باخلاء الموقع والانضمام له . شاهدت مقدمة الملازمين محاولة الانسحاب ، وبينما انشغل أفراد طواقم المدافع بتجميع مدافعهم وذخائرهم صوب الملازمون نيرانا كثيفة تمكنت من إصابة بضعة خيول وأفراد وسط سرية

(١) وصف لى هذا المشهد على وذ الزين أحد القلائل الذين خرجوا أحياء من تلك اللحظة بالإضافة للامير العريفي الربيع - وبصوت مرتجف ذكر أن أحد اقرباءه كان في النهاية اليسرى لصف الأول العريض بينما كان هو في أقصى اليمين وفصلت بينهم أربعة رايات كاملة . وعندما بدأ الزورق في انصراف عليهم بالرشاشات التفت فجأة ووجد أن كل الرايات الأربعة قد اختفت وتساقت جنودها على الأرض وشاهد قريبه يقف بعيدا وسرعان ما سقط هو الآخر . وعندما زرته كان ضريرا وثقيل السمع فكانت ابنته « سيدة مسنة زربة اللسان » تتولى نقل كلامه المتقطع إلى ، وكنت لاحظ أنها تذكر بعض كلمات المواساة لوالدها بين الفينة والأخرى وعندما سألتها أجابت أن والدها لا يكف عن التساؤل لماذا عمر وبقي طيلة هذه السنين وحيدا من أربعة رايات كاملة أيدت فيها عشيرته واصدقائه في لحظات .

« الرايات - ٢٣ / ٥ / ٧١ استجواب الشيخ حسين وذ الزين » .

المدفعية أثناء إنشغال الاطقم باعادة تركيبها . عند ذلك أمرهم برود وود بترك المدافع التي لم يتمكنوا من ربط عجلاتها بالخيول ، والاسراع بالانضمام اليه . تمكن جزء من فرسان الملازمين في تلك الأثناء من التجمع في كتلة واحدة واندفعوا أمام المشاة لاقتحام موقع المدافع - وأحس هؤلاء أن العدو وشيك على الاصطدام بهم ، فدخلوا عن مدفعين كانا في الخلف وأسرعوا بالانضمام لصفوف برود وود التي تجمعت استعدادا للانتحاح شمالا . وتلك هي اللحظة التي قرر فيها برود وود الانتحاح شمالا ، وليس قبل ذلك أبدا كما ذكر الكثيرون . ولم يكن أمامه ملجأ آخر . الطريق للزريبة مسدود بآلاف من الملازمين ، غربا الراية الخضراء ، جنوبا كل قوات المرحلة الأولى في لحظات هجومها الحاسم .

سرعان ما غطى فرسان الملازمين المدفعين وتجاوزوهما إلى صفوف الخيالة التي أعطت ظهورها لهم واتجهت شمالا عبر الصخور والأحجار . كانت المطاردة في البداية متكافئة ، فقد اشترك فيها فرسان الملازمين وكانوا على قتلهم كفيلون بالوصول لعدوهم . لكن سرعان ما اشترك كل المشاة في المطاردة . وحتى المشاة أنفسهم كان الفاصل بينهم وبين عدوهم الراكب يقصر كلما مضى الزمن ، فالمناطق الوعرة في صف المشاة دائما . وعلى السفوح الشمالية بدأ فرسان الملازمين في الاشتباك فعلا مع العناصر المتأخرة لفرسان برود وود . وهنا أسرع السرايا الخليفة وجمعت صفوفها بقيادة الميجور ماهون وشنت هجمة من الجانب الأيمن . كانت هجمة ناجحة فقد كانت سراياه متماسكة كقطعة واحدة بينما تبعثر فرسان الملازمين في اقتحامهم المنفرد السريع خلف عدوهم . تمكن هجوم الميجور ماهون من شل حركة فرسان الملازمين . وبرزت أخيرا الصورة النهائية للمطاردة : كتلة من الفرسان وخلفها كتلة أخرى كثيفة عريضة من المشاة وهي تندفع خلفها باقصى ما مكنتهم سرعة أقدامهم . بينما تابعهم ، وبنفس سرعتهم ، زورقان يقذفان الحمم على اجتاههم ومقدمتهم كلما سنحت الفرصة ، وكلما اقتربوا من فريستهم .

ولكن برود وود سرعان ما تمكن من تخليص سراياه من منطقة كررى الوعرة والانطلاق شمالا في الأرض المنبسطة مودعا بآلاف الطلقات خلفه . واستمر

الملازمون فى المطاردة بمعظم قوتهم « لم يفقدوا أكثر من ألف مقاتل » فى مطاردته شمالا . تبطئ الخيالة من سرعتها أثر الانهك من التحرك وسط الجبال خلال الساعة الماضية فيقتصر الفاصل بينها والملازمين وتقترب القوتان .. ثم يتمدد الفاصل مرة أخرى .

أين كان شيخ الدين طوال كل هذه الأحداث ؟ ذكر كل من شاهد شيخ الدين فى تلك اللحظة بأنه كان أبعد ما يكون عن المعركة ، واكتفى ببساطة بأن تبع حشود الملازمين وسط مربعة بعيدا عن مناورات وتحركات الصفوف الأمامية . ويمكن أن نكتفى هنا بتبرير تصرفه بعدم خبرته وحادثة سنة (١) .

ماذا كان هدف قادة الملازمين من تلك المطاردة العقيمة ! هل كان لديهم ثمة أمل أن يتمكن مشاتهم بالحقاق بفرسان وهم على ظهور جيادهم ؟ أم أن ذلك لم يكن هدفهم فى البداية ولكن ببطء سرعة الفرسان بين كل فترة وأخرى جعلهم يأملون فى اللحاق بهم ؟ أم أن هدفهم كان فقط طردهم من أرض المعركة ؟ ان كان هدفهم هو الأخير ، فقد أفلحوا فى طرد أنفسهم وعشرة ألف جندي - أقوى فرق الخليفة - وان يبعدها عن أرض المعركة فى لحظة كان هو فى أمس الحاجة إليها .

وفى الساعة الثامنة وعندما أمر السردار قواته بالخروج من الزريبة والتقدم نحو أم درمان، فى اللحظة التى حددت لبدء المرحلة الثانية التى كان لشيخ الدين نصيب الأسد فيها : كانت قواته جالسة على الأرض بعد ركض سريع لمدة نصف ساعة لتستريح من عناء الطريق الشاق الطويل الذى قطعته فى مطاردتها المجهضة ، وكانت على بعد أربعة أميال من أرض المعركة .

* * * * *

فى تمام الساعة السابعة والخمسين دقيقة بدأ الخليفة يلاحظ فلول الجرحى

(١) هناك أقاويل كثيرة عن موقف شيخ الدين وتصرفاته الغريبة فقد ذكر على الجبل لا حفاة انه عندما وصل لشيخ الدين لا بلاغه رسالة الخليفة . وجده فى الخلف بعيدا عن صفوفه « وراكب ومخلف » وذكر عيسى ود أحمد أن شيخ الدين بعد ابلاغه برسالة الخليفة لم يرد عليه واكتفى بالصمت . ، أحاديث السيد بابو نمر - المجلد .

أقوال السيد عبد الله محمد نور - قلى - شريط تسجيل .

ومن حملوهم تتقاطر بالمشات ثم الألوف إنقسمت لشلل صغيرة بدأت تظهر على جانبي جبل سركاب . منها من تقدم شمال الجبل متجها غربا ضاربا في الصحراء ليحتسى من الجحيم الذى انفتح خلفهم ومنها من تقدم حول الجبل متجها جنوبا لام درمان . كانت تلك بقايا الهجوم الأول فلول ، ابراهيم الخليل و عثمان أزرق . وهى تشق طريقها متعثرة حاملة جرحاها وموتها إلى الخلف .

أما مسرح المعركة التى لم يمض على بدئها ساعة واحدة فقد غطى بالآلاف الجثث التى تكدست بصفوف منتظمة تشابه نفس الترتيب والنظام الذى تقدمت به ، مما يوضح أن الصفوف تساقطت فى لحظة واحدة أمام نيران الرشاشات التى حصدت صفوفها بأكملها فى ثوانى . مع فرق بسيط ، فقد كانت كل هذه الصفوف تخرج حركة وأناشيد قبل ساعة . وهى الآن جثث هادمة أو فى رعشات التزع الأخير . لطخت الدماء المنسكبة الملابس والحصى وأحجار الجبال . سواء الدماء البشرية أو دماء الخيول وهى تنطلق صاهلة هنا وهناك مشخنة بالجراح وقد خلت ظهورها من راعيها . أما قذائف المدفعية والرشاشات فقد استمرت فى تغطية كل السهل فى مطاردها لبقايا الخليل و عثمان .

لفتت عناصر استطلاع الخليفة فى قمة سركاب نظرة إلى حدثين ، مؤخرة قوة شيخ الدين الهائلة وهى تكاد تختفى وراء جبال كررى فى طريقها شمالا أثناء مطاردها لخيالة برود وود ... كما لاحظوا حركة نشطة داخل الزريبة . فقد فتح مشاة الفرقة الانجليزية ثغرة فى صفوفهم لتتقدم خلالها كتيبة الرماحة الحادية والعشرين فى مهمتها الجديدة .

التفت الخليفة مسرعا لعلى الجبله وناداه قائلا « قول لى عثمان ارجع للكفار الفنى الجبل ... فى الجبل » فقد أحس أن اللحظة الحاسمة قد دنت وحن الوقت لتسديد الهجوم الثانى . كان على الجبله راجلا فى هذه اللحظة بعد أن أنكسرت قدم جواده فى المرحلة الأولى للمعركة . انطلق على الجبله ليعبر السهل العريض ، وقبل أن يختفى عن الأنظار أرسل الخليفة أحد ملازميه لتبليغ شيخ الدين نفس الرسالة زيادة فى ضمان وصول رسالته لو تعرض على الجبله لخطر المعركة . ثم أمر يعقوب بإرسال ربع لتعزيز عثمان دقته فى خور أبو سنط ، فالواضح أنه

كان أول من سيواجه تقدم الرماحة . أمر الخليفة بالحاق الريع لعثمان من الراية الزرقاء وتعزيزه بحملة بنادق من حرسه الخاص . ومن هناك تحرك الخليفة ملتفا جنوب جبل سركاب ثم اتجه شرقا نحو خور أبو سنط لمواقع عثمان دقنه ، ليشرف على الاصطدام الوشيك الوقوع بين فرسان الرماحة الذين شاهد بداية تقدمهم من الزربية ، وبين رجال عثمان دقنه في خور أبو سنط الذي كان مكتظا برجال الهدندوه ، بالإضافة إلى طلائع التعزيز من صفوف الراية الزرقاء التي كانت تسير مع مجرى الخور للانضمام لعثمان دقنه والوصول اليه في التوقيت المناسب للتصدي لآخر هجوم بالفرسان شهدته مسارح حروب القرن التاسع عشر . هجمة فرسان الرماحة المشهورة .

• • • • •

الصدام

« أنت يا شيخ عثمان الله يخليك فى نعمة اللهين ... أحرس البحر »

تعليمات الخليفة لعثمان دقنة .

تقدم عثمان دقنة على رأس رجاله نحو سركاب ، كان يتقدم فى البداية خلف صفوف أبراهيم الخليل ولكنه انفصل عنه واتجه شرقا مباشرة ، متخذا طريقا مستورا خلال أشجار خور أبو سنط القصيرة . كان عثمان دقنة راجلا وتبعثر هنا وهناك بضعة أمراء على ظهور جيادهم . لم يكن القائد الأسطورى ، ولا مقاتلوه المشهورون فى أحسن حالاتهم ذلك اليوم . فقد افتقد أحسن معاونيه — محمد موسى دقنة رئيس أركانه وابن أخيه — ومحمد الطاهر المجذوب أكفأ قادته . ومن أمراء أرباعه القدامى لم يبق معه الا أبراهيم سعيد . ولم ترد قوته على سبعمائة مقاتل ، كانوا أخلص المخلصين ، ولم تفلح سنوات القتال والتنقل المتصل ولا حتى الهزيمة فى عطبرة فى زعزعة إيمانهم وإخلاصهم لقائدهم . وتمكن من جمعهم بعد جهد جهيد فردا فردا فى طريق عودته لأمدرمان من القضايف . لم ترد قوته النارية عن ثلاثين بندقية ، كانت هى كل المتبقى من آلاف البنادق التى غنمت من حاميات سواكن ، طوكر ، ومعارك التيب وطماي . وذلك السبب — قلة البنادق — هو الذى حدد واجب عثمان دقنة . فقد اكتفى الخليفة بأن أوكل اليه أمر حراسة طريق الانسحاب لأمدرمان ، ولم يخصص له واجبا هجوميا ضمن المراحل المختلفة لخطة الخليفة .

اختار عثمان دقنة بقرعه عميقة من خور أبو سنط تبعد قليلا عن النيل فى أعظم اتساع للخور . امتد خور أبو سنط فى انحداره نحو النيل مبللا بالمياه أثر هطول الأمطار قبل ليلتين .. وأفلحت حرارة الشمس فى تغطيته بطبقة رقيقة من الطين الجاف أخفت تحتها الطين اللزج المتجمع من الأمطار . تبعد هذه النقطة من النيل مسافة ميل ، شديدة الانحدار رملية الاطراف — تكسرت شواطئ الخور

فى تعاريج وكتل رملية كبيرة ، وشكل انحدار الأرض المفاجىء شبه زاوية قائمة مع القاع الذى إمتد لعمق ستة أقدام أو سبعة أقدام .

لم ينظم دقته رجاله فى صف أو صفوف طويلة لتغطية بقعة الأرض الواسعة بين سركاب والنيل ، فلم يكن عثمان بالرجل الذى يكتفى بتنفيذ واجبه السلبى بل قرر استغلاله لأبعد مدى . وبدأ بسرعة فى تنفيذ خطته السريعة ، التى اعتمدت على نقطة واحدة - جذب العدو لكمين معد فى أرض مناسبة تتعادل فيها كفته مع العدو ويقل فيها تفوق نيران العدو الساحق. أما اذا إشتبك معه فى معركة تقليدية فكفة العدو سترجح والنتيجة ستكون فى صالحه. وعلى هذا الأساس نظم صفوفه :

اصطف كل حملة البنادق على الضفة الشمالية خارج الخور - وقوفا على أرجلهم حيث برزوا كهدف ظاهر كبير من مسافة بعيدة . أما البقية الباقية فأمرها الجلوس على الأرض . سرعان ما غطى رجال المهندوة قاع الخور وضفته المنحدرة هنا وهناك وجلسوا بصدورهم العارية ، وقد وضع كل منهم سيفه أو سكينه المعقوفة بالقرب منه . سادت هممة لبضع دقائق تبعها سكون وصمت شاملين بناء على أوامر قائدهم . كانوا مدربين على مثل هذه العمليات الصامتة مع عثمان دقنة . دام السكون فترة قصيرة حتى الساعة الثامنة والنصف حين قطعته ضجة طلائع ريع التعزيز . كان تقدم ريع التعزيز من الراية الزرقاء نحو خور أبو سنط مستورا ، فقد حدد لهم الخليفة الطريق . فاستفادوا من مرتفعات سركاب لإخفاء تقدمهم عن عين العدو التى تمثلت فى أطواف الرماحة المتقدمة ، ثم كفلت أشجار الخور . ساترا لبقية تقدمهم لحين إنضمامهم لعثمان دقنة الذى سر بحضورهم . فقد كان موقفه ضعيفا . وأسرع بإعادة تنظيمهم . فصل حملة البنادق وضمهم إلى بنادقه فى اعلا . ارتفع عدد حملة البنادق إلى مائة وخمسين وقفوا بفواصل قصيرة طولها ياردتين أو ثلاثة بين كل فرد وجاره . أما حملة السلاح الأبيض فقد حاول دقنة ضمهم وعودهم على الأرض مع رجاله . الا ان ضيق الخور جعله عاجزا عن إيوائهم جميعا مما أرغمهم على التشابك والتلاحم فى كتلة واحدة كثيفة ، تكس فيها ألفا رجل حيث بلغت مواجهتهم وقد اتجهوا شمالا ٤٠٠ ياردة وعمقها أكثر من اثنى عشر صفا .

وهكذا قبع عثمان دقته ساكنا في انتظار آخر لقاء مع اعدائه القدامى البريطانيين. أما خلف الخور فقد تشتت بضعة ألوف من الجرحى وحملتهم في طريقهم لامدرمان بعد إنضمام جرحى آخرين من الغرب البعيد ، وضع بعضهم جرحاهم على الأرض ثم بدأوا في التجمع مرة أخرى للعودة والانضمام للراية الزرقاء التي كانت أقرب راية خلف سركاب .

وعندما وصل الخليفة مباشرة بعد ريع التعزيز ، أسرع دقنة لاستقباله ونقل الخليفة لعثمان ما شاهده من تقدم فرسان العدو . وانطلق عثمان عائدا لتنظيم قوته المتضخمة بعد إنضمام الريع المعزز .. كل هذا تحت سمع وبصر الخليفة الذي كان كثير الاهتمام بالمعركة المرتقبة للدرجة التي جعلته يتخلى عن موقع رئاسته الآمن والتقدم للاشراف على المعركة عن كثب ، فقد كان حساسا لجهة النيل والطريق لامدرمان . فتلك الجهة التي كانت تحميها مدفعية وبنادق الطوابي اصبحت مكشوفة بعد تدمير الطوابي ، وأصبح للعدو فيها عنصر نيران قوى يمكنه من اكساح الشاطئ لابعد مدى . فمن مكانه ذاك تمكن من رؤية البواخر . وما العمل اذا استطاع العدو الانطلاق مسرعا جنوبا نحو امدرمان تحت حماية وغطاء نيران البوارج والوصول اليها قبل الخليفة ؟ صحيح ان ثلثي جيشه ما زال سليما لم يمس بعد في إنتظار اشارة الهجوم على العدو ولكن الزمن لم يحل بعد ، ولم يلحظ ما يبرر نية العدو في مغادرة الزريبة ..

٥٥ ٥٥ ٥٥ ٥٥

أمنت نيران كتشتر المتفوقة نصرا سريعا في المراحل الأولى للمعركة ، وبدون ثمن تقريبا . ولكن الموقف ما زال مهتزا . فهنا وهناك آلاف المقاتلين في طريقهم لامدرمان ، ولو ظل في الزريبة أكثر من ذلك فهم لا بد واصلوها قبله . ولم تكن تلك القلول هي التي سببت له القلق والضيق .. بل أين اختفى ذلك الجيش العرمم الذي شاهده ظهر أمس ؟ لقد رأى أمام عينيه نهاية جزء كبير منهم .. وشاهد جزءا كبيرا آخر سليما ينطلق شمالا خلف بروود وود . ولكن تلك الفرقة التي عبرت كررى خلف الخيالة المصرية لم تشغل باله فهم أبعد منه من امدرمان . هل هذا هو كل جيش الخليفة ؟ استدعى ونجت وأكد له مخاوفه ..

فالراية الزرقاء ، أكبر راية منفردة وثلاث التجمع لم تشاهد في المعركة صباح هذا اليوم ولا بد أنها انطلقت مع الفلول نحو أم درمان لتقف وقفتها الأخيرة ، لبدأ القتال الشاق وسط شوارع أم درمان من جديد ولكن في ظروف حالكة هذه المرة ، فلن يتيسر له تكرار مذبحة سهول كررى مرة أخرى مع مثل ذلك العدو الذي شاهد بعينه كيف يموت رجاله .

لقد كان كتشير تواقا للوصول إلى أم درمان واحتلالها قبل الخليفة . وكان مستعدا للمخاطرة مهما كانت عواقبها . فلن يدفع ثمننا أفدح من قتال مع جيش الخليفة داخل أم درمان . لم يكن اشفاقا من ارتفاع نسبة الخسائر ولكنه لم يرغب في خوض معركة تظل فيها ورقته الراجعة - نيران المدفعية والبوارج - مجمدة مشلولة . اذن فليدفع فرسانه للأمام للاشتباك المبكر مع العدو وحرمانه من إعادة تجميع صفوفه وقطع طريق انسحابه لام درمان وتعطيله ، والبحث عن الفرقة المفقودة إلى أن يلحق بهم بالويته الستة في السباق نحو أم درمان . تحرك جنرال جاتكر نحو الكولونيل مارتين بجواده عبر الزريبة وأصدر تعليماته . بعد دقائق تجمعت كتيبة الرماحة خارج الزريبة ، وفي سعت ٨٠٠ انطلقت جنوبا .

كان تقدم الكتيبة بمرتبتين في الأمام وإثنين في الخلف وباصطفاف التقدم العادي "Column of troops" أى كل فصيلة من فصائل السرايا الأربعة خلف بعضها البعض . في سعت ٨١٥ . توقفت الكتيبة في المنحدر الشمالى لجبل سركاب حيث اخفت كتلة سركاب الصخرية الضخمة جنوبهم وغربهم كل احتياطي الخليفة متمثلا في الراية الزرقاء . ولكنهم شاهدوا الألوف من الجرحى وحملتهم في طريقهم لام درمان . كما كان الطريق المباشر من الزريبة لام درمان بخذاء النيل ، وهو المهم ، خاليا من العدو ومقاوماته الصغيرة ، فهو الطريق الملاصق للنيل والذي سيكفل لالوية المشاة سيرا قصيرا مباشرا لام درمان ليصل إليها قبل بقية جيش الخليفة . نصب جماعة اشارة الكتيبة أعلام الاشارة عاليا وأرسلوا اشارة مفصلة بالموقف بالهيلوغراف .

سرعان ما خفقت أعلام الاشارة خفقاتها السريعة من الزريبة حاملة رد السردار « تقدم ونظف الطريق من اليسار - طريق النيل - وابذل كل جهدك

لمنع العدو من العودة لامدرمان » كانت الأوامر واضحة ومحددة . الا أن قائد الكتيبة قرر القيام باستكشاف قبل التقدم .

كان هناك بضعة جنود من جيش الخليفة تبعوا في قمة سركاب واتخذوا مواقعهم وسط الصخور . وما ان انفصل الطوفان من الكتيبة حتى تقدم أحدهم متجها جنوبا مباشرة نحو أمدرمان شاقا طريقه في قلب الجبل لاستكشاف الجناح الأيمن لتقدم الكتيبة ، أما الطوف الثاني فقد إنعطف يسارا واحتفى برهة من الزمن ليظهر مرة أخرى وهو يتسلق الامتداد الشرقي لجبل سركاب .

أما الطوف الأول فبمجرد بدء تقدمه خلال الصخور تعرض لنيران قوية من بنادق الخليفة التي اتخذت مواقعها وسط الصخور » كان أولئك جزء من حرس الخليفة الخاص ، وقد احتلوا قمة جبل سركاب كنقطة ملاحظة لارسال التقارير ليعقوب والخليفة » وعلى الرغم من النيران التي صوبت نحو الطوف ، إلا أنه تمهل قليلا ليملأ ناظره بالمنظر الذي امتد أمامه حتى مدينة امدرمان . لم يلحظ شيئا غير الفلول التي غطت السهل جماعات وأفراد . فقد حجبت قمة الجبل عن يمينه مشهد كل الراية الزرقاء جنوب غرب الجبل . ولما بدأت الطلقات التي وجهت نحوه من القمة تجد طريقها وسط صفوفه ، فقد استدار عائدا ليقدم تقريره .

أما الطوف الثاني ، فانعطف يسارا وتسلق نهاية امتداد الجبل الشرقي . وعندما اعتلاه أبصر نفس المنظر . منظر الفلول العائدة ، بالإضافة إلى منظر آخر استرعى انتباهه وجعله يقف عدة دقائق لترسم تفاصيله في ذاكرته . فبينه وبين الفلول التي فصلت جيش كتشير عن امدرمان ، شاهد ثلة من الرجال قدرها بحوالى ٥٠٠ مقاتل تقف ثابتة وقد اتجهت شمالا حائلا بينهم وبين تفريق بقايا جيش الخليفة .. كانت تلك المجموعة تقف على ضفة مجرى للمياه ، أوحى منظر الأشجار على جانبيه انه مجرى صغير جاف . « فى الواقع كانت القوة التي رآها قائد الطوف هي الصف الأمامى - حملة البنادق من الراية الزرقاء وبعض رجال عثمان دقنه الذين وقفوا على أقدامهم فى الضفة الشمالية للخور ، وكانوا هدفا ظاهرا للعدو من ذلك الارتفاع . وكان استكشاف الطوف الثاني فى لحظات تقدم ربع التعزيز من الراية الزرقاء » ٢٠٠٠ رجل » للانضمام لعثمان دقنه ولكن تعرجات

وثبات الأرض لم تمكنه من رؤية تقدم تلك القوة الكبيرة . أى شاهد رجال عثمان دقة في لحظات السكون القصيرة بعد أن جلسوا على الأرض بعددهم الاصل قبل إنضمام التعزيز (١) .

عاد قائد الطوف الثانى ، ووصف المنظر الذى شاهده لقائد الكتيبة الذى ركز أسئلته على ثلة الرجال الذين كانوا فى انتظاره ولم يكونوا من المتقهرين أو الجرحى . بدأت الفكرة تتجمع فى رأس الكولونيل مارتن ، شن هجمة بالفرسان على تلك الثلة من الرجال واختراقها والحق بالفلول خلفها وتشتيتها . كانت أغلب دوافع مارتن شخصية لا تمت للموقف التكتيكى إلا بقليل الصلة . فقد كانت تلك أول تجربة ميدانية للكتيبة . ولم تترك من قبل فى أى عملية خارج بريطانيا ، ولا فى أى من حروب القرن التاسع عشر ، أو فى بناء أمجاد الامبراطورية «ماعداء فصيلة منها خصصت لحراسة نابليون فى سانت هيلانة» فى الوقت الذى نال فيه سلاح الفرسان نصيب الأسد من الاشادة والتخليد بالأشعار والأغاني . وها قد لاحت فى الأفق فرصة أخيرة لشن هجمة فرسان . قمة الاثارة وأمل كل فارس فى تلك الفترة . وتلك كانت الفكرة المسيطرة على كل أفراد الكتيبة سيطرة تامة « كما اعترف تشرشل فيما بعد » . « أما شنّها ضد أى عدو .. وفى أى أرض .. وفى أى ظروف . فقد كان هذا امرا ثانويا » . والخيالة البريطانية منذ زمن طويل إنحصر تدريبها وتجهيزها لشن الهجمات بالسلاح الأبيض "Shock tactics" وقليل خلاف ذلك .

اذن كانت رغبة الكولونيل مارتن رغبة طبيعية فى المساهمة فى المعركة ، والالتحام مع العدو (٢) . وعلى كل . لم يكن بضعة مئات من الرجال

(١) أنظر الخريطة رقم ٨ « الصدام سمت ٨٤٠ » .

(٢) نجد هنا بعض الاختلاف فى تقرير الكولونيل مارتن الذى قدمه للردار وبين الحقيقة - والواضح أن الكولونيل حاول تبرير موقفه غشية من سخط الردار فقد كانت نسبة الخسائر فى كتيبته أعلى نسبة فقد كتب « وعزمت على اجتياح جناحهم الأيمن »

“and determined to turn their right flank”

دار الوثائق المركزية

Colonel Martin Report 1/60/320

فهو هنا ينفى انه اتجه مباشرة نحوهم ، بينما نجد ان تشرشل -الذى اشترك فى الهجوم ووصف

الحفاة العراة بالقوة التي تتردد كتيبة فرسان بريطانية أمامها كثيرا . ولذا لم يتقدم الكولونيل مارتن نحو النيل لفتح الطريق تقدم المشاة، بل اتجه نحو تجمع العدو ، ثم استدار بكل كتيبته التي تجمعت في السطح الشمالى لجبل سركاب ، وأنحدر بهم شرقا في اتجاه النهر باتجاه مائل قليلا لجهة الجنوب . واستمر بتشكيله القديم إلى أن حاذى خور أبو سنط الذى وقف حملة بنادق الأنصار على أعلاه وبدأوا في إطلاق البنادق على الكتيبة . وعلى بعد ستمائة ياردة من الخور عزفت طبلة الكتيبة النغمات المميزة للاصطناف في صف واحد استعدادا لشن هجمة الفرسان . وبينما الكتيبة تتقدم بخطوة عادية ، بدأت الفصائل الخلفية للسرايا في التحرك أماما من جهة اليمين للدخول في الصف الطويل الذى اصطفت فيه الكتيبة وبلغ طوله حوالى ثلاثمائة ياردة . فى تلك اللحظات توقف إطلاق النار من رجال عثمان دقنه . ووقفوا ينظرون إلى الكتيبة فى ترقب وهى تتحرك وتصطف أمامهم فبدوا لبرهة وجيزة وكأنهم على وشك الاستسلام . ولكن الكولونيل استبعد هذا الخطر بسرعة - فلم يرغب فى ان يفسد هجمته الرائعة المرتقبة بأميل أخرى عملة فى مطاردة الفلول - اذا استسلم هؤلاء .

← المشهد بعد ثلاثين عاما بعد أن تظهر من عوامل التحيز - يذكر :

The trumpet sounded right wheel into line and all sixteen troops swung round towards the blue black riflemen"

« عندها عزفت الطبلة النغمات المميزة لاصطفاف الهجوم . وتدافعت ستة عشر فصيلة لجهة اليمين لتأخذ مكانها فى صف الهجوم المسدد نحو حملة البنادق السود من العدو » .

Churchill W., 'My early life' - The sensation of a cavalry charge - p. 188

ويؤيده خطاب الملازم روبرت سمث لخطيبته وهو يصف الهجوم .

"See formed body of about 200 men six hundred yards to our left. Front troops left wheel. Immediately met by volleys fairly accurately aimed. Bullets seems to be whistling and splashing all round. My right hand drops. "Right wheel into line, Charge" looking round see Khor 12 feet wide, 6 feet deep. IN FRONT. Every side a compact mass of white robed men..." Oriental Studies Department, University of Durham - G/15433

ويستلرد تقرير مارتن

"By this time we were within 200 yards of their right when a large body→

وعلى بعد اربعمائة ياردة وفي سعت ٨٣٧ . أشار لحامل الطبله خلفه ، فانطلقت النغمات السريعة المتواصلة المميزة للكلمة « هجوم » .. وبدأت هجمة الرماحة .

كان حملة البنادق من جنود عثمان دقته تحت قيادة ابراهيم سعيد ، وأغلبهم من ريع التعزيز . يقفون على أقدامهم على بعد عشر ياردات خارج الخور . أما داخل الخور . ومع توافد ريع التعزيز وضغط حشوده ، ومع ضيق الخور فقد بدأت صفوف حملة السلاح الأبيض تمتد حتى بلغت ٤٠٠ ياردة . وهم أكثر كثافة في اليسار أى في الاتجاه الذى وصل منه ريع التعزيز ، وحيث بلغت كثافة وعمق المواجهة في تلك البقعة إلى خمسة عشر أو ستة عشر صفًا ، تكونت من رجال تلاصقت أكتافهم فعلا وكونوا كتلة سميكة . وبعدها بدأت الكثافة والعمق يخفان قليلا قليلا إلى جهة اليمين حيث تبعثر رجال الهدندوة ممن كانوا في احتلال الخور أصلا . وبذلك أصبح صف حملة البنادق موازيا للطرف الأيمن ، حيث قلت كثافة الرجال كثيرا . ولم يكن موازيا لكتلة الرجال السميكة من رجال التعزيز .

→ jumped out of a small Khor and commenced a very heavy fire".

فهو هنا يذكر « على بعد ٢٠٠ ياردة اندفعت أعداد كبير من العدو وفتحت نيرانا قوية ثقيلة » ، والواقع ان صف حملة البنادق فتح نيرانه من مسافة ٥٠٠ ياردة - وان « الاعداد الكبيرة » لم تقفز خارج الخور الا عندما أصبح الرماحة على مسافة أقل من ٣٠ ياردة والقوة التي اندفعت خارج الخور أغلبها كان من حملة السلاح الأبيض . قمارتن يحاول أن يوضح أنه تعرض لنيران ثقيلة مبررا الخسائر ومبرراً هجومه . فنحن نجد أن نشرشل يصف تلك اللحظات قائلا :

I recall it to my mind so frequently after the event that the impression is as clear as it was quarter of a century ago. . . . Then I saw before me, the row of crouching blue figures firing frantically, wreathed in white smoke, after this I glanced to the right and left at my troop, I looked again towards the enemy. The scene appeared to be suddenly transformed, the blue black were still firing , but behind them there came into view a depression like a shallow sunken road. This was crowded and crammed with men rising from the ground where they had hidden. Bright flags →

واكتملت أخيرا الصورة النهائية لكمين الراحة المشهور . أكثر من ألفي مقاتل جلسوا على الأرض وقد ارتفعت اسنة حراهم الثقيلة إلى أعلا ، انخفاض مفاجيء لسته أقدام من سطح الأرض . واعلاهم وقف صف من حملة البنادق . وبعد أن نظم عثمان رجاله وقف فيهم خطيبا . وارتفع صوته العالى ليصل لحملة البنادق الذين اعطوه ظهورهم . مذكرا اياهم ان المهم أولا هو انزال العدو من خيوله حتى يترجلوا على الأرض . ويمكن بعدها احداث الخسائر . فالعدو الراكب اذا فقد خيوله وترجل فرسانه أصبح من السهل عليهم ابادته . فالواجب الأول هو اباددة الخيول ، فهم مهما تعرضوا للخسائر من نيران العدو وهو فى وسطهم ، فتفوقهم العددي كفيل باحتمالها . وبعد أن دعا لهم لهم بالخير انسحب مسافة قليلة نحو مكان الخليفة وتساى طرف الخور الشمالى ليراقب العدو .

وعندما حاذى الراحة مكانه على بعد ستماية ياردة ، أشار بيده لحملة البنادق لفتح نيرانهم . ارتكز هؤلاء على الأرض . وفتحوا نيرانا مؤثرة ، وبدأ فرسان العدو يتساقطون واحدا بعد الآخر . فقد كان المدى قريبا ، والهدف واضحا . وعندما ابطأت الكتيبة من خطواتها لتتمكن من اتخاذ تشكيل الهجوم ، خشى عثمان أن تكون نية العدو هى التوقف عن التقدم مباشرة نحوه أو الالتفاف حوله . فإشار بيده إلى حملة البنادق بايقاف الضرب . وتوقف هؤلاء على الرغم من أن فرسان العدو كانوا على بعد اربعمائة ياردة منهم . وعندما اكتمل اصطفااف العدو واندفعوا فى هجمتهم السريعة ، وأصبح لا مفر لهم من الاصطدام بمقاتليه ،

→ appeared as if by magic, and as if arrived from no where Emirs on horse backs and around the mass of the enemy."

« لا زال المشهد متطعنا في ذاكرتى كما كان منذ ربع قرن مضى .. لقد شاهدت أمامى صفًا طويلا من حملة بنادق العدو يطلقون بنادقهم بسرعة وحماس . وقد غطى الدخان الأبيض صفوفهم .. فالتفت لجهة اليمين واليسار وتأكدت من صفوف فصيلتى -- ثم انتقل بصرى نحو العدو مرة أخرى .. وفى تلك اللحظة القصيرة تغير المشهد أمامى فجأة .. حقيقة لا زال صف حملة البنادق أمامى يطلقون بنادقهم ، ولكن فجأة برز للوجود انخفاض مفاجئ . لا أرض . ازدحم قاعه برجال نهضوا فجأة من قاعه حيث جلسوا مختبئين وبرز الامراء على ظهور جيادهم والاعلام تحفق وكأنا انشقت بطن الأرض عنهم . »

أمرهم بالنهوض من الأرض لتلقى الصدمة .

غرس فرسان الرماحة مهاميزهم فى الجياد ، واندفعوا نحو العدو وقد أشرعوا رماحهم الطويلة أمامهم . وانطلقت صيحة الهجوم من الفرسان فى الصف الطويل « ١ » وهو يندفع نحو الخور . فهنا صفان أو أكثر قليلا من العدو ، وسيستاقط بضعة فرسان وبضعة جياد من نيران العدو . ولكن العدو كان من المشاة ، وعدده ليس كبيرا وسيتم خرقه وتشتيته . وعبر الخور الصغير والاندفاع لاتمام المهمة . ولكن فجأة تغير الموقف كله . فورا صف الجنود الذى رأوه أمامهم برز آلاف المقاتلين من الخور كالنبت الشيطاني .. لا أحد يدرى كيف انشقت بطن الأرض عنهم . وبدلا عن الانخفاض البسيط الذى بدأ وكأنه يتساوى مع سطح الأرض ، ظهر

(١) كانت معركة أبو سنط منزلة تماما عن بقية المعركة . الا ان هناك مراقبين راقبها عن كثب وتمكنوا من رؤية كمين عثمان دقة قبل حدوثه . أحدهما هو المؤرخ محمد عبد الرحيم الذى كان يرقد على الأرض جريحا فى غور أبو سنط وشاهد كل تفاصيل الصدام منذ تقدم الرماحة . أما الآخر فهو الكاتب يتي قبطان الباغرة الذى شاهد عثمان دقة وهو ينظم رجاله وادرك مع تقدم الرماحة انه يعد لهم كميناً .

قد ذكر المؤرخ محمد عبد الرحيم أنه بعد اصابته فى جبال كررى فى اشبناك الملازمين عاد وهو يتوكأ إلى أن أتبه الزيف فرقد على الخور . وفى طريقة سمع اشاعة تتردد وسط الجرحى ان عثمان دقته والمدفوعة هربوا وتركوا أرض المعركة . ولكنه سرعان ما شاهده ينظم رجاله وصوته العالي يرتفع وسط الضجيج . وعندما سقط الرماحة فى الكمين وأعمل المدفوعة فيهم السيوف شبه المنظر كان المدفوعة فى تلك البرهة القصيرة وكأنهم يعرضوا « أى يقفزون فى الهواء عالياً » وبعدها يزلون سيوفهم البائرة على فرسان الانجليز بالضبط كما يفعلون فى رقصات الحرب » .

أما بيتى فقابلته تشرشل بعد عشرين عاماً وكان تشرشل قد أصبح وزيراً للبحرية وبيتى ادميرالاً وقد حدث تشرشل عن انطباعه . « لقد شاهدت كمين العدو منذ لحظات الاعداد ولم أفهم بالضبط ما كان هو هدفه وسرعان ما أدركته عندما شاهدتكم تندفعون بخيولكم وأمفيت لحظات عصبية ، كيف انهكم للخطر المخيف .. وفكرت فى أن أطلق مدفعي نحو العدو لتتيهكم ولكن كان الاحتمال أقوى فى أن تصيبكم القذيفة . وبدأت اصرخ فيكم لا شعوريا واقفز فى الهواء لتأخذوا حذركم ولكن بالطبع كان صياحى على بعد أميال منكم .

وسأله تشرشل « وعندما سقطنا وسط العدو . كيف كان المنظر » فاجابه : « آه يا صديقى .. كنتم بالضبط كحبات من الأرز تطفو فى قذح من الزيت المقل . »

Churchil, W. My Early life, p. 193

أمامهم فجأة منخفض من الأرض يمتد عمقه لسته أقدام غطته الشجيرات ، كثير الانحناءات والكتل الرملية التي اندس أمامها وخلفها الفئ مقاتل . وبرزت عشرات الاعلام والامراء على خيولهم بموجون وسط الحشد . وضحت الحقيقة المرة للكونونيل مارتن وهو مندفع على رأس كتتيته في أقصى سرعة لجواده . وأدرك أى موقف تورط فيه . ولكن فات الأوان ، فلن يستطيع إيقاف جواده قبل وصوله للآلاف المتربصة ، دحك من إيقاف كتية . فلم يبق من مفر إلا زيادة سرعة جواده لعل قوة الاندفاع تمكنهم من شق طريقهم للطرف البعيد للخور .

أما صف البنادق الأول من رجال عثمان دقنة فاضطر إلى التقدم مدفوعا بضغط الحشود الخلفية التي وثبت للأمام للاصطدام بالعدو متجاهلة طبيعته الراكبة وصدمة خيوله . منهم من رفع حربته ومنهم من وقف مشرعا سيفه لانزاله على أول جسم يصدم به ، وبعضهم رقد على ظهره في الأرض وقد رفع حربته وسيفه في الهواء لتصبح مانعا حادا باترا لكل من يمر فوقها .

تناقصت المسافة الفاصلة بين القوتين بسرعة .. وحل أخيرا الاصطدام المروع .. ويمكن تخيل قوة الاصطدام .. صف يبلغ طوله ٣٠٠ ياردة من الفرسان على جياد منطلقة بأقصى سرعتها مشرعة الحراب أمامها .. و صفوف أخرى من المشاة في إنتظارهم . وعلى بعد ياردات من الخور التحمت القوتان . سقط ثلاثون فارسا من كتية الرماحة على الأرض من شدة الصدمة .. وكانوا بالطبع أسوأ الجميع حظا .. وسقط أكثر من مائة من صفوف عثمان دقنة .. ومرت ثوانى وكأن الدنيا قد توقفت عن الحركة . أما بقية الكتية فقد تمكنت في اندفاعها الهائل من اكتساح صفوف حملة البنادق في المقدمة .. ليس للطرف الآخر من الخور .. بل ليرتفعوا في الهواء عاليا وتهبط الخيول بعد برهة بدت أطول من الدهر لعرق ستة أقدام في قاع الخور حيث كان رجال عثمان دقنة في إنتظارهم .. دام أثر الاصطدام الثاني ثوانى قليلة وبعدها هز كل من في الخور نفسه من أثر الصدمة . وكانت خيول الرماحة الهاربة قد أوصلتهم للطرف الآخر للخور وبدأوا في تسلق صفته الجنوبية . وهنا فقط بدأ الالتحام . كان هذا شأن الفصائل الثلاثة التي شقت طريقها وسط رجال الهدندوة . أما فصيلة الملازم جرانفيل في أقصى

اليمن والتي حاولت إحتراق كتلة ربع التعزيز في أكثف أماكنها ، فلم يقدر لها ولا لحيوها عبور الخور وإحتراق أكداس التعزيز وايدت كلها ، تقريبا فقد واجهت الطرف الايسر لصف البنادق وبالتالي سقطت وسط كتلة ربع التعزيز السميكة . أما الفصيلة الثانية بقيادة الملازم تشرشل فقد هجمت وإخترقت صفوف الهدندوة قليلة الكثافة التي مثلت نهاية صفوف عثمان دقته اليمنى . أما قادة الفصائل الثالثة والرابعة فقد انشوا بلجة اليمن للصطدام مع العدو . فأصبحت السرية اليمنى وهي تندفع للأمام وفي نفس الوقت تنشئ اجنحتها للداخل كطرفي هلال . . أما السرايا الثلاث يسار السرية الأولى .. والتي تكونت من اثني عشرة فصيلة فقد هجموا وإخترقوا الهواء .

ارتفعت وإنخفضت الاسنة البائرة في لمعات سريعة وهي تخلف وراءها خيوطا دهوية في وجوه وأعضاء الفرسان وخيولهم . وجهت الضربات للجياد . فمن غرس حربته في اجسامها ، ومن الصق فوهة بندقيته على رقابها وأطلقها ليتهاوى الجواد وفارسه للأرض لتتناولهم الاسنة البائرة ، وتجمع عدة مقاتلين ممن أفقدتهم الصدمة أسلحتهم حول أحد الفرسان ، وأمسكوا بقدميه لجره بالأرض .. ثلاثون ثانية كانت المعركة قد وصلت قمتها .. وتعالأ أصوات سقوط الحديد على الحديد .. سيوف الهدندوة القصيرة .. مع حراش الرماحة الطويلة . فلم يعد هناك مجال لاستخدام البنادق .. ولم يجد الرماحة طينجاتهم فما ارتفع ساعد ليصوب الاوثير .. ولم تسمع في تلك اللحظات إلا الهمسات السريعة للسيوف وهي تشق الهواء نحو أهدافها لا يقاطعها إلا بضغ طلقات منقطعة من طينجات الرماحة . وينزل السيف ليبتز كل ما يقابله ، لجام الحصان أو فخذ راكبه أو عنق الحيوان . وبدأت خوذات الرماحة تتساقط هنا وهناك ، وشوهد رجلان يتقاتلان بالايادي وأسلحتهم معلقة في اجنابهم ، فالسلاح لم يعد يشفى غلة الحقد ولا بد من الامساك بخناق العدو . وزادت الخيول وهي تنطلق صاهلة بدون راكبيها من عنف الضجة ، فقد انطلقت يمينا ويسارا وهي تصطدم بالرجال من الجانبين وتلقيهم على الأرض .

قاتل رجال عثمان دقته بشجاعة وبعزيمة عززتها الاحقاد القديمة . فمن من

هؤلاء لم يفقد عزيزاً عبر رحلة السنوات الطويلة الدموية وراء قائدهم ؟ ولم تكن شجاعتهم شيئاً جديداً في ميدان كررى فالشجاعة كانت ظاهرة عامة ذلك اليوم .. أما الجديد فقد كانت هي القوة الوحيدة التي مكنتها قيادتها الذكية من الاشتباك والالتحام يداً بيد مع العدو .. ففى معركة كررى لم يكن السؤال هو كيف تقتل العدو .. بل كيف تصل اليه .. وفى سبيل ذلك سالت الدماء أنهاراً وراحت آلاف الأرواح . ولكن دقته مكن رجاله من الإمساك بخناق العدو .. ولم يمسكوا بخناقهم فقط ، بل اقتلعوا حنجرتهم فى غضبتهم الجارفة .

والواقع ان الجزء الأكبر من القوة التى تربعت داخل الخور لم نجد حتى فرصة فى الاقتراب من العدو والمساهمة فى المعركة ، فالحيز ضيق والآلاف متزاحمة للوصول للعدو . كانت معركتهم شيئاً يختلف تماماً عن ماجرى شمالها فى سهول كررى . فهنا معركة متكافئة .. ليس فيها بوارج لتقصص من بعيد ، ولا رشاشات مكسبم لتحصد الصفوف ولا شظايا مدفعية كتشتر بعيدة المدى ، بل كان الرجال ضد الرجال والاسنة ضد الاسنة . وكان المقياس هو أقصى اختبار يواجهه البشر الشجاعة الخارقة التى لا تعرف قيوداً ولا حدوداً . وللعادل اجتازت كلا القوتين الاختبار بنجاح ، لكن العقل والتدبير الذى وجه كلا القوتين الشجاعتين كان واضحاً انه تمثل فى القوة التى اتجهت صفوفها شمالاً .. ووقفت على قدميها . وأخيراً استطاعت الخيول التى غرست المهامير فى أجنابها حتى نزفت دماها ان تنطلق بركابها إلى الأمام ، يدفعها جنون الألم ، عبر المانع البشرى . ووصلت بقايا الكتيبة إلى نهاية الخور والضربات تلاحق الفرسان من كل جانب إلى أن استطاعوا نفص أعدائهم خلفهم وإنطلقوا بنفس السرعة بضعة مئات من اليارات بعيداً عن منال أعدائهم .

دامت تلك المعركة الدموية بالضبط مائة ثانية . وضاعت ثوانى ثمينة من كلا الجانبين قبل ان يفيقوا من أثر الصدمة والدهشة ، ويبدأ رد الفعل المتأخر ، الرماحة لكى ينطلقوا بعيداً عن الكمين الذى سقطوا وسطه .. ورجال عثمان دقنه ليبدأوا تسديد الضربات . وطوال لحظات احتدام المعركة ، لم يلحظ الرماحة شبحاً لرجل ملتجئ جلس على فروته يرقب المعركة .. فقد كان الخليفة عبدالله

على بعد ياردات من مكان الاصطدام . وشهد المعركة من أولها لآخرها ولم يتحرك إلا بعد ان غادر الرماحة المنطقة . ولابد انه لم يستطيع السيطرة على فضوله لرؤية هذا العدو الجديد الذى طالما سمع عنه ولم يواجهه .. البريطانيين .

انطلق الرماحة خارج الحور وتوقفوا على بعد ثلاثمائة ياردة منه وبدأوا فى تجميع صفوفهم والانتظام مرة أخرى فى نفس التشكيل ، تشكيل الهجوم . أما عثمان فقد عاد مرة أخرى وسط رجاله ليعيد تنظيمهم الذى اختل بعد اخراق الفرسان .. عكس اتجاه جنوده بنفس الترتيب القديم . جمع من بقى من حملة البنادق ووضعهم فى الامام واتجهوا جنوبا ، ووضع وجمع صفوف السلاح الأبيض خلفهم .. وأمر حاملى البنادق بفتح نيرانهم على العدو بينما وقف حملة السلاح الأبيض خلفهم فى استعداد لتحمل الصدمة الثانية من الاتجاه المضاد .

ولكن الكولونيل مارتين كان فاقدا الرغبة فى خوض تجربة مريعة مرة أخرى ، فجمع سراياه ووضع ثلاث سرايا فى تشكيل الهجوم والسرية الرابعة خلفهم فى تشكيل السرية الراكبة وانعطفت لجهة اليمين ملتصقا حول رجال دقته . ثم توقف واتجه غربا بكامل مواجهته لفتح النيران على جنب عثمان دقته . وبالطبع مكنتهم طبيعتهم الراكبة من اتمام المناورة بسرعة . ولكن رد فعل عثمان دقته كان أسرع فقد أعاد تغيير مواجهته بسرعة ليحرم عدوه من صب نيرانه على جانبه الايسر فدفع برجاله غربا خارج الحور وعادوا واتجهوا شرقا بحيث اتخذت الصفوف زاوية قائمة مع الخور . وفى الواقع شكلت كل من القوتين زاوية قائمة مع موقعها السابق .. استمر اطلاق النار بضعة دقائق ولما طال الراشق (١) بالنيران جمع عثمان دقته صفوفه للتقدم والهجوم على العدو . فلم يفصلهم عنه فى الاتجاه الجديد أكثر من ستمائة ياردة . ولكن الخليفة الذى امتطى جواده أمره بالكف ، فقد أدت قوته مهمتها وطلب منه التحرك وضم رجاله للراية الزرقاء خلف جبل سركاب فقد اقرب توقيت المرحلة الثانية ، ولم يكن عثمان دقته بالغباء لكى يقود هجوما بمشاته على عدوه الراكب يفوقه سرعة وخفة وحركة . استمر تبادل النيران فى المواجهة الجديدة فترة قصيرة توقف بعدها من جانب الرماحة وتجمعوا مرة أخرى

(١) الخريطة رقم ٩ « الصدام ست ٩٠٠ »

وعادوا بخطوة بطيئة متناقلة شمالا إلى الزريبة .. يحملون موتاهم وجرحاهم .
بلغت خسائر كتيبة الرماحة سبعون رجلا بين قتيل وجريح ومائة وعشرون
جوادا .. وبذلك فقدت قيمتها واهم مواصفاتها القتالية ككتيبة فرسان . بينما
فقد دقة ثلاثين رجلا . (١) .

..

لقد أدرك دقته ضعف موقفه وان المواجهة المباشرة مع العدو ستنتهى بآبادة
رجاله . وشاهد من مكانه آلاف الجرحى والموتى وهم فى طريقهم لامدرمان -
ومنذ شهور احس باختلاف نوعية العدو الذى يواجهه عن اعدائه القدامى . وأدرك
تفوقه الواضح فى أسلحة القتل الحديثة . فقد اختبره فى موقعة عطبرة .

أصبح الحل الوحيد أمامه هو الالتحام مع العدو بسرعة ، وعدم التعرض من
مسافة بعيدة لنيرانه . فالتعرض كقبل بترجيح كفة العدو . كانت قوته بسيطة ،
وأغلب تسليحه بالسلاح الأبيض . فكانت فرصته الوحيدة فى التعادل مع العدو
تكمن فى تحقيق مفاجأة تكتيكية .

ان المفاجأة تعتمد دائما على عنصرين : الأول هو وضع العدو فى موقف
لا يتوقعه اطلاقا سواء فى السلاح أو التوقيت أو الاتجاه أو حجم القوة ، والعنصر
الثانى هو .. السرعة . أى بعد تحقيق المفاجأة يجب استغلالها وتوجيه الضربة الرئيسية
قبل أن يفيق العدو . تماما كقطعنة السكين السريعة ، حين تشاهد الدم .. قبل أن
تحس بالآلم .

لم يزد رجال دقته عن ٧٠٠ رجل مسلحين بالسلاح الأبيض ، ولم يكن
بمستطيع حماية كل المواجهة العريضة بين سركاب والنبل من اختراق طلائع
العدو ، ولم يكن بمستطيع تأخيرته وتعطيله طويلا . فكبر المواجهة من جهة وقلة
قوته أجبرته منذ البداية على تجنب خوض معركة دفاعية تقليدية فى خطوط دفاعية
عادية . اذن تحم عليه اختيار الأرض التى تناسب مواصفات قوته . فاختار خور

(١) احصى كاتبى برجز احدى عشر جمجمة فى موضع المعركة واذا طبقت عليها نفس النسبة السابقة
نجد ان عدد خسائر عثمان دقة كان ثلاثين رجلا .

أبو سنط في أعظم اتساعه وعمقه لإخفاء قوته . وإلى هنا كان كل ذلك كميناً عادياً . ولكن الكمين يوضع في العادة في منطقة أو طريق يكون العدو مجبراً على اتخاذه . وكان تحقيق ذلك صعباً مع العدو راكب يتقدم عبر منطقة واسعة وله هو حرية اختيار طريقه لأم درمان . ولو سلك طريقاً يمر بغير نقطة الكمين فمن الصعب اللحاق به ، أو تغيير الاتجاه والتحرك نحوه . فقد كان عدواً راكباً — وذلك حدد النقطة الرئيسية في خطته . ألا وهي جذب العدو نحوه وإلى مكانه هو بالذات . والمعلومات التي أوصلها له الخليفة بتقدم خيالة العدو حددت أسلوب معركته المخاطفة . فلم يكن هناك ما يثير شهية الفرسان مثل فلول بعيدة تتراجع بسرعة ويقف حائلاً بينها وبين تلك الفلول صف صغير من حملة البنادق وبضع مئات من الرجال ، فلكى يشق فرسان العدو طريقهم وسط الصف الأول ، وهو الصف الوحيد الذي بدا لناظرهم ، كان لابد لهم من الاندفاع نحوه بسرعة شديدة لخرقه وبالتالي يجدون أنفسهم وسط الكتلة البشرية في قاع الخور . بالطبع كان عثمان دقنة معتاداً على تكتيكات الانجليز وبالذات الفرسان ، وما حدث كان بالضبط تكراراً لما حدث في طماي ضد جراهام حين دفع عثمان دقنة ببضعة صفوف اندفع نحوه فرسان جراهام تمكن عثمان بعدها من خرق الضلع الخلفي للمربع بمشاته حملة السلاح الأبيض .

وبعد أن ضمن جذب عدوه ، أعد العنصر الأول من المفاجأة « اعداد موقف يكون فيه المظهر غير المخبر » أى الظهور بمظهر يختلف عن الحقيقة ، مظهراً يعرفه العدو ويبنى نفسه له ليفاجأ بعد فوات الأوان بموقف آخر يختلف تماماً . لقد أظهر دقنة للعدو صفاً واحداً من البنادق بينما أخفى الجزء الرئيسى من قوته خلفهم مباشرة . وبدلاً من صف تكون من بضع مئات في مكان عالٍ ، وجد العدو نفسه غارقاً وسط خضم بشري مسلح يزيد عدده عن الألفين . اذن تركزت مفاجأته أساساً في تمكنه من إخفاء حجم قوته الحقيقية .

أما العنصر الثانى ، السرعة ، سرعة توجيه الضربة القاضية . فالزمن وهو يمضى مسرعاً في العادة بشكل عاملاً مضاداً سلبياً في العمليات المفاجئة . وكلما مضى ، كلما تأقلم العدو على الموقف الجديد وبالتالي تبدأ الدماء تجري في أطرافه المتجمدة

المشلولة ، ويبدأ بعدها رد الفعل المضاد . وذلك العمل السريع يتطلب تهيئة وهندسة معينة من القوة بحيث تستطيع إنزال أكبر قدر من الضرر بالعدو ، بصب أكبر كمية من النيران ، لو كانت العملية تتم بالأسلحة النارية ، أو أكثر عدد من الأسنة الباترة في التحام لا يستطيع العدو منه فكاكيا . وهنا أصاب بعض الخلل خطة عثمان دقته ، وجانبه التوفيق لحدا . فعندما إنحدرت كتيبة الراحة من شاحق وهبطت ، هبطت وسط خطوطه الرقيقة بدلا من الكتلة المتماسكة . والالكان مصير الكتيبة هو الالابادة التامة . فالقضية الوحيدة التي سقطت وسط رجال التعزيز لإيدت عن آخرها . ولعل السبب كان هو إنشغال دقته بتنظيم قوته المتضخمة ، فلم يلحظ عدم تطابق وموازة صف حملة البنادق في اعلا « الطعم » مع الكتلة البشرية في القاع « المصيدة » فكان أن تحمل العدو جزءا هينا من عنف الضربة الرئيسية وبالتالي وجد الفرصة في استغلال الزمن لصالحه - فالملتق للنظر هو ان عنصر السرعة ، ذلك العنصر المهم في المفاجأة ، وفره العدو في البداية بهجمته بالخيول وهي منطلقة في أقصى سرعتها ، وكان من المفروض أن يتوقف ضرر عامل الزمن بالنسبة لعثمان دقته بمجرد سقوطهم في الخور . فالخطة لو مضت كما قدر لها ، لكان الزمن تجمد بالنسبة للفرسان ولكان سقوطهم وسط الكتلة الكثيفة كفيلا بإيقافهم وشل حركتهم نهائيا إلى أن تم إبادتهم بسهولة .

كان عثمان دقته رائعا سواء في تخطيطه لمركته الصغيرة أو في ادارتها أثناء اشتعالها ، بارعا في جذب العدو نحوه بحيث أظهر لهم جزءا قليلا من قوته ليغريهم بالهجوم .. موفقا في اختيار الأرض العميقة الواسعة في تلك البقعة من خور أبو سنط بحيث لم يعد للعدو مفر من السقوط فيها ، استاذا في توجيه الضربات للخيول أولا بدلا من توجيهها للفرسان في ارتفاعهم النسبي عن الأرض ، سريعا في رد فعله وتغيير مواجهته بسرعة لمواجهة نيرانهم .. حكيما في رفضه مطاردة عدو راكب .

• • • • •

انطلق على الجلة وراء عثمان شيخ الدين ، وقد فصلته عنه اربعة أميال كاملة . واضطر لكي يصله من أقصر طريق ان ينحرف للاحية النيل وسط الرصاص

والشظايا المتطايرة التي وجهت نحو بقايا وجرحى عثمان أزرق . تمكن من قطع الميل الأول والثاني سالما . وعلى مسافة ميل من جبل كررى أصيب جواده وسقط فوقه الجواد . ترجل على من الجواد وانطلق مسرعا على قدميه والرصاص يتطاير حوله ، واختار طريقه وسط المنخفض الهضبي بين دهم وأبو زريبه وأصبح معرضا كهدف قريب في متناول نيران كل الزريبة . ولكنه فضل ذلك الطريق ، فابتعاده عن النيل كان يحتم عليه تساق جبال كررى وبالتالي ضياع زمن أكبر .

وعندما اجتاز سلسلة الجبال أخيرا أبصر بالغبار الهائل الذي أثارته آلاف شيخ الدين وهي تحاول اللحاق برود وود . كان عثمان يبعد عنه أكثر من ميلين .

ضاعف على الجله سرعته إلى أن تمكن من اللحاق بمؤخرة جيش عثمان وتحدث مسرعا مع بعض الملازمين وهم في ركضهم السريع فتعرفوا على شخصيته فاستطاعوا إيقاف أحد الفرسان في الخلف وأنزلوه وامتنطى الجله جواده وانطلق مسرعا للأمام شاقا الصفوف المضطربة للحاق بعثمان .

أما عثمان فعمد تركه الجبال خلفه في مطاردته العقيمة لبرود وود فقد تنازعه عاملان . احساسه بالخطأ في الابتعاد كل تلك المسافة عن أرض المعركة . ولم يحسن به كل الزمن فبين كل فترة وأخرى يبطئ برود وود وتتقارب القوتان ويكاد عثمان ان ينجح في الاطباق عليها . . . ولكن برود وود سرعان مايضاعف سرعته ويمتد الفاصل مرة أخرى بين القوتين . اما العامل الآخر فهو تصميمه على الاشتراك بأي طريقة في المعركة وان ينال شرف تحطيم جزء من قوة العدو . فافلات الهجانة منه ونيران الزريبة التي صدته عند هجومه عليها . جعلت كل تصميمه وغيظه ينحصر في الخيالة التي انطلقت امامه .

أخيرا تمكن على الجله من الوصول لعثمان شيخ الدين وأبلغه أوامر الخليفة . فراد شيخ الدين سرعة جواده وأرسل بضعة رسل لإيقاف التقدم المسرع . وبعد زمن غير قصير توقفت الآلاف نهائيا وأنفاسها تتلاهدث وعرقها يتصبب نتيجة للقتال المتواصل ساعة كاملة . والركض السريع ساعة أخرى . فأمرهم عثمان بالجلوس على الأرض ليستريحوا وينطلقوا بعدها عائدين للمعركة الرئيسية .

.. .. .

المرحلة الثانية

« ناس براهم خليل العيال الصغار روحوا للمقام الدائم . . . واحنا يانا
فوق خليلنا .. تيلدية وقعت .. تيلدية وقعت فوق الكفار » .

الأمير يعقوب سعت ٩٥٥ .

فى الثامنة والنصف أغلق السردار نظارة ميدانه ، وأعلن أن العدو قد هزم فى المرحلة الأولى . وأصدر تعليماته ببدء التقدم نحو أمدرمان للوصول إليها قبل العدو المنسحب . ارتفعت أصوات الأبواق لتعلن الويته الستة المتحصنة بالزربية للتجمع خارجها والتحرك نحو أمدرمان . استغرقت قوة السردار نصف ساعة لاعادة صرف الذخيرة لكل القوة ، وربع ساعة أخرى للتجمع والتهيؤ فى تشكيل المسير . كانت مخاطرة من السردار .. فثلثا العدو ما زال فى أرض المعركة سليما ، ولكنه كان على استعداد لتحملها . تقدمت الفرقة الانجليزية فى المقدمة ، لواء ليتلتون فى اليسار ، ولواء ووشوب فى اليمين . على أن يتبعهم لواء ماكسويل المصرى . ثم لواء لويس ، وأخيرا ماكدونالد .

كان ترتيب السير للتقدم الأسمى هو أن تتقدم الألوية خلف بعضها جنوبا حتى تتجمع وتصل الألوية المتقدمة إلى سر كاب كوثبة أولى . وبعدها تأخذ الألوية مكانها غرب ألوية المقدمة فى تشكيل المعركة . وتتقدم فى مواجهة عريضة نحو أمدرمان . ولكن السردار فضل أن تحتل الفرقة الانجليزية مواجهة أعرض ، خصوصا وقد كان هدفها الأول هو احتلال جبل سر كاب كوثبة أولى ، حيث يمكنها احتلال تلك الهبة المرتفعة من التحكم والسيطرة على ميدان ضربنار واسع ، وتفتيت أى نذر لهجوم مضاد قبل أن تتجمع . قرر السردار أن تتقدم ألوية الفرقة المصرية خلف ويمين مواجهة الفرقة الانجليزية بعيدا عن الثيل منحازة إلى الغرب حيث كان التهديد متوقعا . وبذلك تقدمت كل حملة السردار فى شكل حرف «L» إنجليزى مقلوبا «J» لتكفل حماية مقدمة وأجناب التقدم من اختراق وتسلب العدو أثناء التقدم للوثبة الأولى .

أدى ذلك إلى بروز فراغ كبير بين الفرقة الانجليزية وباقي الأولوية . سارع اللواء الثالث - لواء ماكسويل لسد تلك الثغرة . فضاعف من سرعته لمحاولة الاحتفاظ بالفاصل المعتاد . أما الأولوية الخلفية ، فقد كان ماكدونالد أساسا ، وحسب ترتيب احتلال الزريبة ، أمام لويس . ولكن هنتر قائد الفرقة المصرية عدل الترتيب بحيث يبقى ماكدونالد في المؤخرة . فقد ترك أكثر قادته خبرة وكفاءة ليحموا مؤخرته . فلم يغب عن ذهنه الحشد الضخم الذى انطلق شمالا وراء برود وود . وكان هذا هو الخطر الحقيقي فى رأيه . أن تتعرض مؤخرته لهجوم من الخلف . وكانت حمايتها تستلزم ، تحت تلك الظروف ، عملية منفصلة "Rear guard operation" ولكن كانت هنالك اسبقية عاجلة أخرى ، سرعة الوصول لامدرمان بكل قوته وكله أمل فى كسب السباق والوصول إليها قبل بقية جيش الخليفة . أما الفرقة المفقودة - الراية الزرقاء - فقد كان أغلب الفطن أما أنها عادت لامدرمان لتدافع داخلها ، أو اشترك الجزء الأكبر منها فى المعركة الأولى . ظن السردار أن الخطر الذى يتهدهه سيتقضى عليه من الخلف . وكان يجهل أن الخطر الداهم كان يحتم على مسافة قليلة من الوثبة المتقدمة ، ولا يفصله عنها إلا جبل سركاب الصغير ، فكل الراية الزرقاء كانت تحتشد خلف سركاب فى تلك اللحظة . لذلك قرر دعم مؤخرته التى تمثلت فى لواء ماكدونالد بأقصى ما تحتمله قيادة وإدارة لواء مشاه من دعم بالنيران ، فالحقت لماكدونالد ثلاثة سرايا من المدفعية من أحدث قطع مدفعية « ١٨ مدفع طراز ١٥ رطل » وعززت صفوفه بشمانية مدافع مكسيم ، كما حملت عربات الذخيرة المجرورة بالبغال بكميات ضخمة من الذخيرة « ٩٠٠ طلقة مدفعية » وأثقلت أحمال اللواء بالدرجة التى حدثت من سرعة حركته لحشد كبير . فقد شاهد السردار الأثر الملاحق لتجمع نيران المدفعية والرشاشات ، وأدرك أن القول الفصل للنيران المركزة ، وليس للبنادق والسناكى وحشود المشاة .

تقدم لواء الفرقة الانجليزية مباشرة نحو امتداد سركاب ، تدفع أقدام الجنود رغبة عارمة فى الوصول للقمة ، وارتياح المجهول ، ما أخفته عنهم كتلة سركاب .. مدينة امدرمان وحشود العدو . ولم يكن السردار بأقل رغبة منهم ،

وهو يركب فى صفوف المقدمة بين لوائى الفرقة الانجليزية . يرفرف العلم المصرى فوقه وحوله أركانخر به .

وما أن انتظمت الألوية فى تشكيل التقدم حتى تعرضت من مسافة بعيدة لنيران كثيفة من قمة جبل سركاب حيث اتخذت عناصر استطلاع الخليفة مواقعها . أدار النيران الأمير خير السيد بعد إنضمامه لها . وأمضى تلك اللحظات فى نشاط محموم ، موزع بين ادارة النيران وتحرير المعلومات بسرعة تتناسب مع تلاحق الأحداث ، وبين تنظيم دفاعه عن الموقع .

لم يلتفت السردار ولا ألويته إلى نيران خير السيد - واستمر فى التقدم مسرعا للوصول للأرض العالية على امتداد سركاب . فى سعت ٩٣٥ بدأ جواد السردار وهو يحاذى الصفوف الأمامية للفرقة الانجليزية - فى السير وسط الصخور الصغيرة التى تبعثرت أمام المنحدر الشمالى لامتداد جبل سركاب . وبينما إنشغلت مدفعية ماكسويل فى الرد على عاصفة الطلقات المنطلقة من قمة سركاب ، وبينما مواجهة الفرقة تتقدم فى منحدرات سركاب الجنوبية . بدأت جماعات جرحى الرماحة تشق طريقها للخلف وسط طوابير الفرقة المتقدمة وهم يفسحون لهم الطريق ، ويرمقون الجرحى ووجوههم وأعضاءهم المئخنة بالجراح باستغراب ، فلم يصل خبر هجمة الرماحة ونكبتها إلى الاسماع بعد ، والكل كان يعتقد ان حظ الجميع مثل حظه هو ، قصف ونيران تقصف بالآلاف من العدو من بعيد ، وهو آمن داخل زريبته .

• • • • •

قطع الخليفة المسافة من خور أبو سنط إلى رئاسته الأصلية مسرعا . فلم يكن موكبه كبيرا . فقد مضى ليشهد هجمة الرماحة بدون حراسة تقريبا وهناك فقط أحس ان هجمة الرماحة كانت مقدمة لتقدم العدو نحو ام درمان . وها قد حانت اللحظة الحاسمة التى وفر لها أكثر من ثلثى جيشه . لم يكد الخليفة يصل إلى رئاسته حتى شاهد أربعة رجال يتقدمون نحوه وقد حملوا جثة وسطهم ، وقد تدلى الذراعان فى شكل الموت ، فسأل « جثة من هذه ؟ » فأجابه أحد الرجال انها جثة

أبراهيم الخليل . فأطرق الخليفة مدة من الزمن ثم رفع يديه وقرأ الفاتحة ،
وقرأها من حوله في صمت وأمر فاحضر عنقريه ووضعت عليه فروة الجلد
وحملت عليه النجدة لدفنها بمتزله بامدرمان .

سرعان ما بدأت البلاغات تتوالى من خير السيد عن تقدم العدو نحو امدرمان
— ووصلت أصوات الطلقات النارية إلى اسماع من كانوا في الرئاسة . لقد بدأ
العدو في التقدم نحو امدرمان . وها هو الآن (مكشوقا) في السهل العريض بلا
خنادق لتحميه ولا بوارج تسنده . ولا نيران مدفعية أرضية ثابتة لتقف حائلا بينه
وبين القنا . وحانت لحظة توجيه الضربة القاضية . فليقذف نحوه اذن بالراية
الزرقاء في التحام نهائي .. ولكن كان يجب أن يتم التحام الراية الزرقاء تحت وبعد
هجوم وغطاء نيران شيخ الدين .. آه شيخ الدين .. أين شيخ الدين ؟!

وصل على الجلة في الوقت المناسب كعادته . وترجل عن جواده وكلاهما ،
الرجل ، والجواد . يتصبيان عرقا . وتلاحق أنفاسهما . كان المجهود الذى بذله
والمسافات التى قطعها ، نارة ماشيا . وأخرى راكبا فوق طاقة البشر . أبلغ على
الجلة الخليفة بمكان عثمان ، وأنه فى طريق العودة لأرض المعركة . ووقف على
الجلة بعد إنتهائه من تقدم تقريره وانتظر أوامر الخليفة .

أطرق الخليفة برأسه واستغرق فى تفكير عميق ورأسه يعمل بسرعة . وخيم
صمت ثقيل على كل رئاسته والجميع فى انتظار قراره . كانت لحظة حرجه حاسمة ،
فالعدو كاد أن يصل إلى سركاب ، وعمما قليل سيجد نفسه مدافعا ضد عدو متقدم .
مدافعا . وكل قوته النارية على بعد خمسة أميال . وها قد حانت اللحظة الحاسمة ،
ولكن الخلل أصاب خطته بصورة غير متوقعة . فهجوم الراية الزرقاء ، المقدر له
ان يشن بصورة مفاجئة . وعند إشغال العدو بنيران ثقيلة من الخلف يعززها هجوم
فرسان من الراية الخضراء . سيصبح هجوما لا تسنده غير القوة العددية والأسنة
البيضاء .

كان السؤال هو ، هل يقذف بالراية الزرقاء فى هجوم يفقد كثيرا من
فرص النجاح . ولكن فى توقيت مناسب والفرصة لازالت سائحة ؟ أم ينتظر

شيخ الدين .. وشيخ الدين بعيد ، وحتى عندما يصل لا يلقى أحد أين سيكون العدو ، وفي أى موقف ، وهل يمكن اللحاق به قبل وصوله لامدرمان ؟
رفع الخليفة رأسه أخيرا وتحدث مع على الجلة وأمر اليه بتعليماته فانطلق على الجلة مرة أخرى نحو الأمير يعقوب .. إلى الراية الزرقاء .

أما شيخ الدين فقد ترك رجاله ليسريخوا نصف ساعة قبل أن يأمرهم بالتحرك ثم تجمعت القوة مرة أخرى . إلا أن الصفوف اختلت نتيجة تعثر الجموع المتعبة أثر الركض السريع والقتال المتصل خلال الساعتين الماضيتين . فقد شوهد الخيالة وقد ارددوا على كل حصان رجل أو رجلين متعبين . أما حملة البنادق فقد تبعثروا وسط القوة ، فقد كانوا أكثر الجميع إنهاكا بأحماهم الثقيلة وجهدهم المتواصل خلال المعركة الماضية . وركب عثمان كالعادة متهادبا وسط المربع الذى كونه حرسه من الملازمين .

لم يتقدم عثمان جنوبا مباشرة . بل انعطفت للجنوب الغربى لينضم للراية الخضراء التى ظلت ساكنة طوال فترة الأحداث الرهيبة الماضية ، متمسكة بالمكان الذى احتلته . ولم يحاول عبد الله أبو سوار ان يساند عثمان فى مطاردته للخيالة .. ولم يحرك ساكنا وهو يرى ألوية كتشتر تتجمع جنوب جبل كررى . بل ظل مختفيا عن الأنظار والثيران ، متفذا أوامر الخليفة بدقة . وفى سعت ٩٣٠ لاحت

طلائع شيخ الدين فى الأفق .

بوصول السردار إلى سركاب اتخذت كل الحملة شكلها النهائى . ثعبان بشرى هائل اتخذ جسده الطويل زاوية حادة مع النيل (١) . ولكن بدلا من الرأس المدبب ، مثلت مواجهة الفرقة الانجليزية رأسا مسطحا . والألوية الثلاثة تتقدم باستمرار بلجهة الجنوب الغربى لتحاذى الفرقة الانجليزية ولتصبح فى زاوية قائمة مع النيل . ومن هنا بدأت الثغرات واتساع الفواصل تزداد تدريجيا . فقد كان على ماكسويل ولوائه يتقدم مباشرة خلف الفرقة الانجليزية . ان يسرع ليأخذ مكانه عن يمينها فى سركاب ، ليتمكن لويس وماكدونالد من الاصطفاف يمينه وليبدأ

(١) أنظر خريطة رقم ١٠ « المرحلة الثانية سعت ٩٣٥ »

التقدم جنوبا نحو ام درمان بمواجهة عريضة مكونة من خمسة ألوية . وعندما عدل قائد الفرقة المصرية فى ترتيب اصطفااف الفرقة مفضلا ان يضع ماكدونالد فى المؤخرة ، اضطر ماكدونالد وهو المتحرك أولا من الزربية لأن يتجه لجهة الغرب مباشرة : بدلا من الجنوب الغربى لىتيح الفرصة للويس من خلفه لىتجاوزة . وبينما كانت الألوية الامامية تتدافع بسرعة لجهة الجنوب . كان ماكدونالد يتجه غربا . وكلما مضى الزمن كلما ازداد الفاصل بين ماكدونالد وبين بقية الألوية وهو يتقدم بخطوة بطيئة مثقلا بالذخائر والمدفعية ، إلى أن أصبح الفاصل بينه وبين لويس ميلا كاملا .

فى سعت ٩٣٥ كان ماكدونالد يتقدمه برتل الألوية "In column of Brigades" قد توغل ميلين غربا ، وأصبح أكثر ألوية السردار بعدا عن النيل وفى أكثر الأماكن ارتفاعا فى السهل العريض بين كررى وسركاب ، وبذلك كان اللواء الوحيد الذى مكنه موقعه من رؤية نذر الهجوم المرتقب . فقد انكشفت لناظره فجأة كل الراية الزرقاء وهى فى احظطات التحشد .

أوقف ماكدونالد اللواء واتجه به ناحية الجنوب الغربى . وبدأ فى تغيير اصطفاافه وتحريك كتائبه لمواجهة الهجوم المرتقب الذى كان واضحا انه سيوجه نحوه . وسيصبح بالغزاه أكبر ضحاياة . كان اصطفااف ماكدونالد أثناء التقدم كالآتى : شكلت ثلاثة كتائب فى الامام . أما الكتيبة الرابعة فقد أخذت مكانها فى الخلف . الكتيبة الحادية عشر السودانية فى اليسار ، الكتيبة المصرية الثانية فى الوسط ، ثم الكتيبة السودانية العاشرة فى اليمين . أما الكتيبة السودانية التاسعة فتقدمت يمين وخلف الكتائب الامامية . تقدمت كل كتيبة باربعة سرايا فى الامام وسريتين فى الخلف . بينما أخذت مدافع سرايا المدفعية الثلاث مكانها محاذية للكتيبة الخلفية « ١٨ مدفع » ، ثم خلف الجميع تقدمت جماعات المكسيم « أربعة جماعات أى ٨ مدافع » كانت نية ماكدونالد ان يتجه بهذا التشكيل لجهة الغرب إلى أن يتجاوزة لويس ، وبعدها يحول اتجاه لجهة الجنوب لىأخذ مكانه فى تشكيل الجيش كله . ومن ثم يسهل تغيير التشكيل لتشكيل المعركة "In Line" أى وضع الكتائب الأربعة فى صف واحد .

وفي سعت ٩٣٥ ، عندما أبصر ماكدونالد تحشد الراية الزرقاء أمر الكتاب بالاصطفاف في المقدمة . وقبل أن تبدأ في التحرك لتنفيذ أوامره أمر أقرب سرية مدفعية بفتح نيرانها فوراً وبدون تصويب نحو الراية الزرقاء .

انطلقت دانة ماكدونالد الأولى نحو الراية الزرقاء من مسافة ١٥٠٠ ياردة ولازالت صفوفها تتجمع . ثم فتحت كل مدفعية نيرانها على الراية الزرقاء . وبينما البطاريات منشغلة بالقصف المتواصل ، كانت كتائبه تندفع لأخذ مكانها في الاصطفاف الجديد . بعد قليل كان كل لواء ماكدونالد قد اصطف في الخط الأمامي متجها للجنوب الغربي . وضع ماكدونالد كل مدفعية في الخط الأمامي بين السرايا « ٢٦ قطعة مدفعية — ١٨ مدفع و ٨ رشاشات » وبذلك أصبح اللواء في مواجهة بلغ طولها ١٥٠٠ ياردة توفرت لها الفرصة لإنتاج أكبر كمية من النيران الأمامية ، نيران الرشاشات والبنادق ، وبدأ في قصف الهجوم حتى قبل أن يبدأ .

اتخذ لواء ماكدونالد الاصطفاف التالي : مدفعين مكسيم في أقصى اليسار فالكتيبة السودانية الحادية عشرة ، ثم بطارية الميدان الخامسة ، فالكتيبة المصرية الثانية ، تنوسط سراياها سرية الميدان المصرية الثانية ومدفعي مكسيم . وبين الكتيبة المصرية الثانية والسودانية العاشرة . احتلت سرية المدفعية المصرية السابعة ومدفعي مكسيم مواقعها . وفي أقصى اليمين وضع الكتيبة السودانية التاسعة وضم لمجموعتها مدفعي مكسيم . وفي كل كتيبة وضعت أربعة سرايا في الخط الأمامي وسريتين في الصف الخلفي .

عند اقتراب السردار من قمة سركاب ، ارتفع فجأة صوت دوى عال طغى على طقطقة نيران الأسلحة الصغيرة الصادرة من قمة جبل سركاب . كانت تلك دانة ماكدونالد الأولى التي أطلقها نحو الراية الزرقاء . التفت السردار للخلف فشهد كل لواء ماكدونالد وقد توقف — وبدأ في تغيير اصطفاف السير

“Column of Brigades” إلى اصطفاف المعركة “In Line” وفي لمح البصر أدرك الموقف . وعلم أن عدوه قد طبق على ظهره . وسرعان ما زایل السردار بروده وجموده واشتعل حماسا ونشاطا وهو يتواثب بجواده هنا وهناك ، متجاهلا قادة الفرق وقادة

الألوية أحيانا ليتصل بقيادة الوحدات ، مبعثرا الألوية وكأنها قطع من الحصى . وبدأت مناورة السردار الصعبة .

كان الهدف النهائي للسردار فى تلك اللحظة هو وضع كل ألويته الخمسة ومدفعيته فى خط دفاع واحد صلب يتجه غربا بدلا من اتجاه الجيوب ، ليتيح لنيرانه أكبر مجال كما فعل فى الزريبة . وان يقفل كل الثغرات التى برزت بين الألوية أثناء التحرك . انطلق بجواده أولا للفرقة الانجليزية ، أقرب الفرق اليه وكانت مقدمتها قد شارفت الوصول لأعلى امتداد جبل سركاب الشرقى . وأمر لواء ووشوب . متخطيا قائد الفرقة ، بالاسراع جريا لنجدة ماكدونالد ، وأن يعكس اتجاهه بجهة الجنوب لاحتلال مكانه يسار ماكدونالد لإطالة مواجهته القصيرة أمام مواجهة الراية الزرقاء العريضة الكثيفة . وليسذ الثغرة بين ماكدونالد ولويس . تحرك اللواء ليقطع كل تلك المسافة جريا وقد ترك معداته للواء ماكسويل — ثم أسرع السردار بنفسه للويس آمرا إياه بتغيير مواجهته غربا بدلا من اتجاه تقدمه للجنوب لمؤازرة ماكدونالد والتصدى بمدفعيته للراية الزرقاء « اشتملت مدفعية لويس على ثمانية مدافع وبطارية مكسيم » وأخيرا أمر السردار لواء ليتلتون الانجليزى ولواء ماكسويل بتحويل مواجهتهما غربا بدلا من الجنوب ، وتسلق قمة جبل سركاب الرئيسية ، للهجوم على الجانب الأيمن للعدو الكامن خلف الجبل (١) .

وسرعان ما بدأت الألوية فى تنفيذ مناورة السردار . لواء ماكدونالد فى مواجهته العريضة ، وقد اتجه للجنوب الغربى للتصدى للهجوم ، وعلى مسافة كبيرة منه توقف لواء لويس وقد اتجه غربا ، ولواء ووشوب فى الطريق مسرعا لسد الثغرة بين ماكدونالد ولويس . فى تلك الأثناء وصل لواء ليتلتون وماكسويل بكل مدفعيتهما ورشاشاتهما لقمة جبل سركاب وقد انتشرت الكتابب فى مواجهة عريضة ، وبدأت لنظر الاسطول على النهر ، والخليفة فى رئاسته على السواء ، كجدار بشرى طويل يزحف للغرب طوله أكثر من ٤٠٠٠ ياردة متساوى الارتفاع على طول السهل . مع انحناء مفاجئ لاعلى حيث تقدم لواء ليتلتون وماكسويل وهما على قمة وجانبى سركاب .

(١) انظر خريطة رقم (١٠) المرحلة الثانية سمت ٩٣٥

وفي سعت ٩٤٥ . كان جيش كتنش . ما عدا لواء ووشوب الذى كان يركض مسرعا لسد الثغرة ، وكل مدفعيته ورشاشاته الأرضية قد فتحت نيرانها على مواجهة وأجناب الراية الزرقاء قبل أن تندفع في الهجوم الرئيسى خلف يعقوب .

٥٥ ٥٥ ٥٥ ٥٥

أمضى يعقوب نصف الساعة الأخيرة منذ التاسعة . فى إعادة تنظيم صفوف رايته . فخلاف قوته الأصلية ، وبانضمام فلول معارك الشمال . والتعزيزات التى وصلت أخيرا لامدرمان أصبحت الراية الزرقاء تضم اشتاتا متباعدة من البشر انقسمت إلى إحدى وخمسين راية تفاوتت قوة كل راية بين ألف وخمسمائة وخمسة وعشرين رجلا . كادت صفوفها تخفى تحت مئات الرايات التى مثلت ٤٩ قبيلة وفروع قبائل مختلفة . أما القادة المباشرون فكانوا ١٥١ أميرا و ٢٦٩ رأس مية . لم تعدم الراية الزرقاء بين صفوفها أسماء أمراء كبار وقادة وحكام مناطق وصلوا للاشتراك فى المعركة ، عثمان الدكيم . محمد المهدي الابن الأكبر للمهدي ، محمد ود بشارة ومحمد الزاكي عثمان « بعد الافراج عنه » . وبالإضافة إلى تلك القوة المتباعدة العناصر . كان موقع يعقوب فى الساعتين الأخيرتين ، كاحتياطي خلف جبل سركاب وبعيدا عن المعركة . ملجأ للجرحى وحملة الموتى وبقايا هجمات المرحلة الأولى . وأخيرا انضم إليها الربع الذى اشترك فى معركة خور أبو سنط ووصل بعد الخليفة مباشرة . ولكن كانت تلك الاعداد الكبيرة قليلة الأثر من حيث القوة النارية فلم يتوفر فى صفوفها أكثر من ألف بندقية ومن أنواع شتى . بنادق صيد الأفيال . وأبو لفته . وحالة ترسانة الخليفة من البنادق ، فكل البنادق الصالحة والحديثة نسبيا - بنادق « رمنجتون » - أخذها شيخ الدين لتسليح الملازمين .

تمكن يعقوب أخيرا من تنظيم صفوفه ثم استدعى أمراء الرايات وأوضح لكل منهم مكانه . اصطلفت قوته فى مواجهة طولها ٤٠٠٠ ياردة وخلفها حوالى ٢٣ صفا فى عدم إنتظام واضح - فحشود الراية الزرقاء لم تكن كالملازمين المدربين بل وصل أغلبهم من غرب السودان حديثا - وتكدس فرسانها حول أجناب ومقدمة المشاة .

وأثناء انتظار تعليمات الخليفة بالهجوم ، تمكن يعقوب من مشاهدة لواء ماكدونالد منفردا في أقصى لحظات انحرافه للغرب . ولم يتمكن بالطبع من رؤية باقى الألوية ، لنفس الأسباب التى أخفته هو ، وقوف سركاب حائلا بين الخصمين .

وقف يعقوب وقد نفذ صبره وبدأ يضيق ذرعا وهو يرى العدو يمر من أمامه ، واللحظة المناسبة كادت أن تفلت . دل تزايد أصوات الطلقات من القمة على اقتراب مقدمة العدو من سركاب ثم بدت طلانه ممثلة فى سريتين فى خط الأفق على القمة وهم يدفعون من كانوا يحتلونها ، ويتقدمون بثبات نحو موقع الراية الزرقاء . وهنا صاح محمد المهدي من مكانه فى الجناح الأيمن وهو يرى الجنود يتقدمون نحوهم « إلى متى ننتظر .. إلى أن يمسكونا بأيديهم ؟ » ثم أطلق جواده نحو سركاب (١) وحيدا . سرعان ما انفصل جزء كبيرا من فرسان الراية الزرقاء الذين كانوا فى الجناح الأيمن بقيادة عثمان الدكيم ومحمد ود بشارة واندفعوا خلف محمد المهدي لا تفصلهم منه إلا مسافة قصيرة . كادت طلانع لواء ماكسويل ان تصل الانحدار الخلفى لسركاب وهم يطلقون النار بلا إنقطاع من البنادق ، ومن مدفع مكسي احتل موقعه فى قمة الجبل ، بدأت نيرانه السريعة فى حصص الفرسان المتدفعين لأعلى الجبل . أصيب جواد محمد المهدي فتهوى

(١) من تطابق الروايات المحلية المختلفة ومن مواقع القيور الآن يتضح ان محمد المهدي اندفع شرقا مباشرة وواجه طلانع ماكسويل المبكرة الممثلة فى سريتين ولم ينتظر أوامر الهجوم العام من يعقوب . وبينما نجد قبر يعقوب الآن يقع بالضبط فى خط سير اقتحام الراية الزرقاء ، نجد ان قبر محمد المهدي يبتعد قليلا عن خط سير اقتحامه . الاحتمال الأقوى ان من دفنوه أخفوه بعيدا عن صخور سركاب إلى بقعة ظليلة ودفن هناك . كما يؤيد ذلك الشيخ بابكر يدرى « وصاح محمد المهدي إلى متى ننتظر .. إلى ان يمسكونا بأيديهم » أى هجم محمد المهدي على العدو متقدم قريب وماكدونالد كان على بعد ١٢٠٠ ياردة وكان ثابتا . ويؤيد ذلك تقرير قائد الفرقة المصرية هنتر باشا :

“At 9.54 hr. I ordered two companies of the 13th Bn. to clear signal hill” which they did and surprised a body of enemy who were climbing up the other side of the hill in support of those on top – Egyptian Division
OC Report Cairint 1/60/320

دار الوثائق المركزية

« فى سعت ٩١٥ أمرت سريتين من الكتبة الثالثة عشر باحتلال جبل الاشارة » يقصد بجبل الاشارة سركاب فقد استخدم من قبل لاقامة عنصر اشارة « وعندما احتلوه واجهوا جماعات من العدو تندفع للامام نحو المنحدر الخلفى لتعزيز من كانوا فى القمة . »

إلى الأرض وقفز راكبه من الجواد وقد امتشق حسامه (١) وهجم وحيدا راجلا وبقية الفرسان على مسافة خلفه إلى أن أصيب بعدة عيارات نارية فسقط على الأرض (٢) وسرعان ما تهاوت البقية الباقية من جميع من هجموا في محوره ومن ضمنهم ود بشارة ، وود الدكيم .

كل هذا ويعقوب يقف وقد نفذ صبره في إنتظار هجوم شيخ الدين ليتطابق الهجومان ، أو وصول (٣) أوامر الخليفة بالهجوم . أخيرا وصل على الجلة يحمل تعليمات الخليفة بأن يسلم الراية لود الدكيم وان يبلغ لرئاسة الخليفة في الخلف .

كان الأمير يعقوب على صهوة جواده ، ولم يكن يحمل سلاحا خلاف حربة طويلة ، وخلفه مباشرة تجمع حرس الراية الزرقاء حولها وهي ترفرف عاليا . أطرق الأمير يعقوب مدة طويلة ثم رفع رأسه والتفت إلى الخلف لرئاسة الخليفة . كان مكانه يبعد حوالى ١٨٠٠ ياردة من الرئاسة ومن هناك رأى جثة مغطاة بعمامة

(١) الشريط رقم «٣» أقوال الحاج أمين أحمد شرفى . تؤيد هذه الواقعة سقوط جواد محمد المهدي والدفاعه بقدميه نحو العدو لأن زوجته عندما ذهبت لأرض المعركة بعد بضعة أيام لدفته وجدت العطين عالقا بقدميه وحذاءه ما يؤكد هجومه مترجلا بعد سقوط جواده .

(٢) أنظر خريطة رقم ١٠ « المرحلة الثانية سمت ٩٣٥ »

(٣) يستطرد قائد الفرقة المصرية جنرال هنر فيذكر ان لوائى ماكسويل ولينتون وصلا لقمة سر كاب ووجهها نيرانهما من هناك نحو الراية الزرقاء قبل هجومها المسدد نحو ماكسويل وذلك أن الراية الزرقاء بقيادة يعقوب وقفت تنتظر متجمدة إلى أن أمرها الخليفة بالهجوم .

“935hr. – The actual situation now appears to be as follows:

A force of dervish spearmen and horsemen with a black flag were about 600 yards on the desert side of the signal hill. Macdonald Brigade about 1200 yards from this force and halted. Maz well Brigade on signal hill and climbing the slopes of the ridge – Lewis Brigade ordered to change front to the right on the slopes of the signal hill to enfilade the force of dervishes with the black flag, and all commenced fire while advancing.”

« سمت ٩٣٥ : كان الموقف كالاتى :

على بعد ٦٠٠ ياردة غرب جبل الإشارة « جبل سر كاب » وقفت قوة يميزها علم أسود وكانت تبعد حوالى ١٢٠٠ ياردة من لواء ماكسويل بعد توقفه . لواء ماكسويل يتسلق منحدرات سر كاب . بينما حول لويس مواجهته لجهة اليمين لفتح نيرانه على الراية السوداء . وفتح الجميع نيرانهم وهم يتقدمون » .

وضعت في عنقريب الخليفة وحملها بغل وقد اتجه الركب الصغير نحو امدرمان ، فأدرك أنها جثة شخصية مهمة . التفت الأمير يعقوب إلى من حوله وتساءل « الشايلنه دا منو » فأجابوه بأنها جثة الخليل . فصمت لحظة ثم رفع حربته (١) عاليا وصاح « الأنصار ... يا أسفاه ؟ ! أنحنا يانا فوق خيلنا والعيال الصغار ناس ابراهيم الخليل روحوا للمقام الدائم .. واحنا يانا فوق خيلنا وماسكين راياتنا .. تبليدية وقعت فوق الكفار .. تبليدية وقعت .. ارفعوا راياتكم واطلقوا خيولكم . »

(١) كانت تلك اللحظة لحظة مهمة وحاسمة في المعركة ، ومثلت الانقسام الزمني والخلل النهائي في خطة الخليفة . وذلك كان يجب معالجة ظروفها بتفصيل وتدقيق أكثر :

هناك ثلاثة روايات تدعمها اسانيد قوية عن ما جرى في تلك اللحظة - خلاف روايات أخرى متعددة عولمت كالتأويل . أما الرواية المذكورة اعلاه فهي رواية شاهد عيان . رواية العمدة آدم يوسف الذي كان يقف على بعد امتار قليلة من يعقوب وتلك هي الالفاظ التي سمعها باذنه وأكد لي أنها نفس الالفاظ . وهو يذكرها وكأنه سمعها قبل دقائق .

« شريط سجل لاقوال العمدة آدم يوسف - ياما - بحر العرب ١٣ يناير ٧١ » ولذلك وجدت نفسي مجبرا على اعتبارها « البيئة الرئيسية »

أما الرواية الثانية فهي رواية الحاج أمين أحمد شرفي نقلها عن علي الجلة . ومفادها أن علي الجلة عندما وصل ليعقوب وأخبره ان الخليفة يطلب حضوره من الخلف ، وبينما يعقوب يتساءل هل هذا زمن يطلبني فيه ، وكل الراية مستعدة للهجوم اذ حانت منه التفاته فرأى أن هناك فارسا وحيدا « دفر » بمعنى هجم هجومًا منفردا "Individual Charge" فسأل عن من هو فاجيب أنه محمد المهدي .. فهتف قائلاً بحسره « سبحان الله كان ود المهدي الصغير سخي بالموت . أنا يعقوب الكملت شبابي وشبي في غير الدنيا منتظر حياة بعد دا ! ... » قول لي خليفة المهدي ودعنا الله ورسوله والملائكة في الآخرة . « شريط سجل لاقوال الحاج أمين أحمد شرفي . قطعة رقم « ٣ » ود نوياوي ٧١/٥/١٨ » كما نرى أن تلك الرواية لا تختلف عن الرواية الأولى في مغزاها الا في اختلاف حسرة يعقوب هل انصبت على « دفرة ود المهدي » أم على « جثة ابراهيم الخليل » وكلاهما بالطبع شبان صفار السن وتؤيد رواية الشيخ بايكر بدرى هذه الرواية .

أما الرواية الثالثة رواية يوسف ميخائيل ويمكن أخذ أقواله بحديدة أكثر في هذه الحالات . فالثابت ان يوسف ميخائيل كان أحد امراء الراية الزرقاء ، وأحد الكتبة واشترك في معركة امدرمان فتقول الآتي :-

« بقينا احنا فاس الراية الزرقاء أم الدين راية سيدنا . الذي علينا مدار الأمل وبنجيب النصر مع الأمير يعقوب واقفين وشايلين » كلمة غير واضحة . عند ذلك أرسل الخليفة وطلب أخيه يعقوب وقال له الراية ينزل بها ود الدكيم وانت احضر داخل القلعة . عند ذلك قام يعقوب غضبان وقال أنا عبدك يا رحمن . وضرب طبل الحرب وقال يا يوسف هذا يوم شنو « قلت يا سيدي اليوم الذي يرضاه الرحمن ليس عندنا الا الحرب والقتال كان واقف معاني عبد المعطي ماطوس والآن في موجود وهو لي

ثم إنطلق يركض بجواده على طوال مواجهة الصف الأول وهو يكرر « تبلدية وقعت فوق الكفار .. تبلدية وقعت فوق الكفار » وردت الصفوف الأولى عليه بهز بنادقها وسيوفها عاليا فوق رؤوسها ، ثم عاد لمكانة الأول واتجه لجهة الشمال الشرقي نحو العدو ورفع حربته عاليا .. ولكز جواده وانطلق عبر السهل الواسع نحو لواء ماكدونالد، وانطلقت كل الآلاف في الراية الزرقاء خلفه منحدره هادئة في اتجاه العدو . وبدأت بذلك المرحلة الثانية .

انطلق يعقوب بأقصى سرعة لجواده جنوبا للوثوب نحو ماكدونالد . كان يسبق الصف الأمامي بمسافة غير قصيرة منطلقا غير مبال بقذائف المدفعية التي انهارت على الراية الزرقاء بتركيز شديد من الأمام ، ومن جهة اليمين . . قد تنطلق قذيفة هنا وهناك قريبا منه ، وتحت شدة الانفجار والدوى العالى وتعالى الغبار والشظايا يقف جواده لثواني قصيرة إلى أن يتبدد أثر الانفجار فليكره مرة أخرى ويتننى لجهة اليمين أو اليسار ثم ينطلق للأمام مرة أخرى وحربته مشرعة عالية أمامه ، وخلفه اثنا عشر ألف رجل .

أدى اندفاع يعقوب السريع إلى تشتيت قواته لثلاث كتل بشرية ضخمة منطلقة بسرعة: في اليمين كتلة صغيرة تندفع صفوفها شرقا نحو سركاب لأخذ مكان من سقطوا في الهجوم المبكر والتصدى لهجوم لوائى ماكسويل ولينلتون. كتلة أخرى اتجهت للشمال الشرقي مباشرة نحو الثغرة التي فصلت بين لوائى ماكدونالد ولويس ، والتي كان لواء ووشوب يركض مسرعا لسدها، أما الكتلة الرئيسية في اليسار فقد انطلقت خلف يعقوب وهو يتدفع للأمام لا يلقى على شيء.

أما الكتلة (١) اليمنى ، فقد تفتت اندفاعها أمام نيران الألوية المتقدمة عبر سركاب ، فتقهقر من بقى من الجرحى غربا . أما كتله يعقوب فقد بدأت المسافة

شهود . عند ذلك نزلنا سويا لما تقدم بحصانه تقلنا رجلينا بقينا في آخر الجيش .. » وهناك رواية أخرى متطرفة تقول أن محمد المهدي عندما هجم على سرايا مكسويل صاح في وجه يعقوب وهو ينطلق بجواده بصوت سمعه الجميع « يافضايقين حلوها مرها ضوقوه » فاستفزت الكلمات يعقوب فلم يطق صبرا بعد هذا فهجم ، ويمكن تجاهل هذه الرواية الأخيرة فالثابت أن هناك فاصلا زمنيا كبيرا بين هجوم محمد المهدي وهجوم يعقوب .

(١) أنظر خريطة رقم ١١ المرحلة الثانية سمت ٩٠٥٥ .

بينه وبين بقية الصفوف تتمدد لاختفاء جزء كبير من الصفوف الامامية ومن الاجناب التي تعرضت لنيران جانبية من لوائى ليتلتون وماكسويل ، ونيران مدفعية جبل سركاب التي كثفتها لإنضمام البطارية ٣٢ وجماعة مكسيم كان لها أثر قاتلا من ذلك الارتفاع .

وفى الواقع إنحصرت الراية الزرقاء ، عندما تمددت منطلقة خلف يعقوب ، بين خط نيران تجاوز طوله ٤٠٠٠ ياردة تمثل فى ثلاثة الوية - ليتلتون - لويس ماكسويل . امتصت تلك النيران جزءا كبيرا من صدمة الهجوم نحو ماكدونالد ، وخففت من أثره لحد بعيد . وعلى الرغم من تحمل ماكدونالد لجزء هين من صدمة الهجوم الا ان نيرانه الامامية أكملت الباقي . فقد شاهدت العدو قبل الجميع . كما كانت أقدامهم ثابتة على الأرض وتمكنوا من التصويب الدقيق المتواصل . فالضرب لم يكن هذه المرة أرشاقا بالجماعات .. بل منفردا ، وبأقصى سرعة أما مدفعية ماكدونالد فقد اطلقت طلقات المنتار "Sharpnel" فى المدى البعيد، ولكن عندما اقتربت الصفوف المقتحمة واصبحت فى مدى ٤٠٠ ياردة - استبدلت بالذخيرة خرطوش شظايا "Case shot" . أطلق لواء ماكدونالد وحده فى تلك الدقائق المملوءة أكثر من ٤٥٠ دانه كان أثرها فتاكا . فالقلة فقط تمكنت من التسلل عبر قطع الشظايا الكثيفة ، ما تساقط منها من أعلى "Sharpnel" (١) ومن اندفع من الامام مباشرة (خرطوشة الشظايا) "Case shot" وعند إنضمام نيران رشاشات ماكدونالد الثمانية التى فتحت نيرانها منذ البداية ، بدأت الكتل تتناقص بسرعة كلما اقتربت من السياج البشرى والسنة اللهب التى انطلقت منه .

* * * * *

أين كان شيخ الدين فى تلك الأثناء ؟ أخيرا قبل العاشرة بدقائق شوهد بضعة

(١) أوضح تقرير قائد مدفعية السردار الذى كان فى تلك اللحظة ضمن مجموعة لواء ماكدونالد أثر المدفعية .

"The effect of shrapnel and case shot was tremendous. I personally witnessed and directed it."

Chief of Arty Report, Col Longe, Cairnt 1/60/30

« كان أثر مدفعية الشارنيل والكاستر ماحقا . كما شاهدته أثناء ادارتى للنيران . »

دار الوثائق المركزية .

أفراد يتقدمون بين فتحات جبال كررى . كانت هذه هى طلائع شيخ الدين المنهكة . ولكن مسافتهم من أقرب قوة للعدو - لواء ماكدونالد - كانت أكثر من ميلين . كما كان أمامهم مانعا طبيعيا ليعبروه ، كل سلسلة جبال كررى . وعندما استعدت قوة أبو سوار وعثمان شيخ الدين المتحدثان للتقدم لشن المحور الثانى للمرحلة الثانية والذي كان مقررا له أن يتم حسب الخطة فى نفس اللحظات ومتطابقا مع هجوم يعقوب . كان هجوم الراية الزرقاء يلفظ أنفاسه الأخيرة . وعندما التفتوا لجهة اليمين جهة النهر لاحظوا عاصفة من الغبار تتحرك من جهة النهر نحو أرض المعركة . كانت تلك خيالة بروود وود التى أمضى زمنا طويلا فى مطاردها . وقد عادت بالطريق الأقصر - طريق النهر - بعد أن وثقت من أنه كف عن مطاردها .

.. .. .

اجتازت ألوية السردار سركاب ووصلت صفوفها المتقدمة إلى الأرض المسطحة التى امتدت غرب سركاب . وفى تقدمها تحت غطاء نيران المدفعية من القمة لم يقف فى طريقها مباشرة الا القراغ الذى خلفه اندفاع الراية الزرقاء للأمام - تبعثر فى ذلك الفضاء بضعة مقاتلين هنا وهناك وأغلبهم من الأفراد الإداريين "Camp followers" والعجزة كبار السن - كانت تلك التلألؤ البسيطة هى العقبة الوحيدة التى فصلت بين الألوية المتقدمة وبين آخر مجموعة منتظمة فى ساحة المعركة فى تلك اللحظة .. رئاسة الخليفة وحرسه الخاص .

وقف عبد الرحمن أحمد على صهوة جواده وسط تلك التلة . لقد أصم دوى الانفجارات المتلاحقة أذنيه . وأحس باندفاع الراية الهائل خلف يعقوب ، وسمع اسم شقيقه إبراهيم الخليل يردد أكثر من مرة . التفت وسأل من كان بقربه « أين الخليل ؟ » فأجيب أن الخليل استشهد . وسأل أين يعقوب ؟ فأجيب أن يعقوب « ذفر » نحو العدو . فسأل أين الكفار ؟ فأجيب أنهم أمامه . فطلب منهم أن يوجهوا الجواد نحوهم . فأدار أحدهم لجام الجواد إلى أن اتجه للعدو ، فهمز عبد الرحمن الحيوان وفرقع صوته فوق رأس الجواد وانطلق به مباشرة نحو العدو ، وقد أشرع حربته أمامه والطلقات تتطاير حوله إلى أن اصطدم بصف الجنود

المتقدمين من صفوف ماكدونالد وأسقط الاصطدام عدة جنود قبل أن تحترقه عدة سناكي فسقط الجواد على الأرض وسقط فوقه راكبه .. الأعمى .

*** **** **** ****

وأخيرا اختفت الصفوف التي أمضى يعقوب الساعات الأخيرة في تجميعها وتنظيمها . وحلت محلها جماعات وثلل وافراد كانوا هم البقية الباقية التي شوهدت وسط الدخان والغبار وقد انطلقت خلف قائدها بأقصى سرعة حملتهم بها أقدامهم . لقد قطعت كتلة الراية الزرقاء الرئيسية خلف يعقوب ١٠٠٠ ياردة ، ولكنها دفعت ثمنا غاليا لتلك المسافة ، فالجثث المكدسة بدأت تغطي الأرض في ذلك الزمن القصير وهي تشير لطريق الراية الدموي .

وفي الساعة ٩٥٥ أصيب الأمير يعقوب وهو على صهوة جواده من مجموعة رشاش ، فسقط على الأرض منكفئا على وجهه . وظل ممسكا حربته بعد أن توفي . كان يعقوب في مقدمة الراية الزرقاء منذ بداية هجومها إلى أن أصيب .. وكان مكان سقطته على بعد ٦٠٠ ياردة من الصف الأمامي لجنود ماكدونالد . ترجل فارسان وسط عاصفة الطلقات ورفعا يعقوب وحمله عائدين إلى الخلف ولكنهما سقطا بنيران الرشاشات . وكان ذلك مصير كل من حاول رفع الجثة والعودة بها . استمرت البقية في الاندفاع نحو لواء ماكدونالد . وعلى الرغم من نيران المدفعية والرشاشات التي واجهت المقدمة ، إلا أن الاصابات كانت في الوسط والعمق أكثر من الصفوف الامامية . فتوقفت المؤخرة وتمكنت الصفوف الامامية وأغلبها من الفرسان والامراء من الاستمرار في التقدم حتى مسافة ١٠٠ ياردة حيث تمكنت نيران ماكدونالد من إيقاف أغلبها . أما الاحياء منهم فاندفعوا حتى التصقوا تقريبا بفوهات البنادق المشرعة أمامهم ، وتمكن بعضهم من قذف حرابه داخل صفوف ماكدونالد ، وإلى هؤلاء الأخيرين تعزى معظم إصابات لواء ماكدونالد .

أما الكتلة اليمنى المتأخرة قليلا عن يعقوب ، فقد اندفعت نحو الثغرة الكائنة بين لويس وماكدونالد . وعلى الرغم من تعرضها لنيران جانبية أفقدتها جزءا كبيرا من قوتها ، إلا أن البقية الباقية تمكنت من التدفق خلال الثغرة للاندفاع حول ماكدونالد . وانضمت اليها بقايا الكتلة الرئيسية واتجهوا لليسار ، فواجهوا نيران الرشاشات التي حولت اتجاهها نحوهم ، فاندفعوا لليمين فواجهوا لواء لويس ونيران

الرشاشات والمدفعية من أعلى جبل مركاب ، وحاولوا العودة مرة أخرى من حيث أتوا ولكن لواء ووشوب كان قد سد الثغرة . وسرعان ما احاطت بهم خيالة وهجانة برود وود التي وصلت لأرض المعركة فى تلك اللحظة وإنضمت لها سرية من كتيبة الراحة . وانطلقت صيحات الفرسان البريطانيين والمصريين بلهجة ركيكة بكلمة « أمان .. أمان » فاستسلموا (١) وقادهم الفرسان شرقا نحو النهر حيث بدأ الاسرى يتجمعون .

أما حرس الراية الزرقاء فقد انطلقوا على أقدامهم خلف حاملها وهو على صهوة جواده . ثم توقفوا وغرست الراية على بعد ٣٠٠ ياردة شمال مركاب . ورغمما عن الرصاص الذى بدأ ينهال من ثلاث الويه على ذلك الهدف الذى لاتخطئه عين ، إلا أن حملتها بدأوا يجمعون الحجارة لتسد الراية الضخمة التى ارتفعت قناتها لأكثر من عشرين قدما ، ونتيجة للنيران المتواصلة بدأت اعداد كبيرة من حرس الراية فى التساقط حولها . وبدأت تجذب اعداد أخرى من الكتل الخلفية تجمعت حولها وهم يطلقون نيرانهم على الألوية المتقدمة .

والراية شامخة ترفرف .. من بداية الهجوم وحتى لحظاته الأخيرة ، ثم تعرضت للنيران التى غطت كل المكان . وبدأت الثقوب تظهر فيها وحملتها لا يتجاوزون العشرين وهم يتساقطون من حولها . ولكن سرعان ما وجه جزء كبير من نيران الألوية المتقدمة ومن مدفعية جبل مركاب نحوها . تناقصت الاعداد حولها إلى أن مرت فترة لم يكن حولها غير ثلاثة أفراد ، وفى الواقع مرت لحظات كان حولها ثلاثة مقاتلين يحملونها ويتقدمون بثبات نحو ٩٠٠٠ رجل .. وكانوا جرحى ، الا أنهم استمروا فى الامساك بها حتى لا تسقط على الأرض . وعندما بدأ تساقط المقاتلين يزداد من حولها مرت لحظات أوشكت الراية فيها أن تقف وحيدة أسرع الصفوف الخلفية للراية الزرقاء لتعزيز حملتها . فكان يتسلل اليها جزء من المقاتلين لحراستها أثناء اندفاعهم للأمام . وسرعان ما تصوب اليهم النيران المضبوطة من قمة جبل مركاب فيتناقص عددهم ثم ينضم إلى بقيتهم جزء آخر .. فشكلت الراية وحماها هدفا مثاليا لمدفعية القمة وللألوية المتقدمة ، فانصب

(١) كان العمدة آدم يوسف أحد المصادر الرئيسية عن تلك اللحظات ضمن هؤلاء .

حولها الطلقات وأصبحت أخيراً مصيدة للموت وهي ترفرف عالياً . وعندما اجتازها آخر صف من الذين انضموا تحت لوائها كان حولها ثلاثين شخصاً حملها أحدهم وتقدم خلف الصفوف وهي مندفعة للأمام . ولكن سرعان ما التهمت نيران الرشاشات كل من كان حولها ما عداه .. فاستمر متقدماً بها حتى سقط بعد أن غرسها في الأرض . وعندما وصلت الألوية المتقدمة وأحصت عدد القتلى حول حول الراية في مكانها ذاك وجدوا مائة من القتلى واضعافهم من الجرحى . كانت الراية الزرقاء وما تساقط حولها ، مشهداً مجسماً للشجاعة والصلابة نادراً ما قدم التاريخ مثله . حمل الراية أحد اركان الحرب كشتى خلف السردار وهو في طريقه لامدرمان كعلامة للنصر . ولكن كانت للراية الزرقاء لعتتها الخاصة على اعدائها فقد لمحت إحدى البوارج النيلية ، من النيل البعيد ، قطعة القماش الضخمة وهي ترفرف ، فاطلقت نيرانها عليها وتبعتها بقية البوارج ، إلى أن تنبه سلاطين فأسرع بجواده ورمها على الأرض .

* * * *

في العاشرة صباحاً كانت ساحة المعركة التي انحصرت بين جبال كبرى وسركاب والنيل قد بدأت تتخذ شكلها النهائي . مقبرة كبيرة امتلأت بالآلاف من جثث الموتى والخيول . الجثث وهي مكدسة كان تنبئ بالضغط عن تطور المعركة وأماكن الاشتباك . فشرق جبل سركاب في اتجاه النيل بدأت آثار طريق الخيل الدموي نحو الزريبة ، جثث تراصت هنا وهناك وبكثافة متزايدة في اتجاه الشمال . وغرب سركاب آثار هجوم يعقوب . وانقسام رايته في اللحظات الأخيرة إلى ثلاث أقسام مثلثتها مجموعة من الجثث غرب جبل سركاب مباشرة وراء جثة أميرها ود بشارة ، ومجموعة أخرى أكثف وأعرض امتدت في خط مال نحو اتجاه الشمال الشرقي — والمجموعة اليسرى التي اندفعت مباشرة نحو ماكدونالد . وثلة أخرى تكدست حول كوم من الحجارة ، حرس الراية الزرقاء . أما الأحياء فقد أخذ جزء كبير منهم ، حوالي ٢٠٠٠ ، في الأسر وأغلبهم جرحى . ومن بقايا الراية الزرقاء شوهدت جماعات هنا وهناك وقد تبعثروا متجهين غرباً نحو الصحراء بينما امتلأ الطريق المؤدى لامدرمان ببضعة ألوف تحمل جرحاها

أما قتلى العدو فقد ميزتهم ملابسهم الرسمية عن الجثث السمرء وملابسها البيضاء .. ثمانون من هجانة برود وود تبعثروا وسط جبال كررى .. أكثر من مائة فى مكان الزريبة الأولى وخمسة وعشرون داخل خور شمبات ، أما جرحاهم فقد نقلوا للمستشفى المتحرك حيث بدأ الأطباء فى اسعافهم .

فى سعت ١٠١٠ بدأ واضحا ان الهجوم يلفظ أنفاسه الأخيرة على الرغم من استمرار تدفق المقاتلين من الخلف ولكن باعداد أقل وأكثرهم من كبار السن أو من الجرحى ممن حاولوا إعادة الكرة ونيل الشهادة .

وهنا فقط بدأت طلائع شيخ الدين وأبو سوار تبدو فى الأفق .

لقد فقدت الراية الزرقاء ما يربو على ٢٤٥٠ (١٦٠٠ قتلى ١٨٥٠ جرحى) وسقط معظم امرأها المشهورين وكان ضمن القتلى :

- ١ - الأمير يعقوب
 - ٢ - الزاكي عثمان
 - ٣ - عثمان الدكيم
 - ٤ - محمد ود بشاره
 - ٥ - محمد المهدي
 - ٦ - الأمير أب يسام
 - ٧ - مساعد ادريس
 - ٨ - عبد الرحمن تاماوى
 - ٩ - قدح الدم
 - ١٠ - الغالى جوده
 - ١١ - عبد الرحمن على
 - ١٢ - أزرق جبريل
 - ١٣ - الطاهر مكى
 - ١٤ - عبد السيد موسى
- « أمير الفلايته »
- « أمير التامه »
- « أمير البديرية »
- « أمير الفلايته »
- « أمير البرقو »
- « أمير البرقو »

- ١٥ - أحمد أبو جدیری
 ١٦ - دینا ابراهیم
 ١٧ - أحمد حمدان
 ١٨ - محمد ود نوباوی
 ١٩ - عوض السید قریش
 ٢٠ - الأمير خیر الله
 ٢١ - أبوبکر محمد الأمين
 ٢٢ - جاد الله عیسی
 ٢٣ - أحمد حمدان العرکی
 ٢٤ - سلیمان کشه
 « أمير البرنو »
 « أمير الجوامعة »
 « أمير الحمر »
 « أمير بنی جرار »
 « أمير الکبابیش »
 « أمير الکبابیش »
 « أمير الجمیعاب »
 « أمير الزیداب »
 « أمير العرکین »
 « أمير سكان ام درمان »

• • • • •

يستحسن أن نتعرض هنا لهجوم الراية الزرقاء كعملية منفصلة، ونصرف النظر مؤقتاً عن هجومها ضمن الاطار العام لعمليات المرحلة الثانية ، فلم يحن وقت محاسبة شيخ الدين بعد .

توفر لهجوم الراية الزرقاء ، كعملية منفردة ، عناصر نجاح قوية في البداية ، ولكن تدخل بعض العوامل أدى إلى ضياع مجهود كل تلك القوة البشرية الضخمة وفي دقائق معدودة ، وبطريقة لا تصدق . لنحاول حصر عناصر الايجابية والسلبية في هجوم الراية الزرقاء بسرعة ، والعناصر الأخيرة بعضها كان بمحض ارادتها وبعضها كان خارجاً عن ارادتها .

لقد كمنت العناصر الايجابية في وضع الراية وواجباتها ضمن الخطة الأصلية وفي قوة موقفها وضعف موقف العدو في لحظات هجومها حسب المخطط .

وقوة موقف الراية الزرقاء ينحصر على التحديد في ظهورها كحشد كبير مفاجيء وكقوة عددية هائلة وكتلة اقتحام بالسلاح الأبيض ، ظلت مختبئة ساكنة لمدة ٣ ساعات ، ينبع هجومها ، ويبدأ تعرضه من مكان قريب من العدو ، متلافياً

بذلك أكبر عوامل فناء وانكسار هجمات المرحلة الأولى - التعرض من مسافة كبيرة ، وبالتالي لزمن أطول لقوة نيران متفوقة .

كانت تلك عوامل القوة في موقف الراية الزرقاء ، قبل شن هجومها . أما عناصر الضعف في موقف العدو ، وبالطبع كل ضعف في العدو ينعكس كازدياد نسبي لقوة موقف يعقوب ، فقد كمنت أولا في انزال مدفعية ورشاشات البوارج وتجميد نيرانها . فالمدى بعيد وكل جيش السردار وقف حائلا بينها وبين الراية الزرقاء . ثانيا كان الهجوم سيوجه نحو جيش السردار وهو متحرك ، وأقدامه غير ثابتة على الأرض . وهو في موقف متساوى مع قوات الراية الزرقاء .. وحتى المدفعية أصبحت متحركة ، ومدافعها غير مثبتة ، والدخائر مجرورة على مسافة بعيدة في الخلف ، ولن تتاح للمدفعية الفرصة التي اتاحت لها في التعامل مع الهجومين الصباحيين . كما كان الهجوم سيوجه نحو الجنب الأيمن والخلفى لقوات كتشتر ، وسيستلزم تغيير المواجهة زمنا آخر تستغله الراية الزرقاء للاقترب من العدو ، بحيث عندما يتمكن العدو أخيرا من الاصطفاف بمشاته وتتمكن مدفعيته ورشاشاته ومشاته من فتح نيرانهم المؤثرة يتم الالتحام وهو الغاية المنشودة في عمليات ذلك اليوم . فليس اثنا عشر ألف من الرجال الشجعان بالقوة التي تباد في دقائق ، وبواسطة عدو متحرك مهما بلغت قوة نيرانه .

اذن ما هي العناصر السلبية التي تحركت كخليه سرطانية مجنونه وأدت إلى ذلك الانهيار المثير للدهشة - شبه إبادة ، وفي دقائق معدودة لأكثر من اثني عشر ألف من الرجال حاولوا أن يتخطوا أقل من ١٢٠٠ باردة ، والزمان والمكان يقفان في صفهم ؟ سيبان . الأول عكس ما يبدو في الظاهر هو هجوم بالسلاح الأبيض دون أن يسنده غطاء نيران . فالراية الزرقاء على الرغم من تفوقها العددي إلا ان قوتها النارية كانت ضعيفة للغاية « ١٠٠٠ بندقية أغلبها من انواع قديمة » . ولو توفر لها غطاء نيران معقول مع سرعة اندفاعها وصدمة قوتها العددية الكبيرة لكان موقفها قد اختلف . فالعدو هدف كبير وظاهر وثابت والمدى قريب . ولكن مدفعية الخليفة انتهى أمرها بالاندفاع المبكر لسریتی ماكسويل واحتلالها لقمة سركاب حيث وضع المدفعان . ومع ذلك فالشك كان كبيرا في مقدرة مدفعية الخليفة لابرز أى تأثير حتى لو تركت لها حرية العمل .

كانت نيران الملازمين هي أمل الراية الوحيد .

أما السبب المهم لفشل الهجوم حقيقة فهو يكمن في الدقائق الخمس والعشرين التي انقضت منذ وقعت عين ماكدونالد على يعقوب وهو يقف متجمدا حتى ابتداء الهجوم . أى منذ سعت ٩٣٥ . وإلى سعت ٩٥٥ . فتلك الدقائق الثمينة وهي تمضى بسرعة هي التي حددت مصير الهجوم .

ولعلنا لازلنا نذكر تعرضنا في الفصل السابق « الصدام » لأهمية العنصر الثانى من عناصر المفاجأة وهو « السرعة » . لقد أعد يعقوب العنصر الأول « الموقف المتغير المفاجىء » أو « المخبر غير المظهر » باخباء الراية الزرقاء وجمودها وسكونها بعيدا عن مسرح الأحداث . ولكن جمودها الذى كان « نعمة » قبل سعت ٩٣٤ ، أصبح « نقمة » فى الدقائق الثمينة التى تلت سعت ٩٣٥ . فتلك الدقائق الثلاثون ، ويعقوب يقف متجمدا بعد رؤية العدو له هي التى مكنت ماكدونالد من التوقف ورص قوته لمواجهة الهجوم . ولإطلاق دأنته الأولى منها السردار ثم بقية الألوية وبعدها انتقلت المبادأة للعدو ، ويعقوب أخذ يفقدها تدريجيا . وموقف العدو يزداد قوة لحظة بعد أخرى « ويتحرر » من ضعفه الناتج من تحقيق يعقوب للعنصر الأول .

ولو اندفع يعقوب وشن هجومه بمجرد رؤية العدو له ، لكانت فرصة النجاح أكبر ، فاللوية السردار كانت مبعثرة فى السهل العريض ، والشغرات واسعة بينها ، ومواجهتها تتجه إلى اتجاه آخر وتغيرها لمواجهة الهجوم الجديد كان سيولد الارتباك الذى يحرم السردار من إبراز أهم عناصر قوته وهي النيران المركزة . والمسافة كانت بينه وبين هدفه الأول — لواء ماكدونالد — لا تزيد عن ١٢٠٠ ياردة . ومن السهولة بمكان وصول يعقوب والتحامه معهم قبل تعرضه لأى نيران مؤثرة . وكانت النتيجة لصالحه حتى بدون معاونة نيران الملازمين . ولكن طوال فترة وقوفه متجمدا ، كان العدو ينتقل من الضعف للقوة . وأخيرا ، عندما تحركت الراية الزرقاء سعت ٩٥٥ . وجدت أمامها بدلا من اللوية المبعثرة المرتبكة خطأ صلبا من الجنود طوله أكثر من ٤٠٠٠ ياردة يقذف الحمم ويشل جنبها الأيمن ، وبدلا من لواء ماكدونالد المنزول كغنيمة سهلة ، وجدت قطعة مقاومة صلبة .

اذن أفلت الموقف من يد يعقوب لعاملين : أحدهما كان من صنع يده ، والآخر كان هو مناورة السردار السريعة . ولكن العلاقة السببية بينهما واضحة .

فمناورة السردار السريعة ومقدرته على حشد قوات كبيرة في أماكن معينة وبسرعة ، هي التي حسمت الموقف في النهاية لصالحه ، وقذفه للوثنين شرقا في رد فعل سريع لمهاجمة الجانب الأيمن للراية الزرقاء وهي متقدمة ، هي العملية التي أنقذت ماكدونالد . وتغييره لمواجهة لوائى ليتلتون وماكسويل وأمره إياهما بالتقدم ، ثم فتح نيرانهما الضخمة من قمة جبل سركاب نحو جنب الراية الزرقاء خفف كثيرا من عنف الهجوم على ماكدونالد . وعندما انضمت لهما المدفعية ووجدت المدى الصحيح ، أجبرت يعقوب على تخصيص جزء كبير من رايته وتغيير اتجاهه نحو الشرق بدلا من الشمال الشرقى لمواجهة تدخل العدو من الجانب الأيمن ، وبالتالي قلت قوة صدمتها لحد بعيد .

كما ان قوة تسليح ماكدونالد « أكبر مجموعة من المدفعية الرشاشات خصصت للواء منفرد » مكنت ماكدونالد من صد الهجوم أو على الأقل تفنيت تحشده من مسافة بعيدة بقذائف المدفعية العادية والرشاشات في المدى البعيد ، ثم باستخدام مدفعية الخرطوش "Case shot" في المدى القريب ، وكانت نيران الأخيرة مؤثرة للغاية في المسافات القريبة . ثم كان هناك العامل الأخير وهو المهم ، ألا وهو ثبات الجنود السودانيين « تكون ثلاثة أرباع لواء ماكدونالد من السودانيين » . فقلائل من الجنود من كان باستطاعتهم الثبات في مواقعهم في مواجهة الخضم البشرى المتدفق نحوهم فقد ثبتوا طوال تدفق الهجوم عليهم ولم يترحز أحد منهم من مكانه بل استمروا في إطلاق بنادقهم دون أن تتخلخل صفوفهم ، أو تبدر منهم بادرة تدل على لية التراجع والانسحاب . وهو ما أنقذ لواء ماكدونالد بالتأكيد . فأقل تفكير في التقهقر شمالا أو شرقا كانت نتيجته مؤكدة : شمالا سيسقطون بين أنياب شيخ الدين الذى بدأت طلائعه أخيرا في التدفق من جبال كررى ، شرقا كانوا سيجدون أنفسهم في مكان لا يستطيع باقى الجيش مديد المساعدة لهم .

لقد حسمت تلك الدقائق الموقف . ومهما كانت قوة مبررات واعذار يعقوب الا أنها لن تغفر له مسئولية ضياع تلك الفرصة الثمينة وبالتالي اشتراكه في

النهاية فى خطأ لم يكن فى الأصل خطأه . فقد كان خطأ شيخ الدين . لقد وجد الرجل نفسه فى موقف لا يحسد عليه . هل يهجم بدون غطاء النيران الموعود مخالفا تخطيط العملية ولكن فى توقيت مناسب ؟ أم ينتظر شيخ الدين لتتطبق هجمتيهما معا فى عملية مضمونة . وظل فى انتظار شيخ الدين وهو لا يدري ما كان يفعله العدو . فقد حجه سركاب عنه . إلى ان وصلته أوامر الخليفة بهجوم الـ « بغض النظر عن سيقود الهجوم . » فالخليفة قبلا كان قد ضاق ذرعا ، ويؤكد هذا رسله العديدين لشيخ الدين ، وكلمات الحق التى وصفه بها . ولكن كان ذلك يعقوب الرزين المتمسك بالتنفيذ الدقيق للأوامر والذى لا يخالف لشقيقه أمرا مهما اغرته الظروف بالتحرك دونه .

وهنا يجب ان نرى يعقوب براءة تامة من تهمة الصفت به ونمس كفاءته ومقدرته ووزنه القيادى مساسا كبيرا . فهناك مدرسة كبيرة - فى غرب السودان - حيث أصبحت عبارته « تبليدية وقعت » مثالا شعبيا - تؤمن بأن هجوم يعقوب واندفاعه كان نتيجة لانفعال عاطفى عند رؤيته بلخه شاب صغير السن - أيا كان أبراهيم الخليل أم محمد المهدي . وحقيقة من يستمع لتلك العبارات يميل لهذا الرأى فورا . ولكن المدقق لتصرفات يعقوب قبل انطلاقه قائدا للهجوم يخرج بنتيجة مغايرة تماما - فيعقوب « عرض » جيئة وذهابا أمام الصفوف الأمامية وهو يردد تلك العبارات . وذلك تصرف شخصى قصد ان يثير به الحماس فى الآخرين قبل أن يقودهم للهجوم . ويعقوب لم يهجم إلا بعد ان وصلته أوامر الخليفة ليسمح بهجوم رأبته ، بل وتحمل استفزازا فى سبيل إانتظارها . ويوسف ميخائيل ورواية على الجلة يؤكدان هذا . وتقرير قادة الفرق يؤكد مع ما ذكره الشيخ بابكر بدرى ان محمد المهدي وجزء من الـ « الراية الزرقاء اندفع للهجوم بمدة قبل ان يندفع يعقوب . بل الواقع لم يكن خطأ يعقوب هو الانفعال العاطفى ، بل التريث وضبط النفس .

ولعل توجيه جهده الرئيسى نحو لواء ماكدونالد وحده ، أظهر قصده كهدف متواضع ، وهو اباداة أحد الالوية ، وبالتالي سيؤدى ذلك إلى تحقيق أثر محدود فى النتيجة الختامية للمعركة - ارتفاع نسبى فى درجة الخسائر . ويبدو

وكان يعقوب ثبت عينيه على فريسته بعناد - لواء ماكدونالد - ولم يستطيع ان يحول بصره عنها رغم وجود صيد سمين آخر . ولكن في واقع الأمر ، كان توجيه هجومه للثغرة بين لويس وماكدونالد هي الفرصة الحقيقية للقضاء على ماكدونالد من جهة وليصول ويجول بتدفق رجاله خلف وبين خطوط العدو ، كما كان الهجوم المباشر على الوية متقدمة من مكان مرتفع وحاكم ، ومدفعتها مثبتة في ذلك المرتفع « جبل سر كاب » غير حكيما على الاطلاق .

لقد كان هجوم يعقوب هو نقطة التحول الحقيقية في معركة بدت كمعركة خاسرة من بدايتها ، فقد أصاب الخليفة القرص واحدة أثر أخرى من بين يديه . فقد كانت الراية الزرقاء وهي خلف جبل سر كاب تشكل آخر عقبة بين السردار وأم درمان وبثحركها من مكانها ذاك أصبحت ام درمان مدينة مفتوحة أمام السردار . وبعدها أصبح السردار في موقف يمكنه من بدء السباق نحوها بفرص أعلى من تلك التي توفرت لشيخ الدين وعبدالله أبو سوار . وموقف الأخير يقودنا للتساؤل ، ليس حيال كل الأحداث من بدايتها ، بل عن موقفه حيال هجوم الراية الزرقاء . فعبد الله ظل طوال هذه المدة وهو في جبال كررى ، ورايته في كامل استعدادها ولم تتعرض لاجهاد المعركة فيما عدا الأميال القليلة التي قطعتها في الصباح المبكر من خور شمبات إلى جبال كررى وبخطوة عادية . وكانت قواته إلى تلك اللحظة ولحظة هجوم يعقوب قوات نشطة . ومعها قوة فرسان لا يستهان بها « ٤٠٠ فارس » اذن ما الذي منعه من تعزيز هجوم يعقوب بهجوم آخر من جانبها من جهة الشمال وهي في نفس موقع يعقوب ومن نفس المسافة للعدو .. وصفوفها لم تكنو بنيرانه بعد؟

الواضح ان افتقار جيش الخليفة لعنصر مواصلات ولو بدائي مضمون أثناء المعركة خلاف الرسل . كان ذا أثر فعال في فشله في تنفيذ خطته وادارته للمعركة ، بحيث يضمن له المقدرة على المناورة وتحريك قواته وحشدتها في الوقت المناسب . فعندما وصل عيسى ود أحمد لعبد الله طالبا منه الهجوم كان قد مضى على هجوم الراية الزرقاء ربع ساعة ، وكانت طلائع شيخ الدين قد اقتربت ، ففضلوا الاقتحام معه . وحتى النيران والدخان الذي شوهد وهو يتطلق في السماء مبلغا الخليفة بتقدم السردار من جبل الرويان إلى أم درمان ، لم يشاهد في يوم المعركة . ولقد رأينا

المشاق التي تكبدها الخليفة للوصول لشيخ الدين وهو في مطاردته لبرود وود .
فتلك كانت من أهم الاسباب التي حرمت يعقوب والخليفة من إيصال رسائلهما
بسرعة تتناسب مع المواقف العاجلة الحرجة . فهجوم الراية الخضراء على الرغم
من قوتها الصغيرة نسبيا « ٤٠٠٠ » لو شن في تلك اللحظات متطابقا مع هجوم
يعقوب ، لما انتهى دون ان يحقق أثرا فعلا .

كيف سارت الأمور في رئاسة الخليفة ؟ ذكر كل من كان بالقرب من
الخليفة في ذلك اليوم ان الرجل ظل ثابت الجنان وهو يدير معركته ويرسل الآلاف
للموت ، فيما عدا لحظات ضيق صبره من طول غياب وتصرفات شيخ الدين
الخرقاء .

ولا بد أنه عندما قذف بالراية الزرقاء كان قد أحس قبلا ان الأمل ضعيف
في إنتصار شامل ، وأدرك ان خطته مزقت شر ممزق . أما الخليفة على ود حلول
فبمجرد انطلاق يعقوب أمر ملازميه بأن ينطلقوا خلفه ، وعندما وصلت طلائع
ليتلتون وماكسويل لقمة سر كاب ، وثبتت المدافع لتصد هجوم ود الدكيم وتقصف
أجناب الراية الزرقاء ، وجهت جزءا لا يستهان به من نيرانها نحو رئاسة الخليفة
التي اكتظت بما لا يقل عن ١٥٠٠ مقاتل في تلك اللحظة . وجدت نيرانها بعض
الضحايا حتى من ذلك المدى البعيد . كان الخليفة على ود حلول من أوائل الضحايا
فقد أصيب بطلقة في ساقه وأجريت له عملية جراحية مستعجلة لاستخراج الطلقة .
بالطبع كان فصل السكين والتراب هي كل معدات العملية ، فقد رقد الرجل المسن
الصبور على الأرض وشق لحم ساقه وأخرجت الرصاصة ثم حشى الجرح بالتراب
واحضر عنقريب أرقده عليه .

ثم بدأ تقدم لواء ليتلتون نحوهم . فاستدعى الخليفة ملازمه الخاص « أب
جكه » وطلب منه أخذ باقي الحرس وصد هجوم العدو . تقدم حرس الخليفة

نحو العدو ولم يفلح في صدّه (١) ، بل أفلح في تأخير العدو برهة من الزمن .
وعندما أحس الخليفة بحرج الموقف في رئاسته بعد هجوم الراية الزرقاء أرسل الشيخ الدين وعبد الله أبو سوار طالبا إرسال نجدة سريعة لئلا تقع الرئاسة في الأسر . وعلق قائلا والالم يحز في نفسه « كلما فرسل زول لشيخ الدين ، ما يجيئنا راجع » فارتفع صوت على ود الحلو من عنقربيه مقترحا إرسال احد ملازميه الموثوق بهم - الملازم عيسى ود أحمد . وانطلق هذا بجواد سريع بالتفاف واسع نحو جهة الغرب .

بعدها اقتربت صفوف السردار من رئاسة الخليفة وازدادت حدة نيرانه وانعزلت رئاسة الخليفة وبرزت كهدف كبير للألوية ، وبدأ من كانوا حوله في محاولة إقناعه بالانسحاب لاملرمان لئلا يقع في الاسر . تولى محاولة إقناع الخليفة مجلس شوره والقضاة ، فهم الوحيدون الذين توفر لهم الشجاعة لطرق مثل هذا الأمر معه . تولى الحديث الشيخ محمد البدوي والسيد المكي وعبد الله البنا . فقال الشيخ محمد البدوي « الحرب سجال ورجال . نمشي املرمان نموت تحت القبة .. وهل تريد يا سيدي ان تستهلك كل جيوش المهديّة في معركة واحدة ؟ » وقال السيد المكي « مادمت حيا فالدين منصور فلتحيز من العدو لئلا يتسكنوا من أسرنا » ومع اشتداد النيران واقتراب العدو استمدوا جراءة أكثر مع خطر الموت القريب فصاح أحدهم : « كان مُلك الملك بفرش .. كان مهديّة النبي

(١) يقدر الشيخ بابكر بدرى زمن وقوع تلك الأحداث بعد الساعة ١١:٣٠ . فهو يقول « وفى نحو الساعة الحادية عشر والتصف جاء من اخبر الخليفة باستشهاد .. ابراهيم الخليل .. وبعد قليل جعلونا صفاً والراية الزرقاء امامنا فرأيا سلاح العدو يلعب ويحقق ثبعا لحر كاثم ورأيناهم كالحجارة الصفراء فلما ظهروا نادى خليفة المهدي بصوت سمعناه « اب جكه قوم احد الاخوان دول صدوا اعداء الله ديل . « فقام اب جكه وسلاح الامدادية ونحن نظره فنفقدهم فنفقدهم وضربوا بطلق متقطع فلم يرجع احد من مات ومن تماوت ومنهم عنا .. »

الا ان التقدير الصحيح يجب ان يكون حوالى العاشرة والنصف . باعتبار ان هجوم الراية الزرقاء
 شن قبل العاشرة . وفي الحادية عشر كان الخليفة على مشارف امدردمان في رحلة العودة .

هاجر « (١) كل هذا والخليفة صامت ينظر ساهما إلى كل منهم . بعدها بقليل حمل أحد الجرحى إلى الخليفة وأخبره باستشهاد يعقوب . فاطرق الخليفة ومنذ تلك اللحظة فقد كل اهتمامه بتطورات المعركة . فقد أصيب بهزة عنيفة لم يبق منها أبدا . وأصبح كل همه الاستشهاد على فروته . فقد ذكر الشيخ بابكر بدرى « قال السيد المكى ان الخليفة كان يتكلم مسفر الوجه لم تظهر عليه علامة يأس أو خوف حتى جاء من أخبره ان الأمير يعقوب استشهد فاطرق مليا وجرى عرقه ولم يتكلم بعدها « . سكت الجميع والرصاص يتطاير من حولهم احتراما لحزنه وهنا فقط انضم اليهم عثمان دقنه وعثر على حمار الخليفة الأبيض الكبير يقوده غلامه عبدالله فتعاون دقنه مع أب جكه وانهضا الخليفة . فلم يقاوم . ومشى دقنه راجلا بالقرب منه وهو يتحدث معه فى محاوراة طويلة تخللتها الآيات القرآنية وأبيات الشعر . وهو يمسك بيده ويتحدث : « ان تلك ليست نهاية كل شيء . » وتحدث

(١) بينما يذكر هـ . جاكسون ان الذى افلح فى اقناع الخليفة بالعودة لامدرمان والقتال داخلها هو عثمان دقنه . ويؤيده تأييدا جزئيا الشيخ عبد الله محمد نور الذى ذكر ان عثمان دقنه انضم لرئاسة الخليفة وكان جالسا بالقرب منه . نجد ان الشيخ بابكر بدرى يذكر ان محمد البنا هو الذى اقنعه بالعودة وقد اعتمد جاكسون على استجواب « عبد الله ومحمد بلال الجعل كاتب عثمان دقنه والذى كان متواجدا معه فى امدرمان :

Osman Digna himself went up to the Khalifa and seizing him by the hand said that all was not over. They would collect another force and once again try the issue with the forces of the Government. "One day," he said, "we will both die fighting on horse back, but it is of no use waiting here upon your sheep skin...."

Jackson, H.C., *Osman Digna*, p. 156

« تقدم عثمان دقنه نحو الخليفة ووضع يده فى يديه وذكر له ان ذلك ليست نهاية كل شيء . » ويجب معاودة الكرة مرة أخرى ضد العدو بعد تجميع قواتهم وقال له « يوما ما سيموت كلانا على صهوات الجياد ونحن نقاتل . ولكن ما الفائدة الآن من الجلوس على فروتك وانتظار الموت . »

بينما يقول الشيخ بابكر بدرى نقلا عن ود البنا :
قال الشيخ محمد عمر البنا لما سمعت كلام السيد المكى ونظرت للخليفة فلم ينكره قمت وأمسكت خليفة المهدي من عضده الذى لا يلمس لغيره وانهضته فتبعنى وخطونا خطوات بارجلنا فلحقنا أحد بحمار أركبنا عليه خليفة المهدي .. »

بابكر بدرى حياتي - الجزء الأول ص ١٨٢ .

أقوال الشيخ عبدالله محمد نور - شريط مسجل - رقم ٣ - قل - النيل الأبيض .

كثيرا عن المرات المتعددة التي ابيد فيها جنوده وعاد هو وحيدا متحنا بالجراح ليبدأ كفاحه من جديد . وبالتأكيد سيتمكن الخليفة من جمع جيش آخر يواصل به الكفاح ضد العدو الغازي « يوما ما سيموت كلانا ونحن نحارب على صهوات جياذنا ولكن ما الفائدة من الجلوس على فروتك وانتظار العدو والموت برصاصه جالسا . » وتقدم معه مسافة وهو يطيب خاطره ثم ودعه واعدا اياه باللاحاق به في امدرمان ، وانثنى عائدا لرجاله .

تحرك ركب الخليفة الصغير نحو امدرمان عن طريق يبعد أربعة أميال غرب النيل . وسرعان ما بدأ من حوله يتسللون ، ولم يبق معه الا يونس الدكيم . وبعد قليل غاب وسط آلاف الجرحى والموت وهم في تفهقرهم نحو امدرمان . وهكذا عاد الرجل مهزوما كسيرا كما بدأ رحلته إلى المجد والقوة .. على ظهر حمار .. وشق طريقه وحيدا مطرقا وسط الآلاف إلى أن وصل استراحته الشمالية خارج أمدرمان . حيث نزل من حماره واستراح قليلا وأمر بعض الملازمين الذين وصلوا من أرض المعركة بالنفخ في الامبايه وضرب النحاس لتجميع بقية المقاتلين من داخل أمدرمان وبدا القتال مرة أخرى من داخلها .

لم ينضم للخليفة في استراحته الشمالية الا الخليفة على ود حلو محمولا على عنقربيه وقد ربطت ساقه بعد ان توقف التريف . ومن هناك ارسل الخليفة لشيخ الدين بعد أن علم بفشل هجومه ليوافيه في منزله في امدرمان ثم أمتطى حماره وتوجه ومعه على ود حلو بجانبه إلى الجامع ثم أمر بالنفخ في الامبايه مرة أخرى . وبعدها دخل إلى منزله وأحضر له الطعام ، وكان أول طعام يلوقه ذلك اليوم . فخلط قليلا من العسل والماء وشربه ولم يقرب طعاما غيره .

وأخيرا مضى الخليفة وحيدا بدون حرس لضريح المهدي واجتاز القبة المدمرة إلى أن وصل الضريح .

• • • • •

أخيرا في سعت ١١٠٠ وصل الجزء الاعظم من الفرقة المفقودة — حقيقة — إلى جبال كررى . وشرع في التجمع مع صفوف الراية الخضراء واجتمع قائد

ربع مقدمة الملازمين ، جابر أبو شليخات ، مع عبد الله أبو سوار .

وبينما كانت صفوفهما تتجمع ، وأثناء إعادة تنظيمها ، وقفنا يشاهدان هجوم الراية الزرقاء في أعنف لحظاته وهما يلتفتان بين القبنة والأخرى إلى الخلف لاستعمال إنظام صفوفهما . ولما كان لواء ماكدونالد أقرب قوات العدو إليهما ، وكان يقف حائلا بينهما وبين الحشد الرئيسى للعدو . فقد رأيا الوثوب عليه أولا واكتساحه والتقدم بعدها نحو القوة الرئيسة للعدو ، كما مثل لواء ماكدونالد باتجاهه للجنوب الغربى وباتعزله عن بقية قوة السردار . فرصة عظيمة للتسديد ضربة مفاجئة للعدو من الخلف .

فاستدار جابر وعبد الله عائدين وانحدر نحو الحشود فى شمال الجبل ليستعجلا قوات الرايتين لبدء الهجوم ، واشتركا مع أمراء الرايات فى تنظيم صفوف الملازمين التى بدأت تتوالى للانضمام فى التجمع - ربع جابر أبو شليخات فى المقدمة ، تلاه ما تبقى من ربع العريضى الربع ، وبفاصل كبير تقدمت كتلة الملازمين الرئيسة بدون إنظام وخلفها مربع شيخ الدين . وضع أبو شليخات أكبر عدد من حملة البنادق تمكن من استخلاصه من الصفوف المضطربة فى الأمام . الا أن قيمة هؤلاء قلت كثيرا لفقدانهم أغلب ذخيرتهم فى المعركة الأولى ضد هجانه برود وود وسط جبال كررى وأثناء مطاردتهم لها . بعد ذلك إنظم الملازمون فى صفوف عريضة خلف بعضها البعض تكونت من أغلب الاعداد التى وصلت على عجل . ولكن جزءا كبيرا من الملازمين ، حوالى نصفهم ، كان لا يزال فى طريقه لكررى يتعثر فى الخلف محاولا اللحاق بالمقدمة . وهؤلاء لم يجدوا الفرصة ابدا فى الانضمام داخل صفوف الاقتحام . أما عبد الله أبو سوار فقد احتل الجناح الأيمن . وكانت صفوفه منتظمة منذ البداية . وهى تقف على أهبة الاستعداد للاقتحام . وأمضى عبد الله أبو سوار وقتا أليما فى انتظار الملازمين وهو يشاهد مجزرة الراية الزرقاء أمامه فى السهل . وفى أقصى يمين الراية الخضراء ، بفاصل ٢٠٠ ياردة تجمع فرسان دغيم بقيادة الأمير عبد الجليل أحمد . ضرب جناحهم الأيمن فى أقصى الصحراء . وضاق أبو سوار ذرعا بالزمن الضائع . وقبل ان يتم الملازمين تجمعهم وصل عيسى ود أحمد رسولا من الخليفة ، وأبلغهم ان

رئاسة الخليفة قد هوجمت وهو يطلب النجدة . ولم ينتظر أبو سوار أكثر من ذلك . وبدون ان يلتفت حتى للملازمين صاح قائلاً لحامل رايته « جُر يا عبد القيوم .. ألق الراية » خلعت الراية وتقدمت حشودها في اندفاع سريع نحو جبال كررى ، وما ان شاهد الملازمون تحركها إلا واندفعوا أيضا بمحاذاتها لاجتياز أبو زربية ومنحدراته .

بعد قليل برز الوضع النهائي للقوة المتقنمة . مواجهة طولها أكثر من ٢٠٠٠ ياردة زادها فرسان دغيم امتداد بلجهة الغرب أما عمقها فقد تجاوز عشرة صفوف ولأكثر من الف ياردة في الخلف ، خلف تلك الصفوف المنتظمة ، تبعثرت آلاف أخرى لم تجد الفرصة بعد في الانضمام أو الانتظام في صفوفها ، كان أغلب هؤلاء بالطبع من ملازمى شيخ الدين (١) وقد انهكهم القتال والأميال الطويلة من الركض والمشى السريع .

(١) أخشى اننا سنجده أنفسنا مرة أخرى أمام مغالطة تاريخية كبرى . فخلا لما ذكر كل من قدم المعركة تاريخيا « وصفا كاملا في حوالى عشرين كتابا » من ان الهجوم الأخير اشتركت فيه كل الراية الخضراء . وكل قوة الملازمين « ٢٠.٠٠٠ مقاتل حسب التقديم التقليدى ، و ١٤.٠٠٠ حسب ما اوضحنا في الصفحات السابقة . » نجد ان المؤرخ محمد عبد الرحيم يذكر الآتى :

« ولكن قبل ان يصل شيخ الدين بقوة إلى خط النار جاءه فارس قال له يقول لكم الخليفة سيروا إلى جبال المريحيات . ولعله - رأى بعد موت أخيه الأمير يعقوب وابراهيم الخليل وتبديد الجيوش ماجعله يخاف على ابنه الذى انشئ عن هجومه ولم يعمل عملا يذكر . »

دار الوثائق المركزية - أوراق محمد عبدالرحيم . معجم الشخصيات - شيخ الدين ص ٧٧٨ .
وعلى الرغم من مخالفة محمد عبد الرحيم لجميع المؤرخين وأغلب تقارير قادة الوحدات بعد المعركة الا ان قرائن الأحوال تقف في صفه لحد ما . أولا : عندما خرج الخليفة من امدردمان وتكاملت كل دفع الهجرة الثلاث بلغت حوالى ٣٠.٠٠٠ بما فيهم النساء والأطفال منهم ٩.٠٠٠ رجل مسلح بالبنادق فمن أين تسنى له جمع تلك القوة النارية وبقية الرايات أيده معظمها ؟ فاعلم الفل ان اغلب تلك القوة كانت من الملازمين . ثانيا : شوهدت اعداد ضخمة تتجه غربا نحو جبال المريحيات بعد نهاية المعركة - ولم تكن من الراية الخضراء ، فقد أيدت الراية تماما :

Yet the crowds continued to run the gauntlet, and I myself saw at least 10,000 men make good their escape." *River War, p. 167*

« ولكن الحشود استمرت في عبور خطى النار ، وشاهدت أنا شخصا ١٠٠٠٠ رجل يتقهقرون »
ولكن حتى لو أخذنا حذرنا من المبالغة العددية المعهودة - من أين أتت تلك الحشود ، الواضح انها كانت من بقايا هجوم الراية الزرقاء والملازمين ، وكثيرا منهم لم يكن مصابا . كما ان كثير من

وفي سعت ١٠١٠ وصلت قوات الملازمين والراية الخضراء قمم وسفوح أبو زريبه وبدأت في التدفق نحو سهل كررى متجهة نحو لواء مكدونالد . وأعلن (الملازمين) دخولهم للمعركة بعد طول إنتظار بعاصفة من نيران بنادقهم على العدو . وسرعان ما غطوا السهل وهم يتدافعون بسرعتهم المعهودة نحو لواء مكدونالد . ومن مسافة ١٢٠٠ ياردة بدأ توقف حملة البنادق بين فينة وأخرى لفتح نيرانهم المؤثرة وسط لواء مكدونالد الذى انشغل بتغيير مواجهته لمواجهة الهجوم الجديد . وبدأت اعداد الخسائر تزداد . ومن مسافة ٦٠٠ ياردة تمكنت الموجة الأولى التى تقدمت كثيرا عن القوة الرئيسية للملازمين ان تصيب أكثر من ١٢٠ من الصفوف المراسية من العدو .

* * * *

كان هجوم الراية الزرقاء فى لحظاته الأخيرة ، ومن الحشد الضخم الذى

أمرأ ارباع الملازمين خرجوا سالىين من المعركة . ولعل ذلك التفسير يوضح إنكسار الهجوم المشترك المسد نحو مكدونالد وهو فى ذلك الموقف الميئوس منه .

ولكن ما يجعل رواية محمد عبد الرحيم ضعيفة نوعا ما هى أنه كان فى تلك اللحظات يرقد جريحا فى خور أبو سنط أو فى طريقه لأم درمان بعيدا عن مسرح المعركة اذن فمعلوماته مستقة فى الغالب من زملائه الملازمين بعد المعركة ، فلم يكن شاهد عيان فى تلك اللحظات . ثانيا من الثابت ان جزءا من الملازمين اشترك فى المعركة . بدليل ألف وستائه من جماعهم عثر عليها فى مسرح اقتحامهم . وبدليل تساقط ١٢٠ من لواء مكدونالد فى تلك اللحظة وبأعيرة نارية - والراية الخضراء لم يكن بين صفوفها بتدقية واحدة . وبدليل تساقط امرأ ارباع « أبو شليخات ومسعود وعثمان آدم » .

فالمرجح اذن ان جزءا فقط ، حوالى نصفها ، اشترك فى الاقتحام أو حوالى ربعين أو ثلاثة حسب رواية شاهد العيان حسين ود الزين « الرايات شريط مسجل رقم ٤ - » ربعين أو ثلاثة فقط كان المتحدث ضمنهم « . ولا بد ان رواية محمد عبد الرحيم عن أوامر الخليفة لشيخ الدين بمدم الهجوم أخذت مكانها بعد اقتناعه بمعلق القضاة « انت يا سيدى داير تضيق جيوش المهدي كلها فى معركة واحدة » وان مكان شيخ الدين فى المؤخرة مكنه بعد استلام رسالة الخليفة من استعراج بقية قوته قبل ان تشترك فى المعركة - كما أنه من الثابت أيضا ان الخليفة ارسل لشيخ الدين لينضم له فى أم درمان . والسؤال هو : هل استلم شيخ الدين الرسالة قبل هجوم الملازمين أم بعده ؟ فرواية محمد عبد الرحيم ، وقرائن الاحوال فقط هى التى تؤيدها ، تذكر أنه استلمها قبل أو أثناء الاقتحام وقبل ان يتورط كل الملازمين فى الهجوم . والغالب كانت تلك اللحظة هى اللحظة التى انتهزها على دينار وانطلق بمدعا غربا للقفاشر ، هذا بالطبع خلاف روايات ساعية كثيرة عاملتها كقاييل تردد العبارة « شيخ الدين ماحارب » ، « أو شيخ الدين ما داير يحارب » .

اندفع قبل نصف ساعة لم يتبق إلا فلول محور يعقوب في محاولتها اليائسة للوصول للواء ماكدونالد ، وأغلبها تحول إلى جثث متراصة مكدسة في انتفاضتها الأخيرة .

وعندما انطلقت الطلقات الأولى من طلائع الملازمين ، وقبل تدفق قوات الهجوم المشتركة عبر منحدرات وقمم كررى ، أحس ماكدونالد بالخطر الجديد الداهم الذى اندفع نحوه . وكان عليه وهو ينقل ثقل نيرانه ومشاته من اتجاه لاتجاه آخر مضاد ، ان يوازن حجمها وحشدها فى كل لحظة مع التزايد أو الاضمحلال النسبى فى قوة كل من الهجومين اللذان شنا نحوه من اتجاهين متعاكسين .

كان هناك هجوم الراية الزرقاء فى لحظاته الأخيرة من الجنوب ، وكان هناك هجوم الملازمين والراية الخضراء من الشمال وقوته تتزايد وصفوفه تقترب بين كل لحظة وأخرى . فقرر نقل معظم قوته للاتجاه المعاكس . أى الشمال الغربى وترك جزءا أقل لمجابهة بقايا هجوم يعقوب . فتحت الرشاشات والمدفعية نيرانا مبكرة بينما كان ماكدونالد يصدر تعليماته لقادة الكتائب . التفت ماكدونالد باحثا عن النجدة من بقية الألوية . ولكنها كانت بعيدة ومشغولة فى مواجهتها الجديدة بالتقدم نحو الغرب . وأقرب وحدة صديقة كانت لواء لويس الذى تحمل ولايزال يتحمل جزءا من هجوم يعقوب . ارسل ماكدونالد فارسا سريعا للسردار طالبا النجدة . وقرر التصدى للهجوم وحده إلى أن تصل النجدة . وتلك هى اللحظات التى أدخلت ماكدونالد التاريخ . فقد أثار بروده (١) وسيطرته الكاملة على لوائه لاجراء تلك المناورة الصعبة فى تلك الظروف ، وفى ذلك الزمن القصير إعجاب الجميع ، واحتلت تلك اللحظات مكانا بارزا فى حروب القرن التاسع عشر .

أمر الكتيبة التاسعة فى أقصى اليمين بأن تحول اتجاهها تسعين درجة لليمين فى حركة قصيرة سريعة ، فاصبحت فى أقصى اليسار بالنسبة للمواجهة الجديدة ، والركن الايسر للتشكيل الجديد ، ووضع سرية مدفعية ومدفعية مكسيم يسارها

(١) عندما حاول قائد الكتيبة التاسعة ، مبادأة منه قبل استلام الأوامر ، تحريك كتيبته للمواجهة الجديدة استدعى ماكدونالد قادة الكتائب فى تلك اللحظات الحرجة والرماس يثر فوق رؤوسهم وونهم قائلا : « أريد ان تكون تحركاتكم وتصرفاتكم تماما كأنكم فى أرض الطابور . »

مع لواء كالتسون الذى كان يجرجر نفسه خارج الزريبة . قوت تلك التعزيزات من موقف ماكدونالد لحد بعيد . فعندما عبرت الرايتان الخضراوان جبال كررى وتكاملت قواهما فى السهل وأصبحتا على مسافة ٥٠٠ ياردة ، وجدت أمامها مواجهة بلغ طولها ٤٠٠٠ ياردة .

..

فصلت أكثر من مائتى ياردة بين صفوف جابر أبو شليخات وبين ربيع العريفى الربيع الذى فقد جزءا كبيرا من مقاتليه بعد تعرضهم لنيران البوارج فى المعركة الصباحية . بينما رفرفت الراية الخضراء الغامقة « ملازمين » وسط التكثف الرئيسى وراء الصفوف الأمامية المتقدمة التى حصلت على قوة دافعه مكتسبة من إنحدار الأرض . وبالطبع إختفت نهائيا الصفوف والمكعبات البشرية ذات الشكل المنتظم المحدد والخطوات المنتظمة التى أثارت إعجاب العدو فى صباح ذلك اليوم ، بعد الأميال والركض السريع والقتال المتواصل منذ الصباح ، وحلت محلها صفوف وكتل بشرية متباينة الكثافة مضطربة الخطوات ، حتى الأرباع التى كونت الكتلة الرئيسية تداخلت فى بعضها البعض ، خاصة أرباع عثمان آدم والعريفى وجابر فضل ، التى اندفعت خلف صفوف المقدمة بقيادة أبو شليخات وكانت أغلب عناصرها الأمامية قد ابتعدت قليلا عن باقى الكتلة الرئيسية بفاصل ٢٠٠ ياردة ، تزداد أو تناقص كلما توقفت المقدمة لتصويب بنادقها وإطلاقها نحو لواء ماكدونالد وهو يياشر مناورته الصعبة ، بينما خفف إنشغال كتائبه بإتخاذ المواجهة الجديدة من أثر نيرانها المباشرة قليلا ، مما وفر للصفوف الأمامية للملازمين زمنا كافيا يتوقف أثناءه الأفراد لبرهة قصيرة لتصويب بنادقهم . ارتفعت الخسائر وسط كتائب ماكدونالد وأثناء تحركاتها إلى ٢٠٠ بين قتيل وجريحاً وتمكنت بقية قوات الاقتحام من عبور أكثر من ١٢٠٠ ياردة دون التعرض للنيران المباشرة للواء ماكدونالد . ولكنها تعرضت لنيران أخرى .

فقد كانت البوارج هى عنصر المدفعية الوحيد من وحدات السردار التى تبعت شيخ الدين فى مطاردته لبرود وود واستطاعت باستمرار تحديد مكانه بالضبط خلال رحلة العودة ، لم تتوفر لمدفعتها الرؤية أو المدى المناسب الا بعد تدفق

الملازمين نحو السهل . وهنا استطاعت مدفعيتها التدخل في تلك اللحظة في المعركة من مرساها يمين مكان الزريبة القديم على بعد ٤٠٠٠ ياردة من قوات الاقتحام ، فاشتركت فيها بأثر حاسم ، منفسه عن غيظها لوقوفها مكتوفة اليدين طوال معركة الراية الزرقاء ، حين حالت تحركات الألوية المختلفة بينها وبين التدخل . لم يكن أثر نيران البوارج واضحة في الصفوف الأمامية ولكنها وجدت أهدافها واضحة في العمق والتكثف الرئيسى للراية ، فوجهت نحوه نيرانا مركزة حوالى « ٣٠ دانه » أدت إلى تداخل الصفوف وتقليل كثافتها .

تدافعت (١) أربع الراية الخضراء نحو ركن ماكدونالد الأيسر . ربع عجب الفيه فى أقصى اليمين ، بشارة برجوب ، ود مخاوى فابوبكر عامر . أما الفرسان ، فقد استدعى عبد الله أبو سوار الأمير عبد الجليل أحمد ، قائد فرسان دغيم ، وأمره وهو يؤشر للغرب ، بأن ينحرف غربا بعيدا عن كتلة المشاة ويلتف التفافا واسعا ليتجه بعده شرقا مباشرة ليجتاح الجناح الأيسر لماكدونالد . أوما عبد الجليل برأسه موافقا وانطلق مسرعا عائدا لصفوف الفرسان فى أقصى اليمين ليقود كتيبته وينطلق غربا .

ررفت الراية الخضراء عالية فوق عبد الله أبو سوار ، وهو ينحرف بجواده بلجهة الشرق ليتجه مباشرة نحو ماكدونالد . وبعدها زاد سرعته قليلا ليصبح فى مدى رشاشات ماكدونالد . فقد كان موقع الراية الخضراء فى الجناح الأيمن للهجوم مواجهها مباشرة للركن الأيسر لماكدونالد ، أقوى نقطة فى كل مواجهته « ٣ رشاشات ١٢ مدفع » والرشاشات كانت من أوائل وحدات ماكدونالد التى اتخذت مكانها فى المواجهة الجديدة .

وحينما وصلت طلائع الراية الخضراء لمسافة ٧٠٠ ياردة من ماكدونالد كانت تواجه نيرانا كثيفة من الرشاشات والمدفعية « اطلقت المدفعية مالا يقل عن ٢٠٠ دانه خرطوشة شظايا Case shot و ١٥٠ دانه شارينيل فى أقل من عشرين دقيقة » وعندما بدأت الصفوف تتلاشى كان الأمير عبد الله أبو سوار من أوائل ضحاياها تبعه ضحايا آخرون من كبار أمراء الراية الخضراء ، وتساقطت عدة جثث كان أصحابها

(١) أنظر الخريطة رقم ١٣ المرحلة الثانية سمت ١٠٢٠ .

« ليلحم » زاوية المواجهة القديمة مع المواجهة الجديدة . ثم توالى كتائبه لتأخذ مكانها يمين الكتيبة السودانية (١) التاسعة : نقل الكتيبة الحادية عشر من مكانها فى أقصى اليسار لتأخذ مكانها يمين الكتيبة التاسعة ، ووضع سرية المدفعية الثانية بينهما . أما الكتيبة العاشرة فقد استدارت للخلف بعد نداء « خلف دور » وأسرعت خلف الجدار البشرى الجديد لتحتل مكانها يمين الكتيبة الحادية عشر ، ووضع سرية المدفعية الثالثة بينهما . ثم وزع مدافع المكسيم بين السرايا . وبذلك وضع كتائبه السودانية الثلاثة وقد انجهدت للشمال الغربى لمواجهة الهجوم الجديد ، ثم دفع بالكتيبة المصرية لتكون زاوية قائمة مع باقى الكتائب فى الاتجاه القديم - الجنوب الغربى - لإتمام عملية إيقاف بقايا هجوم يعقوب . ولم تستمر معركة الكتيبة المصرية طويلا فبقايا الراية الزرقاء كانت قبلا قد نالت نصيبها كاملا من نيران ماكدونالد ولويس فأصبح ثللا صغيرة سرعان ما تلاشت . وبين طقطقة مدافع المكسيم وإنفجارات وأزيز رصاص الملازمين فوق الرقوس ، تعالت أصوات نداءات قادة الكتائب والسرايا « يمين دور » « خلف دور » « سريعا مارش » يتبعها الدوى المكثوم المنتظم لخطوات الجنود الثقيلة وهى تتحرك بسرعة بكتل منتظمة الشكل لتأخذ مكانها فى المواجهة الجديدة .

كان لواء ووشوب فى سباق مع الزمن لسد الثغرة بين لواء ماكدونالد ولويس فى أثناء هجوم السرايا الزرقاء ، وعندما بدأت صفوف الكتائب فى الاصطفاف لفتح نيرانها نحو الراية الزرقاء ، كان واضحا للجميع ان ووشوب قد تأخر قليلا . فهجوم الراية الزرقاء كسرت شوكته قبلا وخفت حدته . ولكن بدأت الطلقات تسمع مرة أخرى من اتجاه بعيد من الشمال . وظهرت فى الأفق طلائع شيخ الدين والراية الخضراء . وصل جنرال كاتكر قائد الفرقة الانجليزية لصفوف ووشوب وأدرك موقف ماكدونالد الحرج . فأمر أقرب كتائب ووشوب بالتحرك جريا وبسرعة مضاعفة لنجدة ماكدونالد الذى كان موقفه ميثوسا منه فى تلك اللحظة . فانطلقت الكتيبة الأولى وأسرعت لاطالة مواجهة ماكدونالد لجهة اليمين . وسرعان ما انضمت لها خيالة وهجانة برود وود فى مؤخرة الجميع

(١) أنظر خريطة رقم ١٢ « متاوره ماكدونالد »

يحملون اسماء صنعت الثورة المهدية وهى لم تزل فى المهد .. وعلى رأسهم أحمد
برجوب أمير اللحويين* ، محمد علوان ، ومئات آخرون .. ولكن كل ذلك لم
يمنع حشود الراية الخضراء من الاندفاع للأمام أمام عنف النيران المتزايد . وعندما
حاول الأمير عجب الفيه ايقاف الهجوم وصرف النظر عن ذلك الاتجاه بعد ان
شاهد الخسائر المتلاحقة ، ارتفع صوت من الخلف هائفا « احنا ناس شهادة
ودايرين نحفظ بيعتنا للمهدى » فاندفع الهجوم مرة أخرى فى نفس الاتجاه .. وإلى
النهاية .

وعندما اكتمل اصطفااف لواء مكدونالد أخيرا بكل عناصره ، بمشاته
ومدفعيته ورشاشاته فى المواجهة الجديدة ، كان ما تبقى من الصفوف الأمامية
للملازمين على مسافة مائتى ياردة من مواجهته ولكنها لم تكن صفوفًا ، بل كانت
جماعات من ثلاثة لحمة أفراد، أما التجمع الرئيسى الكثيف فكان على بعد ٥٠٠
ياردة من صفوف مكدونالد . وعلى الرغم من عنف النيران المتزايد تمكنت تلك
الصفوف من فتح نيرانها على مواجهة العدو العريضة .. وبالطبع وجدت كل
طلقاتها بالتقريب مقتلا بين الصفوف المتراسة المتلاصقة ، ولكنها بدأت تقل شيئا
فشيئا إلى أن توقفت نهائيا ، فقدفوا بنادقهم وتقدموا وقد أشرعوا سيوفهم وحرابهم
.. لماذا ؟ لقد نفذت ذخيرتهم التى استهلكتها المعركة السابقة . فتقدموا بالسلاح
الأبيض .

فى تلك اللحظات وصلت الكتيبة الأولى من لواء ووشوب عابرة المسافة
التي فصلت بينها وبين لواء مكدونالد عدوا ، واستطاعت انقاذ موقف مكدونالد
الحرج .. فكما نفذت ذخيرة الملازمين كان ذلك بالضبط هو موقف كتائب
مكدونالد السودانية . فالضرب الانفرادى الذى أمر به مكدونالد لانتاج أكبر
كمية من النيران بسرعة وبدون ضبط استنفذ معظم ذخيرة الكتائب . ولم يبق
لكل جندي أكثر من طلقة أو طلقتين . وكانت النتيجة الحتمية هى الاستعداد
بالسناكى لتبدأ معركة السلاح الأبيض وبالطبع كانت كفة الملازمين ترجح حتى
بعد نفاذ ذخيرتهم ، ولكن وصول كتيبة ووشوب غير الموقف لحده بعيد . فقد
بدأت فى فتح نيران جانبية مركزة .

وسرعان ما برزت كفاءة البندقية الجديدة «لى متفورد» وهى تقذف بمئات الطلقات المصوبة فى دوى وانفجار واحد منتظم منغم . فتحت نيرانا جانبية منفردة أولا على العناصر المتقدمة من الملازمين والننى اشترعت أسلحتها استعدادا للالتحام مع صفوف ماكدونالد . واستطاعت اباداة معظمها إلا بضعة منهم تمكنوا من الوصول لصفوف ماكدونالد حيث غرسوا حراهم فى الصف الطويل ثم سقطوا على الأرض ، منهم من تلقى أكثر من طعنة من سناكى العدو ومنهم من اخترق جسده رصاص العدو وماسورة البندقية ملنصقة على جسده .

وبعد أن زال الخطر القريب بدأت الكتيبة فى ضرب الجماعات "Volleys" نحو الكتل الرئيسية للملازمين ، وتمكنت نيرانها بالاشتراك مع دانات البوارج من إيقاف التجمع الرئيسى ، مما وفر زمنا كافيا تمكن خلاله ضباط الكتائب الثلاثة من احضار الذخيرة من الخلف وتوزيعها على صفوف الكتائب . فاشتركت نيرانها مرة أخرى فى المعركة .

أما موجات الهجوم على الصفوف المتراسة وعلى عاصفة النيران التى هبت عليهم من أكثر من اتجاه .. من النيل .. البوارج ، ومن الامام نيران الكتائب ماكدونالد .. ومن الجنب كتيبة ووشوب ، فقد كانت فى نفس مستواها فى الهجمات السابقة ، جسارة وتصميما لا يقف دونها ودون الهدف إلا الموت . والصفوف ؟! .. يتقدم كل الصف فيثنى أمام النيران الساحقة ثم يتمزق فيتحطم فيختفى رجاله أمام النيران الحاصدة ، وقبل ان يتلاشى الدخان يتقدم صف آخر . لقد تكرر هذا المشهد ستة عشر مرة .. ستة عشرة صفا مرت بنفس المراحل .. صفا وراء الآخر .. نفس الأطوار التى مر بها الصف الأول مر بها الأخير ولم يحاول أحد منهم النكوص على عقبيه أو الرقاد على الأرض بل اندفع لملاقاة النار وقد تجسم كل أملهم وطموحهم فى الوصول للعدو ، ولكن كان يحول دونهم العدو جدار من رصاص ساخن . منهم من اندفع حاملا بندقيته الفارغة ليضرب بها العدو ومنهم قذف حربته . ومنهم من تقدم اعزل وكل سلاحه قبضتيه وغضبه الجارف ، حتى حملة الاعلام أصروا على الوصول باعلامهم لصفوف العدو ولم يجدوا ما يشفى غليلهم غير إستخدام أقيته الاعلام .

أما صفوف أبو سوار فلم تستطيع حتى الوصول لتلك المسافة لإفتقارها للسلاح الناري ، ولأنها منذ البداية لم تجد الفرصة التي وجدها الملازمون وهم يتقدمون نحو عدو متحرك ومنشغل بترتيب صفوفه . بل كان هجومهم مباشرة أمام الأفواه الفائرة للرشاشات لثلاثتهم صفوفهم واحدا بعد الآخر ..

وعندما اقتربت الساعة من الحادية عشر كان واضحا ان مصير الهجوم الثالث لقوات الخليفة أصبح كسابقه . ونفس المنظر المتكرر دائما ، بدأ في البروز ، الجثث .. الخيول .. الثيران العنيفة وهي تصل الحشود حمما .

أما الانتفاضة الأخيرة لجيش الخليفة في ذلك اليوم فقد كانت هجوم فرسان دغيم على الجناح الأيسر لماكدونالد . فقد اتجه الأمير عبد الجليل حسب تعليماته غربا ، ليلتف حول ماكدونالد وليهاجم جناحه الأيسر متطابقا مع هجوم المشاة . كان هذا تكيكا سليما في الماضي عندما كان أقصى مدى للبندق هو ٢٠٠ ياردة وقبل ظهور قصف الرشاشات والمدفعية الكثيف . ولكن خلال الزمن القليل الذي استغرقه أحمد عبد الجليل ليكمل التفاته الواسعة كانت الكتلة الرئيسية لمشاة الهجوم قد ابيدت وقبلا تمكنت نيران ماكدونالد من إيقاف التجمع الرئيسى للهجوم من مسافة ٧٠٠ ياردة . وعندما شن هجوم الفرسان من جيش الخليفة كان يساند بضع ثلث صغيرة من المشاة تندفع نحو ماكدونالد ، فتمكن من توجيه جزء كبير من نيرانه في وجه الهجوم الراكب المندفع نحو الكتبة الثانية المصرية في هجمة يائسة بدون هدف واضح إلا الموت ، فلم تبق هناك صفوفها من المشاة لتساندها هجمة الفرسان .

وبأقصى سرعة للجياد إنطلقت الهجمة الأخيرة لجيش الخليفة في معركة كررى ، وقد اشترعت الحراب الطويلة أمام الفرسان ولوحوا بسيفهم يمينا ويسارا في انطلاقهم نحو العدو . والبعض لم يحمل سلاحا على الإطلاق خلاف الرايات ، وسرعان ما دخلوا داخل نطاق نيران ماكدونالد . وبدأ فرسان دغيم يتساقطون واحدا بعد الآخر حتى ابيدوا عن آخرهم . ولم تستطع آخر هجمة قام بها جيش الخليفة ان تصل إلى أعدائه ، بل وصلت اليهم الجياد ، بدون راكبيها ، واخترت صفوفهم . وانتهت بذلك هجمة فرسان دغيم التي رمز اليها المؤرخون الأوروبيون

« بهجوم فرسان البقارة » .

فى سعت ١١٠٠ صد الهجوم الأخير لجيش الخليفة ، وتجسم الثمن الغالى الذى دفع ، فى الجثث التى تكدست حتى وصلت تحت أقدام صفوف ماكدونالد وجزء كبير منها طعن بالسونكى موضحا ان الفرصة التى توفرت لهجوم شيخ الدين وعبد الله أبو سوار لم تتح لاحد غيرهما اللهم الا لعثمان دقته .

ولم يمض زمن قليل حتى كان السهل الذى يفصل بين أرض المعركة والجبال البعيدة غربا أو جنوبا قد امتلأ بالآلاف التى تحركت غربا نحو جبال المرخيات كالنقط السوداء الصغيرة تحمل جرحاها وموتاتها .

..

سقط فى هجوم الملازمين والراية الخضراء ٥٠٠٠ من القتلى « ٢١٠٠ من الراية الخضراء ، و ٢٠٠٠ من الملازمين » . بلغ عدد الجرحى من الراية الخضراء ٢٠٠٠ « أى أيدت تماما » ومن الملازمين ٢٤٠٠ رجل .

وسقط كبار الأمراء الآتى ذكرهم قتل فى الهجوم :

الراية الخضراء :

الأمير عبد الله أبو سوار « أمير الراية »

الأمير أحمد عبد الجليل « قائد فرسان دغيم »

الأمير محمد علوان « قائد ربع من أرباع دغيم »

الأمير أحمد عبد الله برجوب « قائد ربع اللحويين »

الأمير محمد مخاوى

الملازمين :

الأمير مسعود « أمير ربع »

الأمير عثمان آدم « أمير ربع »

وبنهاية المرحلة الثانية بتلك الطريقة الخرافية ، انتهت معركة كررى .

وبالتالى انتهت دولة الخليفة كدولة مستقلة فى سعت ١١٣٠ يوم ٢ سبتمبر ..

فلم يستطيع الخليفة ابدا بعدها تجميع جيش كالذى حشده فى كررى .

لعلنا نذكر ان خطة الخليفة بنيت اساسا على المرحلة الثانية . وهذه المرحلة تمثلت عملياتها فى كماشة تطبق على العدو المتقدم نحو امدرمان ، أحد ذراعيها « الملازمين » يصلى مؤخرة العدو نيرانا كثيفة من الشمال ، والطرف الثانى - الراية الزرقاء تمثل فصلا حادا يشق لحم العدو من الجنوب ، على ان تتم حركة اقفال الكماشة فى لحظة واحدة .

ولكن نصف الساعة التى فصلت بين الهجومين ، أدت إلى الانفصال الزمنى لانطباق فكى الكماشة بحيث أصبحتا حركتين منفصلتين مختلفتين . وأدى هذا إلى مواجهة العدو لهجومين منفصلين تماما ، سواء فى مراحل الهجوم ، أو التجمع أو التشكيل ثم المحاور وأخيرا الابتداء . وتمكن العدو بالتالى من التعامل معها بالتجزئة Piecemeal .. وأدى ذلك إلى أن قدمت معركة كررى تاريخيا وعسكريا كمعركة ذات ثلاثة مراحل ، أو ثلاثة هجمات رئيسية .

ولعل الصفحات السابقة أوضحت الأسباب التى أدت لذلك الانفصال الزمنى - والسبب الرئيسى أوضح من أن يذكر وهو باختصار .. تحركات الملازمين ومن خلفهم شيخ الدين - سواء ان قصد أو لم يقصد .. وسواء كانت نتيجة لقيادته المتهوره أو لعدم تمكنه من ابراز أى تأثير قيادى على أقوى فرق الخليفة فى أكثر الساعات حسما ، وتركه الحبل على الغارب لامراء أرباعه .

وعندما استجوب ونجت الأحياء من الامراء بعد المعركة عن أسباب فشلها أجابوا بلا استثناء « عثمان شيخ الدين » ولعل الطيب ود العربى لم يتعد كثيرا عن الحقيقة عندما قال بعد نهاية المعركة لمن اقترحوا عليه الاستراحة تحت ظل شجرة ظليلة قبل دخول امدرمان ورفض خوفا من الوقوع فى الأسر : « دارأى العيال القبيل ضيعنا » . فغيابه أكثر من ساعة ونصف ، وأبعاده لاقوى فرقة فى جيش الخليفة لمسافة ثلاثة أميال عن أرض المعركة وعودته كل تلك المسافة - ويبدو أن نيته كانت الابتعاد لمسافة أطول لولا ان تداركه « على الجله » - كانت السبب الرئيسى فى تأخير هجومه وبالتالي أدى ذلك إلى تعديل رئيسى فى تنفيذ المرحلة الثانية ، المرحلة الرئيسية .

وبالطبع كان ذلك انهيارا أساسيا لكل الخطة . صحيح ان كثيرا من اللوم

يقع أيضا على أبو سوار ، لانه لم يحرك ساكنا أثناء هجوم يعقوب وبالتالي وقع العبء كله على يعقوب . بل قنع بانتظار شيخ الدين . ولكن عذره كان واضحا ، وهو تمسكه الدقيق بالتعليمات . ان الزمن ، والزمن وحده كان هو العنصر الحاسم في تنفيذ المرحلة الثانية ، وعلى هذا الاساس أمر شيخ الدين بأن يضع نفسه في جبال كررى رهنا للإشارة بالمهجوم ، ولو مكث في مكانه ذلك لكان بإمكانه بالتأكيد تأدية دوره في الخطة الرئيسية حسب مرسوم له . ولم يكن الخليفة قصير النظر عندما أدرك — ولكن بعد فوات الأوان — ان عثمان ليس هو الرجل الملائم لقيادة كل الملازمين وحاول ان يخفف الاضرار ف سحب ثلثهم من قيادته واعطاها لعثمان أزرق .

كان شيخ الدين في الثالثة والعشرين من عمره ولم يشترك في معركة واحدة من قبل .. وكان القائد الحقيقي للقوة الضاربة في كل الجيش . وكان تواقا إلى اثبات كفاءته في ميدان القتال . وانطلاقا من هذا اصر على الهجوم نهارا ليرى الآخرين أثر بنادق الملازمين وتدريبهم الممتاز . وعلى هذا الاساس وثب على هجانة وخيالة بروود وود فقد رأى فيها صيدا ثمينا . وللحق ادار امرأه الجزء الأول من معركته ضدها بكفاءة وبادراك سليم . وأستطاعوا لإصابتها بخسائر جسيمة وهذا هو المطلوب ولكن الجزء الثاني منها ، مطاردته لقوة راكية لأميال طويلة ، أدى إلى عواقب وخيمة .

وعلينا الآن أن نبحث عن أثر الانفصال الزمني في المرحلة الثانية ، حتى أصبحت مرحلتين ، الثانية ، والثالثة ، وفي النتيجة النهائية للمعركة .

عندما كانت الراية الزرقاء تقف قبل الهجوم على ماكدونالد ، كان جبل سركاب يحجبها عن أربعة من الوية السردار ، وكانت مدفعية العدو المجرورة بالهغال متحركة ومتجهة جنوبا .. والويته تتجه جنوبا .. وهي متحركة .. وبوارجه عاجزة عن التدخل . كانت خيالاته الانجليزية تبعد ثلاثة أميال عن أرض المعركة ، وخيالاته المصرية تجاهد وسط جبال كررى للعودة لصفوف المشاة . وعندما تدفقت الراية الزرقاء نحو ماكدونالد بعد طول إنتظار الملازمين استطاعت قوة العدو وهي تجايه هجوما من اتجاه واحد محدد ، ان تجمع رجالها وتركز نيرانها على ذلك الهجوم في مناورة سهلة سريعة . لان اتجاه الهجوم وتجميعه كان من مكان واحد وقريب واستطاعت

ان توجه ضربات قاصمة للراية الزرقاء ، قنت جهدها وانقسمت إلى ثلاثة محاور سهل التهامها بعدها .

وعندما بدأ عثمان شيخ الدين هجومه كان هجوم الراية الزرقاء قد اضمحل ان لم تكسر شوكته نهائيا ، فوجهت قوة النيران المعادية الماثلة تلك مرة أخرى نحو الاتجاه الجديد للهجوم وشملت نيران كل المواجهة الجديدة لماكدونالد بنيرانها القوية بالإضافة للكتيبة الأولى لوشوب ببنادقها «لى متفورد» وهجانة برود وود ، ولواء كولنسون ، ومدفعية البوارج ، فانهى الهجوم الثانى إلى مصير الهجوم الأول ، وفشل لسبب بسيط ، لأن السردار تمكن من نقل وحشد واطلاق نيرانه كاملة لمواجهة هجوم الراية الزرقاء ثم تمكن من نقلها وحشدها مرة أخرى لمواجهة شيخ الدين وعبد الله أبو سوار ولم يكن بمستطیع ذلك الا لتوفر خمسة واربعين دقيقة بين الهجومين . وتحدث الكثيرون عن غضب الخليفة وغيظه وهو يرى هجوم الراية الزرقاء فى قمته ، وصفوف المحور الثانى وهى لا تزال تتجمع وتصطف .

والآن ، وعلى ضوء موقف السردار فى تلك اللحظات وبين سعت ٩٣٠ وسعت ١٠٠٠ « ما الذى كان سيحققه الهجومان لو شنا فى لحظة واحدة ؟ ويجب أن نذكر أن المبدأ العام والنتيجة النهائية هى لن تتغير ، طالما أن الهجوم شئ فى وضوح النهار . فذلك قد حدد سلفا النتيجة النهائية للمعركة . فأخطاء الخليفة الاستراتيجية عندما اختار كررى مسرحا للمعركة ، وعندما هجم نهارا كانت أفدح وأعظم من ان يتداركها أى نجاح تكتيكى مهما بلغ من حسن التخطيط وقسوة الحشد . ولكن النتيجة النهائية لم تكن لتبرز بتلك الصورة « ٢٦٠٠٠ » من الخسائر وسط جيشه ، وخمسائة من الخسائر وسط جيش العدو .

فألوية السردار وهى تتبعه هنا وهناك لمجابهة الراية الزرقاء ، ولنجدد ماكدونالد ولمواجهة عثمان شيخ الدين وود حلو .. كانت ستعرض لنسبة خسائر جسيمة ، قد تعرض الراية الزرقاء لنفس الخسائر ولكن كان ذلك يعنى اكتساح شيخ الدين لكل لواء ماكدونالد واصطدامه بعد ذلك بوشوب وماكسويل ، كل هذا ومدفعية السردار كلها عاجزة عن التدخل ، فما كان يفصل بين الجيشين فى تلك اللحظة لم يكن آلاف اليارات ، بل مئاتها ان لم تكن القوتان قد التحمتا فعلا . وهذا

الالتحام كان مستطاعاً بفضل تشتت مجهود مدفعية السردار وسرعة التقدم غير العادية لمشاة الخليفة ، واضطراب صفوف ألوية السردار وهي تحول مواجعتها لمواجهة عدة محاور لعدو يهاجم من أكثر من اتجاه .

وابتعاد المعركة عن شاطئ النيل وبالتالي عن نيران أسطول السردار النهري كان يعنى ان المعركة ستصبح معركة التحام داخل صفوف السردار ، ففوة الهجومين مجتمعين « ٢٦٠٠٠ » مهما واجهت من نيران السردار وهو فى موقف أضعف ، كان جزء منها سيتمكن من الوصول إلى قلب ألويته ونقل المعركة لداخل صفوفه ، وكان هذا شيئاً مختلفاً تماماً عن القتال فى المرحلة الأولى .. وكان كفيلاً برفع نسبة الخسائر داخل الجيش الغازى .

المدينة الجريحة

« أتلك (١) هي شهامة المتصبر ؟ ! »

تشرشل

وسط الدماء والاشلاء المتناثرة ورائحة البارود العابقة ، استغرق الخليفة عبد الله في صلاة حارة طويلة أمام ضريح المهدي . وأمام قبر رفيق عمره ، نكس الخليفة رأسه ، وهو يستلهم رقيقه الصبر والنصيحة في لحظة الضيق . شمل الظلام المكان إلا من بضيض ضوء الشمس المتسرب عبر ثغرات الدانات أثر قصف القبة ، خيم سكون عميق داخل المحراب حول الرجل الملتحي الراكع ، لا يقطعه إلا اصوات الطلقات المتقطعة المتزايدة العنف والسرعة وضجيج ماث من خيول الفرسان الذين ملأوا صرح الجامع .

كان أولئك الفرسان تحت قيادة يعقوب أبو زينب محافظ أمدرمان . تمكن من تجميعهم من بقايا المعركة ، ومن شرطة امدرمان ، ومن العدد القليل الذي تجمع من الجرحى واستجاب لنداء الاماية . وأوكل الخليفة اليه تجميعهم لبدء الدفاع من داخل أمدرمان ومضى هو للمحراب . ادار معركة المدينة يعقوب فأرسل كل المقاتلين والبنادق القليلة التي اجتمعت لديه شمالا ليدافعوا خلف السور الكبير .

كان الأمير المسن منهكا للغاية . فقد امضى يوما مرهقا منذ أن بدأ قصف المدينة ظهر الخميس . موزعا جهده والعدد البسيط المتوفر لديه من شرطة امدرمان لرفع الانقاض ، واسعاف الجرحى وقفل ثغرات السور بقطع الحجارة والأخشاب ، واقتلع عدة أبواب ونوافذ لقفل الثغرات الكبيرة المتخلفة من قصف دانات اللديات .

وتزايدت مسؤولياته المتشعبة بعد أن أوكلت اليه ادارة معركة المدينة ، وهو

“Is this the chivalry of the conquerer?”

Churchill

يقذف بكل قادر على حمل السلاح شمالاً للدفاع عن السور (١). وزاد الارتباك ازدحام
رئاسته في الجامع بمئات من الأشخاص ، ممن وصلوا من أرض المعركة ، وكل
هدفهم هو الموت وملاقاة ربهم تحت قبة المهدي . ومن ضمنهم كبار القوم من
الخلفاء وكبار الأمراء .

وضع الخليفة على ود حلو عنقريه تحت القبة ورفض التحرك إلى منزله .
وأسرع الخليفة شريف وأحضر أبناء المهدي وأجلسهم حوله ليموتوا سوياً . وتناثر
عدد كبير من كبار الأمراء ، يونس الدكيم ، عثمان دقنه ، وانضم اليهم شيخ
الدين بعد قليل بعد وصوله من المعركة .

دار الحمس حول اتخاذ أى السيلين ، الدفاع في معركة يائسة داخل
أم درمان ؟ أم الهجرة غرباً ؟ كان الرأي الغالب هو الدفاع داخل أم درمان . ولكن
الرجل الذى يملك حق الاجابة كان معتكفا منذ ساعات داخل الضريح وليس
هناك من يجزؤ على قطع خلوته .

بدأت أصوات طلقات الرشاشات تتزايد . وارتفعت مرة أخرى أصوات
لإنفجارات المدفعية منبهة عن اقتراب السردار من المدينة . وصل فارس ينهب
الأرض منها وترجل واتجه نحو يعقوب أبو زينب وأنبأه ان السردار قد دخل المدينة
من البوابة الكبيرة .

اتجه يعقوب مباشرة نحو مدخل الضريح ووقف منتظرا الخليفة على أحر من
الجمر لينقل له النبأ . أخيراً وعندما بدأ قرص الشمس فى الانحدار غرباً خرج
الخليفة من المحراب وقد فارقتة نظرتة الجامدة الخاوية التى كست ملامحه منذ ان
سمع بمقتل الأمير يعقوب . أصدر تعليماته للأمير يعقوب أبو زينب بالهجرة غرباً
لكل من يرغب على أن يصحبه الخلفاء ، وان تنبه العوائل للخروج من أم درمان .
ومن هناك مضى الخليفة إلى منزل أخيه يعقوب ليأخذ بعض الوثائق الهامة وليأخذ
عائلته على ان يلتقوا جميعاً خارج أم درمان .

وعندما أبلغ الأمير يعقوب أبو زينب تعليمات الخليفة للحشد الذى اجتمع داخل
القبة رفض كثيرون التحرك . كان الخليفة على ود حلو والخليفة شريف يجلسان

(١) انظر خريطة رقم ٤ .

سويا . أما الخليفة على ود حلو فقد أخذ بالقوة حسب أوامر الخليفة . وعندما أصر على عدم التحرك ووضع سيفه أمامه تقدم الأمير ود مخاوى « ابن شقيقته » وخطف سيفه واوغز إلى اثنين من ملازميه بحمل عنقريه ، وأخذ ليلحق بركب الخليفة .

وبعد قليل ، عندما بدأت ظلال المغيب تغلف المدينة بدأت الشوارع والأزقة المؤدية لجهة الجنوب تمتلئ بالرجال والنساء والأطفال وهم فى طريقهم خارج المدينة .

.. ..

ما ان تلاشت موجات الهجوم الأخير ، الا وأمر السردار كل جيشه بمواصلة التقدم مرة أخرى نحو أم درمان . وسرعان ما ملئت الألوية صفوفها بعد ارسال الجرحى للمخلف وتعويض الذخائر ، واستدارت آلة حرب السردار الهائلة مرة أخرى جنوبا ، بينما اندفعت عناصره الراكبة لعدة أميال غربا وجنوبا لمحاولة تثبيت الألوف التى اتجهت غربا ضاربة فى الصحراء - أو نحو أم درمان .

تقدمت خيالة برود وود من سفوح كررى فى مواجهة عريضة تكونت من صفيين من الفرسان - وشقت طريقها لعدة أميال لجهة الغرب بين أنات وحشرجة الموت الصادرة من الألوف . وهى تشق طريقها بين كتل مترايدة الكثافة كلما اتجهت غربا - ولكنها لم تكد تقطع عدة أميال الاوعادت ادراجها . بينما تقدمت كتيبة الرماحة وهى أقل عزما ، وأكثر حنرا ، عبر نفس الطريق الذى عبرته قبل ساعات ودفعت فيه ثمنا غاليا . ولكنها عادت أيضا بعد قليل .

فلم تكن تلك الفلول المنهزمة والتى كان ثمانون فى المائة منها من الجرحى بقطيع من البشر المذعور لتبع خلفه بضعة كتائب « لنهشه » وتشتت شمله ، فقد إنتهت معركة الرايات والارباع وبدأت معركة الجرحى .. معركة الأفراد .

وسرعان ما وجد الفرسان أنفسهم يواجهون عدوا يختلف عما تصوره تماما . وجدوا مقاومة صلبة من كل جريح ، وخاض كل جريح معركته الإنفرادية قبل قبل ان يسمح للغزاة بدخول مدينته . فمن وسط كل ثلة من الجثث المكلسة قفز

أحد الجرحى فجأة وأفرغ آخر طاقة في جسده في طعنة سريعة ، أو هب أحد الجرحى جالسا فجأة من رقدة الموت المتجمدة ليطلق مقدوفا ويحندل أحد جنود العدو . تكرر هذا المشهد مئات المرات وأدى إلى الظاهرة التي أسماها المراسلون الحربيون « خصائص حرب السودان » "Sudan War tradition" وأدى أخيرا إلى بروز مظهر آخر من مظاهر الحروب .. قتل الجرحى حتى بعد استسلامهم ، وأدى بالتالى إلى استغلال تلك الذريعة « مقاومة الجرحى » — استغلالا بشعا بواسطة قوات السردار فى مجزرة إنتقامية لم يشهد تاريخ الحروب لها مثيلا إلا قليلا . ووصلت تفاصيل فضيحتها إلى أسماع العالم وأثارت ضجة كبيرة (١) .

فتذرعنا بالحذر من الجرحى والأسرى ، وعبر تقدمها غربا لعدة أميال ، أبادت الوية السردار اعدادا ضخمة من الجرحى والأسرى . « أصدر السردار قبل معركة عطبرة منشورا يذكر فيه قادته وجنوده بالقوانين العالمية فى معاملة الاسرى . ولكنه امتنع عن اصداره قبل معركة امدرمان . »

ولو كان علينا ان نستمع لرواية شاهد العيان — ونستون تشرشل — والمؤلف الشاب ليس بصاحب مصلحة فى التحيز ضد الجيش الذى قاتل فى صفوفه — بل العكس هو الصحيح ، فتشرشل يذكر بالحرف الواحد (٢) : « واود أن أسجل

(١) اثار هذه النقطة ضجة كبيرة فى العالم الخارجى بعد ان كشف أمرها . وشغلت بال الصحافة العالمية بما أدى إلى مناقشة الموضوع فى البرلمان

Daily Telegraph 23/3/99

Daily Mirror 21/3/99

The Times 17/2/99

The British Mucecum — Collindale

وقد طلبت الملكة فكتوريا ايضا من كشر عن طريق لورد سالسبورى الذى سلم لكشر الايضاح ، وبالطبع أنكسر كشر ذلك الاجراء ولكنه اعترف صراحة باهماله فى معالجة الجرحى . اذ انه ترك الجرحى ليلا قوا مصيرهم دون ان تقدم لهم أى عناية طبية.

Telegraph of Lord Kitchener to Lord Cromer —

PRO./30/57/14. The British Pulic Records Office,

21 Chancery Lane

"I personally record, that there was a very general impression that the (٢) fewer the prisoners, the greater will be the satisfaction of the commandor".

Churchill Winston. *The River War* (1899), p. 195

هنا بما احسسته أنا شخصيا عن الشعور الطاغى وسط الحملة انه من دواعى سرور السردار ورضاءه أخذ أقل عدد من الاسرى « والمعنى واضح . ويستطرد المؤلف ويذكر ان الدعاية الضخمة التى سبقت الحملة والمركة أدت إلى تلك المجازر : « واثارت (١) مشاعرهم للدرجة التى دفعتهم للاعتقاد بأن آتيان ذلك الأمر الشائن عمل صحيح . فقد صورت لهم الاعداء كحشرات سامة لا تستحق ان تعيش . ونتج عن ذلك ان اعدادا كبيرة من الجرحى قتلوا بعد المعركة . »

ولقد قسم تشرشل الجرحى لثلاثة أقسام : القسم الأول أولئك الذين اعتبروا خطرين فى نظرهم . وطبعا كان هذا هو القسم الأكبر وقد تمت ابادته . والقسم الثانى كانت جروحهم جروحا خطيرة ومؤلمة فاييدوا رحمة بهم !!! ونرى هنا ان السردار اباح لنفسه الاجابة على سؤال فلسفى معقد باراحتهم من الآلام ! أما القسم الثالث فعلى الرغم من استسلامهم وتجريدهم من أسلحتهم ولم ينضوا تحت القسمين أعلاه فقد تمت ابادتهم أيضا .

« أما (٢) عن القسم الثالث فليس هناك شك أو جدال فيما تعرض له . فان اعدادا لا يستطيع حصرها بالضبط - تمت ابادتهم حتى بعد ان القوا بأسلحتهم وطلبوا الرحمة . ولقد استمعت وفحصت أدلة كثيرة تبرهن هذه النقطة . »

فى الثانية عشر ظهرا أمر السردار كل الحملة بالتوقف فى خور شمبات وعلى ضفاف النيل للاستراحة وتناول وجبة الغذاء . وفى تمام الثانية والنصف بدأ تقدم السردار لدخول أم درمان مع أنغام موسيقى الكتائب السودانية . توسط

(١)

“Had inflamed their passions, and had led them to believe that it was quite correct to regard their enemies as VERMIN, unfit to live, The result was that there were many wounded who were killed.”

p. 196

(٢)

“About the third class there can be no dispute, how many I cannot tell, were despatched, although they threw down their arms and appealed for quarter. I have examined and listened to a great deal of evidence on this point.”

p. 196

السردار كئاثب لواء المقدمة - لواء ماكسويل - مع سرية المدفعية البريطانية ومجموعة كبيرة من رشاشات المكسم .

سرعان ما اقترب ركب السردار من حائط امدرمان ليستقبل الجيش الغازي بعاصفة من الطلقات انطلقت من مئات ممن وقفوا خلف السور الكبير ، أجابت عليها البطارية ٣٢ والرشاشات بعنفها المعهود . ولما كانت نيران المدافعين توجه من مواقع جهزت على عجل ، فسرعان ما اسكتت .

إنعطف ركب السردار شرقا بجذاء الحائط نحو النيل بحثا عن منفذ للدخول ، وجدت الثغرة الكبيرة التي سببها قصف مدفعية الهاوترز من الضفة السرقية ، وقد سدتها قطع الأخشاب والأبواب والحجارة . واستمروا في التقدم شرقا إلى أن وصلوا للبوابة الكبيرة فحطمت ودخل منها السردار وبدأ تقدمه نحو قبة المهدي .

لتخذ السردار طريقه عبر شارع امدرمان الرئيسى - شارع الهجرة - وطول مسيرته جنوبا ، برز أمام الأعين منظرا واحدا ، فلم تشاهد عين غير الجثث والاشلاء ولم تسمع اذن غير انات الجرحى ، ولم تصعد للانوف رائحة غير رائحة الجثث المتحللة للانسان والحيوان ، ولكلا الجنسين ، ومن كل الأعمار ، وقد استلقوا فى شمس الظهر الملتهبه وهم فى الترع الأخير . كان ذلك حصاد ثلاثمائة دانه عيار « ٥٠ رطل » اطلقت نحو المدينة الخالية من الجنود فى يومى ٢٠١ سبتمبر . وفى الواقع لم يخل منزل واحد فى امدرمان فى ذلك اليوم من جرحى . وعندما بدأت ظلال المغيب تسدل استارها على المدينة الجريحه ، اندفع فارس ملثم مباشرة نحو الكولونيل سلاطين الذى تقدم نحوه مسرعا وباهتمام بالغ . أسر الفارس اليه بأمر ما فاسرع سلاطين ونقله للسردار . وسرعان ما سرى الخبر سريان النار فى الهشيم للصفوف الخليفه « الخليفة غادر المدينة » متى ؟ « قبل ساعتين » ، فى أى اتجاه ؟ « جنوبا » .

عين السردار الكولونيل برود وود لمطاردته بكل لواء الفرسان المصرى . وأسرع هذا وحشد سراياه بخيول متعبة وجنود أكثر تعباً ، وبعد استراحة قصيرة شق مدينة امدرمان جنوبا عبر ديم أبو سعد والفتيحجاب .

كان الطريق المحاذي للنيل مزدهراً بمئات ممن غادروا المدينة بعوائلهم وعدتهم فقفوا الطريق الرئيسى للجنوب . ولم يكن من الحكمة والليل يرخى سدوله شق طريقه وسط هؤلاء . فضرب برود وود مع ادلائه غربا داخل الصحراء لتفاديهم على ان يعود صباح اليوم التالى للنيل للملاقة باخرة التموين التى ارسلت لمتابعته وتموينه . حملت الباخرة بمؤونة أسبوع فلم يتمكن برود وود فى انطلاقتها السريعة من حمل مؤونة تكفى لأكثر من عدة ساعات .

سرعان ما وجد برود وود نفسه يتعثّر وسط المستنقعات بخيوله وفرسانه المتعبين ، كان الظلام حالكا والجياد منهكة ، فأوقف تقدم جنوده للمبيت فى العاشرة مساء . وتحرك فى الساعة الثالثة صباحا ليعود للنيل للملاقة الباخرة . وصلوا لنقطة مقابلة الباخرة ولكنها لم تصل وظلوا فى انتظارها طيلة النهار . وبعد ان وصلت ، كان الفاصل بين برود وود وفريسته قد امتد والأمل ضعيف فى اللحاق به . فكرر برود وود عائدا لامدرمان . وانتهت بذلك المحاولة الأولى من سلسلة محاولات مطاردة الخليفة .

أقام السردار رئاسته فى جامع الخليفة بامدرمان بعد ان زار بيت الخليفة واطلق سراح السجناء الأوربيين من السجن . ووزعت الويتة داخل سور الجامع الفسيح لمبيت ليلتها . ولم يقف إطلاق النار المتقطع داخل المدينة حتى اليوم التالى .

وفى صباح اليوم التالى . احضر عددا كبيرا من كبار الاسرى وهم جرحى ممن القى القبض عليهم ومثلوا أمام سلاطين . أمر سلاطين باعدام الأمير العريقى الربيع ورابع الحبشى ، وأبو قلب ، ودود وابراهيم الشاهر من امراء الملازمين . وأخذوا غرب امدرمان — فى مكان الاعدام « ميدان الربيع حاليا » !

وبعدها ايحت المدينة لمدة ٣ أيام — وقد اصدر السردار امره باباحة نهب غلال ومنازل الخليفة بواسطة الجنود وسرعان ما اختلط الحابل بالنابل وامتد إلى كل منازل الاهالى . وراح ضحيتها عدد كبير من المواطنين قتلوا على أبواب منازلهم وهم يندودون عن اعراضهم وأموالهم . كما اصدر السردار أوامره بهدم قبة المهدي .

كيف بدت أرض المعركة ، تلك المقبرة الكبيرة بعد ثلاثة (١) أيام ؟ كانت صفوف الجثث المتراسة تدل بالضبط على سير وتطور المعركة . امتداد جبل سركاب الشرقي وقد غطته جثث الكاراء عبر طريق ابراهيم الخليل الدموي ، أكوام من الجثث بفواصل ثلاثة ياردات بين كل جثة وأخرى تحت سطح الجبل عندما بدأت المدفعية فتكها . تزايدت كثافتها كلما تقدمت شمالا نحو الزريبة حتى المكان الذي فتحت فيه البنادق والرشاشات نيرانها حيث تكدست الصفوف ، وأحيانا ثلاث جثث فوق بعضها البعض ، فقد أحصيت ٤٠٠ جثة في قطعة من الأرض لا تزيد مساحتها عن مائة ياردة مربعة .

خطان طويلان من الجثث المكدسة يبدآن من كررى ومن سركاب ويلتقيان في البقعة التي كان يقف عليها لواء ماكدونالد، وازدادت كثافتها في البقعة التي ظلت الراية السوداء ترفرف عليها ، وشمالها تكدست الجثث التي اختلط فيها اللون القرمزي ، بلون الملابس البيضاء ، بلون الجياد الأصهب . هجمة فرسان دغيم . وفي سهول كررى ، كشف ضوء النجوم كل مساء عن جثث أبطال وقادة عسكريين عظام ، كللت اسمائهم هذه الصفحات أكثر من مرة ، يعقوب ، ود بشارة الشجاع ، الخليل ، عثمان أزرق ، أبو سوار ..

« وحيث سقط العدو لم تكن هناك مراسم الدفن والموسيقى ولا الاحتفالات التي تمجد عظمة الرجولة الصامدة . ولكنهم كانوا اشجع من مشى على وجه الأرض ، دمروا ولم يقهروا بقوة الآلة » (٢) .

والجرحى ؟ لقد ظلت شمس الصيف تسلط سياطها عليهم يوما بعد يوم ،

(١) انظر خريطة رقم (١٤) الثمن .

(٢)

But there was nothing *deluce et decorum* about the Deruish dead; nothing of the *dignity of unconquerable manhood*, yet *thhse* were as brave men as ever walked the earth, destroyed, not conquered by machinery.

Churchil

والعشرات تزحف بضع ياردات يوميا .. للنيل لتبتلع قطرة ماء .. والكثيرون لم يتمكنوا من الوصول أبدا فماتوا وأنظارهم ترنوا الماء النيل .

ولكن جزءا آخر من الجرحى رقدوا فى نفس أماكنهم تحت الشجيرات الصغيرة ووجدوا أحياء حتى بعد أسبوع من المعركة ، كيف استطاعوا ذلك ؟
نساء ام درمان (١) . لقد ظلت النساء فى شغل شاغل طوال تلك الأيام وهن يتسللن وقد تلفحن بالظلام كل ليلة ، لدفن الموتى ، وعلاج الجرحى ، يحملن الماء والطعام ، وكتمت الجبال الساكنة مرهن كل ليلة ، وهى تستمع لعويل الشكالى وهن يدفن موتاهن ، والحمس المتقطع عبر الدموع المتساقطة المترججة بماء الشرب ..

(١) تؤيد أوراق يوسف ميخائيل امتناع تشرشل من تسلل النساء كل ليلة من المدينة لارض المعركة لعلاج الجرحى ودفن الموتى فقد زار ارض المعركة بعد ٤ أيام ليدفن أحد زملائه فوجد كثيرا من النساء ضمنهن امرأة ناحية تبحث عن جثة عثمان أزرق لتدفنه فوقه معها مواشيا .
أوراق يوسف ميخائيل ص ١٢٦ .

نهاية المطاف

« مهما كانت نظرتنا للخليفة فانا لا نملك الا أن نمجب بميته الشجاعة . »

ونجحت

كان العاهل الطريد يحث بعيره على السير السريع وقد فارقه الذهول وعاد اليه التصميم وتوقد الذهن . لم يكن هذه المرة على رأس جيوشه الهائلة التي تقدم بها أمس وكله ثقة في النصر بل كان على رأس الثكالى واليتامى . لقد تغلب على شلل صدمته وأهوال اليوم العاصف بسرعة ، سيفعل مثل رفيقه عثمان دقته . سيعاود القتال ، وليست هذه نهاية كل شيء ، لينطلق غربا ويعيد تعبئة قوته ويبدأ كل شيء من جديد . فما زال هناك جيش أحمد فضيل في القضايف ، والختم موسى في الأبيض ، وعربى دفع الله في الرجاف . سيرسل اليهم لينضموا اليه وبعدها يقتحم ام درمان ويدخلها ظافرا كما فعل مع الامام قبل ثلاثة عشر عاما . كان حوله عدد من الامراء هم يونس الدكيم ، وشيخ الدين ، وعثمان دقته ، وعبد الباقي عبد الوكيل ، ويعقوب أبو زينب ، والصادق بن المهدي ، وعدد كبير من الملازمين الذين عادوا مع شيخ الدين بعد انضمامه له في ام درمان ، وخلفهم مجموعة كبيرة من النساء والاطفال يسرون على أقدامهم ، كانت هذه هي المجموعة الأولى التي سار على رأسها الخليفة ، وخلفها كانت تتجمع مجموعتان تأخرتا قليلا حتى يتم تنبيه العوائل .

خيم صمت لا يقطعه إلا وقع الاقدام والدواب المسرعة ، وعندما بدأت ظلال المغيب تغلف القافلة المسرعة ، شق السكون فجأة دوى انفجارات المدفعية وطققة الرشاشات . فقد إنكشفت القافلة كلها فجأة للبورج عندما تقدمت لعبور خور أبو عنجه (١) . لم يلتفت الخليفة إلى قصف المدفعية ، فقد كان المدى بعيدا ولكنه اثار الذعر والاضطراب وسط جموع النساء والاطفال الذين ساروا على أقدامهم .

(١) في مكان كوبرى أبو عنجة على شارع الأربعين حاليا .

سرعان ما أرخى الليل أستاره ، ليخفى تقدم القافلة المسرعة وعل رأسها الأمير أبراهيم مخير (من عرب الزيدية) الذى كان دليل الخليفة لنقطة المقابلة . استمرت القافلة فى سيرها لمدة ثلاثة أيام (١) ، عانوا فيها ضنكا شديدا وبدأ الأطفال والنساء يتساقطون وتورمت أقدامهم من السير المتواصل ، وفى عصر يوم الاثنين أشرفوا على ام غنيم حيث إنتظرتهم الجمال (٢) والخيول والمؤن فى حراسة عرب الزيدية . تهاكت القافلة المنهكة من السير المتواصل والجوع ، فأكلوا وشربوا ووزع النساء والأطفال على الجمال والأبقار للركوب ومكثوا يوما واحدا إلى أن انضم لهم الخليفة على ود حلو وهو لا يزال محمولا على عنق ربه أثر إصابة ساقه . ومن هناك أرسل للخيم موسى ولأحمد فضيل لموافاته فى أبو ركه : « فعلمك أيها الحبيب انا عنك سائلون ولك بالخير والبركة داعون ومازلت ملحوظا منا بعين الرضا ومزيد الاكرام لما أنت عليه من القيام بأمر الدين وبذل الهمة فيه جزاك الله عن ذلك خيرا وهداك سيرا وشكر مسعاك وحفظك وتولاك ثم نعلمك أيها الحبيب اننا بحمد الله تعالى فيمن معنا من الأنصار بخير وقد انخرنا عن الاعداء بعد حصول الحرب بيننا وبينهم إلى جهة دار الجوامعة بنواحي المحل المسمى بالغبشة فنحن الآن به فى أمن وأمان ومزيد اطمئنان وليس القصد من حضورنا فى هذه الجهة المذكورة الا التحيز عن الاعداء اخذا بالحزم والا فليس القصد ان شاء الله الا اعادة الكرة على الأعداء المخدولين ومحاربتهم حتى ينتصر الدين ان شاء الله تعالى ويهلك الكافرون . »

* * * * *

(١) ذكر لى السيد موسى يعقوب انه كان فى الثالثة عشر من عمه آنذاك ، وأنه لم يلق ولا لقمة طعام واحدة فى تلك الايام اذ كان يسير فى الدفعة الأولى التى صحبت الخليفة .

(٢) الواضح ان معلومات موسى يعقوب والفكى حامد الزملو تؤيد أوراق يوسف ميخائيل فى ان يعقوب دبر أمر الانسحاب من أم درمان . فقد كان معارضا للنهاية خوض المعركة فى أم درمان . وقد ذكر يوسف ميخائيل ان يعقوب أرسل كميات ضخمة من المؤن والجمال قبل المعركة فى الفاوشيه لنتظرهم هناك .

١ - أوراق يوسف ميخائيل . ٢ - أقوال الفكى حامد الزملو . شريط سجل رقم ٤ - الرماش . ٧١/٥/٢٣ .

تدافع سكان أمدرمان فى عملية خروج كبيرة "Exodus" وبالأخص أبناء الغرب
أما للعودة لمساقط رؤوسهم أو اللحاق بالخليفة . لقد جرهم الخليفة من أوطانهم
قسرا ، وهاهم يعودون إليها بعد عشرة أعوام .

كانت أبرز المجموعات التى خرجت من أمدرمان هى مجموعة الخليفة
شريف ومعه أبناء المهدي وأغلب الاشراف حيث مضوا مباشرة إلى الفاشوشيه .
تلتها مجموعة كبيرة من القور والرزيقات فى طريقهم مباشرة إلى دارفور ليلحقوا
بعلى دينار .

فى اليوم الخامس من سبتمبر بدأت المحاولة الثانية للحاق بالخليفة ومطارده
بقيادة عبد العظيم بك زعيم العباددة بقوة بلغ عدد أفرادها ٦٨٥ ، تكونت من
أخلاط القبائل ومعظمها من الهواوير والسواراب والجعليين . واستمرت المطاردة
إلى الشقيق . ولكن عبد العظيم قفل راجعا لأن جماله لم تستطيع اللحاق بالخليفة
فى اندفاعه السريع ، كما كان القاصل بينهما أكبر من أن يستطيع عبد العظيم طيه
بجماله المهككة (١) .

بعد راحة قصيرة لم تدم أكثر من يومين ، فارق الخليفة النيل الأبيض

(١) أوضحت المعلومات التى قدمها عبد العظيم أن الخليفة فى طريقه للأبيض . وتقدير الخليفة أن
اعداءه سيظفونوه ذاهبا إلى الأبيض جعله يغير اتجاهه إلى الجنوب ، إلى جبال النوبة المنبئة .
كما ألفت المعلومات التى قدمها عبد العظيم الضوء على الاعداد الكبيرة التى تجتمعت من القبائل المذكورة .

١ - الزيادة .

٢ - دغم .

٣ - كئانه .

٤ - النجم .

٥ - الحمر .

٦ - المجائين .

٧ - الشانخاب .

٨ - التمايشة .

٩ - الحمر .

١٠ - الرزيقات .

١١ - الهبانية .

١٢ - المسيرية .

واوضح فى تقريره ان هدفهم الاساسى من الانضمام للخليفة هو تقديمه نحو أوطانهم وانهم
سينتخلون عنه بمجرد وصولهم .

وضرب غربا في اندفاع سريعة لمنطقة جبال النوبة ، ليستجمع قواه من جديد ويجمع قلوبه متفائلا ببدء نضاله من جبل قدير ، نفس المكان الذي شهد انتصارات المهدية الأولى . زار قبر والده أولا في أبي ركبته حيث انضم إليه الختيم موسى بحامية الأبيض . كان وصول الختيم موسى (١) أول الغيث بالنسبة للخليفة ، وارتفعت معنوياته كثيرا . فحامية الأبيض على الرغم من صغرها كانت تضم جنودا لازالوا يحتفظون بولائهم وصلابتهم القديمة ، ولم تهزم أهوال المعركة التي قاسى منها بقية من كانوا معهم .

وبعد أن تجمع رجاله (٢) اتجه غربا إلى شركيلا حيث قرر أن يستقر هنالك ، وفي طريقه لشركيلا ، لم يقدر الكمية التي يحتاج إليها من الماء وهو يحتاز منطقة الجفاف القاحلة ، فتوفي كثيرون من العطش (٣) . وأخيرا وصل لشركيلا فأقام فيها حوالي الشهرين وأمضى تلك الأيام كلها انتظارا لأحمد فضيل . فلما لم يصل قرر الاستمرار في رحلته إلى أن يصل جبل قدير وسط جبال النوبة . غير أنه ترك العائلات في منهل السببانة ، وتحرك بالمقاتلين فقط . فلم يستطع التكهن بنوايا ملوك الجبال نحوه ، وفعلوا جاهره أهل جبل تقي بالعداء ولكنه استطاع التغلب عليهم وشق طريقه وسط الجبال جنوبا نحو قدير . وأرسل من هناك لمنهل السببانة لاستدعاء العائلات التي تركها في حراسة مائة مقاتل فقط من الملازمين ، وعند إقترابهم من خور قمرابه داهمهم فجأة عدد كبير - حوالي ألف مقاتل - من رجال الملك أبو رنيط وبادوا جزء كبيرا من الحرس . إلا أن أغلب النساء اختفين وسط الخور الكبيرة إلى أن وصلتهن نجدة الخليفة . فقد حملت الجبال أصدا دوى الرصاص ، فبعث لهم الخليفة ربعا بقيادة فضل الحسنة ثم لحقهم الخليفة وتمكن من استخلاص بعض النساء اللاتي سباهن رجال الملك أبو رنيط واستمر في رحلته نحو جبل قدير .

(١) من الصعب تحديد تواريخ تقلات الخليفة السريعة بالضبط في تلك الأيام . فإندام الوثائق من جهة والاعتماد من جهة أخرى على التواريخ والمعلومات الشفوية من رواية كانوا في سن المراهقة آنذاك أمر يصعب معه التأكد من صحة التواريخ .

(٢) قدر المؤرخ محمد عبد الرحيم عدد من توفوا بـ ٢٠٠٠ ذكر منهم الشيخ أحمد ود البارو عالم الفقه المشهور .

(٣) أنظر خريطة رقم ١٥ « إنسحاب الخليفة » .

وفي رحلته الشاقة جنوبا تعرض اكثر من مرة للاشتباك مع ملوك الجبال ،
خرج منها جميعا منتصرا . وآخرها كان في جبل جراده . فعندما اقرب من جبل
جراده ارسل الخليفة مبعوثا ليعرف نوايا سكان الجبل فبادروه بالحرب ، فاقترح
الجبال وصفى امرهم واقام نحو ٤٥ يوما في الجبل . ثم تحرك جنوبا الى ان وصل
جبل قدير حيث استقبله الملك بوش ملك جبل قدير بخفاوة وكرم أزالا كثيرا من
ارهاق الجسد ، ومرارة النفس . واستقر هناك مدة تقدر بثلاثة اشهر وبعدها عاد
لشركيلا .

* * * * *

أخيرا وصل أحمد فضيل - كبلوخر في واترلو - بعد سلسلة من المغامرات
العنيفة . فقد استجاب لنداء الخليفة بالانضمام له في امدرمان لحراسة الضفة الشرقية .
وفي طريقه لأمدرمان ، وبالقرب من رفاعه وقعت المعركة وعلم بالهزيمة . وسرعان
ما وصله مبعوثان من قبل السردار وسلاطين يحملان نبأ المعركة ويطلبانه التسليم .
ولكن أحمد فضيل ثار ثورة عارمة ورد بأن قتل أحد الرسل باعتباره خائنا ،
واعاد الثاني لسلاطين ليحمل لإجابته بأنه لن يستسلم وسيقاتل للنهاية .

بعدها غير إتجاهه وعاد جنوبا لعبور النيل الأزرق عند ثقائه بنهر الرهد ،
ليعبر غربا إلى الخليفة . وهناك وصله خطاب الخليفة - ولكنه عاد وقرر العودة
للقضارف فقد ترك جنوده عوائلهم وعدتهم في القضارف . ولكن الموقف في
القضارف كان قد تغير قبلا ، فقد سمع الكولونيل بارسونز بنتيجة معركة امدرمان
وقرر التقدم واحتلال القضارف وهي خالية . وبعد اشتباك عنيف خارج المدينة مع
الربع الذي ترك لحراستها بقيادة الأمير سعد الله تمكن بارسونز من شق طريقه
للمدينة ، حيث استسلم لهم الأمير النور عنقره بدون مقاومة .

احتل بارسونز المدينة وحصنها وانتظر أحمد فضيل الذي تقدم وهاجم
دفاعاتها ثلاثة هجمات عنيفة لم يكتب له فيها النجاح وفقد جزءا كبيرا من قوته
فضرب حولها الحصار وانتظر أن يرغمهم الجوع على التسليم .

وصلت أنباء الحصار للجنرال رندل في الخرطوم فقرر ارسال حملة ل فك
حصار القضارف ، عقد لواء قيادتها للكولونيل كولنسون . تكوئت من ثلاث

كتائب سودانية وكل سرايا المهجاة الثمانية . والحق بالحملة عنصر مدفعية البوارج المدرعة . ولكن أحمد فضيل أدرك أنه سينحصر بين نارين ، ففك الحصار وجمع قوته واتجه جنوبا ليعبر نهر الدندر منحرفا بلجهة الجنوب ، بدلا من ان يتجه غربا مباشرة ليتجنب البوارج التي ظن أنها لا تستطيع الوصول لذلك المدى .

فى السابع من نوفمبر عبر نهر الرهد بسلام وتقدم غربا إلى أن وصل لنهر الدندر فى بقعة تقابل كر كوج على النيل الأزرق . وتوقف هناك للاستكشاف .

ولكن الجنرال رندل أرسل قوة أخرى لاستعادة كل منطقة الجزيرة بقيادة الكولونيل لويس محملة على البوارج . كان تقدم الكولونيل لويس سريعا بحيث تحم اصطدامه بأحمد فضيل وهو يجاهد لشق أرض الجزيرة ليصل للنيل الأبيض ومنها للخليفة .

ولقد شهد الشهران اللذان تلا توقف أحمد فضيل على نهر الدندر مطاردة بين لويس وأحمد فضيل أشبه بالروايات البوليسية ، أحمد فضيل ووراءه النساء والأطفال بعد ان عبر الدندر يبحث عن نقطة مناسبة بعيدة عن مرمى البوارج ليعبر منها بجيشه الكبير ، مبتعدا عن النيل والبوارج وسط أحراش وغابات الدندر وهو يثنى يمنة ويسره مقتريا من النيل وهو مجبر للحصول على الطعام والشراب ، مبتعدا عنه وهو يتجنب البوارج . ولكن تقدمه دائما كان فى اتجاه الجنوب نحو الرصيرص ليتمكن من عبوره فى بقعة لا تصلها البوارج ، ولويس يتحرك ببوارجه تارة جنوبا وأخرى شمالا ، ويبعث بمشاته على طول الضفاف شرقا وغربا مستجيبا للاشاعات المضللة عن مكان أحمد فضيل (١).

وصل أحمد فضيل فى انعطافته الواسعة إلى الداخلة حوالى ٢٠ ميلا جنوب الروصيرص فى يوم ١٨ ديسمبر . وعبرت قواته المتقدمة النيل الأبيض بسرعة . ووقف على الشاطئ ليشرف على عبور النساء والأطفال قبل أن يصلهم العدو . وصلت الأنباء للويس الذى إنضم له الشيخ بكر على رأس ٤٠٠ رجل ، وأسرع هذا لمهاجمة أحمد فضيل ، بعد أن عزم على مهاجمة الجزء الذى لم يتمكن من العبور ولازال فى الضفة الشرقية أولا .

(١) انظر الخريطة رقم ١٥ : انسحاب الخليفة .

فاجأ لويس أحمد فضيل ونصف رجاله على الضفة الغربية ، والنصف الثاني على الضفة الشرقية وقد أقام دفاعا محكما في جزيرة الداخلة لتغطية عبوره . وبعد ان انضمت للويس بوارج المدفعية « الداخلة » و « الملك » تحمل تعزيزا من مائتي جندي ، بدأ الهجوم . وتطور المعركة ضارية من الثامنة صباحا حتى مغيب الشمس لاقتحام دفاعات أحمد فضيل ، تكبد فيها لويس ١١٧ جريحا . خلافا عدد كبير من رجال الشيخ بكر الموالين . وقتل ٥٠٠ من رجال أحمد فضيل واسر ٢٧٠٠ مقاتل ممن دافعوا داخل الجزيرة وعدة مئات من النساء والأطفال .

أفلت أحمد فضيل بالبقية الباقية واخرق الجزيرة في اندفاع سريعة . ولكن التعب والارهاق كانا قد اخذا من رجاله . وعندما تصدت لهم قوة كبيرة مرسلة على البارجة المتمة في الرنك في يوم ٢٢ يناير ، استسلم عدد كبير منهم ، وقنع أحمد فضيل بتصميمه المعبود بعبور النيل الأبيض على اطواف صغيرة من الطرور ومعه ثلة من الرجال لا تتجاوز ثلاثون رجلا . حيث التحق بالخليفة في دار الجوامعة في شركيلا .

* * * * *

بدأت المحاولة الثالثة للقضاء على الخليفة يوم ٢٩ ديسمبر حين جهزت قوة مختلطة بقيادة الكولونيل كشنر (١) وأمرت بالتقدم ومهاجمة الخليفة في كردفان باعتبار ان القوة المتوافرة تحت يد الخليفة لا تتجاوز ١٠٠٠ مقاتل . تكونت الحملة من الوحدات التالية :-

سريتين خيالة مصرية .

الكتيبة الثانية المصرية .

الكتيبة الرابعة عشر المصرية .

٢ مكسيم .

٢ مدفع .

سرية هجانة .

١٦٠٠ جمل لحمل مياه الشرب .

(١) شقيق السردار

كانت المشكلة الأساسية التي سبواجهها الكولونيل كشنر هي الحصول على مياه الشرب وهو يشق طريقه عبر كردقان في زمن الجفاف .

فارقت الحملة النيل يوم ٢٣ يناير من كوهي بعد ان بعثت بجماعة متقدمة لاحتلال منطلق الوثبة التالية - آبار جديد . وبعدها شقت الحملة طريقها للجنوب الغربي وسط اشجار متزايدة الكثافة كلما تقدموا غربا . كان تقدم الحملة منهكاً للغاية واشبه بتقدم هكس في الطريق نفسه قبل ستة عشر عاما . فقد كانت تعليمات قائد الحملة صارمة للغاية فيما يختص بالاقصاد في استخدام المياه . كما كان التقدم وسط أرض قاحلة لم يصادفهم فيها من مظاهر الحياة الا أشباح من السكان الجياع يتحركون في أرجائها .

وعند وصولهم لجديد وجدوا أغلب مياه الآبار آسنة وغير صالحة للشرب . أقاموا ثلاثة أيام في جديد واستأنفوا السير يوم ٢٦ نحو أبو ركة حيث أمضوا ليلتهم حول كوخ القش الذي بنى لاقامة الخليفة عند زيارة قبر والده كعادته .

استجوبوا أحد السكان فأخطرهم ان الخليفة زار قبر والده في أبو ركة ثلاثة مرات ، إلا ان مقره الحالي هو شركيلا غربا . تحركت الحملة نحو شركيلا يوم ٢٨ يناير ، وعندما اقتربت من العقيلة استقبلوا بمشهد اثار الدهشة ثم الفرع - فقد وجدوا امامهم مدينة كاملة بشوارعها وأزقتها المخططة المستوية المستقيمة موضحة ان ولع الخليفة بالنظام الدقيق لم يفارقه حتى في أيام يأسه ، إلا ان الاعجاب سرعان ما تحول إلى ذعر عندما سرح بصرهم لمتابعة امتدادها لبضعة أميال . أوضح عدد الاكواخ الخالية ان سكان هذه المدينة لا ينقص عن عشرة آلاف وان عدد المقاتلين لا ينقص عن ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ مقاتل .

بانت الحملة الليلة في معسكر العقيلة وفي صبيحة اليوم التالي بعثت بعناصر استكشاف للتقدم نحو معسكر الخليفة في شركيلا . زحف الفرسان للأمام وسرعان ما تم الاتصال بعناصر العدو المتقدمة . وعندما تجاوزها واقتربوا من شركيلا ووجدوا الخليفة يقف مستعدا لهم ، شاهدوا منظرا مصغرا للمشهد الذي اصطدمت به أعين الرماحة في ضحى واحد سبتمبر ، الرايات المرفرفة والمواجهة العريضة من حملة البنادق الذين تجاوز عددهم ٢٠٠٠ مقاتل ، وخلفهم عدد ضخم لم

يستطع الفرسان حصره من حملة السلاح الأبيض .

سارع الفرسان بقيادة الميجور متفورد بالانسحاب للخلف وتبليغ الكولونيل بما شاهدوه مؤكدين ضخامة الاعداد التي دل عليها معسكر العقيله .

كان ذلك فوق طاقة قائد الحملة الذى تقدم نحو الخليفة وهو يظن أن قوته لا تزيد عن الف مقاتل . كما كانت أوامر السردار للكولونيل كتشنر واضحة ، أما أن يهاجم ، أو يعود فوراً — وان لا ينتظر دقيقة واحدة خوفاً من تكرار مأساة شيكان .

استدارت الحملة شرقاً عائدة أدراجها . كان الانسحاب شاقاً ومؤلماً ، فالهبة التي سادت الانسحاب وسط الأشجار الكثيفة ، وتوقع هجوم الخليفة كل لحظة ، وقلة المياه والعطش المتزايد ، ومناظر الجوع والجثث التي ملأت طرق الأرض القاحلة اذا أضيف اليها الاحساس بالخيبة والفشل ، جعلت رحلة العودة ثقيلة على النفوس والاجساد . وعندما شاهدت أعين الكولونيل كتشنر مياه النيل الأبيض العريض ، وقد القت البوارج مراسيها للعودة به لم يصدق عينيه . وانتهت بذلك المحاولة الثالثة الفاشلة للقضاء على الخليفة .

* * * * *

كيف أمضى الخليفة عامه الأخير ؟ كان عام ١٨٩٩ عاماً ثقيلاً الوطأة على الخليفة ، وهو يمضى أيام أفول نجمه في نفس المنطقة التي شهدت بزوغه . أمضى الخليفة أغلب أيامه في زيارة الغار الذي كان يتعبد فيه المهدي في قدير منقطعا عن العالم في خلوات طويلة تمتد لأيام . ومن شركلا زار غار المهدي في قدير ثلاثة مرات . كما كان يزور قبر والده في أبي ركب وشيد كوخاً صغيراً يمضى اليه منفرداً .

أما فيما عدا ذلك فقد أمضى معظم أيامه في ادارة وتوجيه الحملات الخاطفة بقيادة أحمد فضيل أو الملك بوش ملك جبل قدير أو الختيم موسى . كانت العادة أن يبعث بالطيب ود العربي أحد محافظي أم درمان السابقين إلى ملوك الجبال طالباً التمويل بالذرة ، فان رفضوا وجه نحوهم حملات تأديبية بقيادة الختيم أو أحمد

فضيل - وعندما انسحب الختيم موسى لما شهد من استعداد وقوة لا قبل له بمواجهتها
جهزها لهم ملك جبل لوقان ، قرعه الخليفة تقريبا عتفا وأوضح لهم ان انسحابهم
سيقوى من عزيمة ملوك الجبال .

الواقع ان تدبير الطعام لسكان المعسكر كان يشغل حيزا كبيرا من نشاط
الخليفة . اذ أمضوا أغلب شهور تلك السنة فى شبة مجاعة دائمة . لا سيما وان
اعداد النساء بالقصر كانت تتجاوز الالوف . وقد حدثنا من غاصر تلك الفترة
عن الأهوال التى قاسوها ، وشناعة المجاعة التى واجهوها ، حتى انهم كانوا يخلل
الشهور الطويلة لا يجدون حبة ذرة فى بعض الاحيان .

وعلى الرغم من وجود كثير من المخلصين حول الخليفة ، فان ذكريات
المعركة الزهية التى فقد فيها معظم جيشه وأقرب الاقربين اليه ظلت تلازمه طول
الوقت . وزاد من آلامه الاخبار المتواترة عن تداعى باقى سلطته ، وعن المطاردة
والتقتيل الذى تعرضت له عشيرته على يد الأمير أبو دقل الذى كان يتعقب التعايشة
أينما وجدوا . كما كان وجود على دينار فى دارفور سدا منيعا فى وجه الخليفة
لجهة الغرب ، ومرور البوارج المتواصل على النيل الأبيض أقام سدا فى وجهه من
من ناحية الشرق . فانهصر فى كردفان . وبعث مرتين للخليفة محمد شريف
الذى تخلف فى جزيرة أبا راجيا اباه الانضمام له ومعه أبناء المهدي ، غير ان
الخليفة شريف رفض طلبه . وحاول من حوله التخفيف عنه دائما . وقد ظل هؤلاء
معه للنهاية :-

على ود حلو

عثمان دقنه

يونس الدكيم

عثمان شيخ الدين

أحمد فضيل

الأمير اسماعيل أحمد

على الجله

أبو جكه

عبد الباقي عبد الوكيل .

هارون شقيق الخليفة .

فضل الحسنه ..

بشير عجب الفيه .

يعقوب أبو زينب .

حامد على .

الصديق بن المهدي .

وعندما اقرب فرسان الكولونيل كتنر من معسكر الخليفة ، شاهدوا اعداد ضخمة كانت تتجاوز العشرة آلاف شخصا ، ولكن ذلك كان في يناير . ومع تعاقب الشهور وازدياد المجاعة بدأت أعداد كبيرة في الانقضااض من حول الخليفة عائدة لأوطانها . وكان هو يسمح لهم دائما بذلك مخيرا اياهم بين البقاء معه أو العودة لديارهم ، بعد أن بدأ اليأس يتطرق اليه عقب انضمام أحمد فضيل بدون جيشه ، فقد كان يعول على قواته املا كبيرة . وعندما حل شهر نوفمبر وسير ونجت حملته الأخيرة نحو الخليفة ، لم يكن حوله إلا نحو ٣٠٠٠ مقاتل فقط .

في أواخر أكتوبر إنتشرت في أسواق وأزقة أم درمان شائعات غامضة عن تحرك الخليفة ، وعن أسلحة مجهزة مدفونة في أم درمان استعدادا لتفجير الثورة من جديد مؤازرة له . توالى التقارير لشعبة الاستخبارات عن تأهب سكان أم درمان والقرى المجاورة لبدء الثورة من جديد . ساد الجو المتوتر المشحون بالشائعات المدينة ، وأخيرا تبلورت الشائعات في أنباء مؤكدة : الخليفة يتقدم ، ليس ليتوارى في أحراش كردفان ودارفور .. بل يتقدم نحو أم درمان .

ففى أوائل نوفمبر دفع الخليفة بأحمد فضيل على رأس قوة متقدمة للحصول على الأطعمة اللازمة لبدء التقدم . واصل أحمد فضيل طوافه لجمع المحاصيل إلى أن أشرف على ضفاف النيل فاصطدم بأحدى البوارج ، وتبادل معها إطلاق النيران ومن ثم كر عائدا لينضم للخليفة ، وتأكدت اشاعة تقدم الخليفة .

فى عشرين أكتوبر . وقبل مغادرة الخرطوم للقاهرة أصدر السردار

تعليماته بتجهيز الحملة الرابعة للتوجه لكردفان والقضاء على الخليفة .
أوكلت قيادة الحملة للكولونيل ونجت رئيس شعبة المخابرات وتكونت من
الوحدات التالية :

١ سرية خيالة مصرية .

٦ سرايا هجانة .

سرية المدفعية الثانية .

سرية مكسيم .

مدافع مكسيم محمولة على الخيول "Gallop Maxims"

لواء مشاة تكون من :

الكتيبة السودانية التاسعة .

الكتيبة السودانية الثالثة عشر .

كتيبة سودانية من الغير نظاميين .

عناصر من فرسان القبائل .

على ان تتجمع كل القوة في كاككا على النيل الأبيض ، ٣٨٠ ميل جنوب
الخرطوم .

في الساعة الرابعة من صباح ٢١ نوفمبر ١٨٩٩ ، فارق الكولونيل ونجت
النيل من الفاشوشية واتجه غربا على رأس ٣٧٠٠ رجل في اندفاع سريعة للحاق
بالخليفة في قدير قبل أن يتوارى مرة أخرى في جبال النوبة .

أمضت الحملة جزءا من الليل على بعد خمسة أميال جنوب الفاشوشية
وواصلت التقدم على ضوء القمر خلف ستار من الفرسان إلى نفيسة حيث تلقى
ونجت معلومات مؤكدة عن وجود أحمد فضيل في نفيسة ، وهو يحمل كميات
وافرة من الذرة في طريقه للمعسكر الخليفة .

وقبل فجر الثاني والعشرين تحركت كل القوة بتشكيل الاقتحام نحو نفيسة ،
وعند اقتحامها وجد المعسكر خاليا . أوضح استجواب الشخص الوحيد الذى عثر
عليه ان أحمد فضيل تحرك أمس إلى ود عادل على مسافة خمسة أميال . سارع

ونجت وبعث بكل قواته الراكبة تعززها بطارية المكسيم ومدفعان إلى أبو عادل على أن يلحق بهم بمشاته فورا .

تقدمت القوات الراكبة واحتلت هضبة مرتفعة تشرف كل معسكر أحمد فضيل ومع أول خيوط الفجر فتحت نيرانها .

جمع أحمد فضيل قواته بسرعة مستترا بالأشجار والحشائش ، وبشجاعته وتصميمه المعهود ، هجم عدة هجمات عنيفة ، ولكن نيران الرشاشات والبنادق أوقفتها على بعد ٥٠ ياردة من صفوف الفرسان . وعندما جمع قواه للمرة الأخيرة وهجم هجومه الرابع كان كل مشاة الحملة قد وصلوا وعززوا الفرسان والمهجانة المترجلين فاستطاعوا صدّه بسهولة .

فقد أحمد فضيل ٤٠٠ رجل وبعدها انسحب لينضم إلى الخليفة في أم دبيكرات . عثر ونجت على كميات كبيرة من الجيوب . وأفاد استجواب الأسرى أن الخليفة في الحمرة على مسافة ثلاثة أيام من أبو عادل وأنه سيتقدم نحوه من جديد حيث كان من المقرر أن ينضم له أحمد فضيل حاملا المؤن ليبدأ التقدم شمالا نحو أم درمان .

كان على ونجت أن يتخذ قرارا هاما : أما أن ينتظر الخليفة ، أو يتقدم لاحتلال آبار جديد حارما الخليفة من مصدر الحياة الوحيد في تلك المنطقة ، ولكن المخاطرة تكمن في أن الخليفة قد يسبقه لا حتلالها ، وبالتالي يحرم ونجت منها ويضطر لاحتحام الآبار في ظروف قد لا تناسبه اطلاقا . فقرر ونجت أخيرا أن يخاطر ويتقدم نحو جديد .

في منتصف ليلة ٢٣ نوفمبر تقدمت الحملة نحو جديد ، ووصلها بعد سير متواصل في الساعة العاشرة من يوم ٢٤ ، فاحتلت الآبار ، وتنفس ونجت الصعداء ، وفي جديد عثروا على رجل كان قد ترك معسكر الخليفة ، وأوضحت المعلومات التي قدمها أن الخليفة يعسكر بكل قواته في أم دبيكرات على بعد سبعة أميال . أكد استكشاف سريع بالخيلة نحو معسكر الخليفة صحة هذه المعلومات . وبعد راحة قصيرة أمر ونجت كل الحملة بالتقدم نحو أم دبيكرات . بدأ التقدم سعت

١٢٢٠ .

ليس هناك تفسير للدوافع التي حدثت بالخليفة لترك مكمنه الحصين في جبال النوبة والتقدم نحو أم درمان مهاجما إلا رغبته في خوض معركة يائسة أخيرة، أما أن يحقق فيها نجاحا أو يموت مبة كريمة . فتقدمه على رأس ٤١٥٠ رجل لمهاجمة أم درمان . والطريقة التي جدد فيها البيعة للراغب في الاستمرار معه وعدم حرصه على حشد أكبر عدد ممكن . بل تشجيعه لكل من لا يرغب في القتال على ترك صفوفه ، وأخير اختياره لمبته الشجاعة بتلك الطريقة ، توضح ان قراره كان قرارا قديرا أملاه اليأس وليس الأمل في استعادة سلطته . عكس ما يبدو في الظاهر من ان فشل الحملات الثلاث التي وجهت نحوه بعد ام درمان قد شجعت وقوت من عزيمته في أخذ المبادرة والتقدم نحو أم درمان .

وقد أقام الخليفة في أم ديكبرات مدة لا تتجاوز أسبوعين في انتظار أحمد فضيل . وفي صبيحة يوم ٢٣ سمع الخليفة دويا بعيدا متواصلا . فجمع قوته وانتظر قلقا . وسرعان ما وصل أحمد فضيل مع كوكبة من رجاله وملابسه ملطخة بالدماء وأعطى تقريرا سريعا عن المعركة التي فقد فيها ثلاثة أخماس قوته ، موضعا قوة العدو ونواياه .

أرسل الخليفة رواد استطلاع من الفرسان بقيادة على الجلة للاستكشاف وتحديد مكان العدو بدقة أكثر .

عاد على الجلة قبل المغيب وأوضح ان العدو قد احتل آبار جديد .

كان الطريق للشمال مقفولا أمامه بواسطة ونجت ، وكان الشرق محرما عليه بالبوارج على النيل الأبيض ، أما إنسحابه للجنوب فقد كان استحالة عملية بعد احتلال العدو لمصدر المياه الوحيد في المنطقة . فأتخذ الخليفة قراره بأن يقف وقفته النهائية ويتنظر في أم ديكبرات .

جمع الخليفة كل من كان في المعسكر ووقف فيهم خطيبا :

« أنتم كنتم معي طوال المصارعة العنيفة بيني وبين العدو . وقد خسرت أكثر من نصف جيشي في أم درمان . وقد قررت مقابلة العدو والاستشهاد هنا ،

وانا احللكم جميعا من بيعتى ، ومن اراد الخروج الآن قبل هجوم العدو فليفعل
وانا عافى وراضى عن الجميع .

ثم توسط الحلقة ، وأمضى أغلب الليل جالسا يتقبل البيعة الجديدة على دوى
النقارة والنحاس اللذين وصل دويهم المكتوم إلى آذان ونجت وهو يتأهب للتقدم
نحو الخليفة من آبار جديد .

رددت أكواخ القش التى أحاطت بقرية أم ديكبرات الصغيرة ، أصداء
الطبول ، وغطت الأشجار والحشائش الطويلة كل المنطقة لمسافة ميل ونصف
غرب الدير حيث نهض تل متوسط الارتفاع بلغ طوله نحو الميل يكشف من مكان
عليه ميدان ضرب نار لمدى ٥٠٠ ياردة .

تقدم الخليفة نحو هذا التل قبل الفجر بأكثر من ساعتين وأقام رئاسته فى
المنخفض فشاهد تقدم ونجت أمامه مباشرة على بعد ٢٠٠ ياردة . فى الميول الخلفية
لأتل اصطف حملة السلاح الأبيض « ٢٠٠٠ مقاتل » وعلى بعد ٣٠٠ ياردة يسار
هؤلاء اصطف حملة البنادق من الملازمين فى جبهة عرضها ٤٠٠ ياردة . تولى
القيادة الفعلية الأمير أحمد فضيل متوسطا الاصطافين . تولى قيادة حملة البنادق
الأمير عبد الباقي عبد الوكيل ، بينما تولى قيادة السلاح الأبيض الأمير بشير عجب
الفيه وعثمان دقنه (١) .

جلس الخليفة على صهوة جواده ، وحوله الخليفة على ود حلو ويعقوب أبو
زينب ، والصدى بن المهدي ، وشقيقه هارون .

أما ونجت فقد نشر ستارة من سرايا الفرسان فى الأمام وعززها بمدافع
المكسيم الراكبة ، بينما حمت سرايا المهجانة الاجناب ، وعلى الرغم من ضوء القمر
الذى غمر الأرض الا أن العملية الليلية تعثرت كثيرا لكثافة الأشجار على جانبي
الطريق ، مما اضطر قوات ونجت لاستخدام السكاكين الكبيرة لشق طريقهم .

فى سعت ٣٤٠ . وعلى بعد ثلاثة أميال من معسكر الخليفة « الدير » اتخذت
الحملة تشكيل القتال فى جبهة عرضها ٦٠٠ ياردة .

(١) أنظر خريطة رقم ١٦ معركة أم ديكبرات .

فى سعت ٣٤٥ . وصلت الخيالة ومدفعية المكسيم إلى أسفل المنحدرات
الأمامية للتل . تقدمت باقى القوة فى صمت تام خلفهم مستترين بالحشائش الطويلة ،
إلى أن وصلوا إلى التل حيث توقفوا ورددوا على الأرض . وسحب الخيالة للخلف
لانتظارا لضوء الفجر .

شاهد أحمد فضيل تقدم العدو مباشرة نحو الفراغ بين حملة السلاح الأبيض
وحملة البنادق فأمر حملة البنادق بالتحرك لليمين لسد الثغرة . أحس ونجت
بالحركة . وقبل بزوغ الفجر بدقائق فى سعت ٥٠٥ . أمر ونجت كل عناصر
نيرانه من مدفعية ورشاشات وبنادق مشاه بفتح نيرانها خشية هجوم الخليفة عليه
قبل ضوء الشمس . وذلك ما انقذ موقفه إلى حد بعيد . فقد ثبت الملازمون لنيران
العدو وردوا عليها بنيران ثقيلة متواصلة من بنادقهم تمهيدا لاقتحام السلاح الأبيض
ولكن نيران العدو كانت مؤثرة حتى فى الظلام فالمدى كان قريبا . وبدأ جنود
الخليفة من حملة السلاح الأبيض يتساقطون . ومع أول ضوء وبصيحة واحدة
اندفع حملة السلاح الأبيض للأمام . الا ان النيران المتواصلة تمكنت من حصد
أغلب صفوفهم . وعندما ازداد الضوء قليلا وجه ونجت نيرانا ساحقة نحو الملازمين
أوقفت تقدمهم . وبعدها أمر كل جنوده بالتقدم نحو الدبم تحت غطاء من نيران
المكسيم وهم يدفعون امامهم حملة البنادق الذين تقهقروا للخلف وهم يطلقون
بنادقهم بنبات .

وخلف حملة السيوف وفى مواجهة الكتيبة التاسعة إنكشفت فى ضوء الفجر
ثلة من الرجال وقد ترجلت عن جيادها وجلس أفرادها على الأرض . فوجهت
الرشاشات من أعلى التل نيرانا حاصدة عليهم ، بينما تقدمت نحوهم الكتيبة التاسعة
وهى تطلق نيران بنادقها . وسرعان ما ابيدو جميعا . كانت تلك الثلة هى رئاسة
الخليفة .

.. ..

شاهد الخليفة النيران التى أبادت الصفوف من أمامه . وعندما بدأ تقدم
العدو أمر كل امرائه بالترجل عن جيادهم وافترش فروته على الأرض وجلس
عليها واتجه للقبلة . جلس الخليفة على ود حلو عن يمينه ونادى أحمد فضيل الذى

كان مشغولا باعادة تجميع رجاله وأجلسه عن يساره وجلس خلفه بقية من كانوا في رثاسته ، وعندما وجهت نيران الرشاشات من أعلى التل ، وقف اب جكه امام الخليفة محاولا ستره بجلبابه من الرصاص المتطاير فأصيب وسقط أمام الخليفة فأخذ الخليفة رأسه ووضع في حجره ، فحاول أحمد فضيل إبعاده من الخليفة فمنعه الخليفة مؤنبا « أب جكة شالني اربعتاشر سنه انا ما اشيله يوم استشهاده . » أصيب الخليفة في ذراعه الأيسر فستر الجرح وغطى الدماء النازقة بيده اليمنى ، وعندما بدأ مشاة الكتيبة التاسعة في التقدم نحوهم لم يطلق الخليفة على ود حلو صبرا فاستل سيفه ووقف ليتقدم لمواجهة العدو وهو يطلع ، فصاح فيه الخليفة أمرا بالجلوس . وكانت تلك آخر كلمات نطق بها ، فقد أصيب بعدها بثلاثة طلقات في صدره اخترقت احداها قلبه .

وفي الساعة الخامسة وأربعون دقيقة في يوم ٢٤ نوفمبر ، ومع الخفقات الأخيرة لأنفاس الخليفة المتلاشية ، تلاشى نهائيا ورسميا آخر مظهر من مظاهر السودان المستقل . وتمت التصفية النهائية للثورة المهدية ، وانطوت بذلك صفحة (١)

(١) يصف تقرير ونجت الرسمي الذي كتبه بعد دقائق من تلك الاحداث وأرسله زافا للخرطوم نيا استشهاد الخليفة لحظاته الاخيرة كما استقاهها من يونس الديكيم .

Seeing his followers retiring he made an ineffectual attempt to rally them, but recognizing that the day was lost he had called on his Emirs to dismount from their horses, and seating himself on his "Furwa" or sheep-skin, as is the custom of Arab chiefs who disdain to surrender- he had placed Khalifa Ali Wad Hilu on his right arm, Ahmed Fedil on his left, whilst the remaining Emirs seated themselves round him, with their body-guard in line some 20 paces to their front. And in this position they had unflinchingly met their death. They were given a fitting burial under our supervision by the surviving member of their own tribesmen.

وعندما احس انه قد فقد اليوم ، أمر امراءه بالتراجع من جياهم ، وأجلس نفسه على فروته كمادة زصاء العرب الذين لا يقبلون الاستسلام ، وأجلس أحمد فضيل عن يساره والخليفة على ود حلو في يمينه ، وجلس بقية الامراء حوله بينما اصطف حرسه الخاص على بعد عشرين خطوة أمامه . وفي ذلك المكان ، وبشبات وبدون ان ترمش اعينهم ، واجهوا الموت وقام أفراد عشيرتهم بدفنهم دفنا يليق بمكانتهم تحت اشرافنا الشخصي .

Col. Wingate Report to the Sirdar - 25th. Nov. 1899 WO/32/6143
Public Records Office Chancery Lane, London.

مضيئة من تاريخ الانسانية ، يقف العقل والقلم أمامها عاجزا عن تصوير وحصر الافاق العريضة التي ارتادتها ، والآلام والآمال التي فجرتها . وبينما كان ضوء شمس ذلك اليوم يزداد بين لحظة وأخرى . بدأ نجم دولة الأمجاد في الافول تاركا الافق لعهد آخر . وتجمعت كل تلك السنوات التي كانت دائما حلي بالنور والنور ، بالأمجاد والجراح في لمحة صغيرة كطرفه عين ، أو كوهج أعشى الأبصار ثم اختفى . وفي تلك البقعة الصغيرة من الأرض تجمعت أجساد رجال مثلوا نهاية صف طويل من الأبطال الذين سقطوا بعد أن صنعوا دولتهم ، وضعوها في القلوب أولا ، ثم بنوها على أسنة الرماح .

* * * * *

سقط من جنود الخليفة ١٠٠٠ مقاتل بين قتيل وجريح ، وأسر ٣١٥٠ مقاتل و ٦٢٥٠ من النساء والاطفال .

وتوفي عدا الخليفة عبد الله والخليفة على ود حلو . هؤلاء الامراء :

الأمير أحمد فضيل .

الأمير بشير عجب الفيه .

الأمير حامد على .

الصدیق بن المهدي .

هارون محمد - شقيق الخليفة (١) .

وأسر المذكورون بعد :

شيخ الدين .

الأمير يونس .

الأمير على فرفار .

الأمير الختيم موسى .

الأمير اسماعيل أحمد .

الأمير فضل حسنه .

(١) ذكر ونجت في تقريره خطأ أن يعقوب أبو زينب وعبد الباقي عبد الوكيل كانا ضمن القتل . توفي يعقوب أبو زينب عام ١٩١٢ وتوفي عبد الباقي بعد عام ١٩١٠ .

وأفلت عثمان دقنه وانطلق شرقا .

وأبطال روايتنا : أو ما تبقى منهم ، ماذا فعل بهم الزمن ؟

نجح عثمان دقنه فى الانسحاب من معركة أم ديبكرات فى اللحظة الأخيرة قبل ان تتمكن الكتيبة السودانية التاسعة من الاحاطة برئاسة الخليفة ثم بالديم . وبسرعته المعهودة تمكن من الوصول للنيل الأبيض وعبره فى الظلام بالقرب من الدويم واخترق الجزيرة فى اندفاعه سريعة وواصل تقدمه واغلبه ماشيا إلى أن وصل شواطئ البحر الأحمر حيث ظل محتضيا فى أحد كهوف الجبال انتظارا لسمبوك يبحر به إلى الجزيرة العربية .

وقد أواه أحد مقاتليه القدامى وترك معه خادما وكلبا لتحذيره . ولم يعلم بمكانه شخص غيره . وفى تلك الأثناء كانت سلطات الاحتلال قد قلبت الأرض بحثا عنه وخصصت جائزة مالية لمن يدل عليه حيا ام ميتا . فبعث الرجل ابن أخيه ليبلغ للسلطات عن مكان دقنه ، ان كان خوفا أم طمعا . فجهزت قوة مسلحة رافقت الرجل لمخبا دقنه واحاطت بالكهف . وكان الخادم يعد فى الطعام ودقنه مضطجعا يقرأ فى مصحف عندما سمع نباح الكلب . فسأل الخادم الذى أوصاه سيده من قبل ، فاجابه بان الكلب ينبح فى بعض قطعان الماشية المارة وعاد دقنه قراءته ، ثم فوجيء بدخول الجنود عليه ، والقى القبض عليه فورا . وبينما كان الجنود يقيدونه بالسلاسل ، لم يعرفهم التفائلا بل التفث لصديقه الذى وشى به وقال له بمرارة قوله التى أصبحت مثلا :

« ود على انا انقبضت عليك ماتكون بعثنى رخيص »

اما عثمان شيخ الدين فقد اخذ للسجن برشيد وتوفى عام ١٩٠٠م بالغرغرينه بعد تسمم الجرح الذى اصاب به اثناء المعركة . ويؤكد من كانوا معه من الاسرى ان الجرح كان جرحا عاديا وبدأ يتمائل للشفاء ولكن علاجه اهمل عمدا لاسباب معينة . كما توفى محمود ود احمد عام ١٩٠٦ اثر مرض طويل . وتوفى معظم الأسرى من عشيرة الخليفة عبد الله فى سجن رشيد وعددهم تجاوز الالوف بالسل

الرثوى نتيجة لبرودة الجو وسؤ التغذية ، واغلب من توفوا كانوا من النساء والاطفال . وبعد وفاة يعقوب ابو زينب لم يبق حيا الا الامير يونس الدكيم ، فقد عاد لامدرمان وعمر طويلا وتوفى عام ١٩٣٦ .

اما الخليفة محمد شريف فبعد انسحابه لامدرمان استقر بالجزيرة ابا فترة من الزمن ثم سمح له بالاقامة فى الشكاية ، احدى القرى المناخمة لسنار . وقد وصل بلاغ كاذب لسلطات الاحتلال بان الخليفة محمد شريف يقوم باستعدادات لاشعال الثورة من جديد ، وان اتباعه يكسسون الاسلحة . فتحرك الكولونيل لويس حاكم المنطقة وحاصر المنزل ولم يكن هناك بالطبع اى اثر يبرر صحة الادعاء فقد كانوا يمضون حياة وادعة عادية . ولكن لويس امر بقتل الخليفة شريف وكل ابناء المهدي ولم ينج منهم الا اثنان .

استراتيجية الخليفة

« الحرب خدعة »

محمد صلعم

ونحن نتناول معركة امدرمان بالتحليل والتقييم ، ومن خلفها كل حملة السردار ، على ضوء مقاييس محددة للنشاط والفعاليات العسكرية ، سواء في نطاق الاستراتيجية (١) العليا ، أو الاستراتيجية أو تكتيك الخليفة أو النواحي الادارية ، سنجد أنفسنا نتعامل مع أسس ومقاييس تتداخل في بعضها البعض ، وتؤثر كل منها على الأخرى تأثيرا مباشرا . وان كان هذا مبدأ وظاهرة عامة عند كل محاولة لدراسة أو تحليل المعارك والحملات العسكرية ، إلا اننا سنجدها في هذه الحالة - معركة امدرمان - وهي أكثر وضوحا .

فالخليفة مثل احدى تلك الحالات النادرة في التاريخ الحديث . مثله في ذلك مثل نابليون وفرديريك . فلأنه كان رأس الدولة ، أصبح هو المخطط للاستراتيجية العليا لبلاده لسنوات طويلة ، وبصفته قائدا عاما والمهيمن مباشرة على كل النواحي العسكرية أصبح هو المخطط للاستراتيجية الميدانية ، وكقائد القوة الميدانية يوم ١ و ٢ سبتمبر في امدرمان كان هو المسئول عن تكتيك المعركة .

وأرجو أن لا نتوه هنا في التعاريف المتعددة لكل من أوجه النشاط العسكري المذكور أعلاه ، والتي سنتناولها واحدة تلو الأخرى .

فالاستراتيجية العليا "Grand Strategy" وبغض النظر عن عشرات التعاريف - وفي هذه الحالة معركة في أواخر القرن التاسع عشر هي باختصار - « توجيه وتسخير طاقات الأمة المادية والمعنوية وظروفها الداخلية والخارجية في خدمة الموقف العسكري باعتباره احدى الوسائل لتحقيق أهداف الأمة . »

(١) بالنسبة للعقيدة الشرقية فالاستراتيجية تشمل الاستراتيجية العليا ، وفن المعركة "Operational Art" يمثل الاستراتيجية .

ولأن مسرح نشاطها هو الأمة أو الدولة - فكان لها ان تتأثر ، وبالتالي تتفاعل داخلها عوامل حضارية ، واجتماعية واقتصادية . ودبلوماسية .

لذا نجد دائما ان مبادئ وأسس ومقاييس الاستراتيجية العليا تتباين تبائنا واضحا مع أسس الاستراتيجية الميدانية، على الرغم من أن الأخيرة احدى فروعها. فالوجه للاستراتيجية العليا يوجهها « نحو » قومه . لذا تعتمد أسس الاستراتيجية العليا على المبادئ والصدق "Morality". وبينما توجه الاستراتيجية « ضد » العدو ، لذا فهي تعتمد في المكان الأول على الخداع "Deception". فالمبادئ وليس غيرها هي التي تدفع الأمم والشعوب لتتوحد خلف قيادتها . باذلة دماءها وثرواتها وطاقاتها من أجل الأهداف القومية .

ومن دروس التاريخ ، تمثل النجاح الشامل في الاستراتيجية العليا دائما عندما تباشر نشاطها من خلال أو أثر « دعوة » أيا كانت : دينية ، أو وطنية ، أو عنصرية ، أو حضارية . كان هذا شأن النبي صلى الله عليه وسلم وشأن النبي داؤد في دعوة دينية وحضارية ، وشأن نابليون وهو يحمل لشعوب أوروبا مبادئ الثورة الفرنسية على فوهات المدافع ، وعصر الاقطاع في لحظات احتضاره ، وشأن بسمارك وحروب منتصف القرن التاسع عشر في الدعوة القومية ، أو جيوش الرايخ الثالث وهي تحتاح دول أوروبا مسكرة بدعوة سيادة الجنس الآرى. فالدعوات هي التي تلهب أحاسيس الشعوب .

ولكن ليست القضية كلها بهذه البساطة ، تحويل الامم إلى قبائل مقاتلة بعد شحنها بالطاقات المعنوية . فهناك أيضا الوجه الآخر من المسألة - الجانب الخارجى ، أمم أخرى خلفها « دعوات » ووراءها « جيوش » . ولو كانت كل هذه الامم اعداء ، لكان الموضوع في غاية البساطة . ولكن هناك دول محايدة ودول صديقة ، على الأقل مؤقتا طالما التفت مصالح الدول - وهنا يأتي دور السياسة الخارجية وتسخيرها كأحد فروع الاستراتيجية العليا للمعركة بواسطة الدعم ، سواء الدعم العسكرى المباشر أو الدعم المادى أو المعنوى والدبلوماسية .

ولعلنا نتساءل كيف ساهمت سياسة الخليفة الخارجية كعنصر من عناصر استراتيجية العليا ، وهو يخوض حربا مصيرية لمدة عامين ، منذ أول معركة فرقة

عام ٩٦ إلى سبتمبر ٩٨ . وكيف نقيم استغلاله وتوجيهه لها للمساهمة في مجهوده الحربي .

ونحن نحاول ذلك يجب أن نضع خلفية صغيرة نصب أعيننا . ألا وهي سلوك السياسة الخارجية للثورة المهدية منذ بدايتها ، وإنعزالها التام دوليا ، ورفضها لأي تعاون مع أى دول أخرى . فهي سياسة مستمدة من دعوة دينية ترفض أى التعاون منع أى دولة غير إسلامية . وذلك التعاون فى نظرها يعتبر مناقضا لأهدافها . فالأجانب « كفار » وحتى الخلافة العثمانية الإسلامية ، كان العداء والرفض القاطع نحو أى تعاون معها أوضح وأكثر عنفا . فهنا إختلطت الدعوة الدينية بالدعوة الوطنية ، فقد مثلوا دولاً محتلة مستعمرة .

لذا امنع المهدي عن استغلال « التكالب على أفريقيا » فى البداية وضرب الدول الأوروبية ببعضها البعض وخصوصا فرنسا التى تصطدم مصالحها مع مصالح بريطانيا والتى كان بإمكانها أن تمدد بالسلاح والذخيرة والمستشارين . وقد قدمت يد صداقتها أكثر من مرة للثورة الفتية . فالمهدي بعد شيكان ، وهو يعسكر فى الرهد فى طريقه لاقتحام الخرطوم ، استقبل ضابط المخابرات الفرنسى الغامض « باين » الذى شرح وقدم استعداد حكومته لمد المهدي بالسلاح . ورفض المهدي رفضا قاطعا وتجاهل الرجل إلى أن توفي متأثرا بجوى الملايا . ولا يمكن أن نتجاهل حكمة رفضه فى ذلك الحين . فقوته العسكرية كانت تكفى لتحقيق أهدافه الأولية ، فماله يربط نفسه مع دول أخرى ، ويفتح ثغرة ليتدخل بها « كفار » آخرون كان أهم ركائز دعوته التى جذبت إليها الملايين ، هى محاربتهم .

ومن الثابت ان ام درمان استقبلت بعد سقوط الخرطوم وفودا من دول اسلامية عديدة حتى من أقاصى اسيا للتهنئة وللحج . وتغنى شعر محمد اقبال بأمجاد المهدي فى الهند البعيدة . ولا يدرى أحد كيف استغلها المهدي فى جعل ثورته ثورة عالمية تحلف اسلامى (١) كبير يضم الدول الاسلامية المقهورة التى رزحت

(١) على الرغم من ان تجربة الدعوة الاسلامية وهى تنتشر بعد السيف كانت مثله الأعلى الا أن المهدي لم ينفعل الطرق السلمية عن طريق الوفود والخطابات والدعاية ويتضح لنا من مراسلاته انه ركز على « الشعوب » الاسلامية وليس على الحكومات الاسلامية . وأسلم طريق هؤلاء . كان عبر الاتصال بدعوات أخرى قريبة من دعوته . فهو عندما يكتب لسكان مصر طالبا نصرة وتعزيزه يكتب للتجار والعمد

تحت نيران الاستعمار الغربى أو الخلافة العثمانية. على أى حال ، جعلت وفاة المهدي المبكرة بعد ستة شهور الاجابة على هذا السؤال شبه مستحيلة .

ولكن بعد مضى خمسة عشر عاما ، اختلف الوضع الدولى والداخلى — كما اوضحنا فى الباب الثانى ، وبرز التوغل الاستعمارى فى أفريقيا والسباق نحو حوض النيل بصورة أكثر ضراوة بين بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وبلجيكا من جهة وبرز تضاعف وتختلف قوة الخليفة العسكرية من جهة أخرى . والتوغل الاستعمارى من عدة جهات ، سرعان ما ولد الاحتكاك ، فالتضارب والتناقض بين الدول الأوروبية فأصبحت الظروف أكثر ملائمة ، ان لم تكن حتمية ، لاستغلال العداوة بين فرنسا وبريطانيا للحصول على السلاح من الأولى . فأسلحة ٨٥ أصبحت لا تستطيع الوقوف لحظات امام أسلحة ١٨٩٨ ، بعد التطور التكنيكى الهائل فى أسلحة الدمار .

وتلك كانت إحدى الفرص المفتوحة أمام الخليفة . وقد قدمت له عن طريق وفد المفاوضات الأتوبى نيابة عن الملك منليك الذى مثل الفرنسيين . وحاول منليك ان يوضح له ان لا سبيل للانتصار على الاستعمار الأوروبى الا باستغلال تضارب مصالح الدول الغربية وتناقضها . وإلى هنا لم تكن هناك غضاضة فى الاستفادة من السلاح الفرنسى . فليس هناك ما يشير إلى ان اطماع فرنسا فى

≡ أما مراکش فلم يتصل بالولاة والحكام بل كان اتصاله بالمراكشيين المقيمين فى مصر بعد ان اخبروه بقبولهم الدعوة وعين احدهم حاكما لمراكش . وكذلك كان الامر بالنسبة للشام فقد عين أحد تجارها « عبد الله الكمال » وكلفه بشر الدعوة فى الشام . وبرز دليل على تفضيله انتقامهم مع الدعوات والشعوب هى منحه منصب الخلافة الثالثة للسوسى زعيم السنوسية بالصحراء الكبرى .

أما الخليفة فقد اختلف الوضع فى عهده ، فقد أجبرته الظروف الداخلية ثم هزيمة ود النجومى ثم العدوان الخارجى ، على غرض النظر مؤقتا عن غزو البلاد الاسلامية . ولكنه سار على خطى المهدي فى السياسة الخارجية فخطباته لخدوي مصر والسultan العثمانى ، والملكة فكتوريا عبارة عن خطابات عدائية ودعوات للتسليم وانذارات وتختلف تماما عن خطباته الودية التى أرسلها لهد الله الفصيل عندما عينه واليا على نجد وكلفه باشعال الثورة ، أو لحزيفة بن سعد عندما كلفه بشر الدعوة فى الحجاز أو خطابه إلى قبيلة قريش وسكان المدينة .

ولعل الحاكم الوحيد الذى سعى الخليفة محيا جادا لكسب مؤازرته كان رابع الوبير عاهل تشاد .
شقيبر : ص (٦١٧ ، ٩٢٢ ، ٩٢٨ ، ١٠٠٩ ، ١١٣٧ ، ١٢٦٦) .

السودان حتى ذلك الحين كانت أكثر من تمكين الخليفة من الانتصار على البريطانيين وإيقاف تقدمهم جنوبا لاناحة الفرصة للفرنسيين للتقدم وللإستيلاء على منابع النيل بواسطة مارشاند من الغرب ، وبعثة ليجور من الشرق .

الا ان الشق الثاني من العرض الفرنسى الذى جاء متأخرا فى عام ٩٨ ، وهو بسط الحماية الفرنسية على دولة الخليفة واعتبار نفسها محمية فرنسية ، فليس هناك من يختلف مع الخليفة فى صواب رأيه وبعد نظره . ولقد شاهدنا مثل الرأى الفرنسى - رئيس الوفد الحبشى - عندما حلت اللحظة الحرجة ، وأخرج العلم الفرنسى ليضعه الخليفة أمام حدوده لتعزيز موقفه أمام الغزاة الأوربيين وأخذ الخليفة وأحفاه فى منزله . ولا بد أن الكواليس الخلفية فى بيت الخليفة شهدت نشاطا ومناورات سياسية كثيرة فى تلك الفترة . قادها شيخ الدين من جهة ، ويعقوب من جهة أخرى . فقد صاح شيخ الدين فى وجه والده وهو يشكو تسلط يعقوب وتزمتة ورفضه للتعاون مع الإوربيين « وهل هناك دولة تخلو من النصارى » فشيخ الدين كان أكثر امراء المهديّة عصرية فى ثقافته ، ومثل المرونة فى السياسة الخارجية « انا مطلع على كتب وتواريخ كثيرة .. والانجليز دليل ليهم تار كبير عليك لقتلك هكس وغردون ، ويعقوب يقول لى كيف تدخل فى طاعة النصارى ؟ وهل تخلو دولة من النصارى ؟ » .

وكما أفادت مصادر « هولت » المحلية ، فان الخليفة فكر جديا فى استخدام العلم الفرنسى ووضعه فى السبلوكة فى الشهر الأخير قبل المعركة ، مع احساسه المتزايد بقوة العدو الجديد عند وصول فلول محمود بعد هزيمة عطبرة ووصفها للقوة الماحقة لاسلحة تدمير العدو ، وحين بدأت ثقة الخليفة فى مقدرة جيشه تهتز قليلا .

والواضح ان الخليفة قبل ذلك لم يكن يعطى أى غزو من جهة الشمال وزنا كبيرا ، ولم يكن تقييمه العسكرى للبريطانيين غالبا حسب خبرته فى المعارك التى خاضتها جيوشه سواء فى شيكان أو الخرطوم ، وأخيرا عندما تصدوا وطاردوا البعثة الانجليزية بقيادة ولزلى . وهذا الأمر قد يلقي بعض الضوء على تصرفات كثيرة ، ولعلها تبرئه جزئيا من مأساة توشكى . وان كانت تلك يشوبها كثير

من الظلال المؤلمة ، ومحل شك في أن هدف الخليفة الأصلي كان هو القضاء على ود النجومى والقبائل المنافسة ، فلا يمكن أن يكون ذلك هدفاً عندما بعث جيش محمود ود أحمد للشمال . فقد عانى محمود من نفس الظروف التى عانى منها النجومى من ضعف ونقص فى الاعداد والتموين . وأخيراً ووجه محمود بنفس الاتهامات التى صلبها الخليفة على ود النجومى ، وهى الحذر والمبالغة فى اعطاء العدو وزناً أكبر من وزنه . لا يمكن أبداً ان يكون قصد الخليفة هو إبادة جيش محمود . فمحمود ربيه ، وابن عمه ، وجيشه من عشيرة الخليفة .

على أية حال ، انتصر رأى المتصلب - رأى يعقوب - ونحى الخليفة اقترح الاثيوبيين ، ورأى شيخ الذين بوضع نفسه كمحمية فرنسية جانبا . وأياً كان السبب الرئيسى ، سواء بسبب ضغوط يعقوب القوية ، أو لاعتقاد الخليفة بمقدرته على مواجهة الغزو منفرداً وتأثره بعقيدة المهدي فى السياسة الخارجية ، فلا يمكن إلا ان نعجب بأصالة موقفه كرأس للدولة ومدير للاستراتيجية العليا عند إتخاذ قراره هذا، عكس ما يحيط بالقرار ظاهرياً من عدم مرونة وتصلب . فعندما وصف كلوزفنز الحرب « بأنها امتداد للصراع السياسى ، بطرق أخرى » أو أنها « أداة سياسية » فهو يعنى أنها « حالة طارئة » فهى « وسيلة » . وليس النصر العسكرى « غاية » فى حد ذاته . وسيلة لتحقيق أهداف سياسية . ولكى نجعل ماقاله فيلسوف العسكرية ملائماً لكل العصور وأكثر شمولية ، فيمكن أن نستبدل كلمة السياسة بمعناها الكلاسيكى الضيق ، بكلمة السياسة بمعناها الشامل العصرى . كأنعكاس لصراع العقائد والمبادئ وخلفها التيارات الاقتصادية والحضارية أو الاجتماعية و « الإنسانية » . فالسياسة بذلك المعنى حالة دائمة ، وهو ما يجب ان تصبو اليه أعيننا بعد المعركة .

اذن فالهدف الحقيقى من الحرب هو فرض ارادتك على العدو لتحقيق سلم أحسن . سواء أكان ضم أراضي وشعوب أخرى للامبراطورية كههدف سالسبورى وكرومر عندما أرسلوا السردار لقلب أفريقيا . أو لحفظ استقلال بلاده لاستمرار دعوة المهدي كهدف الخليفة . فلا يعقل اذن ان نحصر كل نظرتنا ونحرق كل قواربنا من أجل « النصر العسكرى » فى معناه الضيق . ولقد شاهدنا كيف كان

الخليفة يوازن حتى وهو يدخل معركته المصيرية لتوزيع قوته العسكرية بين مسارح الحرب المختلفة لحفظ التوازن ضد أعدائه ، سواء منهم من فى الداخل أو من الخارج . ولم يصب كل طاقاته العسكرية أمام العدو الشمالى ، اذن فالاولى به أن لا يتهاون لحظة فى هدفه الاعلى ألا وهو استقلال بلاده . فهل يلقى بنفسه وأمته بين أنياب عدو جديد لمجرد تحقيق إنتصار حربى على عدوه المتقدم نحوه الآن . وهل يضحي باستقلال أمته جزئيا أو كليا بفتح الثغرات أمام « قبيلة أخرى بيضاء » لا تختلف أهدافها فى المدى الطويل عن أهداف « قبيلة » الانجليز . والاخيرة على الاقل اشتبك جيشه معها مرارا وهم على أرضه منذ سنتين ، أما الاولى فلا يدري ما هى أساليبها وما هى قوتها المهم كلهم « بيض الوجوه » وكلهم « كفار » .

ولا يد انه ادرك هذه الحمى الجديدة المسعورة التى اصابت هؤلاء البيض فعادوا يتدافعون لاقتسام ترابه بعد ان تركوه وشأنه سنين طويلة . فها هى خطابات عربى دفع الله تتحدث عن تقدم البيض من جهة الغرب ، وهاهم الايطاليون يتقدمون لنهش بلاده منذ سنين من الشرق . والبريطانيون من الشمال ، وهاهم الفرنسيون يتقدمون نحوه لنفس الأهداف وان اختلفت أساليبهم وكانوا أكثر « أدبا » فى وسائلهم . فهم يخفون قبضتهم الحديدية داخل قفاز من الحرير . من الصعوبة على شخص يدرك هذه الظروف وبعد ذلك يضع علما أجنبيا ليرفرف فى بلاده جنبا إلى جنب ، مع الاعلام المطرزة بالآيات القرآنية .

أين اذن كمنت فرصة الخليفة الحقيقية فى عقد حلف يؤازره فى معركته القادمة ؟ لقد كانت فرصة الخليفة الحقيقية مع الحبشة . فالعاهل الأثيوبى الجديد « منليك » برهن على انه يرتفع لمستوى الأحداث متناسيا الضغائن والأحقاد القديمة .

فبعد القوضى التى سادت أثيوبيا عدة سنين بعد مقتل الملك جون على يد الزاكى ، بدأ صعود نجم الأمير منليك إلى أن أصبح امبراطورا لأثيوبيا . ولم يستغرق العاهل الأثيوبى زمنا طويلا ليترك — عكس باقى قومه — ان اعداء امته الحقيقيين هم الأوروبيون ، وليس جيرانه المسلمين . وأمل فى أن يوحد جهود الامتين ضد المد الأوروبى الاستعمارى . وعندما قرر التفرغ لمواجهةهم وشن الحرب على الايطاليين ، وفى نفس اليوم الذى مرق فيه اتفاقية « اوسيانى » ، مطلقا الشرارة

الاولى فى الحرب ، أسرع وبعث وفدا للمفاوضات لعقد اتفاقية مع الخليفة برئاسة الحبشى المسلم محمد الطيب . ولكن رد الخليفة كان باردا ومتعاليا ، فقد طلب من العاهل الأثيوبى ان يتقدم كتابة بطلب اتفاقية مكتوبه « أغسطس ٩٥ » وبعدها ينظر فى الطلب . ولكن كل ذلك لم يثبط همة العاهل الأثيوبى فقد عاود ارسال مبعوثه مرة أخرى للخليفة . وحتى بعد إنتصار العاهل الأثيوبى الساحق على عدوه وإنهزام الخليفة فى دنقلا ، جدد العاهل دعوته للخليفة فى عقد حلف . وعلى الرغم من ان الخليفة لم يتنازل عن لهجته المتعالية ، الا ان ميله للتعاون وضح فى خطابه الذى أرسله مع سفيره المتجول ، محمد عثمان خالد . فقد وافق على « النظر فى أمر التعاون » على شريطة ان يقطع منليك كل صلاته مع الأوربيين . كان ذلك أكثر من طاقة العاهل الأثيوبى ، وهو يحتفل بانتصاره على الايطاليين ، بالبنادق والمدافع الفرنسية . وعلى الرغم من ان منليك وضح ان هدفه الأول هو الاستفادة من تناقض مصالح الأوربيين لتحقيق مصالحه هو ، إلا ان الاتصالات الدبلوماسية لم تنقطع بين الجانبين ، حتى قبل شهر من معركة ام درمان ، فى ذلك المشهد الذى سبق وصفه (١) ووصلا فيه إلى قمة التعاون للدرجة التى تنازل فيها الخليفة عن جبال شنقول ، وقبل استلام العلم الفرنسى .

كان التعاون مع العاهل الأثيوبى أقل خطرا وأعظم فائدة لزم من مؤقت ولهدف محدود لاحراز نصر عسكري . فليس الاحباش ممن يخشى شرهم . ومن المستبعد ان يكون لدى العاهل الأثيوبى أى مطامع اقليمية ، والعدو المشترك كان كفيلا ان يوحد بين جهودهما . وكان بإمكان الخليفة الاستفادة من القوة البشرية الأثيوبية الهائلة . فقد خاضوا معركة القلابات بربع مليون جندي وخاضوا معركة « عدوة » بربع مليون آخر . وازدادت فعاليتهم بعد التسليح الحديث . ولكن على الرغم من ان الوثائق التى بقيت لتروى الرواية لا تحدثنا عن كل شيء ، فمن المؤكد ان المحادثات والمفاوضات الشفهية كانت أهم ، الا أن الواضح ان ما أثار حساسيته ضد التعاون مع الأثيوبيين هو ارتباطهم بالفرنسيين .

والشق الثانى ، وهو الأهم ، داخليا ، ما مدى نجاح الخليفة فى حشد

طاقات امته لمعركته القادمة ؟ لقد اطلعنا على بعض خطابات الخليفة لحكامه في الباب الثاني وشاهدناه يعتصر آخر الطاقات البشرية ، وآخر حبة ذرة ليقذف بها في المعركة . ونستطيع ان نقول باطمئنان ان الخليفة نجح نجاحا نسبيا في ذلك المجال ، على الرغم من العوامل السلبية التي تترتب على سياسته الداخلية لسنوات طويلة . وكل من شاهد معركة ام درمان وشاهد كيف ماثت تلك الالوف ، وكيف واجهت نيران العدو ، لم يستطيع تمالك نفسه إعجابا في بعض الأحيان ، أو عجز عن تفسير هذه الظاهرة أغلب الأحيان ، كل ذلك برز كدليل ناصع على مقدرة الخليفة القيادية والتعبوية ، ولكن قبل ذلك يجب ان يوجه الاعجاب لامته ومقدرتها الفائقة في البذل والتضحية .

ولكن مجرد ان الخليفة لم يستطع أن يحشد أكثر من أربعين ألف مقاتل كان أمر يدعو للدهشة . فقد تفاخرت أرض « العرضة » قبل عشر سنوات بتماوج مائة ألف مقاتل فوق ساحتها ! .

وهنا نلمح ظاهرة دياكتيكية . فنجاح الخليفة المتواصل في تقديم عشرات الالوف من المقاتلين بسواء طبلة خمسة عشر عاما ، هي التي أدت في النهاية إلى أن يشكو جيشه « فقر الدم » في القوة البشرية . فقد خاضت تلك الامة أكثر من خمس معارك طاحته بحشد يتراوح بين خمسين ومائة ألف مقاتل في كل منها وهي الابيض - الخرطوم - شيكان - القلابات - دبراسين . وعشرات المعارك بحشد يتراوح بين عشرة الف وخمسون الف مقاتل ، حملات دارفور المتصلة ، أبو طليح ، كسلا ، عطبرة ، الخ . . وعشرات مضاعفة من المعارك بحشد أقل من عشرة آلاف مقاتل ، سواء منها من كان ضد الاعداء الخارجيين أو المقاومة العvisian والثورات الداخلية . وتلك المعارك المتصلة واضطرار الخليفة للاحتفاظ دائما بجيش عامل كبير ، أدت في النهاية لكارثة على مستوى الأمة ، كارثة أكبر من اضعاف قوة جيشه فقط . فقد حرمت الارض من الابداء العاملة ، وتضافر ذلك العامل مع شح الأمطار ، وعندما تلاه عام آخر غطت فيه عاصفة الجراد السماء والنهت مع محصول الذرة ، كانت النتيجة مجاعة سنة (ستة) المشهورة التي راح ضحيتها الملايين . وقد ساهمت كل تلك العوامل من حروب وثورات داخلية ومجاعات

واوثة إلى أن أصبحت البلاد أشبه بالفقر ، فقد تناقص تعداد سكان السودان في تلك الفترة إلى ثلاثة ملايين فقط .

ومن كل المعارك ، كان أثر حروب الحبشة أكثر وضوحا في استهلاك قوته العسكرية ، ليس كما فقط ، بل كيفا . ففيها أيدى الجهادية الاوائل الذين كان من المقدر لهم أن يصبحوا النواة القتالية لجيش حديث نسبيا على مستوى عال من التدريب والانضباط . فلم يستطع الخليفة بعدها ابدا أن يقدم لميدان المعركة جيشا أقوى حشدا أو تسليحا أو تدريبا . وذلك الاستنزاف نتيجة للحروب المتصلة وخصوصا حروب الحبشة ، أدت إلى إظهار استراتيجية الخليفة العسكرية في النهاية بمظهر يختلف تماما عن الحقيقة . وهو الانحطاط بمستوى فن الحروب إلى حروب بدائية اشبه بالحروب القبلية البربرية كل قوامها الكثرة العددية والشجاعة الفائقة ، أو أنه بكر قبل غيره من الأوروبيين في دخول « الموضه » التي سادت في مطلع القرن العشرين . موضه التعبئة لكل أفراد الامة "Conscription" . وظهرته بمظهر من انحاز للمدرسة الأولى من مدرستين فكريتين لازال الخلاف بينهما قائما حتى اليوم . المدرسة الأولى مدرسة كلوزفيس ، صاحبة مبدأ الامة المقاتلة

"The Nation in Arms" ومبدأ "Absolute War" « الحرب للجميع » تلك المبادئ التي بشر بها كلوزفيس وأدى تطبيقها سواء بواسطة مولتكه وبسمارك في الحرب السبعينية ، أو هيندنبيرج ، وغيليوم ، وفوش ، في الحرب الأولى إلى اتهامه بأن مبادئه كانت هي الذريعة والخلفية الفكرية الثقافية لمجازر الحرب العالمية الأولى . فقد إنتشرت بعدها طريقة التعبئة العامة . وبدأت المباريات والتفاخر بين الدول الأوروبية ايهم يكون صاحب أكبر قطيع بشرى . فكان ان خاض غمار الحرب عشرات الملايين .

والمدرسة الثانية الحديثة . تلك التي تزعمها دييجول ، وليدل هارت ، وفولر والتي هالتها المذابح الجماعية في الحرب الأولى ، فحاولت تعديل النظرية الأساسية للحرب ، النظرة الحسابية ، ونادت بالعودة للحروب الاولى « حروب المحترفين » "Elite and Professional Armies" جيوش صغيرة مدربة تدريبا عاليا بخفة حركة عالية "Mobility" حيث يمكن لفن الحرب ولصفات الفروسية الظهور

مرة أخرى ، وحيث يمكن تحقيق الأهداف العسكرية بأقل دماء ممكنة ، اعتمادا على النشاط الاستراتيجي أكثر من المعركة التكتيكية التي تميزت بها الحرب الأولى ، وكان أبرز سماتها الخنادق والرشاشات ومسارح الحرب المحدودة .

ولعل ظواهر الأمور ترسخ الانطباع بانضمام الخليفة إلى المدرسة الأولى ، فلا يمكن ان يتجادل اثنان كما سبق وأوضحنا في نجاح الرجل في تطبيق مبدأ « الأمة المقاتلة » ولكن المدقق سيخرج بحقيقتين : أولا ان الخليفة كان أقرب للمدرسة الثانية وشرع فعلا في إنشاء جيش نظامي بدرجة عالية من التدريب والانضباط ، ولكن الزمن لم يمهله ، والظروف لم تمكنه . ثانيا : ان نجاحه لم يكن كاملا في تكتل أمته خلفه وخصوصا النصف الشمالي من دولته . ولا بد هنا ان نلمح بصمات أتوقراطية التعايشة وهي تبدو ظاهرة للعيان .

حقيقة ركز الخليفة جهدا كبيرا في سبيل إنشاء جيش نظامي مستديم . وكانت تلك الفكرة ملحّة في ذهنه لسنين عديدة . وما جهادية أبو عنجة إلا من صنعه هو شخصا . وما احتفاظه باطقم المدفعية المصريين من دون حملة هكس الا بايعازه ، وما منحه لاسكندر بك وسيد جمعه والضباط العظام المحترفين رتبة امراء إلا دلالة واضحة ، وما فصله لكل شئون الملازمين وتسليحهم بأحسن بنادقه ، الا بأوامره الشخصية . وعندما أريد جهادية أبو عنجة في معركة القللابات كان ذلك ثمنا فادحا للنصر ، فقد كلفه النصر وحداته النظامية ونواته الصلبة لإنشاء الجيش النظامي الحديث . ولكنه عاد لبنائه بنشاط وهمه . وكان نتاج محاولته الأخيرة هي « الملازمين » فقد جمع ما تبقى من جهادية أبو عنجة « الكارا » وبدأ في تجنيد شباب القبائل المنتخبين من أبناء الزعماء ومن باقى الجيش حتى وصل العدد إلى حوالي ١٥٠٠٠ . وقد بهروا كل من شاهدتهم من الأوربيين في مقدمة الجيش عند تقدم الخليفة نحو المعركة يسوم ١ سبتمبر . فتوحيد الخطوات وإنظام الصفوف والتوقف بحركة رشيقة في لحظة واحدة دفعت تشرشل لذكر تعليقه الشهير « فى شيكان واجهنا غلاة المتعصبين ، وفى أبو طليح واجهنا قوما يذودون عن أوطانهم ، أما فى أمدرمان فقد شاهدنا روعة وجلال الجيوش النظامية »

“at Shiykan we met fanatics, at Abu Klea we met patriots, but at Omdurman we saw the glory of an army”

وعبارة تشرشل تلخص كل قصة تطور جيش المهدي .

ولم يغامر الخليفة اطلاقا باسراكمهم فى القتال قبل أن يشتد عودهم ، بل احتفظ بهم فى العاصمة للتدريب . فحتى حملات جبال النوبة الثانية ، أو تمرد البطاحين ومعارك الشمال كلها فركه ، دنقلا ، أبو حمد ، وحتى معركة عطبرة التى ظن أنها معركة فاصلة مع العدو ، لم تغره بالنضحية بهم . وبالطبع كان تأمين حكمه فى العاصمة هدفا موازيا لذلك الهدف طوال تلك السنوات .

ولكن إقتراب العدو من الشمال أجبر الخليفة للعودة إلى سياسة الأمة المقاتلة وأسرع فى حث ولاته على ارسال كل قادر على حمل السلاح ، وإنعكست تلك أساسا فى الراية الزرقاء التى ضمت اشتاتا من البشر ومثلت نتاج « التعبئة » والجيش الشعبى أو المتطوعين من الاحتياطى .

وأثر تلك الحروب باستنزافها واستهلاكها لموارد الخليفة البشرية والاقتصادية فى نطاق « الاستراتيجية العليا » عاد وإنعكس على استراتيجيته الميدانية . فان أحد أهداف الخليفة الرئيسية من إنشاء الجيش النظامى الحديث هو تمكين قوته العسكرية من الانفتاح على استراتيجية ميدانية منطلقة مفتوحة ، وليست مجمدة مشلولة . وأهم عناصر الاستراتيجية « صحيفة الجسم » هى خفة الحركة . وفى ذلك الزمن - نهاية القرن التاسع عشر حين اعتمدت الحركة على الدواب - ولا أقصد الخيول والفرسان وما يمكن تصنيفها الآن تحت الحيوانات المقاتلة فى القول المقاتل "Fighting Echelon" بل أقصد الحملة-تلك التى تحمل المؤن والجوب والماء خلف الجيش المقاتل لتمكنه من التحرك والتوغل لمئات الأميال مبتعدا ومستقلا عن قاعدته الادارية أو الاعتماد على الموارد المحلية فى الطريق ، ليسدد ضرباته الاستراتيجية .

ولقد شاهدنا كيف حرك الخليفة بسهولة ويسر وبراعة تثير الاعجاب جيشا يبلغ تعدادده ٨٠٠٠٠ عام ٨٨ بقيادة أبو عنجة ليعبر مئات الأميال من جبال النوبة فى أقصى الغرب ، إلى قندر العاصمة الأثيوبية فى أقصى الشرق ، متقدما باستراتيجية أصيلة على عدة محاور . ولكن كان خلف أبو عنجة آلافا من الجمال لتحمل مؤونته وذخيرته وكانت الأرض عامرة بالسكان والزراعة .

ولكننا في عام ٩٨ شاهدنا الخليفة متسمرًا وجيشه الكبير حوله في امدرمان ، وهو غير قادر على الحركة اطلاقاً "Immobile". وشاهدنا المشاق التي تكبدها محمود ود أحمد عندما تحرك شمالاً واشتكى منها للخليفة في عشرات الخطابات ، ولوحظ عندما قرر ان يقف وقفته الأخيرة في السبلوكه وعجز حتى أن يموت حامية صغيرة لا يتجاوز عددها ٢٠٠٠ مقاتل . كل تلك أوضحت ان الخليفة عانى من نقص شديد في الجمال والحبوب . ولا يمكن إلا ان نلمح هنا آثار تمرد الكبابيش أكبر مصادر الجمال ، وعرب صحراء بيوضة ، ومراوغة الشكرية بقيادة زعيمهم الداهية أبو سن .

وكان هناك سببا لا يقل أهمية عن أثر الحروب الطويلة المتواصلة في التسبب في ذلك القحط البشري ، وحقيقة ليس في الحشد البشري فحسب ، بل تسببت في أضرار مست صميم استراتيجية الخليفة العليا . وهذا أوضح من أن يذكر - ذلك هو الدور الذي لعبته أتوقراطية التعايشة في غرس بذور التفرقة ، ومنها - بدأ التدخل يصيب معنويات الامة - أهم مقومات الاستراتيجية العليا . فجاء لا يستهان به من الامة لم يقف موقف سلبيا فقط ، بل تكتل ضد الخليفة . سواء من عمل ضده جهرا وامتنق الحسام مثل عبد الله ود سعد ومقاتلو ورثلى ، أو من عمل ضده في الخفاء وساهم في أن أصبح تقدم السردار ، خلاف الممارك المتفرقة ، كالتزهم . وبدلا من ان يشق طريقه عبر أراضي معادية ، شق السردار طريقه عبر أراضي محايدة أحيانا ، وصديقة حيناً آخر (١) . وأيا كانت دوافع ومبررات الخليفة - ولعلنا قد تعرضنا لها في الباب الأولى ، الا أن اتوقراطية

(١) حقيقة كانت مجزرة التهمة هي القشة التي قصمت ظهر البعير وفجرت كل الخلافات المكبوتة وبعدها برزت ظاهرة التحول الواضح من سكان الشمال بل حتى داخل العاصمة . أما قبل ذلك فمن الصعب التعميم . فقبل بدء الغزو وفي السنوات الأخيرة لحكم الخليفة برز نوع من الاستقرار والرضاء بالأمر الواقع فتقارير المغايرت تتحدث عن أهالي دقلا الذين هاجروا لمصر وطلبوا العودة لاوطانهم بعد استقرار الحالة .

وتشرشل يتحدث عن مائه الضباط الانجليز الذين إشتروا في السنة الأولى للحملة من أن شعور الالهائي كان « هم يخشون الخليفة ولكنهم ييغضون الحكومة » أي حكومة الاحتلال .

"They feared the Khalifa, but they hated the Govt."

Churchill, Vol I p. 358

التعايشة كانت سببا رئيسيا فى ذلك التحول - تعيين حكام المناطق وقادة الجيوش من عشيرة الخليفة ، تهجير التعايشة والبقارة إلى أمدرمان ، وتخصيص الأراضي الخصبة لهم فى الجزيرة وعلى النيل الأبيض ، الاشاعات الدائرة حول حملة ود النجومى ، تكتل الاشراف ، وأخيرا مجزرة المتعة . وسرى كيف أدى ذلك التحول إلى التسبب فى ضرر بالغ يمس صميم استراتيجيية الخليفة الميدانية ، كما أصاب استراتيجيته العليا .

كيف ساهمت محاولات الخليفة لسنين طويلة لخلق الدولة العصرية فى السودان فى مجهوده للمعركة ؟ لقد وحد المهدي الامة ووضع لها الاطار الفلسفى ، وأعطاه الزاد المعنوى الذى افتقرت اليه . وبقي دور خليفته فى قيادة امته عبر التطور الاجتماعى الطبيعى من المجتمع القبلى إلى مجتمع الدولة المتقدم .

ومن جميع مساهمات الخليفة فى إنشاء الدولة الحديثة ، مركزة الحكم ، تنظيم الحكم الاقليمى ، توحيد مصادر التشريع ، البريد المنتظم ، بناء العاصمة ، صيانة البواخر والتلغراف ، وقيام مئات من الحرف ، فرض القراءة والكتابة إجباريا على الاطفال فى الخلاوى ، الاستفادة من أى آلة ورثها من الحكم السابق سواء المطابع أو الأوراق ، نال الجيش الحديث نصيب الأسد ، للدرجة التى تجعل المرء يشك ان الهدف الاصلى من خلق الدولة العصرية هو خلق الجيش الحديث - وللدرجة التى أغرته على القيام بعمليات تهجير جباره لسكان أقاليم بحالها . فقد سادت طيلة سنين حكمه فكرة واحدة وهى ترحيل سكان دارفور وكردفان ، وتغيير وجه الحياة بالنسبة لهم حيث امضوا حياتهم لقرون طويلة فى حياة البداوة والتنقل ، والرفق لأى سلطة مهما كانت ، ولم يبال أبدا بروابطهم العاطفية بديارهم عندما نقلهم إلى أمدرمان والجزيرة وأجبرهم على حياة المدن والزراعة ، كل ذلك ليضمن أماكن حشد جاهزة قريبة تكتظ بالمحاربين ليصبخوا فى مشاغل يده ليوجههم حيث يشاء بسرعة وسهولة .

وكل الكفاءة التكنيكية التى استطاع الخليفة وضع يده عليها سخرت للجيش . الاطباء المصريين استغلت معرفتهم للكيمياء لمصانع الذخيرة ، وكل العمال المهرة استخدموا فى الترسانات والمصانع الحربية ، وحتى أواني الطعام النحاسية جمع

كل ما استطاع وضع يده عليها من الأهالي ليصنع ظروف الذخيرة .

.. .. .

لئن كان التفهم والاعجاب هو احساسنا الغالب في مرورنا السريع على استراتيجية الخليفة العليا ، إلا اننا ، حتى ونحن نتجنب الحكم المبكر ، لانملك إلا ان يتزعزع اعجابنا قليلا في تقييمنا السريع لاستراتيجية التي دخل بها معركة ام درمان .

فالخليفة ادار استراتيجيته بنفس الاسس التي ادار بها امراتيجيته العليا —
الوضوح والمواجهة ، عكس المطلوب دائما ، وهو الخداع أو المفاجأة . وقبل ان نتحدث عن استراتيجية الخليفة ، يجدر بنا ان نلم الماما سريعا بمشاكل الاستراتيجية عامة ، ومبادئها وعناصرها . فعشرات التعاريف التي حاولت شرح الاستراتيجية بكلمات بسيطة ، تمتلئ في العادة بالثغرات التي تؤدي إلى سوء الفهم والتحريف في النهاية .

فالتعريف الكلاسيكي الذي قدمه كلوزفيس ، قدمه مقارنا اياها بالتكتيك « التكتيك هو استخدام القوات المسلحة في المعركة ، بينما الاستراتيجية هي استخدام المعارك في سبيل الوصول إلى هدف الحرب » وعيب هذا التعريف الذي استغله خصوم كلوزفيس الفكريين : وعلى التحديد ليدل هارت ، انه يحتم حدوث المعارك الحاسمة . فالاصل هنا التكتيك « نشاط المعركة » وحتمية الالتحام مع العدو . بينما برهن هؤلاء في سياحة تاريخية غطت عدة قرون ، انه ليس من الضروري حدوث المعركة الحاسمة على الاطلاق ، وان البحث عن المعارك ، هو بحث عن المتاعب . بل وتوغلوا إلى نهاية الشوط من اية الاستراتيجية الناجحة هي تجنب المعركة الحاسمة ، ووضع العدو في موقف ميثوس منه نفسيا ، بدون تصفيته وإبادته جسديا .

ولكننا عندما نضع في الاعتبار تصور كلوزفيس ريبب الحروب النابليونية ، حين كان مئات الالوف من الجنود يزحفون على اقدامهم ببطء ، نجد أنه من الصعب تطبيق ما نادى به المحدثون بتجنب المعركة الحاسمة ، والاعتماد على استراتيجية خالصة . فبين بدء تقدم العدو ووصوله نجد فسحة من الزمن تمتد لشهور

عما يجعل امكانية تحقيق مبادئ ليدل هارت ظروفًا شاذة ، أما الظاهرة العامة فهي
حتمية المعركة . وقد أجاب كلوزفنتس قبلا على خصومه عندما ذكر « توجد
حالات يضطر فيها العدو إلى القاء سلاحه قبل الدخول في المعركة .. ولكنها
حالات نادرة . »

ولا نود هنا ان نحشر أنفسنا في جدل مع فلاسفة العسكرية ، ولكن الواضح
ان الرأى المعارض « لكوزفنتس » وقع في نفس الخطأ . وهو أخذ ظاهرة معينة
وتعميمها . متناسيا ان الحرب شأن كل النشاط البشرى عبارة عن مواقف
متغيرة دائما ، مختلفة أحيانا .

هل كان أمام السردار أى سبيل لتجنب المواجهة ووضع الخليفة في موقف
ميثوس منه دون الدخول في معركة حاسمة ؟ لا . فلا طبيعة الأرض واعتماده
الكل على النيل ، ولا طبيعة مقاتلي الخليفة من تصميم وصمود بل الرغبة في الموت ،
لا التهديد بالابادة ، ولا المحاصرة والتجويع كان سيجدى معهم فتيلة (١) .

هل كان أمام الخليفة سبيلا لتجنب المعركة ووضع العدو في موقف ميثوس
منه ، لكسر شوكته القتالية وليفعل بهم بعد ذلك ما يشاء ، سواء الابادة أو الاسر ؟
.... نعم . ومن هنا سنطلق في نقد استراتيجيته . ولكن قبل ذلك لنبحث قليلا
عن تعاريف أخرى للاستراتيجية ، علنا نعثر على الاجابة الكاملة لنبدء على ضوءها
تقييمنا بالموضوعية المنشودة .

عرف « مولتكه » - الربيب الفكرى لكلوزفنتس ، الاستراتيجية بأنها
« استخدام الوسائل والمصادر الموضوعية تحت تصرف القائد العسكري لتحقيق
الاهداف المخصصة له . » وقد قصد مولتكه ، وهو يتحدث من موقعه ، أن

(١) لعل المسك الوحيد المفتوح للسردار - لتجنب معركة تكتيكية حاسمة كان هو إيقاف التقدم شمال
امدرمان وانشاء حكومة تكون عاصمتها أبجدى مدى الشمال مثل عطبرة أو شندى أو بربر منتظرا انهيار
دولة الخليفة من الداخل أو تقدم الحربة نعوهم . وحتى لو تجاهلنا التكاليف المادية عند اتخاذ هذا المسلك ،
سنجد أنفسنا نتجاهل عندما نذكر أن هدف الحملة كان الوصول لمنابع النيل بسرعة . اذن فوصوله
لامدرمان كان محتملا .

أنظر الحمل والذئاب ص (١٩١) .

يحقق هدفين بضربة واحدة ، أولهما فصل الاستراتيجية العليا « مسئولية بسمارك » عن الاستراتيجية الميدانية « مسئولية هو كرئيس الأركان » فهو يركز على كلمة القائد العسكري "General" بعد أن طمستها شخصية نابليون وفرديريك . وهذا لا يعنينا في كثير أو قليل فحالتنا تختلف تماما . أما الهدف الثاني فهو التعميم ، وعدم حتمية المعارك . فهو يتحدث عن الوسائل والصادر ، ثم يقفز إلى تحقيق الهدف متخطيا حلقة كلوزفيس الرئيسية التي تربط بينهما « المعارك » وبذلك وضع الاستراتيجية العسكرية في مكانها الطبيعي ، مثلها مثل بقية نشاطات العقل البشري عندما يخطط ، الاستراتيجية الاقتصادية ، أو الاستراتيجية السياسية . الخ ..

وحقيقة نجد أن الشمول الذي قصده « مولتك » يلقي الضوء على لب المسألة في الاستراتيجية . فهي لا تختلف عن التخطيط الاقتصادي أو الاستراتيجية الاقتصادية في أنها أولا وأخيرا مسألة اختيار "Selection" واستثمار "Investment" إختيار لأحسن السبل لاستخدام المصادر والطاقات المتوفرة ، سواء في إختيار الأرض المناسبة ، أو التوقيت ، أو حجم القوة أو الأغراض "Objectives" والهدف دائما في الحرب كما هو في الاقتصاد ، تحقيق أكبر « ناتج » بأقل مجهود وأقل « صرف » . وذلك المبدأ يحتم دائما مواجهة القائد لمشكلة الإختيار ، أو القرارات "Decisions" كما يسميها العسكريون .

ومجال الاستثمار الحقيقي لتحقيق ذلك الهدف - أكبر ناتج بأقل مجهود - يكمن في .. العدو . فهو مجال الاستثمار الحقيقي . وطاقاتنا العسكرية هي « المجهود » وتأثيرها في العدو يمثل « الناتج » . ولو كان الموضوع حسابيا لاستحال تحقيق ذلك الهدف « أقل ناتج بأقل مجهود » . فحسابيا الناتج يعادل المجهود .

فالعدو متقدما - أم مدافعا ، يمر بمواقف متغيرة تزداد قوته فيها وتتناقص ، وعوامل الأرض ، والزمن ، وحشدنا العسكري ، كلها عوامل ثابتة جامدة لا تحتاج لتنبؤ عندما ننظر إليها وهي منفصلة من العدو . وإنما المتغير دائما هو موقف العدو خلال ردود فعله عندما تمارس كل هذه العوامل تأثيرها فيه ماديا أو معنويا ، ومن خلال ردود فعله لتدخلنا وتصرفاتنا وتحريكنا وتوزيعنا لحشدنا العسكري . وموقف العدو المتغير في تلك الحالة هو مجال التحسس والإختيار . وذلك يستلزم منا

دائماً نحس ذلك الخيط الرفيع في موقف العدو حين يكون في أضعف مواقفه ونبنى عليه اختيارنا . في أى أرض نواجهه أو نبتعد عنه ، وفي أى زمن نقذف نحوه بقوتنا وتحت أى ظروف وبأى طريقة ، فاكشاف خيط الموازنة الرفيع الذى يربط وينسق بين عدة عوامل هو النجاح الامثل فى الاستراتيجية . فهناك دائماً اللحظة المثالية أو أكثر لحظات العدو ضعفاً ، ولو تقدمت أو تأخرت لازداد قوة ، ولكنها قد تحمل وهو فى أرض غير مناسبة ولو تقدم منها أو تأخر عنها بضعة أميال ، لتوفرت الأرض المثالية لنا ، وهذه الأخيرة عندما يصلها ، يصلها وهو فى أحسن حالاته المعنوية وهو مالا نرغبه . ذلك ما قصده كلوزفتمس حينما ذكر « كل شيء يعتمد على خيط الخيال الحربرى ، "All hangs on the silken thread of imagination" ولكن عندما نغزل نحن هذا الخيط بأيدينا ونجبر العدو رغماً عن ارادته لالتخاذ موقف يناسبنا نحن ولا يناسبه هو ، يصبح ذلك هو قمة النجاح فى الاستراتيجية .

والموجه للاستراتيجية فى العادة يوجهها نحو عدة مساح حروب ، أو على الأقل نحو عدة جهات ومحاور متعددة . ويستلزم ذلك فى العادة موازنة دقيقة لتخصيص جزء مقدر بدقة من طاقاته العسكرية يكفى فقط وباقتصاد حذر للقضاء على العدو فى كل مسرح أو محور . فالاسراف والتبذير فى تخصيص طاقاتنا لجهة ما ينتج عنه التقدير ، وبالتالي الضرر ، الذى يمس أهدافا وجهات أخرى .

والبحث عن خيط الموازنة يبدو انه هو الذى سيقودنا فى النهاية لتعريف الاستراتيجية بـ « الخطوط العريضة لمجموعة من القرارات (الاختيارات) المنسقة التى يراها القائد مقدما وينظمها فى خطة متماسكة لمواجهة عدو يستطيع ان يتنبأ برودود فعله » وهذا الجزء الأخير « يستطيع ان يتنبأ برودود فعله » مهم للغاية فالعدو أيضاً لسوء الحظ يملك نعمة التفكير . وليس هناك حدود لعبقرية العقل البشرى .. أو غبائه . وذلك ما كان ولينجتون ينه له قادته دائماً ، ان ينظروا للوجه الآخر للمسألة . "The other side of the hill"

هل انخططنا بالاستراتيجية إلى مستوى تقدير الموقف العادى ؟ ان الاختلاف حقيقة يكمن فى « الابعاد » وليس فى « الجوهر » . فالبعد الزمنى بين القرار وتنفيذه

يجعل التنبؤ بأفعال وردود فعل العدو خلال هذه الفسحة الزمنية هو الصفة الغالبة .
وذلك مما يجعل الاستراتيجية فنا "Art" يعتمد على الحدس الصادق "Intuition" أكثر
منها علما "Science or craft" يعتمد على الحساب . أما في تقدير الموقف التكتيكي
فيقل كثيرا الاعتماد على التنبؤ ، فهي هو العدو أمامك ، وهما في ردود فعله أمامك
والارض والتوقيت والحشد أكثر تحديدا .

والتعرض للعدو وهو في أضعف مواقفه - أي منها - هي الضمان لتحقيق
أنجح استثمار أو « أكبر ناتج بأقل مجهود » كما برهن تاريخ الصراع البشري ،
منذ ان ارفع قابيل هرواته الضخمة وهوى بها ليحطم رأس هابيل ، وإلى يومنا
هذا . عكس مواجهته مباشرة وهو في موقف قوى . فذلك بالضبط كمن ينطح
الحائط براسه ، ليصل لما وراءه ، بدلا من ان يقفز فوقه .

وأكثر لحظات ضعف الجيوش - كالانسان - هي اللحظة التي يفاجأ فيها
ويضبط فيها متلبسا في لحظة ضعفه بعد مفاجأته . والابتعاد دائما عن « السلوك
المباشر » هي اضمن سبيل لتحقيق ذلك الموقف ، مفاجأته أو على الأقل زعزعته .
"Dislocation"

فلاقتراب غير المباشر - كاحدى سبل السلوك غير المباشر البعيد - هو
أقرب واسهل طريق للمكان الامثل لتحقيق تلك المفاجأة وزعزعة العدو . وهذا
المكان الامثل هو خطوط تموينه ومواصلاته الخليفة . وإن شبهنا النصر والمعركة
التكتيكية بالثمرة أو الزهرة ، فخطوط الامداد هي ساق الشجرة الذي يمرر الماء
والاملاح ولولاه لما أثمرت ثمرة ، ولما تفتحت زهرة . والانسان اذا أحسن بخطر
من الخلف يستدير لمواجهته ، والجيوش تستدير في زمن أطول وبمشقة أكبر ،
وزمن استدارتها هي أكثر لحظات ضعفها ، هذا اذا لم تسلم اذا سقط « شريان
الحياة » ، خطوط تموينها ، في يد العدو ، وأجبرت عن طريق الموقف النفسى
على الاستسلام .

كانت الخطوط الخلفية هي إحدى السليبات في « الهجوم الاستراتيجى » التي اشار
اليها كلوزفنس بوضوح في بحثه الحسابى العلمى المجرد « عن الحرب » . "On War"
« سليبات الهجوم الاستراتيجى .. ثانيا : الفراغ الذى تركه القوة المتقدمة

خلفها ، وهو مهم وحىوى لبقائها ، ولا يمكن حمايته بقوة الهجوم نفسها .

“The decreasing forces of the attack; In the second place, the space which a military force in it's advance leaves behind, cannot always be covered by the attack itself.”

ولم يكن استغلال هذا الضعف جديدا على استراتيجية المهدي . فقطع خطوط امداد هكس كان هو المسار الأول الذى دق فى نعشه ، وقطع خطوط امداد غردون النهرية — باحتلال بربر . والأرضية بتجبر عثمان دقته للثورة فى شرق السودان كانت هى حكم الاعداء على « قائد الجيش الذى لا يقهر » والتصدي لبعثة الانقاذ فى أبو طليح وهى ترنو بأنظارها وحلوقها ظامئة لماء النيل ، كانت تدل على ادراك صحيح لتأثيره .

ونادرا ما تجسم فى تاريخ الحروب سلبات الهجوم التى اشار لها « كلوزفنتس » كما تجسست فى موقف السردار ، ليتمكن عدوه من استغلاله فى استراتيجية غنية . ولم تستمر السلبات والضعف أياما أو شهورا ، بل استمرت سنينا ، ولم تمتد لعشرات الأميال ، بل لمئات الأميال .

لقد كمن ضعف السردار فى خطوط تموينه ، وتوفرت بذلك فرصة عظيمة للخليفة لضربه ، ولكنه لم يتمكن من انتهازها الا لضعف موقفه هو الآخر ، كان السردار كالسلفاء ، مقدمة قوية مصفحة ، وبطن هشة ناعمة يسهل خرقها . ولم تتجسم عبارة كلوزفنتس عندما وصف الهجوم بأنه « عملية سلبية ذات هدف إيجابى » كما تجسست فى تقدم السردار . لقد ابرز تقدم السردار سمات سلبية الهجوم ، وهو الفراغ السلبى أو المعادى الذى تتركه القوات خلفها كأبرز ما يستغله الجانب الآخر لخلق الموقف النفسى ، أى وضعه فى موقف ميثوس منه — وهو فى حد ذاته غاية ، كما ينادى المعاصرون ، أو استغلاله لآبادة العدو ، كما نادى كلوزفنتس .

لقد كانت خطوط امداد السردار هى « كعب اخيل » الذى كان على الخليفة ان يوجه اليها ضرباته الاستراتيجية . فنادرا ما اعتمد مصير حملة وبقائها على خيط رفيع مثلما اعتمدت حملة السردار على خط السكة حديد لفترة طويلة ، أو على النهر طوال الوقت — خط طويل مستقيم لمئات الأميال صعب الحماية .

والواقع تلك سمة من سمات استراتيجية القرن التاسع عشر المحدودة .
فإن اختراع السكة الحديد بدلا من أن يؤدي إلى استراتيجية أكثر مرونة بمقدرتها
السريعة الفائقة على نقل القوات والتموين بكميات هائلة في أيام بدلا من شهور ،
أدى إلى استراتيجية مقفولة مشلولة . وغلت السكك الحديدية يد الاستراتيجية
المرونة كثيرا ، فقد أصبح الاعتماد كلية على رأس السكة حديد حيث تصب
القطارات المؤن والتعزيزات . وزادت حساسية القادة وهم يتقدمون للامام وينظرون
فوق اكتافهم للخلف دائما خشية ابتعادهم عن خطهم الحديدي - شريان الحياة -
أو خشية قطعه بواسطة العدو . فأدى الأمر في النهاية إلى استراتيجية مستقيمة يابسة -
عكس الرقي والابداع الذي شهده مطلع القرن ، وبرزه الاستراتيجية العظيم « نابليون »
بتجسيمه واستخدامه الاستراتيجية البارعة لتنظيم الفرق الجديدة "Divisional System"
للتقدم والدفاع بمحاور متعددة ، بل لأقصى مدى في استخدامه للتقدم الاستراتيجية المنتشر
" Strategic Barrage " .

كان ذلك الأثر السلبي ، استراتيجية السكك الحديدية ، واضحا في نهاية
القرن ، وكان أوضح سمات الحرب الاهلية الأمريكية ، وأهم سمات حرب البوير .
وحتى عندما حاول مولتكه ان يخفف من اضراره في الحرب السبعينية واستخدم
خطوط السكة الحديدية « كشبكات » ، وليس « كخطوط » ليزيد من مرونتها ، وبعد
مجهود ونفقات باهظة ، لم يستطيع ان يتحرر تماما من عبودية استراتيجيتها الصلبة .
ويمكن تقسيم أطوار استراتيجية الخليفة ، على ضوء امكانية استثمارها ،
أى من خلال موقف العدو ، إلى قسمين رئيسيين ، قبل عطبرة ، وبعد عطبرة ،
والواضح ان الفرصة التي توفرت للخليفة قبل عطبرة كانت أكبر ، ومجال اتخاذ
استراتيجية ثرية صحيحة الجسم أوسع . فما ان وصل الخط الحديدي إلى عطبرة ،
وهو يحمل اطنانا من المؤن وقطع البوارج . إلا وكان مصير معركة ام درمان قد
حدد لحد كبير .

فتقدم السردار إلى حلفا وخط السكة حديد يتبعه خطوة بخطوة ثم يفصل عنه
ليشق صحراء العتمور وليعضى السردار مجبر على الالتصاق بالنيل ، والمعارك
تمضى بوتيرة واحدة - السردار دائما هو الأقوى وهو المنتصر ، فركه ،

الحفير دنقلا ، ثم يزحف خطه الحديدى متعبرا لمئات الأميال شرقا ، عبر الصحراء بعيدا عن النيل ، عبر العواصف الرملية ، لا تحرسه الا بضعة كتائب من الخلف ، وأقل منهم فى حراسة العمال والمعدات ليلتقيا أخيرا بعد معركة أبو حمد عند انحناء النيل الكبرى . وعند التقائهما حانت فرصة الخليفة العظمى . فقبل اللقاء كان الاعتماد أساسا على البوارج ، وسنعالج تلك فى مجال آخر — أما بعد أبو حمد فقد القى الثقل الاعظم مرة أخرى على السكة الحديد .

وعلى الرغم من العوامل المضادة التى قد تبرر ظاهريا عدم انتهازه لتلك الفرصة ، الا ان الحقيقة تختلف قليلا . أول العوامل المضادة هى فقدان الخليفة لطريقة مخابرات دقيقة . ذلك العنصر الهام من عناصر الاستراتيجية الذى يجعل التنبؤ فنا وليس سحرا ، لتوضح موقف العدو ومراكز ضعفه وقوته ، فلم تنتظم إلا فى الفترة الأخيرة . وقد شاهدنا أثرها على الفور فى تقارير عبد الباقي . فقد ادرك عبد الباقي أين كانت قوة السردار الرئيسية ، عندما عاد واعتمد مرة أخرى على البوارج فى تقدمه الأخير نحو ام درمان . وكانت نتيجة تقارير عبد الباقي وهو يعزف على نغمة البوارج ويصف جمع الحطب ونتائج استجواب الأسرى موضحا خطورتها ، ان شرع الخليفة فورا ، فى إنشاء دفاعاته على شاطئ النيل ، وفى تجهيز الالغام المائية .

ولكن قبل ذلك كان كل اعتماده على خطابات وتقارير حكامه . ولعل لبعيد المسافة أثرا كبيرا — فلم يكن الزاكي عثمان ، ولا محمد الزين ، ولا محمود بالكفاءة التى تمكنهم من تصور الموقف بوضوح رؤيا كافية ونقله للخليفة ، فقد انحصر همهم كله فى هزم العدو ومواجهته — فلم يتسنى للخليفة ابدا تصور قوة أو ضعف العدو الا بعد ان نظمت المخابرات بقيادة الأمير عبد الباقي . وكان ذلك القصور هو العنصر السلبي الاول الذى منع الخليفة من انتهاز فرصه الذهبية .

أما العنصر الثانى فهو يدخل ضمن سلبات « استراتيجية الخليفة العليا » وهو حياد أهالى المنطقة الشمالية أو انضمامهم للجيش الغازى ، بعد إخلاء الخليفة للمنطقة وسحب قواته منها . وقد تعرضنا لذلك فى بحثنا عن استراتيجية الخليفة العليا . وها قد وضح أثرها فى استراتيجيته . والمرء يعجب حقا من السهولة التى

كان يمكن لبضعة عشرات من الاهالى تسبب أضرار بالغة للسردار للدرجة التى تسبب له الشلل ، فى غارات متقطعة لتقطع خط السكة حديد عبر مئات من الأميال الخالية . ولنا ان نقارن هنا بين مئات من الاهالى قبل خمسة عشر عاما وهم يتطوعون باختيارهم لينضموا فى صفوف هكس ليضلوه ولينقلوا للمهدى تقاريرا صادقة عدة مرات يوميا ، وليدفنوا الابار ، ولنا ان نقارن حصار الخرطوم وعشرات من الاهالى بل من كبار الضباط وهم يتسللون يوميا ليصفوا الحالة فى الخرطوم بالضبط ، ونقارنها بتقدم السردار « وسره محفوظ » وخطوطه مؤمنة . نحن لا يمكن ان نتجاهل الظروف المحيطة بالمعركة — "Environments"

وأكبر دليل على أثر ذلك فى تسبب قصور ادراك الخليفة وجهله عن عدوه المتقدم ، انه ظل حتى قبل شهور بسيطة من المعركة وهو يظن ان العدو سيتقدم نحوه بمحوريين كما فعلت حملة ولزلى ، عن طريق النيل ، وعن طريق صحراء بيوضة كما فعل طابور الصحراء "Desert Column" وهذا ما جعله يدفع بيونس الدكيم إلى ابار جبره و ابار جقدول فى الطريق الذى يشق الصحراء إلى المتمة، بينما كان العمل يجرى منذ سنتين فى خط حديدى طوله ٣٠٠ ميلا، ووصل إلى عطبرة . ولكن حتى لو أضفنا لكل تلك العوامل ، شلل الخليفة بام درمان وعجزه عن المناورة بجيشه الكبير ليطعن كتشتر من الخلف أو الجنب لصعوبة التموين ولقلة الجمال ، نجد ان فرصة الخليفة الذهبية ظلت ساعة خلال كل تلك الفترة التى مثلت أقصى لحظات الضعف فى السردار .

كيف ؟ الاجابة هى عثمان أزرق . بطل الحدود الشمالية . اخصائى الغارات الصحراوية والضربات المفاجئة . وليست هذه محاولة خيالية ظالمة منا لمحاسبة الخليفة بعد سبعين عاما ، ونحن لا ندرى كل الظروف ، ونحن لسنا هو . ولكن حقيقة كانت تلك فرصة الخليفة الوحيدة ومن الصعب تخيل طريقة أخرى ليناور بها مع طبيعة الأرض المكشوفة ومع صعوبة تحركه (١) .

(١) لعل المذكور أدناه يوضح ما نقصده :

The situation south of Halfa now was that the nearest large force of Der-vishes was at Kerma under the command of Osman Azrak, who from time to time sent raiding parties north of Akasha and the railway as far as Ambigol had been destroyed many times.

ونحتاج منا لوقف قصيرة لدراسة نظريات عثمان أزرق التي خلفت لتجني أعظم ثمارها في مثل ذلك الموقف . فالواقع ان عثمان أزرق وجد الاجابة الصحيحة لسؤال كان يشغل بال المفكرين واحتل الجدل حوله حيزا كبيرا من الفكر العسكري في أواخر القرن الماضي .

وهو استخدام الفرسان "Cavalry" هل تستخدم مجاميع الفرسان للاستفادة القصوى من قوة صدمة السلاح الأبيض "Arme Blanche" وقمتها هجمة الفرسان "Cavalry charge" كما استخدموا تكتيكيا لقرون باعتبار قوة صدمتها فقط ؟ أم استخدامهم الاستراتيجي كمشاة راكبة "Mounted infantry" سلحوا بالبنادق والمدافع والاستفادة منهم كعنصر نيران يخفف حركة وسرعة عالية تتمكن مجاميعها من صب نيرانها في أماكن غير متوقعة أو حساسة أو بعيدة ، محققة المفاجأة والاثار المطلوب ، وبأسس تختلف تماما عن استخدامهم التكتيكي القديم كجزء مكمل لتشكيلات المشاة ثقيل الحركة ؟ (١) (٢) .

ولم يجد البريطانيون رغما عن حروبهم الكثيرة في القرن التاسع عشر الاجابة

Extracts from a Leutenants Diary Sudan Notes & Records Vol XIX,
Part I, p. 175

كان الموقف الآن جنوب حلفا كالاتي : « أقرب قوة كبيرة للعدو كانت في كرمه تحت قيادة عثمان أزرق ، الذي كان يشن غاراته شمال عكاشه . وقد دمرت غاراته خط السكة حديد حتى امبكول مرات عديدة . »

(١) التاريخ يعيد نفسه ، فنفس هذا النزاع ثار مرة أخرى بعد ثلاثين عاما حول استخدام المدرعات « الخيول الحديدية » في العشرينيات بعد الحرب العالمية الأولى . هل هو الاستخدام التكتيكي للمدرعات ونيرانها ودرعها لمساعدة المشاة في مواقف تكتيكية محلية أم الاستخدام الاستراتيجي للمدرعات السريعة المرونة بتوفر الجنازير لعبور الاراضي الوعرة بعيدا عن الطرق المعبدة ثم بعد ذلك يأتي استغلال الدرع والثيران . أو بعبارة أخرى أيهما أولا الجنزير أم المدفع والدروع ؟ الواضح طبعا أي المدرستين انتصرت في الحرب العالمية الثانية .

(٢) الغريب حقا ان اسطورة صدمة السلاح الأبيض "Formidable Arme Blanche" عاشت إلى عهد قريب - فحتى عام ١٩٣٩ شهد فرق والوية الفرسان البولنديين تهاجم بخيولها المدرعات الألمانية في شجاعة نادرة أشبه بشجاعة فرسان دغيم . كانت حربة الفرسان الطويلة ضد مدفع الدبابة الطويل ورشاشاتها . بل حتى عام ١٩٤١ شهدت الجبهة الشرقية في الجنوب فرق « بوديونى » من الخيالة الروسية وهي تهاجم المواقع الألمانية .

الصحيحة إلا بعد ان دفعوا ثمنًا غاليا في حرب البوير. فقد ووجهوا بعدو كله راكب تقريبا Mounted Infantry ووقف تقسيمهم : السلاح الأبيض للفرسان ، والبنادق للمشاة حائرا . فكل البوير كانوا مشاة راكبين يحملون البنادق ، ولم يكن أحد يدرى بالضبط من أين ستقع ضرباتهم ، فكانوا يظهرن بخيولهم فجأة وباعداد بسيطة دائما خلف خطوط البريطانيين ويسببون لهم أضرارا جسيمة .

لقد احس عثمان ازرق بميزة الفرسان الاستراتيجية عن ميزتها التكتيكية . فلم يحتفظ بهم لتوجيه هجمات وصدمات محلية بالسلاح الأبيض . بل كانت كل قوته من المشاة راكبين "Mounted Infantry" - بين ثلاثمائة وخمسمائة فارس سلحوا جميعا ببنادق ومنجنتون في استغلال رائع لقوة نيران تتحرك بسرعة مذهلة وتنقض فجأة من اتجاه الصحراء ، وبعيدا عن طرق الصحراء المتوقعة ، و دائما خلف الاعداء . فكان ان تفاخر سجل عثمان العسكري بما لا يقل عن مائة غارة أغلبها داخل الحدود المصرية .

وحينما دفع الخليفة بمحمود للشمال ، وبعد ان عاد السردار والقي ثقله مرة أخرى على الخطوط الحديدية وقد تم أكملها في خط واحد من حلفا حتى بربر ، كان ذلك هو الوقت الملائم لتطبيق نظريات عثمان أزرق . فالذخائر والمؤن والبوارج المفككة والتعزيزات وهي تنهال على السردار المتردد في مهاجمة محمود كانت هي انصب لحظة . خط سكة حديد يمتد لأكثر من ٣٠٠ ميل تحرسه « كتائب السكة حديد » فقط وحدات جعل تسليحها وتدريبها قيمتها القتالية منخفضة لحد بعيد ، كان ذلك هو مجال عثمان أزرق لآبادة إحدى الكتائب بعد التناف واسع . أو ضيق ، وقطع الخط الحديدي في عدة أماكن ونسفه أو فكه . ولم يكن ذلك بامستحالة فنية ، فرسالة يعقوب مليشة بالمواد المتفجرة ، وقد شاهدنا اثر انجازها الماحق في الباخرة الاسماعيلية . مجهود بسيط يوجه في اللحظة المناسبة وفي المكان المناسب كان كفيلا بوضع السردار في نفس موضع محمود وهو يبعث الخطاب تلو الخطاب يشكو للخليفة من قلة التموين ، كانت كفيلا بأن تجعل اسلاك التلغراف تهتر بمئات البرقيات للاستنجد . ومجرد ان يظل التلغراف سليما لم يمض حتى اللحظة الأخيرة ، وقطع سلكه لا يكلف احد

الاهالى إلا بضعة دقائق ، تجسيم لروح العمليات التى اتسمت بها معارك الخليفة الأخيرة ، فلعل أول عمل عدائى قام به عثمان ضد قواته الاحتلال كان هو قطع خط التلغراف ، وذلك ما فعله محمد الخير فى بربر .

كان الاستغناء عن بضعة مئات من الوف الجياد المحتشدة فى امدرمان ووضعها تحت قيادة عثمان أزرق - أو أى قائد كفء - كفيلا بتحقيق أعظم الاثر بأقل مجهود وأقل مخاطرة . وكانت كفيلا بتحريض استراتيجية الخليفة من « قرحتها » الدائمة . . التموين . فعثمان ازرق تمت كل عملياته وهو يعبر مئات الاميال فى الصحراء بعيدا عن مصادر التموين والمياه . والواضح أنه وجد المعادلة الصحيحة لتموين عملياته السريعة بعيدة المدى .

.. ..

أما بعد معركة عطبرة فقد عاد السردار والقى ثقله على البوارج ، وعندما وصل الخط الحديدى إلى عطبرة وانشئت ورشة تركيب البوارج المحملة على السكة الحديدية وبدأت تقذف النبل بالبوارج المدرعة قوية التسليح ، قوى مركز السردار وصار تصيد ضعف موقفه « مجال الاستثمار » صعبا وأكثر إنحصارا وتحديدا .

فحتى الطبيعة ساهمت فى تقوية السردار وجعل تقدمه منيعاInvincible للدرجة نادرة الحدوث فى تاريخ الحروب . فما خلفه - فراغ كلوزفيس السلبى - خطوط الامداد والتموين « كعب اخيل » - أصبحت مؤمنة - الرياح الشمالية تدفع ببوارجه جنوبا جارة خلفها مئات من الصنادل حاملة اطنانا من المؤن ، وتيار النبل السريع يدفع بالصنادل الفارغة شماليا تحت حماية البوارج المدرعة لتعود محملة باطنان أخرى من قاعدته الادارية عطبرة . وأخيرا النبل على بعد ياردات يساره ... لماء الشرب ! .

أما من امامه فقد قدمت له الطبيعة طريق تقدم مثالى . ارض مكشوفة لمئات الاميال . وبدلا من ان يتقدم السردار خلال الطرق الضيقة كما فعل هكس فى كردفان وجراهام فى شرق السودان ، تقدم عبر طريق واسع عرضه مئات الأميال "Grand Highway"

فى القرن التاسع عشر كان النجاح التكتيكى يقاس لحد بعيد بمقدرة القادة على تحويل اصطفاى جىوشهم ووضعها فى تشكيل المعركة "In line" لتسمح بأكبر كمية من النيران ، ولتقدم أعرض مواجهة ممكنة . فالجىوش تتقدم بتشكيل التقدم "In column" فى عمق يبلغ أمبالا للخلف ، ولكنها تقاتل فى تشكيل المعركة. وتغير تشكيلها لمواجهة العدو ، تكمن كل الخطورة فيه ، فى لحظات الاضطراب التى تسود الحشود قبل ان تقف كتفعة متماسكة أخيرا . ولكن السردار لم يتعرض لذلك الخطر الامامى أولا "لأن الخليفة لم يشاء ان يتعرض له حتى وصوله ام درمان . وثانيا لأن الطبيعة قدمت للسردار طريق تقدم يكاد ان يكون بعرض لا نهائى . فكان تقدم السردار دائما فى تشكيل المعركة تقريبا .

وذلك درس يجب ان يتعلمه الجميع . وهو ان الصحراء دائما فى صالح المتحرك . فانهدام أى هياث طبيعية - اذا استئينا النيل فى هذه الحالة - يجعل التمسك بالأرض صعبا وغير ذى موضوعية . فالمهم هنا هو قوة العدو ، وليس الأرض . فالمعارك فى الصحراء كالمعارك البحرية ، لا تتم فيها ماثات الأميال من مساحات المياه - أو الرمال - بل المهم هو سفن العدو . وذلك ما جعل حرب الصحراء حرب معدات "Equipment" وآلات أكثر منها مجالا للمشاة ، لنتمكن من الحركة والتدمير والمناورة السريعة . والتفوق فيها يكون من نصيب من يتحرك أسرع ، ولصاحب النيران ذات المدى الأبعد والاكثر فعالية .

أما اجنابه ، فالتصاق السردار بكتفه الأيسر على النيل كفاه مشقة بذل أى مجهود لحماية الجنب الأيسر ، فقد حرصه بوارجه القوية . اما جنبه الأيمن المكشوف فقد كفلت له الصحراء المستوية الحماية من المفاجأة ، فالرؤيا لا يحجبها الا خط الافق . وكفل له استكشاف الهجاة لعشرات الاميال غربا ، انذارا مبكرا يوفر له زمنا كافيا للاستعداد .

وحقيقة يختار المرء كيف كان بإمكان الخليفة ان يناور بجيشه الكبير ليتجنب الهجوم المباشر على السردار - فأى محاولة من جانب الخليفة للالتفاف حول السردار لمفاجأته وطعنه من اليمين أو الخلف - كانت تعنى مع الأرض المكشوفة واستكشاف الهجاة - التفافا واسعا يصل إلى عشرين أو خمس وعشرين ميلا

غرب النيل - ولكن مجرد الابتعاد عن النيل كان يعنى ذلك ان تحمل القوات ماء الشرب معها .

من النظرة الاولى يبدو للمرء انه لم يكن امام الخليفة مقر من اتباع استراتيجيه صماء . ان يهاجم الخليفة هجوما مباشرا اماميا أو ينتظر السردار - فى أقوى موقف ليهاجمه . فخلافاً لسياسات الخليفة التى منعت من التحرك للشمال ، أفلح تقدم السردار المنيع فى جعل الأمر سيان بالنسبة له ، أن يواجهه فى كررى أو فى المنمة أو فى عطبرة . ونفس الموقف على طول المائتى ميل ، وأى منهم لا يحقق امتيازاً على الآخر .

عفوا .. ولكننا قلنا ان ذلك يبدو من النظرة الأولى ، فحقيقة لا يوجد فى الاستراتيجية ما يدعى استراتيجية صماء ، أو استراتيجية مشلولة ، طالما قلنا انها موجهة نحو عدو يتغير موقفه دوماً . فالمدقق يستطيع ان يرى انه بقيت للخليفة ثلاث فرص أو مسالك تمكنه من الانفتاح على استراتيجية منفتحة منطلقة ، كلياً أو جزئياً .

ان الاستراتيجية فى أعظم نجاحها هى تلك التى تمكن بالنشاط الاستراتيجى فقط - دون التكتيكى ، وبأقل نسبة منه - بتحقيق الجزء الأكبر من الهدف العسكرى . ويبدأ نجاحها ، وبالتالى فعاليتها ، يقل تدريجياً كلما زاد الاعتماد على النشاط التكتيكى فى المعركة ، أو كلما وقع العبء كله على النشاط التكتيكى كما حدث يوم ٢ سبتمبر ٩٨ فى معركة كبيرة تستمر لبضع ساعات ، ففى تلك الحالة كانت فعالية الاستراتيجية فى أدنى درجاتها . اما ان دلت كل الظواهر على ذلك الموقف - كما اظهر لنا تقدم السردار المنيع - وأصبح الموقف التكتيكى الحاسم شر لا بد منه ، فهنا يصبح هدف الاستراتيجية الأساسى وينحصر دورها فى تهيئة الموقف التكتيكى المناسب بتقليل مقاومة العدو التكتيكية لاقصى درجة ممكنة "Nullifying his resistance" كتمهيد للمعركة التكتيكية فى أحسن ظروفها .

وسرى كيف ، حتى بعد بدء تقدم السردار من عطبرة ، تفاوتت فعالية الاستراتيجية ، بين الفعالية الكاملة ، والفعالية الجزئية ، ونحن نمر مروراً سريعاً على المسالك الثلاث المفتوحة للخليفة .

حقيقة كانت فرصة الخليفة تكمن فى اتباع اقترح محمد الزاكي ومن

خلفه يعقوب بالهجرة غربا : وانتهت مناقشة الاقتراح بتلك النهاية الدرامية التي سبق وصفها (١) . فانسحاب الخليفة لكردغان كان يشطر بضربة واحدة أكثر من ثلثي قوة نيران السردار ، ويكبد نفس المشاق التي تكبدها هكس وأدت إلى فوائده ، صعوبة الحصول على مياه الشرب ، وابتعاده عن خط تموينه ، وطرق كردغان الضيقة التي تحيط بها الأشجار والغابات من كل جانب ، أهالي المنطقة وولائهم للخليفة ، وتحييد أثر البواخر مركز قوة السردار . وعندما انفعل الخليفة وأمر بصفع مقدم الاقتراح ووضع في السجن ، كان واضحا ان رد فعله كان نابعا من موقفه كمدير لاستراتيجية عليا ، وليس إستراتيجية عسكرية بحتة .

أما المسلك الثاني المتنادى بملاقاة العدو في السبلوكة ، تلك البقعة التي تبرز فجأة لتقلب ميزان القوى رأسا على عقب ضد السردار بعد أن ظل في صالحه طوال ٢٠٠ ميل من التقدم . فهو موجه من ناحية نحو الهدف المثالي للاستراتيجية المنطلقة : خطوط الامداد - البوارج - عندما عباد السردار والقي ثقله مرة أخرى عليها ، بعد ان حملت على السكة حديد وجمعت في ورشة عطبرة . فاحتلال السبلوكة أو حتى تحصينها بالمواقع والمدافع كان كفيلا بإيقاف تقدم السردار إلى ان يتم تنظيف المجري من المعقوقات ، والجبال من المدافعين ، وما اصعب ذلك . خصوصا وارتفاع النيل في تلك المنطقة لدرجة تسمح بالملاحه ، لا يستمر أكثر من شهرين - من يوليو لستمبر .

أما الشق الثاني - تقليل مقاومة العدو تمهيدا للمعركة - بحرماته من عنصر تكتيكي رئيسي - مدفعية البوارج فليس هناك ما يضاف لما ذكره عثمان دقنة وابراهيم الخليل في المجلس العاصف عندما (٢) ايدا اقتراح الدفاع في السبلوكة . الا ان نقطة الخلاف الرئيسية بين الخليل ودقنة : هل ينتقل كل الجيش للوقوف الوقفة الرئيسية الحاسمة في السبلوكة ؟ أم يدافع فقط عن الموقع كموقع مهم مهم وحراسة المدفعية ، بجزء من الجيش فقط ؟ فهي تلقى ضوءا قويا على نقطة الضعف الوحيدة في اختيار السبلوكة لوقفه النهائية - فالقوة التي تدافع فيها مهما كان حجمها ستعزل من خطوط تموينها بامدرمان لو التفت السردار حول جبال

(١) الحشد ص ٢٠٥

(٢) الحشد ص (٣١٥)

السلوكة متفاديا حشد الخليفة ومنفصلا عن اسطوله النهري كما فعل فعلا . وفعلا
نوقش أمر التخلي عن الاسطول النهري وتركه شمال السلوكة بين كتشنر وونجت ،
وكتشنر وكرومر عندما علم ونجت بنية الخليفة باحتلال السلوكة . ، على ان يلتف
كتشنر حول الجبال ويندفع مباشرة لامدرمان تاركا الخليفة في الجبال معزولا .

ولعل الرأي الذي حذم معاملة السلوكة كموقع مهم فقط يوفر باحتلاله
تقليل مقاومة العدو بعزل البوارج كان أقرب للصواب . وعلى كل ، وسواء ان
كان هذا أم ذاك ، فلم يكن موقع السلوكة بالموقع الذي يترك بدون استغلاله
لاقصى حد .

أما المسلك الأخير ، اتباع استراتيجية مسخرة تماما لتقديم موقف تكتيكي
احسن بتقليل مقاومته قبل دخوله المعركة ، بعد ان اصبح خوضها محتما ، فكان
يمكن اتباعه عن طريقين ، أولا ازعاج العدو يوميا بعد مغيب الشمس وحلول
الظلام بمناوشته وازعاجه "Harassing" ثانيا : باختيار موقع مناسب لمعركته الحاسمة
يرز قوته هو ، ويقلل من قوة العدو . مرة أخرى تشي ظواهر الامور بأن الخليفة
منح الشق الثاني لإهتمامه الأكبر ، ولكنه تجاهل الشق الأول وهو لا يقل أهمية .

ولعلنا نذكر ان المبدأ الأول في الاستراتيجية هو معاملة العدو « مجال
الاستثمار » كمواقف متغيرة ، مهما بدا ان موقفه قويا على الدوام ومهما بدا محصنا
ضد الضعف . ومناعة تقدم السردار كانت تتغير يوميا إلى ضعف نسبي . كان
ذلك عند حلول الظلام كل ليلة . فمتد ان بدأ السردار تقدمه من عطبرة كان
الضعف يبرز عندما تلملم قوته نفسها وتنكمش داخل زريبة رهيفة لا يحرسها
إلا الديدبانيه . وكان اوضح قبل ان تنضم كل الويه السردار في معسكر ود حامد .
فقبل ود حامد كانت الالوية المصرية تتقدم بأرجلها واحدا واحدا ، بينما حملت
الفرقة الانجليزية على البواخر . اما بعد ود حامد فقد تقدمت كل القوة ، وهي
تدافع كل ليلة محصورة في دائرة صغيرة تكادس فيها عشرون ألف رجل يحوطهم
الظلام الدامس من كل جانب ، وتغمرهم الأمطار الغزيرة في عدة ليالي . لعل
ذلك كان أحسن موقف لتصوير كلمات كلوزفتمس :

The decreasing first of the attack ; for in the second place, the force

cannot go on uninterruptedly up to it's conclusion, it must have stages of rest when it's action is neutralized, and the state of defence steps out of itself.

« أسباب اضمحلال قوة الهجوم : فى المكان الاول ، لا يمكن للهجوم ان يستمر بنفس إيجابيته من البداية للنهاية بدون توقف ، وفى توقفه يفقد الهجوم مبادئه ويصبح محايدا ويبرز كحالة دفاع مؤقت . » وهنا كان يجب على الخليفة اتباع استراتيجية النفس الطويل على أساس سلسلة من العمليات التكتيكية الصغيرة تحقق فى المدى البعيد فى مجموعها الهدف الاستراتيجى ، تقليل مقاومة العدو عند دخوله المعركة الرئيسية واستترافه "Attrition" وليس المهم هنا استترافه جسديا ، بل معنويا .

فالهدف هنا هو ان يصل العدو لكررى وهو مزعزع نفسيا وقد اهتزت معنوياته "Shaken" . والخليفة كان ملما بأثر مثل تلك العمليات الازعاجية على نفسية العدو . فقد كان ذلك هو الواجب الرئيسى لجهادية ابو عنجه، ويران بنادقهم تنصب على جنود هكس ليلا ونهارا حارمة اياهم النوم طوال تقدم الحملة . وكان ذلك هو الهدف من قصف الخرطوم بالمدفعية كل ليلة ، وكانت هذه هى سمة العشرات من عمليات عثمان دقته ، وهو يتابع العدو ويناوشه ليلا ونهارا قبل الاشتباك الحاسم الأخير . واخيرا وضع اهتمام الخليفة بذلك الامر فى خطته الميدانية التى قدمها جاسوس ونجت الذهبى : الطيب ود الحسين (١) . وهى ان يتقدم الملازمين حتى يقتربوا من المدى المؤثر لبنادقهم ويصبون نيرانهم « طول الليل » على العدو ، وعند اول ضوء تهجم الراية الزرقاء بالسلاح الابيض على عدو مترعزع نفسيا متعب جسمانيا من عدم النوم ، وقد تفتت عزيمته ولانت مقاومته الصلبة تمهيدا لتوجيه الضربة القاضية بالسلاح الابيض .

كانت تلك استراتيجية ناجحة للغاية فى هدفها المحدود . ولو نفذت على اصغر مستوى كانت ستحرز اثرا كبيرا حتى فى مستوى فرسان عبد الباقي ، اذا اضيفت لواجبات اطواف الاستكشاف واجبات اطواف محاربة ، ثم زيد عددها قليلا وخصصت لها قوة اكبر من الفرسان . فقوات عبد الباقي لم تبعد فى اغلب الاحيان اكثر من خمسة اميال عن القوة الرئيسية للعدو . ودائما كانت على مسافة

(١) انظر الملحق «ب» خطة الخليفة .

النظر منهم ، وكان من السهل عليها الانقراض كل ليلة على ذلك الهدف الضخم الذى تكسده داخله عشرات الالوف ، وصب نيرانها عليه - ولقد شاهدنا خطابات عبد الباقي وهو يستجدي الخليفة ان يسمح له بالمناوشة ، رغمًا عن اوامر الخليفة القاطعة بتجنّبها .

ماهو عذر الخليفة فى تجاهل ذلك المسلك الذى اتخذه مرارا واثبت نجاحه اكثر من مرة ؟ نجد الاجابة مرة أخرى فى خطة الخليفة المبدئية التى وضعها قبل التحرك من امدرمان «ملحق ب» . والغريب ان احساس الخليفة باهمية ذلك المسلك هو الذى منعه من اتخاذه على تلك الصورة - عمليات صغيرة كل ليلة . فقد قرر ان ينقله على نطاق واسع "grand scale operation" . بأن يجمع كل العمليات الليلية الازعاجية الصغيرة فى عملية ليلية ضخمة فى ليلية المعركة نفسها تشترك فيها كل نيران الملازمين بتأثير مباشر ، وبأثر اكبر والعمليّة تتم قبل ساعات من الاقتحام الرئيسى .

ولابد ان الخليفة وازن كالعادة بين مزايا تلك الاستراتيجية ، وبين اخطار العمليات المنزلة وهى بعيدة عن اشرافه الشخصى ، واثرها لو فشلت على معنويات جيشه المهترئة من قبل ، بعد وصول قلول محمود من عطبرة . ولكن سارت الامور على غير مايشتهى . وقد اوضحنا ماهى الملابس التى أدت الى منعه من تنفيذ خطته الاولى (١) .

اما الشق الثانى ، عندما ينحصر الدور الاستراتيجى فى تقديم أحسن المكان والظروف للمعركة التكتيكية الحاسمة . فالواضح ان الخليفة عندما أختاره منح بعض الاعتبار للشق الأول ، أى اختيار أرض وتوقيت مناسب لعملياته الليلية الازعاجية . وهو اختيار كررى للمعركة . فيجدد بنا ان نعيد حتمية اختيارها بالنسبة للخليفة ، ونحن نفعل ذلك يجب أن لانسى العوامل النفسية - اشاعة نبوة المهدي .

ان احتلال امدرمان كان هو الهدف الاول للعدو "Primary object"

(١) انظر ليلا أم نهارا .

فاما ان يدافع الخليفة داخلها واما ان ينتظر عدوه خارجها . اما دفاعه بداخلها فقد نوقشت ظروفه من قبل ، وعندما تحتم على الخليفة اتخاذ المسلك الثاني ، لم يكن هناك موقع احسن من كررى لتنفيذ خطته « الحطة المبدئية » فى مكان يبرز قوته هو ويبرز ضعف العدو :

أولا : كررى تقع فى الطريق المباشر لامدرمان - طريق النيل ، والعدو مجبر على الالتصاق بالنيل . اما الجبال الغربية ، المرخيات ، فهي تبعد السردار عن بوارجه ولكنها تفتح طريقا مباشرا لتقدم السردار لامدرمان (١) .

ثانيا : سلسلة جبال كررى ومركاب هى الهيئة الطبيعية الوحيدة البارزة على امتداد النيل لمئات الاميال وعلى بعد مأمون من بوارج النيل - لتمكن الخليفة من اخفاء جيشه وابوابه استعدادا لاجراء مناورته الليلية « التناف السلاح الابيض حول جنب العدو ، وتقدم الملازمين لصب نيرانهم ليلا وهم على بعد مأمون من النيل » .

ثالثا : التصاق العدو بالنيل سيجعله فى مكان منخفض ، بينما يوفر انحدار الارض نحوه من الجبال قوة دافعة جديدة لاقتحام السلاح الابيض ، كما قدمت الاشجار على مجارى الخيران وهى فى انحدارها نحو النيل ، ساترا يكفل للملازمين التقدم وصب نيرانهم ، وبالذات خور عمر ، وخور ابو سنط ، وخور شمبات . واهم من ذلك ، كانت تلك المنطقة قريبة من امدرمان .

..

لقد تعرضنا لتكتيكات الخليفة أثناء المعركة فى حينها ، وعقب كل اشتباك من اشتباكات المعركة الخمس ، وستقتصر هنا على الدروس التى ابرزتها ، معركة امدرمان للعالم وهو على ابواب القرن العشرين ، وباعتبارها آخر معركة فى القرن التاسع عشر .

الملاحظ دائما ان النقاد العسكريين قيموا معركتنا كمعركة تقليدية على طراز واترلو . لماذا ؟ منذ واترلو كانت سمات المعارك الاوربية هى الاعتماد على خط

(١) حسب رواية العمدة آدم يوسف كان الجنود يسألون لماذا لا ينتظرون العدو فى الجبال الغربية فلما ان تأثير بوارجه كان ماحقا لهذه الدرجة كما وصفها اشقاؤه الذين حاربوا فى عظمه .

صلب من الجنود تتلاصق اكتافه يتقدم مشرعا سناكى البنادق كسنة واحدة حادة وهو يطلق نيران البنادق متقدما بثبات على نغمات الموسيقى العسكرية ، وهو يصبح صيحة الحرب - متجاهلا الخسائر التي قد تحدثها بنادق ذلك العهد البطيئة في صفوفه ، لاجتياح العدو "Storming the enemy" تماما كما فعل السردار بعد مغادرته الزربية وهو يجاهد لوضع ألويته الستة في هذا الخط متجها جنوبا لامدرمان قبل أن يتحطم تشكيله امام هجمتى الراية الزرقاء والملازمين ، وكما فعل مرة أخرى بعد تصفيتهما ، وقد اتجه غربا لعدة اميال عندما (١) اصطففت ألويته الستة مرة أخرى في خط واحد ، قبل ان يستدير مرة أخرى جنوبا لامدرمان بنفس التشكيل . وتاما كالحليل وهو يصبح في رجاله « سدوا الفركة » محاولا قفل الثغرات التي احدثتها الرشاشات والمدفعية ، ليقدم للعدو خطا متماسكا من الرجال ، وتلك كانت علاقة امدرمان بواترلو ، وخلاف ذلك نجد انها اقرب لمعارك الحرب العالمية الاولى منها لمعارك القرن التاسع عشر .

كان كل هم القادة منذ واترلو بناء هذا الصف كاسرع واضمن وسيلة للقضاء على العدو . ونلاحظ ان ذلك التكتيك - الاعتماد على السلاح الابيض "Arme Blanche" باعتباره العنصر الاساسى للهجوم - كان فعالا قبل تدخل عدة عوامل ، اهمها الثورة الصناعية وتلته الثورة التكنيكية . فافتحام السلاح الابيض كان فعالا عندما كان اقصى مدى للبندقية هو ٢٠٠ ياردة ، وعندما كان حجم نيران البندقية لا يتجاوز طلقة فى الدقيقة ، وقبل اختراع الكوردايت والرشاش الاتوماتيكي ، وقبل التقدم الملموس فى صناعة ذخيرة المدفعية وزيادة مداها ، ولكن على الرغم من ذلك التطور لم يتحرر العسكريون تماما من اسطورة السلاح الابيض .

(١) اعتمد ثيوبولد مثلا فى تشيية لمعركة أمدرمان بمعركة واترلو ، فى ان الوية السردار كانت تتكون من صفين من الجنود أثناء المرحلة الأولى عندما فتحوا نيرانهم من خلف الزربية . الصف الامامى مرتكزا والصف الخلفى واقفا ، تماما كما حدث فى واترلو . ولكن فحص الصور الفوتوغرافية واللوحات أثبت أن ذلك الاصطفاف اتخذ على نطاق محدود . وحتى لو صبح ذلك فهو وجه مقارنة ضعيف بين المعركتين أما التشابه الحقيقى فهو يكمن فى انحصار مساحة المعركة .

Theobald, *The Mahdiya* - p. 298
The Imperial War Museum, London,
Artillery Museum, Woolwich.

وظلت النظرة العامة للمعركة هي « الالتحام » الرجال ضد الرجال ، والاسنة ضد الاسنة ، وقد برزوا فوق سطح الأرض ، ولم يكن استخدام النيران هو الاساس ابدا . ووضحت هذه في جميع حروب القرن التاسع عشر في معركة الما في القرم ، هجوم لواء الفرسان الخفيف "Charge of the light Brigade" ومعارك الحرب السبعينية وفي سيدان . ولعل النظرة العامة للدفاع المؤقت اثناء التقدم أو كجزء من المعركة توضح ماقصده . الا وهو تكتيك المربعات .

فعندما اغفى نابليون عدة دقائق في وائرلو استيقظ فجأة على صوت ضجة عالية ، وعندما سأل وعرف الاجابة احس انه قد فقد المعركة . فقد هجم مارشال ناى بكل خيالته على مواقع ولنجتون . وصاح نابليون باكيا « ألا أستطيع أن استريح دقيقة إلا وينهار العالم أمامي ، كيف يهجم شخص بدون غطاء نيران ! ؟ » .

فالذى حدث أن ولنجتون سحب جزءا من مشاته بضع مئات من الباردات خلف المنحدر بعيدا عن أعين الفرنسيين ، وظن ناى أنهم انسحبوا ، فثارت شهية الفرسان ، وهجم بأعداد هائلة من الخيالة ليفاجأ خلف المنحدر بمنظر لم يشاهد من قبل . لقد نظم ولنجتون مشاته في مربعات صغيرة تتجه اضلاعها لكل الاتجاهات وفتحت نيرانها فورا على الخيول المتدفقة من أعلى ، فسرعان مات معظم هجوم الخيالة . فالفرسان وهم يندفعون وينقسمون وسط الازقة بين المربعات البشرية فقدوا قوة صدمتهم . وعبثا حاولوا اجتياح احدى المربعات من اى جنب فقد تغلبت «حولية» المربعات على ميزة الفرسان بالمنورة بالأجناب أو من الخلف . ومنذ ذلك الحين بدأت اسطورة المربعات . ونلاحظ ان الارض فيها دائما تأتي في مرتبة ثانوية . ولم تكن أبدا في المرتبة التي نضعها فيها الآن ، كاحدى العناصر الهامة في التكتيك لتحقيق اكبر أثر للنيران ، وللحماية من النيران . بل المهم دائما هو الالتحام مع الافراد .

وعلى الرغم من قيام الدليل الواضح على جدوى المربعات المحدود، إلا انها ظلت التكتيك السائد طيلة القرن « لعل النظرة السائدة لمناعة المربعات توضح في اشعار كبلنج . فالدهشة والاستغراب التي تسود شعره عندما يتحدث عن خرق المربع البريطاني الشهير « عثمان دقنة » واضحة . الا أنها بدأت تخف عندما خرق

ولكن معركة امدرمان كأكبر معركة بعد الانقلاب التكنيكي في صناعة الاسلحة ، كانت اقرب لمعارك الحرب العالمية الاولى - بل في الواقع كانت هي والحرب الروسية اليابانية ، معمل التجارب لمعارك الحرب العالمية الاولى "Experimental Laboratory" .

فتقارير قادة الوحدات بعد المعركة ، أشبه بتقارير عن نتائج اختبارات منها بتقارير المعارك . فقد طلب مكتب الحرب البريطاني تقاريرا مفصلة عن تأثير وخواص الاسلحة الجديدة ، مدافع المكسيم ودانات الليدايت "Lyddite" ودانات الشاربنيل "Sharpenal" والبندقية الجديدة لى متفورد "Lee Motford" .

وبعدها بدأ القادة يتخلون عن « الاكتف المتلاصقة » بأن تقتحم صفوف المشاة بفواصل كبيرة بين الافراد لتقليل اثر شلل الرشاش "Machine Gun Paralysis" الذى برز كأهم سمات الحرب العالمية الاولى والذى أبادت نيرانه صفوفها بأكملها فى نفس مستوى معركة امدرمان ، فقد صدت هجمات شبيهة بهجوم عثمان ازرق أكثر من ثلاثين مرة فى الحرب الاولى راح فيها ملايين من المشاة المقتحمة ، كما ابرزت حرب الخنادق "Trench Warfare" للحماية من التيران ، ولتمكين نيران الرشاشات من ابراز فعاليتها . فحتى السلاح الابيض فى أكثر لحظات فعاليته عند هجوم الفرسان "Cavalry charge" وتكتيك صدمة الفرسان "Shock tactics" اثبت فشلا واضحا فى امدرمان . فما ذكره المؤلف الشاب « تشرشل » عن هجمة فرسان الرماحة اثار ضجة واسعة وسط المفكرين العسكريين ، واستخدم كبرهان قوى بواسطة مدرسة « المشاة الراكبة » فقد ذكر : « بعد هجوم الرماحة الباهظ الثمن ، وعندما استدارت الكتيبة لتواجه العدو كانت نيران البنادق هى التى اوقفتهم ، لو كانت حتى لديهم فكرة فى الهجوم على الكتيبة ، وكانت نيران البنادق هى التى احدثت بعض الخسائر فى صفوفهم لو حدثت فيهم خسائر على الاطلاق . اما هجوم الفرسان بالرماح المشرعة فلم يبرز منهم شعرة واحدة » .

لقد كانت المعركة معلما واضحا يشير الى طبيعة الحرب القادمة ، حرب الخنادق . فقد كان المنتصر فيها دائما من لزم جانب الدفاع ، داخل خنادقه أم خلف زرائبه ، أم ثابتا على أقدامه في العراء ، وعندما خرج من مكمنه ليهاجم في خور ابو سنط رد كسيرا مثخنا بالجراح . اما ايجابية الهجوم فلم تبرز إلا من نيران المدفعية المحمولة على قطع متحركة آليا « البوارج » ويجب أن لا نتخذعنا هنا كلمة بوارج ، فقد استخدمت استخداما ارضيا بحتا - كانت أشبه بالمدفعية ذاتية الحركة .

كان هذا في الدفاع ، وماذا عن هجوم المشاة ، هل يلغى امام هذه النيران الهائلة ؟ لقد استغرق العثور على الاجابة سنينا عديدة حتى بعد الحرب العالمية الاولى . وطبقت الاجابة عمليا عندما تولى الامر نابغة اکتوى بنار هجوم المشاة من احلك مواقعهم ، عندما كان عريفا في الحرب العالمية الاولى - وهو يواجه نيران الرشاشات والمدفعية مقتحما اياها بالسونكى - ادولف هتلر - الذى كان يتفزز للنهاية من فكرة اقتحام المشاة بالسونكى . فبرز للوجود استخدام المشاة لمساندة الدبابات « الخنادق المتحركة » عنصر الاقتحام الرئيسى ، عكس المفهوم القديم ، وهو مساندة الدبابات للمشاة .

نقطة أخيرة جانبية . لقد اتسمت معركة امدرمان بسمات غير اخلاقية تصل في أغلب الاحيان الى درجة الوحشية ، قتل الجرحى ، قتل الاسرى بعد استسلامهم اباحة المدينة ونهب القبور .

لماذا ؟ السبب يكمن فى كتابات سلاطين واوهرلدر وتصويرهم لتلك البلاد وكأنها تلغ فى الدماء كنوع من الدعاية للحرب . والسبب أخيرا كان يكمن فى استغلال الحكومة لتغمة الثأر لغردون ، بطل المسيحية والحضارة فى غياهب القارة . واستغرق الامر عشرات السنين لاقلام اوربية بل وبريطانية أمينة لتوضح بالضبط ماهو غردون (١) .

(١) لا زالت آثار حمى غردون باقية حتى الآن ولقد أحصى كاتب هذه السطور فى المملكة المتحدة عشرات من الحانات باسم « جنرال غردون » وهناك أغنيات شعبية كثيرة لا زالت تذكر عنه حتى اليوم . فعندما نشرت اعلا نا لامستعدى لمقابلة أى شخص لديه وثائق أو معلومات ، رد على المستر ليفورد صاحب حانة « جنرال تشارلس غردون » قائلا انه صاحب حانة فقط وليس لديه وثائق أو كتب ولكنه

لقد ساهمت الأشعار والأغاني في تمجيد غردون طوال خمسة عشر عاما وصورته موته كأنه طعنة في شرف الامبراطورية . فكان أن اتخذت كل الحملة مظهر حملة ثأرية . وليس أوضح من هذا ان جميع الصحف البريطانية ظهرت عندما نشرت نبأ عنوان انتصار السردار بعنوان واحد كبير « الثأر لغردون »
 «Gordon avenged» (١) .

بإمكانه أن يجعلني أعيش في « جو » غردون . وعندما ذهبت وجدت مغنيا شعبيا يعزف أغنية شعبية قديمة انتشرت بعد مقتله ، عندما فشلت حملة الانقاذ في انقاذ :

Too late, too late to save him,
 In vain, in vain they tried,
 He was Englands pride when he lived,
 He was Englands glory when he died.

ولا بد ان للناحية السياسية وزنا . فقد استخدمها حزب المحافظين القوي سلاحا للتشهير بجلا دستون رئيس الحكومة من حزب الاحرار على انه هو المتسبب في اهانة الشرف الامبراطوري . فقد رفض جلا دستون التدخل في السودان وقال - ان كان مخلصا أم لا - انه لا يحارب قوما يذامنون عن حريتهم وكان الرجل الوحيد الذي توفرت له الشجاعة ليرفض في البداية - واصفا اياها بالسف - فكرة ارسال حملة كاملة لا تقاذ رجل واحد ، يعتقد انه هو المسئول أولا وأخيرا عن الموقف الذي تورط فيه.

(١) أغلب الصحف ظهرت في يومى ١٠ و ٩ بعنوان « الثأر لغردون » في الصفحة الأولى ، وأبرزت الصلاة التي أقيمت في ذكراه في سرايا غردون بوصف مهيب .

Times - 9.9.98

Daily Telegraph - 10.9.98

Daily Mirror - 9.9.98

The British Museum, Collindale.

المصادر العربية

المصادر الأولية :

١ - أولئك الذين اشتركوا في المعركة : ابراهيم

أ - أقوال العمدة آدم يوسف : اشترك في هجوم الراية الزرقاء « شريط مسجل رقم (١) ورقم (٢) » بإماما بجزر العرب ٧١٩٢١

ب- أقوال الشيخ حسين ود الزين : اشترك في المعركة ضمن الملازمين « الرايات - النيل الأزرق ٢٧هـ ٧١ » .

ج - أقوال الشيخ عبد الله محمد نور : ملازم الخليفة على ود حلو
كان في رئاسة الخليفة طوال زمن المعركة « شريط مسجل رقم (٣) »
« قلى - النيل الأبيض - ٧١٦٢٩ » .

د - أقوال الشيخ أحمد النور : اشترك في عمليات الضفة الشرقية -
« العباسية - ٧١٦١٣ » .

٢ - الوثائق :

أ - دار الوثائق المركزية - الخرطوم :

١ - أوراق الأمير يعقوب - كشوفات الجنود وتنظيم جيش المهدي وهي محفوظة في ثمانية صناديق ، من الصندوق ٤٣٢ الى الصندوق ٥٠٢ وتشمل كل كشوفات الجنود ووحداتهم ورواجع الذخيرة والاسلحة ، غير منظمة « Pool » أغلبها غير مؤرخ .

ب - مراسلات الامراء المذكورين بعد من عام ١٣١٤ - ١٣١٦ أما الخطابات المشار اليها ادناه فهي الخطابات التي وردت في البحث .

(١) خطاب الخليفة لعثمان ادم بتاريخ ١٢ رجب ١٣٠٥ ١١١١ ٣٢

(۲) خطاب محمد ود بشاره للخليفة بتاريخ ۱۵۴ صفر ۱۳۱۴ ۲۸۷ر۳ر۲ر۱

۲۸۹۳۲۲۱ ۱۳۱۴ " ۱۸: " " " " " (۳)

- (٤) ٢٩٠ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ ١٨: ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٥) ٢٩٤ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ ٢٣: ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٦) ٢٩٧ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ :غايه ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٧) ٢٩٨ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ ٤٤: ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٨) ٣٠٠ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ :اربيع اول ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٩) ٣٠٢ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ ٤٤: ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (١٠) ٣٠٣ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ ٤٤: ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (١١) ٣٣٧ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ :٣ جمادى ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (١٢) ٣٤٠ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ ١٠: ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (١٣) ٣٤٣ ٣٢٢ ١٣١٤ ٤٤ ١١: ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (١٤) خطاب محمود دواحمد للخليفة بتاريخ : ٢٠ جمادى اخر ١٣١٤ ٢٧٠ ٤١٥ ٢٧٠
- (١٥) ٢٣ ٣٨١ ١٣١٥ ٤٤ :٢٢ محرم ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (١٦) ٢٣ ٣٨١ ١٣١٥ ٤٤ :٢٣ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (١٧) ٣٢٤ ٢٨١ ١٣١٥ ٤٤ :٢ صفر ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (١٨) ٣٢٤ ٢٨١ ١٣١٥ ٤٤ :٢٤ صفر ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (١٩) ٣٢٦ ٢٨١ ١٣١٦ ٤٤ :١٥ محرم ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٢٠) ٣٢٦ ٢٨١ ١٣١٦ ٤٤ :١٥ محرم ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٢١) ٣٤٢ ٢٨١ ١٣١٦ ٤٤ :٢٩ ربيع اول ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٢٢) ٣٤٣ ٢٨١ ١٣١٦ ٤٤ ٤٤: ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٢٣) ٣٤٤ ٢٨١ ١٣١٦ ٤٤ :٨، الثاني ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤

(مرفقا خطاب النور عتقره)

- (٢٤) خطاب الختم موسى للخليفة بتاريخ : ١٧ محرم ٢٣ ٧١٤ ١٣١٦
- (٢٥) ٣٤٧ ٧١٤ ١٣١٦ ٤٤ :١٩ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٢٦) ٣٢٧ ٧١٤ ١٣١٦ ٤٤ :آخر ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٢٧) ٢٤٠ ١٠٦ ١٣١٦ ٤٤ :٣ ربيع اول ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤
- (٢٨) ٢٣٥ ١٠٦ ١٣١٦ ٤٤ :٢٩ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤ ٤٤

٢٤٤	١٠٦	١٣١٦	آخر ٧: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٢٩)
٤٢٧	٩١٨	١٣١٦	عثمان الدكيم ٢٠: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣٠)
٢٨٩	١٦٦	١٣١٦	عدلان محمد سرور ٨: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣١)
٣٤١	١٦٦	١٣١٦	١٩: صفر ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣٢)
٢٧٤	١٢٦	١٣١٦	تقرير عبد الباقي الوكيل للخليفة المؤرخ: ٧ صفر ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣٣)
٢٧٥	١٢٦	١٣١٦	١: اول ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣٤)
٢٧٦	١٢٦	١٣١٦	٢: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣٥)
٢٧٩	١٢٦	١٣١٦	٢١: محرم ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣٦)
٢٨٧	١٢٦	١٣١٦	١٨: صفر ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣٧)
٢٩٦	١٢٦	١٣١٦	٤: ربيع اول ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣٨)
٣٠١	١٢٦	١٣١٦	١٧: ربيع اول ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٣٩)
٣٠٢	١٢٦	١٣١٦	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤٠)
٣٠٣	١٢٦	١٣١٦	١٩: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤١)
٣٠٤	١٢٦	١٣١٦	٢٠: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤٢)
٣٠٦	١٢٦	١٣١٦	٢١: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤٣)
٣٠٩	١٢٦	١٣١٦	٢٣: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤٤)
٣١٠	١٢٦	١٣١٦	٢٤: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤٥)
٣١١	١٢٦	١٣١٦	٢٤: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤٦)
٣١٢	١٢٦	١٣١٦	٢٥: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤٧)
٣١٣	١٢٦	١٣١٦	٢٦: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤٨)
٣١٤	١٢٦	١٣١٦	١: اول ربيع آخر ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٤٩)
٣١٥	١٢٦	١٣١٦	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥٠)
٣١٦	١٢٦	١٣١٦	٢: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥١)
٣١٧	١٢٦	١٣١٦	٦: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥٢)
٣١٨	١٢٦	١٣١٦	٧: ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥٣)
٣١٩	١٢٦	١٣١٦	٩: ربيع آخر ٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥٤)

٣٢٠	١٢٦	١٣١٦	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥٥)
٣٢١	١٢٦	١٣١٦	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥٦)
٣٢٢	١٢٦	١٣١٦	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥٧)
٣٢٣	١٢٦	١٣١٦	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥٨)
٣٢٥	١٢٦	١٣١٦	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	٤٤	(٥٩)

ج - مطبوعات دار الوثائق :

- ١ - دفتر وقائع عثمان دقنه .
- ٢ - منشورات المهدي - أربعة أجزاء .

د - مجموعات خاصة :

- ١ / أوراق ونجث - جامعة درام المملكة المتحدة - صندوق رقم ١٧ -
مذكرات الزبير باشا بخط اليد .
- ٢ / مجموعة السيد محمد السيد الخليفة :
أ - خطاب المهدي للاتكال في الخصوص والعموم على خليفته
لآدم عمر ملك جبال تقي .
ب - خطاب المهدي للاتكال في الخصوص والعموم على خليفته
لقمر الدين .
- ٣ / مجموعة السيد عز الدين المهدي :
أ - منشور الخليفة في الحث على الجهاد
ب - منشور الخليفة في الاتكال على الله
- ٤ / مجموعة السيد عبد الله الأمير - مذكرات النور عنقره
بخط اليد .

المصادر الثانوية العربية

١ - أقوال سماعية : ابرزهم :

أ - السيد : موسى يعقوب (٨٦ عام) ابن الأمير يعقوب استقى روايته من الأمير يونس الدكيم والأمير اسماعيل احمد ، كان في الثالثة عشر عندما خرج الخليفة من امدرمان للغرب وشاهد معركة أم ديكرات .
« امدرمان - العباسية ٧١٨ ر ٧١٧ » .

ب - الحاج أمين أحمد شرفي (٨٨ عام) ابن شقيقة الأمير احمد عبدالكريم أمير أمراء الراية الصفراء واستقى روايته عنه . كان في السادسة عشر في زمن المعركة « ودنوباوى ٧١١ ر ٧١٥ » .

ج - السيد بابو نمر - حفيد على الجله واستقى روايته منه (المجلد ٢٦ ر ١٢٧) .

د - الشيخ خوجلى ابراهيم (٨٤ عام) كان صبيا عندما شرع يوسف منصور فى بناء طوايى السبلوكه (العقبة ٧١٦ ر ٧١٩)

هـ - الحاجة زينب بنت الأمير محمود - (٨٣ عام) كانت فى العاشرة عندما أخذها الخليفة معه لشر كيللا بعد خروجه من امدرمان (العباسية ٧٢٢ ر ٧٢٢)

ى - أهالى العجيبة - الشيخ احمد الكباشى عرفو : من أهالى العجيبة وابن كباشى عرفو الذى قابل الخليفة وسلاطين ليلة المعركة .

٢ - مخطوطات دار الوثائق المركزية (لم تنشر) :

أ - أوراق المرحوم محمد عبد الرحيم وأهمها :

١ - المجلد الأول - تاريخ المهديّة

٢ - المجلد الثانى - تاريخ المهديّة

٣ - المجلد الثالث - تاريخ المهديّة

٤ - معجم الشخصيات

٥ - تاريخ التركيبة

ب - أوراق يوسف مخائيل .

ج - أوراق السيد على المهدي

٣ - بحوث :

أ - رسالة الماجستير الاستاذ عبد الله ابراهيم (معركة عطبرة) .

ب - بحث الفرق الاولى لكلية القادة والاركان الحرب (تطور جيش المهدي)

٤ - كتب :

أ - شقير - نعم - جغرافية وتاريخ السودان - بيروت ١٩٦٧

ب - شبيكه - مكى - السودان عبر القرون - بيروت

ج - شبيكه - مكى - الخرطوم بين غردون والمهدية - مطبوعات معهد الدراسات الاضافية الخرطوم .

د - محمد عبد الرحيم - النداء فى دفع الافتراء - امدرمان

هـ - بابكر بدرى - حياتي - المجلد الاول

و - جهاد فى سبيل الله - عبد الله محمد احمد - تحقيق اوراق على المهدي
الخرطوم ١٩٦٥ .

ز - موسى المبارك - تاريخ دارفور السياسى - الخرطوم .

ح - جوى ديوى - المنطق ونظرية البحث .

٥ - مجلات :

أ - محاضرة - « معركة كررى من وجهة نظر الخليفة » القاها المرحوم
العميد عبد الرحمن الفكى فى الجمعية الفلسفية ونشرت مسلسلة فى
مجلة القلم .

١ - مجلة القلم العدد الاول بتاريخ فبراير ١٩٦٧

٢ - مجلة القلم العدد الثانى بتاريخ مارس ١٩٦٧

٣ - مجلة القلم العدد الثالث بتاريخ ابريل ١٩٦٧

٤ - مجلة القلم العدد الخامس بتاريخ يونيو
 ب - مجلة امدرمان ، صاحبها محمد عبد الرحيم ، تحرير التيجاني يوسف
 بشير ، صدرت في امدرمان .

- | | |
|-------------------------|------------|
| ١ - العدد الثاني بتاريخ | ١٩٣٦ر٩ر٣٠ |
| ٢ - ، ، الرابع ، ، | ١٩٣٦ر١٠ر٣١ |
| ٣ - ، ، السادس ، ، | ١٩٣٦ر١١ر٣٠ |
| ٤ - ، ، السابع ، ، | ١٩٣٦ر١٢ر١٥ |
| ٥ - ، ، الثامن ، ، | ١٩٣٧ر١ر١ |

MILITARY PUBLICATIONS

(a) Weapons characteristics:

1. The Imperial War Museum Publications, Pamphlets:
 - a- Brassy, A.B., *The Naval Annual* (1899).
 - b- Brothwick, G.N. *Yarrow, the First Hundred Years*.
 - c- Maxim Gun
 - d- Machine guns
 - e- Handbook for ammunition 1897

2. Ellacott, S.E. *Guns* (London, 1955)

3. Weller, Jac., *Weapons and Tactics* (London, 1966).

(b) On Strategy:

1. Butler, J.R.M., *Grand Strategy* Vol. 1 & 2 (London, 1957).

2. Clausewitz, Carl Von., *On War* Vol. I, II, III (London, 1966).

3. Liddle Hart, B., *Strategy of the Indirect Approach* (London).

4. Howard, Michael, *The Theory and the Practice of War*, Ten essays presented to Sir Liddle Hart on his seventieth birthday (London, 1965).

5. Henderson, Col. G.F.R., *The Science of War* (London, 1933).

6. Brown, N., *Strategic Mobility* (London Institute for Strategic Studies, London, 1967).

Unprinted works : Gasim Badry thesis for M. A. University of Beirut.

News papers:

(a) The *Daily Telegraph* issue of :—

- | | |
|--------------|--------|
| 1. 28/8/98 | London |
| 2. 29/8/98 | " |
| 3. 30/8/98 | " |
| 4. 3/9/98 | " |
| 5. 5/9/98 | " |
| 6. 8/9/98 | " |
| 7. 1/9/98 | " |
| 8. 8/9/98 | " |
| 9. 9/9/98 | " |
| 10. 10/9/98 | " |
| 11. 23/9/98 | " |
| 12. 12/12/98 | " |

(b) *The Times* : 12/12/98; 3/1/98. London

(c) *The New Penny Magazine* Vol. 5 Vol. 2

25. Sanderson, G.N., *England, Europe and the Upper Nile* 1882, 1899 (Edinburgh, 1965).
26. Theobald, A.B., *Ali Dinar, Last Sultan of Darfur* (London, 1965).
27. Theobald, A.B., *The Mahdiya* (1957).
28. Wheeler, F.B., *Lord Kitchener* (London, 1916).
29. Wingate, F.R., *Mahdism in the Egyptian Sudan* (London, 1891).

EUROPCAN SECONDARY SOURCES

1. Sudan Notes and Records (S.N.R.):

- (a) Vol IX, Part 2, Interrogation of a Mahadist Emir Isa Wad El Zane, Wakil of Kordofan on his account on the battle of Omdurman.
- b. Vol. XIII, Part 2, Siege and Fall Of Khartoum
- c. Vol. XVII, Part I, 'Extracts from Alieutenant's diary'.
- d. Vol. XIX, Part 2, 'Extracts from a Lieutenants diary'.

Books:

1. Alford H.S., *The Egyptian Sudan-Its Loss and Recovery* (London, 1898).
2. Atteridge, A.H., *Famous Modern Battles* (London, 1913).
3. Berman, R., *The Mahdi of Allah* (London, 1931).
4. Blunt, W.S., *My diaries* Vol. 1 (New York, 1922).
5. Burleigh, B., *Sirdar and Khalifa* (London, 1898).
6. Burleigh, B., *Khartoum Campaign* (London, 1899).
7. Churchill, W.S., *The River War* Vols. I and II (London, 1899).
8. Churchill, W.S., *The River War* (London, 1951).
9. Gordon, C.G., *The Journals of Major Gen. C.G. Gordon at Khartoum* (London, 1885).
10. Hill, Richard, *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian-Sudan* (Oxford, 1951).
11. Hill, Richard, *Egypt in the Sudan* ;Oxford, 1959).
12. Holt, P.M., *The Mahdist State in the Sudan* (Oxford, 1958).
13. Jackson, H.C., *Osman Digna* (London, 1921).
14. Knight, E.F., *Letters from the Sudan* (London, 1897).
15. Magnus, Phillip, *Kitchener, a Portrait of an Imperialist*; London, 1958).
16. MC Michael, H.A. *History of the Arabs in the Sudan*
17. Nutting, Anthony, *Gordon* (London, 1966).
18. Nutting, Anthony, *Scramble for Africa* (London, 1953).
19. Ohrwalder, Father Joseph, *Ten Years Captivity in the Mahdist Camp* (London, 1893).
20. An Officer: *The Sudan Campaian* (London, 1899).
21. Shibeika, Mekki, *British Policy in the Sudan 1882, 1902* ;Oxford, 1952).
22. Slatin, Rudolf, *Fire and Sword in the Sudan* (London, 1896).
23. Strachey, Lytton, *Eminent Victorians* (London, 1957).
24. Stevens, G.W., *With Kitchener to Khartoum* (London, 1899).

- c. Cabinet Papers, Turkey, Egypt and the Sudan – F. O.78, F. O./141, F. O./142,
 - d. Lord Cromers papers: F.O./78/30 49; F.O./78/50 50.
4. Wingate Papers, Oriental Studies Department, University of Durham, U.K.; with special emphasis on:
 - (a) Colonel Wingate military report on the final campaign of UM Debiekrat (with sketches) 25/11/99 BOX 18.
 - (b) Abbas Bey Diary, translated from Arabic, BOX 48
 - (c) Lt. Robert Smith's letter to his fiance on his account of the charge of the 21st. Lancers at the Battle of Omdurman; 4/9/98 – 9/15/433
 5. Private collections : Sayed Omer El Hag Musa, the war diary of Hunter Pasha

EUROPEN SOURCES

PRIMARY SOURCES

1. Central Records Office, Khartoum
 - (a) The battle of Omdurman, 17 Volumes, with special emphasis: Cairint 1/60/320, including battle reports of the following units commanders:
 1. Major Gen. Gatacre, British Division O.C.
 2. Major Gen. Hunter, Egyptian Division O.C.
 3. Col Martin, O.C. 21 Lancers Regt.
 4. Col Broodwood, O.C. Egyptian Cavalary
 5. Capt Keppel, O.C. Nile Flotilla
 6. Capt Milne, 2 ND. in comd. Howitzer Battery
 7. Major Stewart Worthly, O.C. of the Friendly Arabs.
 8. Major Longe, O.C. of Egyptian Artillery
 - (b) Field Intelligence Diary 1/60/321 (NOT PRINTED)
2. Intelligence Reports, Egypt and the Sudan (PRINTED)
 - (a) Intelligence report, Egypt. No. 46, covering from 13/4/1896 to 25/4/1896.
 - (b) Intelligence report, Egypt. No. 47, covering from 26/4/1896 to 22/5/1896.
 - (c) Intelligence report, Egypt No. 48, covering from 22/5/1896 to 21/6/1896.
 - (d) Intelligence report, Egypt No. 49, covering from 22/6/1896 to 27/8/1896.
 - (e) Intelligence report, Egypt No. 50, covering from 28/8/1896 to 31/12/1896.
 - (f) Intelligence report, Egypt No. 55, covering from 18/7/1896 to 30/9/1897.
 - (i) Intelligence report, Egypt No. 59, covering from 13/2/1896 to 23/5/1896.
 - (g) Intelligence report Sudan No. 60, covering from 25. 5. 98 to 31. 12. 98,
3. The Public Records office, 21 Chancery Lane, London, U.K.
 - a. Lord Kitchner's Report on the battle of Umdurman to the War Office (with sketches) WO/32/6143.
 - b. Lord Kitchner's telegram to Lord Gromer answering the Marques of Sallsberiys explanation to Lord Kitchener, 12.3.1968 Pro. 30/51/14.

تذييل

هذا العمل ثمرة تضافر جهود عديدة لا بد لي في نهايته أن أذكرها بالشكر والعرفان . . فأقدم أولا بشكري للسيد رئيس الجمهورية الذى لولا توجيهه الكريم لما ولد هذا البحث .

ولئن خصصت العميد أ.ح عبد الماجد حامد خليل بالشكر ، فليس لانه شرفنى بترشيحى لتولى هذا العمل فحسب ، بل لاطلاعه على المسودة الاصلية التى كتبت بقلم الرصاص كلمة كلمة وسطرا سطرا . ولم يخل على ابدا بمشورته وتوجيهه ، ويحذر في هنا ان اشير للتعاون الصادق المثمر الذى وجدته من قبل هيئة التدريب القتالى وعلى رأسها العقيد يوسف ترير ، الذى اشرف على تطور البحث ، والمقدم عمر احمد ابراهيم المشرف المباشر على هذا العمل .

وأخشى أننى لن أجد مايسعفى من الكلمات للتعبير عن عرفاني بالجميل للعميد أ.ح محمد يحيى منور لسعة صدره وتحمله اباى ، وهو تارة يشجعنى على الاندفاع فى مجالات البحث وتارة أخرى يكبح جماح نزواتي الفكرية .

وكما سئرى قل هذا البحث جوانبه العسكرية والتاريخية ، امان ناحيه جوانبه التاريخية فأقدم بشكري للدكتور يوسف فضل ، استاذ شعبة ابحاث السودان الذى راجع مسودة هذا البحث من الناحية التاريخية . ولعلنى سأقفز بالقارى قفزة واسعة لاعبر عن تقديري لسعة صدر البروفسور هولت « بجامعة لندن » واستقباله وترحيبه في اثناء رحلتى للمملكة المتحدة عندما ذهبت لالم شمل مصادر البحث . وبنفس القدر اتوجه بشكري للبروفسور رتشارد هل « بجامعة اكسفورد » والبروفسور ثاكر « بجامعة درام » الذى تفضل واعد لي فرقة صغيرة سريعة عن المسلك العلمى لكيفية معالجة المصادر المختلفة وطريقة تناولها ووزنها ، ثم فتح لي كنوز مكتبة الجامعة واوراق ونجت على مصراعها . والمستر دانييل مدير المجلس البريطانى الذى ساهم في الاعداد لرحلتى للمملكة المتحدة ولنعود للسودان مرة أخرى لتتحدث عن الاستاذ محمود عبد الله ابراهيم لاعارقي رسالته القيمة عن معركة عطبره ، ولتقدمه النصح الاول فى دراسة التاريخ ، فقد

كنت في مكتبه بعد ساعتين بالضبط من اطلاعي على امر التكليف الرسمي . وقبل ان اختم حديثي عن ابطال الجانب التاريخي يجدر بي ان اتقدم بشكري لاسرة دار الوثائق المركزية بالخرطوم وعلى رأسها الدكتور ابوسليم مدير الدار واهص بالذكر السيد وداعة والدكتور فايز .

اما الدكتور عون الشريف الذي قام بتصحيح البحث من الناحية اللغوية ، فالثناء والتقدير يجب ان يوجه من القراء ، فهو الذي كفاهم شر اخطائي اللغوية والنحوية .

الاستاذ عبد الرحمن النصري ، امين مكتبة جامعة الخرطوم ، أخشى انني سأكون معه كالصديق الجاهل ، يضر حين يظن انه ينفع ، واغرقه بالثناء حتى يمتنع ، عندما اقول ان قوانين مكتبة جامعة الخرطوم المتصلة تراخت كثيرا لتتيح لي الاطلاع على مراجع قسم «السودان» في ظروف مريحة ومن ثم وفر عليّ زمنا وجهدا كثيرا كما قام باتصالات شخصيه عديده ساعدت في تقدم البحث بتلك السرعة .

ولا بد لي ان اتحدث عن ابناء الخليفة عبد الله فاخص منهم السيد محمد السيد الخليفة بابو ضلوع ، والعبيد بالمعاش سليمان الخليفة والسيد عبد السلام الذي يستحق وقفة قصيرة ، فليس هنا مكانه الحقيقي بل كان من الواجب ايراد اسمه ضمن «مصادر» البحث : فقد استفدت من علمه العزيز والملم الواسع بتاريخ المهديّة فائدة عظيمة ، ولكنني ان اخترت ان اتحدث عنه هنا فذلك للجهد العظيم الذي بذله والمشاق التي تجشمها وهو يرشدني الى اثنى مصادر هذا البحث ، الاحياء ممن قاتلوا في كرري ، ولم يكن الجهد الذي بذله السيد اسحق الخليفة محمد شريف في هذه الناحية بأقل أو اهن ، فهو لم يكتف بارشادي اليهم فقط بل تفضل احيانا كثيرة ورافقني واشترك معي في محاولتنا الصعبة لاعتصار معلوماتهم القيمة التي حبسوها في الصدور زمنا طويلا .

في مثل هذه العجالة ونحن نتناول تطور هذا البحث الطويل ، لا بد ان هناك جنودا مجهولين سيشملهم النسيان . الراحل سابقا احمد محمد موسى الذي تحمل معي مشاق رحلتنا الحرفية عبر بوادي كردفان ونحن نطارده احد مصادر البحث

الشمينة ، والعم مكاوى سليمان اكرت الذى اتاح لى الاطلاع على مكتبته الخاصة ،
والعريف اسماعيل احمد اسماعيل والوكيل عريف حيدر عبد الله سر الختم اللذان
حولوا الالغاز والطلاسم التى اكتبها الى كلمات وسطور مقرؤة والأخ محمد على
كرار ، ومثات من المواطنين الطيبين الذين اكرموا وفادتي وآووني من الهجير
والامطار خلال رحلاتي المختلفة .

وأخيراً الهيئة التى يعود لجهدھا الفضل فى طباعة البحث وجعله فى متناول
يد الوف القراء ، هيئة التأليف والترجمة والنشر بجامعة الخرطوم ، وأخص منهم
السيد عمر الأمين شبر مدير المطبعة . والساده الفنينين - على محمد آدم
عليش حسن أحمد - بشرى عثمان - خوجلى محمد ابراهيم - حسن عبد القادر
عبد المجيد محمد ابراهيم والمستول عن تصوير الخرائط والصور .

شكرا لهم جميعا واعتذارى لمن لم تشملهم كلماتي .

رائد : عصمت حسن زلفو

فهرست الخرائط العسكرية

١٢٨	(سودان الخليفة)
١٥٠	(التسلل القباذى بخبر الخليفة)
٢٤٢	(معركة عطبرة)
٢٢٠	(السكك الحديدية والنهر)
٣٥٦	(العدو)
٣٩٦	(عمليات الضفء الشرقىة)
٤٢٦	(الخطه)
٤٤٤	(المرحلة الاولى سعت ٦٤٠)
٤٧٢	(المرحلة الاولى سعت ٧٠١٥٠)
٤٨٦	(الصدام سعت ٨٤٠)
٤٩٤	(الصدام سعت ٩٠٠)
٥٠٤	(المرحلة الثانية سعت ٩٣٥)
٥١٢	(المرحلة الثانية سعت ٩٥٥)
٥٣٤	(مناورة ماكدونالد)
٥٣٤	(المرحلة الثانية سعت ١٠٢٠)
٥٥٠	(الضمن)
٥٥٦	(انسحاب الخليفة)
٥٦٨	(معركة أم دىكرات)

« الملاحق »

ملحق « أ »

صورة أصلية لأحد تقارير استخبارات الخليفة حررها الأمير عبد الباقي
عبد الوكيل .

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
و بعد من عبد الله بن عبد الوكيل الذي قد وثق في سره سيدي يعقوب بن السيد
نقضا له من أمين بعد السلام وتقبل الأمان الكرام فظاهره و باطنه و راحت
الأقدام فلم سيدي أن طالع الخيل حضرت واجتهدت أن أعداد الله
المؤذولين فاموا من أول العقبه و دخلوا العقبه الموصلة إلى الرويات
وحلوا الكواب وقيل أن نزلوا بالرويات فصار حفز بعض الخيل المذكورة
و عرفنا بهذا الخبر و لذلك كتبنا لهذا الوالد و جئناها إلى الخيل الذي واقع
معهم و نحن من معان الأحاب صار قبا صا مما هي عاب و نزلنا بأول
السرو راب الكاين ما بين فيه الشيخ الطيب و العقبه الامين كونه مرتفع لليل
وفيه الغشوش و على طرفه الذي صرف عدة أفاضنا فيقول للوارد و انسأله
هذه الخيل يكون لنا رصد لغاية حفز للعدا له بحجة الشيخ الطيب حتى
يصير غزنا حبال الشارح اما بخلاف ذلك لا يكون لنا قيام كما وقع
نا رنج عرنا ما يخص قياح لعدا له الخندل و دخولهم العقبه و قد هم
الحال و بان وجهه الكواب الكاين بالعرب إلى يقسم و دون الخيل
لكن الله اله و حفزها لنا و كون من القرنين معلومة سيدي بما اوضحنا
لزم نخرج و سالم الدخول الثاني هذا والسلام

عنه رتبة

فلم سيدي أن يجهل عندنا صعد و الجاه الذي توجه لهم لكر عبد الجيد و لم يزل الله أن امرها
مع لرحل و يجتاه نزل الشايد على لكر عبد الجيد المذكور بسرعة و عارفة لعل لرحل و يجتاه على
و دولا على لرحل و يجتاه الحال هذه صارت رغبة فيكون لرحل و يجتاه لرحل و يجتاه لرحل

١٩ أنطس

خطة هجوم الخليفة

الخليفة لازال داخل سور أمدرمان ، ولكنه سيتقدم قبل زمن كافى نحو كررى أو النوفلاب .

سيستظر الخليفة إلى أن يتقدم جيشنا إلى النقطة التى سيبدأون منها الهجوم وعندها سيقوم هو بهجوم مفاجئ أولا . سيبحث بالملازمين أولا بقيادة شيخ الدين إلى نقطة تبعد مسافة مرمى طلقة البندقية من جيشنا - وسيبحث بالفرسان وحاملى السلاح الأبيض إلى نقطة غرب جيشنا « بحيث يشكلوا زواية قائمة مع الملازمين » وسيكون الخليفة مع حرسه الخاص فى كررى أو النوفلاب .

وسيبدأ الملازمون إطلاق بنادقهم فى الليل ويستمررون فى إطلاقها حتى الفجر وعندها سيوقفون إطلاق النار ليبدأ إقتحام السلاح الأبيض والخيالة . ولو باءت محاولتهم بالفشل فسينضموا للخليفة للشروع فى محاولة أخرى .

ملحوظة :-

يجب أن يبدأ الجيش فى إطلاق نيرانه أولا على جيش الخليفة قبل أن يفتحوا نيرانهم إذ ذلك يثير الإضطراب فى صفوفهم .

THE KHALIFA PLAN OF ATTACK

The Khalifa is still inside the wall but he will come out in good time with all his troops to Kerreri or Nofalab.

He will wait until the troops come to the point from which they intend to attack, then he will make a sudden attack first - He will send first the Mulazimin under Shiekh El Din to a place at a rifle shot from the troops - The horsemen, sword and spearmen behind will stand to the west of the army and the Khalifa will wait with his body guard in Kerreri, or Nofalab The Mulazimin will begin fire before dawn, and will continue firing until dawn when they will stop fire and then the horsemen and swords - Spear-men will attack - if they were defeated they will return to the Khalifa and make another stand.

The army should begin firing at the Dervishes before they start to fire as this strikes terror in them

صفحة من مفكرة الاستخبارات الميدانية
حررها ونجت بعد استجوابه للطبيب الحسين قبل المعركة بثلاثة أيام . كتب في
أعلامها (خطة هجوم الخليفة) وهي كالآتي :-

Y KHALIFA'S PLAN OF ATTACK

The Khalifa ~~will~~ is still inside the wall but he
will come out ^{in front} with all his troops to KERRERI
or NOFELAB.

He will wait until the troops come to the point
from which they intend to attack him. When he will
make the ~~attack~~ a sudden attack first - He will send
first the Mulezim ~~ambush~~ under Sheikh Sidi
to a place at a safe distance from the troops -

The horsemen & sword & spearmen behind will stand
to the west of the army & the Khalifa will start
with his body guard in KERRERI or NOFELAB - The Mulezim
will begin fire before dawn & will continue firing until
dawn when they will stop fire & then the horsemen &
sword & spearmen will attack - If they were defeated
they will return to the Khalifa & make another stand.

Khalifa's plan
of attack

ARMY
KHALIFA
MULEZIM


ARMY
KHALIFA
MULEZIM


KHALIFA

The army should begin firing in dawn when before dawn
to fire as they strike later in the

MARKHAT Hills commencing about
1 mile West of this line.

NOTE

Dervish forces shown in Green. $\left\{ \begin{array}{l} 1^{st} \text{ Stage} \\ 2^{nd} \text{ Stage} \\ 3^{rd} \text{ Stage} \end{array} \right.$ 

British and Egyptian forces
shown in purple, red, and blue. $\left\{ \begin{array}{l} 1^{st} \text{ Stage} \\ 2^{nd} \text{ Stage} \\ 3^{rd} \text{ Stage} \end{array} \right.$ 

Brigades are numbered as follows:
No 1. First British Brig. Gen. Whitehouse.
No 2. Second British Brig. Gen. Lytton.
No 3. Second Egyptian Brig. Col. Minors.
No 4. Third Egyptian Brig. Col. Lawrie.
No 6. First Egyptian Brig. Col. MacDonnell.
No 6. Fourth Egyptian Brig. Col. Collinson.
30 Guns Artillery & 20 Machine Guns.

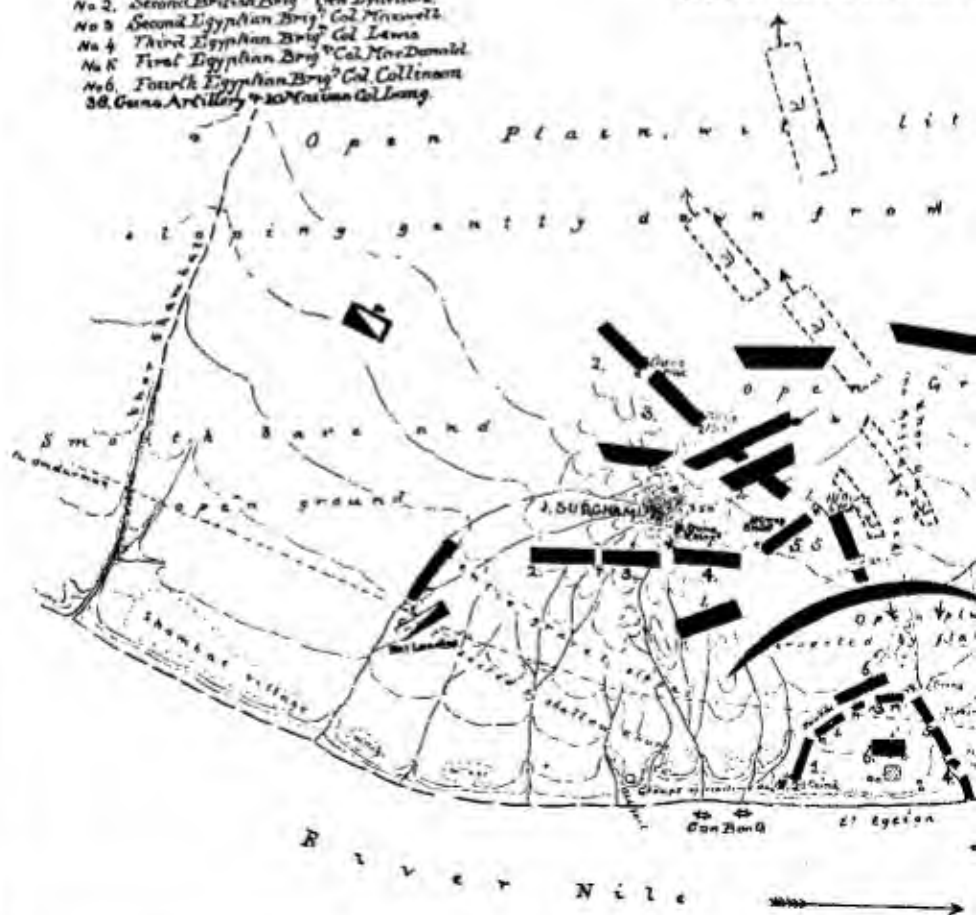
SKETCH OF THE BATTLE OF

2nd SEPTEMBER 1898

Scale 1:50,000 1" = 1 Mile

Scale 1:50,000 1" = 1 Mile

Note. Plan sketched from chained heights above High Nile level, but aneroid used not very reliable.



صورة من تقرير العمليات الأصلي الذي أرسله ونجت بعد معركة أم
ديكرات يصف فيه استشهاد الخليفة .

where we had forestalled him, had then
endeavoured to make a turning move-
ment, which had been crushed by
our fire: Seeing his followers retreating,
he made an ineffectual attempt to
rally them, but recognizing that the day
was lost he had called on his Emirs to
dismount from their horses, and seating
himself on his "furwa" or sheepskin
— as is the custom of Arab Chiefs who
deserve surrender — he had placed
Khalifa Ali Wad Hala on his right and
Ahmed Fedil on his left, whilst the
remaining Emirs seated themselves
round him, with their body-guards in
line some 20 paces to their front and
in this position they had unflinchingly
met their death. They were given a
fitting burial under our supervision
by the surviving members of their own
tribe.

The Khalifa's death was the signal
for wholesale surrender, and by the
afternoon we had collected upwards of
3000 men and 6000 women and children
besides quantities of rifles, swords, spears,
etc. etc.



• المؤلف •

- ولد بام درمان في مايو / ١٩٤٢
- اكمل دراسته الثانوية ١٩٦٠ والتحق بالكلية الحربية في نفس العام .
- تخرج من الكلية الحربية ١٩٦٣ برتبة ملازم ثاني والتحق بالقيادة الشمالية ومنها نقل ل سلاح الاشارة ١٩٦٤ وظل به الى أن نقل هذا العام لفرع التدريب بالقيادة العامة .
- خدم في اغلب بقاع السودان .
- خدم في كل مسارح العمليات النشطة التي اشترك فيها الجيش السوداني .
- أوعد لدراسة عسكرية بجمهورية ألمانيا الاتحادية عام ١٩٦٣ . وللمملكة المتحدة عام ١٩٦٨ .

السكك الحديدية والانهار اصطلاحات

- نهر صالح للملاحة كل السنة.....
- نهر صالح للملاحة أثناء الفيضان.....
- نهر صالح للملاحة.....
- طريق قوافل.....
- السكة الحديدية.....



السكك الحديدية والانهار اصطلاحات

- نهر صالح للملاحة كل السنة.....
- نهر صالح للملاحة اثناء الفيضان.....
- نهر صالح للملاحة.....
- طريق قوافل.....
- السكة الحديدية.....



مقياس رسم ١ بوصة = ٣٠ ميل
١:٣٠٠٠٠



معركة عطبرة خريطة رقعة ٢

معركة عطبرة

للدفينة الثقيلة

(الوقت الثالث والرابع ساعة)

مقياس الرسم ١:١٠٠٠٠٠ ١ سم = ١٠٠٠ م

١/٢

نجم كبة

أسطوانات

١٩٦٥

نجم

نجم

نجم



معركة عطبرة خريطة رقعة ٢

لواء الجيش الاسرائيلي

القوة والوقت

١٠٠٠

مركز

مدافع

مكسيم

١٠٠٠

١٠٠٠

١٠٠٠

١٠٠٠

١٠٠٠



معركة عطبرة

الدفعه الثقيله

(الوقت النافذ والربع صباح)

١٠٠٠

١/٤

١/٢

١

اصطلاحات

١٠٠٠

١٠٠٠

١٠٠٠

١٠٠٠

١٠٠٠

Osman Digna



الأمير عثمان دقنة لحظة إعتقاله

Osman Digna



الأمير عثمان دقنة لحظة إعتقاله



عُثمان شيخ الدين مع السيدة عثمان
OSMAN SHEIKH AL-DIN SOYOF
THE KHALIFA
K. 252

عثمان شيخ الدين يرقد جريحاً بعد أسره في أم دبيكرات
نوفمبر ١٨٩٩



عثمان شيخ الدين بن الخليفة
OSMAN SHEIKH EL DIN SON OF
THE KHALIFA
K 252

عثمان شيخ الدين يرقد جريحاً بعد أسره في أم ديكرات
نوفمبر ١٨٩٩



الأمير محمود وده أحمد في المعتقل برشيد



الأمير محمود ود أحمد في المعتقل برشيد



Rudolph C. Slavin

رودلف سلاطين



Rudolph C. Slatin

رودلف سلاطین



MAJOR-GENERAL H. A. MACDONALD, C.B., D.S.O.

From Photograph by J. Munro, Dingwall

[Photographer to the Queen.]

(الكولونيل ماكدونالد)



MAJOR-GENERAL H. A. MACDONALD, C.B., D.S.O.

From Photograph by J. Munro, Dingwall

[Photographer to the Queen.]

(الكولونيل ماكدونالد)



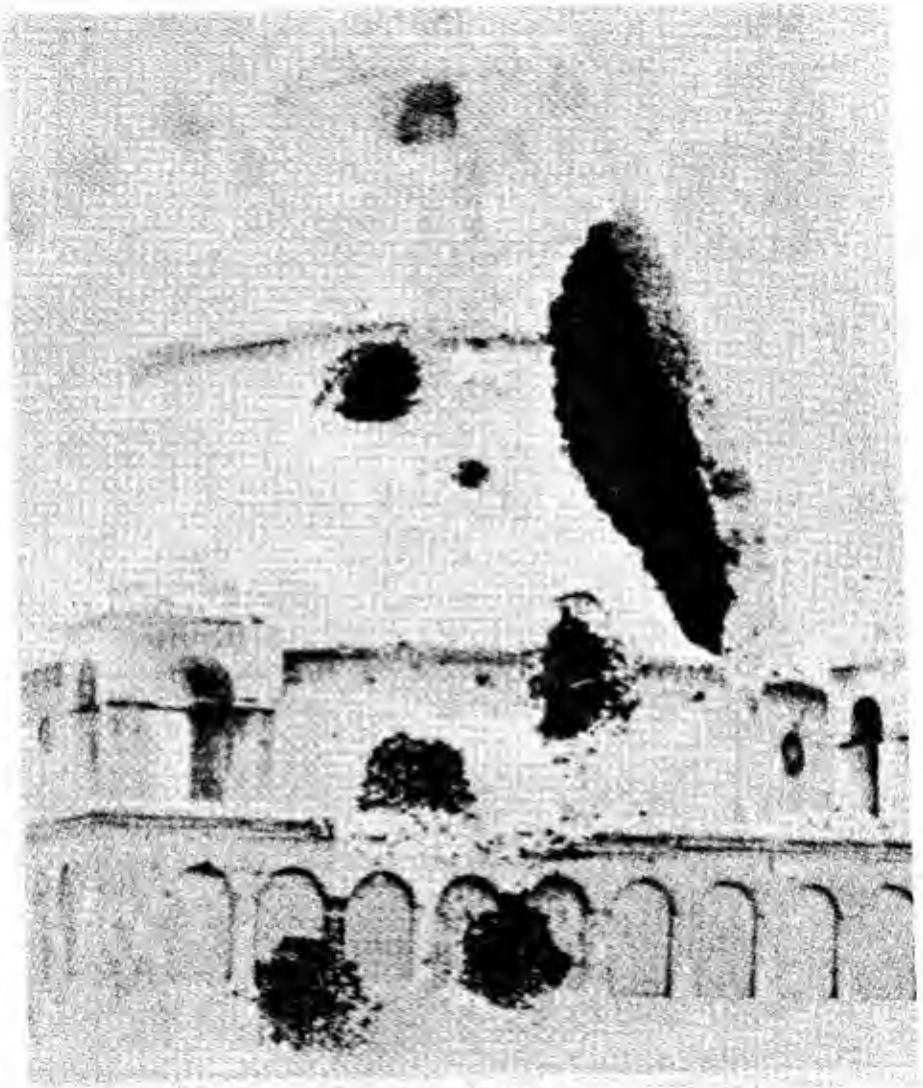
استيصال حملة الراية الزرقاء



استيصال حملة الراية الزرقاء



تدمير قبة المهدى - سعت ١٥٣٠ - ١ سبتمبر ١٨٩٨



تدمير قبة المهدى - سعت ١٥٣٠ - ١ سبتمبر ١٨٩٨



تشيد كبرى لسكة حديد في دار ماى ١٨٩٧



« الشريان الحديدى » مد خط سكة حديد الصحراء ١٨٩٧



تشيد كبرى للسكة حديد في دار ماي ١٨٩٧



« الشريان الحديدى » مد خط سكة حديد الصحراء ١٨٩٧



كردي - بعد المعركة

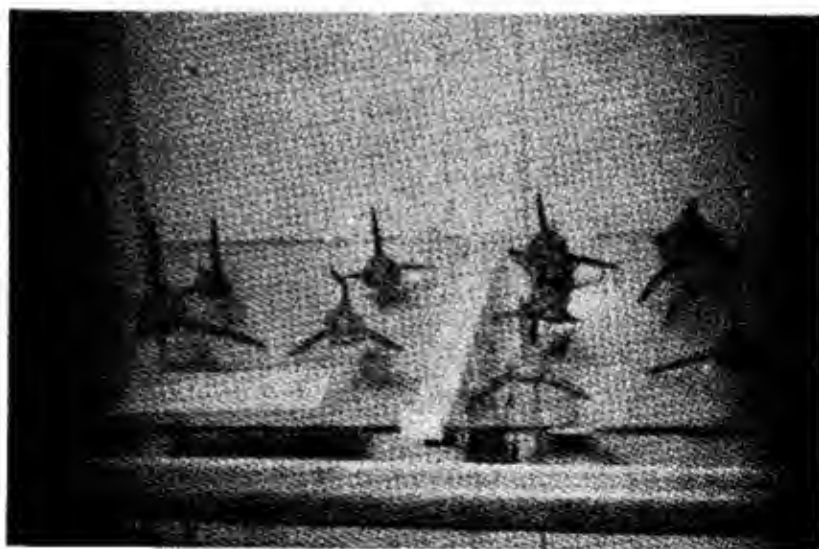


(الضربة)

بعض من الموانع التي شرها غردول في خندق الخرطوم
لتعوق تقدم جيش المهدي



كررى - بعد المعركة

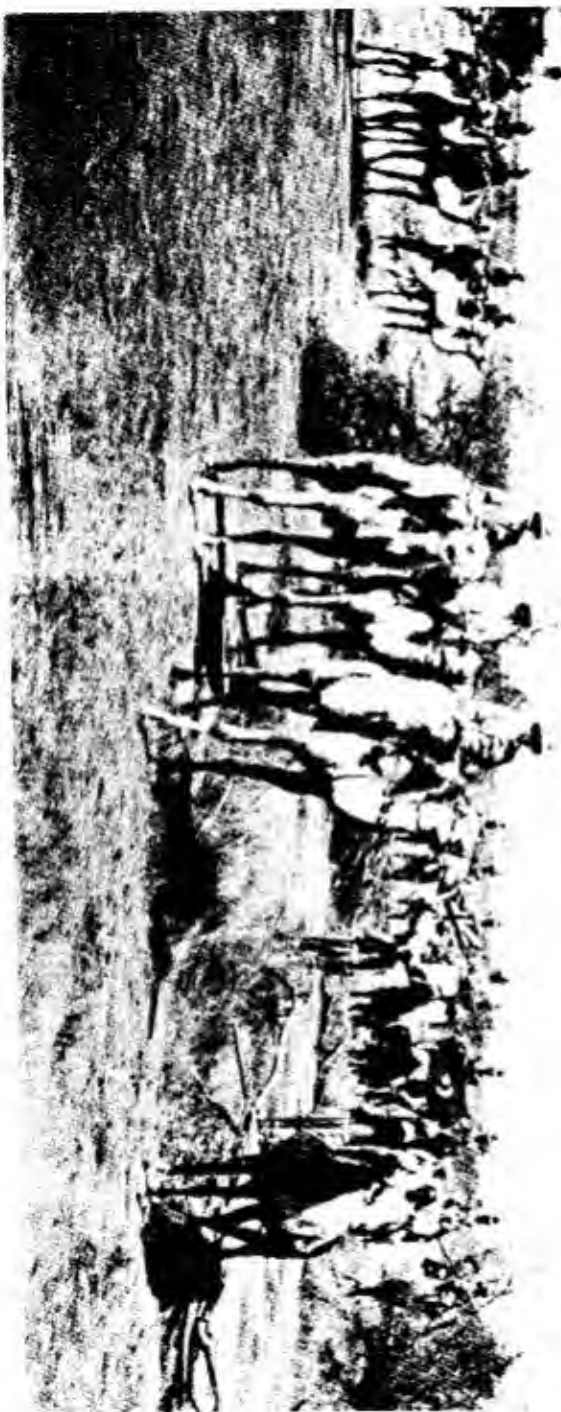


(الضريسه)

بعض من الموانع التي نثرها غردون في خندق الخرطوم
لتعوق تقدم جيش المهدي



صورة التقطت لولجيت مباشرة بعد معركة أم ديكيرات واستشهاده الخليفة
 قمر الخليفة يتوسط العلمين المصري وأبريطاني



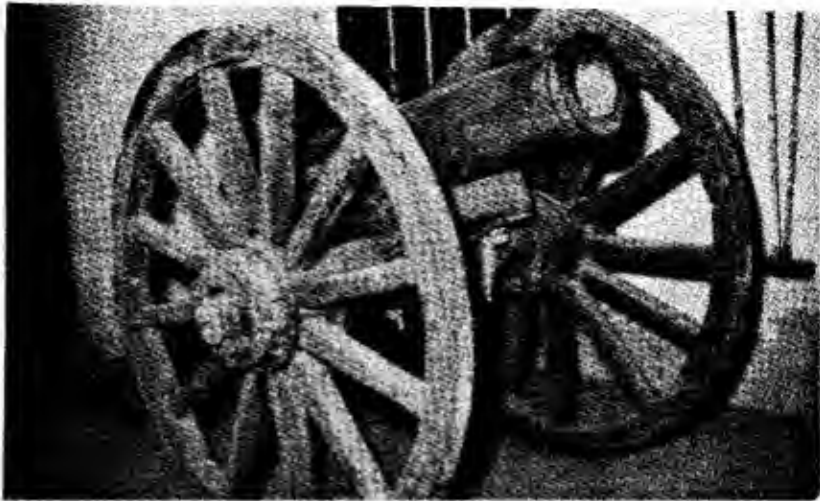
صورة التقطت لولجت مباشرة بعد معركة أم ديكبرات واستشهاد الخليفة
قبر الخليفة يتوسط العلمين المصري والبريغاني



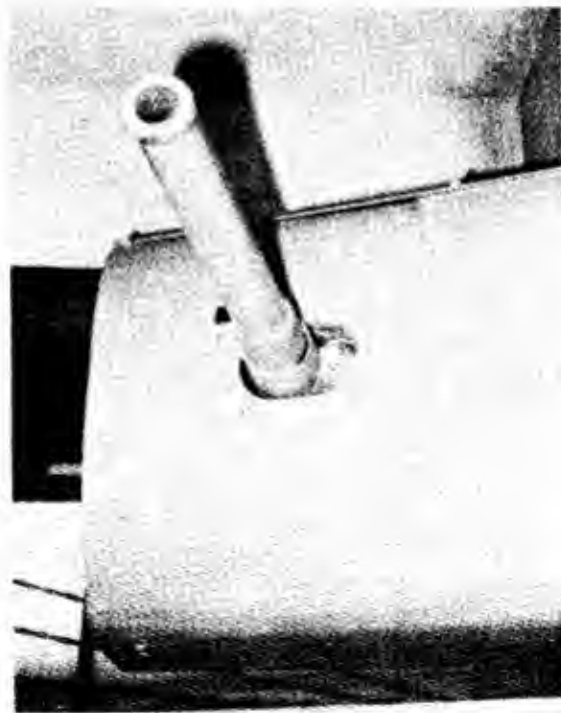
مدفع جبلى



أحد مدافع اليخوة المدرعة (ملك) التي قصفت الملازمين
أثناء مطاردهم للهجاة



مدفع جبل



أحد مدافع الباخرة المدرعة (ملك) التي قصفت الملازمين
أثناء مطاردتهم للنهبانة



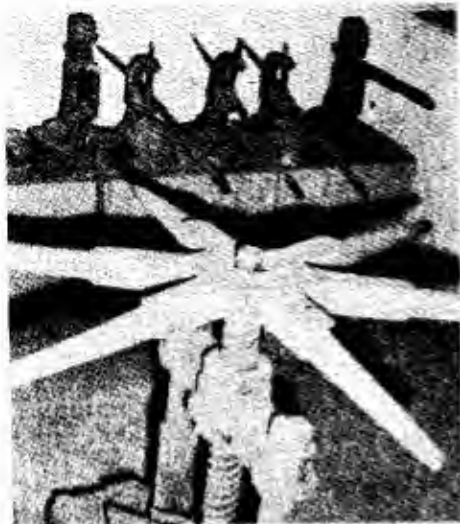
آلة الصبغة بمصنع النسيج



قبعات جنود هكسي



المدفع جاتلنج



آلة التعبئة بمصنع الدخيرة



قبعات جنود هكس



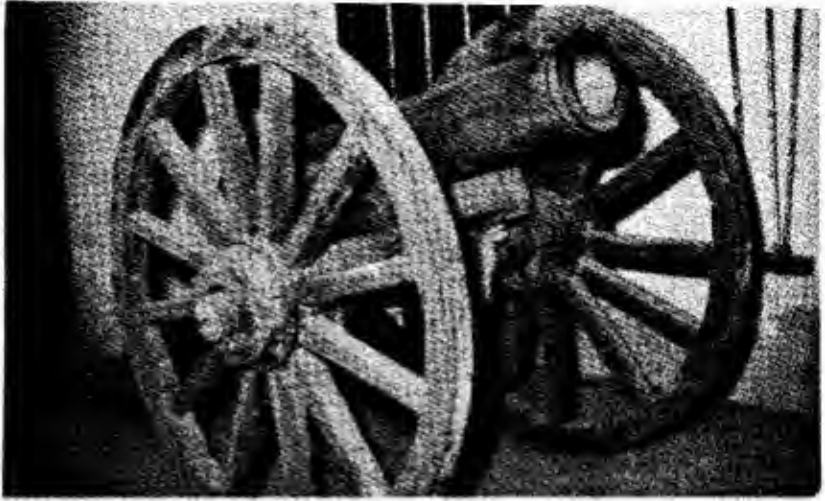
المدفع جاتلنج



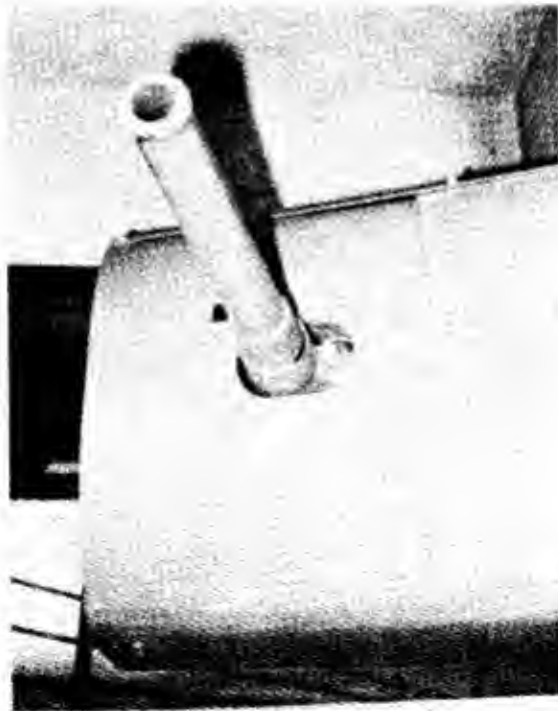
مدفع جبل



أحد مدافع الباخرة المدرعة (ملك) التي قصفت الملازمين
أثناء مطاردتهم للهجاعة



مدفع جبل



أحد مدافع الباخرة المدرعة (ملك) التي قصفت الملازمين
أثناء مطاردتهم للنهجاة



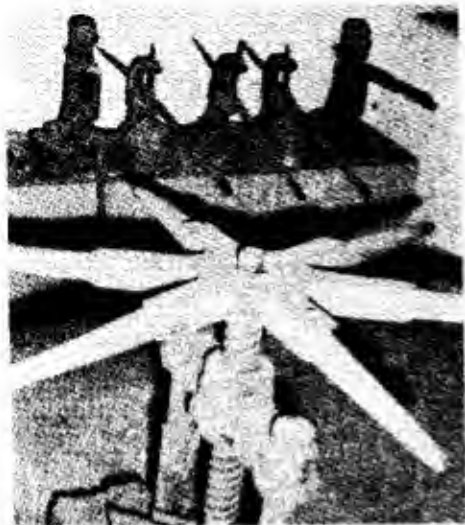
آلة التعبة بمصنع النخيرة



قيعات جنود هكس



المدفع جاتلنج



آلهة التبعثة بمصنع الذخيرة



قبعات جنود هكس



المدفع جاتلنج



استجواب الامرى بعد موقعة أبى حمد



الخيالة المصرية تسقى خيولها فى الرويان ١٨٩٨



إستجواب الأسرى بعد موقعة أبي حمد



الخيالة المصرية تسقى خيولها فى الرويان ١٨٩٨



الفرقة المصرية أثناء التقدم الأخير وهي تعسكر في الرويان



بناء المعسكر والتربية في الشيخ الطيب
أثناء التقدم الأخير لأحمد درمان - أغسطس ١٨٩٨



الفرقة المصرية أثناء التقدم الأخير وهي تعسكر في الروبان



بناء المعسكر والزريبة في الشيخ الطيب
أثناء التقدم الأخير لأم درمان - أغسطس ١٨٩٨



السردار وأركاناه أثناء التقدم الأخير نحو أمدرمان ١٨٩٨



السردار وأركاناه عند بدء التقدم نحو أمدرمان وهم يحملون
الراية الزرقاء سعت ١١٥٠ ٢ سبتمبر ١٨٩٨



السردار وأركاناه أثناء التقدم الأخير نحو أمدرمان ١٨٩٨



السردار وأركاناه عند بدء التقدم نحو أمدرمان وهم يحملون
الراية الزرقاء سعت ١١٥٠ ٢ سبتمبر ١٨٩٨

تجهيزات الحليمة الدطاعية ضد الوباء على شاطئ النيل بأحد رمان



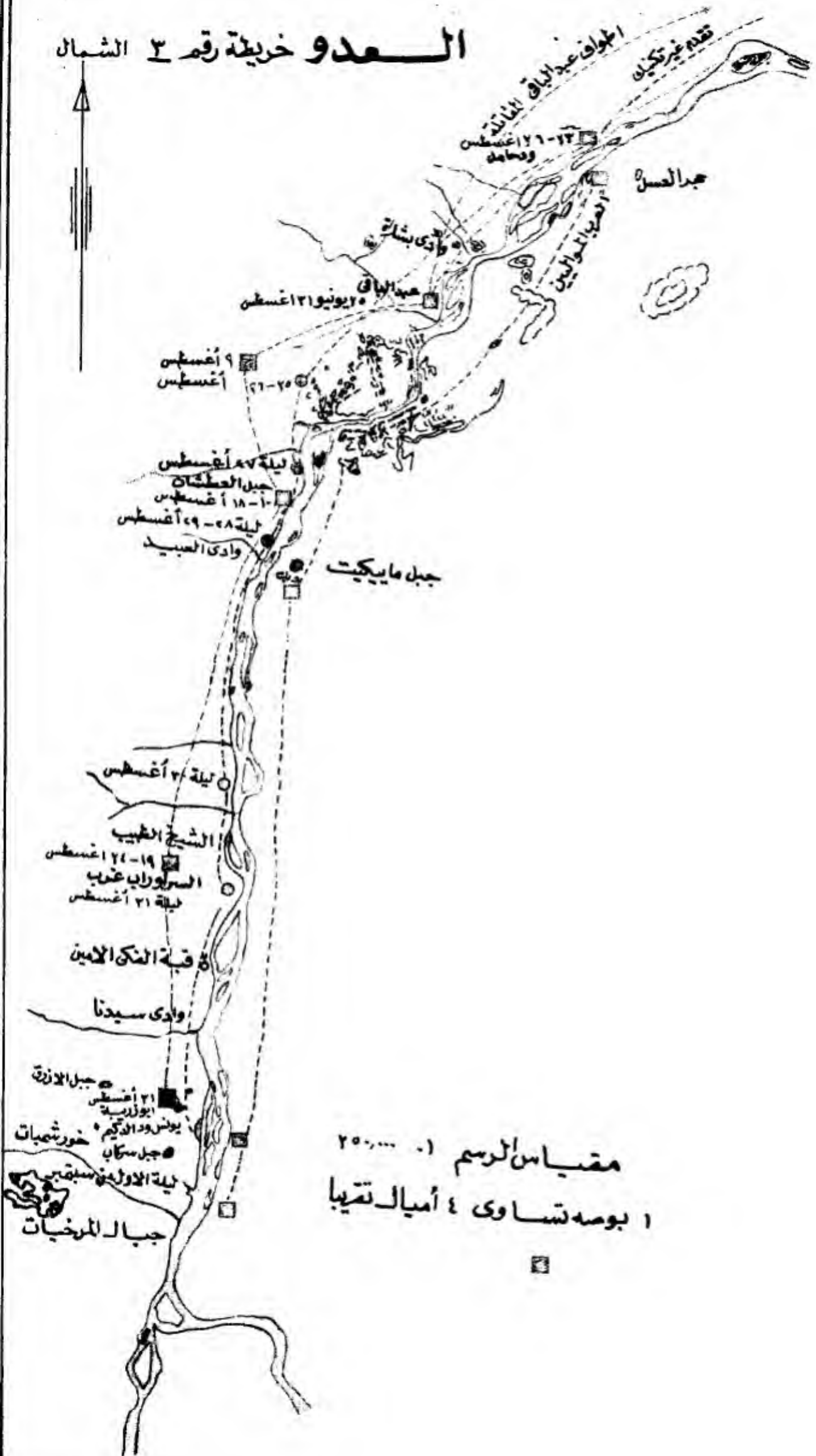
تجهيزات الحماية الدفاعية ضد البوارح على شاطئ النيل بأودرمان



العدد و خريطة رقم ٣ الشمال



العدد و خريطة رقم ٢ الشمال



مقياس الرسم ١ : ٢٥٠,٠٠٠
 ١ بوصة تساوي ٤ أميال تقريبا

عمليات الهندسة العسكرية خريطة رقم ١



- ١٠ وحدة الهندسة
- ١١ وحدة الهندسة
- ١٢ وحدة الهندسة
- ١٣ وحدة الهندسة
- ١٤ وحدة الهندسة
- ١٥ وحدة الهندسة
- ١٦ وحدة الهندسة
- ١٧ وحدة الهندسة
- ١٨ وحدة الهندسة
- ١٩ وحدة الهندسة
- ٢٠ وحدة الهندسة
- ٢١ وحدة الهندسة
- ٢٢ وحدة الهندسة
- ٢٣ وحدة الهندسة
- ٢٤ وحدة الهندسة
- ٢٥ وحدة الهندسة
- ٢٦ وحدة الهندسة
- ٢٧ وحدة الهندسة
- ٢٨ وحدة الهندسة
- ٢٩ وحدة الهندسة
- ٣٠ وحدة الهندسة
- ٣١ وحدة الهندسة
- ٣٢ وحدة الهندسة
- ٣٣ وحدة الهندسة
- ٣٤ وحدة الهندسة
- ٣٥ وحدة الهندسة
- ٣٦ وحدة الهندسة
- ٣٧ وحدة الهندسة
- ٣٨ وحدة الهندسة
- ٣٩ وحدة الهندسة
- ٤٠ وحدة الهندسة
- ٤١ وحدة الهندسة
- ٤٢ وحدة الهندسة
- ٤٣ وحدة الهندسة
- ٤٤ وحدة الهندسة
- ٤٥ وحدة الهندسة
- ٤٦ وحدة الهندسة
- ٤٧ وحدة الهندسة
- ٤٨ وحدة الهندسة
- ٤٩ وحدة الهندسة
- ٥٠ وحدة الهندسة
- ٥١ وحدة الهندسة
- ٥٢ وحدة الهندسة
- ٥٣ وحدة الهندسة
- ٥٤ وحدة الهندسة
- ٥٥ وحدة الهندسة
- ٥٦ وحدة الهندسة
- ٥٧ وحدة الهندسة
- ٥٨ وحدة الهندسة
- ٥٩ وحدة الهندسة
- ٦٠ وحدة الهندسة
- ٦١ وحدة الهندسة
- ٦٢ وحدة الهندسة
- ٦٣ وحدة الهندسة
- ٦٤ وحدة الهندسة
- ٦٥ وحدة الهندسة
- ٦٦ وحدة الهندسة
- ٦٧ وحدة الهندسة
- ٦٨ وحدة الهندسة
- ٦٩ وحدة الهندسة
- ٧٠ وحدة الهندسة
- ٧١ وحدة الهندسة
- ٧٢ وحدة الهندسة
- ٧٣ وحدة الهندسة
- ٧٤ وحدة الهندسة
- ٧٥ وحدة الهندسة
- ٧٦ وحدة الهندسة
- ٧٧ وحدة الهندسة
- ٧٨ وحدة الهندسة
- ٧٩ وحدة الهندسة
- ٨٠ وحدة الهندسة
- ٨١ وحدة الهندسة
- ٨٢ وحدة الهندسة
- ٨٣ وحدة الهندسة
- ٨٤ وحدة الهندسة
- ٨٥ وحدة الهندسة
- ٨٦ وحدة الهندسة
- ٨٧ وحدة الهندسة
- ٨٨ وحدة الهندسة
- ٨٩ وحدة الهندسة
- ٩٠ وحدة الهندسة
- ٩١ وحدة الهندسة
- ٩٢ وحدة الهندسة
- ٩٣ وحدة الهندسة
- ٩٤ وحدة الهندسة
- ٩٥ وحدة الهندسة
- ٩٦ وحدة الهندسة
- ٩٧ وحدة الهندسة
- ٩٨ وحدة الهندسة
- ٩٩ وحدة الهندسة
- ١٠٠ وحدة الهندسة

عمليات الصهبة الشرقية

خريطة رقم ٤

أم درمان



الشيخ فريح
٨٢٠ مقاتل

معدن فريت امد فريح
٢٠٠ مقاتل

الشرق
١١٥٠

غالب فريح
١٠٠٠ مقاتل

بطارية الهاوتزر

الامير عيسى
٨٢٠ مقاتل

الضمان

مسيحور ودرشلي
٦٠٠ مقاتل



القطاع الشرقي

- ٧٢ حى الكور
- ٧٤ حى الدمامة
- ٧٥ حى غرب الدمامة
- ٧٦ حى الشرق
- ٧٧ حى الجنوب
- ٧٨ حى الشمال
- ٧٩ حى الغرب
- ٨٠ حى الشرق
- ٨١ حى الجنوب
- ٨٢ حى الشمال
- ٨٣ حى الغرب
- ٨٤ حى الشرق
- ٨٥ حى الجنوب
- ٨٦ حى الشمال
- ٨٧ حى الغرب
- ٨٨ حى الشرق
- ٨٩ حى الجنوب
- ٩٠ حى الشمال
- ٩١ حى الغرب
- ٩٢ حى الشرق
- ٩٣ حى الجنوب
- ٩٤ حى الشمال
- ٩٥ حى الغرب
- ٩٦ حى الشرق
- ٩٧ حى الجنوب
- ٩٨ حى الشمال
- ٩٩ حى الغرب
- ١٠٠ حى الشرق

عمليات الد خريطة ر

ميه



- ٦١ سوق الجزارين
- ٦٢ سوق السمك (الكوك)
- ٦٣ سوق الدواجن والطيخ
- ٦٤ مقادير الفرو والطيخ
- ٦٥ سوق الخشب
- ٦٦ سوق النسا
- ٦٧ سوق الخياطون الدويدي
- ٦٨ حي امثلة (السليمانية)
- ٦٩ بيت الامم الدويدي في السوق
- ٧٠ القصر
- ٧١ بيت احمد الشريفي (مكتبة مطبوعة شريفة)
- ٧٢ حي الكفور
- ٧٣ حي الدنانة
- ٧٤ حي غرب الدويدي
- ٧٥ حي الشرق الدويدي
- ٧٦ حي امثلة لمكتب الدواجن
- ٧٧ قبة عائلة النصارى والاكابر
- ٧٨ مصنع الدواجن
- ٧٩ بيت الدواجن
- ٨٠ سوق الرقبة
- ٨١ مقادير الدواجن
- ٨٢ حي القصور
- ٨٣ حي المصري
- ٨٤ امثلة العائلة بالمدينة
- ٨٥ امثلة العائلة على واد جنوب المدينة
- ٨٦ جامع المصحة
- ٨٧ حي واد النصارى والمعالين
- ٨٨ (أ) دارية العرصة
- ٨٩ - تسويحي
- ٩٠ مقادير الدواجن
- ٩١ قرية توتي
- ٩٢ - الخرطوم
- ٩٣ عائلة المصحة
- ٩٤ حدائق
- ٩٥ الكنيسة
- ٩٦ مبانى مقادير الدواجن القديمة
- ٩٧ البوابة ومكتاب الدواجن
- ٩٨ قصبة النسا
- ٩٩ مبنى المستعمارية القديمة
- ١٠٠ امثلة الدواجن القديمة
- ١٠١ حي شمال الدواجن القديمة
- ١٠٢ مبنى المستعمارية القديمة
- ١٠٣ حي عائلة المصحة القديمة
- ١٠٤ حي عائلة المصحة القديمة
- ١٠٥ حي عائلة المصحة القديمة
- ١٠٦ حي عائلة المصحة القديمة
- ١٠٧ حي عائلة المصحة القديمة
- ١٠٨ حي عائلة المصحة القديمة
- ١٠٩ حي عائلة المصحة القديمة
- ١١٠ مبانى الدواجن
- ١١١ باب السليمانية
- ١١٢ امثلة عائلة الدواجن
- ١١٣ امثلة عائلة الدواجن
- ١١٤ امثلة عائلة الدواجن
- ١١٥ امثلة عائلة الدواجن
- ١١٦ امثلة عائلة الدواجن
- ١١٧ امثلة عائلة الدواجن
- ١١٨ امثلة عائلة الدواجن
- ١١٩ امثلة عائلة الدواجن
- ١٢٠ امثلة عائلة الدواجن

- امور عام
- ١ - للجامع
- ٢ - المحراب
- ٣ - القبة
- ٤ - جامع الصديق
- ٥ - جامع الخليفة
- ٦ - المحكمة
- ٧ - بيت الخليفة
- ٨ - سكن المحرمات
- ٩ - السليمانية
- ١٠ - منازل ملازمة الخليفة
- ١١ - منزل امثلة المصحة
- ١٢ - اسطبلات الخليفة
- ١٣ - مقادير بيت الخليفة
- ١٤ - منزل المصحة
- ١٥ - منزل عائلة المصحة
- ١٦ - منزل عائلة المصحة على واد جنوب
- ١٧ - منازل ملازمة الخليفة على واد جنوب
- ١٨ - منزل عائلة شيخ الدين
- ١٩ - سوق امور عام لرواسي
- ٢٠ - سوق امور عام المصحة
- ٢١ - منزل الدواجن المصحة
- ٢٢ - منزل ملازم
- ٢٣ - مقادير الدواجن
- ٢٤ - منزل دويدي
- ٢٥ - منزل الاسير بمقادير الدواجن
- ٢٦ - منزل الاسير بمقادير الدواجن
- ٢٧ - منزل كتيبة المصحة بمقادير الدواجن
- ٢٨ - منزل ملازم المصحة
- ٢٩ - بيت الامانة
- ٣٠ - امثلة الدواجن لرواسي والمصحة
- ٣١ - منزل اقارب المصحة
- ٣٢ - المصحة
- ٣٣ - وادي الاسلحة
- ٣٤ - حي امثلة المصحة
- ٣٥ - حي امثلة المصحة
- ٣٦ - امثلة الدواجن المصحة
- ٣٧ - مبانى امور عام المصحة
- ٣٨ - بيت عائلة الدواجن
- ٣٩ - حي الدواجن
- ٤٠ - بيت العائلة لرواسي
- ٤١ - عائلة المصحة
- ٤٢ - حي الدواجن والمصحة
- ٤٣ - بيت الدواجن
- ٤٤ - بيت الدواجن
- ٤٥ - حي الدواجن
- ٤٦ - حي الدواجن
- ٤٧ - حي الدواجن
- ٤٨ - حي الدواجن
- ٤٩ - حي الدواجن
- ٥٠ - بيت عبد الله واد امثلة
- ٥١ - حي دويدي
- ٥٢ - حي شمال الدواجن المصحة
- ٥٣ - حي المصحة
- ٥٤ - سوق الدواجن
- ٥٥ - محكمة الدواجن
- ٥٦ - المبانى
- ٥٧ - سوق الدواجن
- ٥٨ - سوق الدواجن
- ٥٩ - سوق الدواجن
- ٦٠ - سوق الدواجن

حريطة ر

ميه



- ٦٦ سوق الحارثين
 ٦٧ سوق السراة (٥٥)
 ٦٨ سوق السراة والشيخ
 ٦٩ سوق السراة والشيخ
 ٧٠ سوق السراة
 ٧١ سوق السراة
 ٧٢ سوق السراة
 ٧٣ سوق السراة
 ٧٤ سوق السراة
 ٧٥ سوق السراة
 ٧٦ سوق السراة
 ٧٧ سوق السراة
 ٧٨ سوق السراة
 ٧٩ سوق السراة
 ٨٠ سوق السراة
 ٨١ سوق السراة
 ٨٢ سوق السراة
 ٨٣ سوق السراة
 ٨٤ سوق السراة
 ٨٥ سوق السراة
 ٨٦ سوق السراة
 ٨٧ سوق السراة
 ٨٨ سوق السراة
 ٨٩ سوق السراة
 ٩٠ سوق السراة
 ٩١ سوق السراة
 ٩٢ سوق السراة
 ٩٣ سوق السراة
 ٩٤ سوق السراة
 ٩٥ سوق السراة
 ٩٦ سوق السراة
 ٩٧ سوق السراة
 ٩٨ سوق السراة
 ٩٩ سوق السراة
 ١٠٠ سوق السراة
 ١٠١ سوق السراة
 ١٠٢ سوق السراة
 ١٠٣ سوق السراة
 ١٠٤ سوق السراة
 ١٠٥ سوق السراة
 ١٠٦ سوق السراة
 ١٠٧ سوق السراة
 ١٠٨ سوق السراة
 ١٠٩ سوق السراة
 ١١٠ سوق السراة
 ١١١ سوق السراة
 ١١٢ سوق السراة
 ١١٣ سوق السراة
 ١١٤ سوق السراة
 ١١٥ سوق السراة
 ١١٦ سوق السراة
 ١١٧ سوق السراة
 ١١٨ سوق السراة
 ١١٩ سوق السراة
 ١٢٠ سوق السراة
- أم درمان
 ١- الجامع
 ٢- المحراب
 ٣- القبة
 ٤- جامع الصالح
 ٥- جامع الخليفة
 ٦- المحكمة
 ٧- بيت الخليفة
 ٨- سكن الخريجات
 ٩- الحسوة
 ١٠- منازل سلاوية الخليفة
 ١١- منزل أبناء المهدي
 ١٢- اصطبلات الخليفة
 ١٣- منازل بيت الخليفة
 ١٤- منزل المهدي
 ١٥- منزل عائلة المهدي
 ١٦- منزل الخليفة على ورد حم
 ١٧- مساكن ملا من خليفة على ورد حم
 ١٨- منزل عائلة شيخ الدين
 ١٩- حور أم درمان - كرسي
 ٢٠- حور أم درمان - كرسي
 ٢١- منزل عائلة الخليفة
 ٢٢- منزل عائلة الخليفة
 ٢٣- منازل القفر
 ٢٤- منزل موهو
 ٢٥- منزل الأسير بقبوب القمام
 ٢٦- منزل الأسير بقبوب القمام
 ٢٧- منزل عائلة الأسير بقبوب
 ٢٨- منزل عائلة الأسير بقبوب
 ٢٩- بيت الإمامة
 ٣٠- منازل القرب الخليفة
 ٣١- السامر
 ٣٢- دور الأسير
 ٣٣- من أعلى السور
 ٣٤- من أعلى السور
 ٣٥- المسورج
 ٣٦- إسراة الخليفة
 ٣٧- حاية أم درمان السراة
 ٣٨- بيت عائلة الحارثين
 ٣٩- حي الجهادية
 ٤٠- بيت الخليفة في حي الجهادية
 ٤١- حلة الخليفة
 ٤٢- حي الخليفة في حي الجهادية
 ٤٣- بيت الخليفة في حي الجهادية
 ٤٤- حلة الخليفة
 ٤٥- حلة الخليفة
 ٤٦- حلة الخليفة
 ٤٧- حلة الخليفة
 ٤٨- حلة الخليفة
 ٤٩- حلة الخليفة
 ٥٠- حلة الخليفة
 ٥١- حلة الخليفة
 ٥٢- حلة الخليفة
 ٥٣- حلة الخليفة
 ٥٤- حلة الخليفة
 ٥٥- حلة الخليفة
 ٥٦- حلة الخليفة
 ٥٧- حلة الخليفة
 ٥٨- حلة الخليفة
 ٥٩- حلة الخليفة
 ٦٠- حلة الخليفة
 ٦١- حلة الخليفة



- ٦٢ سوق الجزائر
 ٦٣ سوق الفلف (الكلا)
 ٦٤ سوق الفزد والبليح
 ٦٥ مخازن الفزد والبليح
 ٦٦ سوق الخشب
 ٦٧ سوق قنساء
 ٦٨ سوق القادح الأوربية
 ٦٩ حي المسلة (المسانية)
 ٧٠ بيت الأرب أو هو و لمر القديم
 ٧١ المقابر
 ٧٢ بيت أحمد الشرفي ومخلة العليسة الشريف
 ٧٣ حي الكتور
 ٧٤ حي الدقاقة
 ٧٥ حي عرب بني جلال
 ٧٦ مخزن البطريرك لا عدم
 ٧٧ أحياء لمخمس عتدل
 ٧٨ قبة عائلة المهدي والأورب
 ٧٩ مصنع البارود
 ٨٠ بيت المال
 ٨١ سوق الرقيق
 ٨٢ مخازن ملازمين
 ٨٣ حي الفور
 ٨٤ حي المصريين
 ٨٥ إستراحة الخليفة باضجرة
 ٨٦ إستراحة الحسة على ود حلو باضجرة
 ٨٧ جامع المجرة
 ٨٨ حي ود البصر والحلاوين
 ٨٩ (أ) زربية أعرفة
 ٩٠ قرية توتي
 ٩١ ضاية أمقرن
 ٩٢ حقائق
 ٩٣ الكتيبة
 ٩٤ مباني معونات الادوية القديمة
 ٩٥ أبواب ومكاتب حاسة
 ٩٦ قصبة امسا
 ٩٧ مبنى المحكمة الادوية القديمة
 ٩٨ تشرابا القديمة
 ٩٩ معارك الفزد
 ١٠٠ مخازن حارس تصنع اصلاح والحجرة
 ١٠١ مبنى قسلا في الحدود القديمة
 ١٠٢ مبنى مستشفى القديم
 ١٠٣ آثار طاية بحري
 ١٠٤ مبنى مخازن الكسحة الصغيرة والحدادة
 ١٠٥ معارك حجرة جديدة
 ١٠٦ مصانع القزوف
 ١٠٧ ساحة الصلاة
 ١٠٨ مبنى قصبة فرنسا
 ١٠٩ مبنى قصبة امسا
 ١١٠ منازل الأهالي
 ١١١ باب المسلمية
 ١١٢ آثار طاية الكلاكله
 ١١٣ تشرابا الشرقية
 ١١٤ آثار الطاية الشمالية
 ١١٥ حلة خوجلي
 ١١٦ إستراحة الخليفة بهجرة الشرق
 ١١٧ بيري
 ١١٨ الكلاكله
 ١١٩ شجرة ماضي بيت
 ١٢٠ الحفافية
 ام درمان
 الجامع
 المحراب
 القبة
 جامع الصفيح
 جناح الخليفة
 المحكمة
 بيت الخليفة
 سكن الحريمات
 الخسوة
 ١٠ منازل ملازمة الخليفة
 ١١ منزل أبناء المهدي
 ١٢ استطلاات الخليفة
 ١٣ مخازن بيت الخليفة
 ١٤ منزل المهدي
 ١٥ منزل عائلة المهدي
 ١٦ منزل الخليفة على ود حلو
 ١٧ مساكن ملازمين الخليفة على ود حلو
 ١٨ منزل عثمان شيخ الدين
 ١٩ سور ام درمان الرئيسي
 ٢٠ سور ام درمان اعلى
 ٢١ منزل أقارب الخليفة
 ٢٢ منزل سلاطين
 ٢٣ منازل القضاة
 ٢٤ منزل دودو
 ٢٥ منزل الأمير يعقوب القديم
 ٢٦ منزل الأمير يعقوب الجديد
 ٢٧ منازل كتبة الأمير يعقوب
 ٢٨ منزل سلاطين اعلى
 ٢٩ بيت الأمانة
 ٣٠ أ مخازن الرايات والسلاح
 ٣١ منزل أقارب الخليفة
 ٣٢ الصاير
 ٣٣ ورش المصحة
 ٣٤ حي أهالي الحروب
 ٣٥ حي البرقوس والحدادة
 ٣٦ المشروح
 ٣٧ إستراحة الفلسفة
 ٣٨ طاية ام درمان القديمة
 ٣٩ بيت قنذ الحديدة
 ٤٠ حي الجهادية
 ٤١ بيت الخليفة في ديم ورس
 ٤٢ حلة الفتيحاب
 ٤٣ حي البرقوس والحلافة
 ٤٤ بيت شور علقوه
 ٤٥ حي الحمر
 ٤٦ حي الكباشي والحدادة
 ٤٧ حي الحمر
 ٤٨ حي الهبانية
 ٤٩ حي ترزيقات
 ٥٠ حي الكشانية
 ٥١ بيت عبد الله ود أحمد
 ٥٢ حي دغم
 ٥٣ حي قبائل سبيل الأبيض
 ٥٤ حي الجميلين
 ٥٥ سوق التجار
 ٥٦ محكمة السوق
 ٥٧ المشايخ
 ٥٨ سوق المنع
 ٥٩ سوق القماش
 ٦٠ سوق الحلاقين
 ٦١ سوق الخياطين
 ٦٢ سوق الخسار

عمليات الم خريطة

م



- ٦٢ سوق الخزازين
٦٣ سوق الصفا (الكلا)
٦٤ سوق القرد والبيع
٦٥ مخزن القرد والبيع
٦٦ سوق تخطيط
٦٧ سوق النساء
٦٨ سوق قنطرة البازيد
٦٩ حي النخلة (المصنعة)
٧٠ بيت الربيع الموهوب والبريد
٧١ مخزن
٧٢ بيت احمد بن يحيى وعائلة الخليلي حريف

- ٧٣ حي التكون
٧٤ حي الدمامة
٧٥ حي عرب بن جابر
٧٦ مخزن مسطرين لا عدم
٧٧ أحياء لمخلف حائل
٧٨ قبة عائلة المهدي والفرج
٧٩ مصنع البارود
٨٠ بيت العبد
٨١ سوق الرقبة
٨٢ مخزن الملازمين
٨٣ حي القود
٨٤ حي المصريين
٨٥ ستراحة الخليفة بالبحر
٨٦ ستراحة حسنة على ود حلو بالبحر
٨٧ جامع الحجر
٨٨ حي ود الصخر والحلاويين
٨٩ زريبة العرصة (أ)

٢- توتي

- ٨٩ مخزن البارود
٩٠ قرية توتي
٩١ - الخرطوم
٩٢ طاية القرون
٩٣ حداث
٩٤ الكنيسة
٩٥ مبانى مخزن الأدوية القديمة
٩٦ أبوته ومكبس قامة
٩٧ قصبة نسما
٩٨ مبنى المحكمة لدية القديمة

ام درمان

١- الجامع

٢- المدرج

٣- القبة

٤- جامع الصالح

٥- جناح الخليفة

٦- المعككة

٧- بيت الخليفة

٨- سكن الخريجات

٩- الخسوة

١٠- منازل ملازمة الخليفة

١١- منزل ابنه المهدي

١٢- مستشفيات الخيفة

١٣- مخزن بيت الخليفة

١٤- منزل المهدي

١٥- منزل عائلة المهدي

١٦- منزل الخليفة على ود حلو

١٧- مساكن ملازمين الخليفة على ود حلو

١٨- منزل عثمان شيخ الدين

١٩- سور ام درمان برنسي

٢٠- سور ام درمان الغني

٢١- منزل أقارب الخليفة

٢٢- منزل سلاطين

٢٣- منازل القضاة

٢٤- منزلي دودو

٢٥- منازل الأمير يعقوب القديم

٢٦- منزل الأمير يعقوب الجديد

٢٧- منزل كتيبة الأمير يعقوب

٢٨- منزل سلاطين القديم

٢٩- بيت الأمانة

٣٠- مخزن الرائدات والجنود

٣١- منازل أقارب الخليفة

٣٢- السائر

٣٣- ورش الأمينة

جبهة الشرق في قمر

طول
الصبر
وعاء
داخل
التحار

أقر
يلد
البار
بور
ور
شلى
كيت
٦٠٠
مقاتل

أم
د
رمان

المسوق

بطارية الهاوتزر

الاضراسان

الامير عيسى

الشرق

محدثايت امد فح
٨٠٠
مقاتل

الشيخ فريح
٨٢٠
مقاتل

غالب فح
١٠٠
مقاتل

٨٢٠
مقاتل

حيه
واليا
ج
الان
الام
ملا
التي
مد
بيد
١٠

طوله
العصب
وعاد
داخلا
التح

أقر
يارد
البار
كتيم
القطر

711
D.L.O.



10

جاءه وبنا ج- الا الا ملا ملا من في ا

مقاتل
الفرسان

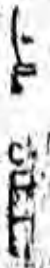
بطارية الهاوتزر =



عدد الدانات ٥٠ التي اطلقت في سبتمبر = ٧٠ دانتي
عدد الدانات التي اطلقت في ٢ سبتمبر ٣٣٧ دانتي

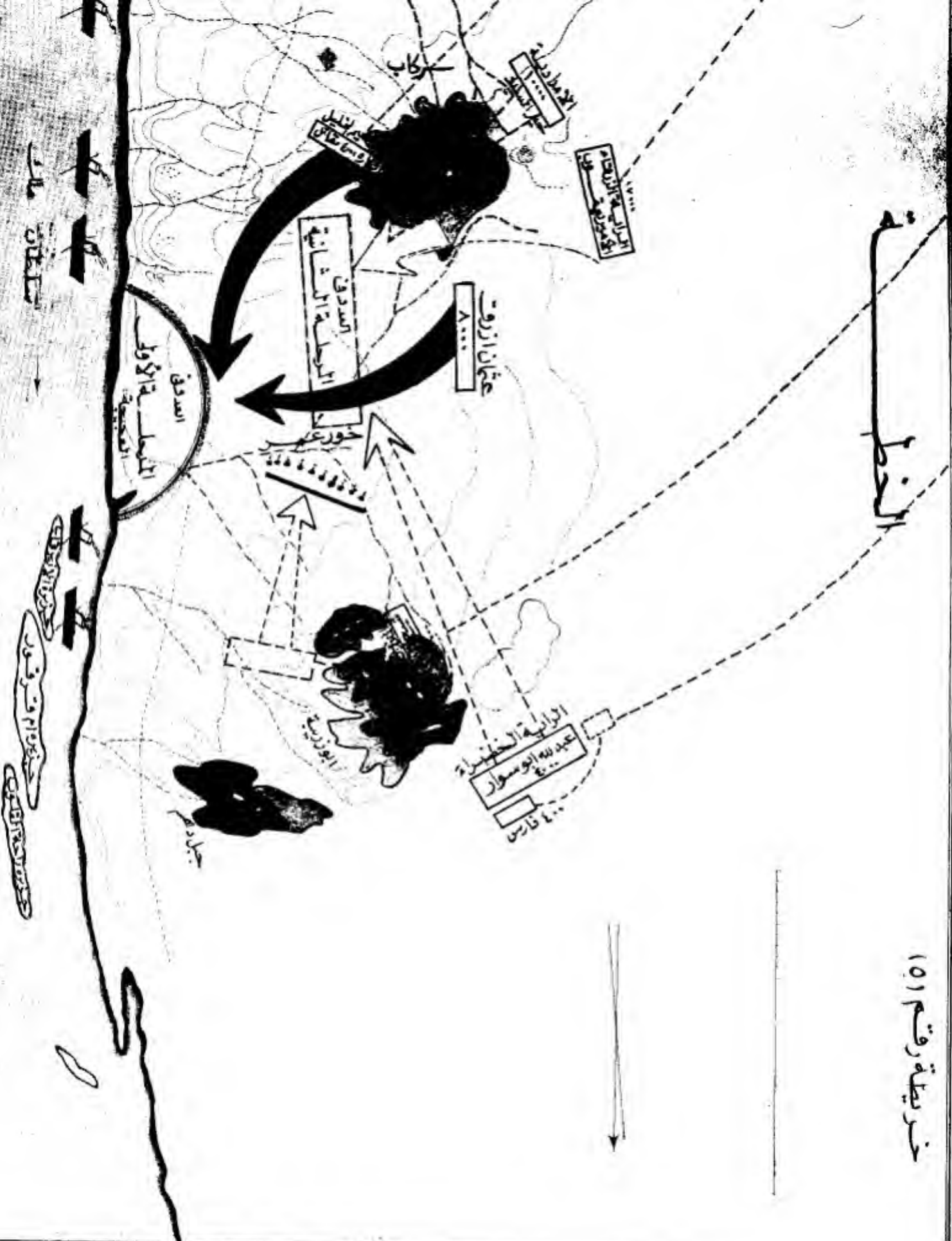
عدد الدانات ^{رطل} التي اطلقت في سبتمبر = ٧٠ دانة
عدد الدانات التي اطلقت في ٢ سبتمبر ٣٣٧ دانة







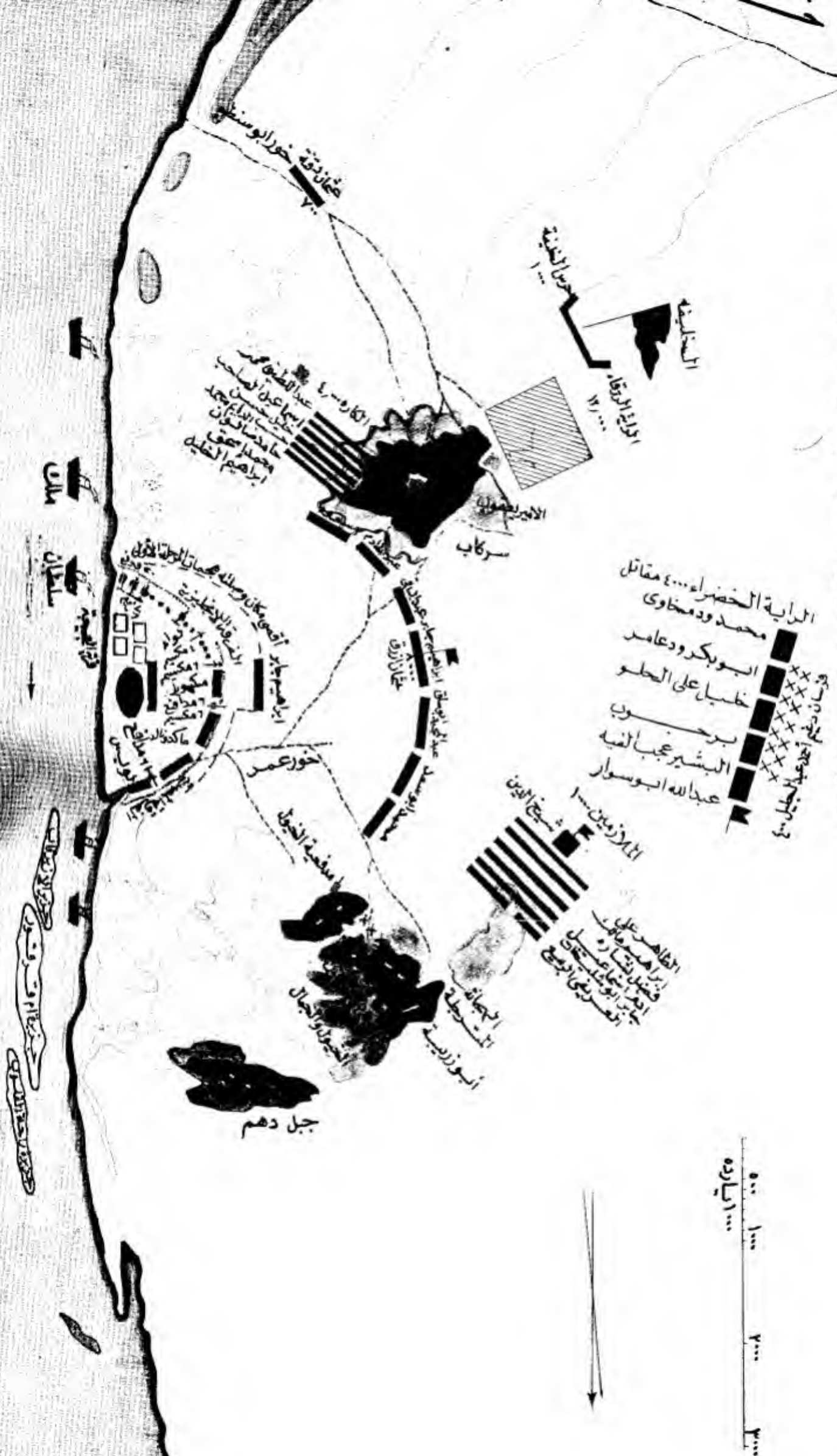
الخط



المرحلة الأولى سبعة 70 خريطة رقم 1



المرحلة الأولى سنة ١٩٥٠ خريطة رقم ١



المرحلة الاولى سبعة ٦٥ خريطة رقم ١

ورشمات

المنطقة

المنطقة

المنطقة

سركاب

- الدابة الخضراء... مقاتل
- محمد ود مخاوي
- ابوبكر ود عامر
- خليل علي الخطو
- برج حبوب
- البشير عجب الفيه
- عبدالله ابوسوار

الملازمين

شيخ الدين

الظاهر علي
ابراهيم بن علي
ابراهيم بن علي
ابراهيم بن علي

المنطقة

خزانة

خزانة

خزانة

خزانة

خزانة

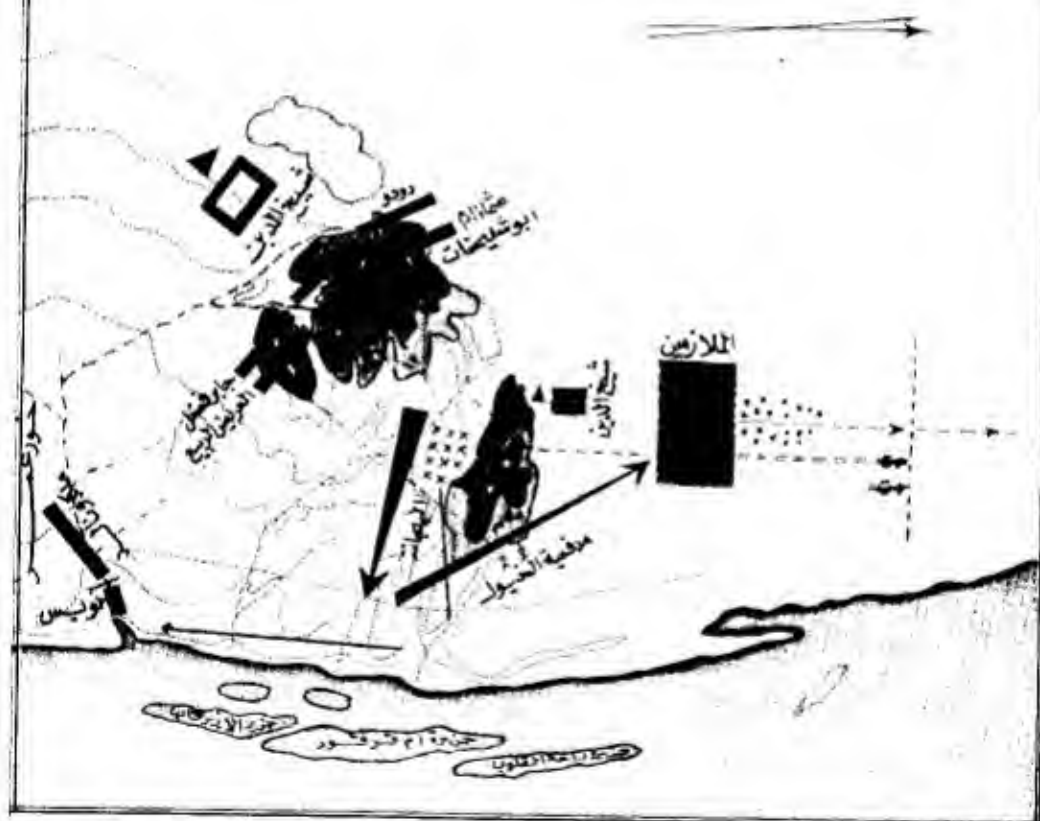
خزانة

خزانة

جل دهم

٥٠٠
١٠٠٠
١٥٠٠
٢٠٠٠
٢٥٠٠
٣٠٠٠
٣٥٠٠
٤٠٠٠
٤٥٠٠
٥٠٠٠
٥٥٠٠
٦٠٠٠
٦٥٠٠
٧٠٠٠
٧٥٠٠
٨٠٠٠
٨٥٠٠
٩٠٠٠
٩٥٠٠
١٠٠٠٠

المرحلة الاولى سعة ٧٠٥ خريطة رقم ٤



الصيدام سعة ٩٠٠ خريطة رقم ٩



فرسان الرماحة القرمطية سعة ٩١٠

طريق انصار الرماحة نحو المدينتين والحدود

المتبول

الصباح ٩٠٠
خريطة رقم ٩

4/10/40

طريق العودة للبيئة النظيفة

الخليفة

ربيع الثماني ودرهما عنان دقة سنة ٩٠٠

المحادثات

السيرة النبوية

律

البرية الثالثة:

11

۸۰۰

فرسان الرماحة التمهيلية سعة ٩١٥

طريق انساب الرماة في حوزة دارالعلوم

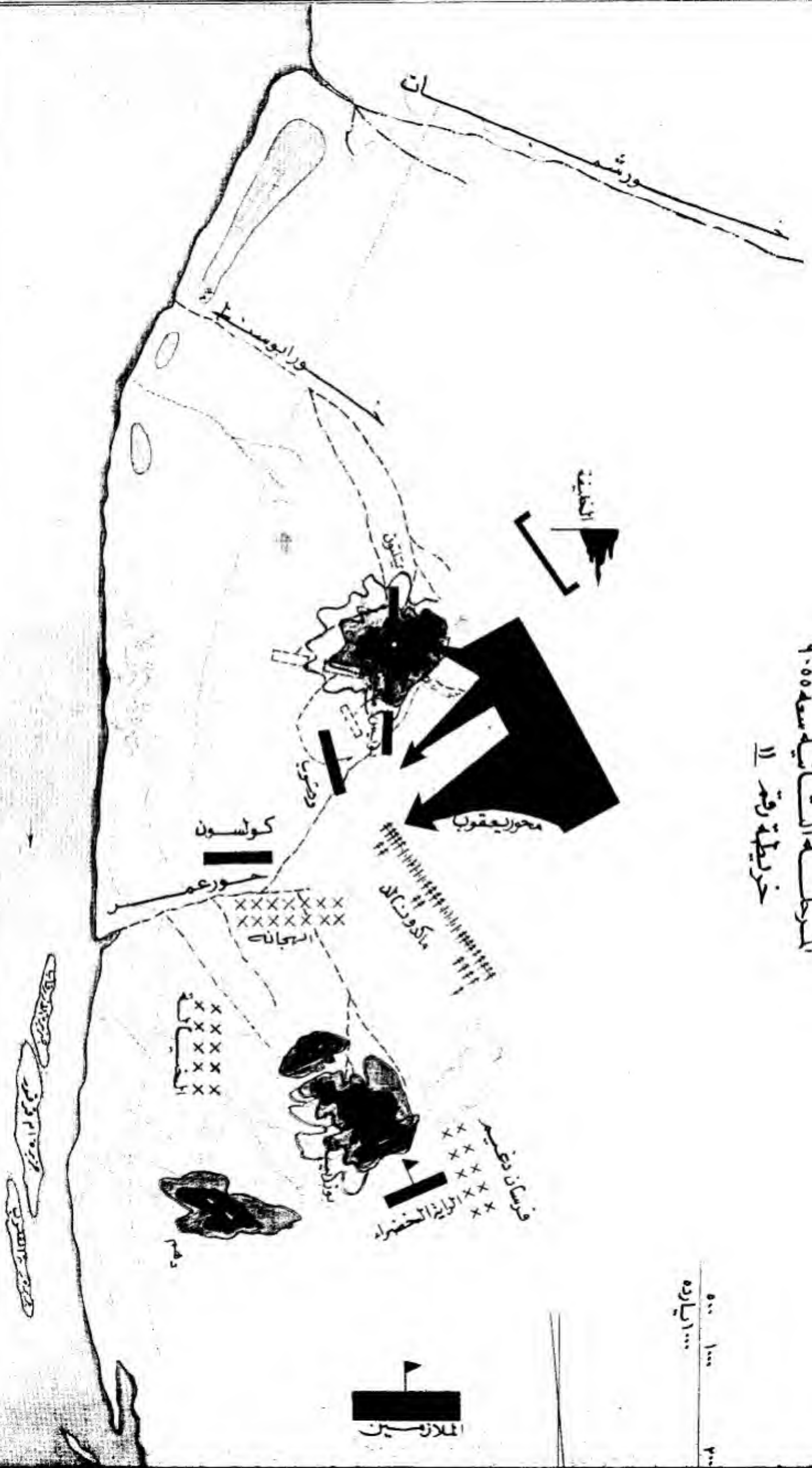
الخبير

المرحلة الثانية مسعة ٩٠٥٥ خريطة رقم ١١



٥٠٠ ١٠٠٠ ٢٠٠٠
١٠٠٠٠

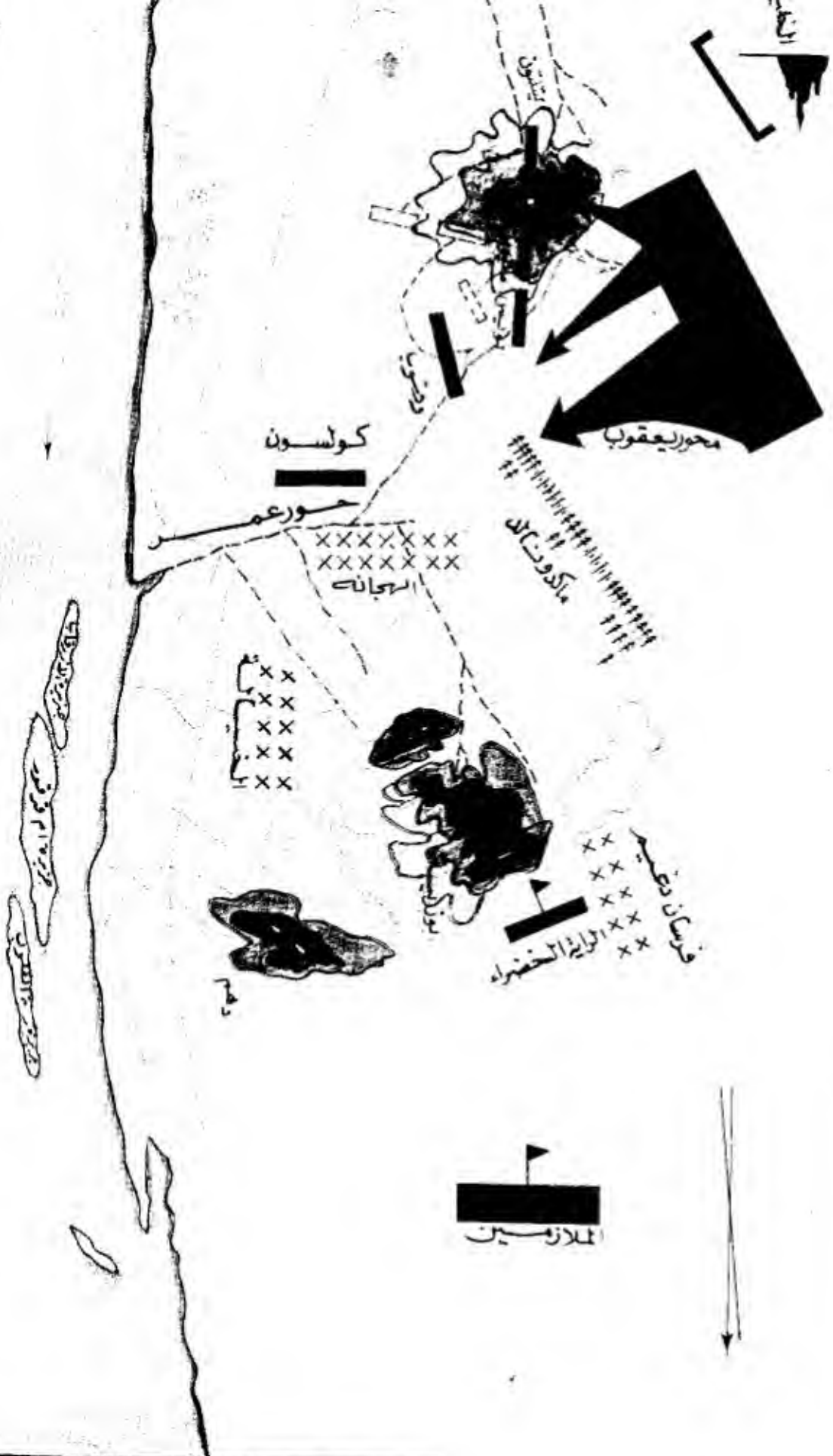
المرحلة الثانية سنة ٩٠٥٥
خريطة رقم ١١



المرحلة الثانية سنة ١٠٥٥ هـ خريطة رقم ١١

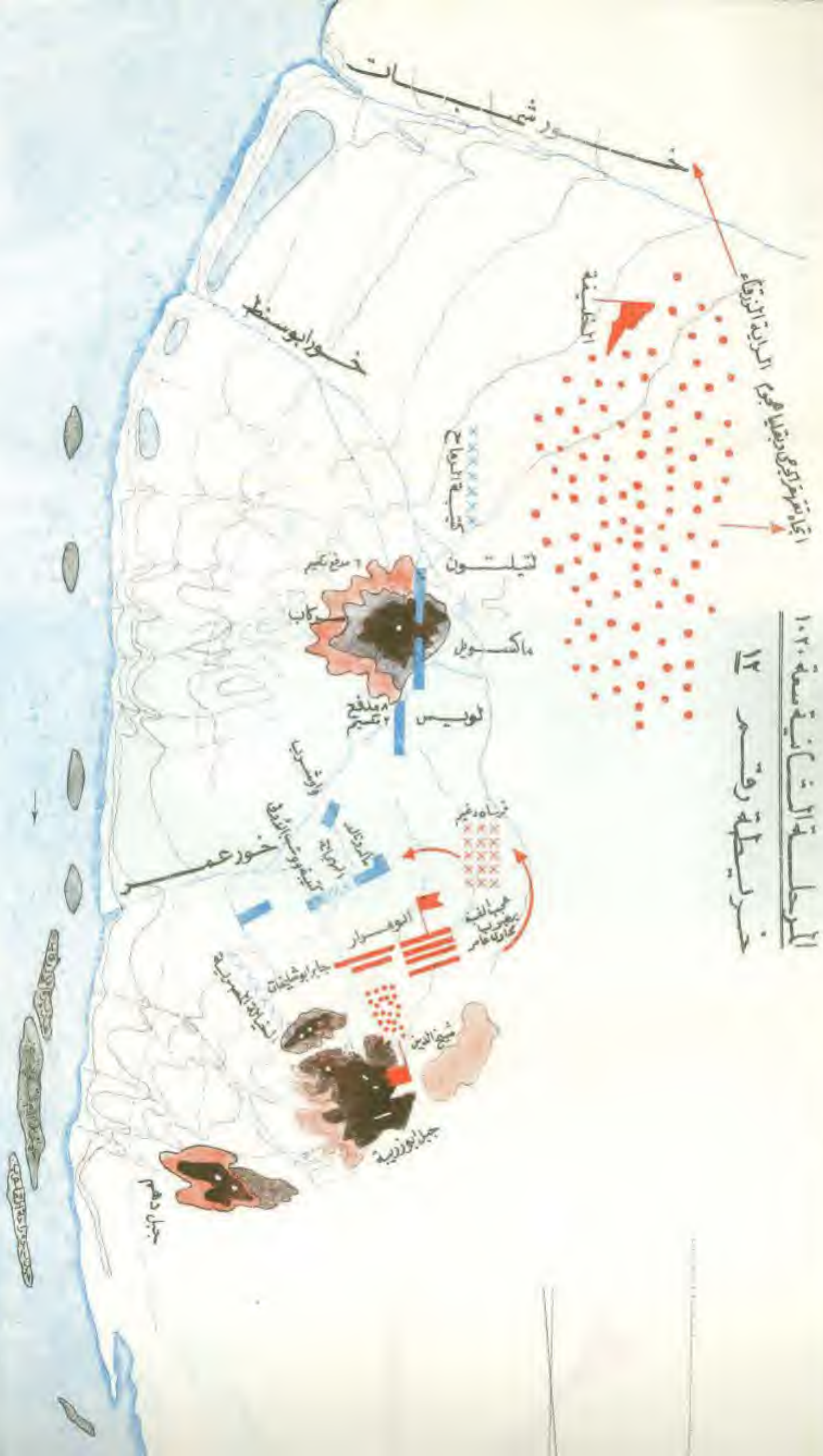


المرحلة الثانية سنة ١٠٥٥ خريطة رقم ١١



٥ ١٠ ١٥ ٢٠
أبصاره

المرحلة الثانية سنة ١٠٢٠ خريطة رقم ١٢



1



اتجاه تدمير

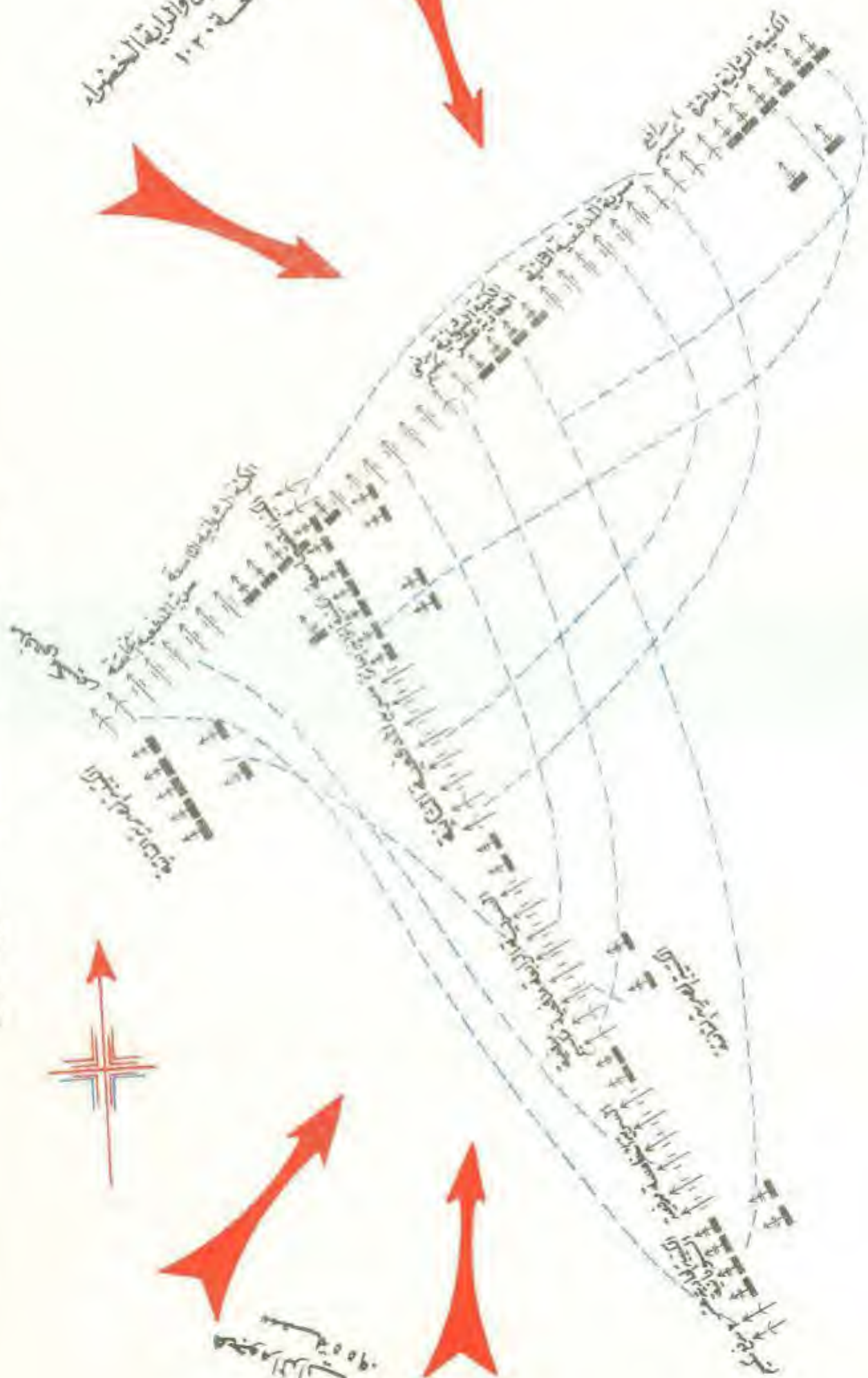
المرحلة الثانية سنة ١٩٢٠ خريطة روفر ١٢



مجموع الملازمين والراية الخضراء
سنة ١٠٢٠



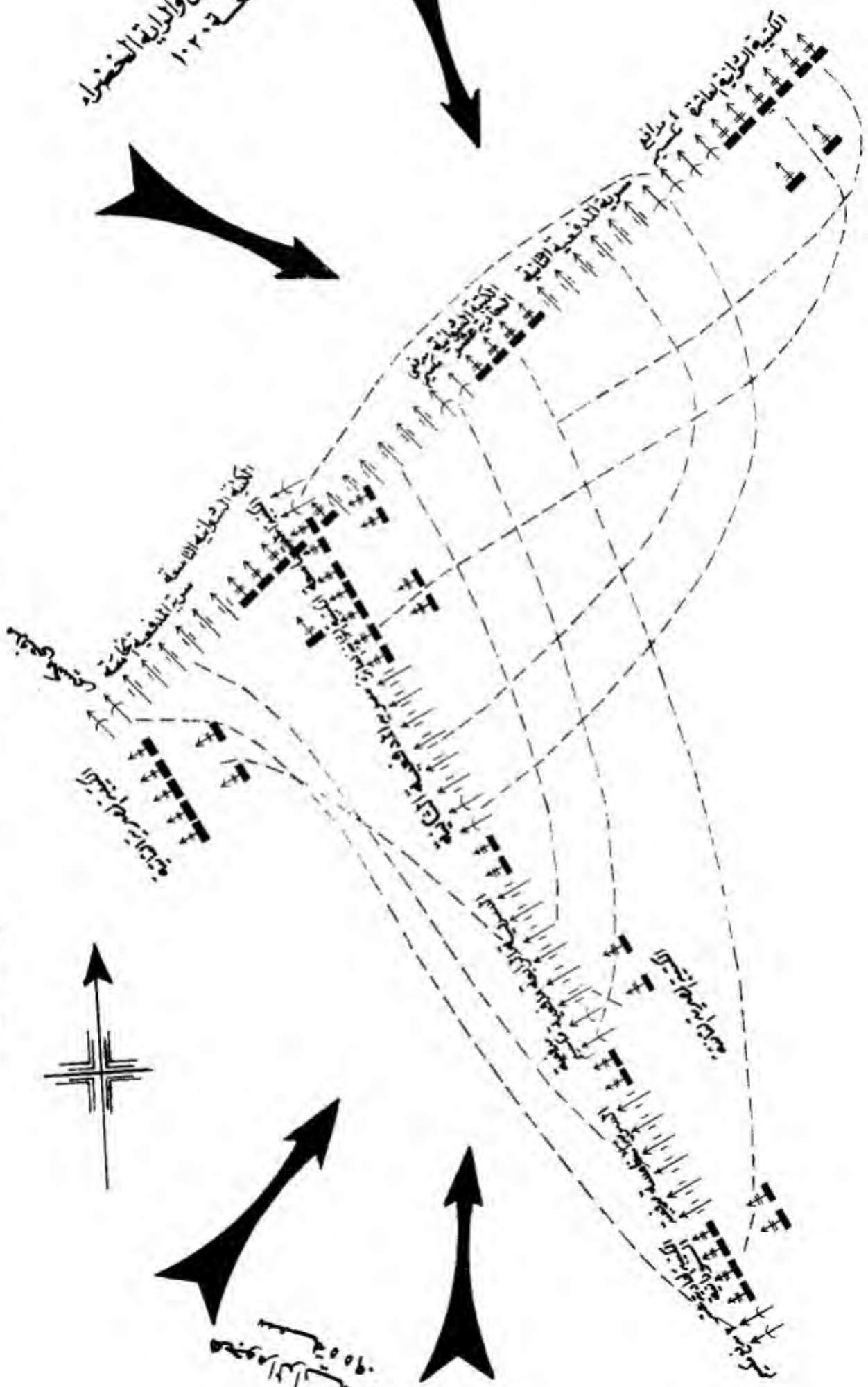
مجموع الملازمين والراية
سنة ١٠٥٥



هجوم الملازمين والريادة الخضراء
سعة ١٠٢٠



هجوم الملازمين والريادة الخضراء
سعة ٩٥٥٠

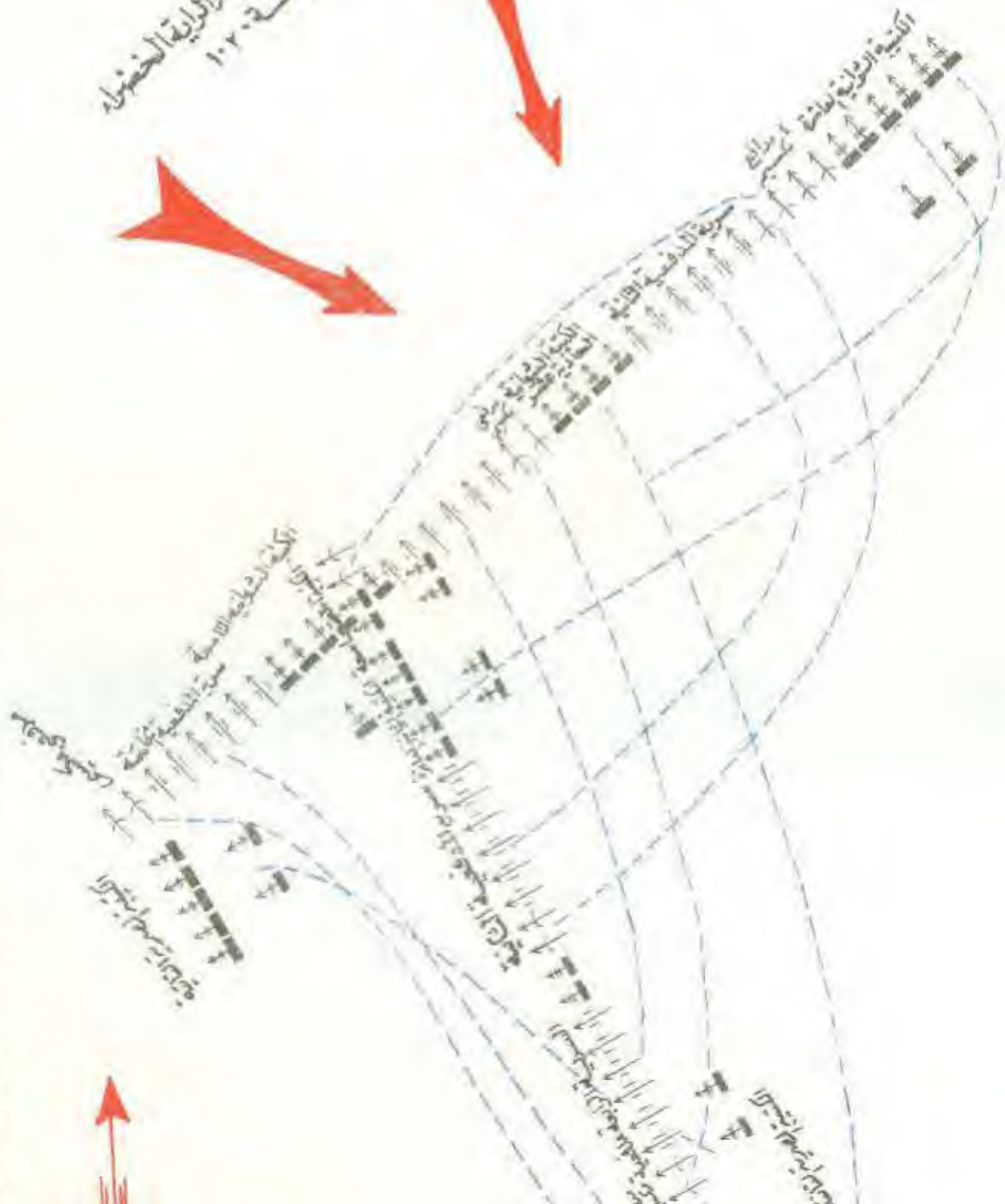


مناورة مالك و نالد
خريطة رقم ١٣

هجوم الملازمين والدالية الخضراء
سنة ١٠٢٠



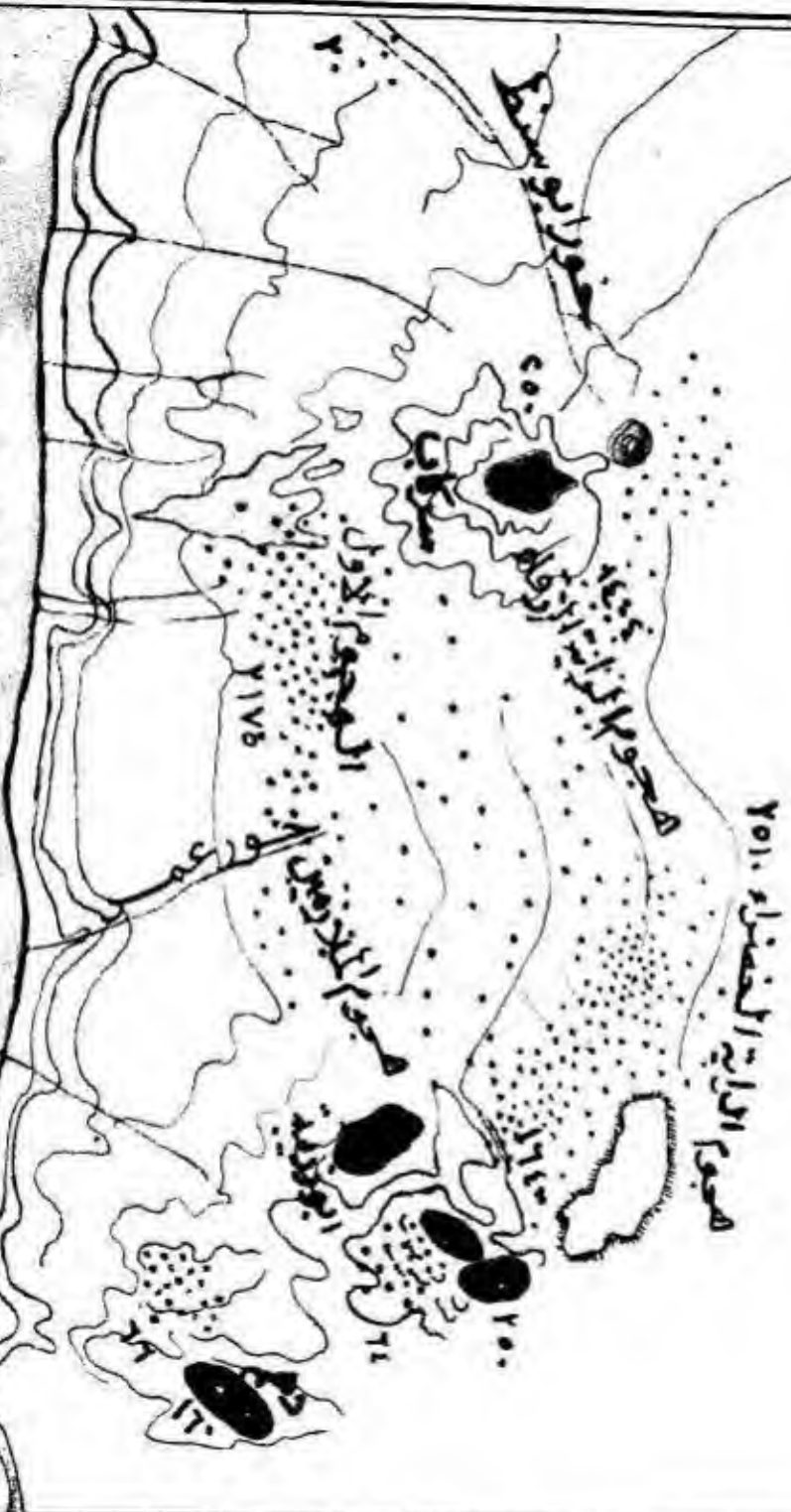
مناورة مالك ورفاقه
خريطة رقم ١٤



الشمس خريطة رقم ١٢

[illegible]

الشمس خريطة رقم ١٢



المؤرخون العرب على الخريطة هي عدد الجماعات من تعداد جيش الخليفة في مسرح المركة ، كما أحصاها الكاتبين يوجيز بعد خمسة أشهر من المركة . والجميع حرك ٨٠٠٠ هـ جمعة بوضع أن تقدير النيل بمسيرة ألف ، تقدير قريب للمقومة . فمثلا نفيت أعداد الجماعات نسبة ٧٢٥ هي عبارة عن جيش من دفنوا أو أعيدوا يلقوا فيها ، كما لوحظ ذلك ، نجد أن العدد الكلي يقترب من عشرة ألف قبيلة .



حدود الدليم

تل المصمعة



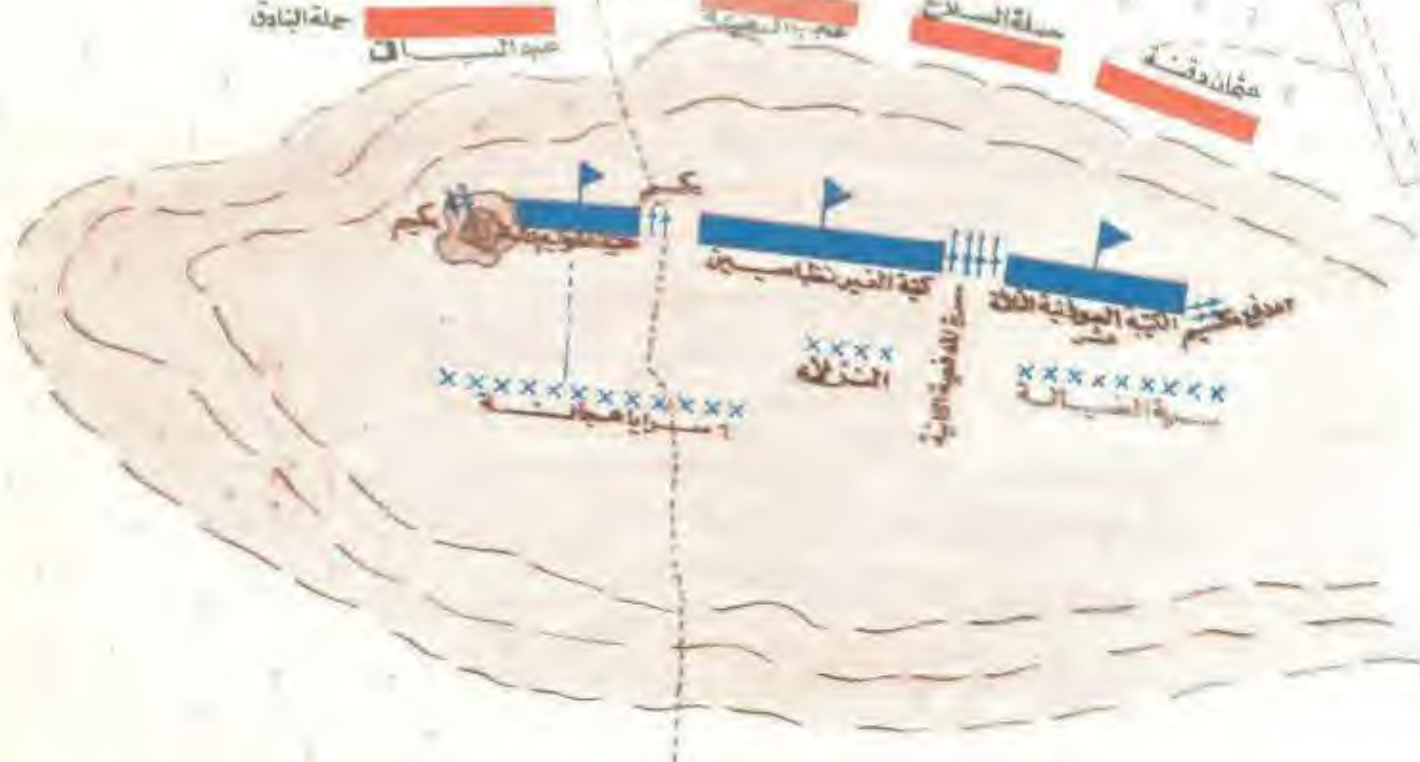
جولة البنادق
عميد السبات

احمد قيس

الامير شمس الدين
عبد الوهاب المصمعي

جولة السلاح

مقابلة قسنة



عسكر

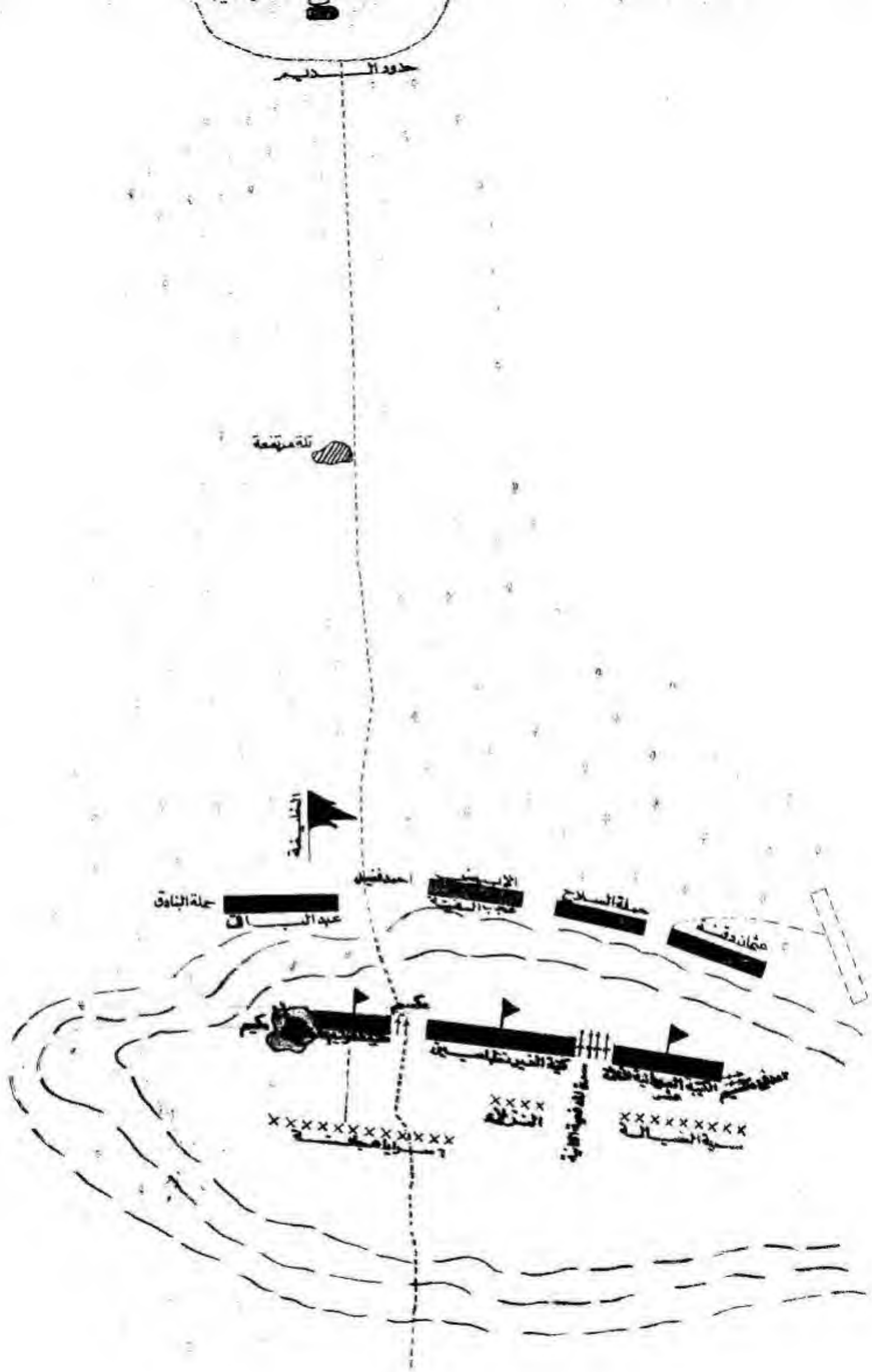
كتيبة النيران

الكتيبة المعوية

سيرة النيران

النزلة

سيرة الضيالة



موقعة ام دبيكرات

ام دبيكرات
مسكن الخليفة

حدود الدليم

الخميلة

الخليفة

حملة النابوق

عبد السباق

احمد بن

الامير

عبد الحميد

حملة السلاح

عثمان وقنة

موقعة ام دبيكرات



تلة ميمعة



جولة النادق

عبد المطلب

احمد فهد

الابن

جولة السلاح

عبد المطلب

ar